قراءة في فكر الإمام
الأستاذ الدكتور علي جمعة
وجهوده في خدمة القرآن الكريم
وعلومه

7 شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
جمهورية مصر العربية
ت: 01004093521 (202+)
01147208173 (202+)

الطبعة الأولى
1441هـ - 2020م
رقم الإيداع: 2893 /2020
الترقيم الدولي .I.S.B.N
978-977-6802-04-9

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

قراءة في فكر الإمام الأستاذ الدكتور علي جمعة وجهوده في خدمة القرآن الكريم وعلومه
مجموعة باحثين . إشراف : أشرف سعد.
تقديم الأستاذ الدكتور علي جمعة
ط1 -القاهرة: الوابل الصيب للنشر والتوزيع، 2020.
تدمك : 978-977-6802-04-9
1- القرآن الكريم وعلومه.
2 -الأستاذ الدكتور علي جمعة.
3- أصول التفسير للقرآن الكريم.

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا .... أمانة في أعناقنا

قراءة في فكر الإمام
الأستاذ الدكتور علي جمعة
وجهوده في خدمة القرآن الكريم وعلومه

تأليف

مجموعة باحثين

بإشراف

الشيخ أشرف سعد

تقديم

أ.د علي جمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد، فإن الاشتغال بكتاب الله تعالى تلاوة وفهما وتدبرًا وتبليغًا للعالمين، من أجلِّ الطاعات، وأعظم القربات، ومن أهم أسباب السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، فالقرآنُ الكريمُ كتاب الله الخاتم، وكلمته الأخيرة، التي أنزلها على قلب نبيه ﷺ نورًا وهداية ورحمة للعالمين.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء :9] **وقال تعالى**:﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [الزمر: 27].

وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَلاَ إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ. فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

ولقد أنزل اللهُ سبحانه وتعالى القرآنَ الكريم رسالتَه الأخيرة لأهل الأرض بلسان عربي مبين، أدهش معه أهلَ اللسان العربي وأعجزهم أن يأتوا بمثل آية منه، وقد كان فيهم

الفصحاءُ والبلغاءُ، فقد كانوا فرسانَ البلاغة، وأرباب البيان، وبلغ من قوة بلاغتهم أنهم كانوا يرتجلون أبدع قصائد الشعر ارتجالا، ومع كل ذلك وقفوا عاجزين أمام بلاغة القرآن الكريم ونظمه.

ولأن القرآن الكريم هو كتاب الهداية الإلهية للناس أجمعين، وجب علينا أن نبحث عن مفاتيح فهمه وتدبره، وأن ننقل تعاليمه وهداياته إلى البشرية نقلا لافتًا بالبيان عن أوجه إعجازه المتعددة، ونحن نسعى إلى هذه الغاية علينا أن نقرأ ونتدبر كتاب الله المسطور وهو القرآن الكريم، مع كاتب الله المنظور وهو هذا الكون الفسيح الذي فتح الله آفاقه للعالمين، وأباح للإنسان الكشف عن كثير من غوامضه ومكنون أسراره كما قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: 53]. ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[ص:29]

ولقد قام مجموعة من أبنائنا الباحثين بجمع هذه المباحث من كلامنا في فهم كتاب الله العزيز وتفسيره، وشرح مباحث العلم وموضوعاته والتعريف بأصوله، وإعادة ترتيب المسائل بضم الشبيه إلى شبيهه، مما ذكرناه في أحاديثنا أو كتبناه في كتبنا في مواضع شتى، وقاموا بجمعه في سفر واحد على هذا النسق حتى يكون ذخيرة تفتح آفاقا جديدة للباحثين والدراسين في علوم القرآن الكريم.

وفيه مباحث تحمل رؤيتنا واجتهادنا في قضايا مثل:«النسخ»و«المحكم والمتشابه»و«الجمع بين القرءاتين»و« أسباب النزول وأثرها في فهم النص القرآني»و« اللغة العربية وأثرها في فهم النص القرآني»و«إطلاقية القرآن الكريم وآثارها» و«المقاصد الشرعية، وأثرها في الفهم» وغيرها من المباحث المهمة التي ستجدها في ثنايا هذا الكتاب، والذي أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به القراء وطلبة العلم والباحثين والدراسين، وأن يتقبله منا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة الله تعالى للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لا شيء من الخير بعد نعمة الإسلام يعدل أن يهديك الله إلى طريق المربي الفاضل والمرشد الكامل، والعالم العامل، والمجتهد المطلق، ولا شيء أوجب على طالب العلم، ولا شيء أنفع له في دنياه وعقباه من السير على نهج شيخه، واتباع خُطا سيره، والاهتداء بلوامع فكره، وخدمة علومه وتقريبها للباحثين والدارسين وطلاب العلم والسالكين طريق الله تعالى بحق وصدق ويقين.

ولا شك أنَّ مولانا الوالد الإمام العلامة شيخ الإسلام نور الدين علي جمعة رضي الله عنه، علامة فارقة في تاريخ الإسلام والأزهر الشريف، وعلامة فارقة في علوم المعقول والمنقول، وعلامة فارقة أيضًا في تاريخ مصر والعالم الإسلامي بصفة عامة، ولا شك أن جهوده التجديدية المشهودة في المجالات العلمية والدعوية والتربوية أكبر من أن تحيط بها قدرة إنسان إلا إذا كان من أهل التوفيق والمدد الإلهي، وما من مرة نظرت إليه أو أجلت خاطري في جنابه رضي الله عنه وأعملت عقلي في نهجه وفكره، وما أجراه الله على يديه من الخير والفضل لهذه الأمة عامة ولطلاب العلم خاصة، إلا وتذكرت قول الله تعالى: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ**﴾ [مريم : 19] والعلماء ورثة الأنبياء، فمن أخذ من هذا الميراث فقد أخذ بحظ وافر، كما جاء في حديث أبي داود وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

ومولانا الإمام العلامة واسع العطاء غزير الإنتاج، عالي الهمة، وقبل ذلك فهو مخلص القلب لله تعالى، شديد الحب لرسوله صلى الله عليه وسلم وآل بيته الكرام، بالغ الوفاء لمشايخه

الذين غرسوا في نفسه الكريمة أرقى معاني الفضيلة، وفي روحه أجمل القيم النبيلة، بالإضافة إلى ما جبله الله عليه من السمو والرفعة، والحكمة والعلم، والفضل ومكارم الأخلاق المحمدية العالية، فحق على كل منصف أن يردد فيه قول الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار ثعلب النحوي:

أوصيكمو أن تكتبوا أنفاسه * إن كانت الأنفاس مما يكتب.**

وقد تنوع عطاء مولانا الإمام العلامة ما بين تصنيف وتدريس ومقالات صحفية أو الكترونية، وبرامج ولقاءات متلفزة مرئية، وأحاديث إذاعية، ومناقشات خاصة بين أبنائه وطلابه.

ولقد جال في خاطري منذ سنوات أن أجمع لنفسي ما تفرق من ذلك في الفن الواحد، وأن أستخرج ما دخل منه في خبايا الزوايا، وأن أضم النظير إلى النظير والشبيه إلى الشبيه حتى ينتظم في وحدة موضوعية واحدة تمثل – على قدر جهدي وطاقتي – رؤية مولانا في هذا العلم المخصوص تفسيرا كان أو حديثًا أو فقهًا أو توحيدًا أو تصوفًا أو قضايا اجتماعية أو دعوية إلى غير ذلك؛ بغية النظر فيه والانتفاع به في التدريس للطلاب، فمن المعروف المشهور أن سعة اطلاع فضيلته وإحاطته بعلوم المعقول والمنقول وإدراكه المخصوص وفهمه العميق للواقع الذي نحياه ، وقدرته على الربط بين ذلك كله، وتمكنه العميق من أدوات الاجتهاد وقيامه بوظائفه على الوجه الأكمل والأسلوب الأتم، قد مكنه من الإبداع والابتكار والتجديد حتى بدا ذلك واضحًا في برامجه التي توجه إلى عامة الناس، فعلى الرغم من طريقته المعهودة البارعة في توصيل القضايا الكبرى والمفاهيم الدقيقة بطريقة بسيطة سهلة تيسر فهم كبريات الأمور لعموم الناس، إلا أن ذلك التبسيط لم يخلّ أبدًا في أي موضع ولا قضية لا بعمق الفكرة، ولا بدقة التفاصيل، ولا بجدية الطرح، ولا بقوة المعنى، بحيث يدرك الباحث

تماما أن ما يقال هنا ليس إلا علمًا عميقًا وفهما دقيقًا، وإن أُلقي على المسامع والأفهام بعبارة سهلة ولغة جزلة يفهمها العالم والعامي على السواء.

وكأني أنظر إلى الإمام العلامة فأراه يغرف من نور قلبه، ومن فيض عقله، ومن جمال أسلوبه، ومن قدرته البالغة على التعبير والتوصيل بأدق وأيسر وأقصر العبارات؛ فيمزج من ذلك كله ما يتذوقه السامع والمشاهد؛ حتى إنه ليتعجب من نفسه كيف فهم كلام الإمام العلامة وهو – أي السامع – ليس من أهل التخصص ولا الدراسة، وهذا الأمر والحق يقال موهبة ربانية تميز بها مولانا الإمام ولم تبرز – على حد علمي– في أحد من العلماء بعد رحيل الإمام محمد متولي الشعرواي رضي الله عنه إلا في شيخنا الإمام العلامة فضلا من الله ونعمة، ولقد استخرجت – بمعاونة مجموعة من خيرة الباحثين من أبناء مدرسة مولانا الإمام العلامة ومريديه المحبين – كثيرًا من القضايا العلمية الهامة من هذه البرامج المتلفزة خاصة برنامج (والله أعلم) فضلا عما في الكتب المصنفة أو المقالات العلمية أوالإفادات الخاصة.

وأعدنا ترتيبها على العلوم المختلفة مثل علوم القرآن والتفسير، أو علوم الحديث والسنة المطهرة، أو علوم الفقه والأصول ، أو علوم التصوف، أو علوم الفكر والواقع بصفة عامة، ثم استحسنت فكرة النشر العام لتعم الفائدة ويزداد النفع، والكلام كلام مولانا الإمام والأفكار أفكاره رضي الله عنه، وليس لنا إلا الجمع والترتيب فقط، وغرضنا من ذلك زيادة إظهار هذا المنهج الفريد في الفهم والتفكير، العميق في التصور والطرح، وتقديمه لجماهير الأمة الإسلامية ولطلاب العلم والباحثين والدارسين في المشارق والمغارب زادًا ميسرًا سهلا للاستفادة منه.

وقد قمنا بتوثيق آراء وأفكار مولانا الإمام العلامة من كتب التراث إن لم تكن محل تفرد واجتهاد خاص من فضيلته، وأما ما كان مبتكرا جديدًا فقد ذكرناه معزوا إلى مصدره ، فكل ما في هذا الكتاب هو من علوم مولانا الإمام رضي الله عنه، وقد قمنا بجعل كل موضوع من

هذه الموضوعات في مبحث مستقل، وقمنا بتخريج الأحاديث والعزو إلى المصادر إلى غير ذلك من الأمور التي تيسر على الطالب والدارس استخراج المادة العلمية والاستفادة منها، وبعد فدونك أخي الكريم درر مجموعة قد نظمت في سلك واحد من أقوال وأفكار وإفادات مولانا الإمام العلامة شيخنا ووالدنا ومربينا الإمام العلامة الدكتور علي جمعة في التفسير وعلوم القرآن، وفيها أفكار تجديدية ومباحث دقيقة لم يسبق فضيلته إليها.

ويليه إن شاء الله القسم الثاني من هذا المشروع وهو في علوم الحديث والسنة المطهرة، وهو أيضًا كذلك فيه أفكار ومباحث مبتكرة لم يسبق إليها فضيلته، وإننا إذ نقدم هذا الجهد نتقدم بخالص الشكر لمولانا الإمام العلامة على موافقته على خطة هذا المشروع ومتابعته له على كثرة ما يعاني من انشغالات والتزامات تنوء بها الجبال الراسيات، وكل ذلك في سبيل دينه ووطنه وأمته، اللهم احفظ شيخنا ومربينا مولانا الإمام العلامة وبارك في جهوده وعافيته وعمره.

والمراد من هذه المباحث أن نقرب للباحثين والدراسين منهج فضيلة الإمام العلامة ففيه أفكار مبتكرة ومباحث دقيقة فريدة لم يسبق إليها، وفيها مفاتيح أبحاث ودراسات تصلح أن تكون زادًا للباحثين والدارسين، ومدخلًا لتجديد الخطاب الديني، وطريقًا ومنهجًا لكل مسلم لقراءة وفهم كتاب الله عز وجل القراءة الصحيحة، وتيسير كشف معانيه، والاهتداء إلى المراد الإلهي من هذا الخطاب الرباني، وذلك عن طريق استحضار معاني هذه المباحث ومحتوياتها، وما ترشد إليه حين قراءته للقرآن الكريم.

فعلى سبيل المثال ومن خلال ما قرره مولانا الإمام العلامة، عندما نتناولُ مبحثَ حفظ القرآن وتوثيقه من الناحية النقلية والعقلية، ونتعرف على طرق وصول هذا النص المقدس إلينا، وما قدره الله تعالى من وسائلَ حفظه وتبليغه، ونستخلص النتائجَ الواردة في هذا المبحث ونفهمها

ونستوعبها؛ فنتيجة لذلك تستقر في الذهن حقيقة أننا أمام النص القرآني المقدس الذي أنزل على النبي ﷺ بدون زيادة أو نقصان، ويحدث لنا اليقينُ التام الذي لا معارض له أن ما نتلوه الآن من كتاب الله هو ما نزل على رسول الله ﷺ وقام بتلاوته على الصحابة الكرام، فتنتفي أيُّ شبهة من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

فطرق وهيئات ومظاهر توثيق القرآن وحفظه ونقله لأمة الإسلام -عبر العقود والقرون- لم يبلغ مثلَها أو قريبًا منها أو حتى بعضها أيُّ كتاب آخر لدى أيّ أمة من الأمم القديمة أو الحديثة، فكل حرف وكل كلمة وكل آية من هذا الكتاب هي كلام الله رب العالمين المحفوظ.

ويترتب على ذلك أنَّ المسلم في قراءته وفهمه وتطبيقه لهذا الكتاب الكريم ينطلق من أنه خطاب إلهي مقدس محفوظ، ليس من كلام البشر، وما ينتج عن ذلك من احتوائه على الحقيقة المطلقة، والهيمنة الكاملة على كل صغيرة وكبيرة في هذا الوجود، علويِّه وسفليِّه، فيما سبق وفيما سيأتي إلى أبد الآباد؛ فهو كلمة الله الأخيرة الموجهة لمخلوقاته على هذه الأرض.

وكذلك الأمر عندما نتعرض لمبحث إطلاقية القرآن الكريم، ونعي ونفهم معانيَ كون هذا الكتاب الكريم يتمتع بهذه الصفة، وكيف أنه محرَّرٌ من قيود «الزمان» و«المكان» و«الأشخاص» و«الأحوال»؛ فجميع ما يحتويه من المعارف والعلوم والمعلومات لا يحدها حدٌّ زماني ولا مكاني، فهي المطلقة أبدا، المستمرة دائما، السابقة لغيرها، وهذا يجعل المسلم وهو يقرأ في كتاب الله يعلم أن ما بين يديه هو الهداية الكلية المطلقة، المادية والمعنوية التي لا يخرج عنها شيء ولا يعارضها شيء ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [**الأنعام**: 38]

ويترتب على هذه الإطلاقية التسليم التام والتطبيق الكامل لكل ما في هذا الكتاب الكريم؛ من الأوامر والنواهي، والإرشاد والتشبع بما ورد فيه من المعارف والأخبار؛ بحيث

يصبح القرآن الكريم منهجَ حياة وأسلوب عيش وهُوية[1] للفرد والأمة كما تحقق ذلك في أعلى صوره ودرجاته في سيد الكائنات ﷺ.

فالقرآن الكريم هو عهد الله الأخير إلى البشرية جمعاء، حيث ختم الله تعالى الرسالات بنبيه سيدنا محمد ﷺ، وانقطع وحيُ السماء إلى أهل الأرض؛ فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [**الأحزاب**: 40]

وعندما نتعرض للُّغة العربية ومباحِثِها وفنونها كأصل عظيم من أصول فهم الكتاب الكريم فإننا بذلك نسلك الطريق الصحيح لفهم هذا الكتاب الكريم الذي قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [**يوسف**: 2] بحيث لا نستنبط معاني خارجة عن اللسان العربي، فاللغة وضوابطها وقواعدها هي وسيلةُ تعامل ودخول لتقرير المعاني واستنباطها من كتاب الله، ومعرفة لسان العرب هو أحد أدوات قانون تفسير القرآن وإدراك معانيه، ومعرفة المراد الإلهي في العقيدة والتشريع والأخلاق، وكل معنى تم ذكره في كتاب الله عز وجل.

وكذلك عند التعرض لمقاصد القرآن الكريم العليا الجامعة من تحقيق التوحيد ومعرفة الله سبحانه وتعالى وعبادته وتزكية النفس والعناية بعمارة الأرض وبيان أمر المعاد واليوم الآخر واستقرار هذه المعالم في الذهن عند قراءة كتاب الله فيجد المسلم من نفسه فهمًا متجددًا للقرآن

(1) الهُوية بضم الهاء: حقيقة الشيء، وهي عند المتكلمين: ما به الشيء هو هو باعتبار تشخصه [انظر المعجم الوسيط 2/ 998 باب الهاء ط.دار الدعوة،وانظر حاشية العصام على شرح السعد على العقائد النسفية صـ 17 ط. المكتبة الأزهرية للتراث]، بينما الهَوية بفتح الهاء بمعنى الحفرة أو البئر بعيدة القعر [انظر تاج العروس شرح جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي 40 / 334 ط.دار الهداية].

ومعاني جديدة لآياته بحيث يتنبه المسلم إلى مقاصد كل كلمة وآية وسورة يمر عليها.

وكل هذه المعاني السالفة مستقاة ومستخلصة من كلام وأفكار ومصنفات مولانا الإمام العلامة رضي الله عنه وأرضاه.

إن مباحث هذا الكتاب وأفكاره الرئيسة وخطوطه العريضة قد أملاها فضيلة شيخنا الإمام العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة حفظه الله تعالى، وقد جمعنا مادته من مصنفاته ومقالاته ومحاضراته ودروسه وبرامجه ومجالسه، لتكون في مجموعها مكونة للمعالمَ المنهجية لطريقة مولانا الإمام العلامة في فهم وتدبر معاني القرآن الكريم، وهي خطوة في طريق إحياء الدراسات القرآنية وتوثيق العلاقة بين المسلمين وكتاب ربهم، ومحاولة عصرية لكشف ارتباط جميع معارف العلوم والحياة بهذا الكتاب الكريم بطريق مباشر أو غير مباشر، واستلهام معاني كتاب الله والكشف عن مقاصده الكلية وأهدافه الجامعة وبيان استيعاب القرآن الكريم للسابق واللاحق من مظاهر الحياة وهيمنته عليها.

فهي إعداد للعقل والقلب والجوارح للتعامل مع الكتاب العزيز وتدبره ثم الانتقال بعد ذلك إلى مرحلة استلهام معالم هذا المنهج القرآني المتكامل بحيث يكون القرآن الكريم هو البوصلة الهادية للمسلم في هذه الحياة يحقق من خلال تعاليمه المراد الإلهي منه في تحقيق التوحيد ومعرفة الله سبحانه وتعالى وتزكية النفس وسمو الروح وعمارة الأرض والإيمان باليوم الآخر.

وفي هذا المجال نحن نسير على نفس منهج سلفنا الصالح في تناولهم لكتاب الله تعالى؛ منذ عصر الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) فقد ظهرت ملامح قانون التفسير وضوابط إدراك المعاني القرآنية، وتأصيل أركانه منذ عصرهم المبارك، وامتد ذلك الأمر في زمن التابعين، وتابعي التابعين، وتم الاستقرار عليه، ونحن هنا نُجَلِّي ملامحَ هذا القانون، ونُلحق به من أدوات الفهم ما هو مستنبطٌ من قواعده الكلية بما يناسب معارفَ هذا العصر،

ويكشف عن عظمة الكتاب الكريم، بما يؤكد أن حاضر الأمة العلمي والمعرفي موصولا بماضيها، وأن شجرة المعرفة الإسلامية المتعددة الفروع والأوراق جذورها واحدة.

فهي شجرة طيبة مباركة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، مكونة للعقل المسلم ومعارفه ومعلوماته، وسوف يتضح لنا من خلال مباحث هذا الكتاب: كيف يمكن للمسلم المعاصر أن يكون منهجية معرفية قرآنية، ينظر من خلالها للكون، والحياة، والوجود من حوله، ويتعامل وفقًا لها في كل كبيرة وصغيرة في حياته.

والقرآن الكريم كتاب هداية، أنزله الله تعالى لأجل الاسترشاد والاهتداء به، ولن يتأتى ذلك إلا بكثرة مدارسته ومداومة البحث فيه، ومحاولة دراسته من زوايا جديدة ومختلفة حتى نصلَ إلى مراد الله سبحانه وتعالى الآمر لنا بالتَّدبر والتَّفكر؛ فتتضح للقارئ والدَّارس معالمُ الهداية فيه، والقرآن الكريم بحرٌ لا يُدرك غورُه ولا تنفد دُرَرُه، ولا يَخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه؛ لذلك فقد أودع الحقُّ تبارك وتعالى فيه من المعاني ما لا ينفد، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [**الكهف**: 109] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [**لقمان**: 27].

وكذلك قول نبيِّنا ﷺ فيما أخرجه الإمام التِّرمذي في سننه عن أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه في وصف القرآن الكريم: «وهو حبلُ الله المتين، وهو الذِّكر الحكيمُ، وهو الصِّراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواءُ، ولا تلتَبِس به الألسنةُ، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلُق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبُه»(1)(1).

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القران (2906)، وابن أبي شيبة في مصنفه (30629)، والدارمي في سننه (3374)، والبزار في مسنده (834) من طريق المختار الطائي عن =

ومن خلال هذه الأسس ننطلق نحو الحديث عن مبادئ وقواعد جامعة منظمة لكيفية التعامل مع كتاب الله وتفسيره، حتى نصل إلى ما احتواه هذا النصُّ الإلهي الكريم من كنوز ومعارف وعلوم، توضح حقيقة أنه النور الإلهي التام الهادي للبشرية، من خلال معرفتنا لأصول وفروع المسائل، والقضايا التي تناولها هذا الكتاب الكريم، وبيان جوهرها وحقيقتها ومعانيها وكيفية تطبيقها.

وسوف ندرك من خلال التأمل والاستقراء أن هذه القضايا كانت محور التفكير الإنساني عبر كل العصور؛ يظهر ذلك من خلال التراث الفكري، والعلمي، والأدبي، والفلسفي للبشرية الذي تناول هذه المسائل، وتلك القضايا، سواء من حيث اكتشافُها بدايةً، أو محاولة تفسيرها، أو محاولة وضع أفضل التصورات لها، فجاءت الأنبياء والرسل والكتب بأفضل المناهج المبينة لحقيقة هذه القضايا، والتي كان أعظمها وأجلها هو المنهج القرآني المتكامل، الذي احتوى على الهدى الكامل لهذه القضايا والمسائل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [**النحل**: 89].

بعض القضايا الكلية التي اشتمل عليها القرآن الكريم:

وعلى سبيل المثال من القضايا الكلية التي اشتمل عليها كتاب الله الكريم:

- معرفة هذا الكون وهذا الوجود من حولنا.
- العلاقة بين الإنسان وبين هذا الكون، وبينه وبين غيره من المخلوقات.
- معرفة الخالق سبحانه وتعالى وما يتوجب له من الأسماء والصفات الدالة على الكمال

=

ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به مرفوعًا. وقال الترمذي: «حديث غريب».

(1) انظر كتاب المبادئ العامة في القرآن الكريم د.مصطفى عبد الكريم صـ 5 ط.دار المقطم للنشر والتوزيع الطبعة الأولى.

المطلق، والعلاقة بين المخلوق والخالق.

- فهم قضية الوحي الإلهي، والرسالات، وطبيعة مهمة الرسل عليهم السلام.
- عناصر بناء الإنسان، وأصول تزكية النفس، والتربية.
- تحصيل عناصر صناعة الحضارة.
- العلاقات بين الأمم والشعوب.
- الكلام عن أصول العمران، وتحقيق معاني الاستخلاف في الأرض.
- المنظومة التشريعية في كتاب الله وصلاحيتها لضبط الحياة البشرية على الأرض.
- التعرف على مآل هذه الحياة وهذا الوجود وبيان كمال التصور القرآني لقضية بداية الخلق ونهايته، وقضية الجزاءات الإلهية في الدنيا والآخرة.

والحديث عن علم أصول التفسير، ومفاتيح فهم كتاب الله، يفتح الباب أمام الدارسين لكتاب الله سبحانه وتعالى للمزيد من الدراسة، والعمل على جمع مباحث هذا العلم في مصنفات مستقلة به، في محاولة لإفراد مباحث هذا العلم في حيز خاص بها، كعنوان مستقل لخدمة كتاب الله سبحانه وتعالى، والعمل على فتح الباب أمام مزيد من التحرير والتنقيح والزيادة لهذه المباحث؛ بحيث تصبح نسقا عاما ومنهجا وقانونا لعلم أصول التفسير؛ مما يزيد في معرفتنا بعظمة هذا الكتاب العزيز، ويفتح الباب أمام الأمة لاستقراء تراثها التفسيري لكتاب الله، وما ينتج عن ذلك من إثراء في المعاني والمفاهيم المستنبطة من كتاب الله، وتبلور وتجميع القواعد التي تمثل منهجا منضبطا معصوما من الزلل لتفسير كتاب الله، وفهم مقاصده ومعانيه، وفي هذا حفظ لهذه الشريعة المحكمة أن يُزاد فيها، أو يُنقص منها أو يُدخل فيها معانٍ ومفاهيم باطلة، لا يحتملها النص القرآني.

وقد رأينا أن يكون كلامنا عبارة عن عدة مباحث تمثل أركانَ أصول تفسير كتاب الله عز

وجل في منهج الإمام العلامة شيخنا الأستاذ الدكتور علي جمعة. وهي تساعد المسلمَ على القراءة الكلية الصحيحة للقرآن الكريم، وقد اشتملت على أصول وقواعد ضابطة للكيفية التي نتعامل بها مع كتاب الله بما يجعل منها منهجًا منضبطًا لفهم القرآن الكريم.

وهذه المباحث إجمالا هي:

مقدمة عن علم أصول التفسير:

المبحث الأول: القرآن الكريم كلام الله المحفوظ.

المبحث الثاني: اللغة العربية، وفهم النص القرآني.

المبحث الثالث: أسباب النزول، وأثرها في فهم النص القرآني.

المبحث الرابع: حول معاني إطلاقية القرآن الكريم، وآثارها كأصل من أصول التفسير.

المبحث الخامس: المقاصد الشرعية، وأثرها في فهم النص القرآني.

المبحث السادس: علم أصول الفقه، والقواعد الفقهية، وتفسير كتاب الله، وفهم المراد الإلهي.

المبحث السابع: القراءات القرآنية، وأثرها في فهم النص.

المبحث الثامن: المبادئ القرآنية العامة، وفهم كتاب الله.

المبحث التاسع: حول معاني الوَحدة البلاغية، والبنائية للقرآن الكريم، وأثرهما في فهم النص.

المبحث العاشر: السقف المعرفي، وتفسير القرآن الكريم.

المبحث الحادي عشر: حول قضية النسخ في القرآن الكريم.

المبحث الثاني عشر: القرآن كتاب هداية.

المبحث الثالث عشر: المحكم والمتشابه في كتاب الله.

المبحث الرابع عشر: الجمع بين القراءتين (قراءة القرآن، قراءة الأكوان) وضرورة إدراك الواقع المحيط.

المبحث الخامس عشر: من نماذج توليد العلوم من القرآن الكريم (السنن الإلهية).

المبحث السادس عشر: أسماء الله تعالى ومنظومة القيم في القرآن.

المبحث السابع عشر: حفريات القرآن الكريم.

كما أتقدم بخالص الشكر لأبنائي الأعزاء وطلابي الأفاضل الباحثين بدار (سفينة النجاة) المشاركين في إخراج هذا المشروع حبًّا في علوم مولانا الإمام العلامة رضي الله عنه، وهم: الأستاذ الشيخ مجدي حمدان الشاذلي الصديقي، والأستاذ الشيخ علي ناجح الأزهري الصديقي، والأستاذ الشيخ أنس العايدي الشاذلي، والأستاذ الشيخ أنس مصطفي الأزهري، والأستاذ الشيخ فؤاد ممدوح الأزهري الشاذلي، والأستاذ الشيخ محمد سعيد الأزهري الحنبلي، ونشكر كذلك الابن البار أحمد إبراهيم الأزهري الصديقي الذي بذل جهدا كبيرا في تفريغ المادة التسجيلية لبرنامج (والله أعلم) والذي يعد ذخيرة هذا المشروع في كثير من مباحثه، وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين والدارسين، وأن يجزي مولانا الإمام العلامة عنا خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

خادم مولاه الشيخ

أشرف سعد الأزهري

مقدمة في علم أصول التفسير

لعل من المناسب أن نجعل المدخلَ لمباحث أصول التفسير هو التعرف على معاني المصطلحات الخاصة بهذا العلم، والتعرض لجهود بعض العلماء في هذا الباب؛ لما ينتج عن ذلك من تكوين صورة مفصلة عن هذا العلم تفتح الأبواب أمام الإلمام بأهدافه وفوائده.

في معنى أصول التفسير:

أصول التفسير مركب إضافي، وهو في ذاته، اسم لعلم خاص، وتركيبه الإضافي يكون جزءًا من حقيقته وماهيته؛ ولذا يجب تحليل هذا المركب الإضافي لفهم المعنى الكلي لهذا المصطلح.

أولًا: معنى أصول التفسير بالمعنى التحليلي:

الأصل لغة:

الأصول: جمع أصل، والأَصْلُ: أَسفل كُلِّ شَيْءٍ وَجَمْعُهُ أُصُول لَا يُكَسَّر عَلَى غَيْرِ ذلك، وَهُوَ اليأْصُول. يُقَالُ: أَصْلٌ مُؤَصَّل[1].

وجاء في القاموس: الأصل أَسْفَلُ الشيءِ، كاليأْصول، ج: أُصولٌ وآصُلٌ، وأَصُلَ، ككَرُمَ: صار ذا أَصْلٍ، أَو ثَبَتَ ورسَخَ أَصْلُهُ[2].

الأصل اصطلاحًا:

الأصل في الاصطلاح لا يختلف عن معناه اللغوي بحسب العلم أو المجال الذي تستخدم فيه كلمة الأصل.

---

(1) لسان العرب (11/ 16) محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي – الناشر: دار صادر – بيروت –الطبعة: الثالثة – 1414 هـ.

(2) القاموس المحيط (1/ 961) مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي – تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة –بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي – الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – الطبعة: الثامنة، 1426 هـ – 2005 م.

قال الجرجاني: الأصل: هو ما يُبتنَى عليه غيره، الأصول: جمع أصل، وهو في اللغة: عبارة عما يفتقر إليه، ولا يفتقر هو إلى غيره. وفي الشرع عبارة عما يبنى عليه غيره، ولا يبنى هو على غيره، والأصل: ما يثبت حكمه بنفسه ويبنى عليه غيره(1).

- التفسير لغة:

هو الإيضاح والتبيين والكشف والإظهار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]. وهو مأخوذ من الفَسر أي: الإبانة والكشف، جاء في القاموس المحيط: الفَسْرُ: الإِبانَةُ، وكشْفُ المُغَطَّى، كالتَّفْسيرِ(2).

قال ابن منظور: فسر: الفَسْرُ: الْبَيَانُ. فَسَر الشيءَ يفسِرُه، بالكَسر، ويفْسُرُه، بِالضَّمِّ، فَسْراً وفَسَّرَهُ: أَبانه، والتَّفْسيرُ مِثْلُهُ. ابْنُ الأَعرابي: التَّفْسيرُ والتأْويل وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ الفَسْرُ: كَشْفُ الْمُغَطّى، والتَّفْسير كَشف الْمُراد عَنِ اللَّفْظِ الْمُشْكل، والتأْويل: رَدُّ أَحد الْمُحْتَمَلَيْنِ إِلَى مَا يُطَابِقُ الظَّاهِرَ(3).

التفسير اصطلاحا:

وأما التفسير اصطلاحا فقد وردت فيه عدة تعريفات عن أهل العلم فمن ذلك:

ما قاله أبو حيان رحمه الله في مقدمة تفسيره: " التفسير علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية، والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك.

(1) كتاب التعريفات (1/ 28) علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني - الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان - الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م.

(2) القاموس المحيط (1/ 456).

(3) لسان العرب (5/ 55).

فقولنا: علم هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن هذا هو علم القراءات، وقولنا: ومدلولاتها؛ أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: وأحكامها الإفرادية، والتركيبية هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب وعلم البيان وعلم البديع، ومعانيها التي تحمل بها حالة التركيب، وشمل بقوله: التي تحمل عليها ما لا دلالة عليه بالحقيقة وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقضي بظاهره شيئًا، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد، فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: وتتمات لذلك، هو معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن ونحو ذلك"(1).

وعرفه الإمام الزركشي رحمه الله بقوله: "التفسير علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحِكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"(2).

وقال الإمام السيوطي رحمه الله: «التَّفْسِيرُ: تَفْعِيلٌ مِنَ الْفَسْرِ، وَهُوَ الْبَيَانُ وَالْكَشْفُ، وَيُقَالَ: هُوَ مَقْلُوب السَّفَرِ، تَقُولُ: أَسْفَرَ الصُّبْحُ إِذَا أَضَاءَ، وَقِيلَ مَأْخُوذٌ مِنَ التَّفْسِرَةِ، وَهِيَ اسْمٌ لِمَا يَعْرِفُ بِهِ الطَّبِيبُ الْمَرَضِ وَالتَّأْوِيلُ أَصْلُهُ مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الرُّجُوعُ، فَكَأَنَّهُ صَرَفَ الْآيَةَ إِلَى مَا تَحْتَمِلُهُ مِنَ الْمَعَانِي وَقِيلَ مِنَ الْإِيَالَةِ وَهِيَ السِّيَاسَةُ، كَأَنَّ الْمُؤَوِّلَ لِلْكَلَامِ سَاسَ الْكَلَامَ

(1) تفسير البحر المحيط ـ (1/ 121) أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي – تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض– الناشر: دار الكتب العلمية بيروت/ الطبعة: الأولى – 1422 هـ.

(2) البرهان في علوم القرآن (1/ 13) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي – المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة: الأولى، 1376 هـ – 1957 م – الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

وَوَضَعَ الْمُعْنَى فِيهِ موضعه(1).

وبعد أن تعرفنا على التحليل اللغوي والاصطلاحي لمعنى أصول التفسير كلفظين مفردين، نتعرض للمعنى الاصطلاحي الكلي لها بالمعنى الإضافي.

أصول التفسير اصطلاحًا:

من خلال استقراء كتب التفسير نجد أن أصول التفسير هي: «القواعد والضوابط التي تحدد وتبين الطريق، والمنهج الذي يلتزمه المفسر في بيان معاني الآيات الكريمة، حتى يصل إلى أسرار الكتاب الحكيم، ومراد الله تعالى من خلال كلامه، ويتمكن - من خلال الالتزام بها- من التعرف على المعاني التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يحصلها الإنسان؛ بحيث تنظم هذه القواعد طرقَ استنباط المعاني، فتسمح بالصحيح منها، وتمنع المعاني الباطلة، وذلك بحسب الطاقة البشرية، وطرق التفكير العقلي الصحيحة، وإجمالا يمكن أن يقال إن علم أصول التفسير هو: علم يحدد مصادر التفسير وشروط المفسر ومجموعة القواعد والضوابط التي تحكم المفسر عند تعرضه لبيان معاني كتاب الله فهو يمثل ميزان الضبط للمعنى والمفهوم والمستنبط من كتاب الله ما المقبول منه وما هو غير المقبول».

ومن خلال استقراء التفاسير المختلفة نجد أن مفهوم أصول التفسير الاصطلاحي قد اشتمل على معانٍ أخرى مستمدة من كل تفسير تميزه عن غيره فمن تلك المعاني: أصول التفسير بمعنى: مصادره؛ من حيث تقسيم مصادر التفسير إلى أصول لغوية، وأصول عقلية،

(1) الإتقان في علوم القرآن (4/ 192) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط.الهيئة العامة للكتاب، 1974 م، وهناك من عرف التفسير بأنه: " ما يعرف به معاني كلام الله وألفاظه بحسب الطاقة البشرية " [انظر حاشية الشهاب على البيضاوي 1/ 14 ط.دار صادر بيروت] إشارة إلى أن ما حصل من التفسير لا يكشف عن كل معاني القرآن وإنما هو بحسب الطاقة البشرية في البحث.

وأصول نقلية.

موضوع علم أصول التفسير:

علم أصول التفسير يبحث في بيان معرفة القواعد والأسس والشروط التي تحكم الكيفية التي يتم بها الوصول إلى معاني كتاب الله الكريم وبيان دلالته فهو يمثل القانون العام الذي يلتزم به المفسر، ويسير وفقًا لأركانه عند التعرض لكتاب الله ومحاولة استخراج معانيه وأحكامه وحكمه.

أهمية علم أصول التفسير:

من محاسن الشريعة الإسلامية وخصائصها أن علومَها وأحكامها لها قواعد وأصول يُرجع إليها، فعندما تشعبت العلوم الشرعية، وكثرت فروعها وأصبحت جزئيات هذه العلوم من الصعوبة أن تقع تحت حصر؛ اتجه العلماء إلى استقراء العلوم والعمل على إبراز الأصول الكلية الجامعة لكل علم ومعلوماته لما في ذلك من التيسير للعلوم، ووضع ضوابط جامعة لها ترد فيها الجزئيات إلى الكليات، فيحدث نوع تأصيل للعلم ومعلوماته الجزئية.

ومن أهم الجوانب التي اهتم أهل العلم بها هو محاولات الكشف عن القانون الجامع لأصول تفسير القرآن الكريم وتدوينها بحيث تتراكم مؤسِّسة لعلم متكامل يفتح الأبواب أمام الدراسات القرآنية، واستنباط وتوليد العلوم والمعارف من النص القرآني بطريقة منضبطة، حيث إن محاولات التعرف على هذا القانون وجمع أصوله تتطلب التعرض لعلوم كثيرة والتفتيش في كتب التراث، بحيث نخرج بصورة متكاملة عن هذه الأصول، ونضيف لها ما نراه متوافقًا معها من المعارف الجامعة والمعلومات المستنبطة.

يقول الإمام الزركشي رحمه الله: «أما بعد: فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هو أوعى لحفظها وأدعى لضبطها وهي إحدى حكم العدد التي وضع لأجلها، والحكيم

إذا أراد التعليم لا بد له أن يجمع بين بيانين: إجمالي تتشوف إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه»(1).

ومن هنا يظهر أن أهمية علم أصول التفسير من أهمية علم التفسير نفسه، لأن أصول التفسير بالنسبة للتفسير، بمثابة الوسائل للغايات فعلى ذلك من أهم مباحث العلوم التي تتعلق بكتاب الله عز وجل، وترتبط به ارتباطا وثيقا هو مبحث علم أصول التفسير؛ وذلك لما يحتويه من الفوائد والقواعد الكلية التي تعين على فهم كتاب الله سبحانه وتعالى، ومعرفة تفسير معانيه، واحتوائه على الضوابط التي يتم بها التمييز بين الحق والباطل، في الأقاويل التي وردت في تفسير آيات الكتاب العزيز، وبيان الأوجه المقبولة في الآيات، وما هو قريب المعنى للمراد الإلهي من خطابه في كتابه الكريم، وما هو بعيد المعني وما هو باطل المعنى، فهو العلم الذي يساعد المفسر لكتاب الله على الإبحار فيه مستخرجًا منه المعاني والأحكام.

يقول الزركشي رحمه الله: «القرآن إنما أنزل بلسان عربي مبين في زمن أفصح العرب وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر من سؤالهم النبي ﷺ في الأكثر كسؤالهم لما نزل ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: 82] فقالوا: أينا لم يظلم نفسه ففسره النبي ﷺ بالشرك واستدل عليه بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾(2). وكسؤال عائشة رضي الله عنها عن الحساب اليسير فقال: «ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب»(3) وكقصة عُدي ابن حاتم في الخيط الذي وضعه تحت رأسه(1)، وغير

(1) انظر: المنثور في القواعد الفقهية (1/ 66) – أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية – الطبعة: الثانية، 1405هـ – 1985م.

(2) سورة لقمان: (13)، والحديث في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، رواه البخاري كتاب الإيمان باب ظلم دون ظلم الحديث رقم (32)، ومسلم كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، الحديث رقم (197).

(3) رواه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة، باب إثبات الحساب، الحديث رقم (2876).

ذلك مما سألوا عن آحاد منه، ولم ينقل إلينا عنهم تفسيرُ القرآن وتأويله بجملته، فنحن نحتاج إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ما لم يكونوا محتاجين إليه من أحكام الظواهر؛ لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير، ومعلوم أن تفسيره يكون بعضه من قبيل بسط الألفاظ الوجيزة، وكشف معانيها، وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض؛ لبلاغته ولطف معانيه؛ ولهذا لا يستغنى عن قانون عام يعول في تفسيره عليه ويرجع في تفسيره إليه من معرفة مفردات ألفاظه، ومركباتها، وسياقه، وظاهره وباطنه، وغير ذلك مما لا يدخل تحت الوهم ويدق عنه الفهم»(2).

[أهمية علم أصول التفسير في عصرنا]:

وتزداد أهميةُ هذا العلم والحاجةُ إليه في عصرنا، هذا الذي يتميز بالفتن الفكرية، وما ينتج عنها من الآراء والأفكار التي يدعى أصحابُها نسبتَها إلى كتاب الله تعالى، ويتخذون من محاولات تحريف معاني آياته قاعدةً لانطلاقهم الفكري والعملي، مفسرين آيات الكتاب الكريم وفقا لأهوائهم ومصالحهم الذاتية، فوجود قواعد التفسير وأصوله تمنع العقل وتعصمه -إذا ما تم مراعاتها- من أن يستنبط معنى غير موجود في كتاب الله، أو أن يحرف حكما موجودا أو يبدله، أو يلوى أعناق الدلالة لتدل على غير المراد، أو يجعل من الحقيقة

=

(1) الحديث بتمامه رواه البخاري بسنده عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: 187] عمدت إلى عقال أسود، وإلى عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل، فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار»، كتاب الصوم، باب باب قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: 187]، الحديث رقم (1916)

(2) انظر: البرهان في علوم القرآن (1/ 15-14) أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه – الطبعة: الأولى، 1376 هـ – 1957 م.

مجازا، أو من المجاز حقيقة، كل هذه الأمور الباطلة تؤدي إلى تحريف مفاهيم الشريعة، وحقيقتها، في مجال العقيدة والأحكام، وما يتعلق بكليات الشريعة وجزئياتها.

فهذا العلم يمثل منهجيةً عظيمة تعبر عن تراث أمة الإسلام، وطريقتها في تناولها للعلوم؛ خاصة ما يتعلق منها بالشريعة، وعلى الجملة فعلم أصول التفسير يمثل أحد أهم أركان الفهم السليم لكتاب الله، والذي يجعل هذا الفهم يقع داخل دائرة العصمة الفكرية، التي تمنعه من الزيغ، فكما أن علم تجويد القرآن غايته الوصول للنطق الصحيح لألفاظ القرآن الكريم؛ فإن غاية أصول التفسير الفهم الصحيح لمعانيه، وكما أن علم أصول الفقه هو الذي يوضح الطريق الصحيح للوصول إلى الحكم الشرعي؛ فكذلك أصول التفسير هي الطريق للفهم الصحيح لكتاب الله، وعدم الانحراف إلى المعاني الباطلة.

فمن عرف أصولَ التفسير وقواعده تنفتح له من المعاني القرآنية ما لم ينفتح لغيره، وأصبح يمتلك آلةً من الفهم والاستنباط تمكنه من توليد المعارف من خلال كلمات الله تعالى، والقدرة على الترجيح بين أقوال المفسرين، واستبعاد ما لا يتفق مع هذه الأصول.

استمداد علم أصول التفسير:

ويجب هنا أن نشير إلى نقطة مهمة؛ وهي أن الحديث عن أصول التفسير وقواعده الكلية ليس حديثًا عن إنشاء لهذه القواعد والأصول من قِبل أهل العلم، وإنما هو حديث عن استكشافها وإظهارها من خلال الاستقراء الكلي لآيات القرآن الكريم، واستخراج الضوابط الجامعة منه، الكاشفة عن معانيه، ومن خلال تفسير القرآن بالقرآن، واعتبار النظائر القرآنية، والاستدلال بها، ومن خلال ما ذكر في السنة النبوية المطهرة، من الإشارات النبوية الدالة على أصول التفسير لكلام الله، وبيان معاني الآيات، والكلمات القرآنية من فم النبي ﷺ ومن خلال ما أُثِر عن الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، من خلال تعرضهم لتفسير الآيات؛ بحيث يمكن لنا من خلال ذلك استنباطُ الأصول العامة التي كانوا يفهمون من خلالها معاني كلام الله،

وما أثر عن السلف الصالح من العلماء، ومواطن نقلهم عن الصحابة الكرام، خاصة أهل العلم منهم، ومن خلال التعرض لمعاني اللغة العربية، وفهم دلالتها فهي اللغة التي نزل بها هذا النص الإلهي؛ متحديًا العالمين به، فعلى ذلك تحتوى اللغة على عدة أصول جامعة، وقواعد تحكم التعرض لمعنى كلام الله، تُسهم إلى جانب الأصول الأخرى، وتبين ما هو المقبول وغير المقبول من المعاني المستنبطة من الآيات الكريمة، إلى جانب ما أجمعت عليه الأمةُ الإسلامية من المعاني والشرائع المستنبطة من كتاب الله تعالى، كل هذه الأصول يحيط بها ويسير معها ويرتبها أصلٌ كبير؛ وهو العقل الجامع للقواعد العقلية الكلية التي تعصم الفكر من الوقوع في الخطأ عن طريق مراعاة قواعد التفكير المنطقي.

ونحن هنا من خلال هذه المباحث نحاول أن نلقي الضوءَ على بعض ما جمعه أهلُ العلم المتقدمين، من ملامح هذا القانون، وأركانه، ونزيد عليها بما يفتح الله به من القواعد الجامعة الكاشفة، التي تعين على فهم المعاني من كتاب الله، واستنباط المعارف والعلوم، من خلال آياته وكلماته وحروفه، بحيث تفتح آفاقًا جديدة في التعامل مع كتاب الله عز وجل، ينتج عنها معارفُ تثبت قدرةَ هذا النص الإلهي على استمرارية العطاء العلمي، والعملي للبشرية.

حول ملامح أصول التفسير وقانونه في التراث الإسلامي:

نتناول في الصفحات القادمة بعضًا من كلام أهل العلم والمفسرين عن أصول التفسير، وقوانينه المنتشرة، بحيث تكتمل الفائدة المرجوة من هذا المصنف، من خلال الجمع بين بعض ما كتبه أهلُ العلم المتقدمين، والمتأخرين، عن علم أصول التفسير ورؤيتهم له، وما يتم الإشارة إليه من مباحث أصول التفسير، وقواعده الضابطة، التي سوف تأتي فيما بعد في هذا المصنف.

قانون التفسير وأصوله عند الطوفي الصرصري رحمه الله:

يحدثنا الشيخ سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري[1] رحمه الله عن أهمية

---

(1) سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين، فقيه حنبلي، ولد بقرية طوف – أو طوفا – (من أعمال صرصر: في العراق) ودخل بغداد سنة 691 هـ ورحل إلى دمشق سنة =

وجود قواعد جامعة لفهم القرآن الكريم وتفسيره وفوائد ذلك فيقول:

بيان احتياج بعض قراء القرآن إلى التفسير والتأويل:

اعلم أن الكلام إما أن يكون متضح اللفظ والمعنى، أو لا.

فالأول: لا حاجة له إلى تفسير بل هو بيّن بنفسه لاتضاح لفظه، واشتهاره وضعا أو عرفا، ونصوصيته في معناه نحو: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22] فإن لفظ الإنزال والسماء والماء والإسقاء معروفة مشهورة، ونصوصيتها في مدلولاتها غير منكورة.

أما الثاني: وهو عدم الإيضاح في لفظه ومعناه جميعا لاشتراك نحو: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228]. للطهر والحيض، وعسعس الليل[1] لأقبل وأدبر، ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79] لاحتماله النهي والخبر، أو لظهور تشبيه، كآيات الصفات نحو ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39]، ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أو لغرابة في اللفظ نحو ﴿ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ [هود: 77]، ﴿ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات: 59]، ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ وهو المحتاج إلى التفسير.

«وجب وضع قانون يتوصل به إلى علم التفسير، فنقول وبالله التوفيق: كلما أردنا فهمَ معنى كلام الله عز وجل فلا يخلو: إما أن يكون بيّنا بنفسه كالقسم الأول من قسمي الكلام المذكورين، أو لا، فإن كان فلا إشكال إذ المراد منه هو المفهوم منه لكل عاقل، كالمفهوم من قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء: 32]،

=

704 هـ وزار مصر، وجاور بالحرمين، وت: 716 هـ في بلد الخليل (بفلسطين)، من مؤلفاته: (بغية السائل في أمهات المسائل) في أصول الدين، و(الإكسير في قواعد التفسير – خ) في دار الكتب، و(الرياض النواضر في الأشباه والنظائر) و(معراج الوصول) في أصول الفقه، و(الذريعة إلى معرفة أسرار الشريعة) [الأعلام للزركلي 3/ 127 ط.دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر 2002]

(1) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: 17].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: 25]، ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: 80]، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: 23] ونحو ذلك.

وإن لم يكن كذلك، فلا يخلو: إما أن يكون في تأويله دليل عقلي قاطع، أو نص عن النبي ﷺ تواتري، أو اتفاق من العلماء إجماعي، أو نص آحادي[1] صحيح، أو لا يكون شيء من ذلك، فإن كان فيه شيء من الطرق المذكورة، وجب المصيرُ فيه إلى ما دلَّ على أنه المراد منه، سواء كان ما دل عليه أحد هذه الطرق موافقا لظاهر لفظ الكلام أو لا.

أما العقلي القاطع والتواتر، فلإفادتهما العلم القاطع، فلا يعارضه الظاهر المحتمل ولذلك قدمناهما.

وأما الإجماع فلاستلزامه دليلا تقوم به الحجة من نص أو غيره إذ لا إجماع إلا عن مستند، ولقيام الدليل على عصمة الأمة من أن تُجمع على خطأ، ومثال ذلك تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]، ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: 7] ونحوه، على أنه كذلك بعلمه لا بد أنه - والإجماع على هذا التأويل - مستندٌ إلى العقل القاطع باستحالة التجزئة، والتبعّض والحلول عليه تعالى.

وأما الآحاديّ الصحيح فلأنه يعتاد عليه الظنّ، ويوجب العمل والعلم على مذهب مرجوح، فكان أولى من غيره، وإن لم يكن في تأويله شيء من الطرق المذكورة، مثل إن كان فيه آحاد ضعيفة، أو شيء عن أصحاب التواريخ والسير غير مفيد للعلم بصحة ما دلّ عليه، أو ظنه بدليل خارج من قرينة عقلية أو غيرها، أو تأويل مختلف فيه متعارض عن العلماء.

نظرنا: فإن كان ما ورد فيه من الأحاديث الضعيفة والتواريخ والسير المذكورة موافقا للمفهوم من ظاهر الكلام، أو من فحواه، أو معقوله، حمل الكلام على ما فهم منه، وكان الخبر

(1) المقصود بالآحادي: أي الحديث غير المتواتر انظر في تفصيل ذلك نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر للشيخ أحمد بن حجر العسقلاني بتحقيق الشيخ نور الدين عتر صـ 58 ط. مطبعة الصباح، دمشق الطبعة: الثالثة، 1421 هـ - 2000 م

الضعيف ونحوه مؤكدا لما استفيد من اللفظ، وإن لم يكن موافقا للمفهوم من ظاهر اللفظ أو معقوله ألغي لضعفه وضعف ما يفيده الظن إن أفاده، واعتبر مفهوم ظاهر الكلام لقوته وقوة ما يفيده من ظن أن المراد ما لم يمنع منه مانع أقوى منه إذ المقصود من الكلام الإفهام، والظاهر من المتكلم الحكيم إرادة ظاهر الكلام.

وأما ما ورد فيه التأويل المختلف عن العلماء، فذلك الاختلاف إما أن يشتمل على التناقض والتضاد أو لا فإن اشتمل عليه «كالقرء» التي صيّر في تأويلها إلى الحيض مرة، وإلى الإطهار أخرى، كان أحد النقيضين أو الضدين متعينا للإرادة لاستحالة الامتثال بالجمع بينهما، وحينئذ يجب التوصل إلى المراد المتعين بطريق قوي راجح من الطرق المتقدّم ذكرها أو غيرها إن أمكن، وإن لم يشتمل على التناقض بل كان مجرد اختلاف، وتعدّد أقوال، فإن احتمل اللفظ جميعها وأمكن أن تكون مرادة منه، وجب حمله على جميعها ما أمكن، سواء كان احتماله لها مساويا، أو كان في بعضها أرجح من بعض، وإلا فحمله على بعضها دون بعض إلغاء للفظ بالنسبة إلى بعض محتملاته من غير موجب، وهو غير جائز، ولأنه لو جاز أن يكون مرادا، فإعمال اللفظ بالنسبة إليه أحوط من إهماله، نعم إن كان احتماله لها متفاوتا في الرجحان، جاز في مقام الترجيح تقديم الأرجح فالأرجح، بحسب دلالة اللفظ عليه، أو جلالة قائله، أو عاضده الخارجي، وغير ذلك من وجوه الترجيحات.

ومثال ذلك، أعني: احتمال اللفظ للوجوه المتعددة قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: 75]. قيل هي:

مساقط النجوم في المغرب، وقيل: إن منه نزول القرآن لأنه نزل في ثلاث وعشرين سنة(1)؛ فاللفظ يحتمل القولين فيجوز أن يكون القسم بهما مرادا لله عز وجل لأنهما عظيمان لا

(1) الإكسير في علم التفسير (1/ 42-39) سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين – المحقق: عبد القادر حسين – الناشر: مكتبة الآداب القاهرة- 1977م.

سيما على قول من يقول: يجوز إرادة حقيقة اللفظ، ومجازه جميعا منه[1]، وكذلك الأشياء التي أقسم الله بها نحو: ﴿وَالضُّحى﴾ [الضحي: 1]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشى﴾ [الليل: 1] قيل: المراد القسم بحقائقها لعظم الآيات فيها، وقيل: القسم بخالقها وربها على حذف المضاف، أي: وربّ الضحى، والليل، والشمس، والقمر، فيجوز إرادة المعنيين في القسم، وأنه تعالى أقسم بنفسه، وبعظم آياته الصادرة عن قدرته، فيكون هذا في الحقيقة قسما بذاته وصفته»(2).

ثم يفصل رحمه الله الكلام عن أهمية قانون التفسير وفوائده فيقول:

«واعلم أن التزام هذا القانون في التفسير يدفع عنك كثيرا من خبط المفسرين بتباين أقوالهم، واختلاف آرائهم، وإنما ينتفع بالتزام هذا القانون من كانت له يد في معرفة المعقول، والمنقول، واللغة وأوضاعها، ومقتضيات ألفاظها، والمعاني، والبيان، بحيث إذا استبهم عليه تفسير آية، وتعارضت فيها الأقوال، صار إلى ما دلّ عليه القاطع العقلي، أو النقلي على تفصيل سبق، ثم إلى مقتضى اللفظ لغة، ونحو ذلك. أما من كان قاصرا فيما ذكرناه، فلا ينتفع بما قررناه لأنه يكون كمن له سيف قاطع، لكن لا تقلّه يده لعلة به، فيقول كما قال صخر بن عمرو عند ذلك:

أهمّ بفعل الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

فإن قلت: لا شك أن المفسرين نقلوا كل ما بلغهم من وجوه التفسير، ولم يتعرّض أحد منهم لما ذكرت، فدل على أنه غير معتبر، ويؤكد ذلك أنهم تتبّعوا ألفاظ القرآن ومعانيه، فلم

(1) وهو مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ومعه جمهورالشافعية أن اللفظ يمكن أن يراد منه الحقيقة والمجاز معا فنقل عنه في تفسير اللمس في قوله تعالى ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [**النساء**: 43: هي محمولة على الجس باليد حقيقة وعلى الوقاع مجازا [انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (2/ 400 -401) - لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ط. دار الكتبي - الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1994م.

(2) الإكسير في علم التفسير (1/ 42-39) سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين - المحقق: عبد القادر حسين - الناشر: مكتبة الآداب القاهرة- 1977م.

يتركوا منها شيئا إلا تكلموا عليه، فإخلالهم مع ذلك بهذا القانون الذي زعمت: أن لا سبيل إلى الانتصاف من علم التفسير بدونه بعيد جدا.

قلت: نقل المفسرون كل ما بلغهم من وجوه التفسير، وعدم تعرضهم للقانون الذي ذكرته لا يدل على عدم اعتباره لجواز أنهم نقلو ما نقلوه ليعتبر بالقانون المذكور، ألا ترى أن رواة الحديث نقلوا كل ما بلغهم منه: من صحيح وسقيم، ثم إن جهابذة النقد منهم وضعوا للحديث قانونا معتبرا اعتبروا به أحوال الرواة، ونقّحوا به إحكام الروايات، حتى عُرِفَ السقيمُ من الصحيح، والمعدّل من الجريح، واتضح المبهم، وفصح الأعجم، وزال الإشكال، وارتفع الإجمال.

ثم إن الفقهاء تسلّموا الحديث من أهله، وفيه المتعارض والموهم للتناقض، فانتدبت له نقادهم وهم الأصوليون، فوضعوا له قانون الأصول، فاعتبروه منه، فأزالوا تعارضه، ونفوا تناقضه، بحمل مطلقه على مقيّده، وعامّه على خاصّه، وإعمال ناسخه، وإهمال منسوخه، فاستخرجوا بذلك لأنفسهم أقوالا في الفقه متعارضة، وآراء مختلفة متناقضة، فتسلمها أهل كل مذهب عن إمامهم، فاجتهدوا فيها باعتبارها قوانين ذلك الإمام، وقواعد مذهبه تارة بتقرير النصين، وحملها على اختلاف حالين، وتارة بطرد القولين بالنقل والتخريج في المسألتين، حتى جعلوا له مذهبا واحدا، الفتيا عليه لا تكاد تختلف، ولم يقل أحد: إن نقل المحدثين، والأئمة، والفقهاء لجميع ما صار إليهم، دليل على عدم اعتبار القوانين المميزة لما يجب إهماله، كذلك هاهنا ولا فرق. ثم إنّا ما رأينا، ولا سمعنا، ولا عقلنا أن أحدا يفتح طريقا إلى مقصد نجيب يوصل إليه قطعا، وهو سهل سمح خال من حجر، وخطر، وعارض سوء، يقال له:

إن أحدا ممن تقدمك لم يفتح هذا الطريق، وذلك دليل على أنه غير موصل إلى المقصود به إذ هذا استدلال بالجهل، أو العدم على العلم الموجود، ومن الجائز غفل عنه المتقدم عما تنبه عليه المتأخر، وإلا لوجب أن لا يزداد علم الشريعة عما كان عليه في أول طبقاته، وقد زاد زيادة كثيرة، وما ذاك إلا لاستدراك المتأخرين على من سبقهم، وزيادتهم على ما قرروه،

وتنبيههم على ما أغفلوه، والله أعلم بالصواب»(1).

الإمام القاسمي(2) رحمه الله وملامح أصول التفسير وقواعده:

- وقد تكلم القاسمي رحمه الله في مقدمة تفسيره عن بعض قواعد التفسير والتي يعتمد عليها في استنباط معاني ومرادات الكتاب الكريم وبيان تفسيره فيقول رحمه الله:

قاعدة في أمهات مآخذه:

الناظر في القرآن، لطلب التفسير مآخذ كثيرة؛ أمهاتها أربعة:

الأول النقل عن النبيّ ﷺ:

وهذا هو الطِّراز المُعلم(3)، لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع، فإنه كثير. ولهذا قال أحمد: ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير، قال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة، وإلا فقد صح من ذلك كثير، كتفسير الظلم بالشرك في آية الأنعام. والحساب اليسير بالعرض، والقوة بالرمي في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا

---

(1) الإكسير في علم التفسير (1/ 44-43).

(2) جمال الدين (أو محمد جمال الدين) بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط: إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الأدب. مولده ووفاته في دمشق، انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرى والبلاد السورية، فأقام في عمله هذا أربع سنوات (1308 - 1312 هـ ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة. له [بخلاف التفسير]مؤلفات عدة منها: (الفتوى في الإسلام - ط) و(إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق - ط) و(شرح لقطة العجلان - ط) و(نقد النصائح الكافية - ط) و(مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن - ط) و(موعظة المؤمنين - ط) اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي، و(شرف الأسباط - ط) توفي 1914 م [انظر ترجمته الأعلام للزركلي (2/ 135)]

(3) قال الخليل بن أحمد: " الطراز: الثوب الحسن المعلم، ومنه: رجل طراز مطرز، لتعليمه الثياب، ويقال للرجل القديم: إنه لمن الطراز الأول.. والطراز: العلم نفسه " [معجم العين للخليل بن أحمد (7/ 356) ط.دار ومكتبة الهلال] والمراد هنا أن النقل عن النبي ﷺ هو المقدم كما يقدم الطراز المعلم على غيره لنفاسته وجودته.

لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

الثاني الأخذ بقول الصحابي:

فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ، كما قاله الحاكم في مستدركه. وقال أبو الخطاب، من الحنابلة: يحتمل أن لا يرجع إليه إذا قلنا: إن قوله ليس بحجة. والصواب الأول، لأنه من باب الرواية لا الرأي.

قلت: ما قاله الحاكم نازعه فيه ابنُ الصلاح وغيرُه من المتأخرين، بأن ذلك مخصوص بما فيه سبب النزول أو نحوه، مما لا مدخل للرأي فيه، ثم رأيت الحاكم نفسه صرح به في علوم الحديث فقال: ومن الموقوفات تفسير الصحابة، وأما من يقول إن تفسير الصحابة مسند، فإنما يقوله فيما فيه سبب النزول، فقد خصص هنا، وعمّم في المستدرك. فاعتمد الأول، والله أعلم[1].

الثالث الأخذ بمطلق اللغة:

فإن القرآن نزل بلسان عربي، وهذا قد ذكره جماعة، ونص عليه أحمد في مواضع، لكن نقل الفضل بن زياد[2] عنه أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر؟ فقال: ما يعجبني. فقيل: ظاهره المنع، ولهذا قال بعضهم في جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد،

(1) محاسن التأويل (1/ 7) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء الكتب العربية – عيسى الحلبي- 1957م.

(2) الفضل بن زياد، القطان: أحد أصحاب أحمد بن حنبل وممن أكثر الرواية عنه، قال: أبو بكر الخلال: والفضل ابن زياد من المتقدمين عند أبي عبد الله، وكان أبو عبد الله (أحند بن حنبل) يعرف قدره ويكرمه،، ويصلي بأبي عبد الله.[انظر ترجمته في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (12 / 359) ط. دار الكتب العلمية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الطبعة: الأولى، 1417 هـ

وقيل:

الكراهة تحمل على من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا يوجد غالبا إلا في الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها. وروى البيهقي في (الشّعب) عن مالك قال: لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا[1].

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع:

وهذا هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، والذي عناه عليّ بقوله: إلا فهما يؤتاه الرجل في القرآن. ومن هنا اختلف الصحابة في معنى الآية، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره. ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل[2].

الشيخ أحمد بن تيمية[3] رحمه الله وأصول التفسير:

وللشيخ أحمد بن تيمية رحمه الله كلام جيد عن أصول التفسير، ذكر فيه من القواعد الكلية المعينة على فهم كلام الله، ما يُكَوِنُ – مع كلام باقي أهل العلم ممن تكلموا في هذا الباب – ملامحَ القانون العام، المحتوي على أصول التفسير، تعد جميعها نقطة انطلاق نحو التوسع في هذا العلم، والاهتمام به كمدخل رئيس، للتوسع في الدراسات القرآنية.

فقد تكلم في مقدمته لأصول التفسير عن: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة،

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب تعظيم القرآن، فصل في ترك التفسير بالظن، الحديث رقم 2090

(2) محاسن التأويل (1/ 9-8).

(3) ابن تَيْمِيَّة (661 ه – 728 هـ) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، ومات بقلعة دمشق، من مؤلفاته مجموع الفتاوي، ومنهاج السنة، درء تعارض العقل والنقل وغيرها [انظر الأعلام للزركلي 1 / 144]

وتعرض فيها إلى تفسير الصحابة لكتاب الله عز وجل، وكلام التابعين عن التفسير، وبيَّن أن من التابعين من تلقي جميع التفسير عن بعض الصحابة الكرام، وألقى الضوء على اختلاف السلف في التفسير، وبين أن هذا من نوع اختلاف التنوع، وتكلم عن فائدة معرفة أسباب النزول في هذا الباب، وبيان حكم الإسرائيليات، وفوائد تلقي الأمة للأخبار بالقبول، وأهمية ذلك في مجال التفسير، وأشار رحمه الله إلى أهمية السند والتوثيق في نقل التفسير عن الصحابة الكرام، والسلف الصالح، وضرورة الاعتماد على الصحيح من الروايات في تفسير كلام الله، والبعد عن الموضوعات، وتكلم عن أهم التفاسير الموجودة حتى زمانه،وخصائصها بحسب رؤيته.

وسوف نعرض لنماذج من أقواله توضح تفصيله لهذه الأمور التي تمثل جملة من قواعد أصول التفسير فيقول رحمه الله:

تفسير القرآن بالقرآن:

«فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يُفسر القرآنُ بالقرآن؛ فما أُجمل في مكان، فإنه قد فُسر في موضع آخر، وما اختُصر من مكان، فقد بسط في موضع آخر(1).

تفسير القرآن بالسنة النبوية:

«فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له؛ بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(1) انظر: مجموع الفتاوى (13/ 363) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني – المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم – الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية – عام النشر: 1416هـ/ 1995م.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعني السنة.والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن؛ لا أنها تتلى كما يتلى وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله.

قال: «فإن لم تجد؟» قال بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال أجتهد رأيي.

قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله». وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد»(1).

أقوال الصحابة والتفسير:

«يجب أن يُعلم أن النبي ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَلَّ في أعيننا، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين، قيل: ثماني سنين، ذكره مالك(2).

(1) انظر: مجموع الفتاوى (13/ 364)،وهذا الحديث رواه أبو داود والترمذي واللفظ لأبي داود،كتاب الأقضية،باب اجتهاد الرأي في القضاء، الحديث رقم 3592

(2) رواه مالك في الموطأ،كتاب القرآن،باب ما في القرآن صـ 205 بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط.دار =

وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82،محمد: 24]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: 68]، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] وعقل الكلام متضمن لفهمه.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك. وأيضا، فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة، فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر»(1).

«وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛ لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين: مثل عبد الله بن مسعود.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثنا أبو كريب قال أنبأنا جابر بن نوح أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: والذي لا إله غيره

=

إحياء التراث، وفي الطبقات الكبرى لابن سعد أنها أربع سنوات [4/ 164] بتحقيق إحسان عباس ط.دار صادر الطبعة الأولى.

(1) انظر: مقدمة في أصول التفسير (1/ 10-9) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي - الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان - الطبعة: 1490هـ/ 1980م.

ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته.

وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

ومنهم الحبر البحر «عبد الله بن عباس» ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار أنبأنا وكيع أنبأنا سفيان عن الأعمش عن مسلم عن مسروق قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

ثم رواه عن يحيى بن داود عن إسحاق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال: نِعم تُرجمانُ القرآن ابن عباس، ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة، وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابنُ عباس ستا وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟

وقال الأعمش عن أبي وائل استخلف عليٌّ عبدَ الله بن عباس على الموسم فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة - وفي رواية سورة النور - ففسرها تفسيرا لو سمعته الروم والترك والديلم[1] لأسلموا، ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس»[2].

«ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ فمن خالف قولهم وفسر القرآن

---

(1) قوم من العجم تقع بلادهم شمال إيران

(2) انظر: مجموع الفتاوى (13/ 365).

بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعا ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها إما عقلية وإما سمعية. كما هو مبسوط في موضعه.

والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه وفسروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق. وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره»(1).

الإسرائيليات والتفسير:

«ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب. فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه، والثالث ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا، ويأتي عن المفسرين

(1) مجموع الفتاوى: (13/ 362).

خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم.

ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 22] فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا.

فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث. فدل على صحته؛ إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فيقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾[الكهف: 22] فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا﴾ [الكهف: 22] أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم، فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال؛ فهو ناقص أيضا، فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، كذلك من نصَب الخلافَ فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس

بصحيح، فهو كلابس ثوبي زور[1] والله الموفق للصواب»[2].

أهمية أقوال التابعين في بيان معاني القرآن وتفسيره:

«ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها؛ ولهذا قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به؛ ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الإمام أحمد وغيره، ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسيرَ عن الصحابة، كما تلقوا عنهم علمَ السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال»[3].

«إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آيةً في التفسير كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: " عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث

---

(1) هذا جزء من حديث متفق عليه وتمامه: " المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبي زور "، قال النووي في شرحه: " قال العلماء معناه المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ماليس عنده يتكثر بذلك عند الناس ويتزين بالباطل فهومذموم؛ كما يذم من لبس ثوبي زور، قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع، ومقصوده أن يظهر للناس أنه متصف بتلك الصفة ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه، فهذه ثياب زور ورياء، وقيل هو كمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنهما له، وقيل هو من يلبس قميصا واحدا ويصل بكميه كمين آخرين فيظهر أن عليه قميصين، وحكى الخطابى قولا آخر أن المراد هنا بالثوب الحالة والمذهب والعرب تكني بالثوب عن حال لابسه ومعناه أنه كالكاذب القائل مالم يكن" شرح النووي على صحيح مسلم (14 / 109 –110) ط. دار إحياء التراث، الطبعة الثانية

(2) انظر مجموع الفتاوى(368–367).

(3) مقدمة في أصول التفسير (1/ 11).

عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها" وبه إلى الترمذي.

قال: حدثنا الحسين بن مهدي البصري حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا وبه إليه قال حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال: فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مُزاحم، وغيرهم من التابعين، وتابعيهم، ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين، في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافا، فيحكيها أقوالا، وليس كذلك؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه، أو نظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجةً، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجةً على غيرهم، ممن خالفهم، وهذا صحيح أما إذا أجمعوا على الشيء، فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة **العرب** أو أقوال الصحابة في ذلك»[1].

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى(13/ 370).

موقفه من التفسير بالرأي:

«فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام؛ حدثنا مؤمل حدثنا سفيان حدثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»(1) وبه إلى الترمذي.

قال: حدثنا عبد بن حميد حدثني حسان بن هلال قال حدثنا سهيل أخو حزم القطعي قال حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، قال الترمذي هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم(2).

وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أن يُفَسَّر القرآنُ بغير علم، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا؛ أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم.

فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أُمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار وإن وافق حكمُه الصواب، في نفس الأمر؛ لكن يكون أخف جرما ممن

---

(1) هذا الحديث والذي قبله هما في مسند الإمام أحمد الأول برقم 2429 والثاني 2069 وهما في مسند عبد الله بن عباس؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، بتحقيق شعيب الأرنأوط وعادل مرشد وآخرون ط.مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى 2001 م

(2) سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، الحديث رقم(2952)

أخطأ والله أعلم، وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به وتكلف ما لا علم له به والله أعلم. ولهذا تحَرَّجَ جماعةٌ من السلف عن تفسير ما لا علم لهم»(1).

الاختلاف الوارد عن السلف في التفسير:

«الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمى، غير المعنى الآخر، مع اتحاد المسمى بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة كما قيل في اسم السيف: الصارم والمُهَنَّد، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله ﷺ وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضادا لدعائه باسم آخر، بل الأمر كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110].

الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل، وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى «لفظ الخبز» فأُرِى رغيفًا، وقيل له: هذا، فالإشارة إلى نوع هذا، لا إلى هذا الرغيف وحدَه، مثال ذلك: ما نقل في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32]

فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المُضيع للواجبات، والمنتهك للمُحرمات، والمقتصد يتناول

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى(13/ 371).

فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون هم أصحاب اليمين ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10- 11]»[1].

[أنواع الاختلاف الوارد عن السلف في التفسير]:

«الاختلاف في التفسير على نوعين: منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يعلم بغير ذلك.

إذ العلم إما نقلٌ مصدق وإما استدلالٌ محقق، والمنقول إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم، والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم، وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه، وهذا القسم الثاني من المنقول؛ وهو ما لاطريق لنا إلى الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه، فالكلام فيه من فضول الكلام، وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته، فإن الله نَصَب[2] على الحق فيه دليلا.

فمثال ما لا يفيد، ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولًا نقلا صحيحا عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه[3]».

---

(1) انظر مقدمة في التفسير (1/ 11: 14).

(2) نصب الشيء: بمعنى أقامه؛ انظر مختار الصحاح مادة: نصب صـ311 ط.المكتبة العصرية بتحقيق يوسف الشيخ،الطبعة الخامسة 1999 م

(3) هذا الحديث بهذا اللفظ ليس موجودا في كتب السنة، وإنما هو مختصر من حديث رواه الإمام أحمد في =

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلا صحيحا فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين؛ لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى؛ ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين، ومع جزم الصاحب فيما يقوله، فكيف يقال: إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم؟والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه، ولا تفيد حكاية الأقوال فيه، هو كالمعرفة لما يروي من الحديث الذي لا دليل على صحته»[1].

وأما النوع الثاني من سببي الاختلاف، وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين، وتابعيهم بإحسان؛ فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صِرفا[2] لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين، مثل تفسير عبد الرزاق، ووَكِيع، وعبد بن حُمَيد، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، ومثل تفسير الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وبَقِيّ بن مَخْلد، وأبي بكر ابن المنذر، وسفيان بن عيينة، وسُنَيْد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي سعيد الأشج، وأبي عبد الله بن ماجه، وابن مردويه:

أسباب النزول وقواعد التفسير:

«وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إن كان المذكور

=

مسنده وتمامه: " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقا لم تكذبوهم، وإن كان باطلا لم تصدقوهم " الحديث رقم (17225) ورواية صحيح البخاري: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136]، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، الحديث رقم (4485)

(1) مقدمة في التفسير (1/ 20).

(2) الصِرف بكسر الصاد: الخالص، ويقال لكل خالص من شوائب الكدر صرف لأنه صُرِف عنه الخلط،انظر المصباح المنير لأحمد بن علي الفيومي، مادة صرف (1/ 338) ط.المكتبة العلمية –بيروت

شخصا؛ كأسباب النزول المذكورة في التفسير، كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية اللعان نزلت في عويمر العَجْلاني أو هلال بن أمية، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وإن قوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ﴾ [المائدة: 49] نزلت في بني قُرَيْظَة والنَّضِير، وأن قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَه﴾ [الأنفال: 16] نزلت في بَدْر، وأن قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [المائدة: 106] نزلت في قضية تَمِيم الداري وَعَديّ بن بَدَّاء، وقول أبي أيوب إن قوله: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]: نزلت فينا معشر الأنصار، الحديث، ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين.

فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين، إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرًا بمدح أو ذم، فهي متناولة لذلك الشخص وغيره، ممن كان بمنزلته أيضًا.

ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء: أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف، رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها.

وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول: عني بهذه الآية كذا.وقد تنازع العلماء في قول الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت

لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله في المسند. وأكثر المسانـد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند.

وإذا عرف هذا، فقول أحدهم: نزلت في كذا، لا ينافي قول الآخر: نزلت في كذا، إذا كان اللفظ يتناولهما، كما ذكرناه في التفسير بالمثال، وإذا ذكر أحدهم لها سببا نزلت لأجله وذكر الآخر سببا، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين، مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب»(1).

الشيخ رشيد رضا(2) رحمه الله والكلام عن ملامح القانون الجامع لأصول التفسير:

تكلم رحمه الله عن رؤية عامة لتفسير كتاب الله عز وجل ذكر فيها بعض الأصول التي يجب مراعاتها عند التعرض لتفسير كتاب الله عز وجل ومحاولة بيان معانيه وقد أشار أن هذه الأصول قد استفادها من دروس الشيخ محمد عبده رحمه الله في التفسير وعبر عنها.

فقال رحمه الله: «التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل، وربما كان من أصعب الأمور وأهمها، وما كل صعب يُترك؛ ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه.

---

(1) انظر مقدمة في التفسير (1/ 16-15).

(2) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بَهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام) وتعلم فيها وفي طرابلس. وتنسك، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة 1315 هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. وكان قد اتصل به قبل ذلك في بيروت. ثم أصدر مجلة (المنار) لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي، توفي بالقاهرة سنة 1935 م أشهر آثاره مجلة (المنار) أصدر منها 34 مجلدا، و(تفسير القرآن الكريم – ط) اثنا عشر مجلدا منه، ولم يكمله، و(تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده – ط) ثلاثة مجلدات، و(نداء للجنس اللطيف – ط) و(الوحي المحمدي – ط) [انظر الأعلام للزركلي (6/ 126)

ووجوه الصعوبة كثيرة:

أهمها: أن القرآن كلام سماوي تنزل من حضرة الربوبية - التي لا يُكتنه كُنهها-[1] على قلب أكمل الأنبياء ﷺ، وهو يشتمل على معارف عالية، ومطالب سامية، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية، والعقول الصافية، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال الفائضين من حضرة الكمال ما يأخذ بتلبيبه[2].

ويكاد يحول دون مطلوبه، ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه؛ لأنه إنما أنزل الكتاب نورا وهدى، مبينا للناس شرائعه وأحكامه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه.

والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم، في حياتهم الدنيا، وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له وأداة أو وسيلة لتحصيله»[3].

---

(1) الكنه الحقيقة والغاية والنهاية، وفي مختار الصحاح: كنه الشيء: نهايته، يقال: أعرفه كنه المعرفة، وقولهم: لا (يكتنهه) الوصف بمعنى لا يبلغ كنهه [انظر مختار الصحاح صـ274]، فالمعنى أنه لا يدرك حقيقتها أحد إلا الله .

(2) التلبيب موضع الثياب التي على العنق والصدر؛لأن اللبة موضع الذبح من العنق، يقال: أخذ بتلبيب فلان: إذا جمع عليه ثوبه الذي هو لابسه عند صدره [انظر تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي (4 / 193)، والمعنى هنا مجاز عن انبهار العقل والقلب بمعاني وبلاغة القرآن فكأن هذه المعاني أخذت بتلبيب العقل والقلب.

(3) انظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (1/ 17) المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني - الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة النشر: 1990 م.

[وجوه وأنواع التفسير]:

وتكلم رحمه الله عن وجوه من أصول التفسير لكتاب الله عز وجل فقال:

التفسير له وجوه شتى:

(أحدها): النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة.

ليُعرف به علوُّ الكلام وامتيازُه على غيره من القول، سلك هذا المسلك الزمخشري[1]، وقد ألم بشيء من المقاصد الأخرى ونحا نحوه آخرون.

(ثانيها): الإعراب: وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الألفاظ منها.

(ثالثها): تتبع القصص.

وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ والإسرائيليات، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل، والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم، بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم، من غير تفريق بين غث وسمين، ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل.

(رابعها): غريب القرآن.

(خامسها): الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها.

وقد جمع بعضهم آيات الأحكام وفسروها وحدها، ومن أشهرهم أبو بكر بن العربي[2]

---

(1) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة، فجاور بها زمنا فلقب بجار الله.،وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيهاسنة 538 هـ
أشهر كتبه (الكشاف – ط) في تفسير القرآن، و(أساس البلاغة – ط) و(المفصل – ط) ومن كتبه (المقامات – ط) [انظر الأعلام للزركلي (7/ 178)].

(2) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربيّ: قاضٍ، من حفاظ الحديث. ولد =

وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين، يعنون بتفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات أكثر من عنايتهم بسائر الآيات.

(سادسها): الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين، ومحاجة المختلفين.

وللإمام الرازي(1) العناية الكبرى بهذا النوع.

(سابعها): المواعظ والرقائق.

وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن.

(ثامنها): ما يسمونه بالإشارة(2)

=

في إشبيلية، ورحل إلى المشرق، وولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس، ودفن بها. قال ابن بشكوال: ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها، توفي ودفن بفاس 453 هـ، من كتبه (العواصم من القواصم – ط) جزان، و(عارضة الأحوذي في شرح الترمذي – – ط) و(أحكام القرآن – ط) مجلدان، و(القبس في شرح موطأ ابن أنس) [انظر الأعلام للزركلي (6/ 230)].

(1) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الريّ) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة 606 هـ، من تصانيفه (مفاتيح الغيب – ط) ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و(لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات – ط) و(معالم أصول الدين – ط) و(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين) [انظر الأعلام للزركلي (6/ 313)].

(2) التفسير الإشاري: تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا، [انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني 2/ 78 ط.عيسى الحلبي، الطبعة الثالثة؛ فهذا التفسير لا يخرج عن قواعد التفسير ولا اللغة العربية؛ انظر أيضا: التفسير الإشاري للقرآن الكريم لـمحي الدين حسين يوسف الإسنوي ط.العشيرة

=

وقد عرفت أن الإكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي؛ لهذا كان الذي نعنى به من التفسير هو ما سبق ذكره، أي من فهم الكتاب من حيث هو دين، وهداية من الله للعالمين، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر الناس في هذه الحياة الدنيا، وما يكونون به سعداء في الآخرة ويتبعه بلا ريب: بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته أي عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التي عدوها مشكلة»(1).

[مراتب التفسير]:

ويقول رحمه الله: «للتفسير مراتب أدناها: أن يبين بالإجمال ما يُشرب القلبَ عظمةَ الله وتنزيهه، ويَصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير، وهذه هي التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور:

(أحدها): فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن:

بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد، من ذلك لفظ «التأويل» اشتهر بمعنى التفسير مطلقا أو على وجه مخصوص، ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾ [الأعراف: 53].

فما هذا التأويل؟ يجب على من يريد الفهمَ الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت

=

المحمدية.

(1) المصدر السابق: (1/ 18-17).

في الملة؛ ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى، فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظَ من القرآن نفسَه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استُعمل بمعان مختلفة كلفظ «الهداية» وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يُفسر بعضُه ببعض، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

(ثانيها): الأساليب، فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة:

وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه. نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهمُ ما نهتدي به بقدر الطاقة، ويحتاج هذا إلى علم الإعراب، وعلم الأساليب (المعاني والبيان)، ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب، ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع، أتحسبون أن ذلك كان طبيعيا لهم؟ كلا، وإنما هي ملكةٌ مكتسبة بالسَماع والمحاكاة، ولذلك صار أبناءُ العرب أشدَّ عجمةً من العجم، عندما اختلطوا بهم، ولو كان طبيعيا ذاتيا لهم لما فقدوه في مدة خمسين سنة من بعد الهجرة.

(ثالثها): علم أحوال البشر:

فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر، قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل،

وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

قال الأستاذ الإمام(1): أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: 213]. الآية- وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا؟ وما معنى تلك الواحدة التي كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أم ضارة؟ وماذا كان من آثار بعثه النبيين فيهم.

أجملَ القرآنُ الكلامَ عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة.

(رابعها): العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن:

فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناسُ في عصر النبوة من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه؟ هل يكتفي من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد بأن يقولوا تقليدا لغيرهم: إن الناس كانوا على باطل، وإن القرآن دحض أباطيلَهم في الجملة؟ كلا.

وأقول الآن: يروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية(2)» والمراد أن من نشأ في الإسلام، ولم يعرف حالَ

---

(1) يقصد الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية رحمه الله

(2) جاء في مصنف ابن أبي شيبة قريب من المذكور حيث جاء فيه: " قال: خطبنا عمر بن الخطاب فقال قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب»، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: «حين يسوس أمرهم من لم يعالج أمر الجاهلية، ولم يصحب الرسول ﷺ [انظر مصنف =

الناس قبلَه، يجهلْ تأثيرَ هدايتِه وعنايةَ الله بجعله مُغيِّرا لأحوال البشر، ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمرٌ عادي، كما ترى بعض الذين يتربون في النظافة والنعيم، يعدون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأمور وتأثير تلك الآداب من أين جاء؟

(خامسها): العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه:

وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشئون دنيويها وأخرويها.

فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان:

(أحدهما): جافٍ مُبعِدٌ عن الله وعن كتابه: وهو ما يقصد به حلُّ الألفاظ وإعراب الجمل، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرا، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما.

(ثانيهما): وهو التفسير الذي قلنا: إنه يجب على الناس - على أنه فرض كفاية - هو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذَهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله: (هدى ورحمة)(1) ونحوهما من الأوصاف. فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن»(2).

***

=

أبو بكر ابن أبي شيبة (6/ 410) ط.الرشد تحقيق كمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى 1409 هـ]

(1) يقصد قول الله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: 2-3]

(2) المصدر السابق: (1/ 22-19).

المبحث الأول
القرآن الكريم كلام الله المحفوظ

من أهم الأسس والمداخل التي نلجُ منها إلى قراءة كتاب الله عز وجل، ونتعرف على القانون الضابط لذلك، الإلمامُ بطرف من المعرفة والعلم والمعلومات حول النص الإلهي المقدس الخاص بأمة الإسلام والذي هو القرآن الكريم.

ما هو هذا النص وما طبيعته؟ من أين أتى وما هو مصدره؟ وكيف وصل إلينا؟ وعلى يد من وصل هذا النص؟ وصحة نسبة النص إلى الإله جل وعلا؟ وعلى ماذا يحتوي هذا النص؟ وما هي الرسالة التي يحملها لنا وما مقصدها؟ والتعرف على بعض وجوه إعجازه، وما معنى كون القرآن كلام الله المحفوظ وأثر ذلك في معلوماته ومعانيه ودلالاته وما يتفرع عنه من العقائد والمعارف والعلوم والتشريعات والأحكام، وكيف تؤثر كل هذه العوامل في علم أصول التفسير، وفي طريقتنا لقراءة كتاب الله؟

فنقطة الانطلاق للإبحار في علوم القرآن الكريم عامة، وأصول وضوابط التفسير خاصة، هي تكوين الفكرة الصحيحة عن هذا الكتاب الكريم، ومعرفة ماهيته وخصائصه وأهدافه، وكيفية التفاعل معه كمسلمين؛ فيدرك العقلُ بعد ذلك أهميةَ التوصل لقانونٍ وميزانٍ يمثل المنهجَ المنضبط لمعرفة مرادات هذا النص الشريف، وتحصيل فوائده، وإدراك معانيه،والذي يظهر بعد ذلك في صورة علم أصول التفسير بمباحثه المتنوعة.

وقد وجدنا أنه يجب علينا في البداية الكلامُ عن توثيق التراث العلمي في تاريخ أمة الإسلام كقاعدة للانطلاق نحو الحديث عن كتاب الله، وكيفية وصوله محفوظًا عبر القرون لأمة الإسلام.

حول توثيق التراث في تاريخ الأمة الإسلامية:

التراث لغة واصطلاحًا:

كلمة تراث في معناها اللُّغوي المعجمي من «وَرِثَ» وهي من الألفاظ التي انقلبت الواو تاء في أولها، وتدور معانيها حول حصولِ المتأخر على نصيب مادي، أو معنوي، ممن سبقه

يقول الله عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16]. فالتراث: الميراث والتاء فيها منقلبة عن واو؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: 19]. يقول القرطبي: أَيْ مِيرَاثَ الْيَتَامَى. وَأَصْلُهُ الْوِرَاثُ مِنْ وَرِثْتُ، فَأَبْدَلُوا الْوَاوَ تَاءً، كَمَا قَالُوا فِي تُجَاهِ وَتُخَمَةٍ وَتُكَأَةٍ وَتُؤَدَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ(1).

قال ابن منظور: «التُّرَاثُ: مَا يَخْلُفُهُ الرَّجُلُ لِوَرَثَتِهِ، والتاءُ فِيهِ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ، وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنه قَالَ: بَعَثَ ابْنُ مِرْبَعٍ الأَنصاري إِلى أَهل عَرَفَةَ، فَقَالَ: اثبتوا عَلَى مَشاعِرِكم هَذِهِ، فإِنكم عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرث إِبراهيم؛ قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: الإِرْث أَصله مِنَ الْمِيرَاثِ، إِنما هُوَ وِرْثٌ فَقُلِبَتِ الْوَاوُ أَلفاً مَكْسُورَةً لِكَسْرَةِ الْوَاوِ، كَمَا قَالُوا للوِسادة إِسادة، وللوِكافِ إِكاف، فكأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنكم عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْ وِرْثِ إِبراهيم الَّذِي تَرَكَ النَّاسَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَهُوَ الإِرْثُ»(2).

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (20/ 53) المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي - تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش -الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة -الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م.

(2) انظر: لسان العرب (2/ 201) المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى -الناشر: دار صادر - بيروت -الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.

التراث الإسلامي في الاصطلاح:

يستخدم للدِّلالة على الإنتاج العلمي والفكري الخاص بأمة الإسلام (من العلوم الشرعية وغيرها في المجالات المختلفة) الذي ظهر على يد الأئمة المجتهدين والعلماء عبر تاريخ الأمة الإسلامية، منذ القرون الأولى، إلى ما قبل مائة عام من الآن، وهنا يجب أن ننتبه إلى عدم جواز استخدام كلمة التراث «للدلالة على الكتاب والسنة» بالرغم من أنهما يمثلان المنطلق للعلوم الشرعية؛ وذلك لأن هذا المصطلح انتشر وذاع استخدامه للتعريف بالإنتاج الفكري البشري، فلا يجوز استخدام كلمة التراث للدلالة على القرآن والسنة؛ وذلك لأنهما يمثلان الوحي الإلهي المقدس المعصوم المطلق المتعالي، فالقرآن وحيٌ إلهيٌ معصومٌ، والسنة النبوية الثابتة كذلك وحي إلهي معصوم، وكما نقل عن الإمام الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يطلق على النبي ﷺ صاحب الوحيين.

لكن يمكن أن يطلق على ما تركه لنا رسول الله ﷺ ميراثا؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا أَهْلَ السُّوقِ، مَا أَعْجَزَكُمْ» قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: «ذَاكَ مِيرَاثُ رَسُول الله ﷺ يُقْسَمُ، وَأَنْتُمْ هَاهُنَا لَا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ» قَالُوا: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: «فِي الْمَسْجِدِ» فَخَرَجُوا سِرَاعًا إِلَى الْمَسْجِدِ، وَوَقَفَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُمْ حَتَّى رَجَعُوا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَا لَكُمْ؟» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ فَقَدْ أَتَيْنَا الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا، فَلَمْ نَرَ فِيهِ شَيْئًا يُقْسَمُ. فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: «أَمَا رَأَيْتُمْ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدًا؟» قَالُوا: بَلَى، رَأَيْنَا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وَقَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَيْحَكُمْ، فَذَاكَ مِيرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ»(1).

والنتاج العلمي للأئمة والعلماء ليس معصومًا، ولكنه محترم معتبر لصدوره عن العلماء

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط (2/ 115)، ويمكن أن يستفاد هذا الإطلاق أيضا من حديث "، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر" رواه أبوداود في سننه كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، الحديث رقم (3641)

المجتهدين العالمين بأصول الشريعة وفروعها، ولأنه ثمرة منهج صحيح متكامل، ليس له معارض عقلي في التعامل مع النص الشرعي المقدس«القرآن، السنة»(1).

التوثيق لغة واصطلاحًا:

التوثيق لغة: هو الإحكام والتثبيت.

يقول ابن منظور: «وثق: الثِّقَةُ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ وَثِقَ بِهِ يَثِقُ، بِالْكَسْرِ فِيهِمَا، وِثَاقَةً وثِقَةً ائْتَمَنَهُ، وَأَنَا واثِقٌ بِهِ وَهُوَ مَوْثُوقٌ بِهِ، وَهِيَ مَوثوقٌ بِهَا وَهُمْ مَوْثُوقٌ بِهِمْ...

والوَثاقة: مَصْدَرُ الشَّيْءِ الوَثِيق المُحْكَم، وَالْفِعْلُ اللَّازِمُ يَوْثُقُ وَثاقةً، والوَثاق اسْمُ الإِيثاق؛ تَقُولُ: أوثَقْته إِيثَاقًا ووَثاقاً، وَالْحَبْلَ أَوِ الشَّيْءَ الَّذِي يُوثَق بِهِ وِثاقٌ، وَالْجَمْعُ الوُثُق بِمَنْزِلَةِ الرِّباطِ والرُّبُطِ. وأَوْثَقهُ فِي الوَثاقِ أَيْ شَدَّهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾ [محمد: 4]، والوِثاق، بِكَسْرِ الْوَاوِ، لُغَةٌ فِيهِ. ووَثُقَ الشَّيْءُ، بِالضَّمِّ، وَثاقةً فَهُوَ وَثِيقٌ أَيْ صَارَ وَثِيقًا والوَثِيقةُ فِي الأَمر إِحْكامه والأَخذ بالثِّقَةِ، وَالْجَمْعُ الوَثائقُ. وَفِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ: وَاخْلَعْ وَثائِقَ أَفْئِدَتِهِمْ؛ جَمْعُ وَثاقٍ أَوْ وَثِيقةٍ. والوَثِيقُ: الشَّيْءُ المُحْكم، وَالْجَمْعُ وِثاقٌ.

وَيُقَالُ: أَخذ بالوَثِيقة فِي أَمْرِهِ أَيْ بالثِّقَة، وتوَثَّق فِي أَمره: مِثْلَهُ، ووَثَّقْتُ الشَّيْءَ تَوْثِيقاً، فَهُوَ مُوَثَّق، والوَثِيقة: الإِحكام فِي الأَمر»(2).

التوثيق اصطلاحًا:

هو جميع أشكال الوسائل المادية والمعنوية التي ابتكرت، وصور الجهود التي بذلها المسلمون عبر تاريخهم؛ للعمل على المحافظة على نصوص الكتاب والسنة، وما تفرع عنهما،

(1) انظر في تفصيل مناهج التعامل مع التراث قبولا وردا كتاب الطريق إلى التراث لفضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة صـ46 وما بعدها ط.نهضة مصر الطبعة الرابعة 2009 م

(2) انظر: لسان العرب (10/ 371) المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى – الناشر: دار صادر – بيروت –الطبعة: الثالثة – 1414 هـ.

من المعارف والعلوم وطرق نقلها بعد ذلك لجيل بعد جيل.

و قد تبلورت صور هذا التوثيق، في علوم مختلفة، عرفت بعلوم التوثيق، احتوت على قواعد ونظم وطرق، شكلت صورةَ التوثيق ومناهجَه في تاريخ الأمة الإسلامية.

ومن وسائل التوثيق النقل الصوتي بالمشافهة، من فرد إلى فرد، ومن فرد إلى جماعة، والتوثيق بالكتابة، والنسخ، والرسم، والتصوير، وتطور الأمر في عصرنا الحديث بالتوثيق بالتسجيلات الصوتية، والمصورة، والتوثيق بالنصوص المخزنة إلكترونيًا.

بما يمكن أن نطلق عليه بمفهوم العصر الحديث علمَ ومنهجَ وطرقَ السيطرة على المعلومات، وحفظها من الضياع، أو التغيير، أو التحريف، وكذلك وسائل نقلها بعد ذلك.

منطلق التوثيق عند الأمة الإسلامية:

ولو نظرنا إلى منطلق التوثيق في الأمة الإسلامية لوجدنا أن أساسه وقاعدته في كتاب الله عز وجل؛ حيث أمر الله عز وجل بتوثيق المعاملات المالية بين المسلمين؛ فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ الله فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ.....﴾ [البقرة: من الآية282].

والمتتبع لسيرة سيدنا رسول ﷺ يجد أنه كان يأمر بتوثيق الحقوق العامة والخاصة فضلًا عن توثيق القرآن والسنة بالطرق المختلفة كما سنرى فيما سيأتي.

نماذج من الاهتمام بالتوثيق عند المسلمين، وعلاقة ذلك بتوثيق القرآن الكريم:

هذا التراث – الذي بدأ مع تدوين العلوم عند المسلمين الأوائل في أواخر القرن الثاني الهجري، وامتد إلى عصر شيخ الإسلام الباجوري (1277 هـ/ 1860 م) – هو النتاج الفكري الذي جعل لنفسه محورًا هو النص: الكتاب والسنة، النص بما اشتمل عليه من أحكام، ومن مقاصد شرعية تشتمل على قيم، وهذه المقاصد والقيم تعمل في وسط قواعد، وتعمل كل هذه المنظومة في مجال السنن الإلهية التي خلقها اللهَّ عز وجل في الكون والنفس

والمجتمع، فقد جعل المسلمون النص محورًا لحضارتهم، ومحورُ الحضارة معناه: أنهم جعلوه معيارًا للتقويم، وجعلوه منطلَقًا للخدمة، وجعلوه مرجِعًا يرجعون إليه.

ولذلك نجد أنهم قد وَلَّدوا علومًا كثيرةً، كعلم الفقه، وعلم الأصول، وعلم النحو، وعلم الصرف، وعلم الوضع، وعلم البلاغة... أرادوا بهذه العلوم أن يخدموا النص، وكذلك علم الخط يريدون به أن يخدموا النص، هذا الخط العجيب الذي يقول عنه ابنُ مقلة[1]: إن كتاب الله قد نزل على نسبة إلهية فاضلة، نظمه عجيب معجز، فلا بد أن يكتب بخط مبني على نسبة إلهية فاضلة، وتفتق ذهنُ ابن مقلة على مسألة المسدس الدائري، الذي رسم فيه الألف، واستطاع بميزان الألف أن يرسم الحروف كلها، فرسمت كل الحروف داخل المسدس داخل الدائرة.

يقول أبو حيان: لقد أوحى الله تسديس الخط لابن مقلة كما أوحى للنحل بتسديس بيوتها[2]، وليس هناك خط على وجه الأرض وإلى يومنا هذا يسير على نسبة واحدة كالخط العربي وما تفتق ذهن المسلمين بذلك إلا لأنهم قد خدموا النص، وأرادوا خدمته، وجعلوه محورًا واضحا لحضارتهم.

الفنون مثلًا وما حدث فيها من رسم وتعشيبات نباتية، وتلاعب بالخطوط، والأشكال الهندسية، والتلاعب بالألوان، كل هذا إنما يحاولون به أن يصلوا إلى خدمة شيء معين جعلوه محورًا ينطلقون منه في حياتهم.

اقتضى وجود النص مسألة التوثيق، فالتوثيق هو السؤال الأول الذي يطرح نفسه على

---

(1) محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، أبو علي: وزير، من الشعراء الأدباء، يضرب بحسن خطه المثل، توفي سنة 328 هـ [انظر ترجمته الأعلام للزركلي (6/ 273)

(2) انظر: اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، محمد علي السَّراج صـ 299 ط. دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى، 1403 هـ – 1983 م

الإنسان الذي يسعى إلى معرفة الحق، هل الذي بين يديَّ الآن هو الذي نطق به رسول اللهَّ ﷺ، سواء أكان قرآنًا، أم سنة صادرة عن النبي ﷺ فمن أجل الإجابة على هذا السؤال وُجِدَ ما يقرب من عشرين علمًا، تتعلق بعلم الرجال وعلم الأسانيد، وعلوم الجرح والتعديل، وعلوم مصطلح الحديث، علوم كثيرة تحاول أن تضبط المسألة.

ليس هناك كتاب على وجه الأرض له تلك الأسانيد المتصلة، التي يقول كل قارئ للقرآن فيها (والقارئ هنا معناه: متحمل القراءة، وعالم القراءة) لقد سمعت هذا الكلام حرفًا حرفًا بالتشكيل، وعلى هذا الخط الموجود أمامنا، من شيخي الذي ولد يوم كذا وتوفي سنة كذا، وكان اسمه كذا وكان يضحك ويقول كذا وكذا، وكان يبكي في المواقف الفلانية، تاريخ حياته كاملًا موجود في ملف في هذا العلم، وهذا الشيخ يقول أيضًا: إنه سمع هذا الكلام عن شيخ آخر، وله كل هذه المواصفات، ليس هناك أحد في هذا السند من المجاهيل التي لا نعرفها، فنحن وحتى الآن نعرف كل واحد في هذه السلسلة، وهذا النقل ليس عن شخصٍ واحدٍ يمكن أن يكذب، ويمكن أن يخطئ، ويمكن أن يضعف في موقف معين، لا عن ألف، بل قد يكون عن آلاف، فابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر، أورد ما يقرب من ألف طريق للقرآن(1)، وكتاب النشر هذا، كتاب واحد، حصر ألف طريق، كأن هناك ألفًا قد تلقى عنهم ابن الجزري، وهؤلاء الألف قد تلقوا عن ألف من مشايخهم وهكذا، والأمر أعظم من هذا بكثير.

إن المسلمين يفتخرون بكتابهم، وأنه محفوظ عليهم، وأنه وارد إليهم بالأسانيد التي لو

---

(1) قال ابن الجزري في كتاب النشر في القراءات العشر: "فهذا ما تيسر من أسانيدنا بالقراءات العشر من الطرق المذكورة التي أشرنا إليها، وجملة ما تحرر عنهم من الطرق بالتقريب نحو ألف طريق وهي أصح ما يوجد اليوم في الدنيا وأعلاه لم نذكر فيها إلا من ثبت عندنا، أو عند من تقدمنا من أئمتنا عدالته، وتحقق لقيه لمن أخذ عنه وصحت معاصرته " [النشر في القراءات العشر لـمحمد بن محمد بن يوسف الجزري،(1/ 192 -193) بتحقيق الشيخ محمد علي الضباع ط.المطبعة التجارية الكبرى]

قارناها بكتب الديانات الأخرى، لوجدنا أن التوراة مثلًا يقول ابن حزم عنها: لها سندٌ واحدٌ فقط، آخر شخصٍ في السند بينه وبين سيدنا موسى ﷺ ألف سنة أو أكثر[1]، كما أنه لا توجد النسخة الأصلية من الإنجيل، وإنما الذي يوجد له ترجمة يونانية، ومع ذلك، فمن المترجِم؟ لا نعرف،، ما هي الأسانيد إلى تلك الترجمة؟ لا نعرف.

مسألة مضحكة، ومحزنة، ومخزية أن يظل العقل البشري في حَيرة من أمره أمام هذا الوضوح البين، بين مقارنة ظاهرية سطحية، تثبت من كل جهة قبل التعمق أن هذا الدين، دين حفظه الله سبحانه وتعالى، ودين قد دافع عنه الله تعالى، وجعله مهيمنًا على ما بين يديه من تلك الأديان والكتب.

أما السند عندنا؛ فوصل به الحال إلى أن رحل البخاري لطلب الحديث فذهب إلى شخص للرواية، فوجده ممسكًا بعشب في يده يحاول أن يجذب إليه بهيمته، فلما جاءت إليه أمسك بها ورمى العشب، فتركه البخاري، ولم يُحدث عنه، وقال: إنك قد كذبت عليها فلم يأمنه إلى هذا الحد يتم عندنا التوثق.

ويروي البخاريُّ أن النبي ﷺ عندما وجد امرأة تريد أن تمسك بصبيها، فقدمت له تمرة، ثم لما أمسكت به أرادت أن تحرمه منها، فقال لها: لو فعلت لكذبت[2].

هذا المنهج – منهج توثيق المصدر – أثَّر تأثيرًا كبيرًا في عقلية المسلمين، وامتد ذلك التوثيق

---

(1) انظر الفِصل في الملل والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (2/ 69) ط.الخانجي

(2) رواه البخاري في التاريخ الكبير (5/ 11) عن عبد الله ابن عامر بن ربيعة قال: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي فذهبت لألعب فقالت لي أمي: تعال يا عبد الله! أعطيك، قال: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: تمر، قال: انما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة [التاريخ الكبير للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ط.دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن].

من المصدر «الكتاب والسنة»إلى الكتب التي ألفها الناس لخدمة هذا المصدر.ولذلك هناك علم قد نشأ اسمه «علم الأثبات والمسانيد»، علم الأثبات؟ السند ينتهي إلى المؤلف، وليس إلى رسول الله ﷺ، وأصبحنا إذا ما أردنا أن نقرأ كتابًا، لا بد علينا أولًا أن نتوثق أن هذا الكتاب منسوب نسبةً صحيحة إلى مؤلفه بالسند المتصل أيضًا.

ألف الشوكاني كتابًا ماتعًا أسماه: «إتحاف الأكابر بأسانيد الدفاتر»، وليست بأسانيد الأحاديث النبوية فقط، هذا أمر آخر في علم الحديث، لكن علم الحديث، وعلم القراءات، وما حدث فيه من توثيق أثَّر على عقلية المسلم، فأصبح طلب التوثيق ضروريًّا في كل حياته، فأصبح هناك طلب لقضية أسانيد الدفاتر، وأصبح منهجًا يتخذ، وأثر هذا حتى في شكل النقل، فلا بد علينا أن نحفظ الوسيلة، والطريقة التي بها النقل، ومن هنا وضع العلماء الأثبات التي جمعت أسانيد العلوم كلها.

ومن جهة أخرى أخذ توثيق النص منحًى آخر بتصحيحه وإتقانه في نفسه: فنرى ابنَ الصلاح في مقدمته يرشد الطلبة والنساخ إلى كيفية كتابة النصوص ونقلها، والتأكد من صحتها بمصطلحات هي أنقى وأبر من مصطلحات المستشرقين وأضبط، ومن ضمن ما ذكره ابن الصلاح: أنه ينبغي على القارئ عند القراءة إذا ما وجد سقطًا أو خطأً أن لا يصلح في أصل النسخة، خيفة أن يكون ما ظنه سقطًا أو خطأً ليس كذلك، بل على القارئ أن يصلح في الهامش، وأن يشير بعلامة «صح» فوق الكلمة، ويخرج في الهامش ويقول ما يريد، سواء أكان من عنده أم كان من نسخة أخرى، حتى يدع لآخرين من بعده ينظرون في هذه النسخة، ولا يقطع عليهم الطريق، ولا يحرف كلام الناس، وحتى لا يصبح عنده تسلط على الآخرين في العلم، وأن ما ذهب إليه قطعي، وأن ما ذهب إليه لابد على الناس جميعًا أن يتمثلوا به.

وتثبت أيضًا السماعات على النسخة، ومعنى السماعات: أن يقول المتلقي للكتاب مثلًا: «سمعت هذا الكتاب من الشيخ الفلاني، حيث قال لي: إنه سمعه من الشيخ الفلاني بتاريخ كذا في المكان الفلاني، فيحدد الشخص والزمان والمكان، حتى إذا ما كان هناك اشتباه في

الأسماء بين المشايخ يحدث تمييز بينهم بالتاريخ، وإذا ما كان هناك كذب، أو زيادة قد حرفها محرف، أو وضعها واضع، تتضح هذه عند العلماء الذين يعرفون.. وبهذه الطريقة كشف عن كثير من أنواع التلاعب، وهذا علم قائم بذاته(1).

الحقيقة أن تحول المناهج إلى تلك الملكات، هي التي نفتقدها نحن الآن، نحن أصبح عندنا معلومات، ولم يعد عندنا علم.والفرق بينهما: أن المعلومات مفردة، والعلم نسق مرتبط بعضه مع بعض، له منهج، وله استعمال، وهذا هو الفرق بين العالم والمثقف، فالمثقف عنده كثير من المعلومات في مادة معينة، لكن ليس عالمًا في هذه المادة، وقد تفوق معلوماتُه معلوماتِ بعض علماء هذه المادة، لكن لابد علينا أن نعي المنهج، وأن نعي طرق الاستعمال، وأن نعي الربط بين المعلومات، وأن نعي المعلومات أيضًا حتى نُحصِّل علمًا معينًا.

وقد وضع العلماء طرقًا ثمانية من طرق التحمل(2) - أي تحمل العلم - أيضًا أخذوها من الحديث بعضها يتعلق بطريقة الأداء:

فمن ذلك: أن يقرأ الشيخ والتلميذ يسمع، ويقول: قد سمعت هذا، وهذا يكون أضبط؛ لأن الشيخ عندما يقرأ يستطيع أن يصحح، وأن ينقل الملكات، والمعلومات، ومناهج البحث

(1) انظر في تفاصيل ذلك مقدمة ابن الصلاح المسماة بمعرفة أنواع علوم الحديث: النوع الخامس والعشرون في كتابة الحديث، وكيفية ضبط الكتاب، وتقييده صـ181 وما بعدها بتحقيق أ.د نور الدين عتر ط.دار الفكر سوريا 1986 م.

(2) قال الشيخ ابن حجر العسقلاني في نزهة النظر شرح نخبة الفكر صـ123:
وصيغ الأداء المشار إليه على ثمانية مراتب: الأولى: سمعت وحدثني،ثم أخبرني وقرأت عليه وهي المرتبة الثانية، ثم قرئ عليه وأنا أسمع وهي الثالثة، ثم أنبأني وهي الرابعة، ثم ناولني وهي الخامسة، ثم شافهني أي بالإجازة وهي السادسة، ثم كتب إلي أي بالإجازة وهي السابعة، ثم "عن"، ونحوها: من الصيغ المحتملة للسماع والإجازة، ولعدم السماع أيضا " أ.هـ

العلمي منه إلى الطالب[1].

ومن صور المحافظة على التراث عندنا، البدء في التعامل مع التراث وتحويله إلى التدريس؛ بحيث يكون أقرب إلى لغة العصر، فقد اهتم الأزهر الشريف منذ أكثر من خمسين سنة بقضية المختارات والمختصرات، والتيسير والتحقيق، وبدأت أيضا - منذ أكثر من خمسين سنة - الكلياتُ الشرعية بالأزهر تنتجُ من الرسائل العلمية ما يخدم هذا التراث، فعندنا مثلا في كلية أصول الدين ما يسمى بالدخيل، لكن ما الدخيل؟ الدخيل هو المرفوض الذي يتنافى مع المنهج العلمي الذي تسرب إلى كتبنا في التفسير، فأحدهم يأخذ الدخيل في الطبري الوارد في سورة آل عمران مثلًا، والآخر يأخذ الدخيل في سورة البقرة، ويدرسون الدخيل في تفسير القرطبي، وهكذا.

وهذه رسائل علمية عالية المستوى تتكلم عن الدخيل في كتب التفسير، وكتب الحديث وكتب الفقه، وتم التعامل معها.

وكان الشيخ جاد الرب رمضان وكان سيدنا الشيخ الحسيني الشيخ وسيدنا الشيخ عبد الجليل القرنشاوي- وكلهم من كبار علماء الأزهر الشريف- كانوا يتكلمون عن التحقيق، أي عندما أريد أن أحقق كتابا فكانوا يقولون إن هناك نوعين من التحقيق: تحقيق تجاري؛ وهو الذي لا يكون منضبطا بقواعد العلم بل يستهدف تضخيم الكتاب وإثقاله بالهوامش غير المفيدة من أجل التجارة وزيادة قيمة بيع الكتاب! وهناك تحقيق علمي وهو: أنك تخرج من النسخة كما أراده المؤلف، ثم تتفاعل معه، ثم تضيف إليه رأيك وما عندك بترجيحاتك فهل علم الناس هذا؟ لم يعلم الناس هذا. فنحن نعمل على هذا المنوال منذ أكثر من خمسين سنة وحققت في ذلك وعلى هذا المنهج رسائل علمية كثيرة؛ لذلك فكان واجبنا أن نترك للأجيال القادمة من التراث ومن مفاتيحه ومعارفه ما يتيح لهم التعرف على حقائق دينهم، ومعرفة ما يتميز به كتاب ربهم.

---

(1) انظر: المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية (10- 14) الدكتور: على جمعة محمد عبد الوهاب- دار السلام – القاهرة الطبعة: الثانية – 1422 هـ – 2001 م.

القرآن الكريم
التعريف والحفظ والتوثيق والتواتر

تمهيد:

القرآن الكريم هو النصُّ الإلهي المقدس، الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على النبي ﷺ لهداية البشر، فجعله الله سبحانه وتعالى مشتملًا على العقائد، والأحكام، والآداب، والنُّظُمِ، والقصصِ، والمواعظِ، فهو الخطاب الإلهي الأخير لأهل الأرض، الصالح لكلِّ زمان ومكان، وانطلاقًا من هذه المنزلة نستفتح الكلام عن كتاب ربنا وما يعلق به بالتعريف بهذا النص الإلهي.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى عرضِ قضية توثيق القرآن الكريم، عن طريق توضيح خطوات ذلك، وطرقه منذ عهد النبيِّ ﷺ إلى يومنا هذا، في عرض بسيط سهلٍ بحيث تتكوَّن لدى المسلم وغير المسلم صورةٌ كليَّةٌ صحيحةً تستند على العقل والمنطق؛ فيصل إلى نتيجةٍ حتميةٍ ليس لها أدنى معارضٍ، من العقل أو الحسِّ أو الواقع المحيط، وهي أنَّ هذا النصَّ الإلهيَّ الموجود بين أيدينا المدون في المصاحف هو نفسه الذي نزَل على إمام المرسلين ﷺ، وهو عينه الذي كان موجودًا في زمن رسول الله ﷺ، وأن طريقة قراءتنا لهذا الكتاب الكريم هي الطريقةُ نفسها التي قرأ بها النبيُّ ﷺ، ونقلتها الأمةُ الإسلامية عنه مباشرة ومشافهةً، عن طريق الصحابة الكرام في تواترٍ يومي بل تواترٍ لحظي لم ينقطع ولا ينقطع إلى قيام الساعة.

فلكي يكون الكلام عن القرآن الكريم تامًّا وشاملًا لابدَّ للمسلم أن يكونَ لديه تصوُّر عن هذا الكتاب الموجود بين أيدينا، ما هو؟ ومِن أين أتى؟ وكيف وصَل لنا؟ حتى تكون هذه النُّقطة هي البداية التي يتحرَّك منها المسلم لكي يتَّخذ من القرآن الكريم منهجًا وطريقًا في الحياة كما أراد الله سبحانه وتعالى.

مطلب
القرآن الكريم الماهية
وبداية الوحي ونزول الكتاب الكريم

أولا: التعريف بكتاب الله الكريم:

القرآن في اللغة:

اختلَف في لفظة القرآن أهلُ العلم من جهات عدَّة؛ أوَّلًا من جهة كونه مهموزًا أو لا، ومن جهة كونه مصدرًا أو صفةً، ومن جهة كونه جامدًا أو مشتقًا، وقد تعدَّدت المذاهب فيه والآراء انطلاقًا من هذه الجهات والحيثيات الثلاث حتى وصلت إلى ما يقارب العشرة، ونذكر هنا بعض هذه المذاهب منسوبةً إلى أصحابها.

- فجماعة من العلماء يرون بأنَّه مهموز وأنَّه مصدر مِن: قرأ قرأت قرآنا، سُمِّي به المقروء من باب تسمية اسم المفعول بالمصدر، يشهد لهم قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء 78] فقد ذكر غيرُ واحد من المفسرين أنّ المقصود بالقرآن ههنا القراءة(1).

- وقد لخص الإمام السيوطي(2) معظم هذه الأقوال فقال كما في الإتقان: " وأما القرآن

(1) انظر على سبيل المثال تفسير الرازي المسمى مفاتيح الغيب حيث يقول: " وأما الذين همزوا فلهم وجوه أحدها: أنه مصدر القراءة يقال: قرأت القرآن فأنا أقرؤه قرأ وقراءة وقرآنا، فهو مصدر، ومثل القرآن من المصادر: الرجحان والنقصان والخسران والغفران، قال الشاعر: ضحوا بأشمط عنوان السجود به... يقطع الليل تسبيحا وقرآنا: أي قراءة " تفسير الرازي (5/ 253) ط.دار إحياء التراث العربي –بيروت الطبعة الثالثة 1420 هـ.

(2) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة (911هـ) عالم موسوعي في الحديث والتفسير واللغة والتاريخ والأدب والفقه وغيرها من العلوم، ذكر له من المؤلفات نحو 600 مؤلف. منها المجلدات الكبيرة ومنها الرسالة القصيرة ذات الورقة أو الوريقات. انظر: الأعلام للزركلي (3/ 301).

فاختلف فيه فقال جماعة: هو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله فهو غير مهموز وبه قرأ ابن كثير وهو مروي عن الشافعي أخرج البيهقي والخطيب وغيرهما عنه أنه كان يهمز قرأت ولا يهمز القرآن ويقول: القران اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل.

- وقال قوم منهم الأشعري: هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر وسمي به لقران السور والآيات والحروف فيه.

- وقال الفراء: هو مشتق من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن وعلى القولين هو بلا همز أيضا ونونه أصلية.

- وقال الزجاج[1]: هذا القول سهو والصحيح أن ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها.

- واختلف القائلون بأنه مهموز فقال قوم منهم اللحياني هو مصدر لقرأت كالرجحان والغفران سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر،وقال آخرون منهم الزجاج: هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته.

قال أبو عبيدة[2]: وسمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض.

---

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الزجاج البغدادي، المتوفى سنة (311 هـ) نحوي من العصر العباسي، من مؤلفاته: معاني القرآن في التفسير، وما ينصرف وما لا ينصرف، تفسير أسماء الله الحسنى.

انظر الأعلام (1/ 40) تأليف: خير الدين بن محمود الزركلي- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الخامسة عشر- 2002 م.

(2) أبو عبيدة معمر بن المثنى، المتوفى سنة (208هـ) نحوي لغوي أول من صنف في غريب الحديث، من مصنفاته: مجاز القرآن، وإعراب القرآن، والأمثال. انظر: الأعلام للزركلي (7/ 272).

- وقال الراغب[1]: لا يقال لكل جمع قرآن، ولا لجمع كل كلام قرآن، قال وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها.

وحكى قُطْرُب[2] قولا: إنه إنما سمي قرآنا لأن القارئ يظهره ويبينه من فيه أخذا من قول العرب: ما قرأت الناقة سلا قط أي ما رمت بولد أي ما أسقطت ولدا أي ما حملت قط والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه فسمي قرآنا.

قلت: والمختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي "[3].

القرآن في الاصطلاح:

فالقرآن الكريم هو كلام الله[4] المنزل على نبيه محمد ﷺ المُعجِز بلفظه[5]، المتعبَّد

(1) أبو القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهانى، المتوفى سنة (502هـ) من مصنفاته: محاضرات الأدباء، والذريعة إلى مكارم الشريعة، والمفردات في غريب القرآن. الأعلام (2/ 255).

(2) أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد، الشهير بقطرب المتوفى سنة (206هـ) نحوي عالم بالأدب واللغة، وهو أول من وضع المثلث في اللغة، من مصنفاته: معاني القرآن، والنوادر، والأضداد، والمثلثات. الأعلام (7/ 95).

(3) الإتقان في علوم القرآن للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (1 / 181 – 182)

(4) القرآن كلام الله جل وعلا، وقد دل على ذلك القرآن والسنة والإجماع، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6] يقول الإمام الطحاوي في متن العقيدة الطحاوية: «وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر؛ حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فلما أوعد الله بسقر لمن قال: (إن هذا إلا قول البشر) علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر» [متن الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي صـ12 –13 ط.ابن حزم الطبعة الأولى 1995م]

(5) المعجز: الإعجاز نسبة العجز إلى الغير وإثباته له، فالقرآن الكريم معجز في اللفظ والنظم والترتيب والمعاني، وإعجازه متواصل غير منقطع في زمان ولا مكان، العجز نقيض الحزم عجز عن الأمر يعجز =

بتلاوته[1]، المنقول بالتواتر[2]، المكتوب في المصاحف، من أول سورة «الفاتحة» إلى آخر

=

وعجز عجزًا فيهما ورجل عجزٌ وعجزٌ عاجزٌ ومرةٌ عاجزٌ عاجزةٌ عن الشيء عن ابن الأعرابي وعجز فلانٌ رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم كأنه نسبه إلى العجز ويقال أعجزت فلانًا إذا ألفيته عاجزًا، والمعجزة العجز. قال سيبويه: هو المعجز، والمعجز بالكسر على النادر والفتح على القياس لأنه مصدر والعجز الضعف. انظر: لسان العرب (4/ 2817)، والمعجز والمعجزة: ما أعجز به الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة كما في قولهم: علامة ونسابة، وكلمة الإعجاز لم ترد في الكتاب ولا في السنة، وإنما عبر بها العلماء للدلالة على أن القرآن العظيم معجز، نظرًا لضعف البشر أن يأتوا بمثله أو مثل بعضه، وقد استفادوا هذا التعبير من مثل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

(1) التعبد بتلاوته هو الأمر بتلاوته في الصلاة وغيرها بألفاظه كما هي فلا يجوز الزيادة عليها أو النقص منها، وإنما يتلى كما نزل على سيد البشر وهذه التلاوة عبادة، يثاب القارئ عليها، وتعتبر من أفضل العبادات التي تقرب الإنسان من الله، أخرج الترمذي (2910) عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ». فالصلاة لا تصح إلا بقراءة شي منه.

(2) التواتر في اللغة: التتابع. انظر: المصباح المنير (2/ 647).

والتواتر في الاصطلاح: ما رواه عددٌ كثير أحالت العادة تواطؤهم أو توافقهم على الكذب، رووا ذلك عن مثلهم من الابتداء إلى الانتهاء، وكان مستند انتهائهم الحس.

انظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص43)

وإذا طبقنا هذا المعنى على القرآن الكريم لوجدنا أنه ينطبق عليه في أعلى درجاته وأشكاله، فقد أخذه الصحابة الكرام من فم النبي ﷺ مباشرة ومشافهة، فظهرت فيهم طائفة كبيرة تخصصت بالقراءة (القراء) كان منهم أكابر الصحابة، حفظوا القرآن الكريم كاملًا في زمن النبي ﷺ، وتتلمذ على أيديهم الكثير من الصحابة والتابعين في شتي المدن والبلاد المفتوحة بعد ذلك، فأقبل التابعين على الأخذ من الصحابة الكرام وأقبل تابعي التابعين على الأخذ منهم وهكذا في سلسلة يومية لا تنقطع، يصاحب ذلك مرحلة التدوين في المصاحف، بحيث وصل إلينا النص منطوقًا ومكتوبًا كما سمعه الصحابة الكرام من

=

سورة «الناس».

وقد خرج بقولنا: «المنزل على نبيه محمد» المنزلُ على غيره من الأنبياء؛ كالتوراة والإنجيل والزبور والصّحف، وخرج بـقولنا: «المعجز بلفظه المتعبد بتلاوته» الأحاديثُ القدسية على الرأي بأن لفظها من عند الله، فإنها ليست معجزة ولا متعبد بتلاوتها.

***

=

فم النبي ﷺ، وذلك سوف يزداد بيانًا وتوضيحًا من خلال هذا البحث إن شاء الله.

مطلب
بداية الوحي ونزول القرآن الكريم

أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه على قلب نبيِّه ﷺ في غار حراء، وأول ما نزل قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق 1: 5] وهذه نزلت في غار حراء، فما غار حراء؟ أين هو غار حراء؟

غار حراء: هو مرتفع في قمة جبلٍ، وهو في مكة، وعندما جاء العثمانيون صنعوا له سُلَّمًا، وترى أثره لو ذهبت إليه، وهذا السُّلم يصعد عليه مَن أراد أن يرى هذا الغار.

والنبي ﷺ عندما أشرف على الأربعين من العمر أي في السابعة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين من العمر كان يكثر من البقاء في غار حراء وينزل إلى السَّيدة خديجةَ فيحمل معه من الزاد ما يستطيع حمله ويتقوَّت به الأيام التي سيمكثها هناك في ذلك الغار، فكان يذهب هنالك فيتحنَّث الليالي ذوات العدد، وذوات العدد تعني أنها لها عدد من أربع أو خمس أو عشر فإذا نفَد ما معه من زادٍ ينزل فيذهب لبيته فيأتي بمثله، وكان يخلو بنفسه في هذا المكان ويذكر الله ويتعبَّد ويمكث هناك ويتأمل الكعبة، وينظر إليها ﷺ وينظر إلى السماء ويتأمَّل بدائع خلق الله وخاصة بالليل في هذه القبة العليا السماوية الذي أخبر بعد ذلك النبي ﷺ أن الشياطين تصدُّ الناس عن النظر والتأمل فيها كما جاء في الحديث الشريف(1).

فكان النبيُّ ﷺ يصعد إلى غار حراء، ومعه ما معه من الطعام الذي يتزود به لمدَّة من الليالي،

(1) يشير إلى ما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (37729)، وأحمد في مسنده (2/ 353) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أسرى بي لما انتهينا إلى السَّماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعدٍ وبرقٍ وصواعقَ، قال: فأتيت على قومٍ بطونهم كالبيوت فيها الحيات تُرى من خارج بطونهم، قلت: مَن هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء أكلةُ الرِّبا. فلما نزلتُ إلى السَّماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهجٍ ودخَانٍ وأصواتٍ، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوتِ السَّموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائبَ».

وبعد أن ينفد ما معه فينزل ليأتي بغيره وكانت هذه تجربة روحيَّة رائقة فائقة(1).

فالنبي ﷺ هيَّئه ربه لتلقي الوحي وهو صغير عند حادثة شقِّ الصدر(2) وكان كل هذا تهيئة لنزول القرآن الكريم الذي سنمضي معه رحلة حتى نتبين المصدر الأول لدين الإسلام.

بدأ القرآن في النزول على سيدنا محمد ﷺ، واستمر ثلاثًا وعشرين سنةً وهو يتنزَّل على قلب رسولنا الكريم ﷺ(3)، وكان جبريل عندما يـنزل بالآيات يقول لرسول الله ﷺ هـذه

(1) ورد ذلك في حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، ومسلم في كتاب الإيمان (160) من حديث عائشة أنها قالت: «أوَّل ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصَّالحة في النوم..ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء».

(2) حادثة شق صدر النبي ﷺ في صغره ثابتة في كتب السنة المتعددة وبطرق مختلفة منها ما أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (162) من حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقةً، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك. قال أنسٌ: وقد كنتُ أرى أثَرَ ذلك المخيط في صدره.

(3) قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: ويؤخذ من هذا الحديث أنه نزل مفرقًا ولم ينزل جملةً واحدةً ولعله أشار إلى ما أخرجه النسائي وأبو عبيدٍ والحاكم من وجهٍ آخر عن بن عباسٍ قال: أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنةً وقرأ وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ الآية وفي روايةٍ للحاكم والبيهقي في الدلائل فرق في السنين، وفي أخرى صحيحةٍ لابن أبي شيبة والحاكم أيضًا: وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ وإسناده صحيحٌ. ووقع في المنهاج للحليمي: أن جبريل كان ينزل منه من اللوح الـمحفوظ في ليلة القدر إلى السماء الدنيا قدر ما ينزل به على النبي ﷺ في تلك السنة إلى ليلة القدر التي تليها إلى أن أنزله كله في عشرين ليلةً من عشرين سنةً من اللوح الـمحفوظ إلى السماء الدنيا وهذا أورده بن الأنباري من طريقٍ ضعيفةٍ ومنقطعةٍ أيضًا وما تقدم من أنه نزل جملةً واحدةً من اللوح الـمحفوظ إلى السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك مفرقًا هو الصحيح المعتمد. فتح الباري (9/ 4).

الآية بين كذا وكذا، وهو الذي رتَّب له هذا بإذن الله بداية من الفاتحة إلى سورة الناس[1].

(1) يقول الإمام السيوطي نقلا عن ابن الحصَّار الإشبيلي الإمام الأصولي المفسر فقال: "وقال ابن الحصار: ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، «كان رسول الله ﷺ يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا» وقد حصل اليقين من النقل الـمتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في الـمصحف. انظر: الإتقان في علوم القرآن (1/ 216) جلال الدين السيوطي

مطلب
أسماء الكتاب العزيز

ومن الأمور التي تزيد في التعريف بكتاب الله: بيان أسماء هذا النص الإلهي المنزل على سيدنا محمد ﷺ؛ فللقرآن الكريم أسماءٌ وأوصاف كثيرة، ومن الأسماء التي هي أعلام عليه: (القرآن، الكتاب، الفرقان، التنزيل، الذكر).

1- القرآن: وهذا الاسم هو أشهر أسمائه وأكثرها ذكرًا في آياته، يقول الطاهر بن عاشور(1): «فاسم القرآن هو الاسم الذي جُعِل علمًا على الوحي المنزَّل على محمد ﷺ، ولم يسبق أن أُطلق على غيره قبله، وهو أشهر أسمائه وأكثرها ورودًا في آياته وأشهرها دورانًا على ألسنة السَّلف»(2).

وقد تكاثرت النصوص بهذه التسمية كقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: 185] وقوله سبحانه ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3].

2- ومن أسمائه الكتاب: وسُمِّي بذلك كما يقول الإمام الزركشي(3): «فَأَمَّا الْكِتَابُ فَهُوَ مصدر كتب يكتب كتابة وَأَصْلُهَا الْجَمْعُ وَسُمِّيَتِ الْكِتَابَةُ لِجَمْعِهَا الْحُرُوفَ فَاشْتُقَّ الْكِتَابُ

(1) محمد الطاهر بن عاشور، المتوفى سنة (1393هـ) رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، من مصنفاته: مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والتحرير والتنوير في تفسير القرآن. انظر: الأعلام للزركلي (6/ 174).

(2) انظر: التحرير والتنوير (1/ 71).

(3) أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، المتوفى سنة (794هـ) عالم بفقه الشافعية والأصول، من مصنفاته: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ولقطة العجلان، والبحر المحيط. انظر: الأعلام للزركلي (6/ 61).

لِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ أَنْوَاعًا مِنَ الْقِصَصِ وَالْآيَاتِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ عَلَى أَوْجُهٍ مَخْصُوصَةٍ وَيُسَمَّى الْـمَكْتُوبُ كِتَابًا مَجَازًا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فِي كتاب مكنون﴾ أَيِ اللَّوْحِ الْـمَحْفُوظِ وَالْكِتَابَةُ حَرَكَاتٌ تَقُومُ بِمَحَلِّ قُدْرَةِ الْكَاتِبِ خُطُوطٌ مَوْضُوعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْـمَعْنَى الْـمَقْصُودِ وَقَدْ يَغْلَطُ الْكَاتِبُ فَلَا تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ»(1).

ويقول الإمام السيوطي: «فَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ كِتَابًا فَلِجَمْعِهِ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ وَالْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهٍ وَالْكِتَابُ لُغَةً الْجَمْعُ»(2).

وللعلامة محمد دراز(3) كلام جيد في وجه التسمية (بالقرآن وبكتاب الله) حيث يقول: «وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحدٍ، يعني أنه يجب حفظه في الصُّدور والسُّطور جميعًا، ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[البقرة: 282] فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمعَ عليه مِن الأصحاب المنقول إلينا جيلًا بعد جيلٍ، على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقةَ لنا بكتابة كاتبٍ حتى يوافق ما هو عند الحفَّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر... وبهذا بقي القرآن محفوظًا في حرزٍ حريزٍ، إنجازًا لوعد الله الذي تكفَّل بحفظه حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]»(4).

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن (1/ 276).

(2) الإتقان في علوم القرآن (1/ 181).

(3) محمد عبد الله دراز، المتوفى سنة (1377هـ) من علماء الأزهر الشريف، صنف كتاب (المختار) عند تدريسه مادتي التفسير والحديث بكلية أصول الدين سنة 1932م. بدأ كتابة بحوث في القرآن الكريم- قدمها بين يدي التفسير- وهى بدايات كتابه النبأ العظيم.

(4) انظر: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم (ص43) تأليف: محمد بن عبد الله دراز- اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية- قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني- دار القلم- 2005م.

ودلَّت على هذه التسمية نصوصُ الكتاب كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، وقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: 1] قال الطاهر بن عاشور: «وفي هذه التسمية- أي بالكتاب- معجزة للرسول ﷺ بأن ما أوحي إليه سيكتب في المصاحف»(1).

3- الفرقان: سمي بذلك لأنه فرَّق بين الهدى والضلال حيث ميَّز بين الحق والباطل في الاعتقاد، وفرَّق بين الحلال والحرام في الأحكام، يقول ابن منظور(2): «والفرقان: القرآن، وكل ما فُرق به بين الحق والباطل فهو فرقان»(3).

ويقول ابن الأثير: «الفرقان من أسماء القرآن: أي أنه فارق بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام، يقال: فَرَقْت بين الشيئين أَفْرُقُ فَرْقًا وفُرْقَانا»(4).

يقول الإمام الطبري(5): في وجه تسمية القرآن فرقانًا: «أنَّ القرآن سُمِّي فرقانًا، لفصله بحجَّته وأدلَّته وحدوده وفرائضه وسائر معاني حكمه، بين المحقِّ والمبطل، وفرقانه بينهما: بنصره المحق وتخذيله المبطل، حكمًا وقضاءً»(6).

---

(1) انظر: التحرير والتنوير (1/ 73).

(2) أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين بن منظور، المتوفى سنة (711هـ) الإمام اللغوي الحجة، من مصنفاته: لسان العرب.

(3) انظر: لسان العرب (10/ 302) تأليف: محمد بن مكرم بن علي، الشهير بابن منظور- دار صادر- بيروت- الطبعة الثالثة- 1414هـ.

(4) انظر: النهاية في غريب الحديث (3439) تأليف: مجد الدين بن الأثير- المكتبة العلمية- بيروت- 1979م.

(5) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة (310هـ) شيخ المفسرين، من مصنفاته: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الآثار.

(6) انظر: تفسير الطبري (1/ 99) تأليف: محمد بن جرير الطبري- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- =

وقد وردت الآيات الكريمة بهذه التسمية، كقوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة: 185]. وقوله جل جلاله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

4- التنزيل: سُمِّي بذلك لأنه منزَّل من عند الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 192] وقال جل جلاله: ﴿الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: 1- 2].

5- الذِّكر: سُمِّي بالذِّكر لما فيه من المواعظ وأخبار الأنبياء وأخبار الأمم السَّابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].وقال سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 50].يقول الإمام الطبري: في وجه تسميته بالذِّكر: فإنه محتملٌ معنيين:

أحدهما: أنه ذِكْر من الله جل ذِكره، ذكَّر به عباده، فعرَّفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائرَ ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذِكْر وشرفٌ وفخرٌ لمن آمن به وصدَّق بما فيه، كما قال جل ثناؤه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ [الزخرف: 44] يعني به أنه شرَف له ولقومه»(1)(2).

=

2000م.

(1) انظر: تفسير الطبري (1/ 99).

(2) انظر أيضا: البرهان في علوم القرآن (1/ 273- 276)؛ حيث ذكر أن الله عزو جل سمى كتابه بخمسة وخمسين أسما فراجعها.

مطلب
توثيق القرآن الكريم وتواتره ووصوله للأمة

تمهيد:

فالقرآن الكريم هو محور حضارة المسلمين عبر التاريخ، تنبثق منه العلوم والمعارف والآداب، وتنشأ حوله دوائر العلوم الخادمة، التي تعين على فهمه وإدراك مقاصده، فما معنى كونه محورًا للحضارة؟! معنى ذلك أنه عليه الخدمة، ومنه الانطلاق وإليه المرجع، وهو معيار التقويم، هذا معنى المحورية، ومعناها أيضًا أنه نص شريف، تلتف حوله الحضارة الإسلامية، فتنشأ الفنون بإبداعاتها، والآداب بإلهاماتها، والحياة بسياقها، في رعاية القرآن، ومن وإلى القرآن.

ويمكن أن نقول: إن القرآن فوق كونه محورًا للحضارة، فإنه كتاب هداية، فما معنى كونه كتاب هداية؟

الذي ظهر لنا أن القرآن يمكن أن يفتح الله عليك فيه ما لم يفتح لآخرين، حتى نطلب جميعًا منه هدايته، فنطلب منه معرفة السنن الإلهية، ونطلب منه معرفة المبادئ العامة التي تكلم عنها القرآن، ومعرفة منظومة القيم التي ربطها الله -في ظني وتقديري- بأسمائه الحسنى، ونعرف كيفية استنباط المقاصد العامة لهذه الشريعة ومرادها منا، ونعرف كيفية استنباط القواعد الكلية التي يمكن بها أن نتحرك، وأن نفقه، وأن نحكم- كما أراد الله تعالى- بالعدل، وبالحق، وبالخير، وبغيرها من مكونات منظومة القيم.

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم اقترن في شأن حفظه وفي شأن فهمه وفي شأن تقسيمه وفي شأن الاستنباط منه، وفي شأن خدمته – بعلوم خادمة[1]، وأن هذه العلوم كانت أقلَّ عمقًا واستمرارًا، وهي تخدم السُّنة أو وهي تخدم الفقه أو وهي تخدم الأخلاق الإسلامية، عما

(1) العلوم الخادمة هي العلوم التي يتوصل بها وبأدواتها إلى إتقان علمٍ آخر أو القدرة على فهم واستيعاب نصوص الكتاب والسُّنة فلا تكون مرادة في ذاتها، وإنما هي وسيلة للإدراك والفهم مثل: علوم اللغة والنحو والصَّرف والمنطق وعلوم الجرح والتعديل وغيرها.

كانت عليه في خدمتها للقرآن الكريم، رغم ما وصلت إليه من تفرُّدٍ ودقة ومنهجية في كل تلك العلوم المذكورة، إلَا أنها في شأن القرآن الكريم كانت أكثر تألُّقًا على نحو فائقٍ وعجيب.

التوثيق الصوتي للقرآن الكريم:

فمثلًا لاحظنا في قضية التوثيق أنَّ التوثيق القرآني قد تمَّ على مستوى الأداء الصوتي، ولم تكن السُّنة هكذا، رغم أنَّ مناهجها في غاية الرُّقي والدِّقة والعُمق والرَّصانة، فالسُّنة نقلت نصوصها، ووثِّقت متونها بطريقتها، التي هي شديدة الدِّقة والمنهجية، ولكنها لا تساوي أبدًا طريقة توثيق القرآن الكريم، لأنَّ القرآن الكريم تمَّ توثيقه بطريقة الأداء الصوتي حيث إنهم راعوا مخارج الحروفِ، وراعوا الوقوفَ، وراعوا النبرَ(1)، ولم يكن الأمر كذلك في السُّنة مثلًا.

فإذا نطَق القارئ القرآن بطريقةٍ مغايرةٍ للهيئة المنقولة المتوارثة المسندة في نطقه، والتي تراعي الترقيق والتفخيم، ومخارجَ الحروف وصفاتها، فإنه يكون قد أخطأ، فأين موضع الخطأ؟! رغم أنه لم يخطئ في الحرف، ولم يخطئ في شكْلِ الحرف، موضعُ الخطأ أنَّه أخطأ في مخرج الحرف أو صفته، أو مستوى أدائه الصوتي، وهذا يعني أنَّ القرآن قد حفظ على مستوى اللفظ، فالجملة، فالآيات، فالسور، ثم في علومه ومناهج فهمه وخدمته، فحفظ بكلِّه، وعلى أرقى مستوًى(2).

ولم يأتنا أحدٌ من الناس ليبيِّن لنا كيف كان رسول الله ﷺ ينطق بالحديث على مستوى

(1) النبر في اللغة: ارتفاع الصوت (انظر: تاج العروس 14 / 164)، وفي الاصطلاح: ضغط زائد على الحرف (انظر: فتح رب البرية رح المقدمة الجزرية في علم التجويد،صفوت محمد سالم صـــ123) ط.دار نور المكتبات جدة).

(2) يقول الإمام ابن الجزري: «وأما كيف يقرأ القرآن؟ فإن كلام الله تعالى يقرأ بالتحقيق وبالحدر وبالتدوير الذي هو التوسط بين الحالتين مرتلًا مجودًا بلحون العرب وأصواتها وتحسين اللفظ والصوت بحسب الاستطاعة.
انظر: النشر في القراءات العشر (1/ 206) لابن الجزري- تحقيق علي محمد الضباع – المطبعة التجارية الكبرى.

الأداء الصوتي؛ ولذلك يقع خلافٌ في فهم مدلولِ بعض الكلمات عندما تتجرَّد تلك الكلمات من أدائها الصَّوتي، فيمكن أن يكون ذلك استفهامًا ويمكن أن يكون استنكارًا، ويمكن أن يكون تعجبًا، ويمكن أن يكون غير ذلك، ولكن القرآن الكريم نُقِل على مستوى الأداء الصوتي، فأصبح نصًّا واضحًا جليًّا(1).

فمسألة التوثيق الصوتي للقرآن الكريم، عن طريق الأداء الصوتي الذي تلقَّاه الصَّحابة الكرام من فم النبي الكريم ﷺ مباشرةً، فقاموا بحفظه كما نطقه النبيُّ ﷺ عن طريق النُّطق واللفظ الصَّوتي ووثِّقت حروفه وهمساته وحركاته وكانوا يقومون بمراجعته عليه صلوات الله وسلامه عليه فكان النبيُّ ﷺ يدارس القرآن الكريم مع جبريل كما ورَد في السُّنة النبوية المطهَّرة(2) ثم ينقل ذلك إلى الصحابة الكرام.

فالقرآن الكريم في المقام الأول هو اللفظ العربي المنطوق الذي تلقَّاه النبيُّ ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربِّ العزة تبارك وتعالى، وقد تلقى هذا اللفظَ العربي المنطوقَ الصَّحابةُ الكرام(3) فحفظوه وقاموا بتلاوته كما سمعوه من النبي ﷺ(1)، ثم تمَّ توثيق وحِفظ هذا

---

(1) النبراس في تفسير القرآن الكريم (ص100-101) لفضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد عبد الوهاب- دار الوابل الصيب-الطبعة الأولى - 2009م.

(2) من ذلك حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (6)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (2308) من حديث ابن عباسٍ ب قال: «كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضانَ حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلةٍ في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه النبي ﷺ القرآنَ، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجودَ بالخير من الرِّيح المرسلةِ».

(3) ومثال للتدليل على ذلك: ما ورد عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (5000)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنهما (2462) أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورةً، والله لقد علم =

اللفظ مكتوبًا في زمنه ﷺ(2)فأصبح عندنا نصًّا مقدسًا موثَّقا بطريقتين:

- الأولى: القراءة والحفظ اللفظي بالأداء الصوتي الذي هو أصل وأساس الكتاب.

- الثانية: توثيق هذا اللفظ المنطوق برسمه، أي بتدوينه وكتابته في الصحف.

ويمكن أن نعبِّر عن الكيفية التي حدث بها هذا التوثيق فنقول:

نزل جبريل عليه السلام على قلب المصطفى ﷺ بالقرآن الكريم فتلقَّاه عنه بالصور المختلفة للوحي والتي جاءت بها الأحاديث المتعددة(3).

=

أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمِهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم».

وذكر الزرقاني أمثلة عديدة لحرص الصحابة على تعلم القرآن فقال: «وكان يسمع لمسجد رسول الله ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا، ومن هنا كان حفاظ القرآن في حياة الرسول جمًّا غفيرًا منهم الأربعة الخلفاء، وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وسالم مولى أبي حذيفة وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبد الله ومعاوية وابن الزبير وعبد الله ابن السائب وعائشة وحفصة وأم سلمة، وهؤلاء كلهم من المهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين» انظر: مناهل العرفان للزرقاني (1/ 169).

(1) ورد في حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (4232)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ (2499) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «إني لأعرف أصواتَ رُفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلَهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار».

(2) وسيأتي تفصيل أدلة أن القرآن كان مكتوبا في المطلب التالي

(3) ومن ذلك حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (2)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب طيب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (2333) من حديث عائشة ل: أن الحارث بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة ل:

=

ثم بعد ذلك تلقَّى الصحابة الكرام القرآن الكريم من فم النبيِّ ﷺ فسمعوه وقرءوه وحفظوه.تم توثيق هذا السَّماع والحفظ بكتابته وتدوينه فأصبح موثَّقًا باللفظ (الصوت) والرسم (الكتابة) ثم نقله الصحابة الكرام لمن بعدهم كما تلقوه تمامًا وبنفس الطريقة، وتتابع نقله عبر أجيال الأمة الإسلامية في سلسلة لا تنقطع حتى لحظتنا هذه التي نعيشها.

=

ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنَّ جبينه ليتفصَّد عرقًا.

مطلب: مرحلة تلقي الصحابة للنص الإلهي من رسول اللّه ﷺ وحفظهم له

التلقي بالسماع والحفظ في الصدور:

الطريق الذي وصلنا به هذا الكتاب جاء عن طريق صحابة رسول الله ﷺ، وقد ورَدت في السُّنة النبوية الأحاديثُ والأخبار التي تُكُّون لنا صورةً متكاملة عن كيفية تلقي الصَّحابة الكرام لهذا النصِّ الإلهي من رسول الله ﷺ، والذي مثَّل بدايةَ الطريق لوصول القرآن الكريم إلى الأمة كلها بعد ذلك، وقد ساعد الصحابةَ الكرامَ على حفظهم لكتاب الله عدَّةُ أمورٍ منها قوَّةُ الذاكرة والحفظ عند العرب، وهذا أمر معروف فقد كان الواحد منهم يحفظ القصيدةَ الطويلة من الشعر، إذا سمعها مرةً واحدةً، فلما نزل القرآن الكريم كان من دأبهم أن يقرءونه ليلًا ونهارًا.

كما أنَّ نزول القرآن الكريم مُنجمًا ساعد الصحابة الكرام على تلقيه وحفظه وفهمه والعمل بما فيه، وكذلك حضَّ النبيُّ ﷺ على قراءة القرآن وحفظِه وبيان ما أعد من عظيم الثواب لصاحب القرآن.(1)

كلُّ هذه العوامل والأسباب وغيرها وفَّرت المناخَ الذي أنتج اهتمام الصحابة بحفظ القرآن الكريم وتلاوته، فقد كان كتاب الله في المحلِّ الأول من عنايتهم، يتنافسون في قراءته ومدارسته وحفظه وفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم في المنزلة على مقدار ما يحفظون منه(2)،

(1) ومن أدلة ذلك حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ (4937)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه (798) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يقرأ القرآن، وهو حافظٌ له مع السفرة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ، وهو يتعاهده، وهو عليه شديدٌ فله أجران».

(2) أخرج البخاري في كتاب الجنائز، باب دفن الرَّجلين والثلاثة في قبرٍ واحد (1345)، وباب مَن يقدم في =

وكان في بعض الحالات مهر السَّيدة من الصحابيات سورٌ من القرآن الكريم يعلِّمها إياها زوجها(1)، وكانوا يهجرون لذَّة النوم للقيام به في الليل والتلاوة له في الأسحار والصلاة به والنَّاس نيام، حتى لقد كان الذي يمرُّ ببيوت الصحابة يسمع فيها دويًا كدوي النَّحل بالقرآن، وكان الرسول ﷺ يذكي فيهم هذا السُّلوك من العناية بالقرآن الكريم، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم مَن يعلِّمهم ويقرئهم القرآن كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ﷺ يعلِّمانهم الإسلام ويقرءانهم القرآن، وكما أُرسل معاذ بن جبل إلى مكَّة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء، وكان نتيجة هذا المسلك المنتظم الطيب تجاه كتاب الله أن نتجَ عنه طائفةٌ كثيرة من الصحابة الكرام الذين أخذوا القرآن الكريم كاملًا من النبي ﷺ وحفظوه، منهم الأربعة الخلفاء، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفةَ، وأبو هريرةَ، وابن عمرَ، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبد الله،

=

اللحد (1347) من حديث جابر بن عبد الله ب: أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرَّجلين من قتلى أُحد في ثوبٍ واحد، ثم يقول: «أيُّهم أكثر أخذًا للقرآن؟» فإذا أُشير له إلى أحدِهما قدَّمه في اللَّحد، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاءِ».

(1) ورد ذلك في حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب تزويج المعسر (5087)، وباب عرض المرأة نفسها على الرجل الصالح (5121)، ومسلم في كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك من قليل وكثير (1425) من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن امرأةً عرضت نفسها على النبي ﷺ، فقال له رجلٌ: يا رسول الله زوجنيها، فقال: «ما عندك؟» قال: ما عندي شيءٌ، قال: «اذهب فالتمس ولو خاتمًا من حديدٍ»، فذهب ثم رجع، فقال: لا والله ما وجدت شيئًا ولا خاتمًا من حديدٍ، ولكن هذا إزاري ولها نصفه – قال سهلٌ: وما له رداءٌ – فقال النبي ﷺ: «وما تصنع بإزارِكَ، إن لبستْه لم يكن عليها منه شيءٌ، وإن لبستَه لم يكن عليك منه شيءٌ» فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه النبي ﷺ فدعاه فقال له: «ماذا معكَ من القرآن؟» فقال: معي سورة كذا وسورة كذا– لسورٍ يعددها – فقال النبي ﷺ: «أملكناكها بما معكَ من القرآن».

ومعاوية، وابن الزُّبير، وعبد الله بن السَّائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وهؤلاء كلُّهم من المهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين.

وحفِظ القرآنَ من الأنصار في حياته ﷺ أُبيٌّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدَّرداء، ومُجمِّع بن جارية[1] وأنس بن مالك، وقد ورد في السنة المطهرة ما يعطينا صورة عن اهتمام الصحابة الكرام بحفظ القرآن الكريم والتي كانت حالتهم أحد حلقات السلسلة المتصلة بين طبقات الأمة لوصول القرآن إلى جميع الأمة الإسلامية فمن ذلك:

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَقْرَأَنِي رَسُولُ الله ﷺ سُورَةً مِنَ الثَّلَاثِينَ، مِنْ آلِ حم قَالَ: يَعْنِي الْأَحْقَافَ قَالَ: وَكَانَتِ السُّورَةُ إِذَا كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ آيَةً سُمِّيَتِ الثَّلَاثِينَ»[2].

وكان يُسمَع لمسجد رسول الله ﷺ ضجةٌ بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا[3].

وفي رواية لأحمد عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُشْغَلُ، فَإِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ دَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنَّا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ، فَدَفَعَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلًا،

---

(1) مجمع بضم أوله وفتح الجيم وتشديد الميم المكسورة ابن جارية بالجيم ابن عامر الأنصاري الأوسي المدني صحابي مات في خلافة معاوية [انظر تقريب التهذيب لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (1/ 520) بتحقيق الشيخ محمد عوامة، ط. دار الرشيد – سوريا، الطبعة: الأولى، 1406 – 1986

(2) أخرجه أحمد في مسنده (1/ 419) من طريق يحيى بن آدم ثنا أبو بكر عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

(3) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (1/ 241) محمد عبد العظيم الزرقاني– مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه– الطبعة الثالثة.

فَكَانَ مَعِي فِي الْبَيْتِ أُعَشِّيهِ عَشَاءَ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَكُنْتُ أُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ»(1).

– وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41] قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ(2).

– عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: جَمَعْتُ الْقُرْآنَ، فَقَرَأْتُ بِهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ»(3).

– عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ، وَذَكْوَانُ، وَعُصَيَّةُ، وَبَنُو لَحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ» قَالَ أَنَسٌ: «كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ، يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ»(4).

– عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: مر النبي ﷺ على أبي موسى ذات ليلة وهو يقرأ فقال: «لقد أُعطي من مزامير آل داود» فلما أصبح ذكروا ذلك له، فقال: «لو كنتَ أعلمتني

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (5/ 324) من طريق عبادة بن نسي عن جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت به.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك (5050)، وفي باب البكاء عند قراءة القرآن (5055)، ومسلم في كتاب مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر (800).

(3) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (5956)، وأحمد في مسنده (2/ 163)، وابن حبان في صحيحه (756) من طريق ابن جريج قال: سمعت ابن أبي مليكة يحدث عن يحيى بن حكيم بن صفوان، عن عبد الله بن عمرو بن العاص به.

(4) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب العون بالمدد (3064)، وبنحوه مسلم في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (677).

لحبرتُ ذلك تحبيرًا»(1).

- عن مَسْرُوقٍ قال: ذُكِرَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ لاَ أَزَالُ أُحِبُّهُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ» فَبَدَأَ بِهِ «وَسَالِمٍ

مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ»(2).

- روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَدَعَانِي النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، قَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ الله: اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ؟» ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ» فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ قُلْتَ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ» قَالَ: «الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»(3).

وروى كذلك عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَجَعَلاَ يُقْرِئَانِنَا القُرْآنَ، ثُمَّ جَاءَ عَمَّارٌ، وَبِلاَلٌ، وَسَعْدٌ ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ، حَتَّى

---

(1) أخرجه النسائي في الكبرى (8004)، وأصله متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن (5048)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (793) من حديث أبي بردة عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله لأبي موسى: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتِكَ البارحةَ، لقد أوتيت مِزمارًا من مزامير آل داودَ».

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (4999)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنهما (2464).

(3) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب (4474).

رَأَيْتُ الوَلاَئِدَ وَالصِّبْيَانَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ جَاءَ، فَمَا جَاءَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فِي سُوَرٍ مِثْلِهَا[1].

وجاء في رواية أخرى عنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «تَعَلَّمْتُ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ النَّبِيُّ ﷺ»[2]. فهذا الحديث يخبرنا عن تلقي الصحابة القرآن الكريم من بعضهم البعض بعد أخذه عن رسول الله وقراءتهم للقرآن الكريم وحفظهم له.

وكذلك روى البخاري بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ القُرْآنَ» قَالَ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: وَقَدْ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ[3].

عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ أن يقرأ القرآنَ غضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أمِّ عبد»[4].

ما رواه البخاري بسنده عن شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: «وَاللهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً، وَاللهِ لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ»، قَالَ شَقِيقٌ: فَجَلَسْتُ فِي الحِلَقِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ، فَمَا سَمِعْتُ رَادًّا يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ.

وما رواه كذلك عنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (4941).

(2) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (4995).

(3) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (4961).

(4) أخرجه ابن ماجه في كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (138)، وابن حبان في صحيحه (7066) من طريق عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله ﷺ قال...به.

اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(1).

عَنْ أُمِّ هِشَامِ بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، قَالَتْ: «لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا(2) وَتَنُّورُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحِدًا، سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ، وَمَا أَخَذْتُ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إِلَّا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، إِذَا خَطَبَ النَّاسَ»(3).

فهذه نماذج من كتُب السُّنة عن مراحل توثيق هذا النصِّ الإلهي المقدس، وكيفية وصوله إلينا منذ عهد النبي ﷺ وصحابته الكرام، فأوضحت لنا كتُب السُّنة عناية الصحابة الكرام بأخذ القرآن من النبيِّ ﷺ وقراءته وحفظِه ومدراستِه، وهذا فيما يتعلَّق بجانب الحفظ والتلقي بالمشافهة.

الحفظ والتوثيق بكتابة النص القرآني:

المرحلة الثانية لتوثيق النصِّ القرآني هي تدوين هذا النصِّ وكتابته في الصُّحف، والتي كانت متزامنة مع التوثيق بالحفظ في الصدور، وهذه هي أحد أهمِّ مظاهر العناية بهذا الكتاب الكريم فوق ما تكفَّل الله به سبحانه بالحفظ له ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]

فالكتابة والتدوين هي لونٌ من ألوان التوثيق يدوم مع الزمان ولا يذهب بذَهاب الإنسان، ولو بحثنا في التاريخ والكتب التي ظهرت على وجه الأرض لن نجد كتابًا حظي بمثل هذه الطريقة في التوثيق: الأداء الصوتي المصاحب للنصِّ المكتوب، وهذا التوثيق متواترٌ لا ينقطع أبدًا عن أمة الإسلام متمثلًا في حفظة القرآن الكريم من علماء المسلمين وعوامهم

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (5002)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (2463).

(2) التنور: الذي يخبز فيه [المصباح المنير صـ 77]

(3) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (873).

بالملايين من كل الأعمار، وكذلك مئات الملايين من نُسَخ المصحف الشريف المتطابقة تطابقًا تامًّا.

وقد ورَد في كتُب السُّنة المطهرة ما يدل يقينًا على تدوين وكتابة النص القرآني منذ لحظات نزوله الأولى فمن ذلك:

1- ما ورد في قصة إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ذهب لبيت أخته فاطمةَ بنت الخطَّاب وهي مع زوجها يقرأ لهما سورةَ «طه» خبَّاب بن الأرت من صحيفة مكتوبةٍ، وكان ذلك في مكَّة قبل الهجرة، مما يدلُّ على أن عامَّة الصحابة كانت عندهم صحف القرآن مكتوبة(1).

2- ما ورد في كتب السنة في بداية الدَّعوة من نهي النبيِّ ﷺ عن كتابة غير القرآن الكريم خشيةَ أن يختلط الأمر على الصَّحابة الكرام بين ما هو من القرآن الكريم وما هو من أقوال النبيِّ ﷺ، وقد ورَد ذلك عن النبي ﷺ: «لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا إِلاَّ الْقُرْآنَ، مَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ».(2)

وفي ذلك دليلٌ على عناية الصحابة بكتابة الوحي بل إنَّهم تجاوزوا تدوين الوحي إلى تدوين كلام النبيِّ صلى الله عليهم وسلم ممَّا دعاه ﷺ إلى نهيهم عن كتابة شيء غير القرآن، وذلك كما أشرنا في بداية الدعوة.

3- ما ورَد في كتُب السُّنة من كتابة الآيات عقب نزولها مباشرةً، فمن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد الساعدي أنه قال: رأيت مروان بن الحكم جالسا في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره؛ أن رسول

(1) انظر: فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، باب إسلام عمر بن الخطاب (10 / 279)، (الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر العسقلاني ترجمة عمر بن الخطاب، وأخته فاطمة بنت الخطاب).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (3004) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله ﷺ أملى علي: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الـْمُؤْمِنِينَ وَالـْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

قال: فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلا أعمى، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت علي، حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾(1) [النساء: 95]. وهذا دليل صريح على أنَّ القرآن كان يكتب مباشرةً بعد نزوله على النبي ﷺ.

4- وجود طائفة كبيرةٍ من الصحابة عُرِفوا بأنَّهم من كتبة الوحي، كانوا يكتبون القرآن بين يدي النبي ﷺ بعد نزوله مباشرةً منهم الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، أُبي بن كعب، زيد بن ثابت، الزُّبير بن العوَّام، معاوية بن أبي سفيان وغيرهم، وقد أوصلهم بعضهم إلى ما يزيد عن العشرين كاتبًا وذكر أسمائهم رضوان الله عليهم(2).

5- ما ورد في كتُب السُّنة المطهرة من أحاديث توضِّح وتثبِّت أنَّ القرآن الكريم كان مدوَّنًا ومكتوبًا في عهد النبيِّ ﷺ، بل ومنتشرًا بينهم، فمن ذلك الحديث المشهور في الصحيحين عن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ عن رَسُولِ الله ﷺ «أَنَّهُ كَانَ يَنْهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ»(3).

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى ﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ (2831)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين (1898).

(2) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (8/ 321).

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب السفر بالمصاحف إلى أرض العدو (2990)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار (1869).

وكذلك الحديث الصحيح «أن لا يمسَّ القرآنَ إلَّا طاهرٌ»[1]وهو حديثٌ يدل على وجود صحفٍ مدوَّن فيها القرآن الكريم يرشدهم النبي ﷺ إلى كيفية التعامل معها.

كل هذه الأدلة من كتب السنة ترشدنا أنَّ القرآن الكريم كان مدوَّنًا ومكتوبًا في حياة النبي ﷺ بطرق ووسائلَ مختلفةٍ.

مما سبق يمكن أن نلخِّص ما يتعلق بتوثيق النص القرآني في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: نزول الوحي الإلهي بالقرآن الكريم على رسول الله ﷺ وتحمُّل أمانته.

المرحلة الثانية: تبليغ النبي ﷺ ما أُوحي إليه من القرآن الكريم إلى الصَّحابة رضي الله عنهم وأمرهم بكتابته وتدوينه.

المرحلة الثالثة: اعتناء الصَّحابة الكرام مع هذا الوحي الإلهي بالقراءة والحفظ والمدارسة والتبليغ لبعضهم البعض، ثم بعد ذلك القيام بنقل هذا النص الإلهي (القرآن الكريم) إلى باقي الأمة.

***

(1) أخرجه مالك في موطئه (2/ 278)، وأبو داود في مراسيله (92) عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم مرسلًا، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، رواه الطبراني في الكبير، وفيه سليمان بن داود الحرسي ; وثقه أحمد، وتكلم فيه ابن معين، وقال أحمد: إن الحديث صحيح. قلت: وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد 3/ 72)

مطلب: مرحلة نقل الصحابة الكرام للقرآن الكريم للأمة الإسلامية بعد زمن النبي ﷺ

لا ريب أنَّ المعول عليه في القرآن الكريم إنَّما هو التلقي والمشافهة، وأخذ ثقة عن ثقة وإمام عن إمام إلى النبي ﷺ، وأنَّ الصُحُف لم تكن هي العمدة في هذا الباب، وإنما هي مرجع للمسلمين إلى كتاب ربهم، وأنَّ الصحابة الكرام هم الحلقة الأولى في الوصل بين الناس وبين رسول الله ﷺ في نقل القرآن الكريم، وقد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ فمنهم من أخذ القرآن كاملًا بحرف أو أكثر، ومنهم من دونَ ذلك، وقد تفرَّقوا في الأمصار، وأدَّوا ما حفظوا إلى التابعين عملًا بقوله ﷺ: «**بلغوا عنِّي ولو آية**»[1].

والتابعون أدَّوا إلى من بعدهم فكانت بداية طريق تواترِ هذا الكتاب الكريم، هو تلقي الصحابة رضوان الله عليهم لهذا النصِّ من فم النبيِّ ﷺ ثم توثيقه بالحفظ اللفظي والنطق والأداء الصوتي إلى جوار التوثيق الكتابي في الصُّحف، ثم تلى ذلك كلَّه مرحلةٌ أخرى هو تبليغ الصحابة الكرام لهذا الكتاب الكريم إلى الأمة الإسلامية كما تلقَّوه من النبي ﷺ، وقد تم ذلك على يد عددٍ من الصحابة الكرام انتهى إليهم هذا الأمر في نهاية المطاف، والذين عرفوا بـ «الْقُرَّاء» والذين عن طريقهم نقل إلينا الكتاب الكريم.

يقول الإمام السيوطي وهو يحدثنا عن هذه الطائفة من الصحابة الكرم: «المشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة سبعة: عثمان، وعلي، وأُبيّ، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري. كذا ذكرهم الذَّهبي في طبقات القراء؛ قال: وقد قرأ على أُبي جماعةٌ من الصحابة منهم: أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب وأخذ ابن عباس عن زيد أيضًا وأخذ عنهم خلقٌ من التابعين.

(1) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (3461) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ثم ذكَر السيوطي بعضًا من التابعين الذين أخذوا عن الصحابة الكرام مباشرة:

فممن كان بالمدينة: ابن المسيب وعروة وسالم وعمر بن عبد العزيز وسليمان وعطاء ابنا يسار ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارئ وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وابن شهاب الزُّهري ومسلم بن جندب وزيد بن أسلم.

وبمكة: عُبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح وطاوس ومجاهد وعكرمة وابن أبي مليكةَ.

وبالكوفة: علقمة والأسود ومسروق وعبيدة وعَمرو بن شرحبيل والحارث بن قيس والربيع بن خَثيم وعمرو بن ميمون وأبو عبد الرحمن السلمي وزر بن حُبيش وعبيد بن نضيلة وسعيد بن جُبير والنَّخعي والشَّعبي.

وبالبصرة: أبو العالية وأبو رجاء ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر والحسن وابن سيرين وقتادة.

وبالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب عثمان وخليفة بن سعد صاحب أبي الدرداء.

- ثم تجرَّد قوم واعتنوا بضبط القراءة أتمَّ عناية حتى صاروا أئمةً يقتدى بهم ويرحل إليهم فكان بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم نافع بن أبي نعيم.

- وبمكة: عبد الله بن كثير وحميد بن قيس الأعرج ومحمد بن محيصن وبالكوفة يحيى بن وثاب وعاصم بن أبي النجود وسليمان الأعمش ثم حمزة ثم الكسائي.

-وبالبصرة: عبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو عمر بن العلاء وعاصم الجحدري ثم يعقوب الحضرمي.

- وبالشام: عبد الله بن عامر وعطية بن قيس الكلابي وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر ثم يحيى بن الحارث الذماري ثم شُريح بن يزيد الحضرمي.

- واشتهر من هؤلاء في الآفاق الأئمة السبعة:

- نافع: أخذ عن سبعين من التابعين منهم أبو جعفر.

– ابن كثير: أخذ عن عبد الله بن السائب الصحابي.

– أبو عمرو: أخذ عن التابعين.

– ابن عامر: أخذ عن أبي الدرداء وأصحاب عثمان.

– عاصم: أخذ عن التابعين.

– حمزة: وأخذ عن عاصم والأعمش والسبيعي ومنصور بن المعتمر وغيره.

– الكسائي: أخذ عن حمزة وأبي بكر بن عياش.

ثم انتشرت القراءات في الأقطار وتفرَّقوا أممًا بعد أمم، واشتهر من رواة كلِّ طريق من طرق السَّبعة راويان:

فعن نافع: قالون وورش عنه.

وعن ابن كثير: قنبل والبزي عن أصحابه عنه.

وعن أبي عمرو: الدوري والسوسي عن اليزيدي عنه.

وعن ابن عامر: هشام وابن ذكوان عن أصحابه عنه.

وعن عاصم: أبو بكر بن عياش وحفص عنه.

وعن حمزة: خلف وخلاد عن سليم عنه.

وعن الكسائي: الدوري وأبو الحارث(1).

فهؤلاء هم القراء الأشهر الذين نُقِلت عنهم قراءة القرآن الكريم وضبطها وتوثيقها الصوتي اللفظي إلى الأمة الإسلامية من بعدهم، بحيث أخذت عنهم القراءة وانتشرت من بعدهم في شتَّى بقاع الأرض في تواترٍ لا ينقطع.

---

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن (1/ 251 – 253)، وانظر تراجم القراء السبعة وما التحق بهم من باقي العشرة في كتاب البدور الزاهرة في القراءات العشر للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ7 وما بعدها ط.دار الكتاب العربي.

مطلب
المصحف الشريف كيف جمع وكيف وصل إلينا

تمهيد: عن مراحل جمع المصحف وتدوينه في تاريخ الأمة الإسلامية:

ولا بد أن نتكلَّم عن المصحف الشريف، وعن كيفية وصوله إلينا، سنرحل مع قصة المصحف الشريف، الذي هو دالٌّ على كلام الله، ثم ندخُل لنسمع كلام الله حرفًا حرفًا، وكلمة كلمة، نعرضها على العالمين، ونتخذ ما أمرنا الله به ديدنًا لنا ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256] ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْـمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125] ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْـمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: 6] أي لا تتركه ولو بعد أن تسمعه حتى تبلغَه مأمنه.

أما قصة المصحف الشريف فإنَّ له قصة عجيبة نعيش معها، فلو أمسكنا بالمصحف ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي أوائل القرن الخامس عشر الهجري لوجدناه مطبوعًا، ولم يكن كذلك في البداية، بل كان مكتوبًا على كل أنواع من الورق، وكذلك على كل الأنواع المهيأ للكتابة.

كانوا يأتون بجريدة النخل ويفتحونها، وينظفونها، ويكتبون عليها، وكذلك العظم الخاص بالإبل، فإن منه جزءًا عريضًا عند الحوض يحضرونه وينظفونه ويكشطونه ويكتبون عليه، وورق البردي أيضًا، كانوا يحضرون ورقتين ويضعونهما عكس بعضهما، ويدقون عليهما بالدقماق(1)، ويكتبون عليها وهكذا.

فكُتِبَ القرآن الكريم على كلِّ ما يصلح للكتابة في عهد رسول الله ﷺ، وكانت الصحابة تمسك هذه الأشياء المكتوب عليها لتحفظ، وقصَّة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أخته فاطمة

(1) مطرقة خشبية عبارة عن كتلة من الخشب الصلب تستخدم في الغالب لدق الأخشاب على بعضها البعض.

بنت الخطاب مشهورة كما أشرنا إليها من قبل، فقد دخل عليها فوجد معها ما تقرأ فيه، فقال: ما هذا؟! قالت: اذهب فتطهر؛ فإنه لا يمسُّه إلا المطهرون، فذهب فتطهر فأتى فقرأ أو لمس هذا المكتوب، فمنَّ الله عليه بالإسلام.

بعد ذلك، وبعد أن حفظ المسلمون الكتاب حفظًا جيدًا، قرأوه على رسول الله ﷺ فرشح منهم المتقدمين الذين برعوا فيه، فقال: «مَن أحبَّ أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابنِ أُمِّ عبد»[1]، يقصد عبد الله بن مسعود وهو متخصِّصٌ في القراءات متفرغ للقرآن، وأُبَيّ بن كعب كذلك، وكان النبي ﷺ مرة في الصَّلاة فنوزع في القرآن، وتلك أيضًا خاصية للقرآن الكريم، أنك وأنت تقرأ في الصَّلاة وأحد من الناس يتلوا خلفك فإنه ينازعك، وتحسُّ أنك تجذب من شيء شديد، فقال ﷺ: «هل قرأ معي منكم أحد آنفًا؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «ولذلك قلت: ما لي أنازع القرآن»[2].

سبحان الله!! فهذه خاصية غير موجودة في الشعر ولا في النثر ولا في كلام الناس، أن يتكلَّم أحد فيعيد رفاقه ما يتكلَّم به سرًّا، فيجد هو منازعةً، ولذلك لا تجد مسلمًا عرف إسلامه يترك الإسلام، ومن يترك الإسلام فإنه شخصٌ لم يعرف الإسلام.

فلو كان الواحد منا حافظًا للقرآن، وقف يصلي بالناس ويقرأ في المحراب، وخلفه شيخ حافظ أيضًا وهو يقرأ خلف الإمام؛ فإن الإمام تقع له منازعةٌ وشدةٌ في التلاوة، والحال أنَّ هذا إمام يقف أمام الصفوف، والآخر مأموم يقف آخر الصف، فهذا شيءٌ يخصُ كلام الله،

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب من كره القراءة بفاتحة الكتاب إذا جهر الإمام (826)، والترمذي في كتاب الصلاة، باب ما جاء في ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة (312) وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (848) من طريق ابن شهاب، عن ابن أكيمة عن أبي هريرة به مرفوعًا.

فهذا الكلام ليس ككل الكلام، وقوانينه ليست ككل القوانين.

مرحلة جمع القرآن في عهد سيدنا أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وصل إلينا المصحف بعد أن مرَّ بمراحل ومن ضمنها مرحلة سيدنا أبي بكر الصديق فقد جمع الناس وأعلمهم أنَّ كل أية تُكتَب لابدَّ من أن نعرفَ أين كتبت، وأن نجد على الأقل شاهدين يشهدان أنهما يحفظانها، ويشهدان أنها في هذا الموطن من القرآن؛ لأنَّ القرآن نزل منجَّمًا، فمن الذي يستطيع ذلك؟ يستطيعه الذين رشحهم النبي ﷺ: أُبَيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت[1] وأشباههم.

فاختار منهم ولم يخترهم كلهم؛ لأنهم كثيرون جدًّا، ومن فنِّ اللجان العلمية المتخصِّصة أن تتكون من ثلاثةٍ أو أربعةٍ أو عددٍ محددٍ حتى يستطيعوا الإلمام والإنتاج بسرعةٍ، فاجتمعت تلك اللجنة، وأكبَّت على الكتابة والتدقيق حتى انتهوا من كتابة القرآن كلِّه سوى آيتين، وجد أعضاء اللجنة أنهم يحفظونهما، وأن بقيَّة الصحابة يحفظونهما، لكنهم لم يجدوا لهاتين الآيتين وثيقةً مكتوبةً، بخلاف كلِّ آيات القرآن الأخرى، فقد تم إثباتها كتابة، بناء على إطباق الصحابة على حفظهما في الصدور، وعلى شهادة خزيمة بن ثابت، وهاتان

(1) أخرج البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (3808) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (2464) عن مسروقٍ قال: كنا نأتي عبد الله بن عمرٍو، فنتحدث إليه – وقال ابن نميرٍ: عنده – فذكرنا يومًا عبد الله بن مسعودٍ، فقال: لقد ذكرتم رجلًا لا أزال أحبه بعد شيءٍ سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعةٍ: من ابن أم عبدٍ فبدأ به ومعاذ بن جبلٍ، وأبي بن كعبٍ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة».

قال الإمام النووي في شرحه على الحديث: قال العلماء سببه أن هؤلاء أكثر ضبطًا لألفاظه وأتقن لأدائه وإن كان غيرهم أفقه في معانيه منهم، أو لأن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأخذه منه ﷺ مشافهة وغيرهم اقتصروا على أخذ بعضهم من بعض، أو لأن هؤلاء تفرغوا لأن يؤخذ عنهم، أو أنه ﷺ أراد الإعلام بما يكون بعد وفاته ﷺ من تقدم هؤلاء الأربعة وتمكنهم وأنهم أقعد من غيرهم في ذلك فليؤخذ عنهم. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (16/ 17).

الآيتان هما قوله تعالى في آخر سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 128: 129].

وفي هذا الوقت كان الجهاد في سبيل الله، وكان صدُّ الطغيان، وكان ردُّ العدوان، وكان القُرَّاءُ قد خرجوا يجاهدون في سبيل الله، فبحثوا في المدينة عن أحد يشهد، فتقدَّم خزيمة بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فأقرَّ بأنه يشهد أن هاتين الآيتين في موضعهما المعلوم من سورة التوبة، فطلبوا منه شخصًا آخر يشهد معه، على ما جرت عليه قواعد تلك اللجنة؛ أن القرآن الذي لا توجد له وثيقة مكتوبة يشهد على صحته شاهدان وليس شاهدا واحدا.

وهنا حدثت واقعة مدهشة، تعجَّب لها الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولا تزال تثير الدهشة إلى يومنا هذا، وذلك أن خزيمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وحده هو الذي قدَّر الله تعالى أن تكون شهادته بشهادة رجلين شرعًا، وقد جعَل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين، بسبب واقعة سيأتي ذكرها بعد قليل، ولا أحد بعده على وجه الأرض إلى يوم الدِّين تعدل شهادته شهادة رجلين، حتى عرف خزيمة بذي الشهادتين(1) فهل كان النبي ﷺ حينما جعل شهادته بشهادة رجلين يعلم أنه بعد وفاته

(1) وقد صارت هذه خاصية من خصائص سيدنا خزيمة بن ثابت، وقد كان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من السابقين الأولين، شهد بدرا وما بعدها، واستشهد بصفين في جيش سيدنا علي، وعرف بذي الشهادتين، ضمن جماعة من الصحب الكرام تميزوا بمزايا لم تعرف لغيرهم، واشتهروا بالأذواء من الصحابة، منهم (ذو اليدين)، وهو رجل من بني سليم، له قصة مشهورة مع النبي ﷺ قال فيها: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ وحديثه عند البخاري ومسلم، ومنهم (ذو الشمالين)، عمير بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي، استشهد يوم بدر، ومنهم: (ذو البجادين)، عبد الله بن عبد نهم المزني، أسلم فجرده عمه من كل شيء حتى ثوبه، وكان لأمه بجاد فشقته نصفين فاتخذ نصفه إزارًا ونصفه رداء، فلما رآه النبي ﷺ قال له: «أنت عبد الله ذو البجادين»، ومنهم (ذو الجناحين)، وهو جعفر بن أبي طالب أخو سيدنا على، قطعت يداه في غزوة مؤتة وهو يحتضن الراية، فعوضه الله بهما جناحين في الجنة، ومنهم: (ذو النورين)، وهو عثمان بن عفان لأنه =

ﷺ سينهض أصحابه بتدوين القرآن، فلا يفتقدون في النص المُدوَّن إلا لآيتين يشهد بهما خزيمة، وهل اتفق معه النبيﷺ وهو يقول له هذه الكلمة العظيمة، أن يفقدَ الناس في وقت جمع القرآن الشاهد الثاني، فإن القرآن ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية، وعلى مدى ستة آلاف ومائتين وأربع وثلاثين آية منها يشهد لوجود المكتوب في كل آية شاهدان، فما لهذه الآية خصوصًا، أليس هذا شأنًا إلهيًّا محضًا؟![1].

=

تزوج اثنتين من بنات النبي ﷺ، ومنهم: (ذو الأذنين)، وهو أنس بن مالك، مازحه بذلك النبي ﷺ في حديث رواه أبو داود والترمذي عنه.

(1) قال الحافظ بن حجر العسقلاني: وعند ابن أبي داود أيضًا في الـمصاحف من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطبٍ قال قام عمر فقال من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب قال وكان لا يقبل من أحدٍ شيئًا حتى يشهد شاهدان وهذا يدل على أن زيدًا كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوبًا حتى يشهد به من تلقاه سماعًا مع كون زيدٍ كان يحفظه وكان يفعل ذلك مبالغةً في الاحتياط وعند بن أبي داود أيضًا من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكرٍ قال لعمر ولزيدٍ اقعدا على باب الـمسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيءٍ من كتاب الله فاكتباه ورجاله ثقاتٌ مع انقطاعه وكأن الـمراد بالشاهدين الحفظ والكتاب أو الـمراد أنهما يشهدان على أن ذلك الـمكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ أو الـمراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ (فتح الباري شرح صحيح البخاري 9/ 5)، وقال السخاوي في جمال القراء: الـمراد أنهما يشهدان على أن ذلك الـمكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ أو الـمراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن. قال أبو شامة: وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ. قال: ولذلك قال في آخر سورة التوبة: لم أجدها مع غيره أي لم أجدها مكتوبةً مع غيره لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة. قلت: أو الـمراد أنهما يشهدان على أن ذلك مما عرض على النبي ﷺ عام وفاته كما يؤخذ مما تقدم آخر النوع السادس عشر. وقد أخرج ابن أشتة في الـمصاحف عن الليث بن سعدٍ قال: أول من جمع القرآن أبو بكرٍ وكتبه زيدٌ وكان الناس يأتون زيد بن ثابتٍ فكان لا يكتب آيةً إلا بشاهدي عدلٍ وإن آخر سورة براءةٍ لم توجد إلا مع خزيمة بن ثابتٍ فقال: اكتبوها فإن رسول الله ﷺ
=

فما هذه القصة العجيبة؟ القصة أنَّ سيدنا رسول اللهﷺ كان عائدًا مرة من المدينة، فوجد جملًا مع أعرابي فأعجبه، وقال له: هل تريد البيعَ؟ قال نعم، فأعطى رسول اللهﷺ المال للرجل، ومضى والناقة معه، والأعرابي يتابعه، فلمَّا دخل المدينة، سأل الناس الأعرابي: هل تريد البيع؟ فسوَّل له الشيطان وهو سائر أن يبيعَ الناقة مرة أخرى، فقال: نعم، فقال له النبيُّ ﷺ: «قد اشتريتها منك وأعطيتك المالَ»، فقال الأعرابي: هل معك شاهدٌ؟ وكان خزيمة واقفًا فقال: أنا أشهد يا رسول الله أنك قد اشتريتَ من هذا الأعرابي، فقال له: «أرأيتني يا خزيمة؟!» قال له: يا رسول الله أصدِّقك أن خبر السماء يأتيك من فوق سبع سمواتٍ، ولا أصدِّقك أنك اشتريت من هذا الأعرابي ذلك الجمل؟ وقال للأعرابي: اتقِ الله هل بعت هذه الناقة أم لا؟ فقال: نعم بعتها، فقال النبي ﷺ: «مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ خُزَيْمَةُ فَحَسْبُهُ»(1)، وجعل ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

والحاصل أن أبا بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أتم كتابة المصحف كما ذكرنا، كل أية فيها رجلين، إلا أواخر سورة التوبة فشهد عليها رجل واحد كان رسول الله ﷺ قال في شأنه: «من شهد له خزيمة فهو حسبه»، وجعل شهادته بشهادة رجلين.

وظل هذا المصحف يسمَّى بالمصحف الإمام عند أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأنه خليفة المسلمين، فلمَّا مات أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صار هذا المصحف جزءًا من دولة الإسلام؛ لأنَّ المصحف هو محور حضارة المسلمين، منه الانطلاق وإليه المرجع، وبه التقويم وله الخدمة، وهو كتاب ربِّ العالمين، وهو حبل الله المتين، ولذلك أيضًا انتقل إلى عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بوفاة أبي بكر

=

جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب. (الإتقان في علوم القرآن (1 / 206)– جلال الدين السيوطي).

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (4/ 87) والحاكم في المستدرك (2/ 18) والبيهقي في السنن الكبرى (10/ 146) من طريق محمد بن زرارة بن خزيمة بن ثابت، حدثني عمارة بن خزيمة بن ثابت، عن أبيه به مرفوعًا.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد قال الإمام أبو المظفر السَّمعاني: «والمصحف الإمام هو هذا المصحف الذي بين يدي المسلمين، جمع في زمان أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإجماع الصَّحابة، وأخرج في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونسخت منه المصاحف، وفُرِّقت في البلدان، وعليه الاتفاق»(1).

أي أن تلك النسخة قد صارت أصلًا، بحيث إذا أراد أيُّ شخصٍ أن يكتبَ نسخةً أخرى فإنه يكتبها من تلك النُّسخة الأصلية، ولكن حدوث الخطأ أو السهو عند الكتابة واردٌ، بأن ينسى الكاتبُ حرفًا مثلًا لسرعة الكتابة أو غير ذلك، ولذلك لم تعتمد الأمة في حفظ القرآن على الكتابة بل على حفظه في الصدور، وتلقيه بالتَّواتر، أما الكتابة فإنها وثيقةٌ كوَّنتها لجنة علميَّة دقيقةٌ، وهذه اللجنة التي كتَبت القرآن على أيام أبي بكر قامت بعمل جليل، حيث كانت سببا في إظهار كيفية حفظ الله القرآن الكريم، فرغم اتساع رقعة الدولة الإسلامية ودخول مئات الألوف اللإسلام لكن ظل عمل اللجنة الأولى حاضرا بما قررته من كتابة ورسم للمصحف الشريف على نحو غير مسبوق في أي كتاب آخر، تعددت نسخة وترجماته؛ فهي معجزةٌ تشهد لرسول الله ﷺ، ثم إن المصحف كما ذكرنا حُفِظ عند أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما مات ذهب إلى رئاسة الدولة ذهب إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنتان تقريبًا، أما عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد ظلت خلافته لأكثر من عشر سنوات.

وعنه نُسخت مصاحف أخرى، لكن النسخة الأصلية ظلت محفوظةً، فشاعت المصاحف وكثرت، ورغم ذلك، فقد بقي الأساس، والأصل هو أن: (أناجيل هذه الأمة- أي قرآنها- لا يبلها الماء)؛ وذلك لحفظهم القرآن، وهكذا وُصِف المسلمون في الكتب السابقة(2)، فإنه في

(1) انظر: قواطع الأدلة (1/ 30) قواطع الأدلة في الأصول - المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي - المحقق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي - الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - الطبعة: الأولى، 1418هـ/ 1999م.

(2) أخرج البيهقي في الدلائل (1/ 379) موقوفًا على وهب بن منبهٍ إن الله، عز وجل لما قرب موسى نجيا... وفيه قال: «رب إني أجد في التوراة أمةً أناجيلهم في صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون =

القلب، وما في القلب لا يبل.

المصحف المدون وطائفة القراء وشيخ المقارئ:

القضية إذًا ليست قضية صحفٍ، يزيد أحدٌ فيها ورقةً أو ينقص منها ورقةً، أو تزيد فيها كلمة، أو يخطئ الناسخ هنا أو هناك، بل القضية هي قضية الشخص الحي الحافظ، ولذلك لدينا مقارئ للقرآن، تنتشر في المشارق والمغارب، ولدينا ما يسمى بـ(شيخ المقارئ)، مثل الأئمة القراء في الماضي، والذين منهم: الإمام عاصم(1)، والإمام نافع(2)، والإمام أبو جعفر(3) والإمام حمزة الزيات(4)، والإمام ابن كثير(1)، والإمام أبو عمرو(2)، وغيرهم، فهم

=

كتبهم نظرًا ولا يحفظونها، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد».

(1) هو عاصم بن أبي النجود الأسدي أحد القراء السبعة، معدود في التابعين، قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش وجماعة، إليه انتهت إمامة القراء في الكوفة بعد شيخه أبي عبد الرحمن السلمي، وكان- رحمه الله ذا نسك وأدب، وفصاحة وحسن صوت، وكان متقنا مجودا، انظر ترجمته في: «معرفة القراء الكبار» للذهبي (1/ 88)، و«سير أعلام النبلاء»: (5/ 256)، و«شذرات الذهب» لابن العماد: (1/ 175).

(2) هو نافع بن عبد الرحمن، أبو رويم، المقرئ المدني، توفي سنة 69 للهجرة، قرأ على عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وأبي جعفر القارئ، وغيرهما، كان يقول: قرأت علي سبعين من التابعين، وهو من تلاميذ نافع مولى ابن عمر، وعامر ابن عبد الله بن الزبير، وقال مالك بن أنس: نافع إمام الناس في القراءة، ترجمته في «معرفة القراء الكبار»: (1/ 107).

(3) هو يزيد بن القعقاع، أبو جعفر القارئ، أحد العشرة، مدني مشهور، قرأ على (عبد الله بن عياش) وتصدى لإقراء القرآن دهرا، توفي سنة 133هـ أو نحوها، ترجمته في «غاية النهاية» لابن الجزري: (2/ 382)، و«معرفة القراء الكبار»: (1/ 72).

(4) حمزة بن حبيب الزيات، أحد القراء السبعة، قرأ على الأعمش، وجعفر الصادق، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وغيرهم وتصدر للإقراء مدة وقرأ عليه عدد كثير، كان إماما حجة، قيما بكتاب الله تعالى، حافظا للحديث، بصيرا بالفرائض والعربية، كان أبو حنيفة يقول له: شيئان غلبتنا عليهما، القرآن

=

عشرة من الأئمة[3]، كل واحد منهم أخذ بأسانيده الموصلة إلى رسول الله ﷺ طريقة التلاوة، فلدينا المصحف لا يصبح مصحفًا إلا إذا قال الشيخ الحافظ: (نعم، هو صحيح ومطابق لما تلقيناه عن مشايخنا قراءةً وحفظًا وتلاوةً)، فالاعتماد عندنا كما قلنا على الحفظ.

وقد طبعنا مرَّة مصحفًا، وكان الشيخ (محمود برانق)[4]: هو مصحِّح المصحف الشريف،

=

والفرائض- أي المواريث- توفي سنة 158هـ، ترجم له ابن سعد في «الطبقات»: (6/ 385)، وابن قتيبة في «المعارف»، والذهبي في«معرفة القراء الكبار» (1/ 111).

(1) عبد الله بن كثير بن المطلب، إمام المكيين في القراءة، قرأ على (عبد الله بن السائب) وغيره، وتصدر للإقراء، وصار إمام أهل مكة في القراءة، توفي سنة 120هـ، ترجم له ابن الجزري في «غاية النهاية»: (1/ 443) وابن سعد في«الطبقات »: (5/ 484)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء»(5/ 318).

(2) أبو عمر بن العلاء المازني البصري، النحوي المقرئ الإمام، مقرئ أهل البصرة، أخذ القراءة عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، وابن كثير، وغيرهم من أهل الحجاز، وأهل البصرة، توفي سنة 154هـ ترجمته في «التاريخ الكبير » للبخاري: (9/ 55)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص531)، و«أخبار النحويين البصريين»: (ص22)، و«معرفة القراء الكبار» (1/ 100).

(3) انظر ترجمة العشرة: كتاب البدور الزاهرة في القراءات العشر للشيخ عبد الفتاح القاضي صـ7 وما بعدها

(4) هو العلامة الشيخ محمود حافظ برانق (1928- 2000م) ولد بقرية ميت حلفا التابعة لمركز قليوب بمحافظة القليوبية أتم حفظ القرآن الكريم وتجويده برواية حفص عن عاصم وهو في سن العاشرة من عمره، ونال شهادة التخصص في القراءات ضمن أول دفعة تتخرج من معهد القراءات عام 1953م، وفي عام 1956م عين مدرسا للقراءات بمعهد سوهاج الأزهري، ثم انتدب للتدريس بمعهد القاهرة للقراءات وظل يدرس بالمعهد حتى عام 1964م، التحق الشيخ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية وحصل على الإجازة العالية (الليسانس) عام 1968م، عين مفتشا أول على المقارئ المصرية عام 1976م في عام 1979م وقع عليه الاختيار ليكون عضوا بلجنة مراجعة المصاحف بالأزهر، وعضوًا للجنة اختيار القراء بالإذاعة والتلفزيون، ثم وكيلًا للجنة مراجعة المصاحف، فرئيسا لها في عام 1993م وحتى عام 1998م. له من الكتب «كفاية المريد في علم التجويد»، «مرشد الأعزة شرح رسالة حمزة، للمتولي» توفي إلى رحمة الله في يوم 30يوليو عام 2000م.

وكان قرآنًا يمشي على الأرض، واسمعوا هذه الكرامة العجيبة، التي وقعت منه، وكرامة الولي معجزة للنبي(1)، راجعنا ذلك المصحف نحو أربعين مرة، حتى ضبطناه تمامًا، ثم أردنا أن يراجعه الشيخ برانق، فقال الشيخ: أروني المصحف، وسأل هل قمتم بمراجعة هذه النسخة؟ قلنا: نعم راجعناها، فقال: لا بأس، ثم فتح نسخة المصحف ليراجعها، ففوجئنا به يقول: إذًا أين الشَّدَّة هنا؟

انظروا، فهذا والله ما هو بالشيء المعتاد، تلك الشَّدَّة الوحيدة التي فاتنا إثباتها بعد مراجعة أربعين مرة، هي التي تقع عليها عين الشيخ!! فهذا شيء عجيب، لكنه وقع أمامنا والله، ولعلكم قد فَطِنْتم إلى سرِّ قناعتنا بهذا الدِّين؟! أننا نرى الله تعالى في هذه المظاهر المعجزة دائمًا، ثم أن الشيخ قلَّب نظره في المصحف سريعًا ثم قال: هيا، توكلوا على الله واطبعوه، قلنا: كيف نطبعه، ألن تراجعه؟ فقال الشيخ: ألم تراجعوه أربعين مرة؟ توكلوا على الله.

حقيقةً، لقد خفنا أن يكون الشيخ قد تكاسل، لا سيما وقد وجدنا شَدَّةً ناقصة بعد مراجعة أربعين مرة، فقمنا بمراجعة هذا المصحف سبع عشرة مرة بعد ذلك، فلم نجد فيه أي خطأ؛ فتأكدنا أن هذا الموقف من عند الله، فالمصحف محفوظ محفوظ.

ونعود للحديث عن المصحف الذي جمع في عهد سيدنا أبي بكر الصديق، فإنه بعد وفاته

(1) لأنها تشهد لهذا النبي بصحة المنهج وصدق الرسالة والبلاغ عن الله سبحانه وتعالى. والذي ذهب إليه أغلب أهل العلم أن الكرامات يمكن أن تبلغ مبلغ معجزات الأنبياء عليهم السلام في جنسها وعظمتها؛ فمن ذلك أن تكون الكرامة عبارةً عن الاطلاع على المغيبات، والإخبار بها في المستقبل، أو قطع الأرض من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب في لمح البصر، ومن هنا جاء قول الأئمة: ما جاز أن يكون معجزةً لنبي جاز أن يكون كرامةً لولي لا فارق بينهما إلا التحدي، ومع كون الكرامة لا تصل لمرتبة المعجزة في التحدي وليس مطلوبٌ منها ذلك إلا أنها تشهد لصاحبها بصدق الولاية وصلاح الحال، فخلاصة القول أنه من الممكن أن يجري الله على يد الأولياء ما يجريه من الخوارق على يد الأنبياء والمرسلين، وهذا أمرٌ لا ينفي العقل إمكانية وقوعه، سواءٌ أوقع بالفعل أم لم يقع.

انتقل المصحف إلى سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وظل المصحف عنده، وبعد عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقد شاعت النسخ – حفظته السيدة حفصة، فهل كان ذلك لأنها ابنة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؟ لا؛ بل لأنها حفصة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ، وهذا جزء من قيادة الدولة، وكل ذلك حتى لا يتوهم أحدٌ أن عمر أعطى النسخة لابنته، بل أعطى النسخة لأحد أركان الدولة وهي حفصة، أي أنها سيدة من سادات الصحابة، أي أنها أم المؤمنين؛ فينبغي أن نقرأ الإسلام قراءة صحيحة، ثم ظل عندها، وشاع المصحف.

وفي شيوع المصحف المكتوب خطورة؛ لأنه قد يقع خطأ في كلمة أو حرف، في حين أن الأصل الحفظ، فقالوا لعثمان: يجب أن نعمل عدة مصاحف معتمدة في كل قطر، ولا يكفي مصحف واحد؛ لأن الناس بدؤوا يختلفون على صحة وخطأ النسخ، فوافق، وقال لحفصة أرسلي النسخة العمدة، وشكل لجنة أخرى على رأسها زيد بن ثابت، الذي كان عضوًا في اللجنة الأولى، ونسخوا من هذا المصحف ستَّ نسخٍ: نسخة له، ونسخة أرسلها إلى مكة، ونسخة للكوفة، ونسخة للشام، وهكذا.

وأصبح لكلِّ ولايةٍ المصحف المرجع المكتوب كوثيقة، لكن الأساس هو ما يذكر في الحفظ في الكتاتيب والمساجد والبيوت والشوارع وهكذا؛ وبذلك حفظ الله القرآن والحمد لله رب العالمين.

إذًن فقد وصل إلينا المصحفُ الشريف غضًّا طريًّا عبر العصور، بأسانيد بلغت مبلغ الاستفاضة والتواتر والعلو، بكل ما تعنيه هذه الكلمات، فأصبح القرآن الكريم يحفظه الناس، العربي والأعجمي، الأطفال والكبار، الرجال والنساء، العلماء والأميون، كلهم حفظوا كتاب الله عن ظهر قلب

فهذا القرآن سمعه الصحابة في عرضته الأخيرة وتم نقله شفهيًا بين الأستاذ والتلميذ(1)،

---

(1) جاء في كتب السنة المطهرة الكثير من النصوص التي تبين لنا صور تلقي الصحابة الكرام القرآن من رسول الله ﷺ يقول ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَقْرَأَنِي رَسُولُ الله ﷺ سُورَةً مِنَ الثَّلَاثِينَ، مِنْ آلِ حم قَالَ: يَعْنِي الْأَحْقَافَ قَالَ: وَكَانَتِ السُّورَةُ إِذَا كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ آيَةً سُمِّيَتِ الثَّلَاثِينَ». أخرجه أحمد في =

وبين الأب والابن، وبين الجيل والجيل الذي بعده؛ ينقلون فيه القرآن كما تلقوه، وإرادة الله سبحانه وتعالى أن تَحدث بعض الغرائب والعجائب النحوية في النص القرآني؛ فإذا بالعربي ينقلها كما سمعها، وهذا يعد تأكيدًا على التزامهم بما ذهبوا إليه وبما سمعوه، حتى ولو كان مخالفًا لآرائهم النحوية، أو كان مخالفًا للغة قبيلتهم وهذا في القرآن كثير.

ونحن الآن نركز على كيفية نقل القرآن؛ فقد نقل إلينا جيلًا فجيل، وفي كل جيل كان يقوم الحفاظ بتعليمه للصغار كما هو، وكانت القراءات العشر موجودة منذ عصر الصحابة، حتى أتينا إلى القرن الثاني الهجري فوجدوا أنها ينبغي أن تحفظ كما هي؛ فقام أكبر العلماء في كل قراءة ليضبطوها فنسبت إليهم «قراءة حفص عن عاصم، وقراءة ورش، وقراءة حمزة الزيات، وقراءة أبي عمرو، وقراءة الكسائي، وقراءة ابن عامر، وقراءة أبي جعفر، وقراءة يعقوب، إلخ...» وعرفت بأسماء أئمتها الأوائل تخفيفًا ورمزًا؛ فنقول قراءة نافع؛ لأن نافعا هذا قد التزم بقراءة معينة تلقاها عن شيخه أبي جعفر، وأبو جعفر تلقاها عن شيخه، وهكذا إلى رسول الله ﷺ.

وفي القرن الثامن الهجري جاء محمد بن محمد بن محمد بن الجزري(1)، وجمع الأسانيد التي

=

مسنده (1/ 419) من طريق يحيى بن آدم ثنا أبو بكر عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به. وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41] قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك (5050)، وفي باب البكاء عند قراءة القرآن (5055)، ومسلم في كتاب مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر (800).

(1) محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف، أبو الخير، شمس الدين، العمري الدمشقيّ ثم الشيرازي
=

سمعنا بها القرآن في الروايات العشر، فجاءت أكثر من ألف سند. فلو أن أحدًا من البشر جاء وسألني: كيف تتيقن أن ما بين دفتي المصحف الذي بين يديك هو الذي نزل على محمد ﷺ؟ أو هو الذي صدر منه؟ أقول: إنني سمعت فلانًا «وهو شخص معروف لدينا: معلوم متى ولد، وأين عاش، وكيف تعلم، وسيرته كلها معلومة لدينا»، وهذا الشيخ قال إنه سمعها من شيخه «وهو شخص معروف كذلك»، وهكذا إلى أن يعدد بضعًا وعشرين شخصًا بينه وبين الرسول ﷺ، وليس بسند واحد، بل بألف سند. وكل هؤلاء الذين نسمعهم في الإذاعة، والذين يكتبون أسمائهم في المصحف في لجنة تصحيح المصحف الشريف بالأزهر قد تلقوا هذا القرآن كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، وتلقّوا كيفية أداء النطق لكل حروفه عن شيوخهم وصولًا إلى الرسول ﷺ، وكل طريق من هذه الطرق يسمى «سندًا»، وكل سند مكون من «حلقات»، وكل حلقة تمثل شخصًا عالمًا، وكل عالم من هؤلاء العلماء معروف لدينا تمام المعرفة.

***

=

الشافعيّ، الشهير بابن الجزري: شيخ الإقراء في زمانه. من حفاظ الحديث. ولد ونشأ في دمشق، وابتنى فيها مدرسة سماها (دار القرآن) ورحل إلى مصر مرارا، ودخل بلاد الروم، وسافر مع تيمورلنك إلى ما وراء النهر. ثم رحل إلى شيراز فولي قضاءها. ومات فيها. نسبته إلى (جزيرة ابن عمر). من كتبه (النشر في القراآت العشر – ط) جزان، و(غاية النهاية في طبقات القراء – ط) مجلدان، اختصره من كتاب آخر له اسمه (نهاية الدرايات في أسماء رجال القراآت)، و(التمهيد في علم التجويد – ط) [انظر الأعلام للزركلي (7/ 45)]

مطلب
من مظاهر الإعجاز القرآني سهولة التلقي والحفظ

فمن جوانب إعجاز القرآن الكريم ووجه من وجوه عظمته سهولةُ حفظه لجميع الأفراد؛ العامي والقارئ على السواء، ومن جميع الأعمار، بل بلغ بعضهم في حفظ هذا الكتاب واستظهاره مبلغًا عجيبًا، بلغ حد الإعجاز فكان كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

فالشيخ علي الخواص[1] كان أميًّا، لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وكان حافظًا لكتاب الله تعالى، وكذلك الشيخ عبد العزيز الدباغ[2]، وغيرهم كثر.

وتجد بعد ذلك أشياءَ عجيبة في هذا المعنى، ففي تركيا مثلًا ستة آلاف مدْرسة تُحَفِّظ القرآن، والولد هناك يحفظ القرآن بشكل غريب، ذهبت مرة إلى أحد هذه المدارس، وصرت أفتح المصحف في أيِّ موضع وأسأله، فيقول لي: نعم هذه يمين الصفحة، وهذه يسارها، وهذه في المنتصف، وهو يقرأ بمجرَّد أن أذكر له بداية الآية، وهولا يعرف العربية، يعني لو أخرجته عن الحفظ وكلَّمته باللسان العربي لا يفقه شيئًا، أليست هذه كرامة؟! وهل حدث مثل ذلك في الدنيا، أن ملايين البشر حفظته، فلم يحدث أن كتابًا حُفِظ بكل هذا الحفظ، ولا

---

(1) الشيخ علي الخواص المتوفى سنة 936هـ، كان من أهل الصلاح والولاية رغم أميته، من تلامذته الشيخ عبد الوهاب الشعراني، وجمع من فوائده كتابًا اسمه: «درر الغواص، من فتاوى سيدي علي الخواص» ترجم له ابن العماد في «شذرات الذهب» (8/ 233)، وعلي مبارك في «الخطط التوفيقية» (9/ 88).

(2) عبد العزيز بن مسعود الدباغ من السادة الأكابر أهل الصلاح والولاية والمعرفة، ولد ومات بفاس من بلاد المغرب الأقصى، كانت وفاته سنة 1132هـ، كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، إلا أنه مع ذلك صاحب علوم ومعارف، وقد جمع تلميذه العلامة المحقق الشيخ أحمد بن المبارك السلجلماسي طرفًا من إفاداته في كتاب، اسمه: «الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز» وهو مطبوع، وقد ترجم للشيخ الدباغ العلامة القادري في كتاب «نشر المثاني» (2/ 118) والزركلي في «الأعلام» (4/ 28).

بكل هذا العدد.

المهم أني قد استغربت، هذا التركي كيف حَفِظ؟! فوجدت أنَّهم يسمون طبعة المصحف عندهم- والتي تشبه طبعة الملك فهد – بطريقة (الدر كنار)، وما مزية طبعة الملك فهد للمصحف؟ مزيتها أنك تجد أنَّ كل جزءٍ عشرون صفحة، وكل صفحة خمسة عشر سطرًا، فلدينا ثلاثون جزءًا، تضرب في عشرين، فيصبح الناتج: ستمائة ورقة، أو ستمائة واثنتين من الصفحات؛ لوجود زخرفة بالفاتحة والبقرة، وكذلك جزء عم؛ فإن سوره صغيرة، فيصبح الكتاب ستمائة صفحة وأربع صفحات، وكل صفحة تبدأ بآية وتنتهي بآية، إذًا الآية لا تنقسم بين صفحتين، وهذه الطريقة تسمى: (در كنار) وتعني: «في الإطار» وكأن هناك شيئًا محسوبًا في الإطار.

فنجعل الولد يحفظ الصفحة الأولى من الجزء الأول، والصفحة الأولى من الجزء الثاني وهي رقم واحد وعشرون، ثم الصفحة الأولى من الجزء الثالث وهي صفحة واحد وأربعون، ثم واحد وستون، وهكذا حتى يحفظ ثلاثين صفحة، وهي الصفحة الأولى من كل جزء، ثم يرجع فيحفظ الصفحة الثانية، ثم الصفحة رقم اثنين وعشرين، ثم اثنين وأربعين، ثم اثنين وستين، وهكذا يتم حفظ ستين صفحة، ثم يحفظ الصفحة الثالثة، فالرابعة، فالخامسة، وهكذا حتى العشرين، فيكون قد أتمَّ حفظ القرآن كاملًا.

ويوجد هذا الكلام كما قلنا في تركيا، فقلنا: ما فكرتها؟! فقالوا: لا نعلم، ولماذا يحفظ الولد؟ فقالوا: لا نعلم، لكن من يحفظ بهذه الطريقة وهذه الكيفية لا ينسى، وتصبح ذاكراته فوتواغرافية، قلنا لهم من ابتكر هذه الطريقة؟ ولماذا؟ ومن وراءها؟ قالوا: لا نعلم، لكننا نشأنا فوجدنا طريقة (الدر كنار) هذه، ومن العجيب أنها بالفعل عند تجربتها وجد أنها نافعة جدًّا، فهذه تجربة بشرية تحتاج إلى دراسات وبحوث، وأن يتحرك المسلمون وأن يُقلِّبوا ويدرسوا: ما هذا الذي يحدث في المخ بهذه الطريقة؟ وهذه المصاحف (الدر كنار) شاعت بعد مصاحف الملك فهد؛ لأنه لما ذاع وشاع صارت كل المطابع الآن تطبع بهذه الطريقة، وإن

لم تذكر أنها طريقة (الدر كنار)، هذه الطريقة كنا نطبع بها في مصر سابقًا، وكانت تكتب على المصاحف، وإذا رأيت المصاحف المطبوعة عندنا في الصنادقية[1] وغيرها تجد مكتوبًا عليها: طبعت على طريقة (الدر كنار) أو طريقة (الكنار) ولا يكتب (در) وهي كلمة فارسية معناها: (في).

هذا وقد طبع المصحف منذ نحو مائة وثمانين سنة، ولما طُبع كان العلماء خائفين من أن يحدث به تحريف، والتحريف يكون بالحبر، والحبر يصبح ثابتًا؛ لأن ما كان يكتب باليد كان يمكن شطبه أو تصليحه.

فلما أن جاء محمد علي باشا[2] قال لهم: (نحن نريد طباعة المصحف؛ لأننا دخلنا عصرًا جديدًا، ويجب أن يكون المصحف في يد الناس)، ونحن الآن نعرف ذلك؛ لأن الناس تزداد من سنة 1830م زيادة مضطردة، فيجب أن نطبع المصحف، فطبع في المطبعة الأميرية[3]،

(1) أحد الشوارع الشهيرة في حي الأزهر الشريف عرف من قديم بوجود المكتبات فيه وأهل صنعة نسخ الكتب وطباعتها.

(2) محمد علي باشا المتوفى سنة (1849م)، والي مصر من (1805: 1848م) ومن مؤسسي الدولة المصرية الحديثة، له الكثير من الأعمال التاريخية الكبيرة، من بناء الجيش المصري، وإنشاء العديد من مشروعات النهضة في كل المجالات، وشهدت مصر في عهده نهضة كبرى على كافة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. انظر: الأعلام للزركلي (6/ 298).

(3) يعود تاريخ إنشاء «المطبعة الأميرية» فى بولاق إلى أكثر من 187 عامًا فقد أنشئت مطبعة بولاق فى سبتمبر عام 1235هـ - 1820م وافتتحت رسميًا فى عهد الوالي محمد علي باشا عام 1821م. وكانت تطبع الكتب العسكرية للجيش، ثم تطورت بعد ذلك حيث قامت بطبع الكتب الأدبية والعلمية والمدرسية. وفي أكتوبر 1862م قدم الخديوي سعيد باشا المطبعة هدية إلى عبد الرحمن بك رشدي، ثم اشتراها الخديوي إسماعيل باشا وضمها إلى أملاك الدائرة السنية، ثم عادت ملكًا للدولة فى 20 / 6 / 1880م وذلك فى عهد الخديوي توفيق، وقد أصدر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى 13 أغسطس =

طبعوا منه مائتي نسخة، فظهرت بها أخطاء، فغضب المشايخ والعلماء، فقال لهم: سوف أرصد لكم قدرًا من المال لتصححوها كلمةً كلمة، فصححوها كلمةً كلمة، ولم تصدر من المطبعة الأميرية إلا وهي مصححة كلمةً كلمة.

***

=

1956 القرار بقانون رقم 312 لسنة 1956، بإنشاء الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، وإلحاقها بوزارة الصناعة، وقد عقد مجلس إدارتها أول جلساته، بتاريخ أول سبتمبر سنة 1956، برئاسة السيد الدكتور/ عزيز صدقي، وزير الصناعة آنذاك، ومنذ ذلك التاريخ قررت وزارة الصناعة إقامة مبنى جديد للهيئة فى منطقة إمبابة على مساحة قدرها 35000 متر مربع تقريبًا، كما زودتها بأحدث ماكينات الطباعة المتطورة حتى يتهيأ لها كل أسباب النهوض برسالتها.

مطلب
من مظاهر الخدمة لكتاب الله الإبداع في تقسيم القراءة

هذا وقد مرت خدمة القرآن الكريم بمراحل؛ فقد جاء الحجاج بن يوسف الثقفي[1]، وقال: أريد أن أقرأ القرآن في أسبوع، فجمع العلماء، وشرعوا في عد حروف القرآن الكريم، وبعد ذلك قسموها إلى سبعة أجزاء، كل جزء يمثل سُبعًا من القرآن الكريم؛ حتى يستطيعوا تحديد كل سُبع على حدة؛ ليقرأ القارئ كل يوم السُّبع الخاص به، فأصبح بذلك بين أيدي المسلمين عدد حروف المصحف الشريف[2].

وجاء أحد الأئمة وهو الإمام أبو بكر بن عياش[3]، وهو من القراء والمهتمين بكتاب الله، وقال ما لنا وللحجاج! فهو يستطيع أن يختم القرآن في سبعة أيام، لكن عموم المسلمين لا يستطيعون ذلك، فقسم القرآن إلى ثلاثين جزءًا، وهو الموجود حتى الآن، وكان ذلك في القرن الهجري الثاني، وتم التقسيم طبقًا للحروف؛ فنستطيع القول بأن كل جزء من الأجزاء الثلاثين مساوٍ للجزء الثاني في الحروف تقريبًا؛ لأن هناك بعض الأجزاء أزيد أو أنقص من أجزاء أخرى بقدر بسيط، وذلك بسبب الوقف، أو تكملة الآية، لكن الفكرة الأساسية أن

---

(1) الحجاج بن يوسف الثقفي، توفي سنة 95 هـ، كان رغم ظلمه وغشمه صاحب اعتناء كبير بالقرآن، ولي على العراق والمشرق عشرين سنة، وكانت له سيرة سوء إلا أنه مع ذلك كان ذا تعلق عظيم بالقرآن، يديم التلاوة والنظر فيه، قال الذهبي في«سير أعلام النبلاء» (4/ 343): «كان ظلومًا جبارا، ناصبيًا خبيثًا، سفاكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر ودهاء، وفصاحة وبلاغة، وتعظيم للقرآن».

(2) انظر جمال القراء وكمال الإقراء للحافظ السخاوي (2/ 115) حيث جاء فيه عن الحجاج قوله: " قال: فأخبروني بأسباعه على الحروف "

(3) هو أبو بكر بن عياش الأسدي، المقرئ الفقيه، شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، توفي سنة 193 هـ عن ست وتسعين سنة. انظر: تذكرة الحفاظ (1/ 265)، سير أعلام النبلاء (8/ 435)، شذرات الذهب (1/ 334).

كل جزء يساوي الجزء الثاني في عدد حروفه.

ثم جاء الناس على الفكرة نفسها، وقالوا: نريد عمل حصة صباحية وحصة مسائية من تلاوة القرآن الكريم، وكانت فكرة أذكار الصباح والمساء مسيطرة على الجو العام وكان حفاظ الحديث يؤلفون أعمال اليوم والليلة، وقد قام بذلك الإمام النسائي مثلًا وابن السني وغيرهما، فتم تقسيم الجزء إلى حزبين، وكلمة «حزب» معناها: الشيء الذي تقرأه صباحًا والذي تقرأه مساءً، طبقًا لعدد الحروف؛ لأنها المفتاح في مسألة التقسيم، وقد سبق عدها أيام الحجاج، وهذا أيضًا غالبًا؛ إذ قد يزيد أو ينقص.

ثم قالوا: كم عدد ركعات النهار التي نقرأ فيها بعد الفاتحة؟ قالوا الظهر والعصر فعددها أربعة، وفي المساء: المغرب والعشاء، قالوا: إذا نقسم الحزب أربعة أرباع؛ حتى نستطيع قراءة ربع في كل ركعة، طبقًا للحروف فعملوا الأرباع، فتجد المصحف مقسَّمًا إلى ثلاثين جزءًا، وكلُّ جزءٍ مقسمٌ إلى حزبين، وكل حزبٍ مقسَّمٌ إلى أربعة أرباع، وأصبح القرآن به ثلاثون جزءًا، وستون حزبًا، ومائتان وأربعون ربعًا، أما الفجر فيحتاج إلى قراءة طويلة قليلًا، فنقرأ فيه حزبا مثلًا ونعيده، فارتضوا هذه الطريقة، وساعدهم هذا في قضية أخرى، وهي قضية الحفظ؛ فأصبحوا يقدرون على حفظ الجزء في زمن معين.

ثم عملوا الربعة، والربعة هي مصحف مجزَّأ إلى ثلاثين جزءًا، وكل جزء مطبوع ومجلد بمفرده، فكان الرجل لا يتركه حتى يتمَّ حفظه ثم يعيده للربعة، والربعة عبارة عن صندوق نضع به المصحف المتعدد الأجزاء.

ومن (الدر كنار) أصبح هناك تقسيم آخر، يساعد في الحفظ أيضا والتلاوة، خاصة في التراويح، وهو الصفحة، فلو قرأت صفحة في الركعة فالصفحة مضروبة في عشرين ركعة يصبح جزءًا.

والهنود قالوا: لدينا فكرة أخرى، قالوا: إن القرآن ستة آلاف آية برواية حمزة، وبرواية حفص ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية، ويمكن أن نقسم هذه الآيات عشرةً عشرةً،

ونسمِّي كل عشرة بالـ (ركوع)، أي: اركع هنا، أي أن القرآن يُقَسَّمُ بالآيات، لا بالحروف ولا بالكلمات، قالوا: فكم عدد الركعات في اليوم؟ قلنا: سبع عشرة ركعة، وقالوا: كم عدد الركعات التي نقرأ فيها؟ قلنا: عشر ركعات، قالوا: كم ناتج عشرة في عشرة؟ قلنا: مائة، ثم قالوا كم عدد الركعات المسنونة؟ قلنا: سبع عشرة ركعة، نقرأ في عشرة، ثم قالوا: عشرة في عشرة بمائة، فيصبح الناتج مائتين، ثم مائتان في ثلاثين ينتج منها: ستة آلاف! فهذه آيات القرآن.

وهكذا سوف تختم القرآن في كل شهر مرة؛ ولذلك سوف تجد مطبوعًا حرف (ع) على الهامش، في المصحف المطبوع في الهند- أي: ركوع- وتكون بعد كل عشر آيات، فقد تفنن إذًا المسلمون في صور تقسيم القرآن الكريم؛ من أجل الذِّكْر والعبادة.

كتاب الله قسَّمه المسلمون إلى ثلاثين جزءًا، وكل جزءٍ إلى حزبين أي ستين حزبًا، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع فأصبح مائتين وأربعين ربعًا.

***

مطلب: إعجاز الحرف العربي وطريقة رسم النص القرآني وطباعته

وهنا وقفة مهمة، ومرحلة اشتملت على مجهود كبير في خدمة القرآن الكريم، مرحلة عايشت فصولها بنفسي، وأذكر هنا بعضَ ملامحها على سبيل الاستطراد، فأقول قد من الله عليَّ- وله الحمد والمنة- بأن اشتركت في تأسيس مؤسسة تسمى بـ (المَكْنَز الإسلامي)، والمكنز الإسلامي يهتم بأمور خادمة للقرآن والحديث، فمن جملة ذلك: الانطلاق من القمم التي وصل إليها الخط العربي، الذي كتب به المصحف الشريف، والانطلاق من القمم التي وصل إليها التجليد، تجليد الكتب المملوكية، والانطلاق من الزخرفة التي وصلت إلى غايتها وإلى منتهاها في العصر المملوكي، أو في الفن المغولي أو في الفن التركي.

الانطلاق من كل هذا لإعادة هذه الحضارة، وإعادة اليقظة لها؛ لأنها لم تمت، وإن كانت قد خَبَت ولم يعد لها الرِّيادة، إلا أن الإنسانية كلها- في اعتقادنا وفي مبادئنا- تحتاج إلى هذه الحضارة، وإلى أن تعود مرة ثانية، بما تشتمل عليه من رموز، وبما تشتمل عليه من جمال، وبما تشتمل عليه من رِقَّة في المشاعر والأحاسيس، وبما تشتمل عليه من فنون وعلوم وآداب؛ ولذلك قامت هذه المؤسسة بتطوير الحرف العربي، من أجل خدمة المصحف الشريف، فكيف ذلك؟

لقد قامت بالبحث في الحرف العربي في الطباعة، فوجدنا أن صندوق الحرف العربي الذي كانت تستعمله المطابع الأميرية في أول أمرها قبل تطويره، كان يشتمل على أكثر من ألف شكل للحرف، لكل حرف، بمعنى أن كل حرف من حروف المعجم عندهم ألف صورة في رسمه، أو ألف شكل في كتابته، وهذا العدد جاء من أن الحرف العربي يختلف شكلُهُ، فمثلًا الألف المفردة تختلف عن الألف التي هي متصلة بآخر الكلمة، أو هي في وسط الكلمة، والكاف في أول الكلمة بخلاف منتصف الكلمة، بخلاف آخر الكلمة وهي متصلة، وبخلافها في آخر الكلمة وهي منفصلة، فهناك حروف تتصل بما قبلها ولا تتصل بما بعدها،

مثل الواو والدال والذال والراء والزَّاي، وهناك حروف تتصلُ بها قبلها وبها بعدها، مثل السين والشين والعين والغين، وهناك حروف لا تتصل بها بعدها لكنها تتصل بها قبلها مثل الألف.إذًا، الحرف على أنواع، ومكانها في الكلمة يختلف في الرسم، وكذلك يتفنن الفنان المسلم قديمًا في رسم هذا الحرف، فيرسم الكاف بطريقة مختلفة؛ ولذلك عندنا خط يسمى بخط الرُّقْعَة، وخط يسمى بخط النسخ، وخط يسمى بالخط الديواني، والريحاني، والتاجي، إلى آخر أنواع الخطوط، وهي نحو أربعين نوعًا من أنواع الخطوط.

***

مطلب
مظاهر حفظ الكتاب من التحريف

القرآن الكريم ترجم إلى مائتين واثنتين وثلاثين لغة؛ فترجم إلى الإنجليزية مائتين وستًّا وسبعين مرة، فهل كل هذه التراجم صحيحة؟ لا، بل منها الباطل، ومنها المُغرض، ومنها الكاذب، وكتاب الله ثابت، هو المرجع وإليه المحاكمة، فإذا قرأ شخص على الشيخ، فاختلفا في آية، فإنهما يرجعان إلى كتاب الله؛ فكتاب الله ثابت، وهو حجة علينا ولسنا نحن الحجج عليه، فكتاب الله سبحانه وتعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذا الكتاب مائة وأربع عشرة سورة، وهذه السور من عند الله، وبأمر الله، وكان جبريل إذا نزل بالآية يدل النبي ﷺ أنها بين هذه وتلك، فيضعها النبي ﷺ في مكانها، فهذا القرآن المعجز الذي وصل إلينا بهذه الكيفية العجيبة الغريبة، التي لم يصل بها أي نصٍّ في العالم.

بل حتى حديث سيدنا رسول الله ﷺ، أنشأنا له عشرين عِلمًا لضبطه، ورغم ذلك جاء فيه ما يسمى: الرواية بالمعنى، أي: أن الصحابي أو الراوي يروي ما فهمه وفق ضوابط معينة. أما هذا الكتاب، فإنه لم يُروَ بالمعنى، بل روي بنصه وفصه، روي بلفظه وحركاته، روي كما هو، وكما أنزل، هذا الكتاب جاء من عند الله، وهو الذي حفظه، وليس البشر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وهو كذلك فعلًا، فبالفعل القرآن الكريم ليس له منافس، وحاول الناس عبر التاريخ من غير المسلمين أن يحرفوه، فما استطاعوا.

ومن الأمثلة الواضحة على حفظ الله لكتابه قوله تعالى ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: 156] قرأها شخص خطأً، قرأها: (عذابي أصيب به من أساء) بالسين فطريقة كتابة (أساء) مثل (أشاء)؛ لأن الرسم القديم غير منقوط ولذلك فهو يحتمل أن يكون أشاء وكذلك أساء، ومعناها جائز فالعذاب يلحق المسيء، ولكن مع جواز معناها، إلا أنه ليس هناك أي واحد من قراء العشر المتواترة قرأ بها، وهو ما يؤكد أن القراءة ليست عملا عفويا يقرأ كل أحد ما يشاء على أي وجه، وإنما القراءة سنة متبعة، لا يجوز لأحد أن يقرأ أي حرف

في القرآن على غير ما قرئ على سيدنا رسول الله ﷺ.

وحمزة الزيات وهو صغير، قال له والده- وكان يبيع الزيت: إنني أراك لا تقرأ القرآن فاقرأه، ففتح ابنه المصحف، وقرأ (ذلك الكتاب لا زيت فيه) بدلًا من ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، وهذا خطأ وليس بقراءة، فغضب أبوه، وقال له: (دع المصحف، وتلقن من أفواه الرجال)(1)، فذهب إلى المكتب يقرأ على الشيخ، وأصبح إمامًا في القراءات، وكتبنا هذا في الكتب، فيظهر شخص يبحث في الكتب، ويقول: إن هناك من يحرف في القرآن، ولكن نقول له: إن هذا يثبت ثبات القرآن وإعجازه، بالرغم من كل المحاولات لتحريفه، فليس له منافس، فهو بعينه في كراتشي، وفي طنجة، وفي القاهرة، وليس له نسخ متعددة مختلفة، وهذه الأخطاء عند بعض القراء بقيت؛ حتى تدلنا على إعجاز القرآن، وعلى أنه لا يزال محفوظًا من عند الله، بالرغم من كل تلك المحاولات، وقال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ الله، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي(2)».

فكتاب الله محفوظ بحفظ الله الأبدي يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9] هذه هي الآية التاسعة من سورة الحجر في القرآن الكريم وهي وعد من الله الذي أنزله بأن يحفظه ولم يكن في مقدور سيدنا محمد ﷺ ولا أحد من البشر من بعده أن ينفذ هذا الوعد؛ إنما كان حفظه بمحض قدرة الله والواقع الذي نعيشه يؤكد أن الوعد قد تم ويزداد الإعجاز عبر الزمان من كل جهة فإن القرآن لم يحفظ في الخزانات بعيدًا عن الناس بل حفظه الأطفال بالملايين في كل مكان وزاد من الإعجاز أن حفظه من لم يتعلم العربية ولم يعرف فيها كلمة واحدة.

(1) انظر: تصحيفات المحدثين للعسكري (1/ 145).

(2) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ (3786) من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما به مرفوعًا. قال الترمذي: «حديث حسن غريب من هذا الوجه».

وقد تعرض القرآن الكريم لمحاولات التحريف فلم تفلح، ولمحاولات الترجمة الخاطئة السيئة النية فلم تؤثر فيه، ولمحاولة الطباعة المحرفة فبقي كما هو، ولمحاولة تقليده ومحاكاته بسيئ الكلام وركيكه فلم يزحزح عن مكانته، بل إن كل ذلك أكد معجزته الباقية عبر الزمان وأعلى من شأنه في صدور الناس، وكان كل ذلك بالرغم مما اشتمل عليه من العدوان والطغيان سببًا في تمسك المؤمنين به، وبابًا جديدًا للدعوة إلى الله، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وبدلًا من إبادة المسلمين التي أرادها مشركو مكة، ومن بعدهم الفرسُ والروم ومِن بعدهم الفرنجةُ، ومن بعدهم الاستعمار والتعصب في الشرق والغرب، بدلًا من ذلك انتشر الإسلام، وأصبح عدد المسلمين أكبر أتباع دين، طبقًا لموسوعة جينز للأرقام القياسية، وهم يقدرون الآن بمليار وثلاثمائة مليون نسمة.

وهنا يحسن أن نذكر عددا من الحقائق المهمة عن القرآن الكريم ومن ذلك ما يلي:

1- نزل القرآن بلغة العرب وظل محتفظًا بلغته إلى يومنا هذا، وهذا الاحتفاظ جعله مرجعًا لكل من حاول أن يترجمه إلى لغة أخرى، ولقد ترجم منذ العصور الأولى، خاصة ما ورد منه في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأكاسرة والقياصرة حيث وردت بعض الآيات في هذه الرسائل فترجمت إلى لغات المرسل إليه أثناء تلاوتها عليهم، والآن تُرجم القرآن إلى أكثر من مائة وثلاثين لغة، بعضها ترجم مرة واحدة، وبعضها ترجم أكثر من مائتين وخمسين ترجمة، كما هو الحال في اللغة الإنجليزية مثلًا، وكثير منها ترجم مرات عديدة.

وفي كل الأحوال يبقى النص القرآني هو المرجع فالترجمة قد تكون سيئة النية وقد تكون من نص آخر غير العربية (كترجمة شوراكي إلى الفرنسية والترجمة إلى الأسبانية... إلخ) وقد تكون من شخص يجهل إحدى اللغتين أو اللغة المترجم إليها، وقد تكون ترجمة مذهبية أو طائفية أو شارحة لرأي المترجم، وفي كل الأحوال قد تكون مفككة وركيكة التركيب، وقد تكون بليغة راقية الأسلوب، ولكن يبقى الأصل العربي ليرفع النزاع ويمثل الإسلام تمثيلًا حقيقيًّا خاليًا من تحريف أو تخريف، وهذه مزية تفرد بها القرآن عن سائر الكتب المقدسة.

2- نقل القرآن بالأسانيد المتصلة المتكاثرة التي بلغت حد التواتر الإسنادي والجُملي، ولقد أورد ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر أكثر من ألف سند من عصره (القرن التاسع الهجري) إلى القراء العشرة وهم قد نقلوا القرآن ممثلين عن مدن بأكملها كلها يقرأ كما كانوا يقرءون، وهذا ما يسمى بالتواتر الجُملي؛ فلأن الناس جميعًا يقرءون القرآن في مدينة معينة بهذه الطريقة وبهذا الأداء، فكان هؤلاء القراء مجرد مندوبين عنهم وممثلين لقراءتهم وحافظين لطريقتهم في التلاوة وارتضاهم أهل كل مدينة لما رأوا فيهم مزيد الاهتمام وتمام العلم فشهدوا لهم جميعًا بذلك، فهناك ابن كثير (القارئ وليس المفسر) في مكة، وهناك نافع وأبو جعفر في المدينة المنورة، وهناك عاصم والكسائي وحمزة في الكوفة، ويعقوب وأبو عمرو بن العلاء في البصرة، وابن عامر في الشام، وخلف في بغداد وهؤلاء العشرة يروون قرآنًا واحدًا، وطريقة كل واحد في القراءة تفسر القرآن تفسيرًا يجعله واسعًا قادرًا على أن يكون مصدرًا للهداية إلي يوم الدين مع تغير الأحوال وتطور العصور.

والقرآن ما زال بين أيدينا قرآنًا واحدًا وامتلأت كتبُ التاريخ والأخبار بمن قرأه قراءة خاطئة، أو تعمد تحريفَه، وظل القرآنُ كما هو لا يتزحزح ولا يتغير ولا توجد فيه نسخ كثيرة ولا يحتار المسلم بين نسخة وأخرى، ولا يحتاج إلى أن يتخير منها عدة نسخ بل هو قرآن واحد من طنجة إلى جاكرتا، ومن غانا إلي فرغانة(1).

وكان جديرًا بعد كل هذا أن يتغير لكنه لم يكن كذلك، إنه محفوظ في الواقع المعيش ويحلو لبعض الناس أن يحشر هذه المخالفات من كتب التاريخ، وهي مذكورة لتبين للناس أجمعين وفي كل العالم أن هذا الكلام من الحجارة التي ألقيت على القرآن أثناء مسيرته لم تؤثر فيه، وأنه

(1) بالفتح ثم السكون، وغين معجمة، وبعد الألف نون: مدينة وكورة واسعة بها وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان (في جمهورية أوزبكستان حاليا) انظر [معجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (44/ 253) ط.دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م].

تعرض لكثير من الضجيج ولكثير من الهجمات فكان جبلًا شامخًا بحقٍ ليس من حول المسلمين وقوتهم فإنه لا حول ولا قوة إلا الله بل بحفظ الله له كما وعد سبحانه.

3- ثم رأينا تقريبًا كل مائتي عام من يقوم فيحاول محاكاة القرآن تكبرًا أو مدعيًا للنبوة أو الألوهية أو مفسدًا في الأرض أو غير ذلك، فرأينا مسيلمة يحاول أن يحاكي جرس القرآن في كلمات هي أقرب إلي المزحة منها إلى الهداية وكذلك سجاح وهي امرأة ادعت النبوة وأسقطت عن قومها شيئًا من الصلاة(1)، وجاءت محاولة أبي العلاء المعري(2) في كتابه الفصول والغايات، وإن صدقت الرواية فإنه يكون النزق(3) اللغوي الذي يغري صاحبه بمثل هذه المحاولة، ويُروى أن الناس قالت له: لم لا نجد عليه طلاوة كما نجدها في القرآن، قال: "اقرءوه أربعمائة سنة في المحاريب تجدوا له طلاوة"(4) وكأن طلاوة القرآن جاءت من إلف الناس لا من جرسه الذاتي الداخلي ونسي أبو العلاء -إن صح عنه هذا- أن القرآن كان عليه طلاوة وله حلاوة حينما أنزل وليس بعد أربعمائة عام حتى قال الوليد بن المغيرة وهو لم يؤمن ولم يسلم: "إن له لطلاوة وإن عليه لحلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر"، وكتاب (الفصول والغايات) مطبوع مرتين موجود بالأسواق يمكن لأي شخص أن يقرأه وسيعلم حينئذٍ ما معنى القرآن وما معنى كلام الله وما الفرق بين كلام الله وكلام

---

(1) انظر ترجمتها [الإعلام للزركلي (3/ 78)].

(2) أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخيّ المعري: شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرة النعمان. كان نحيف الجسم، أصيب بالجدريّ صغيرا فعمي في السنة الرابعة من عمره. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد سنة 398هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر، وهو من بيت علم كبير في بلده. ولما مات وقف على قبره 84 شاعرا يرثونه، انظر ترجمته [الأعلام للزركلي (1/ 157)].

(3) النزق: الخفة والطيش [مختار الصحاح صـ308].

(4) انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي صـ 150 ط.دار الأرقم بن أبي الأرقم.

البشر،وأن هذا القرآن ما كان في مقدور أحد أن يفتريه من دون الله. وعند ابن المقفع[1] الأديب المشهور مترجم كليلة ودمنة كتاب حاول فيه أيضًا ذلك وهو (الدرة اليتيمة) وهو مطبوع أيضًا وإن كان أصغر حجمًا بكثير من (الفصول والغايات) وهو إن صح ما قيل في شأنه فإنه دلالة أخرى على ذلك.

وهناك كتاب (البيان) وكتاب (الأقدس) عند البهائيين[2]، وهناك محاولة هزلية من بيرم التونسي نراها في مجموعته الكاملة التي نشرت بالهيئة المصرية العامة للكتاب (وقد أعلن بيرم التونسي التوبة وصدقت توبته من هذه المحاولة الهزلية التي سخر فيها من حزب الوفد ومن سعد زغلول بما يشبه جرس القرآن وكان: يقول: (لا أجعل في حل من يروي عني ما قلته) ثم ألف في هذه التوبة أغنية (نداني لبيته لحد باب بيته) التي غنتها أم كلثوم يتكلم فيها عن رجوعه وتوبته إلي الله بعد إسرافه علي نفسه.

---

(1) عبد الله بن المقفع: من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد في العراق مجوسيا (مزدكيا) وأسلم على يد عيسى ابن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، وترجم له " كتب أرسطوطاليس " الثلاثة، في المنطق، وكتاب " المدخل الى علم المنطق " المعروف بايساغوجي. وترجم عن الفارسية كتاب " كليلة ودمنة – ط " وهو أشهر كتبه. وأنشأ رسائل غاية في الإبداع، منها " الأدب الصغير – ط " ورسالة " الصحابة – ط " و" اليتيمة " واتهم بالزندقة [الأعلام للزركلي 4/ 140]

(2) البهائية أو البابية طائفة منسوبة إلى رجل يدعى – ميرزا على محمد – الملقب بالباب، وقد قام بالدعوة إلى عقيدته فى عام 1260 هجرية (1844 م) معلنا أنه يستهدف إصلاح ما فسد من أحوال المسلمين وتقويم ما اعوج من أمورهم، وقد جهر بدعوته بشيراز فى جنوب إيران، وتبعه بعض الناس، فأرسل فريقا منهم إلى جهات مختلفة من إيران للإعلام بظهوره وبث مزاعمه التى منها أنه رسول من الله، ووضع كتابا سماه (البيان) ادعى أن ما فيه شريعة منزلة من السماء، وزعم أن رسالته ناسخة لشريعة الإسلام، وابتدع لأتباعه أحكاما خالف بها أحكام الإسلام وقواعده؛ نقلا عن فتوى دار الإفتاء المصرية برقم 329 لسنة 1980 في عهد فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق.

4- وعلي شبكة المعلومات الدولية نرى أنيس شروش وهو مسيحي من فلسطين غادرها سنة1976 قد ألف شذرات أسماها (الفرقان الحق) وجعله في77 سورة واختار أسماء لها تشبه أسماء سور القرآن تبدأ بسورة الفاتحة وحملها العقائد اليهودية والمسيحية وطبع كتابه في دار نشر "أوميجا 2000 " بأمريكا ويباع كتابه هذا بعشرين دولارا أمريكيا. وهو دليل آخر على عظمة القرآن بصورة قاطعة فالفرق بين فرقان شروش الذي يعلن أنه من عند نفسه وبين القرآن الكريم كالفرق بين المخلوق والخالق. وإذا قرأت هذا المؤلف فمرة تضحك ومرة تحصل لك كآبة وعلى كل حال تجده مفككًا ويحزن المرء أن يضيع عمره في هذا الهراء، مقارنة بسيطة بين هذا الكلام وبين القرآن تعلي من مكانة القرآن في نفسك وتعرف أنه من عند الله فعلًا وتتم كلمة الله في حفظه على مر العصور فإن حفظة القرآن وتوفيق الله لهم في علوم القرآن وأسانيدها ليس من عملهم بل من إرادة الله.

5- إن العشرين سنة القادمة هي سنين القرآن والدراسات القرآنية فهو كتاب هداية لمن أراد أن يجعله كذلك وهو يتضام ويغلق أمام من أراد العبث به أو معه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: 44] وقال سبحانه ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: 82].

وعلى الرغم من أن هناك القراءات المتواترة المتفق عليها بين المسلمين- وهي قائمة لا إشكال فيها- فإن مصاحف الغرب كمصاحف الشرق، حتى أن معهدًا من المعاهد البحثية قام قبل الحرب العالمية الثانية في «برلين» بجمع أكثر من أربعين ألف نسخة من مخطوطات المصحف الشريف، وقدم تقريرًا محفوظا في المكتبة الوطنية في«برلين» إلى الآن، يقول: إنَّه بعد المقارنات التامَّة بين كل هذه النسخ، فإنهم لم يجدو أيَّ أخطاء، أو أيَّ نوع من التحريف، وأنَّ

هذا كتاب محفوظ بكل معنى الكلمة.

وقد أطلع على هذا التقرير محمد حميد الله[1] وكتب في مجلة «فكر وفن» مقالًا عن هذا التقرير، ثم أتت الحرب العالمية الثانية فذهب هذا المعهد في برلين، ذهب حتى بنسخ القرآن الكريم، الأربعين ألف نسخة التي جمعت من كل العصور ومن كل مكان، فلم يجدو فيها اختلافًا[2]. نعم هناك قراءات شاذة[3] موجودة في الكتب، لكن هل يمتلك أحدهم مصحفًا مخالفًا للمصحف المعتمد بقراءاته العشر؟! أبدًا، ولا وجود لهذا عبر التاريخ.

إذن فالقرآن محفوظ، وهذه حقيقة ثانية نتعامل مع القرآن بموجبها؛ ولذلك فإننا نهتم في التفسير بمستوى الحرف، من «الفاء» و«الواو».... وسائر حروف المعاني، ونحن – أساسًا– نهتم بكل شيء في القرآن؛ لأننا نعلم أنَّه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

أثر كون القرآن الكريم كلام الله المحفوظ في الفهم والتفسير:

عندما أمرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن نتبع ما أنزل إلينا من الآيات وضع كذلك من الضمانات العقلية ما تؤكد صحة نسبة هذا الكتاب إليه سبحانه فدعا الناس إلى

(1) ولد محمد حميد الله في عام (1326هـ= الموافق 1908م) بمدينة حيدر آباد بالهند ومن مآثره الكبيرة كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، وقد قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية، أسلم على يديه أكثر من ثلاثين ألف فرنسي، توفي الدكتور حميد الله في (13 شوال عام 1423هـ الموافق 17 ديسمبر 2002م) في مدينة «جاكسلفياتيا» بالولايات المتحدة، رحمه الله تعالى.

(2) انظر مقال الألمان في خدمة القرآن مجلة فكر وفن الصادرة عن معهد جوته، العدد رقم 2 بتاريخ 1 يونيو 1963 صـ 17.

(3) القراءة الشاذة: هي كل قراءة لم يتوفر فيها شرط واحد من شروط القراءة الصحيحة، التي هي صحة السند مع التواتر وموافقه وجه من وجوه العربية وموافقة الرسم العثماني [انظر علوم القرآن الكريم نور الدين عتر صـ153 ط.مكتبة الصباح الأولى1414 هـ "].

استخدام العقل وقواعد التفكير المرتب ووضع هذا النص تحت الاختبار فقال سبحانه:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38]. فلما ثبت العجز ثبتت النسبة للخالق العظيم سبحانه والذي أخبرنا في كتابه الكريم أنه متكفل بحفظ كتابه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

ثم لو نظرنا لما يتناوله البشر من الأسباب لوجدنا أن القرآن الكريم نقله الجمع الكثير من الناس عن الجمع الكثير، والذين لا يمكن تواطؤهم على الكذب، بما يتحقق معه أعلى درجة الصيانة والحفظ التي يمكن تصورها في إمكانيات البشر وقبل ذلك بالطبع حفظ الله عز وجل له.

فعندما يمسك المسلم بالمصحف الشريف ويبدأ القراءة فهو يدخل في حالة من الاتصال بالخالق العظيم سبحانه، يقرأ كلام الله المحفوظ الذي لا يتبدل ولا يتغير، فهو لم يتعرض لما تعرضت له الكتب السابقة التي أنزلت على الأمم قبلنا، فالمسلم ينطلق في تلقيه لمعاني كلام الله من أنه يتلقاه من نص إلهي معصوم، يُمده بمنهج معصوم صالح للفرد والجماعة، يصنع المثال الأسمى في جميع نواحي الحياة، فحين يقرأ المسلم أو يسمع كلام الله تعالى وهو يعالج أمرا من الأمور ويفهم المعنى الذي ترشد إليه الآيات سواء كان هذا المعنى إخبارًا أو أمرًا أو نهيًا أو ترغيبًا أو ترهيبًا، فهو يتعامل مع معاني الحق المطلق التي هي مراد الله منه، وهذا التعامل يَنتج من اليقين الجازم بأن ما بين يديه هو كلمة الله المحفوظة التي يجب أن يستجيب لما فيها ويعمل وفقًا لها.

فهذه الأمة كتابُها واحد، محفوظ غير مبدل، ولا محرف، أنزله الله عز وجل ليكون الرسالة الأخيرة لأهل الأرض، وتكفل سبحانه بحفظه، على عكس ما وجدنا في كتب السابقين من اختلاف في النسخ، وتغير في الفقرات والكلمات، بل واختلاف في أصول الاعتقاد فلا يدري العالم أو العامي منطلقه في أمور الدين أو الدنيا؛ فنشأ التناقض وظهر عدم صلاحية المنهج

للتطبيق العملي في حياة البشر، فنتج الخلل في جميع مجالات الحياة.

فالمسلم ينطلق في تلقيه لمعاني الكتاب الكريم من كونه كلام الله المحكم الحجة الموثق الذي لم يتغير ولم يتبدل فهو كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]

وهذا المبدأ ثابت عنده بالأدلة العقلية والقلبية فعلى ذلك فلا يتصور المسلم أبدًا وجود حقيقة ثابتة في هذا الوجود تتناقض مع كتاب الله فالوجود صدر عن الله خلقا،والقرآن صدر عن الله أمرا، فهما يقصان علينا عظمة الخالق وجلاله، وقصة الوجود وما فيه، ولكن بصور متنوعة متكاملة متآلفة غير متخالفة،ولا متناقضة؛ فينتج عن ذلك التسليم لمعاني ودلالات القرآن الكريم.

فنحن نتعامل مع نص إلهي مقدس قدسيته ذاتية فيه، وليست مكتسبة من خارجه، وذلك لأن كلام الله صفة الله، وليس من أقوال المخلوقات، ولا يخضع للمقاييس البشرية في التعامل معه، فليس هو من قول البشر، وهذا ولاشك له نتائجه على الكيفية التي نتعامل بها مع هذا النص، فمعاني القرآن الكريمة ودلالاته تستوعب حاجات الناس على اختلاف أزمانهم وأماكنهم، وهذا يشتمل على الإيمان بعموم الرسالة المحمدية للعالمين، وكونه ﷺ خاتم المرسلين من عند الله.

وهنا نقطة يفرضها علينا اليقين بحفظ النص وقدسيته، وهي أنه لا يمكن أن نقبل تفسيرَه، أو بيان دلالاته ومعانيه ممن لا يؤمن بهذا الحفظ، وهذه القدسية المطلقة؛ لأنه لا بد وأن يخطئ في البيان وذلك بسبب تطبيقه المعايير البشرية على نص إلهي، فالذي يضاف إلى الله وينسب إليه لا يعامل أبدًا كالذي ينسب للبشر.

ومن الأمور التي يوجبها علينا كون القرآن الكريم كلام الله المحفوظ هو التفاعل مع كتاب الله، والنظر إلى المقصد من وراء قراءته؛ وذلك للدخول في معاني وآثار قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]. فالمقاصد من قراءة القرآن الكريم كثيرة؛ منها:

التبرك بالاتصال بكلام الله عز وجل، وطلب الهداية والنور منه، واستنباط الهداية من خلال آياته، والوصول للحقائق التي تنازعت فيها العقول، فيتكون عقلُ المسلم وَفق منظومة القرآن وسلوكه، ويصبح لديه خريطةٌ كاملة من عناصر التفكير المنهجي، التي تجعله قادرًا على تفسير وتقويم كل ما يصل إليه من معرفته الكونية أو الوجودية، فكون القرآن كلام الله المحفوظ يترتب عليه أنه ضابط لإدراك المعرفة الإنسانية،ويوجهها أحسن التوجيه، ويوضح أفضل السبل في التعامل مع الواقع المحيط من حولنا على المستوى الفردي والجماعي، على مختلف الأصعدة المادية والمعنوية.

وعلى الجملة فبين أيدينا كتاب الله المسطور المحفوظ الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]، فإذا وزنت أي أمر بميزان القرآن الكريم وأخضعته للدراسة تحت ضوء معاني القرآن الكريم ودلالاته خرجت ولا شك بالتقويم الصحيح له والمنهج المنضبط.

ومن الأمور المترتبة على كون القرآن الكريم كلام الله المحفوظ أننا يجب علينا ويلزمنا استنباط «الأحكام الشرعية» منه، وهي التي تحكم التوجه والسلوك نحو الظاهرة محل الدراسة، فالباحث أيًّا ما كان يدرس، إذا ما كان هذا الشيء محل الدراسة مما يخلق لديه توجُّها ما، فهو مطالب بأن ينظر في مرجعيته (القرآن الكريم) لكي يضبط توجهه المعنوي والسلوكي منه، فمثلًا يدرس الحرب الأمريكية على فيتنام، فيقرها مبدئيًّا – ضمن بحثه- أو يعترض على مبدئها وكليتها، أو على بعض ممارستها، كل ذلك لابد أن يكون من منطلق «الأحكام الشرعية» التي تحرم الظُّلم والعُدوان بإطلاق، سواء من المسلم أو من غيره، وسواء على المسلم أو على غيره. وكذلك الدارس للشئون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفنية لابد أن يحتكم في قضايا الواجب والجائز والمنع إلى مرجعية القرآن، وأن يراجعه بتدبر، ويراجع علماءه ليعرف «حكم الله سبحانه وتعالى» في الكليات والجزئيات.

المبحث الثاني
اللغة العربية وفهم النص القرآني

تمهيد:

أنزل اللهُ سبحانه وتعالى القرآنَ الكريم رسالتَه الأخيرة لأهل الأرض بلسان عربي مبين، أدهش معه أهلَ اللسان العربي وأعجزهم أن يأتوا بمثل آية منه، وقد كان فيهم الفصحاءُ والبلغاءُ، فقد كانوا فرسانَ البلاغة، وأرباب البيان، وبلغ من قوة بلاغتهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر ارتجالا، ومع كل ذلك وقفوا عاجزين أمام بلاغة القرآن الكريم ونظمه.

ولا يمكن الحديثُ عن أصول التفسير وقانونه، ومداخل قراءة كتاب الله تعالى، ومحاولة الوصول إلى معانيه، وفهم دلالة آياته وكلماته، دون أن نوضح أن اللغة[1] العربية التي نزل بها هذا الكتاب الكريم من أهم أركان هذا القانون الضابط للتفسير، والموصل لإدراك معاني القرآن، وعلى ذلك فقد تكلم أهلُ العلم من السلف والخلف عن قواعد وضوابط التعامل اللغوي مع النص القرآني الشريف، بحيث لا تخرج المعاني المستنبطة عن اللسان العربي.

فالقرآن الكريم نص إلهي عربي، نزل على نبي عربي، في أمة عربية، يُسلك به في الاستنباط والاستدلال مسلكَ العرب في تقرير المعاني، واستنباطها للوصول إلى التفسير الصحيح لآيات الكتاب، والوقوف على المراد الإلهي منها، هذا بالإضافة إلى باقي أركان قانون التفسير الأخرى التي

(1) قال ابن جني: حدُّ اللغةِ: أصواتٌ يعبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم (الخصائص (1/ 34) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الرابعة).

وقال العلامة ابن خلدون رحمه الله: اعلم أنَّ اللغةَ في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بُدَّ أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. (مقدمة ابن خلدون صـ 753 ط. دار الفكر بيروت الطبعة الثانية 1408 هـ بتحقيق خليل شحاته).

تُكَوِّن مع اللغة العربية أصولَ الشريعة الإسلامية، وسوف يأتي الكلامُ عليها في هذه المباحث.

فعلاقة اللغة العربية بكتاب الله هي علاقة تلازم كلي وجزئي، مقدر بتقدير إلهي، ظهر من خلاله وجوهُ إعجاز هذا الكتاب الكريم.

ومعرفة لسان العرب من أهم الأدوات الكاشفة عن نقاب الحق، المطلوب من المسلمين إدراكُه في العقيدة والتشريع والأخلاق، وكل معنى تم ذكرُه في كتاب الله عز وجل.

وقواعد اللغة التي يُدرك بها المعنى هي مجموع علوم اللسان العربي التي يجب أن يتمكن منها المفسر من: النحو، وعلم الوضع، والتصريف،الاشتقاق، والمعاني، والبيان، ويقف خلف ذلك مرجعيةٌ فكريةٌ عند المفسر؛ من معرفة كيفية استعمال العرب للغة من خلال تتبع أساليبهم في الخطب والأشعار، وكلام بلغائهم واستخداماتهم اللغوية للدلالة على أمر أو شيء، بحيث يصير فهمُ المفسر عربيًا خالصًا، يصاحب ذلك ملكةٌ عقلية تجمع ذلك كله وتوجه التوجه الصحيح، فلا يحل لأحد الكلام في استخراج أحكام القرآن، ولا في استنباط معاني الآيات، إلا بعد العلم بكلام العرب.

وهذا الذي سار عليه سلفنا الصالح وتبعهم المحققون من أهل العلم على مر القرون.

دلالة آيات القرآن الكريم على أهمية اللغة العربية لفهم معاني التنزيل:

اللغة العربية هي المدخل للنظر في كتاب الله وفهم معانيه، فهذا القرآن عربي كما أخبر عنه رب العزة:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: 37].

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28].

﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 2-3].

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].

﴿حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 1-3].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الأحقاف: 12].

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 192-195].

هل يشترط العلم التام باللغة العربية لمطلق الفهم؟

و هنا يجب الإشارة إلى نقطة مهمة وهي إننا عندما نتكلم عن أهمية العلم باللغة العربية، عند التعرض لتفسير كتاب الله عز وجل، فلا ينفي ذلك أن المسلم العامي الذي بلغ من حاله أنه يجهل القراءة والكتابة، يستطيع فهم وإدراك معاني كلام الله على الإجمال وما ينرشد إليه وماذا يريد الله منه وذلك أمر ذكره القرآن الكريم وأيده الواقع العام والخاص فيقول رب العالمين سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

وكذلك عندما يستمع العامي غير المتخصص لآيات تتحدث عن عظمة الله سبحانه وتعالى ووحدانيته، فإن معانيها تلمس قلبه وروحه، وتنجذب نفسه نحو معاني تعظيم الله، ويشعر بأنه يدرك هذه العظمة، وهذا الجلال، وإن كان لا يستطيع أن يعبر عنه بلسانه، وهذا سر من أسرار كلام الله الذي يخلق الحالات المتنوعة في قلب الإنسان، فعندما يستمع الإنسانُ لحديث القرآن عن الجنة، تجد القلب والعقل في حالة من النشوة والسعادة والأمل في أن يُحصِّل هذه السعادةَ الأبدية، وأن يجعله الله من أهل النعيم، وكذلك عندما يستمع الإنسانُ إلى حديث القرآن عن النار والعذاب، فإنه يصل إلى قلبه من معاني الخوف والخشية، ما يدفعه إلى

التعوذ بالله تعالى منها، والرغبة في رحمة الله عز وجل في أن يعافيه من العذاب وفيما يتعلق بأوامر الله تعالى ونواهيه والحلال والحرام يجد المسلم في نفسه فهمًا عامًا لما تحتويه آيات الكتاب الكريم فترغب النفس في الخير، وتنصرف عن الشر بما يتحقق معه الهدى والهداية ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

بل قد يُساق للعامي فتوحاتٌ في معاني الآيات لم تخطر على قلب أحد من قبل، عطية من الله، فعطاء القرآن غير منقطع ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

العلم باللغة العربية يشترط لاستنباط المعاني والأحكام الشرعية:

فمقصودنا من الكلام عن أهمية الإحاطة باللغة العربية، عند التعرض لمعاني كلام الله، متوجه فيما يخص أهلَ التفسير والعلماء الذين يستنبطون المعاني والأحكام الشرعية من آياته، فهي ركن لمن أراد أن يقف على أسرار القرآن الكريم، وعجائبه ودرجات بلاغته،وهذا الوقوف درجات ودرجات يُفتح لكل عالم فيه نصيبُه، الذي قدر له من إدراك معاني كلام الله.

وقد تكلم أهلُ العلم عن اللسان العربي وأهمية معرفته والإحاطة به وبعلومه وامتلاك الحس اللغوي كمدخل لإدراك معاني الكتاب العزيز فمن ذلك:

1 - قال مجاهد بن جبر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو تلميذ حبر الأمة وترجمان القرآن: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر؛ أن يتكلم في كتاب الله، إذا لم يكن عالما بلغات العرب»(1).

2 - قال يحيى بن نضلة المديني رحمه الله سمعت مالك بن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «لا أوتى برجل يُفسر كتابَ الله غيرَ عالم بلغة العرب، إلا جعلته نكالا»(2).

---

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن (1/ 292) المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة: الأولى، 1376 هـ – 1957 م – الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

(2) المصدر السابق (1/ 292)، والنكال: العبرة [انظر مختار الصحاح صـ 319]

3- يقول الإمام الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ومن جِماع علم كتاب الله: العلمُ بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب»(1).

4 – وقد نبه الغزالي رحمه الله على هذا الأمر فقال: «فَعِلْمُ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ، أَعْنِي الْقَدْرَ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ خِطَابُ الْعَرَبِ وَعَادَتُهُمْ فِي الِاسْتِعْمَالِ إلَى حَدٍّ يُمَيِّزُ بَيْنَ صَرِيحِ الْكَلَامِ وَظَاهِرِهِ وَمُجْمَلِهِ وَحَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ وَعَامِّهِ وَخَاصِّهِ وَمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ وَمُطْلَقِهِ وَمُقَيَّدِهِ وَنَصِّهِ وَفَحْوَاهُ وَلَحْنِهِ وَمَفْهُومِهِ. وَالتَّخْفِيفُ فِيهِ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَبْلُغَ دَرَجَةَ الْخَلِيلِ وَالْمُبَرِّدِ وَأَنْ يَعْرِفَ جَمِيعَ اللُّغَةِ وَيَتَعَمَّقَ فِي النَّحْوِ، بَلْ الْقَدْرَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيَسْتَوْلِي بِهِ عَلَى مَوَاقِعِ الْخِطَابِ وَدَرْكِ حَقَائِقِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُ»(2).

5 – ويقول الـفخر الرازي رحمه الله: «فإن اللغة والنحو يجريان مجرى الأصل للاستدلال بالنصوص»(3).

6 – يقول الشاطبي رحمه الله: «فَمَنْ أَرَادَ تَفَهُّمَهُ، فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ يُفْهَمُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَطَلُّبِ فَهْمِهِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْجِهَةِ»(4).

---

(1) انظر: الرسالة للشافعي (ص 16) الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي – المحقق: رفعت فوزي عبد المطلب – الناشر: دار الوفاء المنصورة – مصر – الطبعة: الأولى سنـ1422ـة هـ.

(2) انظر: المستصفى في علم الأصول (2/ 386) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي – المحقق: محمد بن سليمان الأشقر– الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان – الطبعة: الأولى، 1417هـ/ 1997م.

(3) انظر: المحصول في علم الأصول (1/ 289) المؤلف: محمد بن عمر بن الحسين الرازي – الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض – الطبعة الأولى، 1400– تحقيق: طه جابر فياض العلواني.

(4) انظر: الموافقات (2/ 102) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي– المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان – الناشر: دار ابن عفان – الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

7 – وقال الإمام الأزهري رحمه الله في تهذيب اللغة: " نزل القرآنُ الكريم والمخاطبون به قوم عرب، أولو بيان فاضل، وفهم بارع، أنزله جل ذكره بلسانهم، وصيغة كلامهم، الذي نشؤوا عليه، وجُبلوا على النطق به، فتدربوا به، يعرفون وجوهَ خطابه، ويفهمون فنونَ نظامه، ولا يحتاجون إلى تعلم مُشكله وغريب ألفاظه، حاجةَ المُوَلَّدين الناشئين فيمن لا يعلم لسانَ العرب حتى يعلمه، ولا يفهم ضروبَه وأمثاله، وطرقه وأساليبه، حتى يفهمها، وبين النبي ﷺ للمخاطَبين من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما عسى الحاجة إليه، من معرفة بيانٍ لمجمل الكتاب وغامضه، ومتشابهه، وجميع وجوهه التي لا غنى بهم وبالأمة عنه، فاستغنوا بذلك عما نحن إليه محتاجون، من معرفة لغات العرب واختلافها والتبحر فيها، والاجتهاد في تعلم العربية الصحيحة التي بها نزل الكتاب، وورد البيان، فعلينا أن نجتهد في تعلم ما يتوصل بتعلمه إلى معرفة ضروب خطاب الكتاب، ثم السنن المبينة لجمل التنزيل، الموضحة للتأويل؛ لتنتفي عنا الشبهةُ الداخلة على كثير من رؤساء أهل الزيغ والإلحاد، ثم على رءوس ذوي الأهواء والبدع، الذين تأولوا بآرائهم المدخولة فأخطئوا، وتكلموا في كتاب الله جل وعز بلكنتهم العجمية دون معرفة ثاقبة، فضلوا وأضلوا»(1)

ومن هنا برز وجه عناية المفسرين باللسان العربي وقواعده ولزوم التبحر فيه لمعرفة المعاني التي لا يتسنى لغير العالم بلسان العرب وحقائقه ودقائقه معرفتها.

[العلوم التي يحتاجها المفسر]:

جاء في الإتقان للسيوطي عن العلوم التي يحتاج إليها المفسر قال: «وهي خمسة عشر علما: أحدها: اللغة لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال: مجاهد لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب، وتقدم قول الإمام مالك في ذلك، ولا يكفي في حقه معرفة اليسير منها فقد يكون اللفظ

(1) انظر: تهذيب اللغة (1/ 4) المؤلف: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري–تحقيق: عبد السلام محمد هارون –راجعه: محمد علي النجار –الناشر: دار القومية العربية للطباعة – (1384هـ – 1964م).

مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر.

الثاني: النحو لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من اعتباره[1]. أخرج أبو عبيد عن الحسن، أنه سُئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته.، فقال: حسنٌ، فتعلمها؛ فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها.

الثالث: التصريف[2] لأن به تعرف الأبنية والصيغ، قال ابن فارس ومن فاته علمه فاته المعظم.

وقال الزمخشري: من بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: 71]، جمع «أُم»، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلط أوجبه جهل بالتصريف فإن «أما» لا تجمع على«إمام».

(1) وقد اهتم أهل العلم ببيان إعراب القرآن الكريم وإيضاح أهمية ذلك في مجال التفسير وبيان المعاني فهذا الإمام الفراء يضع كتاب أسماه «معاني القرآن»يعتني فيه عناية خاصة بمسائل النحو والإعراب، وكذلك فعل الإمام العكبري في كتاب «إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن». فيقول في مقدمته (1/ 3): «وأقوم طريق يسلك في الوقوف على معناه، ويتوصل به إلى تبيين أغراضه ومغزاه، معرفة إعرابه واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه، والنظر في وجوه القرآن المنقولة عن الأئمة الأثبات». وكذل ينبه الإمام مكي بن أبي طالب القيسي في كتاب«مشكل إعراب القرآن» على أهمية الإعراب في معرفة المعنى وتفسير القرآن فيقول (1/ 63): «رَأَيْت من أعظم مَا يجب على الطَّالِب لعلوم الْقُرْآن الرَّاغِب فِي تجويد أَلْفَاظه وَفهم مَعَانِيه وَمَعْرِفَة قراءاته ولغاته وَأفضل مَا القارىء إِلَيْهِ مُحْتَاج معرفَة إعرابه وَالْوُقُوف على تصرف حركاته وسواكنه يكون بذلك سالما من اللّحن فِيهِ مستعينا على أَحْكَام اللَّفْظ بِهِ مطلعا على الْمَعَانِي الَّتِي قد تخْتَلف باخْتلَاف الحركات متفهما لما أَرَادَ الله بِهِ من عباده إِذْ بِمَعْرِفَة حقائق الْإِعْرَاب تعرف أَكثر الْمَعَانِي وينجلي الْإِشْكَال فتظهر الْفَوَائِد وَيفهم الْخطاب وَتَصِح معرفَة حَقِيقَة الْمُرَاد».

(2) علم التصريف: هو علم الصرف الذي يهتم ببنية الكلمة وصياغتها.

الرابع: الاشتقاق لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح!

الخامس والسادس والسابع: المعاني والبيان والبديع[1]، لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى، وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة وهي من أعظم أركان المفسر لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز وإنما يدرك بهذه العلوم، وقال الزمخشري: من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليما من القادح[2]، وقال غيره: معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله تعالى وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة»[3].

فعلمي المعاني والبيان لهما مزيد اختصاص بعلم التفسير، فهما من أركان قانون التفسير بما يمثلانه من وسائل إظهار الخصائص الإعجازية البلاغية والجمالية لكتاب الله، وقد تكلم عنهما أهل العلم للتأكيد على أهميتهما.

---

(1) وهذه الثلاثة هي علوم البلاغة.

(2) مقصد الزمخشري هنا ما يجب على المفسر من حق تجاه كتاب الله، ويعني هنا أن يكون المفسر مراعيا أثناء تفسيره لبلاغة القرآن، ولا يفسر الآيات على نحو يخالف مقتضى هذه البلاغة.

(3) انظر: الإتقان (4/ 215-213).

يقول الإمام السكاكي رحمه الله في مفتاح العلوم:

«وفيما ذكرنا ما ينبه على الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر على هذين العلمين (المعاني والبيان) كل الافتقار فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل[1].»[2].

لماذا نزل القرآن الكريم باللغة العربية؟

نزل القرآن الكريم من أجل ما تتمتع به اللغة العربية من الخصائص، وهذا قد توصل إليه علماء اللغات في العالم كله بالاستقراء، فوجدوا أن هناك لغاتٍ بدائيةً، ولغات متوسطة، ولغات ناضجة؛ وصلت من النضج إلى مرحلة عالية، وقام علماء اللغات بوضع علامات تميز هذه المستويات.

فعلى سبيل المثال عندما ينظرون إلى لغة من اللغات لكي يصنفونها يختبرون ذلك عن طريق النظر هل هذه اللغة بها إضافة؟ أم ليس بها إضافات، فاللغة الناضجة القوية تحتوي على خاصية الإضافة، وكذلك الحقيقة والمجاز.

وقد تكلم أهل العلم عن هذه الخصائص، فيقول السيوطي رحمه الله: «قال ابنُ فارس في فقه اللغة: «لغةُ العرب أفضل اللغات وأوسعها»قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 192-195]. فوصفه -سبحانه- بأبلغ ما يُوصَف به الكلامُ وهو البيان.وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[الرحمن: 4] فقدَّم – سبحانه – ذِكْرَ البيان على جميع ما توحَّد بخلقه وتفرد بإنشائه من

(1) يقصد أنه ليس متمكنا من هذه العلوم، فالراجل ما قابل الفارس!

(2) انظر: مفتاح العلوم (1/ 162) يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب – ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور –الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان –الطبعة: الثانية، 1407 هـ – 1987 م.

شمسٍ وقمر ونجْم وشجر وغير ذلك من الخلائق المُحْكَمَة والنشايا المتقنة فلما خصَّ – سبحانه – اللسانَ العربي بالبيان عُلم أن سائرَ اللغات قاصرةٌ عنه وواقعة دونه.

فإن قال قائلٌ: فقد يقع البيانُ بغير اللسان العربي؛ لأن كلَّ من أفهمَ بكلامه على شرط لُغته فقد بيَّن، قيل له: إن كنتَ تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يُعْرِب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان؛ لأن الأبْكم قد يدلُّ بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلمًا فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا.

وإن أردت أنَّ سائرَ اللغات تُبِين إبانَةَ اللغة العربية. فهذا غلط لأنا لو احتجنا إلى أن نُعَبِّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفاتٍ كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء والمسميات بالأسماء المترادفة.فأين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العربية؟هذا ما لا خفاء به على ذي نُهْية(1).

وقد قال بعض علمائنا – حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقَلْب والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب في القرآن فقال: وكذلك لا يقدرُ أحدٌ من التَّراجم على أن ينقلَه إلى شيء من الألْسِنة كما نُقِل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية وترجمت التوارة والزَّبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية لأنَّ غيرَ العرب لم تتسع في المجاز اتساع العربية ألا ترى أنك لو أردتَ أن تنقلَ قوله تعالى: ﴿وإما تَخَافَنَّ من قومٍ خيانة فانبِذْ إليهم على سواءٍ﴾[الأنفال: 58]، لم تستطع أن تأتي لهذه بألفاظ مؤدِّية عن المعنى الذي أودِعَتْه حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستورها فتقول: إن كان بينك وبين قوم هُدْنة وعَهْد فخِفْت منهم خيانة ونقضا فأعْلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم وآذنهم بالحرب لتكون أنتَ وهم في العلم بالنَّقْض على الاستواء، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا على آذانهم في

(1) النهية: العقل.

الكَهْف﴾ [الكهف: 11] قد تأتي الشعراء بالكلام الذي لو أراد مريد نَقْلَه لاعْتاصَ[1] وما أمكن إلا بمبسوط من القول وكثير من اللفظ ولو أراد أن يعبر عن قول امرئ القيس: فدع عنك نَهْباً صِيحَ في حَجَراته[2] بالعربية فَضْلاً عن غيرِها لطالَ عليه»[3].

من خصائص اللغة العربية:

فاللغة العربية بها: الحقيقة والمجاز، وبها االترادف، وبها الاشتراك والتضاد، والاشتقاق.

أولا الحقيقة والمجاز:

الحقيقة لغة: الشيء الثابت يقينا، وحقيقة الشيء: خالصه وكنهه وعناصره الذاتية. وحقيقة الأمر: ما كان من شأنه يقينا. وحقيقة الرجل: ما يلزمه حفظه والدفاع عنه، يقال: فلان يحمي الحقيقة.

الحقيقة اصطلاحا: اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح به التخاطب.

والمراد من الوضع تعيين اللفظ في أصل الاصطلاح للدلالة بنفسه على معنى ما، دون الحاجة إلى قرينة.

المجاز لغة: مصدر فعل "جاز" يقال لغة: جاز المسافر ونحوه الطريق، وجاز به جوزا وجوازا ومجازا، إذا سار فيه حتى قطعه.

ويطلق لفظ "المجاز" على المكان الذي اجتازه من سار فيه حتى قطعه.

---

(1) اعتاص: صعب

(2) صدر بيت لامرئ القيس من قصيدة يذم بها خالد بن سدوس.

(3) انظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها (1/ 255-253) المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي المحقق: فؤاد علي منصور - الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.

المجاز اصطلاحا: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح به التخاطب[1].

فإذا أردنا التطبيق فإنه عندما أقول: رأيت أسدًا، فالذهن ينصرف إلى حيوان الأسد المعروف، وهذه هي الحقيقة، أما عندما أقول رأيت أسدًا يقاتل الأعداء، فهذه العبارة حولت المعنى من الحيوان المعروف إلى معنى أخر، يراد به بيان الشجاعة والقوة، وهذا هو المجاز. فالحقيقة هي استعمال اللفظ للتعبير عما وضع له، والمجاز استعمال اللفظ في غير ما وضع له في اللغة إرادة لمعنى آخر..

- ثانيا الترادف:

الترادف لغة: الترادف مأخوذ من الرديف وهو ركوب اثنين على دابة واحدة ".

واصطلاحا: توالي الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد كالإنسان والبشر[2]

فاللغة العربية تتميز بوجود المترادفات، وهي وجود شيء واحد تتعدد أسماؤه وتتنوع، فعلى سبيل المثال الخمر في اللغة العربية لها من الأسماء تسعين اسمًا، وكذا العسل له من الأسماء ثمانين اسمًا، والسيف له ما يقرب من الأربعين اسمًا، والبحر في اللغة له ما يقرب من ثلاثين اسمًا، وكذلك الأسد له من الأسماء الكثير والكثير.،وقد بين هذه المسألة الإمام اللغوي الكبير الفيروزآبادي أحسن البيان من خلال تصنيفه لمعجمه الدقيق الفائق«**الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف**».

(1) انظر البلاغة العربية: للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني 2/ 217 وما بعدها باختصار، ط.دار القلم الطبعة الأولى 1996 م

(2) انظر نهاية السول شرح منهاج الأصول للشيخ عبد الرحيم الإسنوي (1/ 103) ط.دار الكتب العلمية 1999 م.

ثالثا الاشتراك والتضاد:

وفيما يتعلق بالمشترك في اللغة العربية:

فإننا نجد أنها تتميز بوجود كلمة لها الكثير من المعاني والدلالات المختلفة.

وهو ما يطلق عليه اللفظ المشترك ويقصد به: اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين، أو أكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة(1).

ومثال ذلك كلمة "عين" في اللغة العربية، لها الكثير من المعاني المختلفة؛ فالعين معناها: الذهب، وتدل على الباصرة أو الجارحة (عضو من أعضاء الإنسان) وتدل على الجاسوس، وتدل على البئر، وتدل على ذات الشيء«عينه».

ويتولد عن هذا المشترك في اللغة العربية خاصية أخرى هي الأضداد وهي وجود لفظة واحدة تعني الشيء وعكسه، فعلى سبيل المثال كلمة «سَلِيمْ» ما معناها؟ سليم تعني في اللغة صحيح أو مريض.المعنى وضده في كلمة واحدة.

ولماذا سمى العرب المريض سليمًا؟ فالجواب أنهم سموه بذلك استبشارًا بنجاته وأنه لا بأس به، وكذلك كلمة «المفازة» تعني الفوز وفي نفس الوقت تستعمل للتعبير عن الصحراء القاحلة الموحشة المهلكة، وسماها العرب مفازة استبشارًا بالنجاة منها، وكذلك كلمة «جَوْنٌ» تعني اللون الأسود الشديد وتعني الأبيض الشاهق وسياق الجملة يحدد المعنى.

رابعا القيود:

كذلك من خصائص اللغة التي نهتم بها: قضية «القيود» وأثرها في اتساع الدَّلَالة أو ضيقها، كما يقول ابْنُ جِنِّي. انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: من الآية 9] فلما أن قَلَّتْ القيود كَثُرَ الموجود، فنحن نتفكر في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون ماذا؟يعلمون الشريعة، أم يعلمون الحق، أم يعلمون في الكون، أم

(1) انظر البحر المحيط للإمام الزركشي 2/ 377

في أي علمٍ؟ سكت عن ذلك ولم يقيده، فلم يقل أيَّ علم هو؟ إذن هو مطلق وعلى ذلك فكل العلوم تدخل في ذلك.خصائص كثيرة ينبغي علينا أن نلتفت إليها؛ من أجل فهم الكتاب والسنة، ومن أجل أن نعيش في إعجازهما وفي أحكامهما، ومن أجل المعرفة الدقيقة لتطبيقها في حياتنا الدنيا.

خامسا الاشتقاق:

من أكثر ما تتميز به العربية بين اللغات الأخرى هو ما يسمى: «الاشتقاق الصغير».

فما هو الاشتقاق الصغير هذا؟ هو التعامل مع جذر الكلمة المكون من ثلاثة أحرف مثلًا، وأتعامل معها باستخراج مشتقات أخرى كثيرة، فعلى سبيل المثل الفعل «ضرب» اُشتق الفاعل منها: ضَارب.«فاعل».

اشتق المفعول: مَضروب. «مفعول».

اشتق صيغة المبالغة: ضَرَّاب.

فهذه الاشتقاقات تحتوى على نماذج كثيرة من الاستعمالات اللغوية: فهناك اسم المكان، واسم الزمان، وصيغة المبالغة، وهناك الصفة المشبهة، وهناك اسم الفاعل، واسم المفعول، وهناك المصدر...إلخ، فهناك شجرة تتفرع من جذر واحد، فهذا الاشتقاق بهذه الطريقة ليس في كل اللغات وهو شبه مطرد في ألفاظ اللغة وكلماتها. وهذا الاشتقاق الأصغر له قواعد صرفية ونحوية تضبطه.

والسؤال التالي الذي يوجه لنا من علماء اللغات لمعرفة خصائص اللغة العربية وقوتها ونضجها. هو هل هذه اللغة يوجد بها قواعد لغوية تضبط تكوين الجمل والكلمات أو ما يطلق عليه«علم النحو»؟ فأجبناهم: نعم يوجد.

فقالوا: إلى أي حد تتدخل هذه القواعد في اللغة العربية؟ هل في تركيب الجملة أم في تركيب الجملة والكلمة أيضا.

فأجبناهم: بل تتدخل القواعد في تركيب الجملة وتتدخل في تركيب الكلمة أيضا. وهذا

يدل على عمق اللغة العربية وقدرتها على أن تكون أداة للفكر وبنائه والتعبير الشامل المفصل عن المشاعر الإنسانية والتعمق فيها وقدرتها على بناء عقيدة عند الإنسان تؤثر في سلوكه.

مطلب
معاني «الوضع، والاستعمال، والحمل»

هناك ثلاثة مصطلحات مهمة تنبني على أساسها قضية التلقي والفهم للُّغة وهي:

الوضع والاستعمال والحمل؛ ولذلك تحتاج هذه المصطلحات لبيان وإيضاح وذلك على النحو التالي:

الأول: الوضع:

فالوضع لغة: هو جعل الشيء بإزاء شي أخر، ومعناه في الاصطلاح هنا وضع لفظ يعبر عن معنى ويكون دليلا عليه، فعلى سبيل المثال: تم وضع لفظ الماء على السائل المعروف لدينا فتعارف الناس على أن اسمه ماء، وتم وضع اسم السماء للدلالة على البناء الكوني الذي يعلو الأرض، من الذي وضع هذه الألفاظ أمام هذه المعاني؟ الجواب هو اللغة،ويترتب على هذا سؤال مهم وهو ومن الذي وضع اللغة؟

المذاهب في واضع اللغة:

الراجح أن اللغة من وضع الله سبحانه وتعالى، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] فعلمه سبحانه وتعالى أسماء جميع الأشياء والمخلوقات فهذا قلم، وهذه عصا، وهذا كوب، وهذه سماء، وهذه أرض، وهذا قمر، وهذه شمس.....إلخ فالله سبحانه وتعالى هو الذي وضع الألفاظ بإزاء المعاني، هذا هو الراجح في هذه المسألة، وقد قيل فيها أربعة أقوال أخرى، مع الوضع في الاعتبار الفرق بين أصول اللغة وألفاظها الكلية وما يتولد عنها من الفروع هل قام الإنسان بوضع ألفاظ بإزاء معاني أم لا؟ فإذا كان الله سبحانه وتعالى وضع الأصول فقد ترك لنا القواعد التي ننشأ وننبت ونزرع بها ونتتج الفروع، وهذا رأي من الآراء التي تقول بأن البشر قد وضعوا ألفاظًا بإزاء معاني.

فبالنظر نجد أننا في مسألة الوضع أربعة أقوال:

الأول: أن اللغة (الألفاظ) من وضع الله تعالى وليس للبشر عملًا فيها.

الثاني: أن أصول اللغة والألفاظ وقواعدها من وضع الله سبحانه وتعالى وترك للبشر إعمال القواعد.

الثالث: أن اللغة من وضع البشر.

الرابع: التوقف في القطع برأي في ذلك.

والرأي الذي نختاره هو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضع جميع اللغة، فالله سبحانه وتعالى هو من جعل الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والمضاف إليه مجرور، وهكذا، وهو سبحانه هو من وضع الألفاظ أمام المعاني[1].

يقول الإمام البغوي رحمه الله في تفسيرقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: علّمه اسم كل شيء حتى القَصعة والقُصيعة، وقيل: اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس: أسماء الملائكة، وقيل: أسماء ذريته، وقيل: صنعة كل شيء، قال أهل التأويل: إن الله عز وجل علم آدم جميع اللغات ثم تكلم كل واحد من أولاده بلغة فتفرقوا في البلاد واختص كل فرقة منهم بلغة»[2].

---

(1) قال الشيخ زكريا الأنصاري: (مسألة المختار) ما عليه الجمهور. (أن اللغات توقيفية) أي وضعها الله تعالى فعبروا عن وضعه لها بالتوقيف لإدراكه به. (علمها الله) عباده (بالوحي) إلى بعض أنبيائه وهو الظاهر لأنه المعتاد في تعليم الله. (أو بخلق أصوات) في أجسام بأن تدلّ من يسمعها من العباد عليها (أو) خلق (علم ضروري) في بعض العباد بها واحتج للقول بالتوقيف بقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أي الألفاظ الشاملة للأسماء والأفعال والحروف" غاية الوصول صـ 32 ط.مصطفى البابي الحلبي.

(2) انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي (1/ 102) محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي – المحقق: عبد الرزاق المهدي – الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت – الطبعة: الأولى، 1420 هـ.

وإن كان لا بد أن نعتبر قول تدخل البشر في وضع اللغة، وأن نلحظ عملًا لهم في ذلك، فإنه يكون في الفروع وليس في الأصول.

الثاني: الاستعمال: استعمال اللفظ بإزاء المعنى من صفة المتكلم، فأنا أدرك ما في ذهني وأختار كلمة تعبر عنه وأستعملها في ذلك، فعلى سبيل المثال: استخدام كلمة الأسد في كلامي هل أقصد بها الحيوان المعروف؟ أم أقصد بها الفارس النبيل الشجاع؟ فأنا أعرف المعنى الذي أريده وأستعمل اللفظ الذي يعبر عنه.

الثالث الحَمْلُ: من صفة السامع. فأنت تسمعني فتحمل الكلام على معنى معين. فقد تصيب المعنى الذي أردته أنا وقد تخطئ، وقد تفهم وتحيط بما أردت إيصاله لك من المعني وقد ينغلق عنك الفهم فلا يصلك المعنى.

قال الإمام الإسنوي رحمه الله: «فالوضع: هُوَ جعل اللَّفْظ دَلِيلًا على الْمَعْنى، والاستعمال هُوَ إِطْلَاق اللَّفْظ وإرادة الْمَعْنى وَهُوَ من صِفَات الْمُتَكَلّم، وَالْحمل اعْتِقَاد السَّامع مُرَاد الْمُتَكَلّم أَو مَا اشْتَمَل عَلَيْهِ مُرَاده وَذَلِكَ من صِفَات السَّامع[1].

أثر هذا في أصول التفسير:

مسألة الوضع والاستعمال والحمل لها أكبر الأثر في فهم القرآن الكريم، وإدراك معانيها وفهم قانون التفسير ندرك هذا عندما نجيب عن هذا السؤال.

هل هناك لغة مقدسة؟ وما معنى قداستها؟ وإلى أي مدى نتمسك بتلك القداسة؟

اللغة المقدسة عند علماء اللغويات توصف بها اللغات التي بها نص مقدس له أتباع

(1) التمهيد في تخريج الفروع على الأصول (ص173) عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين – المحقق: د. محمد حسن هيتو– مؤسسة الرسالة – بيروت– الطبعة: الأولى، 1400هـ، وانظر أيضا الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (934– 935) أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي – تحقيق عدنان درويش – محمد المصري– مؤسسة الرسالة – بيروت حيث يشير أبو البقاء إلى أنواع الوضع وكيفية ثبوت الوضع

يأخذونه كمصدر لمعرفتهم، وأحكام حياتهم، أو إطار لسلوكهم، وبهذا التعريف فإن اللغة العبرية التي كُتب بها (التوراة)، واللغة السنسكريتية التي بها كُتب (الفيدا)، واللغة العربية التي بها نزل وكتب (القرآن الكريم) هي لغات مقدسة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 195]، وقال سبحانه: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: 28].

فلا يقبل الناطقون بهذه اللغات، والذين آمنوا بمرجعية هذه النصوص أن يتركوها لا للتطور، ولا للتدهور، ولا يغيرون فيها دلالات الألفاظ، ولا وسائل الفهم من نحو وصرف؛ حيث إن استنباط الأحكام من النص يقتضي ذلك، وهذا مبني على أن اللغة لها وظيفتان: الوظيفة الأولى: هي الأداء، وفيه يعبر المتكلم عما في ذهنه من معان بألفاظ لها دلالة متفق عليها بين أهل اللغة الواحدة(1)، حيث وضعت هذه الألفاظ مقابل هذه المعاني،

---

(1) ينقل لنا الإمام السيوطي بعض كلام أهل العلم في هذه المسألة فيقول في الطريق إلى معرفة اللغة: قال الإمام فخر الدين الرَّازي في المحصول وأتباعه: الطريقُ إلى معرفة اللغة إما النقلُ المحْضُ كأكثرِ اللغة أو استنباطُ العقل من النَّقْل كما إذا نُقِلَ إلينا أنَّ الجمع المعرَّف يدخله الاستثناء ونقل إلينا أن الاستثناءَ إخراجُ ما يتناوله اللفظ فحينئذ يستدلُّ بهذين النَّقْلين على أن صِيَغ الجمع للعموم.

وأما العقل الصِّرف فلا مجالَ له في ذلك. قال: والنقلُ المحضُ إما تواترٌ أو آحاد. قلت: وسيأتي بَسْطُ الكلام فيهما في النوع الثالث. ولم يذكر ابنُ الحاجب في مختصره ولا الآمدي في الأحكام سوى الطريق الأول وهو النقل المَحْضُ: إما تواترًا وهو ما لا يَقْبَل التشكيك كالسماء والأرض والحرِّ والبَرْدِ ونحوها وإما آحادًا كالقُرْءِ ونحوه من الألفاظ العربية. قال الإمام فخر الدين والآمدي: وأكثرُ ألفاظ القرآن من الأول أي المتواتر. وقال ابنُ فارس في فقه اللغة: باب القول في مأْخذ اللغة: تُؤخَذ اللّغُة اعتيادا كالصبيِّ العربيِّ يسمعُ أبويه أو غيرهما فهو يأخذ اللغةَ عنهم على ممر الأوقات وتؤخذ تلقنا من مُلَقِّن وتؤخذُ سماعا من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة ويُتَّقَى المظنون. وستأتي بقيةُ كلامه في نوع من تقبل روايته ومن ترد وكذا كلامُ ابن الأنباري في ذلك ويؤْخذ من كلامهما أن ضابط الصحيح من اللغة ما اتَّصل سَنَدُه بنَقْل العَدْل الضابط عن مِثْله إلى منتهاه على حدِّ الصحيح من الحديث.

=

وواضع ذلك عند بعضهم هو الله قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، وعند آخرين هم البشر، وفريق ثالث يرى أن أصول اللغات وقوانينها من عند الله، وأن الألفاظ المولدة من وضع البشر، كما ذكرنا سابقا، ولكن المهم أن الوضع بمعنى جعل الألفاظ بإزاء المعاني أمر لابد منه حتى يتم التفاهم بين البشر، وذلك أن المتكلم يقوم بنقل المعاني التي قامت في ذهنه إلى السامع الذي يحمل هذه الألفاظ على مقابلها من المعاني التي سبق للواضع أن تواضع عليها، وبذلك الحمل من السامع تتم الوظيفة الثانية للغة، وهي وظيفة التلقي فتحصل عندنا ثلاث عمليات: الأولى الوضع، والثانية الاستعمال، والثالثة الحمل، حتى قال علماء أصول الفقه على نحو ما مر: إن الاستعمال من صفات المتكلم، والحمل من صفات السامع، والوضع قبلهما.

خطورة تبني مذاهب ما بعد الحداثة على اللغة:

ويرى بعض الناس من مدارس ما بعد الحداثة أن عملية الوضع ينبغي أن تكون مرنة لا تتقيد بالموروث، ولا يقتصر هذا المفهوم على اتساع اللغة طبقًا لزيادة مساحة عالم الأشياء، والأشخاص، والأحداث، والأفكار، والنظم، وهو الاتساع المتفق عليه نظرًا وعملًا، بل مقصودهم تغيير دلالات الألفاظ بحيث تزداد مساحة الحرية الفكرية، وترى بعض المدارس المتطرفة من مدارس ما بعد الحداثة أن هناك خمسة أشياء يجب أن تزول حتى يستطيع الفكر البشري أن يبدع وينطلق بدون أي عائق، وهذه الخمسة هي: الثقافة، والدين، والأسرة، والدولة، واللغة. ورفع سلطان الثقافة السائدة أمر سيؤدي إلى الاتجاه نحو (النسبية المطلقة)[1] التي تدعو هذه المدارس الفكرية لتبنيها، والتحرر من سلطان الدين قد تم من قبل

=

(المزهر في علوم اللغة (1/ 47) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي – تحقيق: فؤاد علي منصور – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م).

(1) النسبية هي وضع فلسفي يرى أن كل وجهات النظر صحيحة شرعية متساوية في الاعتبار، فكل الحقائق
=

في الحضارة الغربية، والأسرة أصبحت تطلق عندهم على أي اثنين، فلم يعد المعنى زوج، وزوجة، وابن، وابنة، أب، أم، عائلة.

نفس المعاني التي ورثناها عمن قبلنا، ويعدون هذا من المعاني المعجمية أي التي وجدناها في المعجم اللغوي، ومن هذا المدخل أصبح الشذوذ الجنسي الذي لعن عند عقلاء البشر دع عنك الأديان كلها من حقوق الإنسان، ورفع سلطان الدولة وأن يستبدل بها الجمعيات غير الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني يحتاج إلى تغيير النظام القانوني والاجتماعي، بل قوانين الفكر والنموذج المعرفي والإطار المرجعي.

أما إنهاء سلطان اللغة فهو أمر مفزع حقًا. "فبالإضافة على دورها الأساسي كوسيلة وحيدة لحفظ التراث، وانتقاله عبر الأجيال، فإن اللغة هي أحد أهم العناصر المكونة للحضارة وللهوية الإنسانية في كل مكان، وأول اتصال بين الإنسان وآخر يتم عن طريق اللغة، ويحتاج الزعماء ورجال السياسة والاقتصاد إلى مترجمين للتفاهم، ولولا هؤلاء المترجمون الذين يجيدون أكثر من لغة لكان التفاهم صعبًا للغاية إن لم يكن مستحيلًا، فاللغة هي الأداة الأساسية للتفاهم، لكنها أيضا الوعاء الذي يتبلور فيه فكر الإنسان ورؤيته للحياة، وبالتالي فإن اللغة هي العنصر المشكل للثقافة وللفكر والفلسفة والآداب" وهو يؤكد

=

نسبية إلى الفرد راجعة إلى رؤيته. وهذا يعني أن كل الأوضاع الأخلاقية، وكل الأنظمة الدينية، وكل الأشكال الأدبية، وكل الحركات السياسية هي حقائق نسبية للفرد وفقا لما يراه، وأول عبارة واضحة عن النسبية ظهرت في قول أفلاطون: «تظهر الأشياء لي، كما توجد بالنسبة لي، وتظهر الأشياء للآخرين، كما توجد بالنسبة لهم» فالنسبية تقرر أنه لا يوجد هناك حقيقة موضوعية يتفق عليها، فما أراه هو الحقيقة بالنسبة لي، وما تراه هو الحقيقة بالنسبة لك، فلا يوجد خطأ ولا يوجد صواب، ففي هذه النسبية ليس هناك منهج هو المنهج الصحيح وآخر خطأ فالجميع يخضع لرؤية فردية أو جماعية لا يحكمها أي ضابط.

ما نعتقده في شأن اللغة. [1]

وعند هؤلاء الحداثيين وظيفة اللغة هي التلقي فقط، ومعنى هذا أن السامع يحمل الكلام على ما يشاء من معنى بغض النظر عن مراد المتكلم من كلامه، وبذلك يفتح باب التأويل من غير ضابط ولا رابط، ونصل إلى النسبية المطلقة؛ حيث يفهم كل سامع ما يشاء أن يفهم ولا ينظر إلى حمل الكلام على ما وضع له، ولا إلى حمله على مراد المتكلم، وكأنه يتمثل بقول المتنبي في قصيدته الخيل والليل:

أنـــا الـــذي نظـــر الأعمـــى إلى أدبي وأســـمعت كلـــماتي مـــن بـــه صـــمم

أنـــام مـــلء جفـــوني عـــن شـــواردها ويســـهر الخلـــق جراهـــا ويختصـــم

واللغة المقدسة في العربية تحتاج منا إلى إدراك إحصاءات تبين حقائق قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، فيكثر اللغط والجدال على أمور قد نكون متفقين عليها، أو يجعلنا ننزل القطعي منزلة الظني، والظني منزلة القطعي، فيختل ميزان العدل الذي أُمرنا به في كل جزئيات حياتنا وقضايانا.

أثر القرآن الكريم في تهذيب اللغة:

جاء القرآن ليهذب لغة العرب التي كانت مليئة بالغرائب ووحشي الكلام، وأذكر شعر ابن المطهر الحلي[2] حيث يقارن بين القديم والجديد في لغة العرب، ويظهر من ذلك مدى تهذيب القرآن للغة العرب:

إنـــما الحيزبـــون، والـــدردبيس والطخـــا والنخـــا والعلطبـــيس

(1) شريف الشوباشي "لتحيا اللغة العربية" ص24.

(2) ابن المطهر الحلي هو جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي (648 هـ - 726 هـ). هو أحد كبار فقهاء ومتكلمي الشيعة الإمامية في القرن السابع الهجري، ويُقال للحلي في المحافل الشيعية العلامة الحلي.

لغـــــة تنفـــــر المســـــامع منهـــــا حيـــث تـــتلى وتشـــمئز النفـــوس

أيـــن قولـــك هـــذا جـــديث قـــديم مـــن مقالـــك عقنقـــل قـــدموس

وألفاظ القرآن نحو 1810 لفظة تمثل جذور الكلمات القرآنية، في حين أن معجم لسان العرب لابن منظور نحو ثمانين ألف مادة أعني جذرًا، أي أن جذور القرآن تمثل نحو اثنين في المائة (تمامًا 2.25٪) من جذور لسان العرب، والجذور الواردة في أحاديث النبي ﷺ هي 3600 جذرا، أي ما يمثل (4.5٪) من لسان العرب، والقرآن أصغر نص مقدس، وعدد كلماته نحو 6 ألف كلمة، منها 1620 كلمة لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة، ويقول بعضهم إن الأديب الروسي تولستوي(1) لم يكرر أربع كلمات في كتابه الحرب والسلام، فعُد ذلك من بلاغته وتمكنه اللغوي، فإذا صح ذلك، فإن هذا التفرد في القرآن الكريم بهذا العدد الضخم من الألفاظ غير المكررة يكون معجزة بمعنى الكلمة. تضام إلى وجوه إعجازه التي تخرجه عن نظام كلام البشر.

إن هذه الحقائق تجعلنا نذهب إلى أن هناك لغة مقدسة، ولكن هذه اللغة المقدسة يجب الحفاظ عليها في حدود النص المقدس حيث نحتاج إليه، وفي حدود أدوات فهمه على مستوى ألفاظه ومعانيه وعلى مستوى تركيباته ودلالاتها المختلفة وعلى مستوى سياقه أيضًا، وأن تطوير اللغة وارد، ولكن بصورة لا تفقدنا الاتصال بالتراكم المعرفي التراثي من ناحية، وأن تكون وعاءً قادرًا على انطلاق الفكر بكل جوانبه العلمي والحسي والتجريبي وحتى الفكر

(1) الكونت ليف نيكولايافيتش تولستوي (9 سبتمبر 1828– 20 نوفمبر 1910) من عمالقة الروائيين الروس ومصلحا اجتماعيا وداعية سلام ومفكرا أخلاقيا، يعد من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر والبعض يعده من أعظم الروائيين على الإطلاق.أشهر أعماله روايتي (الحرب والسلام) و(أنا كارنينا) وهما يتربعان على قمة الأدب الواقعي، فهما يعطيان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية.

الفلسفي.

وإعمال العقل ليبقى الإنسان إنسانًا يقوم بواجبه من عبادة الله، وعمارة الأرض، وتزكية النفس، وأن هذا التغير يجب ألا يمس أيضًا ثوابت البشر، وأن يكون في سعته متسقًا مع الاتساع الطبعي الذي هو من سنن الله في كونه ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53] ولابد أن نعي أيضًا أثناء عملية الاتساع مآلات المدارس المتطرفة لما بعد الحداثة، التي انتشرت في عصرنا، وغايتها لا تتفق مع رؤيتنا للعالم ولا مع مقررات ديننا وأسس حضارتنا وتاريخنا، وأن يكون تعاملنا مع اللغة بناء لا هدم فيه.

وهذه الحقائق أيضا تجعلنا نذهب إلى عدم قدسية اللغة وأن هناك فارقًا كبيرًا بين اللغة المقدسة التي يجب الحفاظ عليها من أجل فهم النص، وبين قدسية اللغة التي تمنع من اتساعها وقيامها بواجب عصرها وزمانها، ويذكرنا هذا الفرق بقصيدة حافظ إبراهيم في شأن اللغة حيث يقول وهو يعرف قدرتها على البقاء ومسايرة التطور:

رجعت لنفسي فاتهمت حياتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي

ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالًا وأكفاء وأدت بناتي

وسعت كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أعجز عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماء لمخترعات

إذا فهم معنى الوضع ووظائف اللغة من التلقي والأداء له ارتباط وثيق بموضوع أصول التفسير، وذلك إذا أدركنا أن اللغة المقدسة التي نقل بها القرآن الكريم لا بد من المحافظة على دلالتها وتراكيبها وقواعدها صيانة للمعاني الواردة والتي هي مراد الله من خلقه.

***

مطلب

الاشتقاق الكبير ودوره في فهم القرآن الكريم

ومن أهم خصائص اللغة العربية التي تميزت بها عن جميع لغات العالمين «الاشتقاق الكبير» وهو من أهم مباحث وعلوم اللغة العربية التي تعين على فهم دلالة التراكيب اللغوية فاستخدام الاشتقاق مع الألفاظ والمفردات يولد المعاني الجديدة التي يتم بها بيان مراد المخاطب ويتم من خلالها فهم المتلقي فهو ينطلق من إدراك المعنى للفظة معينة في اللغة ثم ملاحظة كيفية سريان هذا المعنى بصورة معينة في كل الأشكال اللفظية التي تناسلت وانتزعت من هذه اللفظة، فهو نوع من القياس اللغوي للمفردات يُخرج لمستخدمي اللغة ألفاظًا مستحدثة ترجع إلى أصل واحد وجذر واحد تدل على معاني جديدة بما يمكن اللغة من التعبير عن ما يَجِدُّ من الأفكار والمستحدثات من أمور الحياة ووسائلها، فهو وسيلة تمد من خلالها اللغة العربية بالكثير من الألفاظ والمفردات التي تتناغم مع أصولها التي اشتقت منها، فهي متساندة وليست متعارضة، وهي تمنح اللغة حيوية وقدرة على الاتساع، ويتضح من خلاله أصالة المفردات، وبيان الدخيل منها على اللغة العربية.

فما هو الاشتقاق الكبير هذا؟

معنى الاشتقاق الكبير:

فالاشتقاق لغة:

قال ابن فارس في مقاييس اللغة: «(شق) الشين والقاف أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على انصداعٍ في الشيء، ثم يحمل عليه ويشتقُّ منه على معنى الاستعارة، تقول شقَقت الشيء أَشُقه شقًّا، إذا صدعتَه. وبيده شُقوق، وبالدابّة شُقاق. والأصل واحد»(1).

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة (3/ 170) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا – المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر – الطبعة: 1399هـ – 1979م.، وهو يشير رحمه الله

ويقول رحمه الله: «باب القول على لغة العرب: هل لها قياس وهل يشتق بعض الكلام من بعض؟ أجمع أهل اللغة -إلا من شذ عنهم- أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض،وأن اسم الجنّ مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدُلاَّن أبدًا عَلَى الستر، تقول العرب للدّرع: جُنَّة، وأجَنة الليلُ، وهذا جنين، أي هو فِي بطن أمّه أَوْ مقبور، وأن الإنس من الظهور؛ يقولون: آنَسْت الشيء: أبصرته.وَعَلَى هَذَا سائرُ كلام العَرَب، عَلم ذَلِكَ من عَلِم وجَهِلَه من جهل.

وهذا أيضاً مبنيٌ عَلَى مَا تقدم من قولنا فِي التوقيف[1]، فإن الَّذِي وقّفنا عَلَى أن الاجتنان التستر هو الَّذِي وقّفنا عَلَى أن الجنّ مشتق منه، وَلَيْسَ لَنَا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير مَا قالوه ولا أن نقيس قياساً لَمْ يقيسوه، لأن فِي ذَلِكَ فسادَ اللغة وبُطلان حقائقها. ونكتةُ الباب أن اللغة لا تؤخذ قياسًا نَقيسهُ الآن»[2].

والاشتقاق اصطلاحًا:

عرف الجرجاني الاشتقاق بأنه:

«الاشتقاق: نزع لفظٍ من آخر، بشرط مناسبتهما معنىً وتركيبًا، ومغايرتهما في الصيغة.

الاشتقاق الصغير: هو أن يكون بين اللفظين تناسبٌ في الحروف والتركيب، نحو: ضرب، من: الضرب.

الاشتقاق الكبير: هو أن يكون بين اللفظين تناسبٌ في اللفظ والمعنى دون الترتيب، نحو: جبذ، من: الجذب.

---

(1) يشير إلى ما تقدم في مطلب الوضع حيث مر معنا معنى الوضع وأن الاختيار أن الواضع هو الله جل جلاله.

(2) انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (1/ 36-35) المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين - الناشر: محمد علي بيضون -الطبعة: الطبعة الأولى 1418هـ-1997م.

الاشتقاق الأكبر: هو أن يكون بين اللفظين تناسبٌ في المخرج، نحو: نعق، من النهق»(1).

وقال الزركشي رحمه الله: «هو افتعال من الشق بمعنى الاقتطاع من انشقت العصا إذا تفرقت أجزاؤها، فإن معنى المادة الواحدة تتوزع على ألفاظ كثيرة متقطعة منها، أو من شققت الثوب والخشبة، فيكون كل جزء منها مناسبا لصاحبه في المادة والصورة، وهو يقع باعتبار حالين:

أحدهما: أن ترى لفظين اشتركا في الحروف الأصلية والمعنى، وتريد أن تعلم أيهما أصل أو فرع.

والثانية: أن ترى لفظا قضت القواعد بأن مثله أصل، وتريد أن تبني منه لفظا آخر. والأولى تقع باعتبار عام غالبا، والثانية باعتبار خاص، إما بحسب الإحالة على الأولى أو بحسب ما يخصها، فمن الأولى الكلام في المصدر والفعل أيهما أصل والآخر فرع؟ ومن الثانية الكلام في كيفية بناء اسم فاعل من لفظ الطلاق مثلا.

واعلم أن الأسماء المشتقة تفيد المعرفة بذات الشيء وصفته، وأنشد ابن السمعاني في ذلك للحسن بن هانئ:

وَإِنْ اسْمُ حُسْنَى لِوَجْهِهَا صِفَةٌ ... وَلَا أَرَى ذَا لِغَيْرِهَا اجْتَمَعَا

فَهِيَ إِذَا سُمِّيَتْ فَقَدْ وُصِفَتْ ... فَيَجْمَعُ اللَّفْظُ مَعْنَيَيْنِ مَعَا

وقال الأئمة: الاشتقاق من أشرف علوم العربية وأدقها وعليه مدار علم التصريف في معرفة الأصلي والزائد والأسماء والأفعال لبنية يحتاج إلى معرفتها في الاشتقاق»(2).

---

(1) انظر: كتاب التعريفات (1/ 27) علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني - المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر - الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان -الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م.

(2) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (2/ 311) - المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي - الناشر: دار الكتبي - الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1994م.

لكي ندرك معنى الاشتقاق يجب أن نعلم أن الأصل في الكلمات هو أنها ثلاثية الحروف وليست ثنائية الحروف،فعلى سبيل المثال لو نظرنا لكلمة يد وهي حرفان لكي نكتشف الحرف الثالث من مكوناتها فعلينا أن ننسب الكلمة «يد» فتصير «يدوي» فنجد أن أصل الكلمة الثلاثي «ي د و» وكذلك كلمة دم ننسبها فتصير «دموي» فنجد أن أصل الكلمة الثلاثي عندما نبحث عنه في «د م و» وقس على هذا.

فعندما نطبق الاشتقاق الكبير على كلمة من القرآن الكريم وهي كلمة «مَلَكْ» وهي كلمة تدل على القوة من أين جاءت؟ فعندما ننطق حروف الـ م، ل،ك ننطقها «مَلَكْ». فمادة الكاف واللام والميم (ك،ل،م) يرد عليها بحسب الاشتقاق ستة من التراكيب منها ما هو مستعمل ومنها ما هو مهمل لم تستعمله العرب:

فهذا الاشتقاق الكبير لا وجود له إلا في العربية وهو من الأسباب التي نقول إن الله أنزل كتابه باللغة العربية لأجلها، فلماذا لم ينزل الله سبحانه كتابَه الكريم باللغة العبرية أو الآرامية أو الإنجليزية أو الفرنسية؟ وإنما أنزله سبحانه وتعالى باللغة العربية من أجل هذه الخصيصة المهمة والتي توصلك أيها القارئ لكتاب الله إلى أوجه الإعجاز فيه.

تعالوا بنا لنرى لمحة من خصائص هذه اللغة؛ إذ ليس هناك مثل اللغة العربية في الرابطة الموجودة بين حروفها، فمثلا كلمة «مَلَكَ» ثلاثة أحرف: «الميم»، و«اللام»، و«الكاف»، فكل كلمة تتكون من هذه الحروف – بغض النظر عن ترتيبها- لا بد من أنها تشترك مع الكلمات الأخرى في معنًى جامع يجمع كل هذه التقلُّبات، فمنها: «الملِك»، ومنها: «الملَاك»، ومنها: «المالِك».

و«الملِك»، و«الملَاك»، و«المالِك» فيها قوة بدرجات مختلفة؛ فالمَلِك من المُلْك، والمالِك من المِلْك، ففيهما قوة وسلطان؛ لأن الملِك هو الذي بيده الأمر والنهي، وقيادة المجتمع وتنظيمه، وقيادة الجيوش والدفاع عن الناس، والمالِك له قوة أخرى من طرف آخر؛ فإن «الملِك»، يَملِك لكنه ليس بمَالِك، فلا يملك بيتي، ولا يملك رقاب الناس. أما: «المالِك» فهو يملك البيت ويكون مخصوصا به؛ ولذلك فمن هذه الناحية هو أقوى من «الملِك»، و«الملِك» من

ناحية العلو والرتبة هو أقوى من «المالِك»، ثم تأتي كلمة «الملاك» وفيها أيضا نوعٌ من القوة.

وعند تبديل الحروف في تلك الكلمة الثلاثية تنتج سَتُّ صور، منها: «لَمَكَ»، لو بحثنا عن«لَمَكَ»، نجد أنه لا معنى لها؛ فيسمون ذلك بالمُهْمَل، والمهمل في اللغة العربية أكثر من المستعمل.

ثم «لَكَمَ» وهي الصورة الثالثة، وهي مستعملة ومفهومة(1).

ثم: «كَلَمَ»، فمنها الكلام «والكلام قوة»، والسكوت مقابل هذه القوة، و«كَلَمَ» أيضًا تعني: جَرَح، ففيها عدوان وهو فِعْلٌ فيه قوة. إذن، «مَلَكَ» فيها قوة، و«لَكَمَ» فيها قوة، و«كَلَمَ» فيها قوة، و«لَمَكَ» مهملة و«مَكَلَ» مَكُلَت البئر فهو بئر مَكُول أي قليل الماء ومتى كان كذلك ففي ورودها شدة وعنت ففيها معنى القوة.

قال السيوطي رحمه الله: «وقال ابن دحية في التنوير: الاشتقاقُ من أغْرَب كلام العرب وهو ثابت عن الله تعالى بنقل العدول عن رسول اللهَّ ﷺ لأنه أُوتي جَوامعَ الكَلِم وهي جمعُ المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة فمن ذلك قوله فيما صح عنه: يقولُ الله: (أنا الرحمن خلقتُ الرُّحم وشققت لها من اسمي(2))، وغير ذلك من الأحاديث.

وقال في شرح التسهيل: الاشتقاقُ أَخْذُ صيغةٍ من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة؛ كضارب من ضرب وحَذِرٌ من حَذِر، وطريقُ معرفته تقليبُ تصاريفِ الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ دلالةَ اطراد أو حروفا غالبا، كضرب فإنه دال على مُطلق الضرب فقط أما ضارب ومضروب ويَضْرب واضْرِب، فكلُّها أكثرُ دلالة وأكثر حروفا، وضرب الماضي مساوٍ حروفا وأكثرُ دلالة وكلها مشتركة في (ض ر ب) وفي هيئة تركيبها وهذا هو الاشتقاق الأصْغر المحتجُّ به، وأما الأكبرُ فيحفظ فيه المادّةُ دون الهيئة

(1) اللكم: **الضرب باليد مجموعة** [القاموس المحيط (1/ 1959) للفيروز آبادي]

(2) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب بما جاء في قطيعة الرحم حديث رقم 1907 م

فيجعل (ق ول) و(ول ق) و(وق ل) و(ل ق و) وتقاليبها الستة بمعنى الخفة والسرعة[1].

أثر ظاهرة الاشتقاق الأكبر في فهم النص القرآني وإدراك المعاني:

علم الاشتقاق هو أحد الأبواب التي يتم من خلالها الولوج إلى آفاق رحبة من اللغة ومعانيها وتراكيبها، وينعكس ذلك ولا بد على مجال تفسير القرآن الكريم بما يولده من توجيه الدلالات اللغوية لألفاظ القرآن الكريم، وبما يقدمه من تقليب مفردات اللغة وربطها في فلك منضبط، بحيث تمنع الذهن من الانفلات نحو معاني باطلة، فيظهر أثر الاشتقاق وعمله فيما يتعلق بفهم النص القرآني وإدراك معانيه وتفسيره أنه يفتح الباب أمام المفسر لتحليل الألفاظ والمفردات وإدراك الصور الاشتقاقية لها التي تدل على معاني متولدة جديدة، فتنفتح لنا آفاق جديدة تمكننا من إدراك التصورات الكاملة الممكنة التي يحتويها النص القرآني ويسمح بها.

ثم إن الاهتمام بجانب الاشتقاق كعلم من علوم اللغة العربية يَنتج عنه إمداد اللغة العربية بثروة من المفردات والألفاظ والتراكيب، فلعلم الاشتقاق أثر كبير في كمال الإحاطة بالمعاني القرآنية المرادة، والتي قد تخفى بعض جوانبها وراء اللفظ. فعند تطبيق قواعد الاشتقاق ومراعاتها في التعامل مع اللفظ سوف يتضح لنا من أبعاد اللفظ ما كان مختفيًا.

كما رأينا ما نتج لنا من تباديل الكلمة عندنا: كلمات مهملة وكلمات مستعملة، والمستعمل منها يجمعه معنى واحد؛ فعندما نقرأ القرآن ونجد أنَّه يتكلم عن الملائكة، فإنَّنا بذلك نتخيلهم أقوياء؛ ولذلك فهم يؤيدون المؤمنين في الحرب، ويثبِّتون الأقدام، وينزلون مُسَوِّمِينَ ومُرْدِفِينَ وأقوياء، يُعينون المؤمنين في حربهم.

فعندما يَسْمَعُ الْعَرَبِيُّ الْجَاهِلِيُّ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: 30]، فإنَّه مباشرة يقول: «مائة مِنَّا

(1) المزهر في علوم اللغة (1/ 275) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي – تحقيق: فؤاد علي منصور – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.

لواحد[1]»، فما الذي يجعله يتصور هذا التصور: أنَّ مائة رجل سيذهبون للإمساك بالْمَلَك؟! إنَّه بمجرد سماعه هذه الحروف: «الميم»، و«اللام»، و«الكاف»؛ حدث في قلبه أنَّ القرآن يتكلم عن شيءٍ قوي، والذي دفعه إلى هذا التصور هو: مردود الكلمة ومردود الحروف؛ لأنَّه بطبيعته العربية يستعمل هذه الحروف في شيءٍ قويّ.

فمعرفة خصائص اللغة تساعدنا في الفهم، وفي الوقوف على المعاني التي قد لا تكون ظاهرة وقد تمر علينا مرور الكرام؛ فألفاظ القرآن الكريم من غير أن نراعي عمق دلالات الألفاظ فهي تأخذ وضعًا آخر غير الذي تأخذه مع مراعاة هذا العمق، فإذا رأينا هذا العمق شعرنا أكثر بالقرآن، وشعرنا أكثر بقصصه وأحكامه وما فيه، والكلام يطول جدًّا في هذا المعنى، فعندما كان العربي يسمع ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: 26] فمن مادة: هجر في كلمة "مهاجر " يشعر بأن إبراهيم- وهو يقول هذا- كان مُتألِّمًا، وكان مُفارقًا للأوطان، وكان بينه وبين قومه نزاع، كان يفهم القرآن على هذا المستوى.

- **نماذج تطبيقية أخرى من كتاب الله لظاهرة الاشتقاق:**

ومن الأمثلة الدالة كذلك على أهمية الاشتقاق ودوره في بيان المعنى الصحيح الراجح واتساع المعاني وكثرة الدلالات ما يلي:

1 – لفظ الأواب:

---

(1) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده قال محمد بن إسحاق: " قال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله ﷺ وبما جاء به من الحق: يا معشر قريش " يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة أفيعجزكم مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: 31] تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم الرازي (المتوفى: 327هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة – 1419 هـ (8/ 2698)

مما ذكره ابن جرير الطبري عند ترجيحه لمعنى «**الأوابين**» في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: 25]. فقال رحمه الله: «قال ابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: الرجل يذنب ثم يتوب ثلاثا، حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن منصور، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير، قوله ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: الذي يتذكر ذنوبه، فيستغفر الله لها، حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني ابن شريح، عن عقبة بن مسلم، عن عطاء بن يسار، أنه قال في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ يذنب العبد ثم يتوب، فيتوب الله عليه؛ ثم يذنب فيتوب، فيتوب الله عليه؛ ثم يذنب الثالثة، فإن تاب، تاب الله عليه توبة لا تُمْحَى.

وقد رُوي عن عبيد بن عمير، غير القول الذي ذكرنا عن مجاهد، وهو ما حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، في قوله ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: كنا نَعُدّ الأوّاب: الحفيظ، أن يقول: اللهمّ اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: الأوّاب: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأن الأوّاب إنما هو فعَّال، من قول القائل: آب فلان من كذا إما من سفره إلى منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عَبيد بن الأبرص:

وكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَئُوبُ... وغائِبُ المَوْتِ لا يَئُوبُ(1)

وقال ابن كثير معلقًا على اختيار الطبري وترجيحه: «وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ

(1) جامع البيان في تأويل القرآن (17/ 425) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري – المحقق: أحمد محمد شاكر – الناشر: مؤسسة الرسالة – الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م.

إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 25]، وفي الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»(1).

2 – لفظ الأثاث:

يقول ابن عطية رحمه الله في تفسيره عند استعراضه وترجيحه لأقوال المفسرين لمعنى الأثاث في قوله تعالى: ﴿وَالله جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ﴾ [النحل: 80].

«ظعن: معناه رحل والأصواف للغنم، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز والبقر، ولم تكن بلادهم بلاد قطن وكتان فلذلك اقتصر على هذه، ويحتمل أن ترك ذلك القطن والحرير والكتان إعراضا عن ذلك السرف، إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف، وأيضا فقد أشير إلى القطن والحرير والكتان في لفظ السرابيل، والأثاث متاع البيت واحدتها أثاثة، هذا قول أبي زيد الأنصاري.

وقال غيره: الأثاث جميع أنواع المال ولا واحد له من لفظه، والاشتقاق يقوي هذا المعنى الأعم: لأن حال الإنسان تكون بالمال أثيثة، تقول شعر أثيث ونبات أثيث إذا كثر والتف، وقوله إِلى حِينٍ يريد به وقتا غير معين، وهو بحسب كل إنسان إما بموته وإما بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أهاجتك الظعائن يوم بانوا ... بذي الزيّ الجميل من الأثاث(2)

(1) تفسير القرآن العظيم (5/ 68) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي – المحقق: سامي بن محمد سلامة – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع – ط2/ 1420هـ – 1999م.

(2) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (3/ 412) أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، ط1422/1هـ.

3 - **كلمة «الآية»**:

يقول القرطبي رحمه الله: «وأما الآية فهي العلامة: بمعنى أنها علامة لانقطاع الكلام قبلها من الذي بعدها وانفصاله، أي هي بائنة من أختها ومنفردة. وتقول العرب: بيني وبين فلان آية، أي علامة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ [البقرة: 248]. وقال النابغة:

توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

وقيل: سميت آية لأنها جماعةُ حروف من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم بآياتهم أي: بجماعتهم. قال برج بن مسهر الطائي:

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا ... بآياتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقيل: سميت آية؛ لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها. واختلف النحويون في أصل «**آية**»، فقال سيبويه: «**أَيَيَة**» على «**فَعَلَة**»؛ مثل أكمة وشجرة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا فصارت «**آية**» بهمزة بعدها مدة. وقال الكسائي: أصلها «**آيِيَة**» على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع. وقال الفراء: أصلها «**أيّية**» بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة التشديد فصارت آية وجمعها آي وآيات وآياء. وأنشد أبو زيد:

لم يُبق الدهر من آيائه ... غيرَ أَثَافيهِ وأرْمِدائِه[1]

وقال الراغب الأصفهاني: «واشتقاق الآية إمّا من «**أيّ**»؛ فإنها هي التي تبيّن أيًّا من أيٍّ، أو من قولهم: أوى إليه.والصحيح أنها مشتقة من التَّأَيِّي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء. يقال: تأيَّ، أي: ارْفُقْ.

وقيل للبناء العالي آية، نحو: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: 128]. ولكلِّ جملة من القرآن دالة على حكم آية، سورة كانت أو فصولا أو فصلا من سورة، وقد يقال لكل

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (1/ 66).

كلام منه منفصل بفصل لفظي: آية»[1].

اللغة العربية ومواكبة العصر:

وفي ختام هذا المبحث عن اللغة العربية ودورها في إدراك المعاني القرآنية نشير إلى أمر مهم هو أن اللغةَ التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى لتحمل آخر رسالته إلى أهل الأرض قادرةٌ على مواكبة العصر، ومؤهلة لتكون لغة للعلوم والمعارف، وقد حمل لنا التاريخ كيف كانت اللغة العربية لغةَ الحضارة، الجامعة لعلوم الفرس والرومان واليونان والهند، وذلك عن طريق استيعابها لما حدث من ترجمة تراث ومعارف الحضارات الأخرى، فنحن لدينا من قواعد التعريب المنضبطة ما يفي بمتطلبات نقل العلوم الحديثة إلى العربية، وجعلها طريق الاتصال بعلوم تلك الحضارة الحديثة فلغتنا العربية مؤهلة كما كانت في السابق لأن تكون لغة التعليم الأساسية في كل المراحل، كما نشاهد في كثير من دول العالم المتقدم، التي تدرس العلوم الحديثة بلغتها الأصلية كالصين واليابان وفرنسا ولم يقفوا عند اللغة الإنجليزية ويعتبرونها لغة العصر.

ولا بأس في أن يتقن المسلم ما يشاء من اللغات بعد أن يتقن لغته الأم تمكنه من الإفادة والاستفادة فعدم معرفتنا بلغتنا يحرمنا من الاستفادة الكاملة الصحيحة من تراثنا العلمي والمعرفي والثقافي، فأول مكونات هوية الأمم هي لغتها فلما انقطعت صلتنا باللغة العربية أصابنا نوع من الأمية الحضارية؛ لعدم قدرتنا على التواصل مع تراثنا العلمي، فلا نجد من يستطيع أن يتواصل مع الكتب التراثية الحاوية للعلوم إلا المتخصصين فقط فضعفت نهضة الأمة.

---

(1) انظر: المفردات في غريب القرآن (1/ 102-101) المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى المحقق: اصفوان عدنان الداودي - الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت - الطبعة: الأولى - 1412 هـ.

فأول خطوات نهضة الأمة المسلمة هي العودةُ إلى لغتها الأصلية التي تمكنها من أن تسترد فاعليتَها العلمية والفكرية والدعوية، فنحن أصبحنا نفكر بلغة الآخر ولو عدنا للغتنا لتمت معالجة أزمتنا الحضارية، ولما أصبحنا نتسول من حضارات الآخر، وثقافته ولاستطعنا شيئًا فشيئًا تقليل الهُوة التي حدثت بيننا وبين الآخر، وليس في هذا الكلام شيء من المبالغة فالذي ينظر إلى النهضة الصناعية في أوروبا فيما بعد العصور الوسطى يجد أنها كانت قائمة في كثير من جوانبها العلمية والعملية على ما ترجم من كتب المسلمين العلمية خاصة أهل الأندلس وقت حضارتها فلو عدنا إلى لغتنا، ومهدنا الطرق للاتصال بتراثنا، لعادت تلك الحضارة شيئا فشيئا، فلا شك في وجود العقليات القادرة على الإبداع والإنتاج، التي تتمكن من خلال التواصل مع التراث الأدبي والفكري والعلمي من إعادة إنتاج النموذج الحضاري المسلم.

***

المبحث الثالث

أسباب النزول وأثرها في فهم النص القرآني

في رحلتنا مع قانونِ التفسيرِ، والتعرفِ علىَ أصولهِ، وجمعِ أركانهِ، وتكوينِ صورةٍ كليةٍ لمنهجٍ متكاملٍ للتعاملِ مع كتابِ الله عز وجلٍ، يمكننا من قراءتهِ القراءةِ الصحيحةِ العاصمةِ من الفهمِ الخاطئِ، نصلُ إلى الكلامِ عن العلمِ بأسبابِ نزولِ بعض الآياتِ القرآنيةِ، وما ورد عن ذلكَ في كتبِ السنةِ المطهرةِ أو في كتبِ التفسيرِ، ونناقشُ كيفَ تمثلُ الرواياتُ الصحيحةُ الواردةُ في ذلكَ ومتعلقاتها مدخلًا من مداخلِ الفهمِ لكلامِ الله، وأصلًا من أصولِ التصورِ والإدراكِ لمعاني القرآنِ ومحاورهِ الكلية ومقاصدهِ، وكيف يمثلُ العلمُ بأسبابِ النزولِ مانعًا ضد استنباطِ المعاني الباطلةِ ونسبتها لكتاب الله.

وليس الكلام عن أسبابِ النزولِ وأثرها نوع من السردِ التاريخي المجرد عن الفائدةِ؛ بل هو جزءٌ من أجزاءِ الإدراكِ الكلي للشريعة الإسلاميةِ؛ وذلك لما يحدثه العلمُ بأسباب النزولِ من أثر في فهمِ النصِ القرآني في نواحي العقيدةِ والشريعةِ والقيم والقصص والأخبارِ.

فالناظرُ إلى كتابِ الله يجدُ فيه طائفةً من الآيات الكريمةِ نزلتْ على أسبابٍ خاصةٍ، ووقائع حدثت، وأحداثٍ وقعت، وأسئلةٍ طرحت، فامتزجَ الحكمُ والتشريعُ بالواقعِ، واختلطَ العلمُ بالعملِ، والنظريةُ بالتطبيقِ، كل ذلك يدفعُ العالمَ والمفسر إلى الإلمامِ بهذه القضيةِ ومتعلقاتها جاعلًا منها أحد أدواتِ التعاملِ مع النصِ القرآني.

- **أسباب النزول لغة واصطلاحًا:**

أسباب النزول لغة: مركبْ إضافي يتألفْ من كلمتين (أسباب والنزول)، ومعرفةُ معنى هذا المركبُ يأتي من إدراكِ معنى مفرداتِه.

والأسبابُ: جمعُ سببٍ. والسببُ هو كل ما يتوصلُ به إلى غيرِه، قال صاحبُ القاموسِ المحيطِ: «والسببُ الحبلُ وما يتوصلُ به إلى غيرِه ويجمعُ على أسبابٍ، وأسبابُ السماءِ مَراقيها أو

نواحيها أو أبوابها»[1] وقال صاحبُ لسانِ العربِ: «السببُ هو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء،ثم استعير لكلِ ما يتوصلُ به إلى شيء؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166][2].

والنزولُ: مصدر نزلَ ينزلُ نزولًا. قال الراغبُ الأصفهانيُ في مفرداتِهِ: «نزل: النزولُ في الأصلِ هو انحطاطٌ من علوٍ، يقالُ نزلَ عن دابتِهِ ونزلَ في مكانٍ كذا حطَ رحلهِ فيه، وأَنْزَلَهُ غَيْرُهُ، قال تعالى: ﴿أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 29]. وإنزالُ الله تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على الخلقِ وإعطاؤهم إياها، وذلك إما بإنزالِ الشيءِ نفْسِهِ كإنزالِ القرآنِ، وإما بإنزالِ أسبَابِهِ والهدايةِ إليه كإنزالِ الحديدِ واللباسِ، ونحوِ ذلكْ»[3].

أسباب النزول اصطلاحًا:

وسببُ النزولِ في الاصطلاحِ هو: «هو ما نزلتْ الآيةُ أو الآيات متحدثةً عنه، أو موضحةً لحكمهِ وقت وقوعِهِ»[4]. فنحنُ نجدُ بالنظرِ في كتبِ السنةِ والتفسيرِ وقائع حدثتْ في زمنِ النبي ﷺ، أو أسئلةً وجهتْ إليه، فنَزَلَ القرآنُ الكريمُ ببيانِ ما يَتَّصِلُ بهذِهِ الوقائعُ، أو إجابةِ هذه الأسئلةِ، وذلك على المستوى العَقدي أو التشريعيِ أو القِيَمِي أو مجالِ القَصَصِ والأخبارِ.

---

(1) انظر: القاموس المحيط (1/ 96) الفيروز آبادي

(2) انظر: لسان العرب (1/ 495) محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى – الناشر: دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – 1414 هـ.

(3) انظر: المفردات في غريب القرآن (1/ 488) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى – تحقيق محمد سيد كيلاني.

(4) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (1/ 89) – المؤلف: محمد عبد العظيم الزرقاني – المحقق: فواز أحمد زمرلي – دار النشر: دار الكتاب العربي – البلد: بيروت – الطبعة: الأولى – سنة الطبع: 1415هـ، 1995م.

- المدخلُ للكلامِ عن أسبابِ النزولِ:

ومدخلُ التعرفِ على مبحثِ أسبابِ النزولِ، وفهم متعلقاتهِ ودورهِ ومكانتهِ في تكوينِ الهيكلِ العامِ للشريعةِ؛ هو استقراءُ آياتِ القرآنِ الكريمِ، ومن خلالِ ذلكَ سوفَ نجدُ مجموعةً من الآياتِ الكريمةِ التي وردَ فيها سؤالٌ أو استفتاءٌ موجهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ سواءٌ مِنَ المسلمينَ أو من غيرهِم ومن أمثلةِ ذلكَ:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189].

- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215].

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 219-220].

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4].

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ

الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187].

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1].

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (42) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (43) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: 42: 44].

- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63].

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83].

- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: 176].

-﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: 105].

فَهذِهِ الآياتِ تثبتُ وتقررُ أن هناكَ مجموعةً من الأسئلةِ قد وُجهتْ إلى النبي ﷺ في نواحيِ العقيدةِ والأحكامِ التشريعيةِ والقيمِ والأخبارِ، ونزلَ القرآنُ الكريمِ بإجابةِ هذه الأسئلةِ، وزادَ عليها أمورًا أصبحت قواعدَ عامةً في الشريعةِ الإسلاميةِ على كافةِ المحاورِ.

وقد وردَ عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يشير إلى أسباب النزولِ ويدلُ عليها؛ فقد روى البخاري رحمه الله بسنده فقال: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالله الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ الله إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ الله إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ

أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ الله، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(1).

وعندما ننظرُ ونبحثُ في السنةِ النبويةِ المطهرةِ والرواياتِ المختلفةِ الصحيحةِ نجدُ تفصيلَ هذهِ الأسئلةِ والأحوالِ التي ظهرتْ فِيهَا، مما يَزيدُ المسألةِ إيضاحًا وبيانًا، مما يؤكدُ وجودَ ما يعرفُ بأسبابِ النزولِ، ويلفتُ الانتباهَ إلى أهميةِ الإحاطةِ بها كركنٍ من أركانِ فَهْمِ مَعَانِي القرآنِ الكريمِ، وأداةٍ من أدواتِ تفسيرِ النصِ.

وقدْ أدركَ أهلُ العلمِ في القديمِ والحديثِ دورَ العلمِ بأسبابِ النزولِ كمدخلٍ من مداخلِ فَهْمَ القرآنِ الكريمِ بلْ قد ظهرَ ذلكَ في عهدِ الصحابةِ الكرامِ، فَقَدْ رَوى الإمامُ الشاطبيُ في الموافقاتِ ما نصه:

«خَلَا عُمَرُ ذَاتَ يَوْمٍ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ؟ فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: كَيْفَ تَخْتَلِفُ هَذِهِ الْأُمَّةُ وَنَبِيُّهَا وَاحِدٌ؛ وَقِبْلَتُهَا وَاحِدَةٌ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ فَقَرَأْنَاهُ، وَعَلِمْنَا فِيمَ نَزَلَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَنَا أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَلَا يَدْرُونَ فِيمَ نَزَلَ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ، فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ رَأْيٌ اخْتَلَفُوا، فَإِذَا اخْتَلَفُوا اقْتَتَلُوا. قَالَ: فَزَبَرَهُ عُمَرُ وَانْتَهَرَهُ، فَانْصَرَفَ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَنَظَرَ عُمَرُ فِيمَا قَالَ، فَعَرَفَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ مَا قُلْتَ. فَأَعَادَهُ عَلَيْهِ، فَعَرَفَ عُمَرُ قَوْلَهُ وَأَعْجَبَهُ»(2).

يقول الإمام الواحدي -رحمه الله- (المتوفى: 468هـ) في كتابه «أسباب النزول» وهو يتكلم عن أهمية العلم بأسبابِ النزولِ: «فَآلَ الْأَمْرُ بِنَا إِلَى إِفَادَةِ الْمُبْتَدِئِينَ بِعُلُومِ الْكِتَابِ، إِبَانَةَ

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبيﷺ (5002) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (2463).

(2) انظر: الموافقات (4/ 148) - إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي- المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان - الناشر: دار ابن عفان- الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

مَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنَ الْأَسْبَابِ، إِذْ هِيَ أَوْفَى مَا يَجِبُ الْوُقُوفُ عَلَيْهَا، وَأَوْلَى مَا تُصْرَفُ الْعِنَايَةُ إِلَيْهَا، لِامْتِنَاعِ مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَقَصْدِ سَبِيلِهَا، دُونَ الْوُقُوفِ عَلَى قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا»(1).

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله: «بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ»(2).

وقال ابن تيمية رحمه الله: «ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»(3).

قال الإمام السيوطي رحمه الله (المتوفى: 911هـ): «قَالَ الْجَعْبَرِيُّ: نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ نَزَلَ ابْتِدَاءً وَقِسْمٌ نَزَلَ عَقِبَ وَاقِعَةٍ أَوْ سُؤَالٍ، وَفِي هَذَا النَّوْعِ مَسَائِلُ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:

زَعَمَ زَاعِمٌ أَنَّهُ لَا طَائِلَ تَحْتَ هَذَا الْفَنِّ لِجَرَيَانِهِ مَجْرَى التَّارِيخِ وَأَخْطَأَ فِي ذَلِكَ بَلْ لَهُ فَوَائِدُ مِنْهَا: مَعْرِفَةُ وَجْهِ الْحِكْمَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى تَشْرِيعِ الْحُكْمِ.

وَمِنْهَا: تَخْصِيصُ الْحُكْمِ بِهِ عِنْدَ مَنْ يَرَى أَنَّ الْعِبْرَةَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ اللَّفْظَ قَدْ يَكُونُ عَامًّا وَيَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَى تخصيصه، فَإِذَا عُرِفَ السَّبَبُ قَصُرَ التَّخْصِيصُ عَلَى مَا عَدَا صُورَتَهُ، فَإِنَّ دُخُولَ صُورَةِ السَّبَبِ قَطْعِيٌّ وَإِخْرَاجُهَا بِالِاجْتِهَادِ مَمْنُوعٌ، كَمَا حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ فِي التقريب، ولا التفات إِلَى مَنْ شَذَّ فَجَوَّزَ ذَلِكَ.

وَمِنْهَا: الْوُقُوفُ عَلَى الْمَعْنَى وَإِزَالَةُ الْإِشْكَالِ...

وَقَدْ أَشْكَلَ عَلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾

(1) انظر: أسباب نزول القرآن (1/ 4) المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي – المحقق: كمال بسيوني زغلول – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة: الأولى، 1411 هـ

(2) انظر: الإتقان في علوم القرآن (1/ 108) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط.الهيئة العامة للكتاب، 1974 م

(3) انظر: مجموع الفتاوى (13/ 339).

[آل عمران: [من الآية 188]، وَقَالَ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحٌ بِمَا أُوتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ، حَتَّى بَيَّنَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ حِينَ سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ وَأَرَوْهُ أَنَّهُمْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ(1)، أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ»(2).

وهنا ننبه على نقطةٍ فيما يتعلقُ بهذه الروايةِ وسببِ نزولِ الآيةِ: وهي أنَّها لا تَمْنَعُ المعنى العام للآيةِ الكريمةِ، والذي يشملُ كل من سلكَ مسلكَ اليهود الذين نزلتْ فيهم الآية؛ وإنما مَنعت المعنى الباطلَ أن يتسللَ إلى ذهنِ مروانَ حيث ظنَّ أن الفرحَ بما أتى الإنسانُ من الخير وسيلةً للعذابِ.

- الفوائدُ التي تَنتجُ عن العلمِ بأسبابِ النزولِ:

عندَ استصحابِ العلمِ بأسبابِ نزولِ الآياتِ عند التعرضِ لتفسيرِ القرآنِ الكريمِ، ومحاولةِ إدراكِ معانيه، ينتج عن ذلك الكثير من الفوائد: منها ما يتعلق ببيان إعجاز هذا الكتاب الكريم ونسبته إلى الله تعالى، ومنها ما يتعلق بالتشريع، ومنها ما يتعلق بحماية العقيدة وسلوك المسلم وأخلاقه.

- العلمُ بأسبابِ النزولِ وجهٌ من وجوهِ الإعجازِ القرآنيِّ:

حيثُ يُظْهِرُ لنا العلمُ بأسبابِ النزول وجهًا من وجوهِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ وعظمتِهِ، وصحةِ نسبتِهِ إلى ربِ العالمينَ، وهو أحدُ وجوهِ إثباتِ صدقِ نبِيِّنَا ﷺ وصحةِ رسالتِهِ عن ربهِ؛ حيث اشتملَ الكتابُ المنزلُ عليهِ على المعالجةِ السريعةِ للوقائعِ والأحداثِ وما يمثلهُ ذلك من أدلةٍ عقليةٍ ترشدُ إلى أن مصدرَ ذلك هو ربُ العالمين.

(1) البخاري كتاب تفسير القرآن، باب تفسير قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ الحديث 4586، مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، الحديث: 2778

(2) انظر: الإتقان في علوم القرآن(1/ 108-107) بتصرف بسيط.

فعندما ننظر للوقائعِ والأحداثِ التي ذُكِرَ فيها أسبابُ النزولِ، نَجِدُ أن منها ما يحتوى على أسئلةٍ تتعلقُ بواقع الحياةِ والمشكلاتِ والقضايا المتداخلةِ في حياة الناسِ العامةِ والخاصةِ، يصاحبُ هذه الأسئلة الجوابُ عليها ووضعُ التشريعَ الملائمِ لها وبيان كيفية تطبيقه، بما يثبت إعجازَ هذا الكتابُ الكريمُ ويظهرُ قدرتَهُ على تلبيةِ الحاجاتِ الإنسانيةِ، فلو كان هذا القرآنُ من عندِ غيرِ اللهِ تعالى لظهرَ عجزهُ أمامَ بعض المشكلاتِ والقضايا التي ظهرتْ بدون مقدمات وطُلب من الرسول ﷺ حَلُّها، ولَمَا استطاعَ الجوابَ عليها أو إيجادَ الحلولِ لها أو على الأقل لظهرَ التأخرُ في حلها أو في الإجابةِ على الأسئلةِ التي طرحتْ. أما وقد أجابَ القرآنُ الكريمُ عما طُرِحَ من أسئلةٍ بل وزادَ في الإجابةِ أمورًا وإرشادات تُكَمِّل التصور الكلي للمسائل والقضايا بما لا مزيد عليه؛ فذلك وجهٌ من وجوهِ الأدلةِ العقليةِ على إعجازِ هذا النص الكريم.

ومن أظهر الأمثلةِ على ذلك الوجه من الإعجازِمن ملائمة التشريع لحاجات الناس على أفضل ما يكون: ما وَرَدَ من رواياتٍ عن أسبابِ نزولِ صدرِ سورة المجادلةِ، التي تعالج قضية الظهار: والذي كان يُعَدُّ نوعًا من أنواع الطلاقِ عند العرب قبل شريعة الإسلام، فنزل القرآنُ الكريمُ في نفس الوقتِ بالتشريعِ اللازمِ لمعالجة هذه الواقعة، والذيِ ظهرتْ فيه الرحمةُ وتحقيقُ مصالحُ الناسِ ووضعُ الحلولِ للمشكلاتِ الحياتية.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «كانت خولة بنت دُليج تحت رجل من الأنصار، وكان ضريرَ البصر فقيرًا سيئ الخلق، وكان طلاق أهل الجاهلية إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته، قال: أنت علي كظهر أمي، وكان لها منه عيل أو عيلان، فنازعته يوما في شيء فقال: أنت علي كظهر أمي، فاحتملت عليها ثيابها حتى دخلت على النبي ﷺ وهو في بيت عائشة، وعائشة تغسل شق رأسه، فقدمت عليه ومعها عَيِّلُهَا، فقالت: يا رسول الله، إن زوجي ضرير البصر، فقير لا شيء له، سيئ الخلق، وإني نازعته في شيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، ولم يرد

به الطلاق، ولي منه عيل أو عيلان، فقال ﷺ: «**مَا أَعْلَمُكِ إِلَّا قَدْ حَرُمت عَلَيْهِ**»، فقالت: أشكو إلى الله ما نزل بي وأبا صبيبي. قال: ودارت عائشة فغسلت شق رأسه الآخر، فدارت معها، فقالت: يا رسول الله، زوجي ضرير البصر، فقير سيئ الخلق، وإن لي منه عيلا أو عيلين، وإني نازعته في شيء فغضب، وقال: أنت علي كظهر أمي، ولم يرد به الطلاق! قالت: فرفع إلي رأسه وقال ﷺ: «**مَا أَعْلَمُكِ إِلَّا قَدْ حَرُمت عَلَيْهِ**». فقالت: أشكو إلى الله ما نزل بي وأبا صبييِّ؟ قال: ورأت عائشة وجه النبي ﷺ تغير، فقالت لها: «وراءك وراءك؟». فتنَحَّت، فمكث رسول الله ﷺ في غشيانه ذلك ما شاء الله، فلما انقطع الوحي قال: «**يا عائشة، أين المرأة؟**» فدعتها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**اذْهَبِي فَأْتِنِي بِزَوْجِكِ**». فانطلقت تسعى فجاءت به. فإذا هو كما قالت- ضرير البصر، فقير، سيئ الخلق.

فقال النبي ﷺ: أَسْتَعِيذُ بِاللهِّ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ [المجادلة: 1] إلى قوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾ [المجادلة: 4]. قال النبي ﷺ: «**أَتَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسَّهَا؟**». قال: لا. قال: «**أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟**».

قال: والذي بعثك بالحق، إني إذا لم آكل المرتين والثلاث يكاد أن يعشو بصري. قال: «**أفتستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟**». قال: لا إلا أن تعينني. قال: فأعانه رسول الله ﷺ. فقال: «**أَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا**». قال: وحول الله الطلاق، فجعله ظهارا(1).

- وضوح المعنى واتساعه وزوال وجه اللبس عنه ورفع الإشكال من خلال معرفة سبب النزول:

فقد نظنُ من خلالِ ظاهرِ الآياتِ دلالةِ غير مقصودةِ منها؛ فإذا علمنَا سببَ النزولِ اتَّضَحَ

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم (8/ 39-38) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) -المحقق: سامي بن محمد سلامة - الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.

لنا المعنى الحقيقي للآياتِ، والذي لا يمنعُ وجود معانٍ أخرى صحيحةٍ تحتملها الآيات، ولكنه يمنعُ تسللَ المعاني الباطلةِ إلى ذهنِ القارئِ أو المفسرِ.

فنحن نجد أن علمَ المعاني والبيانِ الذي يُدْرَكُ من خلالهِ مقاصدَ الكلامِ العربي يعتمدُ على معرفةِ حالَ المتكلمِ والسامعِ والقرائنِ المحيطةِ بالواقعةِ، فالكلامُ يختلفُ فَهْمُهُ ومَعَانِيه بحسبِ ذلكَ كُلُّهُ، مثل: الاستفهامُ: نجدُ أَنَّهُ يحتملُ السؤالَ والتوبيخَ واللومَ وغيرَ ذلكَ من المعاني، وكالكلامِ بصيغةِ الأمرِ: يحتمل عدةَ معان من الإباحةِ أو التهديدِ أو التعجيزِ أو غيرَ ذلكَ، وإدراكُ المعنى المرادَ ومنعُ المعنى غير المرادِ للمتكلمِ يتطلبُ معرفةَ قرائنٍ وأمورٍ وأحوالٍ خارجةٍ عن ذاتِ الكلامِ، إذا لم يتم معرفتُها يُمكن أن يحدثَ عدمُ إدراكٍ كلي أو عدمُ إدراكٍ جزئي لمعاني الكلام، بل يمكنُ أن يذهبَ بالنصِّ إلى معنى غير مرادٍ من الأصلِ للمتكلمِ. ولو نظرنا إلى معرفةِ أسبابِ النزولِ لوجدنَا أنها ترفعُ الإشكالَ في إدراك المعاني، فهي تمثلُ القرائنَ والأحوالَ التي توجِّهُ الذهنَ وتهيئُ العقلَ لإدراكِ المعنى الصحيح، وتُرشدُ إلى دلالةِ الألفاظِ الواردةِ في الآيةِ الكريمةِ.

ومن الأمثلةِ الموضحةِ لذلكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلله الْمُشْرِقُ وَالْمُغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115]، فقد نظن من ظاهرِ الآية الكريمة أن لنا أن نتوجَهُ في صلاتِنا إلى غير المسجدِ الحرامِ سواءٌ في السفرِ أو الإقامةِ، ولكن بمعرفةِ سببِ النزولِ ندرك أنها ليست حكمًا عامًا[1] فيما يتعلقُ بالصلاة؛ وإنما هي في حالةِ صلاةِ النافلةِ للمسافرِ على الراحلةِ أو ما يشبهها فقد روى مسلمٌ في صحيحه عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ

(1) وليس معنى ذلك قصر معنى الآية الكريمة على هذا المعنى فقط كما سيظهر عند الحديث عن إطلاقية القرآن الكريم ومسألة عموم اللفظ وإنما المراد من فائدة معرفة أسباب النزول هو منع استنباط معنى باطل للآية أو للآيات وخاصة فيما يتعلق بالأحكام الشرعية.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: 115][1]. فهنا منع العلمُ بسبب النزول تسرب معنى باطلٍ ينسب لكتاب الله عز وجل.

- العلم بأسباب النزول وأثره في إدراك وفهم الأحكام الشرعية:

وكما ظَهَرَ أثرُ العلمِ بأسبابِ النزولِ في إدراكِ المعنى، ظهرَ له كذلكَ أكبر الأثرِ في تقريرِ الأحكامِ الفقهيةِ وتأصيلها، وبيانِ مجالِ عَمَلِهَا وطُرُقِ تطبيقِهَا، وعدَمِ الانحرافِ في تصور هيئةِ الحكمِ الشرعيِ وصورهِ وتفعيلهِ.

وهذا من أهمِّ الآثارِ التي تنتجُ عن العلمِ بأسبابِ النزولِ من خلالِ الرواياتِ الصحيحةِ الثابتةِ؛ حيثُ يتضحُ لنا بدايةً طبيعةُ القضيةِ أو المسألةِ أو الواقعةِ التي نزلَ لها حكمٌ تَشْرِيْعِي مُعَيَّن، والتَّصوُّر الكلي لها ومَعْرِفَة القرائنَ المحيطةِ بها والأشخاصِ الذين هم محل المسألة، بحيث يتكون لدينا صورةٌ عامةٌ صحيحةٌ، ثم يأتي بعد ذلكَ معرفة الكيفيةِ التي بلَّغَ بها النبيُّ ﷺ هذا الحكمَ إلى المسلمينَ وأرشدهم إليهِ وأفهمهم إياهُ، ثم بعد ذلك الهيئةِ العملية التطبيقيةِ التي ظهر بها هذا الحكمُ من خلالِ عَمَلِ النبي ﷺ ومن بَعدِه الصحابةِ الكرام، واستقرارِ عملِهم على هذه الهيئةِ ونقلِهم صورةَ الحكم الشرعيِ وهيئتِهِ ومتعلقاتِهِ وكيفيةِ تطبيقه إلى التابعين، وهكذا في سلسلةٍ لم تنقطعْ في تاريخِ الأمةِ الإسلاميةِ فكان ذلكَ أحد أسبابِ حفظِ شريعةِ المسلمينَ من التبديلِ أو التغييرِ أو التحريفِ الذي وقع في الأممِ السابقةِ.

فنحنُ هنا نجد أنفسَنا أمامَ حكمٍ شرعيٍ فقهيٍ قرآنيٍ، ظهرتْ هيئَتُهُ وصورتَهُ وكيْفِيَة تطبيقه في العهْدِ النبَوِي، فحدث له الثبوتُ والرسوخُ من خلالِ معرفةِ أهلِ العلمِ؛ لما اشتملتْ عليهِ الرواياتِ الصحيحةِ الواردةِ في سبب نزول الآيات المحتويةِ على هذا الحكمْ، وما قارَنها من أحوالٍ وأحداثٍ ووقائعٍ.

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت (1558) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ومن فوائدِ معرفةِ أسبابِ النزولِ فيما يتعلقُ بالحكمِ الشرعيِ ومتعلقاتِها، أنها تمنعُ أي تصورٍ باطلٍ عن صورتِهِ وطبيعتِهِ وهيئتِهِ، وتغلِقُ البابَ أمامَ إدعاءِ المدعينَ الذين يحاولون أن يحرِّفوا الشريعةَ الإسلاميةَ، بأن يدَّعوا أن الآياتَ القرآنيةَ التي احتوتْ على أحكامٍ تشريعيةٍ تتعلقُ بالعباداتِ أو المعاملاتِ أو الحياة العامة والخاصة للمسلمين، لها معانٍ أخرى وهيئاتٍ مختلفةٍ غير ما استقرتْ عليه الأمةُ الإسلاميةُ، فمعرفةُ أسباب النزولِ تسهم إلى حدٍ كبيرٍ في قطعيةِ الحكمِ الشرعي من حيثُ الثبوت ومن حيثُ المعنى والهيئةِ والتطبيق.

ومن الأمثلةِ التي توضحُ أثر العلمِ بأسباب النزولِ في العلمِ بالحكمِ الشرعي على الوجهِ الصحيح:

- السعي بين الصفا والمروة:

فقد ذكر المولى سبحانه وتعالى في سورة البقرة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهَّ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَّ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158] وقد فهم بعض التابعين حكم السعي بين الصفا والمروة على غير وجهه، وأنه ليس واجبا؛ لعدم معرفته بسبب النزول، فقد جاء في سنن النسائي بسنده عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ، وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة: 158] فما أرى على أحد شيئا ألا يطوف بهما.

قالت عائشة: كلا، لو كانت كما تقول كانت: لا جناح عليه ألا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة:

[158](1)

"إذن صححت السيدة عائشة رضي الله عنها لذلك التابعي فهمه للحكم الشرعي من خلال بيانها سبب نزول الآية، حيث ترفع الآية الحرج عن السعي بين الصفا والمروة لأنها من شعائر الله، وليس ما فعله المشركون من إلصاق أصنامهم بالصفا أو المروة مغيرا لشعائر الله تعالى.

وعلى هذا تظهر جليا فائدة معرفة سبب نزول الآية لإدراك الحكم الشرعي على وجهه الصحيح.

- ظهور الحكمة من التشريع من خلال بيان الظروف والأحوال التي شرع فيها الحكم:

من الفوائد التي تنتج عن معرفَتِنا لأسباب النزولَ: إدراكُ وجهِ من وجوهِ الحكمةِ التشريعيةِ، وظهورُ تحقيقِ المصلحةِ للبشرِ، وبيانُ سماحةِ الشريعةِ الإسلاميةِ ومرونتها وقدرتها على التعاملِ مع واقعِ الحياة، فعلى سبيل المثال: يتضحُ لنا ذلكَ منَ خلَال معرفة سبب نزول قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ الله فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

وفيها بيان حكم الطلاق وعدد الطلقات: وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي في سننه بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان الناس والرجل يُطلِّق امرأته ما شاء أن يطلِّقَها، وهي امرأتُه إذا ارْتَجَعَها وهي في العدة، وإن طلقها مائةَ مرة أو أكثر، حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطَلِّقُك، فَتَبِينين مني، ولا آويكِ أبدًا، قالت: وكيف ذاك؟ قال: أطلقكِ، فكلَّما هَمَّتْ عِدَّتُك أن تنقضيَ راجعتُكِ، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتْها، فسكتت عائشة، حتى جاء النبيُّ ﷺ، فأخبرته، فسكت النبيُّ ﷺ حتى نزل القرآن ﴿الطلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بإحسانٍ﴾ [البقرة: 229].

(1) رواه النسائي في السنن الكبرى،كتاب التفسير، باب سورة البقرة،حديث رقم (10942)

قالت عائشة: فاستأنف الناسُ الطلاق مستقبلًا: مَنْ كان طلَّق، ومن لم يكن طلق»(1).

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمرُ في ابتداءِ الإسلام، من أن الرجلَ كان أحقُ برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامتْ في العدة، فلما كان هذا فيه ضررٌ على الزوجاتِ قصرهم الله عز وجل إلى ثلاثِ طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكليةِ في الثالثة»(2).

إذن ظهر من خلال التعرف على سبب نزول هذه الآية حكمة التشريع في إنهاء ما كان من عدم تحديد عدد محدد للطلقات، حيث رفعت الآية المشقة الحاصلة من جراء ذلك.

- العصمة من الانحراف في العقيدة والسلوك:

الناظرُ لكثيرٍ من صورِ الانحرافِ في العقيدةِ والسلوكِ يجدُ أن إعمالِ الأهواءِ في فهم القرآن الكريم له دور كبيرٌ في ظهورِ هذا الانحرافِ؛ فعلى سبيل المثال: طائفةُ الخوارجِ في القديم، ومن سار على منهجهمْ الباطلِ في العصرِ الحديثِ، فهمًا وسلوكًا وعملًا من الجماعات المنحرفة والتيارات الضالة، لو انتبهوا لما ورد من أسباب النزول في الآيات التي اعتمدوا عليها في تكفيرِ المسلمينَ والخروجَ على ولاةِ الأمورِ والإفسادِ في الأرضِ، وانقادوا لذلكَ ولم يقع منهم عنادًا، ما سلكوا هذا المسلكَ، ولعلموا أن ما استقلوا بفهمه، وما استنبطوه من منهج وأحكام، هو نوع من أنواع الضلال المبين.

روى الإمام الطَّبريُّ بسندِه إلى ابن أبزى: «أنَّ رجلًا مِنَ الخوارجِ جاءَه يقرأ عليه هذه الآية: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

(1) أخرجه الترمذي في أبواب الطلاق واللعان (1192) من طريق يعلى بن شبيب، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها به.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم (1/ 610) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي- المحقق: سامي بن محمد سلامة- الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع- الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م.

بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، قال له: أليس الَّذين كفروا بربِّهم يعدِلون؟ قال: بلى! قال: وانصرفَ عنه الرَّجل. فقال له رجلٌ مِنَ القومِ: يا ابن أبزى، إنَّ هذا قد أراد تفسيرَ هذه غيرَ هذا، إنَّه رجلٌ مِنَ الخوارج. فقال: ردُّوه عليَّ، فلمَّا جاءَه قال: هل تدري فيمَن نزلَت هذه الآية؟ قال: لا. قال: إنَّها نزلَت في أهل الكتابِ، اذهب ولا تضعْها على غيرِ حدِّها»(1).

قال الخازن رحمه الله في تفسيره: «قوله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 269]، قال ابن عباس: هي عِلْمُ القرآنِ ناسخُه ومنسوخُه ومُحكَمُه ومُتشابِهُه ومُقدَّمُه ومُؤخَّرُه وحلالُه وحرامُه، وقال الضَّحاك: القُرآن والفهمُ فيه، وإنَّما قال ذلك لتضمُّن القرآن الحكمةَ، وقال: في القرآن مائة وتسعُ آياتٍ ناسخةٌ ومنسوخةٌ، وألفُ آيةٍ حلال وحرامٌ لا يَسَعُ المؤمنين تركُهُنَّ حتَّى يعلموهنَّ، ولا يكونوا كأهل النَّهْرَوان - يعني: الخوارج- تأوَّلوا آياتٍ مِنَ القرآن في أهل القِبلةِ، وإنَّما نزلَت في أهل الكتاب، فجهِلوا عِلمَها فسَفَكُوا بها الدِّماءَ وانتَهَبُوا الأموالَ، وشهِدوا على أهل السُّنَّةِ بالضَّلالةِ، فعليكم بعِلْمِ القُرآنِ، فإنَّه مَن عَلِمَ فيما نزَل لم يختلف في شيءٍ منه»(2).

معرفة سبب النزول في آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

ومن المواطن التي تظهر فيها أهمية إدراك سبب النزول قول الله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

حيث تقرر مبدأ حرية العقيدة في الإسلام، كما يتضح لنا الكثير من معاني هذه الحرية في

(1) انظر: تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل الآي والقرآن) (11/ 253) لمحمَّد بن جريرٍ الطبري (ت 310هـ) حقَّقه وعلَّق حواشيه محمود شاكر، راجعه وخرَّج أحاديث أحمد محمَّد شاكر، مكتبة ابن تيميَّةَ، ط2.

(2) انظر: تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (1/ 204) لعلاء الدين علي بن محمَّد الخازن (741هـ) تصحيح: محمَّد علي شاهين- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى 1995م.

العقيدة ووجوه تطبيقها، وذلك عندما نتعرف على ما صاحبها من أسباب النزول.

فقد روى ابن حبان في صحيحه بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]. قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يَكَادُ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ فَتَحْلِفُ لَئِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ لَتُهَوِّدَنَّهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا فِيهِمْ نَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ الله أَبْنَاؤُنَا فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَمَنْ شَاءَ لَحِقَ بهم ومن شاء دخل في الإسلام(1) ففي هذا النص أكبر الأمثلة العملية على تقرير مبدأ حرية الاعتقاد في شريعة الإسلام، فنحن هنا أمام حالة، تبين لنا أنه لو كان هناك إجبار على الاعتقاد في الإسلام؛ لكانت هذه الحالةُ هي الأولى بذلكَ فهؤلاءِ أبناءُ بعض الصحابةِ من الأنصارِ، ولم يكونوا من الغرباءِ،ومع ذلك لم تحلْ لهم الشريعةُ إجبارهم على الدخولِ في دين الله، وإنما تركتْ لهم حرية الاختيارِ. وقد أدركنا ذلك من خلال علمنا بالسبب الوارد في نزول الآية.

- لا تنافي بين إطلاقية القرآن الكريم والعلم بأسباب النزول:

سوفَ نتكلمُ في مبحثٍ خاصٍ عن إطلاقيةِ القرآنِ الكريمِ وكيف أنه متعالي عن حدود الزمانِ والمكانِ والأحوالِ والأشخاصِ وقد يظن البعض أن هناكَ تعارضًا أو تناقضًا بين العلمِ بأسبابِ النزولِ وهذه الإطلاقيةِ وليس ذلك بصحيح.

إذ أن العلمَ بأسبابِ النزولِ كما أشرنا سابقًا لا يحصر المعنى ولا يُلْزم المفسرُ بذلكَ إلا فيما يتعلقُ بالأحكامِ التشريعيةِ القطعيةِ؛ وإنما العلمُ بأسبابِ النزول يمنع المعاني الباطلةَ أن تتسلل إلى الفكر. فنحن لا نقول بالوقوف مع القرآن الكريمِ ومعانيه عند أسبابِ النزول؛ وإنما نقول

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب الإيمان، باب التكليف -ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْحَالَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أنزل الله جل وعلا: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (140) من طريق إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بِبُسْتَ قَالَ حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُلْوَانِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما به.

أن العلم بأسباب النزولِ جزء من منهج التعامل مع كتابِ الله لا ينبغي أن نغفله. فالتعامل مع القرآن ينطلقُ من اعتبارِ أن «العبرةَ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ» وهذا ليس استدعاء لخاصيةٍ زائدةٍ على القرآنِ؛ وإنما هي طبيعةٌ لازمةٌ فيه حيثُ كونه كلام الله عز وجل يجعله متصف بالإطلاقيةِ الدائمةِ.

وهذهِ الخاصيةِ هي التي تفتحُ البابَ أمامَ تفعيلِ معاني القرآنِ والإفادةِ من هديهِ في كل زمانٍ ومكانٍ، فلا نقفُ بالآياتِ عند أسبابٍ أو مناسباتِ نزولها الخاصة، بل نتعاملُ مع «اللفظِ في عمومهِ»؛ وبالتالي تكون كل حالة تشبه السببَ الأصلي، أو يمكنُ إلحاقها بمضمونِ سببِ النزول، داخلةً تحت مظلةَ النصِّ قطعًا. وقد عبَّروا عن ذلك بجملتين مهمتين: «العبرةُ بعمومِ اللفظ لا بخصوصِ السبب»، «صورةُ سببِ النزولِ قطعيةُ الدخولِ في النصِ» وهذه القاعدة الثانية تعني أن كل حالةٍ تمثلُ «صورةً» لسببِ نزول الآية، فهي داخلةٌ في النص محكومةٌ بحكمه قطعًا.

***

المبحث الرابع
حول معاني إطلاقية القرآن الكريم وآثارها
كأصل من أصول التفسير

تمهيد:

عندما نتكلم عن القواعد الكلية الضابطة لتفسير كتاب الله عز وجل، وعن أصول التفسير وقانونه وعن مداخل القراءة لكتاب الله عز وجل، فإن من أهم أركان هذا القانون وهذه الأصول والمداخل إدراك أبعاد ومعاني إطلاقية القرآن الكريم، وما يترتب عليها من مناهج وطرق التعاطي معه. فهذا النص ليس مثل النصوص الأرضية البشرية الموصوفة بالمحدودية، بل هو الكلمة الإلهية التامة التي لا يحدها حد، ومصدر هذه الكلمة هو رب العالمين خالق الأكوان وجميع الموجودات، المتعالى سبحانه عن المكان والزمان والأحوال.

و«الإطلاقية» التي يتميز بها كلامه جل وعلا معناها: أنه محرر من «الزمان» و«المكان» و«الأشخاص» و«الأحوال»، وهذا معنى أنه صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، فكأنه قد نزل الآن حيًا متجددًا يعلن عن نفسه أنه هو النور التام الغير منقطع، وهو الهداية الأزلية الأبدية والطريق لكل للعالمين، فهو متجاوز لمتغيرات الزمان والمكان التي تحكمها النسبية، ومتجاوز لمحدودية الفكر الإنساني، ومتجاوز لقدرة الكلام الإنساني ومحدوديته وقيوده الحاكمة له. فإطلاقية القرآن صفة له غير منفكة عنه، والحديث عنها هو أحد أوجه بيان عظمة هذا الكتاب الكريم الذي قال الله عز وجل عنه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]. وكذلك هي أحد المداخل التي نعيد من خلالها تكوين علاقتنا بكتاب الله وكيفية التعاطي معه، فهي منطلق لقراءة النص القرآني الإلهي المقدس.

ومعرفة الصفات والسمات التي يتصف بها كتاب الله الكريم، والتي تثبت إطلاقيته وتعاليه عن محدودية الزمان والمكان والمقاييس البشرية هو المدخل للأمة الإسلامية والبشر

أجمعين لمعرفة كيفية الاستفادة من هذا الخطاب الإلهي التام، فهذه السمات والصفات يجب النظر إليها على أنها محددات منهجية، ثابتة غير متغيرة، منتجة مولدة، تجعل من القرآن الكريم مرجعية شاملة تستوعب الحضارة البشرية كلها ما سبق منها وما سيأتي بكافة صورها وأنواعها، بهيمنة تامة لا يخرج عنها صورة من الصور أو شكلًا من أشكال الحياة أو نشاط من أنشطة الجنس البشري.

فالحديث عن إطلاقية القرآن وبيان أدلة ذلك، من خلال عرض المفاهيم العامة الكلية الواردة في كتاب الله والمعاني المحيطة والمشتملة على بيان الهدى التام الذي أراده الله للعالمين ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: من الأية38]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: من الآية 89].

هو أحد وجوه تحقيق الرؤية الكلية المشتمل عليها القرآن الكريم لحقيقة الوجود والحياة ومآلها ومصيرها والغاية منها.

وهو كذلك وجه من وجوه تكوين العقلية الكاملة التي تنطلق من القراءة الكلية للموضوعات والأحداث، وبيان لهيمنة الخطاب القرآني الإلهي على المتغيرات البشرية النسبية وإحاطته بها من جميع الجوانب، وهو كذلك إظهار لحقيقة صلاحية هذا النص الإلهي لكل زمان ومكان وحال، وبيان لاتصافه بالشمول والمرونة التي تناسب أحوال الخلق ونفوسهم على مر الدهور؛ فهو كلام الله الذي لا يتبدل ولا يتغير ولا يبلى مع مرور الأوقات، وهو النور الكامل المتجدد الغير منقطع الذي يخرج الله به العباد من الظلمات إلى النور، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم وصراطه المستقيم، وهو الذي تعالت كلماته ومعانيه عن نسبية البشر ومحددات الزمان والمكان، فلا تعارض بين معانيه ومفاهيمه ومعلوماته ومعارفه مع أي حقيقة علمية أو معرفية أو إنسانية، فلا تنقضي عجائبه.

والحديث عن إطلاقية القرآن هو حديث عن الهيمنة الكاملة له على جميع الكتب

والرسالات الأخرى والشرائع السابقة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48] فهو الخطاب الكلي الجامع للمنهج الإلهي المتفرد الذي لا يشبه أي منهج أرضي، فهو الوحي الإلهي الكامل الذي يوضح ما كان في الماضي ويستمر باتجاه المستقبل على مر الدهور، وهو المحتوي على الرؤية الكلية الشاملة المهيمنة المتجاوزة للنظريات المحدودة.

هذه الإطلاقية الذي يتسم بها هذا الكتاب الكريم ينتج عنها منهجية خاصة في التعامل مع كتاب الله عز وجل من حيث النظر إليه على كتاب يحتوي على الحقيقة المطلقة في الإلهيات، وما يتعلق بكافة أمور الحياة وما بعد الموت فهو الحاوي للمراد الإلهي، من الخلق المشتمل على بيان الحكمة من ذلك، ويترتب على ذلك أنه رسالة عالمية لا يحد أهدافها ومقاصدها زمان أو مكان، أو اختلاف جنس أو عرق أو لون أو طباع فهو مستوعب لكافة أشكال الثقافة والحضارة السابقة واللاحقة، مهيمن على جميع أوجه الفكر والنشاط الإنساني بكافة صوره.

وإدراك إطلاقية القرآن الكريم والعمل من خلالها هي أحد وجوه تحقيق قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]. فلكي يتم تحقيق تلاوة هذا الكتاب العزيز حق التلاوة وهي التلاوة اللفظية والعلمية والعملية، يجب أن نلتفت إلى إطلاقية القرآن ونُفَعِّلَ معانيها فيما نولده من المعارف والعلوم من آياته وكلماته، وما نستنبطه من أحكامه وتشريعاته، فالعمل الفكري تحت مظلة هذه الإطلاقية وجعلها من أركان منهج بيان معاني كتاب الله تعالى وتفسير آياته؛ يسهم في استخراج الرؤية الكلية التي يحتويها هذا النص الإلهي للكون والحياة، ويوفر القدرة على القراءة الجامعة لهذا النص التي يتحقق بها قول الله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89].

فبعد أن رفعت النبوة عن الأرض بانتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، جعل الله سبحانه وتعالى في الأرض وحيًا مستمرًا لا ينقطع يتمثل في كتابه الكريم الحاوي للهدى التام، الجامع

لهدي جميع الأنبياء والمرسلين من قبل.

- **الصفة الإلهية لهذا النص الكريم:**

أبرز الوجوه والسمات التي تثبت الإطلاقية للقرآن الكريم هي كونه نصًا إلهيًا محفوظًا؛ فهو كلام الله[1] المتعالي عن محددات الزمان والمكان والأحداث والأشخاص.

فكون هذا النص هو كلام الله سبحانه وتعالى، وصفة من صفات الله جل وعلا يثبت له العصمة المطلقة، والهيمنة الكاملة لما يتناوله من قضايا الوجود والحياة، فلا يختص بزمن معين أو وقائع محددة كانت في الماضي وانتهى أمرها؛ بل هو متجدد العطاء كأنه نزل الآن وسر هذا كونه كلام الله الذي لا يشبه كلام المخلوقين الذي يتصف بالمحدودية ويتعلق بمحيط الزمان والمكان.

فكلام البشر حول أي قضية أو مسألة تحده حدود، أما حين يكون الخطاب من الخالق سبحانه وتعالى فيتجاوز العوالم، فهو المطلق الذي نظمت حروفه من قبل الله سبحانه وتعالى، فخرجت في صورة نص عربي محكم ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]. فهو آيات الله وكلماته الموجهة إلى العالمين على اختلاف الثقافات والعقول في كل زمان ومكان.

فنحن ننظر إلى كتاب الله فنجد أن السُّورة تفتتح بحروف مقطَّعة، تثبت أنَّ القرآن فوق

---

(1) القرآن كلام الله جل وعلا، وقد دل على ذلك القرآن والسنة والإجماع، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وإن أحدٌ من الـمشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون﴾ [التوبة: 6] يقول الإمام الطحاوي في متن العقيدة الطحاوية: «وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر؛ حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر».

الحروف وفوق الأصوات، وأنَّ عقول البشر لن تبلغ منتهاه ولن تصل إلى سرِّ تأثيره دون ما سواه، فالقرآن كلام الرَّحمن لا يستطيعه الثَّقلان والقرآن فوق الأكوان يعلو ولا يُعْلى عليه فهو غالبٌ لا مغلوب، كم لجلاله وجماله خشعت عقول! ولَكَم لَانت لذكره وتَذْكِرَته من قلوب! سمعَه أقوام فخرُّوا للأذقان سجَّدًا يبكون، وعندما عرفوا ما فيه من الحقِّ فاضت له العيون.

إنَّه كلام الله، حمل من الأسرار ما فوق ظاهره من الحروفوما فوق تلاوته بالأصوات، وكلُّه حقٌّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فأعجز الخلائق في لفظه وخطِّه ومبناه، كما أعجزهم في معناه ومرماه، نزل به الرُّوح الأمينعلى قلب سيِّد الأولين والآخرين، ما أثقله! لولا أنَّ الله سبحانه يسَّره بلسانه ليكون من المنذرين وليكون ذكرًا للعالمين، ولا يزال الله عزَّ وجلَّ يمنح عباده من أنوار الفَهم عنه فيه بقدرٍ معلوم ورزق من لدنه مقسوم، فتفاوت النَّاس بقدر تحمُّلِه شرفًا وتفاضلوا بحسب علمه قدرًا وتساموا بقدر فهمه مراقي ودَرَجًا.

وأمَّا الرَّاسخون في العلم-وقالوا آمنَّا به كلٌّ من عند ربِّنا- فلا تسأل عن مكانتهم عند مليكهم تصديقًا وصدقًا، إنَّه بحق ميراث النُّبوة قائمًا باقيًا في هذه الأمة الغرَّاء، وهل ورثة الأنبياء إلَّا العلماء! هجره أقوام وما لهم من ناصرين، أمَّا الصَّالحون فكان موردهم ومصدرهم وما اتَّخذوا من دون الله وليًّا ولا نصيرًا، بل اطمأنَّت بالذِّكر قلوبُهم لَّما ساروا على بصيرة بفضل أنوار المنزَّل عليه ﷺ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

يقول الله تعالى: ﴿الـر﴾ [الحجر: 1] والحروف المقطَّعة في أوائل السُّور هي نصف حروف الهجاء، ولو جمعناها لخرجت جملةً جميلةً تصف معناه: (نَصٌّ حكيمٌ قاطعٌ له سرٌّ) فالقرآن (نَصٌّ) يؤخذ منهكل حرف فيه له معنى، وهو (حكيم) وحكيم على وزن فعيل، أي: أنَّه محكَم ﴿لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصِّلت: 42] (قاطع) في ثبوته وقاطع في هدايته وقاطعٌ في كونه كتاب حياة، و(له سرٌّ) ومن أسراره تلك

الحروف التي ذهب فيها المفسِّرون كلَّ مذهب، والتي لا يزال الإنسان وهو يقرؤها يشعر بضآلته – من بعد تحصيله علومًا شتَّى – أمام كلام الله سبحانه.

والكلامُ واضحٌ لا خفاءَ فيه، والعلوُّ مشاهد والفخامة ظاهرة والعظمة باديةٌ على كتاب الله تعالى، من أول حرف تقرؤه فيه (الـر) فإذْ بك تفهم المعنى إلَّا أنَّك تقف خاشعًا أمامه، وكأنَّك قد هيِّئت لتلقِّي كلام عظيم من ربٍّ عظيم.ونقف عند قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: 2] فـ(رُبَّ) للتَّقليل كما أنَّ (كَمْ) للتَّكثير. ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كأنَّ الكافرين –قلَّةٌ منهم– يودُّون في قلوبهم أن لو كانوا مسلمين ومعني هذا أنَّ حجابًا كثيفًا بين أولئك الكافرين وبين الإسلام يحول دون إسلامهم.

ولكن بعض المفسرين حمل (رُبَمَا) في الآية على التَّكثير أي أنهم يوم القيامة حين يرون عصاة الموحِّدين يخرجون من النَّار؛ فيودُّ الكافرون لو أنَّهم كانوا مسلمين في الدُّنيا فيخرجون كما خرجوا.

وعن صفات أولئك الخاسرين يقول تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: 3]

إذن لهم في ظاهرهم أماراتٌ ثلاث: أولاها الأكل ﴿يَأْكُلُوا﴾ غلبت عليهم شهوةُ الطَّعام فشأنهم الأكل وسعيهم للأكل وكأنَّهم للأكل خلقوا، والأكل مطلق فماذا يأكلون؟! لا يبالون أحلالًا كان أم حرامًا؛ وبإطلاقِ الأكل صحَّ أن يدخل فيه أكل أموال النَّاس بالباطل وأكل مال اليتيم وأكل الربا وأكل الدنيا بالدِّين لا عبرة عندهم بكل ذلك! المهمُّ بل الأهمُّ لديهم أن يأكلوا.﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ المتعة وهي ثانية الأمارات، لَّما طمس الله على قلوبهم ببغيهم وأذهب نورهم جعلوا أوقاتهم لمتعةٍ وأنفقوا أعمارهم فيها، وهذه المتعة متعدِّدة بحسب الحال فهي كلمة جامعة فذَّة تشمل مُتعَ الجنس ومتع الجاه ومتع المال لكنَّها كلها متعلِّقة بالدُّنيا فقط ولا يتعلق منها شيء بالآخرة ولا بوجه الله ولا بذكره ولا بالطَّيب من القول وإنَّما لهو ولعب وغرور وخداع ومكره ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ وهذه هي الأمارة الثَّالثة الظَّاهرة فهم يؤملون في

هذه الحياة الدنيا أملًا كاذبًا خادعًا ألهاهم عن حقيقتها وما من أجله خلقوا فيها ولا ترى واحدًا فيهم يذكر الموت بل يأباه ويكرهه؛ لأنَّه يكره لقاء الله كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الرُّوم: 7].

إنَّ القرآنَ غاص داخل خبايا النَّفس الإنسانيَّة وكشف عن حقيقتها وخصائصها ووظائفها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] والإنسان مكرَّم على الكون كلِّه فصارت النتيجة المنطقية عند أولي الألباب: أن القرآن فوق الأكوان.

وعلى ذلك فمن مبادئنا: أنَّ القرآن الكريم كتاب رب العالمين إلى كل العالمين إلى يوم الدين فهو كتاب هداية، ويدعو إلى نسقٍ مفتوح، وأنه محفوظ بحفظ الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأن الإسلام دين عالمي يدعو الناس أجمعين إلى كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: 64]. فهو معجزة الرسالة المحمدية الخاتمة، التي خاطبَ الله به الناس جميعًا في كل زمان ومكان، وفي جميع الأحوال، وهُو حبل الله المتين الذي لا تنتهي عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد وسيظلُّ غضًّا طريا إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها.

هذه مبادئنا وعقائدُنا، ويلزمُ من ذلك أن نذهب إلى الكتاب وأن نأخذ منه الهداية، ونعلمَ أنَّه ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]. فالله- سبحانه وتعالى- جعل هذا الكتاب خاتم الكتب، فإذا كان هناك عهدٌ قديم وعهدٌ جديد فإنَّ هناك عهدًا أخيرًا هو الكلمةُ الأخيرةُ من الله سبحانه وتعالى للنَّاسِ.

هذه الصفات- صفات الْعَالَمِيَّة، وصفات الْحِفْظ... إلى آخر ما هنالك- جعلت القرآنَ الكريم معجزةَ رسالةٍ؛ وكل نبيٍّ بُعث إلى قومِه كانت تجري على يده معجزاتٌ، هذه المعجزاتُ تسمَّى بمعجزة رسول، وهي التي على مثلها آمن البشرُ، وهكذا كان يقولُ سيدنا رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا أَرْسَلَ اللهُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَجَاءَ مَعَهُ مَا عَلَى مِثْلِهِ آمَنَ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي**

أُوتِيتُهُ هُوَ كِتَابُ الله»[1]. فالنبيُّ ﷺ وهو يقول هذا لا ينفي عن نفسه المعجزة؛ فقد جرتْ على يديه معجزات عَدَّ العلماءُ منها أكثرَ من ألف معجزة[2].

بل إنَّهم قالُوا: «كل معجزةٍ لنَبِيٍّ سابق على النَّبِيِّ المصطفى قد جرتْ على يديه عليه الصلاة والسلام»[3]. وكل هذه المعجزات كانت لقومه؛ ولذلك قال لهم: «**كيفَ تكفرونَ وأنا فِيكُمْ**؟»[4]. فإنَّهم يَرَوْنَ المعجزات من مثل: تكثير الطعام، وتسبيح الحصى، وحنين الجِذْع، وشكوى الحيوانات، وسير النباتات إليه، وإنبائه بالغَيْبِ، والإسراء والمعراج، ورَدِّ عين قَتَادَةَ، وشفاء المرضى، وإحياء الموتى... لكن- على كل حال- كانت تلك المعجزات أمام قومه، وبنى ﷺ على ذلك هذا البِناء الضخم في صحابته، وأخرجهم من الظلمات إلى النُّور، ومن عصر الجاهليَّة إلى عصر الإسلام؛ فخرجوا من أجل أن ينشروا النُّورَ في العالم كله إلى يوم

---

(1) متفق عليه بنحوه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (4981)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملَّته (152) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) ذكر ذلك الإمام النووي في «شرح مسلم» (1/ 2)، وقال شيخ الإسلام ابن حجر في فتح الباري (6/ 583) «وقال البيهقي في المدخل: بلغت – أي معجزاته ﷺ- ألفًا، وقال الزاهدي من الحنفية: ظهر على يديه ألف معجزة، وقيل: ثلاثة آلاف، وقد اعتنى بها جماعة من الأئمة، كأبي نُعيم والبيهقي وغيرهما.

(3) انظر: «الشفا» للقاضي عياض: (1/ 369).

(4) أخرج البزار في مسنده (7294) من طريق الفضل بن يعقوب الرخامي حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الدمشقي حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «**أي الخلق أعجب إيمانا؟**» قالوا: الملائكة، قال: «**الملائكة كيف لا يؤمنون؟!**» قال: النبيون، قال: «**النبيون يوحى إليهم فكيف لا يؤمنون؟!**» قالوا: الصحابة، قال: «**الصحابة يكونون مع الأنبياء فكيف لا يؤمنون؟! ولكن أعجب الناس إيمانًا قومٌ يجيئون من بعدكم فيجدون كتابًا من الوحي فيؤمنون به ويتبعونه، فهم أعجب الناس- أو الخَلق- إيمانًا**».

الدِّين، وما زلنا نتكلَّم عن أصحاب رسولِ الله ﷺ، ونستنبطُ من حياتهم كثيرًا من العِبَر والدروس.

إذن، فمُعْجِزَةُ الرَّسُولِ هي التي يراها قومه في حياته كسائر المعجزات التي تقدَّمت، وأما معجزَةُ الرِّسالةِ فهي التي تبقى بعد وفاة الرسولِ، وذلك مثل «القرآن الكريم» وهذا الدِّين قد لفت النظر إلى الوَحْدَة؛ فمظاهره وشعائره تدعو إليها، والوَحْدَة - بمفهومها العميق- ليست فقط في توحيد الإله؛ بل هي أعم من ذلك، فعندنا إلهٌ واحدٌ نعبده، ونبيٌّ واحد، وكتابٌ واحد هو القرآن، وشهرٌ واحدٌ للصيام، وقِبْلَةٌ واحدةٌ نتوجَّه إليها، وموسمٌ واحدٌ للحج؛ والحج «عرفة»، وهو أيضًا يومٌ واحدٌ نَقفُ فيه لرب العالمين، نذكره وندعُوه سبحانه وتعالَى.

لأجل أنَّ نبينا واحد، وهو خاتم النبيين والمرسلين؛ كان لابد أن يبلغ عنه ويقوم مقامَه أُناسٌ يبلغون عنه ولو آية، كما قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(1). وكذلك كان لابد من أن يُحْفَظَ الكتاب؛ لأنَّه لو حُرِّفَ فمن ذا الذي يأتي من بعده ﷺ؟!

ولو أنَّنا فرضنا أنَّ الأنبياء تأتي بعد النَّبِيِّ الخاتم ﷺ لتشتتت الأمَّة؛ فمع كل نبي كان سيأتي، كانت ستؤمن به طائفة وتكفر به طائفة، على ما جرت عليه عادةُ البشر وسُنَّةُ الله- سبحانه وتعالى في التاريخ، ولكن رَسول الله ﷺ لما كان واحدًا كانت الأمة واحدةً؛ ولذلك لا شرذمة ولا تَفَرُّق ولا تكفير لأهل القِبْلَة؛ وذلك بسبب ختم الرسالة والنبوة، فالنَّبِيُّ ختم الرسالة، وبذلك أصبح القرآن الكريم هو الموردَ الوحيدَ للهداية إلى يوم الدين.

يسر القرآن أحد أوجه إطلاقيته:

وأحد وجوه إطلاقية القرآن الكريم وعدم محدوديته، هو سهولة الاتصال بين البشر وبين

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (3461) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما به.

هذا الكتاب ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]، فقد يسره الله سبحانه وتعالى للقراءة والفهم والأخذ عنه، وذلك على كافة المستويات وكافة العقول ومختلف الثقافات، فمجرد أن يفتح الإنسان كتاب الله إلا ويصبح متصلًا مع الهدي الإلهي المطلق اللامحدود، الذي يحمل الإجابة التامة الشافية المعصومة لكل سؤال أو خاطرة تتعلق بالكليات والجزئيات، في ما يتعلق بحياتنا على هذه الأرض ومهمتنا فيها، وعلاقتنا بالكون من حولنا، وعلاقتنا بخالق هذا الكون سبحانه وتعالى، بالإضافة إلى منظومة كاملة من القيم والمبادئ الكلية الصالحة لكل زمان ومكان، وكذلك يرى الناظر فيه قانونًا تشريعيًّا متكاملًا يضبط الحياة البشرية على اختلاف الظروف والأحوال، وعناصر الهدي هذه لا تفنى ولا تتبدل، ولا تلحقها الشيخوخة أبدًا فهي متجددة دومًا وكأنما نزلت الآن من السماء.

ولذلك عندما نقول إن هذا الكتاب الكريم يحتوى على الهداية للعالمين؛ فإننا بذلك نتحدث عن مظاهر إطلاقيته الكاملة المهيمنة على الكون والوجود، المحيطة بكافة صور الحياة وأشكالها، التي يستطيع الفرد العادي أن يشرف على معانيها ويتخذ منها منهجًا للحياة، وهذه أحد أوجه تيسير القرآن للذكر كما أخبرنا الله تعالى.

فعلى سبيل المثال قيم الرحمة والعدل، أو قيم المحبة والعمل، أو غيرها من القيم الفردية أو الجماعية والتي ذكرت في كتاب الله، أو المعارف والمعلومات، لا يحدها زمان أو حال؛ وإنما هي متجددة صالحة منتجة ذات طبيعة حية مرنة لا تتوقف أبدًا ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 25] بما فيه صلاح الإنسان وهدايته في كل زمان ومكان.

إطلاقية القرآن والدور الحضاري لأمة الإسلام:

وعندما نتكلم عن إطلاقية القرآن الكريم، فإن ذلك يأخذنا إلى أن من مظاهر ومعاني هذه الإطلاقية فيما يتعلق بأمة الإسلام هو الدور الحضاري لها تجاه البشرية كما جاء في كتاب الله عز وجل، فكما هيمن القرآن الكريم ومعانيه على الكتب الإلهية السابقة، كذلك كان للأمة التي أنزل عليها هذا الوحي نصيبًا زائدًا من التكليفات الحضارية تجاه الجنس البشري ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 142].

فعندما رفُع تكليف حمل لواء الهداية الإلهية من الأمم السابقة، وحملته هذه الأمة للعالمين، وأصبحت أمينة على ميراث جميع الأنبياء والمرسلين، جعل الله سبحانه وتعالى كتابها يتميز بتناسب مبادئه وقيمه مع عالمية الدعوة الإسلامية، سواء لمن آمن بالإسلام ودخل فيه أو من لم يؤمن به.

فهذه الإطلاقية القرآنية في المعاني والمحتويات، جعلت للأمة المسلمة القدرة على قيادة الحضارة البشرية على اختلاف الأجناس والأعراق والملل، وحفظ هذه الحضارة وإنجازاتها وتحقيق العدل في هذه الحياة، ورعاية صور ومنجزات خلافة الإنسان في الأرض ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [البقرة: 110].

فإطلاقية الكتاب الكريم وعدم محدودية معانيه، هي التي وفرت لهذه الأمة الأدوات العلمية والفكرية والعملية والأخلاقية والتشريعية التي تستطيع من خلالها قيادة العالم، فإذا أحسنت الأمة الاستفادة بما احتواه هذا الكتاب الكريم؛ فسوف تمسك براية قيادة العالم فتحقق بذلك أحد معاني الوسطية المذكورة في كتاب الله، والتي تجعل من أمة الإسلام المحور التي تدور حولها باقي الأمم في صورة من التكامل والتعاون البشري، وهذه أحد الوجوه التي أمر الله بها في كتابه حيث جاء الأمر عامًا مطلقًا غير مقيد بأمة الإسلام فقط، فقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2] فهذه

الآية الكريمة جمعت مفاتيحَ فلاح الجنس البشري في هذه الحياة الدنيا وكانت مفتاح السعادة في الآخرة للمؤمنين.

النسبي والمطلق وأثرهما في المعارف والحياة:

المتأمل في الفكر الإسلامي يجد أن المسلمين قد آمنوا بالمطلق، واعترفوا بالنسبي وإيمانهم بالمطلق تمثل في إيمانهم بالله، فالله سبحانه وتعالي كان قبل الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وهي الجهات الأربع التي تحكم الواقع المعيش، والتي ينسب إليها ولذلك نسمي هذا المتغير بالنسبي؛ نسبي في الزمان، أو نسبي في المكان، أو نسبي في الأشخاص، أو نسبي في الأحوال، والله سبحانه وتعالي هو المطلق الفرد الذي لا يحده شيء من ذلك كله.

وآمنوا بإطلاقية القيم فالعدل عدل في كل ذلك ـ أعني هذه الأربع ـ والرحمة رحمة والظلم ظلم، والقسوة قسوة،ولذلك نري في القرآن الكريم قوله تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8] ويقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: من الآية 152].

فالإيمان بالمطلق بهذا المعني أحد أركان الإسلام، والمكون الأساسي للعقل المسلم، فهو من النموذج المعرفي الذي يواجه به المسلم الواقع، ويفسره به ويقومه من خلاله. وقد نستطيع أن نعرف العلمانية بأنها تؤمن بالنسبية المطلقة، وأن الإيمان بالنسبية المطلقة هو الذي يمثل ما اسماه الدكتور عبد الوهاب المسيري «بالعلمانية الشاملة». وحينئذ فلا بأس عند ذلك المعتقد أن ينكر الله، ولا بأس عنده أن ينحيه من التلقي منه سبحانه وتعالي، أو من تهميشه من الحياة وتحويل مسألة الإيمان بالله إلي مسألة شخصية جانبية تمثل إيمانا خاصا ولا تمثل قضية للوجود.

وهذه النسبية المطلقة تؤثر كثيرا في التفسيرات اللغوية، وتجعل الكون لا حقيقة له في نفسه، بل انه كما يراه الراصد، وكما يراه كل إنسان على حدة، فليس للأشياء حقيقة ثابتة، وهو ما ينقلنا إلي مذهب السوفسطائية القدماء، والي مذهب الغنوصية الحلولية، والتي يتصور الإنسان فيها الله جل جلاله داخل الكون وليس مفارقا له.

وهو التيار الذي شاع في أواسط حركة ما بعد الحداثة وكاد يتحكم في التيار العام للفكر الغربي في العصر الحديث، وعليه يمكن لنا أن نطبق هذا المدخل على تفصيلات تزيده وضوحا في كيفية التعامل بواسطته مع النصوص الشرعية ومع الواقع المعيش.

1ـ إن هناك فارقا بين معني إطلاقية القرآن، وبين تفسيره بصورة واقعية وبين تفسيره من خلال منظومة النسبية المطلقة، فإطلاقية القرآن عرفها تاريخ الفكر الإسلامي في صورة القول بأنه غير مخلوق، وكلنا يتذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل -إمام أهل السنة والجماعة وأحد الأئمة الأربعة المتبوعين إلي يومنا هذا - حيث وقف وقفة صلبة في قضية الدعوة لخلق القرآن، والتي تؤدي مباشرة إلي انه محصور في زمانه أو مكانه أو للأشخاص الذين خاطبهم أو في الحال الذي نزل فيه؛ وهو الأمر الذي رفضه جماهير المسلمين؛ لأنهم يعلمون لازم ذلك المذهب، وهو ما يسميه بعضهم في العصر الحاضر بتاريخنية القرآن، بمعني أنه نزل لعصر بعينه، وأن العصر قد انقضي بظروفه وأشخاصه ومصالحه، وأنه لم يبق لنا من القرآن إلا ما يمكن أن نؤمن به، أو نستعمله في عصرنا الحاضر، ويتم بذلك تنحية القرآن عن واقع الناس وتنحيته عن كونه كتاب هداية وتنحية الإسلام عن عالميته، وعن مفهوم النسق المفتوح الذي جاء به ولم يفرق فيه بين عربي وأعجمي ولا بين أبيض وأسود ولا بين رجل وامرأة، كما انه يفتح القول بالنسبية المطلقة التي نراها قد أدت إلى نفي حقائق الأشياء.

أما التفسير الواقعي فهو يؤمن بإطلاقية القرآن وأنه متجاوز للجهات الأربع المذكورة، وأنه غير مخلوق بل هو كلام الله، وكأن القرآن قد نزل الآن وكأنه دائما يخاطب قارئه، وهو دائما كتاب هداية لا يتصادم مع الواقع المعيش لكنه يقيده بأخلاق مطلقة وبقيم ثابتة، وفيه

من الأنظمة ما جعله الله سبحانه وتعالي ثابتا كنظام الميراث، وفيه من الإجمال ما جعله الله صالحا لكل زمان ومكان، وبذلك نراه حمالَ أوجه، كما وصفه سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأرضاه؛ عندما قال لعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو يفاوض الخوارج: «لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوهتقول ويقولون»(1).

وكما وصفه رسول الله ﷺ فيما يرويه علي بن أبي طالب أنه قال: «**إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ**» قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْمَخْرَجُ؟ **قَالَ: «كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وهُوَ الْفَصْلُ ولَيْسَ بِالْهُزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، ومَنِ ابْتَغَى الْهُدَى – أَوْ قَالَ الْعِلْمَ – مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، هُوَ حَبْلُ الله الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لم تَنته الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ – حَتَّى قَالُوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، **مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(2).

ونحن نرى في القرآن قواعد كثيرة تنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بوضع المبادئ والأسس لهذه المناحي من مناحي الحياة، ولكنها لا تدخل في التفاصيل الجزئية لمرونتها، وهي التي في هذا المقام يمكن أن نسميها «بنسبية جزئية»، أي أنها ليست نسبية مطلقة تصل إلى حد اختلاف التضاد؛ بل هي نسبية جزئية تشتمل على اختلاف التنوع الذي نقدر معه على تحصيل تلك المرونة.

كل هذا كان مقدمة لابد منها لمناقشة هذه القضية، التي نرجو أن نتوصل فيها إلى أسس

---

(1) انظر: نهج البلاغة– شرح الإمام محمد عبده– وصية رقم 315.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن (2906)، والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن (3331) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

تميز بين الغث والسمين في قضية تفسير القرآن في العصر الحديث.

ولذلك فكان من المهم إدراك مظاهر هذه الإطلاقية القرآنية.

مظاهر الإطلاقية القرآنية:

١- ثبات اللغة بين المعاني الأصلية والتابعة:

القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب وما دام هو نص يتعلق فهمه بإدراك اللغة، فدائما يكون له معنى أصلي، ويكون له معنى تابع، أما المعنى الأصلي فهو ذلك المعنى الذي يمكن أن يترجم من لغة إلى لغة أخري، والذي يستفاد من دلالة الألفاظ في صورتها المعجمية، ومن تراكيب السياق، وما يتبادر منها إلي ذهن أهل تلك اللغة، مع مراعاة التطور الدلالي للألفاظ، والذي نراه مختلفا في اللغات المقدسة ونعني بها تلك التي بها نصوص مقدسة تتعلق بالأديان«كالعبرية والآرامية والسنسكريتية والعربية»، وهو أمر يختلف عن قداسة اللغة.

والمعنى الأصلي تعدده محصور، أما المعنى التابع فهو أكثر تعددا، وأكثر احتياجا إلى الضوابط التي لا تجعله يميل إلى الرمزية، أو يوغل في الإغراب، ومن شروطه المهمة ألا يكر على المعنى الأصلي بالبطلان؛ بل يضيف إليه معنى جديدا، ينضم إليه ولا يلغيه، وقد يكون هذا هو الفارق المهم بين التصوف السني الذي فهم معاني كثيرة من النصوص الشرعية خاصة القرآن الكريم ضمها إلى المعنى الأصلي الذي تمسك به، وبين الباطنية التي جعلت ذلك المعنى التابع قاضيا علي المعني الأصلي؛ بحيث صار هو الأصل والمعنى الأصلي هو الحجاب للفهم، ولقد ألف الإمام الغزالي كتابه«فضائح الباطنية» من أجل الكشف عن هذا المعنى، والرد عليهم، وبيان فساد مذهبهم؛ لأن مزية القرآن أنه جاء خطابا للعالمين، فلا يمكن قبول نظرية التفسير الرمزي أو الباطني الذي يجعله مفهوما عند بعض الناس وغير مفهوم عند أكثرهم.

إلا أن اللغة قد اشتملت على ما سماه علماؤها فيما بعد بالحقيقة والمجاز، أما الحقيقة فهو أن نستعمل اللفظ في معناه الذي وضعه واضع اللغة ابتداء، وواضع اللغة عند جماهير علماء

المسلمين هو الله سبحانه وتعالي ويستدلون علي ذلك بقوله تعالي: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: من الآية31] والأسماء هنا هي ألفاظ وضعت بإزاء معان أو ذوات وأعيان معينة، وهذا هو حقيقة الوضع اللغوي هو جعل اللفظ بإزاء المعني، أما المجاز فهو استعمال ذلك اللفظ في معنى لم يوضع له، ويدل على ذلك قرينة ولابد من وجود علاقة بين اللفظ وبين هذا المعنى.

ولقد عدوا هذه العلاقات التي يمكن أن تكون بين اللفظ وبين معانيه الأخرى سوى معناه الحقيقي، فوجدوها أكثر من خمس وعشرين علاقة منها: دلالة اللفظ على جزء معناه، أو دلالته على معنى أعم، أو دلالة على المحل، أو على الحال، أو باعتبار ما سيكون، أو باعتبار ما كان... إلى آخر هذه العلاقات التي اهتم بها علماء البلاغة، واهتم بها أيضا علماء أصول الفقه من أجل فهم صحيح مؤسس علي منهج علمي رصين للنص الشرعي سواء أكان كتابا أم سنة.

ولم يقع مفسرو القرآن في عمومهم في إنكار المجاز، فلم ينكر المجاز إلا الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، ثم تبعه بعد ذلك الشيخ ابن تيمية لتوجهات عقدية رآها ولم يوافقه عليها جماهير العلماء وجل المفسرين، وبالرغم من ذلك أطلق العلماء قاعدة مهمة وهي«أن المجاز خلاف الأصل»، فالأصل في الكلام هو الحقيقة، ومعنى هذا أن أغلب الكلام إنما يكون على الحقيقة، وأن السامع يحمل الكلام المسموع ابتداء علي الحقيقة، فالحقيقة هي التي تتبادر بالذهن أولا، ووضع علماء الأصول في هذا المقام قاعدة جليلة تشتمل علي وظيفة اللغة من ناحية، وعلى ما من الله علينا به من فائدة الكلام، وقالوا: "الاستعمال من صفة المتكلم والحمل من صفة السمع والوضع قبلهما".

ففي هذه العبارة المختصرة إقرار بثبات اللغة التي كتبت بها النصوص، وفيها أيضا إقرار الحرية للمتكلم في استعمال كلامه لما يريد أن يعبر عنه، وأن ينقله للآخرين، وفيها أيضا إشارة

إلى وظيفة التلقي التي يقوم بها السامع، والتي يتاح لها فيها أن يحمل الكلام علي ما يمكن أن يحتمله، وشرح هذه العبارة له تعلق قوي بقضية النسبي والمطلق، وله تعلق كذلك بصلاح القرآن لكل زمان ومكان، وباحتياجه احتياجا قويا لأدوات منهجية لتفسير القرآن لا تؤدي إلي إنكار نسبية الواقع، والإغراق في الإطلاق، ولا تؤدي كذلك إلي انفراط التفسير بحيث لا يبقي للدين هُوية، ويقول فيه كل من شاء ما شاء! لأن هذا ضد أصل المعتقد، وأصل الواقع، من لزوم بقاء المطلق والنسبي أثناء إدراكنا للنص وإدراكنا للواقع والوصل بينهما.

2- عدم مخالفة حقائق القرآن لحقائق الأكوان:

ومن مظاهر هذه الإطلاقية أيضا عدم مخالفة الحقائق القرآنية للحقائق الكونية، ولقد قررنا في مرات كثيرة أن هناك معنى صالحا في إطلاقهم كتاب الله المسطور على القرآن، وكتاب الله المنظور على الكون، وأشرنا إلى التطابق بينهما، وهو يعني أنهما قد صدرا من الله سبحانه وتعالى؛ فالقرآن صدر من عالم الأمر، والكون صدر من عالم الخلق، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: من الآية 54].

وفي نفس السياق تأتي قضية القراءتين، وهو أن هناك قراءة للقرآن، وقراءة للأكوان تشير إليها آيات سورة العلق وهي أول ما نزل، حيث كرر الله فيها الأمر بالقراءة وعلق الأولى على الخلق والثانية على الوحي فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 1-4].

والقلم إشارة إلى الوحي كقوله تعالي: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: 1] نرى هنا أنه بدأ بالخلق وثنى بالوحي، وكأن الإنسان لابد عليه أن يطلع على العالم وما حوله؛ ليكون قادرا على فهم الوحي، وكذلك لابد عليه من إدراك الوحي إدراكا صحيحا، من أجل أن يغير واقعه نحو التغيير الصحيح، ولذلك نرى أن الخلق والأمر يتكاملان في دائرة واحدة، يصح أن نبدأ من أي نقطة منها فنصل إلى تمامها، ونرى قوله تعالي: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: 1-3] فيه إشارة إلى تلك الدائرة.

ولذلك نرى أن النعي على مطابقة النص القرآني للواقع، وإنكار ذلك بصورة مطلقة ليس بسديد، لأنه فيه سد باب القراءتين من ناحية، وفيه إنكار للواقع من ناحية أخرى إن القرآن الكريم نزل مركبا يرسم شبكة علاقات، يستطيع المتدبر فيه استنباط مبادئ ومقررات كثيرة من تقاطعات هذه الشبكة، وكذلك الواقع في تطوره وتدهوره يكون شبكة، وليس دالة خطية كما يعبر علماء الرياضيات.

3 – احتواء القرآن على منظومة للقيم المطلقة:

منظومة القيم هي من باب المطلق؛ فمفهوم العدل ثابت عبر العصور، وثابت أيضا في كل المجالات، فالعدالة الاجتماعية لا فرق بينها وبين العدالة في القضاء، أو في السياسة، أو في الفكر، والخروج عن العدالة في أي مكان أو في أي زمان أو في أي مجال يعد ظلما وزورا، ورغم وضوح هذه الحقيقة البسيطة إلا أنها قد أصبحت محل نظر من خلال عقائد نسبية تمسك بها أصحابها، فرأيناهم يتخلون عن العدل من أجل القوة أو المصلحة أو بعض المواقف الشخصية، ولا يعدون ذلك ظلما بل يسمونه بالواقعية وسياسة الأمر الواقع والمصلحة العليا، إلي آخر هذه العبارات التي إن دلت على شيء فإنما تدل على التدليس والغش.

ومجموعة النصوص التي تثبت العدل وتقره قطعية تتمثل في قوله تعالي: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]. وفي قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: من الآية 152]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58] وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

ومن السنة قول النبي ﷺ: «**لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت وإذا حكمت**

عدلت وإذا استرحمت رحمت»[1]. وقوله ﷺ: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[2] وكذلك ما يرويه ﷺ عن رب العزة حيث قال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علي نفسي وجعلته بينكم محرما**»[3] وقد سئل النبي ﷺ ما العصبية؟ فقال: «أن تعين قومك علي الظلم»[4] والعدل من أسمائه تعالى.

وكثيرا ما يمثل عدم إدراك معني النسبي والمطلق عائقا لفهمنا لكثير من المواقف غير المنطقية التي تحدث يوميا في السياسة العالمية، أو في مواقف الدول والعلاقات الدولية، بناء علي أننا آمنا بالمطلق وجعلناه مقياسا للحق، وأننا لا نتصور أن أحدا من العقلاء يتلون هذا التلون العجيب من النقيض إلي النقيض، بدون أي تأنيب ضمير أو مراجعة لتصرفاته بل إنه مقتنع بما يفعل ماض في ذلك.

وفي حلقة نقاشية مع مؤسسة ألمانية حول قضية العدالة، ذكرت أن العدل في الإسلام اسم من أسمائه تعالي، وعلق أحدهم علي ذلك بأن هناك في العقائد اليونانية القديمة إله العدل وأفهمته حينئذ الفرق بين النسبي والمطلق، وكيف أن إله العدل هذا الذي لا وجود له، والذي كان مجرد صورة في أذهان من أنشأه قد تغير بتغير تلك الصورة، وتغير أيضا عندما فهم الناس أنه ليس هناك آلهة متعددة.

أما العدل الذي هو صفة من صفات الباري سبحانه وتعالي فهو يلزمنا بالعدالة؛ لأنه قد

(1) أخرجه أبو يعلى في مسنده(7/ 98)، والطبراني في الأوسط(1/ 243) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (5/ 196) وسكت عنه.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغصب، باب: الظلم ظلمات يوم القيامة (2447) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (2579) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(3) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم (2577) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(4) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب: في العصبية (5119)، والطبراني في الكبير (22/ 98)، والبيهقي في السنن الكبرى(10/ 234) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ألزمنا أن نتخلق بأخلاقه وأن نمتثل أوامره امتثالا ثابتا، لأنه سبحانه هو الباقي وعرفت مدي استعداد هذا العقل ـ الذي كان يؤمن أولا بآلهة متعددة ـ لقبوله لهذه النسبية المفرطة، ثم جرنا الحديث عن العدل إلي القضية الفلسطينية؛ وإذ بأحد المعقبين يقول: إن تمسككم بالعدل هو الذي يعطل القضية، فيجب عليكم أن تجلسوا للمفاوضات وأن تقبلوا بالممكن والمتاح، وهو يمكن أن تطالب به وليس لكم أن تطالبوا بالعدل لأن العدل ليس ممكنا بل هو عائق ومانع للوصول إلي السلام.

وقلت له: إن الجلوس إلى المفاوضات شيء ومفهوم العدل شيء آخر، فالجلوس إلي المفاوضات لازم من أجل الوصول إلي السلام، وإلي ارتكاب أخف الضررين، وإلي الوصول إلي أمن الناس، والحفاظ علي مقاصدهم الرئيسية من حفظ النفس والعقل وحقوق الإنسان وكرامته ونحو ذلك، إلا أن نتائج هذه المفاوضات تحكم بمبدأ آخر معروف في السياسة وهو مبدأ (خذ وطالب). فإذا كانت السياسة هي فن الممكن فإنها لا تقف عند الحصول على جزء من الحق، وإنما بعد ذلك تعيد المطالبة بما هو ممكن، وتستمر هذه المطالبة حتى تتحقق العدالة.

أما إنكار مفهوم العدالة في نفسه ووصفها بأنها لا تغني ولا تسمن من جوع، فهو أمر خطير نتج من ضغط الحالة الإسرائيلية على العقل الغربي ضغطا شوهه من ناحية، وجعله خارجا عن حد المنطق من ناحية أخرى، وما كان له ذلك إلا لتقديم النسبي على المطلق لتحقيق المصالح.

ومن خلال هذا المعنى يمكن أن نفسر مواقف دول الشمال ودول الجنوب فيما يتعلق في اتفاقية الجات وحقوق الملكية الفكرية واستخدامات المواد الخام، بل فيما يتعلق بمفهوم الحضارة الواحدة ومفاهيم النهايات، نهاية التاريخ ونهاية الإنسان ونهاية الحضارة إلي آخر ما أطلقوا عليه (**ENDS**) وهذا الوضوح في التفريق بين النسبي والمطلق ليس شائعا عند كل أفراد العالم الغربي أو العالم الحديث، بل إنه كذلك في أذهان القيادات ومتخذي القرار، سواء في مجال

السياسة أو الفكر وعند كثير من أساتذة الجامعات والمشتغلين بالإعلام، ولذلك نرى أيضا أن كثيرا من أفراد الشعوب يشعرون بذلك التناقض بين الإيمان بالقيم المطلقة وبين قرارات حكوماتهم وقياداتهم وتصرفاتهم، ومن أجل ذلك نرى كثيرا من مؤسسات المجتمع المدني تعترض على الحرب في العراق، وتعترض على العولمة وتعترض على الصهيونية ونحو ذلك.

فهم لا يتصورون أن هذا لتقديم النسبي على المطلق، أو لإنكار المطلق نفسه، ومذهب النسبية منقوض من داخله؛ حيث إن الإيمان بالنسبية المطلقة في حد ذاته يشتمل على مطلق، فلا يستطيع أحد حتى أولئك أن يتخلصوا من الإيمان بهذا المطلق وكأنه يرغمه على الإيمان به.

لقد تأثر المسلمون في كتابة أدبياتهم بفكرة النسبي والمطلق، فنراهم يبدأون بالإقرار بالإيمان بالمطلق، وبما يؤدي إليه ذلك الإيمان من الإيمان بالله وبرسله وبالقيم السامية العالية التي شرحناها من قبل، ويتمثل ذلك في بدايات الكتب حيث يبدأون بـ «بسم الله الرحمن الرحيم». والتي نحت منها في لغة العرب كلمة«البسملة» للدلالة عليها حيث كثر استعمالها في البدايات، ثم يتبعون ذلك بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتفننوا في صياغات الحمد كثيرا، ثم يذكرون الصلاة على النبي ﷺ.

ويعللون ذلك وهم يشرحون كلامهم بأن في هذا «البدء بالبسملة والحمدلة» اقتداء بالكتاب الكريم؛ حيث بدأ بفاتحة الكتاب بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2-1] ولقوله ﷺ: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر**»[1] وفي رواية«**بحمد الله**»[2] وفي رواية «**ذكر الله**»[1].

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء«2/ 156» وعزاه لأبي داود من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحسنه،ولكن في «سنن أبي داود» المطبوع في كتاب « الأدب» باب « الهدي في الكلام» (4840) بلفظ: «**كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم**» من حديث أبي هريرة أيضًا.

(2) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» «6/ 127»، وابن حبان في «صحيحه» (1/ 173)، والدارقطني في سننه (1/ 229) والبيهقي في «السنن الكبرى» (3/ 208) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذكر الصلاة على النبي ﷺ امتثالا لقوله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّ الله وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]. وطلبا للثواب العميم الذي ورد في قوله ﷺ: «**من صلي علي واحدة صلي الله عليه عشرا**»(2) وأداء لواجب النبي ﷺ في نفوسنا من تعظيمه وتوقيره وحبه.

وفي أثناء مقدمات الكتب التي ينبغي أن تتم فيها دراسة واعية للبدء بهذا الإقرار (أعني الإقرار بالمطلق)، يذكرون قضية الخلق والكون من حولنا، ويذكرون نعمة الله علينا بالتعلم، وبالأمر والنهي والتكليف، ويذكرون شيئا من هموم الدنيا وعوارضها وشواغلها ومشاغلها، ويقرون بمحدودية الإنسان وبضعفه وبأنه يحتاج أن يضيف الاستغفار لله رب العالمين مع طلب المعونة والتوفيق إلى ذلك الحمد الذي بدء به، وقد يقرون مع ذلك بالشهادتين كمدخل معرفي يربط ما يقولونه من نسبي بما يؤمنون به من مطلق، وهو تأكيد لاحتياج النسبي للمطلق.

وتراهم يقولون في نهاية اجتهادهم أو بحثهم«والله تعالى أعلى وأعلم» أو«والله أعلم». وهي كلمة حكيمة تدل على أمور منها: أنه يعلن أن علمه محدود وأن حواسه التي تتلقى الواقع من حوله محدودة، وأن الدماغ الذي هو محل التفكير وأداته محدود كذلك، ومعنى هذا أنه مع اجتهاده وتعامله مع الواقع وبحثه، يعترف بأنه محدود، ويبدو أن الذات لا تتضخم حينئذ، ولا يغتر الإنسان بما قد توصل إليه، ويترك فرصة كبيرة من ورائه لقضايا القطع واليقين والجزم في مقابلة قضايا الظن.

=

(1) أخرجه الداراقطني في سننه (1/ 229) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (6/ 189) ومعمر بن راشد في «الجامع» (11/ 163) من حديث رجل من الأنصار يرفع الحديث.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب: الصلاة على النبي ﷺ (408) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ومن حكمة هذه المقالة أيضا أن ذلك العالم عنده استعداد لتغيير ما قد يكون قد أخطأ فيه وأنه يرجع عنه فورا إذا ما تبين له الحق بالبرهان، وأنه يعلن أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ولذلك فإنه لا يحترق أبدا كما ذهب إليه بعضهم، ومن حكمة هذه المقالة أيضا أنه يرجع العلم إلى أهله لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم كما في قوله تعالي: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5] وفي قوله تعالي: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114] وفي قوله تعالي: ﴿وَاتَّقُوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله﴾ [البقرة: 282] بل في أصل الخلقة حيث يقول: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31].

ورد العلم إلى الله يفيد فائدتين عظيمتين: الأولى: مستوى التفكير المستنير الذي يربط ظواهر الحياة بحقائقها، وهي أن هذه الدنيا مخلوقة لخالق، وأن الله سبحانه وتعالي لم يدعنا بعد ما خلقنا عبثا. فيقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]. والفائدة الثانية: فائدة نفسية ترجع إلي العالم نفسه، الذي يزداد تواضعا لله كلما ازداد علمه، والذي يعلم عن يقين معني قوله تعالي: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]. ومعنى قوله تعالي: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]. ومن الحكم أيضا لهذه المقولة العظيمة أن العالم يترك مساحة للبحث بعده من غيره من العلماء.

وهذه المعاني السامية التي أحاطت بقول العلماء«الله أعلم»، قد تجاوزها كثير من المتصدرين بغير علم فيما لا يعنيهم، والذين نصحهم رسول الله ﷺ فقال: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**»(1) فتري هؤلاء يتصدرون لكل أنواع المعرفة من غير علم، ويظنون أنهم إذا أنهوا كلامهم بقولهم«والله أعلم» قد نجاهم ذلك من المسئولية ومن الحساب أمام الله والأمر ليس كذلك؛ بل إن الله سبحانه وتعالي أرشدنا إلي مسئولية الكلمة وإلي أهميتها، فقال

(1) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب: فيمن يتكلم بكلمة يضحك بها الناس(2317)، وابن حبان في صحيحه (1/ 466) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رسول الله ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»(1)، وقال أيضا: «**من أُفتِي بغير علم كان إثمه علي من أفتاه**»(2).

نموذج من مرعاة العلماء لقضية المطلق والنسبي:

وها نحن نرى علماء الإسلام في كتبهم- حتى في دقائق المسائل- قد راعوا قضية المطلق والنسبي بصورة علمية دقيقة، خاصة من خلال اللغة فيما هو وصلة بين الخالق والمخلوق، فتراهم يقررون أنه يجب أن نخرج الذات العلية ـ سبحانه ـ عن سياق الكلام عن الأكوان، وأن يختص سبحانه ويستثني مما تقتضيه استعمالات ألفاظ اللغة، يؤيد ذلك قول الشيخ الأمير: «والاسم الكريم حقيقة، وقال في الإتقان: الأعلام واسطة بين الحقيقة والمجاز، وكأنه لاحظ أنها ليست من موضوعات اللغة الأصلية، ولا يخفاك أنها لا تضعف عن اصطلاح التخاطب، والظاهر عدم المجازية فيه بوجه من الوجوه، ولو قلنا أنه كلي وضعًا وأنه في الجزئي-باعتبار خصوصه- مجاز؛ إذ لا مانع من استثناء أسمائه تعالى، وتخصيصها بمزايا كما جعلوا تعريف علميته فوق الضمير... إلى غير ذلك»(3).ا هـ.

وكذلك ما ذكر في حاشية الشيخ حسن العطار حيث قال: «أما باعتبار كون مدلول لفظ الجلالة ذات الرب تبارك وتعالى، وكذلك الرحمن الرحيم- فمما يجب صون اللسان عن الكلام فيه من مثل هذه الأمور؛ فإن المقولات أجناس عالية للجوهر والعرض، والواجب

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب: في المشورة (5128) والترمذي في كتاب الزهد، باب: ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ (2369)، ابن ماجة في كتاب الأدب، باب المستشار مؤتمن (3745).

(2) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب: التوقي في الفتيا (3657)، والحاكم في مستدركه (1/ 183-184) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(3) حاشية الأمير على شرح الملوي على الاستعارات في شرح البسملة (ص3).

تقدس وتعالى يستحيل اتصافه بواحد منهما»[1].اهـ.

فيا ليتنا نقرأ تراثنا بطريقة جديدة تمكننا من استخراج كنوزه والاستفادة منه مع إدراكنا التام للواقع المعيش ولمقتضيات الحياة المعاصرة فلعل ذلك يعيد إلينا شيئا من إنسانيتنا ولعل ذلك يعيد إلينا شيئا من التفكير المستقيم.

علوم القرآن نسق مفتوح:

من أوجه الحديث عن إطلاقية القرآن الكريم وعدم محدودية علومه ومعانيه ومفاهيمه ومعارفه ومعلوماته، هو بيان أن الاستمرار من خصائص العلوم والمعارف القرآنية، فكما أنه عميق وشامل في دراسته، كانت لهذه العلوم والمعارف صفة الاستمرارية

فقد لاحظنا في مجال الدراسات القرآنية أنَّ القرآن ليس كعلوم السنة التي انتهت، ولخصها الحافظ ابن الصلاح من ناحية المصطلح في «مقدمة ابن الصلاح»، أو أبدع الحافظ السخاوي فجمع كل ما هنالك في: «فتح المغيث»، أو فعل مثله الحافظ السيوطي في: «تدريب الرواي» وانتهى الأمر، ولا يأتي أحد بعد ذلك بجديد!! بل استمرت البحوث المتعلقة بعلوم القرآن إلى يومنا هذا، ولا يمكن حصرها وتقنينها، بل لا بد من بقاء طرائق توليد العلوم من القرآن ليبقى هاديًا لكل زمان ومكان.

والمقصود أن البحوث القرآنية لا تنحصر، وأنها مستمرة، وأنها عميقة شاملة، وأنه لا بد من توليد العلوم من القرآن الكريم كلما اتسعت الأسقف المعرفية، مع اختلاف ثقافات الأمم، ومقتضيات العصور.

وهذا المعنى مناسب تمامًا لكون كتاب الله مجردًا، يتعالى عن الزمان والمكان، فيه حظ من الهداية لكل عصر، مما يوجب على المسلمين النهوض للقيام بهذا الوجه الجليل من وجوه خدمة القرآن.

---

(1) حاشية الشيخ حسن العطار على شرح المقولات لشيخه أحمد السجاعي (ص3).

ولذلك قال الإمام الزركشي في كتاب: «المنثور في القواعد»: «كان بعض المشايخ يقول: العلوم ثلاثة: علم نضج وما احترق، وهو علم الأصول والنحو، وعلم لا نضج ولا احترق، وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج واحترق، وهو علم الفقه والحديث».

وقد شاعت هذه العبارة في الكتب واستظرفها أهل العلم ورغم ما لنا من التحفظ على ما في هذه العبارة من مفهوم احتراق العلم، وتسمية استقرار الدوائر والمجالات البحثية فيه احتراقًا، فإنها تشير إلى بقاء التفسير، وما يدور في فلكه من علوم القرآن في دائرة التجدد، وقابلية الإفاضة، واستمرار التوليد والإيراد للعلوم والبحوث(1).

فالدراسات القرآنية نسق مفتوح؛ لأن كتاب الله تعالى وحي معصوم، وقد ادخرت فيه العلوم والمعارف، وقد أحكم الله آياته، وفصلها تفصيلا، وأودعها من عجائب الحكم، حتى قال رسول الله ﷺ: «لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد»(2) فوجدنا الزركشي المتوفى سنة 794 هـ يؤلف كتاب: «البرهان في علوم القرآن»، ولم يكن هناك علم قبل ذلك يسمى بـ «علوم القرآن»، بل كانت الفنون والبحوث القرآنية منثورة في الدوائر العلمية المتنوعة، والتخصصات المختلفة، بدون خيط ناظم يربطها، ويسلكها في علم خاص قائم بنفسه، حتى ابتكره الزركشي ابتكارًا، وجعله علمًا بينيًّا، يأخذ من اللغة، ومن الأصول، ومن التاريخ، ومن الحديث، ومن التفسير ومن غيرها من العلوم، ويجمعها إلى أن يلفت النظر إلى أن

---

(1) ومن العبارات الحسنة التي تؤكد أن العلوم لا تعرف الكلمة الأخيرة والانتهاء ما ذكره الشيخ الخطيب الشربيني في مقدمة ومفتتح شرحه المسنى بالإقناع حيث قال: " والفضل مواهب والناس في الفنون مراتب والناس يتفاوتون في الفضائل وقد تظفر الأواخر بما تركته الأوائل وكم ترك الأول للآخر " الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع [1/ 4] دار الفكر بيروت

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (6/ 125)، والحاكم في مستدركه (1/ 741)، والبيهقي في السنن الصغرى (541) والدارمي في سننه (2/ 523).

التجديد حتى في توليد العلوم ما زال مستمرًّ.

ولا تلقى دعوة الزركشي آذانًا صاغية، فيظل المسلمون نحو قرنين من الزمان، أو قرنًا كاملًا لا يلتفتون إلى علوم القرآن، التي سطرها أو لفت النظر إليها الزركشي، حتى يأتي الإمام السيوطي فيؤلف كتاب: «التحبير، في علوم التفسير» من غير علم ولا اطلاع على كتاب «البرهان»، ثم اطَّلَعَ بعد ذلك على كتاب «البرهان» فوجد أن ما كتبه كان موافقًا وشبيهًا بما كتب الزركشي، وأنه زاد عليه أشياء، وأن الزركشي زاد عليه أشياء، وتجمعت عنده إضافات فألف كتابًا جديدًا، سماه «الإتقان»، فلفت النظر مرة أخرى إلى علم يسمى بعلوم القرآن، إلا أن المسلمين غفلوا عن تلك العلوم وتركوها، حتى جاء شمس الدين محمد بن عقيلة المكي[1] فألف كتابًا، اسمه: «الزيادة والإحسان في علوم القرآن».

إلى أن جئنا في العصر الحديث،فأحييت تلك العلوم مرة أخرى، بدأ المؤلفون يولفون فيها من أيام الزرقاني[2] صاحب: «مناهل العرفان، في علوم القرآن»، ومحمد يوسف البنوري[3] صاحب كتاب «يتيمة البيان، في شيء من علوم القرآن» وهو كتاب مهم، والكوثري[4] وله

(1) الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عقيلة المكي، محدث الحجاز ومسنده في زمانه، ت1150هـ، ترجم له الكتاني في «فهرس الفهارس»: (2/ 607).

(2) العلامة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، من كبار علماء الأزهر الشريف، كان يدرس القرآن وعلوم الحديث في كلية أصول الدين، وكان وكيلًا لجمعية الهداية الإسلامية، ومن أهم مؤلفاته كتاب: «مناهل العرفان، في علوم القرآن».

(3) العلامة محمد يوسف البنوري ت 1397 هـ، تلميذ العلامة محمد أنور شاه الكشميري، شيخ الحديث في ديوبند، وله في ترجمته كتاب: « نفحة العنبر، في ترجمة لإمام العصر الشيخ أنور» ومن أجل كتب البنوري شرح جليل على سنن الترمذي اسمه: «معارف السنن».

(4) العلامة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ت1371هـ، صاحب المؤلفات والتحقيقات والتعليقات الكثيرة، ترجم له تلميذه الشيخ أحمد خيري في كتاب طبع مستقلًا، وطبع من قبل في مطلع كتاب: «مقالات الكوثري».

كتاب في علوم القرآن في مجلدين، والشيخ محمد أبو شهبة[1] صاحب كتاب: «المدخل إلى علوم القرآن»، حتى صارت هناك مكتبة كبيرة في علوم القرآن، والمجالات البحثية المتولدة منه، والتي تمتد منها أسباب وثيقة إلى مجالات المعارف التجريبية والإنسانية والعقلية، وغيرها من أنواع العلوم.

والذي نريد الوصول إليه من كل ذلك هو أثر هذه العلوم والمعارف في اتساع الدلالة القرآنية، وكيف أنه لا بد للمفسر من أن يستصحب كل تلك العلوم عند نظره في آيات القرآن الكريم.

ثم إن علوم القرآن يمكن أن تتسع لتشمل العلوم الإنسانية المختلفة، على غرار ما فعل الدكتور محمد عثمان نجاتي في كتاب: «القرآن وعلم النفس»، فإننا في حاجة إلى دراسات موسعة حول علوم الإدارة وعلوم الاجتماع وعلوم التاريخ، وكيفية إنشاء الجسور التي تنتفع بمنهج القرآن ومسلكه ومنهجيته وطريقة بنائه في تلك المجالات، وكيف استوعب العلماء كل تلك المعاني، بحسب ما يسمح به السقفُ المعرفي الذي كانوا يعيشون فيه، لاسيما مع كل ما في القرآن من أنساقٍ في بناء النفوس والمجتمعات.

فمصادر علوم القرآن إذًا متعددة، وتمتد لتتشابك مع دوائر علمية واسعة، وكل هذه خطوات لا بد منها في سبيل إعادة توليد العلوم من مشكاة القرآن، ووفق منهجه.

المقاصد الكلية للقرآن الكريم:

ومن وجوه الحديث عن إطلاقية القرآن الكريم كذلك احتواء هذا النص على مقاصد كلية جامعة تمثل أهداف هذا الكتاب العظيم.

---

(1) العلامة الشيخ أبو السادات محمد محمد أبو شهبة ت 1400هـ، من علماء الأزهر الشريف، من تأليفه: «الوسيط في علوم الحديث»، و«الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير»، و«توفيق الباري، في شرح صحيح البخاري».

فإنَّ النَّاظر في كتاب الله سبحانه وتعالى والمتتبِّع لآياتِهِ الكريمة يجد أنَّ جميعها تتمركزُ حولَ أهدافٍ ومقاصدَ أرادها الله سبحانه وتعالى للخلق ومِن الخلق فنجدُ أنَّ الأهداف العليا للقرآن هي: عبادة الله، وعمارة الأرض، وتزكية النفس.

ومن خلال هذه الثلاثة ستفهم وستنفتح لك أمورٌ كثيرة جدًّا، كلُّها تُفتح لك أثناءَ القراءةِ النَّسَقيَّة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7- 10].ثم بعد ذلك تنطلق بهذا إلى مفهوم العبادة(1)، العمارة، ومفهوم التزكية، وكيفية الترتيب بينهما في نَسقٍ واحدٍ، فهو كتابٌ واحدٌ فيه مفاهيم مختلفة، ترسُمُ رؤيةً واحدةً، في موضوعات شتَّى، وكل موضوع له خصائصه وبدايته ونهايته ووسطه(2).

إطلاقية القرآن ومنظومة القيم:

ومن أوجه إطلاقية القرآن الكريم احتوائه على منظومة متكاملة من القيم والأخلاق تسري في كل آيات القرآن الكريم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]، بحيث يصدق قوله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم**

(1) قال ابن فارس: العين والباء والدال أصلان صحيحان. كأنهما متضادان، والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ، فالأول: العبد المملوك... والمعبد: الذلول... والطريق المعبد: المسلوك المذلل، والأصل الآخر: العبدة وهي القوة والصلابة يقال هذا ثوب له عبدة، إذا كان صفيقا قويًا. انظر: مقاييس اللغة (4/ 206).

والعبادة في المصطلح الشرعي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

(2) ومن العلماء الذين كان لهم إسهام في هذا الباب الإمام اللغوي الفيروزآبادي كما في كتابه بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز حيث ذكر جملة من مقاصد سور الكتاب العزيز وهو مطبوع،وله كذلك كتاب مستقل بذلك واسمه الدرّ النظيم، المرشد إلى مقاصد القرآن الكريم.

مكارم الأخلاق»[1]،والقرآن يشتمل على مجموعةٍ كبيرة من القيم نخصُّ بالذِّكر منها:

1- القيم الفردية:

وهي التي ينبغي أن يتحلى بها الإنسان في نفسه، ومنها على سبيل المثال قيمة الاستقامة التي في مثل قول الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: 6] قال العلماء في معنى الاستقامة أنها تدور حول معاني: الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض[2].

2- القيم الأسرية:

وهي القيم التي تظهر من خلال معاملة كل فرد في الأسرة للآخر؛ فالزوجان كل منهما يتمثل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: 237] حيث تشير الآية الكريمة إلى قيمتي العفو والمعاملة بالفضل، وإن كان سياق الآية الكريمة يتناول حالة الطلاق فإن حصول هاتين القيمتين أثناء قيام الزوجية هو من باب أولى، وهذا يحقق معنى إطلاقية القيم، فهي لا تختص بحالة دون أخرى.

وكذلك تكون القيم الأسرية فيما بين الوالدين وأبنائهما متمثلة في قيم الرحمة الشفقة من جهة الوالدين والاحترام والطاعة من قبل الأولاد لتكتمل الدائرة بإقرار الأولاد بفضل

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (2/ 381)، والبخاري في الأدب المفرد (273)، والبزار في مسنده (8949)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (4432)، والحاكم في مستدركه (2/ 613)، والبيهقي في الكبرى (10/ 191) من طريق عبد العزيز بن محمد عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به مرفوعًا، وبعضهم يقول فيه أيضًا: «صالح الأخلاق».
وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (8/ 343): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(2) تفسير البيضاوي المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت (5 / 71)

الوالدين عليهم ويحسن برهما حتى بعد انتقالهما ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

3 – القيم الاجتماعية:

وهي القيم التي ينبغي أن يتسم بها الأفراد في المجتمع تجاه بعضهم بعضا، كالرحمة والصدق والإحسان والجدية والمحافظة على الأنفس والأعراض والأموال وغيرها مما تمتلأ به آيات الكتاب الكريم وقد جاءت جملة من هذه القيم في آيات سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 151 – 152].

4– قيم الدولة:

الدولة تظهر من خلال مؤسسات الحكم التي تقوم على رعاية شئون الأفراد في الدين والدنيا، وهي في الشريعة الإسلامية لا تنفصل عن القيم شأنها شأن الأفراد، ولذلك فكل دولة مسلمة تنطلق وتعمل من خلال القيم العليا للإسلام التي من أهمها: العدل قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58].

وكذلك تستوجب القيم على الدولة المسلمة الدفاع عن البلاد وحماية المواطنين والمستأمنين ولو كانوا على غير ديننا، وشريعة الجهاد تحقق ذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]، وكذلك تستوجب القيم حرمة اعتداء الدولة على الآخرين قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

وسوف نتعرض لسائر القيم بالتفصيل في مبحث خاص بها.

إطلاقية القرآن ومنظومته التشريعية:

ومن أوجه إطلاقية القرآن الكريم نظامه التشريعي الشامل، فمن المعلوم أن المقاصد الشرعية والقواعد الفقهية كلها أمور استنبطتها الأمة من استقراء نسق القرآن، واستخرجتها من مشكاته، فهي في الحقيقة مبادئ قرآنية كامنة وراء كل حكم أو تشريع قرآني، فإذا عرفها القارئ والتفت إليها قبل الدخول إلى القراءة والتفسير؛ فإنها تكون قد كشفت له عن جوانب جليلة، تعينه على سرعة فهم مراد القرآن ومقصوده، فمثلا تشريعات العبادات والمعاملات والجنايات والفرائض وغيرها كل منها يمثل منظومة متكاملة لها قواعدها التي أرستها آيات الكتاب الكريم، ولا يمكن لمفسر أو لفقيه أن يفسر أو يستنبط حكما إلا بعد أن يطالع تلك القواعد والمقاصد التي تخص كل جانب من جوانب التشريع؛ فكأن لكل تشريع نظامه الذي ينبغي على المفسر والفقيه ان يستقرأ آيات الكتاب التي تخص كل تشريع وضحه القرآن الكريم، وهو ما جعل كثيرًا من العلماء يميل لما يسمى بالتفسير الموضوعي الذي يجمع أطراف الموضوع أو الحكم محل البحث قبل تفسيره حتى تكون الصورة مكتملة وواضحة.

إطلاقية القرآن ترد دعاوى تاريخنية القرآن:

من الدعاوى الباطلة التي تتناقض مع أصول الإسلام وفروعه، وتتناقض مع قواعد العقل ومنطقية التفكير، ما يظهر بين الحين والآخر من محاولات لحصر القرآن الكريم وتعاليمه وأحكامه الإلهية في زمان محدود أو مكان محدود أو ظروف وحال محدود، أو ما يعرف بتاريخنية القرآن الكريم، تحت زعم أن هذه قراءة معاصرة للنص القرآني، في تفلت كامل من هيمنة النص القرآني وحكمة التشريع، حين يجعلون من تعاليمه وأحكامه وأوامره مختصة بعصر قد مضى وانقضى، ويزعمون أنها كانت لأناس بعينهم في ظروف خاصة قد انتهت، وأن هذه التعاليم والأوامر ليس علينا إتباعها؛ لأنها ليست متوافقة مع عصرنا الحديث، وهو ما يجعل الارتباط بالدين مشروط بالحالة التاريخية التي يعيشها المجتمع أو الفرد، ويزعمون في خلال ذلك أن تحقيق أهداف الدين من العبادة وتزكية النفس والروح

يقع دون الالتزام بشعائر الدين وفروضه.

وأول مظاهر إبطال هذا الباطل هو لفت الانتباه أننا نتعامل مع كلام الله المطلق الغير محدود فكيف يراد منا أن نحصر اللامحدود في المحدود.

والمسألة بسيطة وتنحصر في عدة أمور تنسف باطلهم عند كل مؤمن صادق عاقل منها:

- يقال لمن يزعم ذلك ويروج له، هل أنت تؤمن بأن القرآن من عند الله؟

فإن لم يكن يؤمن بذلك فلا كلام معه في هذه المسألة حينئذ، وإنما الكلام معه بدايةً يكون في ثبوت نسبة هذا النص الكريم لرب العالمين وإثبات أنه موحى به من الله إلى النبي.

فإن أعلن إيمانه بأنه من عند الله، فيقال له: هل عندما أعلن الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن رسالة الإسلام هي الرسالة الخاتمة، وأن النبي ﷺ آخر المرسلين، هل كان يريد بهذه الرسالة الخاتمة، وما تحمله من العقائد والأحكام والأخلاق أن تختص بفترة محدود، فلماذا يعلن سبحانه أنها رسالة للعالمين في كتابه الكريم.

- إذا كانت تعاليم القرآن وأوامره عندكم مرتبطة بزمن ومكان محدودين، فهل عندما يأمر الله البشر بالتوحيد وبقول «لا إله إلا الله» في نصوص قرآنية صريحة، فهل هذا النص أيضًا مرتبط بزمن محدود؟ وهل على ذلك يمكن لنا وفقًا لمذهبكم أن لا نلتزم بالتوحيد ونظل هكذا مسلمين؟!!!

- هل ما ذكر عن الجنة والنار في كتاب الله له حقيقة عندكم أم أنه يخضع للتاريخ أيضًا؟

فما القول بتاريخية القرآن الكريم إلا تكذيبٌ للقرآن نفسه، الذي جاء فيه أنه هدى للعالمين في الماضي والحاضر والمستقبل.﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص: 38]. وما هي إلا محاولة لتبديل المعنى الصحيح للإسلام، ولكنهم لا يستطيعون إعلانها صراحة فيستخدمون الجدل والتمويه واستخدام لغة الفلسفة بحيث يحاولون إضفاء مسحة علمية على كلام هو باطل الأصل والفرع.

وكذلك من الدعاوى الباطلة محاولة إخضاع القرآن الكريم للنسبية المطلقة فيزعمون عدم خضوعه لمنهج منضبط واضح في فهمه يقوم على أسس عقلية سليمة بحيث يصلون به إلى أن

يفهمه من شاء كما شاء، فهذا منهج ليس له قواعد أصلا، وهو منهج يريد أن يصل إلى النسبية المطلقة، وهو منهج يكر على المطلق بالبطلان، بينما هذا الكتاب الكريم قد تجاوز المشخصات الأربعة «الزمان والمكان والأحوال والأشخاص» فهو نص مطلق.

ونجمل ما سبق في أن الإلمام بهذ المبدأ المهم- مبدأ إطلاقية القرآن الكريم- ومعرفة أركانه وطرق تفعيله في المجال العلمي والعملي، والاهتمام الزائد بدراسته يمثل حائط صد دفاعي أمام الدعاوى الباطلة شرعًا وعقلًا، والتي تنادي بالقول بتاريخية القرآن الكريم، وتطالب بحبسه داخل إطار زمني ومكاني محدود، ثم ينادون بالنظر في الأحكام الشرعية الواردة في كتاب الله، من خلال هذا الإطارات المحدودة الزمنية والمكانية والبيئية بهدف تنحية تعاليم القرآن الكريم الإطلاقية، عن طريق ربطها بالمحدودات، ثم ينتظرون النجاح في ذلك الأمر؛ ليتخطوه إلى جانب الأخلاق القرآنية، ثم يصعدون إلى العقائد ذاتها محاولين تحريفها.

وأحد أهم الأدوات التي تحول دون ذلك، هو الوعي بهذا الأصل العظيم المميز لكتاب الله عز وجل وهو إطلاقيته وعدم محدوديته، والذي هو جوهر هذا الكتاب وحقيقته لأنه كلام الله غير المخلوق.

وكذلك من وجوه مقاومة هذه الدعاوى الباطلة على المستوى الفردي للمسلم:

- أن يتعامل مع القرآن الكريم ككتاب هداية ونقصد بهذا معنيين: أنه تستنبط منه الهداية فيما تتنازع فيه العقول وتختلف فيه الآراء، ومن ثم يمنح المسلم عقله للقرآن، كي يتكون هذا العقل وفق منظومة القرآن وصراطه المستقيم.

فالتعامل مع القرآن لابد أن يكون باعتباره المرجعية العليا التي يطمئن القلب والعقل إليها، لكي يأخذ عنها ويستنبط منها عناصر تحركه الذهني والنفسي والسلوكي.

وكذلك يتعامل مع القرآن الكريم باعتباره كتابا معجزا لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد كما وصفه رسول الله ﷺ، وأنه باق كمعجزة لرسالة النبي ﷺ إلى يوم الدين، وأنه محفوظ بحفظ الله – سبحانه وتعالى – له، وأنه في إعجازه وعدم انتهاء عجائبه يظهر منه في

كل عصر ما به تقوم الحجة.

ومن الأمور التي ننبه إليها ويعدُّ مفهومًا دقيقًا جدا يوضح إطلاقية القرآن الكريم ويفند الدعاوى الباطلة، وهو أن القرآن كتاب الله المسطور، وأن الكون كتاب الله المنظور، والذي أنزل القرآن هو الذي خلق الكون، والقرآن وصل إلينا كما أنزله الله، فإذا ما قرأنا القرآن قراءة دقيقة، وقرأنا الكون قراءة دقيقة، فمن المستحيل أن نجد أدنى تعارض، فكل ما اكتشفه العلم بمجهره وبالتلسكوب أو الميكروسكوب، وجدناه لا يعارض هذا النص الإلهي المقدس، لكنه عارض نصوصا أخرى بشرية حاولت تفسيره.

وغيرنا يقول: هو بتجاوزه للأربعة صار نسبيا، فهذا ليس بتجاوز، وغيرنا يقول: كل من أراد أن يغمسه في شيء من الجهات الأربعة فليفعل، أي فليقل من شاء ما شاء فهذا ضد هذا، الأول يقول: هذا تاريخ واتركه في حاله، والآخر يقول: كل منا يقول الذي يريده، وفرق كبير جدا بين هذه المعاني الثلاثة، هذه التاريخية أو التاريخانية هي التي ستجعله كأنه مخلوق، والانفلات هو الذي سيجعله ينغمس في أي جهة من الأربعة، والتجاوز هو الذي سيجعله دائما أبدا طريا غضا، وكأنه نزل الآن، كما أننا عندما ندخل إلى القرآن نفسره بإطلاقية، وهذا جزء من التفسير. أما من أراد أن يدعو إلى تاريخية تتعلق بالقرآن كما ذكرت فهذا يتبنى دعوة شبيهة ومقاربة في وجه من الوجوه لقضية خلق القرآن، التي ظهرت في عصر المأمون لكن ماذا تعني جملة خلق القرآن؟

وتعني أن القرآن شيء حادث لم يكن قبلُ، وما دام حادثا فهو محصور في بيئته، وبذلك فإنه لا يتعدى الزمان ولا يتجاوز المكان، لا يتجاوز الأشخاص والأحوال، وعلى ذلك فهو صالح للعصر النبوي، وشبيه العصر النبوي، وصالح لأولئك الذين كانوا حول النبي ﷺ فقط، فإذا تغيرت العصور وخرجت عما كانوا يسيرون فيه، فإنه لا يصلح لهذا، وهذه دعوة قد يؤيدها من أسموا أنفسهم بالمفكرين المحدثين الذين أرادوا أن يتحرروا من إطلاقية القرآن، ومن كونه متجاوز للزمان والمكان والأشخاص والأحوال، ولكننا نؤمن بهذه الإطلاقية، ونؤمن أنه ليس منحصرا في تاريخ معين ولا زمن معين، ولا في أشخاص معينين.

المبحث الخامس
المقاصد الشرعية وأثرها في فهم النص القرآني

من المداخل المهمة لفهم القرآن الكريم وقراءته القراءة الصحيحة والتوصل لمعانيه النظر في مقاصد وأهداف هذا الكتاب الكريم عن طريق التأمل في آياته الكريمة والنظر في مقاصدها فعندما يقرأ الإنسان قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]. يجد أن هذه الآية الكريمة قد جمع الله سبحانه وتعالى فيها من الأهداف والمقاصد ما يرسم منهجَ حياة فردي وجماعي متكامل يتصف بأعلى درجات الرقي والرحمة.

وبالنظر والتأمل سوف يجد القارئ لكتاب الله عز وجل وراء كل آية مقصدًا وهدفًا يمثل جزءا من منظومة كلية متكاملة تشكل ضروريات ومتطلبات الإنسان المعنوية والمادية عرفت في التراث العلمي الإسلامي باسم «مقاصد الشريعة»، والتي تعد من أهم الأبواب والمداخل لفهم كلام الله عز وجل.

أولا: تعريف مقاصد الشريعة باعتبار جُزأَيْها:

(أ) تعريف المقاصد: المقاصد لغة: جمع مقصد (مصدر ميمي من قَصَدَ):

وهو الشيء الذي (تقصده) أو (تقصد له) أو (تقصد إليه): أي تطلبه بعينه، وتتعمد أو تتوجَّه لجهتِهِ لتصلَ إليه. أمَّا الأمر الذي (تقصِد فيه) فمعناه: أن تستقيمَ فيه وتعتدلَ وتتوسَّط ما بين الإسراف والتقتير. القصد له معانٍ في اللغة:

- منها (استقامة الطريق) كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: 9] أي على الله تبيينُ الطريق المستقيم والدعاءُ إليه بالحجج والبراهين الواضحةِ ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: 9] أي ومنها طريقٌ غيرُ قاصدٍ.

- ومنها (التوجُّه إلى الشيءِ وإتيانه) تقول: قصَدتُ البيتَ الحرام؛ أي توجَّهت إليهِ لآتيه.

- ومنها (التوسُّط وعدمُ مجاوزة الحدِّ) كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: 32].- وقد نقل عن ابن جني[1] أنه رد معاني القصد كلها إلى: معنى التوجه نحو الشيء فقال: «أصل(ق ص د) ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام والتوجه والنهود والنهوض نحو الشيء على اعتدال كان ذلك أو جور، هذا أصله في الحقيقة، وإن كان يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة دون الميل، ألا ترى أنَّك تقصد الجور تارة كما تقصد العدل أخرى؟ فالاعتزام والتوجه شامل لهما جميعًا»[2].

(ب) تعريف الشريعة:

- في اللغة: تطلق على الدين، والملة، والمنهاج، والطريقة، والسنَّة، وأصلها في لغة العرب تطلق على مورد الماء الظاهرِ الذي يأتيه الشاربون.

قال في اللِّسان: «والشَّريعة في كلام العرب مشرعة الماء، وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناسُ فيشربون منها ويستقون وربَّما شرعوها دوابَّهم حتى تشرَعها وتشربَ منها، والعرب لا تسمِّيها شريعة حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له[3] ويكون ظاهرًا معينًا لا يسقى بالرشاء[4]».

فشريعة الله هي ما جعله الله تعالى موردا وطريقًا ظاهرًا للناس يترددون إليه؛ ليستقوا منه المعارف الدينية والأحكام العملية التي كلفهم بها الله عز وجل.

ثانيًا: تعريف مقاصد الشَّريعةِ باعتبار الاصطلاح:

(1) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (توفي سنة 392هـ) من تصانيفه: المحتسب في شواذ القراءات، وسر الصناعة، والخصائص.

انظر: الأعلام للزركلي (4/ 204).

(2) انظر: لسان العرب (باب الدال فصل القاف) المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري- الطبعة: الثالثة- دار صادر- لبنان- 1414هـ.

(3) قال الأصمعي: الماء العد الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها مثل ماء العين وماء البئر انظر: لسان العرب (3/ 285).

(4) الرِشاء: الحبل،انظر مختار الصحاح صـ123

لم يتعرَّض علماءُ الأصول القدماء إلى تعريف المقاصد تعريفًا اصطلاحيًّا، وإنَّما تكلَّموا عن مفهومِ تلك المقاصد، وذلك يرجع إلى أنَّ مصطلح المقاصدِ لم يُعرف قديمًا لدى الأصوليين، وإنَّما تكلَّم الفقهاءُ من المذهب الحنفي على الاستحسان، وتكلَّم المالكيَّة عن المصالح المرسلَة؛ وقد وجدنا أنَّ الحديث عن المقاصد مرتبطٌ بالحديث عن المصالح لدى علماءِ الأصول.

ومِن ذلك قولُ الإمام الغزالي: «أمَّا المصلحة فهي عبارةٌ في الأصل عن جَلْب منفعةٍ أو دفع مضرَّةٍ، ولسنا نعني به ذلك، فإنَّ جلبَ المنفعة ودفعَ المضرَّةِ مقاصدُ الخلقِ، وصلاحُ الخلق في تحصيل مقاصدِهم، لكنَّا نعني بالمصلحةِ المحافظةُ على مقصود الشَّرع، ومقصودُ الشَّرع من الخلق خمسةٌ: هو أن يحفظ عليهم دينَهم ونفسَهم وعقلَهم ونسلَهم ومالَهم، فكلُّ ما يتضمَّن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحةٌ، وكلُّ ما يُفَوِّت هذه الأصول فهو مفسدةٌ ودفعها مصلحةٌ»(1).

وإذا كان ما مر هو حديث عن المقاصد من خلال معاني المصلحة كما هو مسلك الأصوليين إلَّا أنَّ المتأخرين حاولوا صياغة تعريفاتٍ أكثر تحديدًا للمقاصد:

- فعرَّفها الطاهر ابن عاشور رحمه الله بقوله: «مقاصد التشريع العامَّة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختصُّ ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة، وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معانٍ من الحكم ليست ملحوظةً في سائر أنواع الأحكام، ولكنَّها ملحوظةٌ في أنواع كثيرة منها»(2).

- وعرفها علَّال الفاسي بقوله: «المراد بمقاصد الشريعة: الغايةُ منها والأسرارُ التي

(1) انظر: المستصفى في علم الأصول (1/ 417)، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي - المحقق: محمد بن سليمان الأشقر - مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان- الطبعة: الأولى، 1417هـ/ 1997م.

(2) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية (1/ 251) محمد الطاهر بن عاشور - تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي- دار النفائس للنشر والتوزيع - الأردن - الطبعة الثانية 1421هـ.

وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها»[1].

وعَرَّفها كذلك الشيخ عبد الله بن بيه حيث قال: "مراد الحق سبحانه وتعالى من الخلق"[2] وهو لا يبعد عمَّا ذكره الطاهر ابن عاشور وعلال الفاسي.

فعلم المقاصد علمٌ شريفٌ، جليلُ المقدار، ناشئٌ من استقراء النصوص الشرعيَّة، ودراسة نَسَقِها، ومعرفة مآلاتها، حتى نرى المعاني الكبرى التي يريدُ منَّا الشرع الشريف أن نصلَ إليها من خلال عقائده، وأحكامه، وتشريعاته، وآدابه وقيمِهِ، وأخلاقه، ولهذا العلم أثرٌ مهمٌّ جدًّا في فهم القرآن الكريم، وفي فهم قضاياه وقصَصِه، ولا بدَّ من الاعتناء به حتى نفهم القرآن الكريم فهمًا يوصلنا إلى معرفة مراد ربنا سبحانه في كتابه.

وقد أشار إلى علم المقاصد الإمام الجويني في كتاب «البرهان»، ثم حجة الإسلام الغزالي، ثم العز بن عبد السلام، إلى أن توسع الشاطبي في دراساته في كتاب «الموافقات»، وبعد ما كتب فيه الشاطبي لم يدرس في معاهد المسلمين ومدارسهم العلمية، إلى أواخر القرن التاسع عشر فظهر أناسٌ في تونس، أخرجوا عدَّة كتب في هذا الباب، فمنهم الشيخ ماء العينين الشنقيطي[3].

---

(1) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها (1/ 7) علال الفاسي – دار الغرب الإسلامي – الطبعة الخامسة 1993 م.

(2) انظر: علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه للأستاذ الدكتور عبد الله بن بيه صـ 15 مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ط.مركز دراسات مقاصد الشريعة الإسلامية

(3) مصطفى (أو محمد مصطفى) بن محمد فاضل بن محمد مأمين الشنقيطي القلقمي، أبو الأنوار، الملقب بماء العينين: قال صاحب معجم الشيوخ: وأخباره في العلم والطريق والسياسة واسعة تحتاج إلى مؤلف خاص. له كتب كثيرة، منها (شرح راموز الحديث – ط) و(نعت البدايات وتوصيف النهايات – ط) و(تبيين الغموض على النظم المسمى بنعت العروض – ط) و(مغري الناظر والسامع على تعلم العلم النافع – ط) و(مبصر المتشوف – ط) في التصوف، و(دليل الرفاق على شمس الاتفاق – ط) ثلاثة أجزاء، و(مذهب المخوف على دعوات الحروف – ط) و(المرافق على الموافق – ط)، توفي 1830 هـ– 1910م، انظر الأعلام للزركلي (7 / 243).

وكتابه «المُرافق على الموافق» يشرح فيه «الموافقات»، ولم يهتم به أحدٌ، ثم جاء من بعده الطاهر بن عاشور فأخرج كتاب «مقاصد الشريعة»، وهذا هو الكتاب الذي سارت به الركبان، وقد نشر محمد عبده ورشيد رضا في «المنار» أعمالًا في هذا الباب، والآن يُدعى إليها أن تكونَ عِلمًا، وهذا شيء حسن، ولكنَّه حراك ببطءٍ شديد، والزمن يجري ويجب علينا أن لا نُهمل هذا المعنى الذي أَيَّده عقلاء المسلمين عبر التاريخ، وبذلوا فيه الشيء الكثير؛ لأنَّ هذه القواعد هي التي تعلم التفكير المستقيم، وهي التي تنظِّم الفكر.

وحتى يتبيَّن لنا سياقَ قضيَّةِ المقاصد، وأنَّها سِبَاحةٌ وغوصٌ في بحور الشريعة، وفي نسق القرآن؛ فإننا نضطر هنا إلى شيء من الاستطراد المشتمل على فوائدَ مهمَّةٍ.

فالمقاصد الشرعية قضية ذكرها علماء الأصُول وهم يتكلَّمون عن مسألة المُناسِبِ(1)، في كِتاب القياس من علم أصول الفِقه؛ إذ هُناك أصل، وهذا الأصل وارِد في الشريعة بنصٍّ في الكتابِ أو السُّنة، وهذا الأصل له حُكم، وبالبحث والسُّؤالِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في أنَّه لماذا أعُطيَ هذا الأصل هذا الحُكم؟

استطاع العلماء أن يَصِلوا إلى العلة، وهي السبب الذي من أجله أُعطيَ هذا الأصل ذاك الحكم، هذه العِلة قد تكُونُ منصوصةً أيضًا في الكتاب والسنة، وقد لا تكُونُ منصوصة، وإنما تكون مستنبطة، بأن فهمها العلماء مِن مُجمل الشريعة، ومن التأمُّل والتدبر في ذلك النصِّ،

(1) المناسب: «ما لو عرض على العقول تلقته بالقبول»؛ يعني: إذا عرض على العقل أن هذا الحكم إنما شرع لأجل هذه المصلحة يكون ذلك الحكم موصلا إلى تلك المصلحة عقلا، وتكون تلك المصلحة أمرا مقصودا عقلا. انظر: التلويح على شرح التوضيح (2/ 135) سعد الدين التفتازاني – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، وذكر الإمام الآمدي في تعريف المناسب ما نصه: " المناسب عبارة عن وصف ظاهر منضبط يلزم من ترتيب الحكم على وفقه حصول ما يصلح أن يكون مقصودا من شرع ذلك الحكم" الإحكام في أصول الأحكام للإمام سيف الدين الآمدي(3 / 270) ط.المكتب الإسلامي دمشق.

ومُجمل الشريعةِ معنًى أسمَوهُ بعد ذلك: بالمقاصد.

فهناك ما يسمى بالأصل وهناك ما يسمى بالعلة، وهناك ما يسمى بِحُكم ذلك الأصل، والعلة ناتِجة من أنني أسأل: لماذا شرع الله هذا الحكم؟

فالخمر مثلًا حُكمُها الحُرمة، فأسأل نفسي: لماذا حرَّم الله - سبحانه وتعالى - الخمر؟ فهذا سُؤالٌ أول، أُجيبُ عليه بأنها مُسكِرة، فأسأل نفسي سؤالا ثانيًا، ولماذا حرم الله المسكر؟

فالإجابة: لأنه يُذهِبُ العقل، فأسأل نفسي: ولماذا جعل الله ذهاب العقل محرَّمًا؟ وما الذي يحدث إن غاب عقِلي؟ فأنا أنام فيغيب عقلي، وقد يَعرِضُ لي الإغماء فيغيبُ عقلي، فلماذا حرَّم الله- سبحانه وتعالى- ما يحدُث في طبيعة الخلق الذي خلقه سبحانه كالنوم، والإغماء، أو أباحه كتناول البَنج(1) من أجل إجراء العملية؟ فلماذا لا يبيح لي في وقت ما- ولو كان بعد العِشاء- أن أتناول الخمرَ وأسكر ويذهب عقلي؟ فتأتي الإجابة بأنَّ الله سبحانه وتعالى كلَّفَنَا، وجعل العقل مناطَ التكليف؛ ومن أجل ذلك منعَنا من أن نغيِّب هذا العقل مِن غير ضرورةٍ، أمَّا في حالة العملية الجراحية فهذا اضطرارٌ، وأمَّا الطبيعة التي تجعل هُناك إغماءً، أو تجعل هناك نومًا فهذا ليس بيدي، بل هو مردُّه إلى الاحتياج الذي خلق الله الإنسانَ عليه، وهو أنَّه محتاج إلى النَّوم، وأنه ضعيف قد يتعرَّض للإغماء؛ ولأجل ذلك فليس لي دخل في هذا، ولكن الله حرَّمَ عليَّ أن يكون لي دخلٌ من غير اضطرار، فأُذْهِب ما بُنِي عليه التكليف.

ثم يستمر التساؤل: ولماذا كلفني الله سبحانه وتعالى؟

والإجابة أنَّ الله- سبحانه وتعالى- من أجل أن أعبد الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ومن أجل أن أُعمِّرَ الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]. ومِن أجل أن أزكِّي نفسي ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا.وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9- 10] فقد توصَّلنا إلى العقيدةِ من الأسئلة المتتاليةِ، فكانت الأسئلةُ المتتاليةُ منهجًا توصَّلوا به إلى المقاصد.

---

(1) البنج: بفت الباء نبات مخدر ومسكن للأوجاع،انظر تاج العروس (5/ 429).

فلو أخذنا كلَّ آيةٍ وكلَّ حكمٍ، وبحثنا فيه بهذه الطريقة؛ لوجدنا أنَّ هناك أمرًا مناسبًا لتشريع حكم، فوجدنا ونحن نسأل هذه الأسئلة المتتالية في كل حكم: لم حرَّم الله السرقة؟ ولم حرم الله القتل؟ ولم حرم الله شرب الخمر؟ ولم حرم الله الزنا؟ ولم حرم الله الربا؟ ولم حرم الله كذا وكذا.... وقد قمنا بهذا العمل التأمُّلي في كلِّ شيء من المحرَّمات أو من الواجبات، فتفكرنا أيضا في أنه: لم أوجب الله الصلاة؟ ولما أوجب الله الزكاة؟ وهكذا نجد إجابة على هذه الأسئلة المتتالية، التي هي مستويات متعاقبة للسؤال بـ(لماذا).

فنحن هنا أمام ظاهرة علمية، أو مسلك علمي يمكن أن نسميه بالأسئلة الممتدة، ونعني بالأسئلة الممتدة: السؤال: بـ(لماذا)، بعد كلِّ إجابة عن سؤال سابق، ساعين بذلك إلى الكشف عن حقائق الأشياء، والبحث عن أسسها وأصولها. إن هذه الأسئلة الممتدة- كما رأينا - تصعد بنا بالتدريج من الجزئيات والفروع، حتى نصل إلى المبادئ الكبرى، التي سرَت في كلِّ الصور والفروع الجزئيَّةِ، فهي استقراءٌ وسيرٌ عكسي، يرتقي بنا من الفروع إلى المقاصد.

وأنت ترى أن هذا يتم بالاستقراء، الاستقراء الذي يعني التتبُّع، فبعد أن انتهينا من الإجابة على الفروع الفقهيَّة التي وردت أحكامها في الكتاب وفي السنة، بل والتي وردت حتى عن طريق القياس بإلحاق الشبيه إلى شبيهه، والنظير إلى نظيره، بعدما فعلنا هذا وجدنا أنفسنا أمام ما أسماه العلماء بمقاصد الشرع من التشريع، فوجدنا أنفسنا أمام خمسة من المقاصد، توصلنا إليها بالاستقراء، هذه الخمسة هي:

الحفاظ على النفس، والحفاظ على العقل، والحفاظ على الدِّين، والحفاظ على العرض، وفي بعض الأحيان يعبرون عنه بالنسل، وأنا أعبر عنه بعبارة حديثة توافق الأدبيات الحديثة فأسميه: كرامة الإنسان؛ لأن العرض لم يكن إلا مفهوم كرامة الإنسان في اصطلاحهم وتعريفهم، وخامسا: الحفاظ على المِلْك، وبعضهم يقول: الحفاظ على المال، ومعناهما واحد أيضا، لأن علاقة الإنسان بالمال هي علاقة الملكية، فهذه إذا هي المقاصد العليا للشريعة.

- أثر معرفة المقاصد الشرعية في فهم كتاب الله:

فمَن أراد أن يقرأ القرآن، وكان مستحضِرًا لهذه المقاصد، فإنَّه يفهم بعمق مغزى الأحكام والتشريعات الواردة في قضية الخمر، والميسر، والجهاد، والعقود، والمعاملات، وتلوح له أسرار وأعماق لم تكن لتظهر له لو قرأ القرآن بدونها.

وبعد أن يلتفت القارئ إلى هذه المقاصد، ويفهم على ضوئها الأحكام والدلالات القرآنية؛ فإنه ينتقل من الإفراد إلى التركيب، فماذا لو طرأت مسألةٌ تعارضَ فيها مقصدان، أو تردَّدَ فيها فهمُنا بين مقصدَين، أيُّهما يقدَّم؟ فنشأ البحث حول ترتيب تلك المقاصدِ، وأثر هذا الترتيب في الترجيح بين الفروع المختلفة.

وقد رأينا الشاطبي ومن قبله، وكثير ممَّن بعده، يرتِّبون هذه الخمسة على هذا النحو: الدين، فالنفس، فالعقل، فالعرض، فالمال أو الملك.

فقدموا الدين، وبعض العلماء المعاصرين من أساتذتنا ومشايخنا ربما أورد الإجماع على هذا الترتيب، ونحن نؤكد - بعد بحث وتفتيش- على أنه ليس هناك أي إجماع على هذا الترتيب؛ فإن الزركشي مثلًا قد رتَّب هذه المقاصدَ الخمسة ترتيبًا آخرَ(1)، ورتَّبها غير الزركشي ترتيبًا

(1) إن الناظر في كتابات العلماء القدامى والمحدثين حول مسألة ترتيب المقاصد الضرورية الخمسة سوف يجد أنهم لم يتفقوا على ترتيب معين في تلك المقاصد، فمنهم من قدم الضرورات الدينية على الضرورات الدنيوية ومنهم من قال بعكس ذلك ومنهم من لم يهتم بالترتيب أصلا، ومنهم رفض فكرة ترتيب المقاصد، قال تاج الدين السبكي في شرح المنهاج: «ثم الضروري قد يكون دينيا وقد يكون دنيويا، وعند تعارضهما يلاحظ أن بعض العلماء يرى تقديم الضروري المتعلق بالدين على الضروري المتعلق بالدنيا، لأن الأول ثمرته السعادة الأبدية، والثاني ثمرته السعادة الفانية، وذهب بعض العلماء إلى القول بتقديم الضروري المتعلق بالدنيا على الضروري المتعلق بالآخرة؛ وذلك لأن حق الآدمي مبني على الشح والمضايقة، وحق الله مبني على المسامحة والمساهلة، ولهذا كان حق الآدمي مقدما على حق الله تعالى لما ازدحم الحقان في محل واحد وتعذر استيفاؤهما منه، كما يقدم القصاص على القتل في الردة، والقطع في السرقة، كذا الدَّين على زكاتي المال والفطر في أحد الأقوال». انظر: الإبهاج (3/ 241) بتصرف.

ومن أسباب عدم اتفاقهم أيضا: اختلاف المفهوم والمقصود من كلمة دين هل المقصود الإسلام الإسلام بتمامه؟ أو المقصود بها العبادات الدينية المحضة؟ فمن رأي أن المقصود بالدين الإسلام قدم الدين على =

ثالثًا كما أشار إلى ذلك ابن أمير الحاج في شرحه على التحرير في أصول الفقه فقال: "(.....وقيل) يقدم (المال) أي حفظه فضلا عن حفظ النفس والعقل والنسب (على) حفظ (الدين) كما حكاه غير واحد فكأن المصنف نبه بالأدنى على الأعلى بطريق أولى وقد كان الأحسن تقديم هذه الأربعة على الديني لأنها حق الآدمي وهو مبني على الضيق والمشاحة ويتضرر بفواته والديني حق الله تعالى وهو مبني على التيسير والمسامحة وهو لغناه وتعاليه لا يتضرر بفواته (ولذا) أي تقديم هذه على الديني (تترك الجمعة والجماعة) وهما دينيان (لحفظه) أي المال وهو دنيوي"[(1)]، مما يشير إلى تقديم غير الدين عليه، إلَّا أنَّ هناك شيوعًا موجودًا في الكتب على هذا الترتيب، لوجهة نظرٍ ذكرها الإمام الشاطبي في «الموافقات»، وهو أن الجهاد يجعل الدين مقدما، على النفس.

والإجابة عن ذلك: إننا لم نؤمر بقتل أنفسنا حتى يقال ذلك، فإننا ونحن نخرج إلى الجهاد نصد العدوان، ونرفع الطغيان، وليس المقصود أن نموت، والنبي ﷺ «أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ»[(2)] كما أخرجه البخاري، أي هجم عليهم في حين غفلتهم من أجل حقن الدماء، ومن أجل ألَّا يموت أحدٌ، وإنَّما نريد أن نكسر شوكة هذا العدو الذي يهددنا، أو الذي يأخذ من أراضينا، أو الذي يقطع السبيل على الناس، بدون أي خسائر، بل بطريقة بيضاء، لا بطريقة حمراء ملطخة بالدماء.

القتلُ إذًا ليس هو الحتمُ والمطلوب، أي أنَّه لم يأمرني ربي كما أمر الأمم السابقة: ﴿اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 66] لكن أمرني ربي بالقتال، وأنا أتمنى إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة،

=

سائر المقاصد، ومن رأى أنه مقصود بها العبادات المحضة قدم النفس مثلًا.

(1) التقرير والتحبير لابن أمير حاج(3/ 231) ط.دار الكتب العلمية

(2) أخرجه البخاري في كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية (2541).

فيمكن أن أنتصر وأعود بلا قتل.

صحيح أن الغالب في الحروب أن يقع قتلي، ولكن أنبِّه هنا إلى أنَّه لم يأمرني ربي بأن أقتل نفسي من أجل ديني، بل أمرني أن أجاهد في سبيله حتى لو تعرضت للقتل، وهناك فرق بين الأمر بالقتل الصرف للنفس، وبين الأمر بفعل شيء وإن تعرضت فيه للقتل.

وأنا أرى أن نبدأ ترتيبًا منطقيًّا للمقاصد،فإذا كان الإنسان هو محلُّ رعايةِ الشَّريعةِ التي أتَت بتلك المقاصد فإنَّ أوَّلَ شيءٍ يجب علينا أن نحافظ عليه فيه هو نفسُه، ثم نحافظ بعد ذلك على عقله؛ حتى يفهم ويتلقى الأوامر الإلهية من الوحي بـ(افعل) و(لا تفعل)، وحتَّى يكون متمكِّنًا من تطبيقِ ما أمرَ به مِن رضا الله، والبعد عن سخطه؛ ولذلك نبدأُ بالنفس ونثني بالعقل؛ لأنَّ ضياع النفس لا يبقى معه دينٌ ولا دنيا، وضياع النفس معناها الخروج من ساحة الكون، فلا بدَّ أن نبدأ في المقاصد بالنفس، ثم هذه النفس تحافظ على العقل القائم فيها، حتى يكون ذلك العقل مناطًا للتكليف، ويأتي بعد ذلك الدينُ والحفاظ على الدين حينئذٍ معناه منعُ الكفر بالله، والمنع من معاكسة ومضادَّة مراد الله تعالى في كونه وفي خلقه.

ورابعًا تأتي كرامة الإنسان، والتي نعبِّر عنها بهذا التعبير، حتى تشمل حرمةَ تعذيب الجسد، فكرامةُ الإنسان كلمةٌ تشمل العِرض، وتشمل النَّسل، وغير ذلك من المعاني الجليلةِ التي أكدتها الشريعةُ في نصوصها.

خامسًا يأتي المال أو المِلْك، والملك قد يكون أيضًا- في مفهومه عندي- أوسع من المال، واحترام الملك الذي يشمل الملكيَّةَ الفكريَّةَ، والذي يشمل الخصوصيَّةَ الإنسانيَّةَ والأسريَّةَ، والذي يشمل الحريَّةَ السياسيَّةَ والأداء السياسيَّ من حزبٍ إلى حزبٍ، أو من رأي إلى رأي، كلُّ هذه الأشياء قد تكون في مفهوم المِلك تتجاوزُ المال، خاصَّةً المحدثات من مثل قضيَّةِ حقوقِ الملكيَّةِ الفكريَّةِ.

فهذه خمسةٌ من المقاصد العُظمى، وهي بهذا الترتيب تكوِّن النظامَ العامَّ في البلاد والعباد، ونحن قد وفِّقنا فيها لأمرين:

الأمر الأول: أنَّنا اجتهدنا في الوصول بها إلى الترتيب الأنسب، وتغيير الترتيب نراه جائزًا؛

لأنه ليس هناك اتفاق ولا إجماع.

والأمر الثاني: أنَّنا بهذا الترتيب وسَّعنا مفهومَ العرض إلى كرامة الإنسان، ووسَّعنا مفهوم الدين للحفاظ على الدين في ذاتِه، وأصبحت هذه المقاصدُ الخمسة تمثِّل الإسلام، وربما أمكننا أن نقول أن كلمة (الدين) هنا ليست مقصورة على الإسلام فقط، بل هي أوسع من ذلك، لتشمل كلَّ دين، حتى تكون بذلك هناك مسئولية يتحملها المجتمع الدولي في سنِّ الإجراءات التي تمنع من ازدراء الأديان.

ومن هنا نعلَم أنَّ النظام العامَّ، يمثِّل مقاصدَ عامَّة لم يختلف عليها أحدٌ؛ فإنَّ حفظ النَّفس موجودٌ في كلِّ القوانين وفي كلِّ العالَم، يوافق عليه المسلم ويوافق عليه غير المسلم، داخل المجتمع المسلم وداخل المجتمع غير المسلم، وحفظ العقل على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة بوجوب التعليم، ووجوب المشاركة، ووجوب بناء الحضارة، فحفظ العقل، يشمل عقل الفرد في صورته البسيطة الفردية، كحرمة الخمر والمخدرات، والعدوان على ذات المخ والعقل، وأيضا العقل في معناه الكلي الذي هو بمعنى التعليم، وكذلك الدين يشمل العقائد ومنظومة القيم للمجتع والأخلاق بالإضافة لسائر التشريعات وكذلك كرامة الإنسان، وكذلك الملك، وما زالت هذه الخمسة تمثل- فعلًا- النظام العام لكل التشاريع التي في الدنيا، وقد نصَّ الشاطبيُّ على أنَّ مقاصدَ الشريعة- والتي هي من الأمور الخمسة التي نتكلَّم عنها- هي في الحقيقة مقصدٌ للشرائع كلِّها.

هذه هي وجهة نظرنا في المقاصد الشرعيَّة العليا من ناحية ترتيبها، ومن ناحية مفهومها ومن ناحية تفعيلها باعتبارها النظام العام، وثَمَّ ناحيةٌ أخرى يطول الكلام فيها، وهي: الفرق بين دين الإسلام وبين حضارة الإسلام؛ فإن حضارة الإسلام قد قبلت من غير المسلمين وهم على أديانهم، وعاشوا في ظلالها الوارفة آمنين، وكل ذلك يخدمه ترتيب المقاصد مع توسيع مفاهيمها.

ثم هناك أمرٌ ثالثٌ في غاية الأهميَّة، بعد ترتيب المقاصد وتوسيع مفهوم كلِّ مقصدٍ، ألا

وهو توسيع دائرة المقاصد، حتى نرجع إلى استقراء القرآن لاستخراج مقاصد الشريعة في مستوياتها الأربعة.

المستوى الأول: هو الفرد.

والمستوى الثاني: هو الأسرة.

والمستوى الثالث: هو المجتمع.

والمستوى الرابع: هو الإنسانية.

فلا بد من دراسة المقاصد الشرعية الخاصة بكل مستوى من المستويات المذكورة.فمن المداخل المهمة لتفسير كتاب الله تعالى أن نستحضر كل هذه الخلفيات، ثم ننطلق لقرأْة القرآن، ونحن نعرف ونستحضر القضايا التي نريد استخراج هدي القرآن فيها[1].

فوجود العقل الذي يلحظ المقاصد مهم جدًا في هذا العصر الذي توجه فيه السهام إلى الشريعة الإسلامية وتعاليم القرآن الكريم من كل اتجاه فهي تمثل نبراسًا لفهم القرآن الكريم ومراد الشريعة بل إن الإنسان إذا ما نظر في الكون من حوله وما قدره الله سبحانه وتعالى من السنن والأسباب والنواميس والقوانين لوجد أنها تتجه في نفس الاتجاه الذي تتجه إليه مقاصد القرآن الكريم وأهدافه في تكامل بين نظر العقل ونصوص الوحي.

كذلك استحضار هذه المقاصد عند دراسة القرآن الكريم تفتح الباب أمام إدراك غاية القرآن الكريم في إقامة حضارة إنسانية متكاملة وتلفت النظر إلى ما يمكن أن نسميه بالفقه الحضاري العام الذي يمتد ليشمل كل آفاق الحياة، فلن نجد آية في كتاب الله إلا ولها دور وإسهام في مجال الحضارة الإنسانية، يدركها أهل العلم والنظر والتفكر، ويفتح الله لعباده المؤمنين نافذة ينظروا من خلالها إلى معاني العدل والرحمة والإحسان للخلق التي حملها القرآن الكريم.

ومن المعاني التي تظهر لنا عند استصحابنا لمعاني المقاصد أثناء دراسة القرآن الكريم هو

---

(1) انظر: النبراس في تفسير القرآن الكريم (مبحث المقاصد الشرعية وأثرها في فهم النص القرآني).

ظهور اتساع شريعة الإسلام وعالميتها بحيث تتضح لنا دلالة قوله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

فتتضح تفاصيل دين الإسلام من خلال نافذة المقاصد وأنَّه يشتمل على نظم إنسانيَّة واجتماعية تشمل المسلم وغير المسلم تحت مظلَّته بحيث يكون المسلم داخلًا في دائرة الدين والحضارة الإسلامية، وغير المسلم داخلًا في دائرة الحضارة الإسلامية التي تستمدُّ من الدين النظامَ والأسس التي توفِّر لجميع البشر على اختلاف أجناسهم وخلفياتهم الدينيَّة والفكريَّة حياةً كريمةً في ظلِّ الحضارة الإسلامية، موضحًا أنَّ كلَّ ذلك نابعٌ من أهداف القرآن الكريم العليا ومقاصد الشريعة.

وتفتح لنا المقاصد الشرعية عند قراءة القرآن الكريم أبوابًا كثيرة منها:

- فهم حكمة بعض التشريعات والأحكام، والتي تساعد على ترتيب الأولويات الشرعية.

-ترجيح المعنى الصحيح للنص القرآني في ضوء هذه المقاصد بحيث تمنع أي مفهوم باطل من أن يتسلل إلى معاني النص القرآني.

- ترسيخ العقيدة وزيادة اليقين في إعجاز كتاب الله.

- تمنع دخول ما ليس من الدين إلى الشريعة بوضعها للمعايير الدقيقة في الحكم على الأمور.

- تساعد على خلق المجتمع القرآني الذي تظهر فيه تنفيذ أهداف ومقاصد القرآن الكريم.

- تظهر التكامل والتناغم بين الوحي والنقل والواقع المحيط.

- تنفي منطق الصراع بين الأهداف والأغراض عند الأفراد والجماعات.

***

المبحث السَّادس
أصول الفقه والقَواعد
الفقهية وأثرهما في فهم النص القرآني

- علمُ أصول الفقه وأثرُه التَّفسيريُّ:

- عرف العلماء أصول الفقه بتعريفات عديدة كان منها تعريف الإمام الرازي: أنه «مجموع طرق الفقه على سبيل الإجمال، وكيفية الاستدلال بها، وكيفية حال المستدل بها»(1).

ولما كان علم أصول الفقه من جملة العلوم الإسلامية، والمعلوم أنَّ أغلب العلوم الإسلاميَّة ما كانت نشأتُها ولا كان الدَّافع وراء وضعها إلَّا قيامًا بحقِّ كتاب الله -عزَّ وجلَّ- والقيام بتفسيره والوصول لمعانيه، وبناءً على ذلك فإنَّ من الأركان المهمة لقانون التَّفسير والمداخل المؤثِّرة في فهم النَّص القُرآنيِّ وقراءةِ كتاب الله والوصول للمعاني المرادة من آياته وكلماتِه وتكوين صورة إدراكيَّة صحيحة عن دلالة النَّصِّ الكليَّة والجزئيَّة «علمُ أصولِ الفقه» ومباحثُه المختلفة ومسائلُه المتعدِّدة؛ وذلك لما يمثِّله هذا العلم من طريق ومنهج منضبطٍ وميزان صحيح للتَّعامل مع النَّص الشَّرعيِّ، يصلُ بنا في النِّهاية إلى الحكم الشَّرعيِّ الصَّحيح والمعنى الشَّرعيِّ المقبول الذي ليس له معارضٌ عقليٌّ أو نقليٌّ، وكذلك ييسِّر لنا السَّبيل نحوَ التَّعرُّف على مقاصد النَّص القرآنيِّ وأهدافِه الكليَّة.

وهذا العِلم هو الطَّريق إلى يقينيَّة المعرفة وانضباطها بضوابط الشرع؛ فهو في الجملة أداةُ العقل البشريِّ المستقيمة ووسيلتُه الصَّحيحة المنضبطة للتَّعامل مع كتاب الله والقيام بخدمته تحليلًا وربطا وإحاطةً بجزئيَّاتِه وكليَّاتِه، بما يمثِّل نسقًا كليًا للتَّفكير والنَّظر يصاحب المفسِّر، فتفسير النَّص القرآنيِّ يتطلَّب مجموعةَ علومٍ ومعارفَ لا يمكن الاستغناء عنها لمعرفة معنى النَّص وقراءتِه القراءة الصَّحيحة، ولو نظرنا للمكانة التي يحتلُّها علمُ أصول الفقه بين هذه العلوم لوجدنا أنَّه في المقدِّمة من هذه العُلوم والمعارِف؛ وذلك لطبيعة المباحث المتنوِّعة

(1) المحصول للإمام الرازي (1/ 94).

والمختلفة التي يعالجها هذا العلم ويجعلُها من مداخل التَّعامل مع النَّص القرآنيِّ، فقد اعتنى علماءُ الأصول بالكثير من القضايا والمقدِّمات من عُلوم اللُّغة العربيَّة على تنوُّعها من نحوٍ وبلاغةٍ وغيرها، وقاموا باستقرائها وتحرير نتائجها وجعلوها من مباحثِ علم الأصول؛ بحيث اتَّسعت درجةُ استعمالها في معرفة معاني النَّص والنَّتائج المستنبَطة منه من خلال علم الأُصول أكثرَ ممَّا هي عليه في أصل عِلْمها.

فعلمُ أصول الفقه ألصَقُ علوم الآلة بالاجتهاد، وأخصُّها بالاستنباط، وأعلاها درجةً في الوصول إلى المطلوب من الحكم الشَّرعيِّ والمعاني التي يحتويها النَّصُّ، وعلى ذلك فما قدَّمه المنهج الأصوليُّ في تكوين قانون التَّفسير وإرساء قواعد القراءة الصَّحيحة وفهم الخطاب الشَّرعي يفوق ما قدَّمته النُّظُم المعرفيَّة الأخرى؛ وذلك لأنَّه سعى إلى تشييد نظريةٍ دلاليَّةٍ متماسكةٍ ومُتكاملةٍ تكشف عن الخريطة الدَّلالية للنَّص القرآنيِّ ومستوياتها المختلفة (العقديَّة والتَّشريعيَّة والقِيميَّة)، يظهرُ ذلك من اشتغال علماء الأصول بمباحث اللُّغة العربيَّة التي نزل بها القرآنُ الكريم؛ الأمر الذي دفع بهم إلى استقراء اللُّغة العربيَّة واستبيانِ تراكيبها ودلالة ألفاظها، مع المزج بين هذا الاستقراء وقواعد التَّفكير العقليِّ وإحداثِ نوعٍ من التَّوافق والتَّناغم لاستخلاص القواعد والضَّوابط التي تُعتبر شرطًا في تفسير النَّص.

ومن الأُصول ما هو راجعٌ إلى الوَحْي ودِراسَته، ومنها ما هو راجعٌ إلى الوجود الذي نعيش فيه ودِراسَته على نحو ما جاء في قول الله تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: من الآية 54] فالوحي من عالم الأمر والوجود من عالم الخلق، وكذلك منها ما هو راجعٌ إلى القواعد العقليَّة، فالرَّبط بين ذلك كلِّه وتكوينِ معرفة سويَّة متكاملة تستقي معلوماتِها من الوَحْي والعقل والوجود معًا نتمكَّنُ من خلالها من فهم نُصوصِ الوَحْي الإلهيِّ، والخروجِ منه بالمعنى المستقيم، وكيفيَّةِ إسقاطه على الواقع، كلُّ ذلك هو جانبٌ من جوانب عمل أصُول الفقه.

وعلم أصُول الفقه علمٌ إسلاميٌّ خالصٌ لا يوجد في أمَّة من الأُمم مثلُه قد خصَّ الله به الأمَّة المسلِمَة، فكشفَ العقلُ المسلِمُ أصولَ هذا العِلم وفروعَه من خلال النَّظر الدَّقيق والاستقراءِ للنَّص، وإدراكٍ كليٍّ وجزئيٍّ له، ومراعاةِ قواعدِ العقل والتَّفكير المنطقيِّ الذي ينظِّمُ حركةَ الفَهْم والاستنباط، فأخرج لنا قانونًا إسلاميًّا تفرَّدنا به؛ جمعَ بين معاني الوَحْي وصريحِ العَقْل.

وممَّا سبق نستطيعُ القَول أنَّ علمَ أصول الفقه هو آلةُ الفهم الشَّرعيَّة للنَّص القرآنيِّ بكليَّاته وجزئيَّاته على جميع محاوره العقديَّة والتَّشريعيَّة والأخلاقيَّة، وذلك يردُّ على دعوى أنَّ علمَ الأصول يحصر أبعادَ القُرآن الكريم في بُعْدٍ واحدٍ هو البُعْد التَّشريعيُّ فقط، فذلك مردودٌ من خلال معرفة كثرةِ وتنوُّع المباحث التي اهتمَّ بها علمُ أصول الفقه؛ والتي استمدَّها من علوم اللُّغة وعِلْم الكلام وغيرها من العلوم وأثرِ هذه المباحث التَّفسيري.

فقد حُفِظَتْ العقيدةُ وأركانُها وأصولُها بهذا العلم عن طريق حماية أُصول الاستدلال والرَّدِّ من خلاله على شُبَه المنحرفين، وحُفظت الأحكامُ عن طريق تحديد مصادر التَّشريع وضبط باب الاجتهاد وترتيب خُطواته؛ فيعصم ذهن الفقيه من الخطأ في الاستدلال، وظَهرتْ وحُفِظَتْ مقاصدُ الشَّريعة وأهدافُها من خلال ظهور المضمون الدَّلاليِّ المنضبط للنَّصِّ القُرآنيِّ، وحُفظَ المضمونُ القِيَميُّ والمضمونُ الإنسانيُّ عن طريق سريان روح عِلْم الأصول في الفهم الكليِّ والجزئيِّ للنَّصِّ القُرآنيِّ؛ فلا يدخل في مقاصد الشَّريعة ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو فيها، ممَّا أظهر الوجه الإنسانيَّ لهذه الشَّريعة والذي تمثَّل في التَّكريم الإلهيِّ المطلق للجنس البشريِّ وتفضيلِه على كثيرٍ من المخلوقات.

فنظرةٌ مدقَّقة إلى هذا العلم ومباحثه تقودنا إلى أنَّه العلم المؤسِّس للمنهج الصَّحيح لتلقِّي النَّصِّ القرآنيِّ، والتَّعامل معه وتفسيره على كافَّة المستويات والجوانب والمحاورِ التي احتوى عليها القُرآن الكريم، وليس في مجال الأحكام الفقهيَّة والتَّشريعيَّة فقط.

فليس علمُ أصولِ الفقه في حقيقته إلَّا صياغةً عقليَّةً شرعيَّةً منضبطةً للذِّهن البشريِّ

وترتيبًا لخريطته الإدراكيَّة لتلقِّي الوحي الإلهيِّ بطريق صحيح، ثُمَّ التَّفاعل معه بعد ذلك من قِبَل المؤمن، وظهور أثر هذا التَّفاعل في الأرض إيمانًا وهدىً وإصلاحًا في الأرض، فمن أراد تحقيقَ المصلحة الإنسانيَّة فمن خلال هذا العلم، ومن أراد عدمَ الخروج عن دلالةِ النَّص الصَّحيحة فمن خلال هذا العلم وقواعده، فهو الجامعُ بينهما في صورة من الالتزام والتَّجديد، وبه من القَواعد والأركان والأُصول ما يفتح جوانبَ من التَّجديد المنضبط الذي يُحسِن إنزال النَّصِّ على الواقع فلا يَنقضُ إجماعًا ولا يخرج عن الثَّوابت.

فمن تعرَّض لتفسير القرآنِ الكريمِ وهو غير متشبِّع لهذا العلم فسوف يحدثُ منه من حيث يدري أو من حيثُ لا يدري نوعًا من تحريف الشَّريعة عن طريق استنباط معاني غير مرادةٍ من النَّص القرآنيِّ أو استبعاد معنى مراد.

إلى جانب ما ظهر لهذا العلمِ من أهميَّة ضابطةٍ في عصرنا الحديث الذي اتَّسعتْ فيه المعارفُ وتعدَّدت فيه العُلوم الطبيعيَّة والكونيَّة كالطَّبيعة والكيمياء والفلك والطِّب وغيرها، أو العلوم الإنسانيَّة كالاجتماع والتَّربية والنَّفس والسِّياسة...إلخ، فعن طريق علم الأصول يتعامل المسلم مع هذه العلوم فيضبط كيفية الاستفادة منها والتعامل معها لتنضبط مقاصدُها ومناهجها وتتَّضح فلسفتُها ودورُها في هذا الوجود بحيث تصبح داخلَ دائرةِ الشَّريعة؛ بمعنى أن لا نتبنَّى منها أو من نتائجها ما يخالف القطعيَّات والثَّوابت الشَّرعية، وليس في قولنا هذا أنَّنا ندَّعي أنَّ علم الأصول يتدخَّل في ذات العُلوم الطبيعيَّة؛ وإنَّما له تعلُّق وثيقٌ بأثرها على البشر وما ينتج عنها من الأقوال والآراء والنَّشاطات العمليَّة التي تتفاعل مع حياة البشر.

وأما العُلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة فيظهر أثر علم الأصول بصورة أكبر؛ بحيث يظهرُ ما أطلقنا عليه «إسلاميَّة المعرفة» أو «النَّموذج المعرفيُّ الإسلامي» والذي محاوره ومكوِّناته وروافدُه: الوحيُ، والوجودُ المحيط، والعقلُ البشريُّ المدرِك، والتَّفاعل الذي يحدث بين ذلك

كلِّه فيخرج لنا مرجعيَّة هذه الأمَّة الفكريَّة والعلميَّة المكوِّنة لهويَّتنا الإسلاميَّة والتي يقوم علمُ أصول الفقه بدور كبير في الحفاظ عليها فيَحُول دون الوقوع في نسبيَّة الحقائق أو التشبُّع بما هو باطلٌ أو فاسدٌ، فأثرُ هذا العلم يظهر في عقليَّة المسلم فيُبْلوِرُه على أساس من التَّأصيل العقليِّ والشَّرعيِّ مكوِّنًا ميزانًا منضبطًا مرشدًا في شتَّى أمور الحياة.

ولذلك قد نبَّه أهل العلم منذ الصَّدر الأوَّل على أهميَّة هذا العلم عند التَّعامل مع النَّص الشَّرعيِّ، فنجدُ أنَّ الإمام الشَّافعيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (204-150هـ) يمثِّل بدايةَ مرحلة تأصيل القواعد للتَّعامل مع النَّص والكشف عن قواعد تفسير آيات الأَحكام.

فإذا ذُكِر الشَّافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذُكِر علمُ أصولِ الفقه والعكس كذلك صحيح؛ فهو أوَّل العُلماء المسلمين الذي ظهر على يديه منهجٌ متكاملٌ للمعرفة يقوم على أساسٍ ممزُوجٍ من العقل والنَّقل؛ نتجَ عنه قواعدُ كليَّة في البيان وتفسير النُّصوص تمثِّل قانونًا عامًا للفهم، ويُعدُّ كتابُ «الرِّسالة» للإمام الشَّافعي نقطةَ الانطلاق العمليَّة من حيثُ تأصيلُ وتدوينُ القواعد للتَّعامل مع النَّص؛ حيثُ صَاغ الإمام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأصولَ الكليَّة وصريحَ العقل الإنسانيِّ في صورة قواعدَ وأصولٍ حاكمة للتَّعامل مع النَّص الشَّرعيِّ تمكِّننا من التَّوصل لحكم الله الشَّرعي وإدراك المعنى الصَّحيح المنضبِطِ لآيات الكتاب الكريم، بحيث تقودُنا هذه القواعدُ إلى الدَّلالة الصَّحيحة لكلام الله من خلال مداخلَ كثيرة: من حيث بيانُ المعنى وحدوده، ومن حيث بيانُ الحكم الشَّرعي الفقهيِّ وخطوات استنباطه، وبيانُ وجه الدَّليل من كلام الله ومجالات تطبيقه، بحيث أصبح الفقه (الأحكام الشرعية) مبنيًّا على أصولٍ ثابتة لا على مجرَّد طائفةٍ من الفتاوى والأقضية والمسائل، ومن حيث التَّصورُ المنضبطُ لمقصد الآية القرآنيَّة، ومن حيثُ استنباطُ القواعد من النَّص وتفريعُ المسائل عليها، وبيانُ ضوابط الاجتهاد، ومن حيث كيفيَّةُ استخدامِ السنَّة النَّبويَّة ومعانيها النَّظريَّة والعمليَّة في الكشف عن معاني البيان القُرآنيِّ.

وقد تمكَّن الإمامُ الشَّافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من صياغة ذلك كلِّه لِما اختصَّه الله تعالى من قوَّة العقل وغزارة العلم وإحاطته بالسنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، مع كمال المعرفة بلُغَة العرَب ومفرداتها وشعرِهم وعاداتِهم ونمطِ حياتهم، ومعرفتِه بالقِراءات القرآنيَّة وتفسير القرآن الكريم، يجمعُ

ذلك كلَّه ويربطُ بينه ملكةٌ عقليَّةٌ فكريَّةٌ نادرةٌ تُرتِّبُ المعارفَ والمعلوماتِ وتقُوم بصياغتها في صورة قواعدَ وأصولٍ لا يوجد لها معارض شرعي أو عقلي، للتَّعامل مع النَّص الشَّرعيِّ، وهذا أعلى ما يمكن للعقل البشريِّ أن يتصوَّره من قانونٍ حاكمٍ منضبطٍ للتَّعامل مع النَّص الإلهيِّ يحفظُ الدِّينَ والشَّريعَة بما يوفِّره من القراءة الصَّحيحة للقرآن الكريم.

من أقوال أهل العلم عن أهميَّة البُعد الأصوليِّ في تفسير القُرآن:

يقول الإمامُ الطَّبريُّ -رحمه الله- (المُتوفَّى: 310هـ) في مقدِّمة تفسيره: «اللَّهمَّ فوفِّقنا لإصابة صواب القول في مُحْكَمِه ومُتَشابهِه، وحلالِه وحرامِه، وعامِّه وخاصِّه، ومجمَله ومفسَّره، وناسخِه ومنسوخِه، وظاهرِه وباطنِه، وتأويلِ آية وتفسير مُشْكِله، وألهمنا التَّمسك به والاعتصام بمُحكَمِه، والثَّبات على التَّسليم لمتشابهه، وأوزعنا الشُّكر على ما أنعمتَ به علينا من حفظه والعلم بحدُوده»(1).

- يقول الإمام الغزالُّي -رحمه الله- (المتوفَّى: 505هـ): «وأشرفُ العُلوم ما ازدوج فيه العقل والسَّمع واصطُحِب فيه الرَّأي والشَّرع، وعِلْمُ الفقه وأصوله من هذا القبيل فإنَّه يأخذ من صفو الشَّرع والعقل سواءَ السَّبيل، فلا هو تصرُّفٌ بمحض العقول بحيث لا يتلقَّاه الشَّرع بالقبول؛ ولا هو مبنيٌّ على محْضِ التَّقليد الذي لا يشهد له العقل بالتَّأييد والتَّسديد، ولأجل شرفِ علم الفقه وسببه وفَّر الله دواعي الخلق على طلبه، وكان العلماءُ به أرفعَ العلماء مكانًا وأجلَّهم شأنًا وأكثرَهم أتباعًا وأعوانًا»(2).

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (1/ 6) - المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري - المحقق: أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000م.

(2) انظر: المستصفى (1/ 4) المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي - تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي -الناشر: دار الكتب العلمية - الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م.

يقول الإمام ابنُ جُزَيٍّ الكلبيُّ (المتوفَّى: 741هـ) في مقدِّمة تفسيره:

«وأمَّا أصولُ الفقه فإنَّها من أدوات تفسير القرآن؛ على أنّ كثيرًا من المفسِّرين لم يشتغلوا بها، وإنَّها لنِعْمَ العون على فهم المعاني وترجيحِ الأقوال، وما أحوج المفسِّرَ إلى معرفة النَّص، والظَّاهر، والمُجمَلِ، والمبيَّن، والعامِّ، والخاصِّ، والمطلقِ، والمقيَّدِ، وفحوى الخطابِ، ولحنِ الخطاب، ودليلِ الخطاب، وشروطِ النَّسخ، ووجوهِ التَّعارض، وأسباب الخلاف، وغيرِ ذلك من عِلْم الأصول»(1).

وقال الإمامُ أبو حيَّان الأندلسيُّ -رحمه الله- (المتوفَّى: 745هـ) وهو يذكر ما يحتاج إليه المفسِّر من العلوم والأدوات: «الوجهُ الخامس: معرفةُ الإجمالِ، والتَّبيين، والعموم، والخصوص، والإطلاق، والتَّقييد، ودلالةِ الأمر والنَّهي، وما أشبه هذا: ويختصُّ أكثرُ هذا الوجهِ بجزء الأحكام من القُرآن ويؤخذُ هنا من أصول الفقه، ومعظمه هو في الحقيقة راجعٌ لعلم اللُّغة؛ إذ هو شيءٌ يُتكلَّم فيه على أوضاع العرب، ولكن تكلَّم فيه غيرُ اللُّغويِّين أو النَّحويين ومزجوه بأشياءَ من حجج العقول، ومن أجمع ما في هذا الفنِّ في كتاب المحصول لأبي عبد الله محمَّد بنِ عُمَر الرَّازيِّ»(2).

وقال الإمام الزَّركشيُّ -رحمه الله- (توفِّي: 794هـ): «في ضرورة معرفة المفسِّر قواعدَ أصولِ الفقه: ولا بدَّ من معرفة قواعد أصول الفقه؛ فإنَّه من أعظم الطُّرق في استثمار الأحكام من الآيات»(3).

---

(1) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 12).المؤلف: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي - تحقيق محمد سالم هاشم - دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1995م.

(2) انظر: البحر المحيط في التفسير (1/ 15) المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي - المحقق: صدقي محمد جميل - الناشر: دار الفكر - بيروت - الطبعة: 1420 هـ.

(3) انظر: البرهان في علوم القرآن (2/ 6) المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر =

الأبعادُ والمحاور التي يتمُّ من خلالها إدراكُ أثر أصولِ الفقه في مجال التَّفسير:

المُنطَلق الذي ينطلق منه قانون التَّفسير وأركانُه والهدف الذي يسعى إليه هو: حمايةُ معاني النَّص القرآنيِّ من الأفهام الخاطئة التَّابعة للاجتهادات والمذاهب والأهواء التي تخرج عن أصولِ الدِّين والشَّريعة وتأتي بمفاهيم باطلة، والوصولُ إلى فهم صحيح للقرآن يُتَوصَّل من خلاله إلى معنى صحيح، أو معاني صحيحة للآيات والكلمات القرآنيَّة ليس لها معارض شرعيٌّ أو عقليٌّ، ينتج عن هذه المعاني تصوُّراتٌ صحيحةٌ وإدراكٌ منضبط تجاه القضايا والأمور والمسائل وذلك على مستوى العقيدة والتَّشريع والقِيَم والأخبار، فقانونُ التَّفسير في حقيقته هو الطَّريق لتدبُّر القرآن الكريم وهو الموصِّل إلى معنى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

وقد ظهر ما لأصول الفقه من دورٍ كبير في حماية معاني القرآن الكريم من القراءة الخاطئة وما له من دور في تقليل الاختلاف في هذه المعاني على مدار التَّاريخ الإسلاميِّ حيث كان البحثُ عن المعنى الذي يحمله النَّص هو مقصد الأُصوليِّين وعلى ذلك قاموا بمتابعةٍ واسعةٍ ورصدٍ لتراكيبِ اللُّغة العربيَّة وأساليبِها، واستمدُّوا من هذا الاستقراء قواعدَ وضوابطَ جعلوها شرطًا للتَّعامل مع الآيات القرآنيَّة، بحيث تنضبط معرفةُ ما يمكن أن تؤدِّيه الألفاظ والأساليب العربيَّة من مدلولاتٍ ومعاني، ومن جملة هذ القواعد قولهم: " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب "، وقولهم: " التأسيس أولى من التأكيد "(1) وغيرهما من القواعد التي توسع من الدلالة بحيث تحقق إطلاقية معاني القرآن من جهة، وتضبط الفهم من ناحية أخرى

=

الزركشي – المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم– الطبعة: الأولى، 1376 هـ – 1957 م– الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

(1) انظر في معنى قاعدة التأسيس أولى وسبب ترجيحه على التأكيد: البحر المحيط للزركشي 1 / 193

وعلى ذلك فقد قام علماءُ الأصول برصد دَلالات الألفاظ من جميع الجهات من حيثُ بيانُ ما وُضِعت له، ومن حيثُ الاستعمالُ، ومن حيث دلالتُه على معنى معيَّن، فالدَّلالات هي التي تُعين العالم والفقيهَ على استخراج الحكم والمعنى واستنباطه حتَّى وإن لم يكن منصُوصًا عليه.

وعلى ذلك فقد كانت النَّظرة الأصوليَّة للبحث الدَّلالي تعمل على تحديد معالم البيان والتَّفسير عن طريق الاحتكام إلى قوانين اللُّغة وضوابطِ السِّياق، وضبطِ دَلالة الخطاب القُرآني وفقًا لذلك، والإحاطةِ بأمر انتقال الألفاظ من الوضع اللُّغوي إلى الوضع الشَّرعي؛ وبذلك خرجت لنا معاني العقيدة والفقه والتَّشريع والأخلاق والقِيَم صحيحةً سليمةً ليس بها أيُّ نوعٍ من الانحراف عن المراد الإلهيِّ من النَّص القرآنيِّ.

ولو نظرنا لأصول الفقه من جانبٍ آخرَ في تعامُله مع النَّص القرآنيِّ لوجدنا أنَّه يمثِّل فلسفةً ومنهجيَّةً إسلاميَّةً تحمل رؤيةً كليَّة ينبثق عنها نظام، ومن ملامح هذا النَّظام وجود ما يسمَّى بـ «نظريَّات أصول الفقه» كانت هذه النَّظريات حاكمةً لعقول الأصوليين في تعامُلهم مع النَّص القرآنيِّ، فمن هذه النَّظريات الحاكمة لتعامل الأصوليِّ مع النَّص(1):

النظرية الأولى: نظرية الحجيَّة.

ما الحجَّة التي نأخذ منها الأحكام؟ بمعنى ما المرجعية التي نرجع لها ونتحاكم إليها؟هذا السُّؤال الأوَّل كانت الإجابة عليه هي: أنَّنا نأخذ الأحكام من القرآن باعتباره النَّصَّ الموحَى، المعصوم من التَّحريف، المنقولَ إلينا بالتَّواتر، وباعتباره كلمةَ الله الذي نؤمن بأنَّه الخالق، وأنَّنا ملتزمون في هذه الحياة الدنيا بما أمر ونهى (افعل أو لا تفعل)، وأنَّ هذه الأحكام والأوامر هي مقياس المؤاخذة في يومٍ آخِر؛ يرجعُ فيه البشَر إلى خالقهم للحساب.

فهنا الحجيَّة تعني لنا وضوحَ وظهورَ مرجعيَّة القرآن الكريم وحاكميَّته ومصدريَّته.

---

(1) لمعرفة تفاصيل الكلام في هذه النظريات ينظر كتاب الطريق إلى التراث الإسلامي لفضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة بداية من صـ79 ط. نهضة مصر، الطبعة الأولى 2004 م

النظرية الثانية: نظريةُ الإثبات.

يأتي سؤال آخر بعد ذلك، وهو كيف وصل لنا كل من القرآن والسنة، وكيف ثبت أنهما من عند الله تعالى؟

حيث تعاملَ الأصوليُّ مع النَّصِّ القرآني على أنَّه النَّص الثَّابت المتواتر عن رسول الله ﷺ عن جبريلَ -عليه السَّلام- عن ربِّ العزَّة -تبارك وتعالى- وقد ظهر هذا الثُّبوت من خلال علومٍ مثل القراءات وعلم الجرح والتَّعديل وما يصبُّ في جانب التَّوثيق.

فثبتَ باليقين العقليِّ الجازم على مستوى الحرف والأداء الصَّوتي أنَّ ما بين أيديهم هو النَّصُّ الإلهيُّ المقدَّس المُوحى به إلى سيِّدنا رسول الله ﷺ ثمَّ يتمُّ الانطلاق بعد ذلك إلى التَّعامل مع هذا النَّص بأدوات منضبطة، وذلك من خلال علوم القراءات وعلوم الحديث وغيرهما؟

النظرية الثالثة: نظريَّة الفَهْم:

يجيءُ بعد ذلك دور النَّظرية الثَّالثة، وهي نظرية الفَهْم، والسؤال هنا هو: كيف نفهم هذا النَّص الإلهيَّ المقدَّس (الحجَّة، الثَّابت لدينا)؟

فنحنُ أمام نصٍّ اعتبرناه حجَّةً، أثبتناه بطريق يطمئنُّ إليه العلماء طبقًا لمنهج علمي مستوفٍ لشروطه.

ولقد وضع الأصوليُّون لذلك أدوات تحليل وفهمٍ للنَّص مستمدِّين هذا من مجموع اللُّغة وقواعدِها ومفرداتِها وخصائصِها من ناحية، وكذلك من مجموع الأحكام الفقهيَّة المنقولة والشَّائعة من ناحية أخرى.

النَّظرية الرَّابعة: القطعيَّة والظَّنِّيَّة:

وإذ قد تمَّ تحديد المَصدر، وحجَّته، وإثباته، وفهمه، واجه الفقهاءَ سؤالًا حول مسألةُ القطعيِّ والظَّنِّيِّ، وهذا السؤال هو هل يكتفى بالأدوات اللغوية فقط لفهم النصوص،بحيث

يصح كل احتمال ناتج عن إعمال هذه الأدوات؟

حيث إنَّ الأدوات اللُّغوية وحدها لا تكفي لتفسير قوله تعالى ﴿... إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ [المائدة: 6]، حيث الفاء للتَّعقيب بها يمكن أن يفيد أنَّ الوضوء بعد الصَّلاة بحسب هذا التحليل اللغوي،أي: إذا ادَّعى مدَّعٍ هذا، لم يكن لدينا بمحض الأدوات اللُّغوية ما يمكن إيقافه، ومن هنا كان لا بدَّ من الاعتماد على الإجماع المنقول، الذي يخرج المسألة من دور الظَّنيَّة إلى القطعيَّة؛ بحيث لا يمكن في ظلِّ هذا النَّسق المتضمِّن للإجماع أن يقال: إنَّ الوضوء بعد الصَّلاة.

فالأدلة الكثيرة التي تشير إلى اعتماد الإجماع كمصدر من مصادر الأحكام وضابط مهم لفهم النصوص، كل ذلك جعل الأصوليين يفصلون في الإجماع كأحد أهم مصادر الشريعة الإسلامية؛بما يمثله من سقف للاجتهاد، وما يعكسه من ثبات هوية هذا الدين.

وفهمُ قضيَّة الإجماع في هذا الإطار يحرِّر كثيرًا من الخلاف حول المسألة، ويجعل كلامَ المؤيِّدين ذا معنى واضح وفائدةٍ مرجوة.

ونظريَّة القطعيَّة والظنيَّة هذه سيكون لها أكبر الأثر في قضايا الخلاف الفقهيِّ ومسألة الاجتهاد والإفتاء.

النَّظريَّة الخامسة: نظريَّة الإلحاق.

وإذ تمَّ تحديدُ الحجيَّة وإثباتُها وفهمُها في إطار القطعيَّة والظَّنيَّة، يأتي بعد ذلك دور الإلحاق،فمن المعلوم أنَّ النَّص متناهٍ في هيئتِه ولفظه وإن كان غير متناهٍ في معانيه ومناهجه، والوقائع غيرُ محدودةٍ ومتغيِّرة؛ فالنصُّ المحدود اللَّفظ عند إنزاله على الواقع النِّسبي المتغيِّر لا يشمل كلَّ الحوادث، وبالتالي فظهر سؤال مُفاده كيف يمكن لنا أن نجعل النص المحدود في ألفاظه أن يشمل الحوادث غير المتناهية؟ ومن هنا جاءت نظريَّة الإلحاق التي أخذت في مضمونها أشكالًا متعدِّدة، كالقياس وكإجراء الكُليِّ على جزئيَّاته، أو تطبيق المبدأ العامِّ على أفراده، فالكلُّ- حتَّى الظَّاهريَّة- قائلون بما يمكن أنَّ نسمِّيه الإلحاق، وإن أنكروا هيئةً

مخصوصةً منه؛ وهو القياس.

النَّظريَّة السَّادسة: نظريَّة الاستدلال:

بعد نظريَّة الإلحاق تأتي نظريَّة الاستدلال،والسؤال المبدئي: إذا كان كل من الكتاب والسنة دليلين أصليين فهل يمكن التوصل للحكم بواسطة أدلة أخرى قد تستند لهما؟ وقد قام النقاش حول تلك الأدلة كالعُرف، والعادة، وقولِ الصَّحابي، وشرعِ من قبلنا، ونحوها والتي رأى الأصوليُّ فيها مجموعة من المحدِّدات: حيثُ تؤثِّر بمعنى أو بآخر في الوصول إلى الحكم الشَّرعي، ممَّا ادَّعى معه بعضُهم أنَّها أدلَّة وأنكرها آخرون، فسُمِّيت الأدلَّةَ المُختلَفَ فيها.

النَّظريَّة السَّابعة: نظريَّة الإفتاء:

ثم تأتي نظريَّة الإفتاء وسؤالها المحوري: من الذي يحق له أن ينظر في الأدلة ويستنبط منها الأحكام الشرعية،وما هي شروطه وأهم القواعد التي يتمكن بها من تنزيل الحكم الشرعي على الواقع؟ وتشتمل هذه النظرية على ذكر المقاصد الشَّرعيَّة، والتَّعارض، والتَّرجيح،وهي الأمور المهمة من أجل تنزيل الحكم الشرعي على الواقع، مع شروط المجتهد والمفتي، بحيث يقوم من توافرت فيه شروط الاجتهاد والإفتاء بإصدار الحكم، ثُمَّ عرضِه على سقف المقاصد الشَّرعيَّة؛ بحيث لا يتعدَّاها، ومراجعةِ حكمه إن تعدَّاها حتى يتَّسِقَ معها بحيث لا تَكُرُّ على المقاصد بالبُطلان لِما فيه من عكس المطلوب.

القواعد الفقهيَّة وفهم النَّص القرآنيِّ:

تمثِّل «القواعد الفقهيَّة» المستنبطة من خلال استقراءِ النُّصوص الشَّرعيَّة والتَّأمُّل فيها أحدَ أهمِّ المكوِّنات التي يجب أن نحملَها ونستحضرَها في أذهانِنَا حين نفسِّرُ القرآن الكريم، فهي تمثِّل أبجديَّةً للتَّفكير السَّليم يقعُ تحتها الكثيرُ من المعاني القرآنيَّة الكُليَّة والجزئيَّة.

القواعدُ الفقهيَّة وأثرُها التفسيريُّ:

والقاعدة لغة:

القاعدة: أصل الأسِّ، والقواعد: الإساسُ، وقواعد البيت إساسه، وفي التَّنزيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: 127][1].

القاعدة في الاصطلاح:

وأمَّا معنى القاعدة في الاصطلاح الفقهيِّ فقد اختلف الفقهاء في تعريفها بناءً على اختلافهم في مفهومها هل هي قضيَّة كليَّة أو قضيَّة أغلبية؟ فمن نظر إلى أنَّ القاعدة هي قضيَّة كليَّةٌ عرَّفها بما يدلُّ على ذلك، ومن نظر إلى أنَّها قضية أغلبية نظرًا لما يستثنى منها عرَّفها بأنَّها: حكمٌ أكثريٌّ لا كلِّيٌّ ينطبق على أكثر جزئيَّاته لتُعرَف أحكامُها منه.

ونقول: «القاعدة أمرٌ كلِّيٌّ تشتمل على أحكام جزئيَّاتها غالبًا».

ويمكن أن يشتمل هذا الأمرُ الكلِّيُّ على أحكام من أبواب شتَّى متعدَّدة ومتنوِّعة (الصلاة، الزكاة، الأنكحة...) فهو قاعدة.

وإذا كان هذا الأمر الكلِّيُّ الذي يشتمل على أحكام جزئيَّاته غالبًا في مسألة بعينها أو باب بخصوصه أسموه بـ «الضَّابط»[2]

وقد تكلَّم أهلُ العلم عن أهميَّة هذه القواعد الفقهيَّة ومجالات عملها في النُّصوص

---

(1) انظر: لسان العرب (3/ 361) المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى – الناشر: دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – 1414 هـ.

(2) قال ابن نجيم: والفرق بين الضابط والقاعدة أن القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتى، والضابط يجمعها من باب واحد انظر الأشباه والنظائر لابن نجيم الحنفي المصري (1/ 137) ط.دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، مويمكن التمثيل للضابط بما قالوه بخصوص ضابط الحجر في باب الاستنجاء؛ حيث قالوا إنه كل جامد طاهر قالع غير محترم انظرالإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني (1 / 54).

الشَّرعيَّة فقال الإمام القرافيُّ - رحمه الله تعالى- في كتابه «الفروق»: «هي قواعد كليَّة فقهيَّة جليلةٌ، كثيرة العدد، عظيمة المدد، مشتملة على أسرار الشرع وحِكَمه»، إلى أن قال: «وهذه القَواعد مهمَّة في الفقه عظيمة النَّفع، وبقدر الإحاطة بها يعظُم قدرُ الفقيه ويشرُف، ويظهر رونق الفقه ويعرف، وتتَّضح مناهج الفتاوى وتُكشف، فيها تنافس العلماء وتفاضل الفُضلاء، وبرز القارِح على الجذَع، وحاز قصب السَّبْق من فيها برع، ومن جعل يُخرِّج الفروع بالمناسبات الجزئيَّة دون القواعد الكليَّة تناقضَتْ عليه الفروع واختلفت وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاقت نفسُه لذلك وقنطَتْ، واحتاج إلى حفظ الجزئيَّات التي لا تتناهى وانتهى العمر ولم تَقضِ نفسُه من طلب مُنَاها، ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيَّات لاندراجها في الكليَّات، واتَّحد عنده ما تناقضَ عند غيره وتناسب»(1).

فالقَواعد الفقهيَّة هي التي يمكن من خلالها أن نعلِّمَ النَّاس كيف تقرأ؛ حيث إنَّ هذا يمثِّل أبجديَّة عقليَّة للتَّفكير المستقيم، وهي القواعدُ التي اعتنى بها الفقهاءُ، وتأمَّلوا الشَّريعة فتوصلوا إليها، وأَخصُّ منها أمَّهات القواعد الفقهيَّة، التي يتفرَّع عنها غيرها من قواعدَ كثيرةٍ، وأعني بها القواعد الخمسة التي يمكن أن تصيرَ مكوِّنًا من المكوِّنات التي نَدْخُل بها لتفسير القرآن الكريم، فمِنْها:

1- الأمور بمقاصدها.

2- الضَّرر يُزَال.

3- العادة مُحكَّمة «العُرف معتبر».

4- المشقَّة تجلب التَّيسير.

5- اليقين لا يزول بالشَّك.

---

(1) انظر: الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق (1/ 3) المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي- الناشر: عالم الكتب- بدون طبعة وبدون تاريخ.

فهذه القواعد جزءٌ من أدوات التَّفسير التي نُكَوِّن بها مداخل التَّفسير، وهي طريق لقراءةٍ كليَّةٍ للنَّص القرآنيِّ، حيث إنَّها تعبِّر عن مقاصد شرعية وأهدافٍ قرآنيَّة، وقد نظمها بعضُهم في أبياتٍ لطيفة؛ ليسهلَ حفظها، فقال:

خمسٌ محرَّرةٌ قواعدُ مذهبٍ ... للشافعيّ بها تكونُ بصيرا

ضررٌ يزال وعادةٌ قد حُكِّمت ... وكذا المشقَّة تجلبُ التَّيسيرا

والشَّكَّ لا ترفعْ به متيقنًا ... وخلوصُ نيَّةٍ إن أردت أُجُورا

هذه القَواعد الخمسُ التي بنى عليها الإمام السُّيوطيُّ كتابه «الأشباه والنَّظائر»، وجعلَ هذه الخمس أمَّهات القواعد الفقهيَّة، ويتفرَّع عنها غيرُها من قواعدَ لا تحصى ولا تُعَدُّ، هذه القواعد الخمسُ مكوِّنٌ من المكوِّنات التي ندخل بها لتفسير القرآن الكريم وهي:

- الضَّرَرُ يُزَالُ: فالشَّريعة لا تأتي بضررٍ أبدًا، ولا ترغب فيه ولا تحبُّه؛ بل إنَّها تُزيل هذا الضَّرر.

- العَمَلُ بِالعُرْفِ: كما قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، فالقرآنُ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، والعُرف معتبرٌ ما لم يخالفْ أمرًا إلهيًّا أو نبويًّا أُمِرْنا باتِّباعه.

- المَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِرَ: كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح: 5، 6]، وقال أيضًا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ [الحج: من الآية 78].

إذن، فالمشقَّة تجلب التَّيسير، وهذه هي روح الشريعة.

- الشَّكُّ لَا يَرْفَعُ الْيَقِينَ؛ ولذلك فلا يصح الخروج من الصلاة للشك في نقض الوضوء؛ لأن اليقين الطهارة.

- والأمور بمقاصدها: هي القاعدة التي يدخل تحتها سبعون بابا من أبواب الفقه وهي داخلة تحت قوله ﷺ- فيما أخرجه البخاريُّ في صدر «صحيحه»-: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا**

لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...»[1]، وهو يفسِّر قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: من الآية14]، فلابدَّ علينا من الإخلاص وتوجيه النِّيَّة لله، ولا بدَّ علينا بأن يكون كلُّ ذلك صافيًا لا تشوبُه شائبة.

كلَّ هذا لابدَّ من مراعاته أثناء التَّفسير، ونحن نبحث عن أصول المسائل، وعن عناصر صناعة الحضارة، وعن العلاقات بين الأُمم، وعن العلاقة بين الرَّجل والمرأة، وعن العلاقة بين الإنسان والكون، وعن العِلاقة بين المخلوق والخالق، وعن كيفيَّة تكوين أصولِ العبادة، وكيفيَّة تكوين أصول العِمْران والتَّمدُّن، وكيفيَّة تكوين أصول التَّزكية، وكيفيَّة استخراج القِيَم والمعاني الرَّاقية كأحكام الطُّفولة، ومعاني حفظ البِيْئة، ومعاني السَّعي في الأرض بالهدى، وتصحيح صورة الإسلام في العالَمين؛ ممَّا يُنشِئُ العِلاقة بين العبد وربِّه، وبين العبد والكون، وبين العبد ونفسِه.

***

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**» (1907) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

المبحث السابع
القراءات القرآنية وأثرها في فهم النص القرآني

تمهيد:

من أهم المباحث القرآنية التي تعين الباحث والعالم والمفسر على فهم النص القرآني والتوصل إلى معاني آيات الكتاب الكريم ومعرفة المراد الإلهي وبيان الاتساع الدلالي لكلام الله وتنوعه «مبحث القراءات القرآنية»[1] بحيث يمكن أن تعد جزءا من قانون تفسير القرآن ومكون من مكوناته الهامة التي تكمل المنهج الصحيح للتعامل مع كتاب الله إلى جانب الأركان الأخرى لهذا القانون.

تعريف القراءات:

- **ففي اللغة: القراءات في اللغة:** جمع قراءة، ومعناها الجمع والاجتماع[2]. فالقراءة مصدر من قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، فهو قارئ، وهم قراء وقارئون[3].

(1) يقول ابن الجزري رحمه الله: «كُلُّ قِرَاءَةٍ وَافَقَتِ الْعَرَبِيَّةَ - وَلَوْ بِوَجْهٍ - وَوَافَقَتْ أَحَدَ الْمَصَاحِفِ الْعُثْمَانِيَّةِ - وَلَوِ احْتِمَالًا - وَصَحَّ سَنَدُهَا، فَهِيَ الْقِرَاءَةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي لا يَجُوزُ رَدُّهَا، وَلا يَحِلُّ إِنْكَارُهَا، بَلْ هِيَ مِنَ الأَحْرُفِ السَّبْعَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَى النَّاسِ قَبُولُهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ عَنِ الأَئِمَّةِ السَّبْعَةِ، أَمْ عَنِ الْعَشَرَةِ، أَمْ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الأَئِمَّةِ الْمَقْبُولِينَ، وَمَتَى اخْتَلَّ رُكْنٌ مِنْ هَذِهِ الأَرْكَانِ الثَّلاثَةِ، أُطْلِقَ عَلَيْهَا ضَعِيفَةٌ، أَوْ شَاذَّةٌ، أَوْ بَاطِلَةٌ، سَوَاءٌ كَانَتْ عَنِ السَّبْعَة، أَمْ عَمَّنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُمْ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَئِمَّةِ التَّحْقِيقِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ». (انظر: النشر في القراءات العشر (1/ 9) المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: 833 هـ) - المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى 1380 هـ) -الناشر: المطبعة التجارية الكبرى).

(2) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة قرأ، (5 / 79).

(3) انظر: تاج العروس، مادة قرأ، (1 / 101).

فالعالم بالقراءة يسمى مقرئًا وقارئًا، ومعناه العابد الناسك[1].

- **وفي الاصطلاح**: للقراءات في الاصطلاح تعريفات عدة منها ما هو قريب من هذا المعنى اللغوي ومنها ما هو بعيد، فيعرفها بعضهم بقوله:

القراءات: علم يعرف به اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب والحذف والإثبات والتحريك والإسكان والفصل والاتصال[2].

ومنهم من عرفها بقوله: هو علم يبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة... وقد يبحث فيه أيضًا عن صور نظم الكلام من حيث الاختلافات الغير متواترة الواصلة إلى حد الشهرة[3].

وعرفها الشيخ الدمياطي بقوله: علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في الحذف والإثبات، والتحريك والتسكين، والفصل والوصل، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال، وغيره من حيث السماع[4].

فعندنا للقرآن الكريم عشر قراءات متواترة متصلة السند برسول الله ﷺ قد وصلت إلينا في أعلى درجات التوثيق والذي تعرضنا له في مباحث سابقة. وقد تلقى النبي ﷺ القرآن الكريم عن جبريل عليه السلام بقراءات مختلفة منضبطة غاية الانضباط وصلت إلينا. في تأكيد من رب العالمين لمعجزة حفظ القرآن الكريم ليس فقط مرة ولا مرتين ولا أربع فقط بل إلى عشر مرات تمثلها العشر قراءات.

فنعرف أن هذه قراءة عاصم وأن هذه قراء نافع وأن هذه قراءة الكسائي أو قراءة أبي

---

(1) انظر: أساس البلاغة (1 / 100).

(2) انظر: لطائف الإشارات للقسطلاني (1/ 170).

(3) انظر:: مفتاح السعادة (2/ 6).

(4) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (1/ 67).

عمرو أو قراءة أبي عامر أو قراءة يعقوب أو قراءة حمزة وإلى آخره من القراءات حتى تتم عشر قراءات وكلها نزلت على النبي ﷺ من عند رب العالمين وكلها تلقاها رسول الله ﷺ من أمين الوحي جبريل عليه السلام وعلمها النبي ﷺ للصحابة الكرام وانتقلت عن طريقهم للأمة في تواتر مستمر لم ينقطع.

هذه القراءات العشر تثبت نزول القرآن وحفظه على جهة معجزة لا يمكن لعقل بشر أن يحيط بها ويتصورها فالقرآن محفوظ في لفظه وتلاوته، ومحفوظ في رسمه، ومحفوظ على وجه الحرف، ومحفوظ بطرق عشرة هي القراءات.

ففي القراءات على سبيل المثال نرى قراءة تقوم بلفظ هيكل الكلمة ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وقراءة أخرى تقرأ نفس الهيكل ﴿فتثبّتوا﴾وكلهما نزل بهما أمين الوحي جبريل عليه السلام وعلمهما لرسول الله ﷺ فمرة علمها جبريل للنبي ﷺ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ومرة﴿فتثبّتوا﴾ فتلقى النبي القرآن وحفظه من جبريل عليه السلام بتلك القراءات العشر كما سنورد الأحاديث الدالة على ذلك فيما بعد وكثير من أهل العلم عندنا من مشايخنا الكرام يحفظ القرآن الكريم كاملًا بتلك القراءات العشر المتواترة عن النبي ﷺ وترى العجب العجاب في حفظهم وإتقانهم لهذا الطريق وهذا الحفظ هو نوع من تحقيق وعد الله عز وجل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

وهنا نشير إلى أمر وهو أن الناس تعتقد أن رواية حفص عن عاصم الشهيرة التي بين أيدينا أنها هي فقط التي حفظت، أو نقلت عن رسول الله ﷺ، وهذا ليس بصحيح، فالقرآن نزل من عند رب العالمين بقراءات عشر وحفظت هذه القراءات إلى يومنا في تواتر لا ينقطع، فتتلى القراءات المتنوعة في مشارق الأرض ومغاربها وتدرس في معاهد القراءات وكلية القرآن الكريم وحملها العلماء والقراء جيلًا بعد جيل وقاموا بنقلها مسندة كما تلقوها إلى الآلاف من حملة القراءات في العالم كله.

والقرآن الكريم ظل فترة طويلة إلى عصر الحجاج يكتب من غير نقط ولا تشكيل بل

يكتب بهيكل الكلمة، وينقل مشافهة مع هذه الكتابة فنرى على سبيل المثال في الآية الكريمة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [يوسف: 111]. قراءتان قراءة بِالتَّشْدِيدِ﴿كُذِّبُوا﴾ وقراءة بالتخفيف ﴿كُذِبُوا﴾ فهما مأخوذتان من النبي ﷺ بهاتين القراءتين، فالقراءة الأولى التي بالتشديد تجعل الضمير في ظنوا عائدا على المرسلين؛ أي تيقنوا أن أقوامهم كذبوهم، والقراءة الثانية التي بالتخفيف تجعل الضمير في ظنوا يعود على الأقوام، أي شكوا في كذب رسلهم، وكلاهما حصل ولا تنقض قراءة أخرى.

والفرق بين هذه القراءات قد يكون بسبب وجود تقديم في قراءة وتأخير في قراءة؛ فمثلا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111]. فَقَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو وَعَاصِم وَابْن عَامر ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فَاعل ومفعول، وَقَرَأَ حَمْزَة والكسائى﴿فَيُقْتَلَونَ وَيَقْتُلُونَ﴾مفعول وفاعل، ففي القراءة الأولى نأخذ معنى الاهتمام بجهاد العدو وتقديمه لأنه نفع متعدي وفي القراءة الثانية نأخذ معنى آخروهو الاهتمام بالشهادة لعظم فضل الشهداء عند الله، فأصبح النص الواحد بسبب تنوع القراءات يعطيني أكثر من معنى فتتسع الدلالة القرآنية.

فعند التعرض لتفسير آيات القرآن الكريم يجب على المفسر كمدخل من مداخل معرفة المراد الإلهي للآيات، أو استنباط المعاني المقبولة، واستبعاد المعاني الغير مقبولة التعرف على وجوه تنوع نطق الألفاظ والمفردات القرآنية بين القراءات الثابتة والمتواترة عن رسول الله ﷺ، والتي نقلها أئمة القراءات وتلقتها الأمة عنهم وذلك لأننا بالاستقراء والتتبع لتنوع أداء اللفظة الواحدة واختلاف نطقها بين القراءات وجدنا أثرًا كبير لهذا التنوع في بيان معني النص القرآني من حيث اتضاح المعنى الكلي لآية معينة أو كلمة ما من خلال التعرف على قراءة أخرى أو تكثير المعاني وتنوعها بحيث يكون تعدد القراءات للفظة الواحدة في كتاب الله في كثير من الأحيان قائمًا مقام تعدد الكلمات، وكل قراءة تضيف للقراءة الأخرى معنى

جديدًا من المعاني لا يلغي المعنى الأول، فالقراءات يكمل بعضها بعضا، وليس بينها تنافر فهي أبعاض القرآن الكريم، وهذا وجه من وجوه إعجاز القراءات ودليل من أدلة عظمة القرآن الكريم وأنه كلام رب العالمين، فمع هذا الاختلاف بين القراءات مع كثرتها لا يوجد بينها شبهة تناقض أو تضاد، بل هذه القراءات يصدق بعضها البعض ويشهد بعضها لبعض ويحمل بعضها على البعض.

بل قد وجدنا أن الاختلاف بين القراءات القرآنية سببًا من أسباب تنوع الحكم الفقهي المستنبط من الآيات القرآنية، وكذلك كانت القراءات القرآنية المختلفة مصدرًا للشواهد اللغوية والنحوية، على النحو الآتي تفصيله.

ولذلك دأب أهل التفسير على ذكر القراءات ووجوهها للوقوف من خلالها على تفسير الآيات فيستنبطون من كل حرف في قراءة معنى لا يوجد في القراءة الأخرى وإن كان لا يوجد بين هذه المعاني تضاد وهذه أحد أوجه الإعجاز القرآني.

وعلى ذلك فمنطلق المسلم في تعامله مع قضية القراءات القرآنية أن كل ما صح عن النبي ﷺ يجب قبوله والإيمان به أنه منزل من عند الله على قلب النبي ﷺ فكل قراءة ثابتة هي قرآن من عند رب العالمين يجب الإيمان بها واتباع ما تضمنته من المعاني علمًا وعملًا.

من فوائد علم القراءات:

بالإضافة لفوائد دراسة القراءات من معرفة وجوه معاني القرآن الكريم ودلالة آياته على الأحكام الشرعية، فكذلك من أهم فوائد علم القراءات حفظ اللغة، فإن اللغات المختلفة كالإمالة والتسهيل والترقيق والتفخيم والإشمام وصفات حروف اللغة العربية ليس لها إسناد متواتر إلى قبائل العرب الأولى إلا من خلال علم القراءات، وإذا كان أهل النحو واللغة لا يعتمدون في نقلهما عن العرب إلا على القرون الأولى كشرط إثبات شاهد لغوي لاختلاط القبائل العربية بالعجم بعد ذلك وتأثر فصاحتهم، فإن علم القراءات أبقى هذه اللغات منقولة مشافهة من الشيخ إلى تلميذه حتى زماننا هذا، ولا تستطيع أن تتحقق من التسهيل

والإشمام التي هي لغات بعض العرب إلا من خلال القراءات.

وتتضح كذلك أهمية دراسة علم القراءات أكثر في واقعنا المعاصر لكونها أصبحت من الشبه التي يتخذ منها أعداء الإسلام وسيلة للتشكيك والطعن في القرآن الكريم من خلال تعدد قراءاته لذلك أولاها المستشرقون اهتمامًا خاصًّا ليجعلوها طريقًا للطعن في القرآن عن طريق إدعاء وجود الاختلاف فيه، ورد هذا الأمر سهل وبسيط جدًّا عند من عنده أقل معرفة بعلوم القراءات القرآنية، وهو أن هذه القراءات تلقاها النبي ﷺ عن جبريل عليها السلام ثم تلقاها الصحابة الكرام عن رسول الله ﷺ وقاموا بنقلها إلى الأمة بعد ذلك، في تواتر لم ينقطع عبر السنين، فكل قراءة من هذه القراءات هي تنزيل إلهي قطعي نزل على النبي ﷺ فكل قراءة من القراءات هي قرآن موحى به من رب العالمين.

القراءات القرآنية في السنة النبوية:

وقد صح عن النبي ﷺ إرشاد الأمة إلى اعتبار القراءات وعدم الاختلاف فيها وبيان أن هذه القراءات هي وجه من وجوه الرحمة للأمة، وهي مظهر من مظاهر رفع الحرج عن الأمة في قراءة كتاب ربها، وقد ظهر هذا الإرشاد جليًا واضحًا في كتب السنة الشريفة وجاءت صور التنوع والاختلاف بين القراءات في الأحاديث الشريفة مقررةً هذه القضية وموضحة معانيها ومتعلقاتها.

فقد جاء في صحيح مسلم «باب ما يتعلق بالقراءات»، وعقد الإمام أبو داود في سننه كتابًا أسماه «كتاب الحروف والقراءات» وعقد الإمام الترمذي في سننه كتاب«أبواب القراءات عن رسول الله ﷺ» فقد روي بالأسانيد المتصلة إلى رسول الله ﷺ في كتب السنة ما يتعلق بقضية القراءات بما يبين حقيقتها، وجاء في بعض النصوص النبوية جملة من نماذج القراءات المتواترة عن رسول الله ﷺ.

فقد روى البخاري رحمه الله في صحيحه فقال: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ

الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَنْ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عَنْ حَدِيثِ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ، أَنَّهُمَا سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَؤُهَا عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ، لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: كَذَبْتَ فَوَ الله إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَهُوَ أَقْرَأَنِي هَذِهِ السُّورَةَ، الَّتِي سَمِعْتُكَ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَقُودُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، وَإِنَّكَ أَقْرَأْتَنِي سُورَةَ الفُرْقَانِ، فَقَالَ: «**يَا هِشَامُ اقْرَأْهَا**» فَقَرَأَهَا القِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ**» ثُمَّ قَالَ: «**اقْرَأْ يَا عُمَرُ**» فَقَرَأْتُهَا الَّتِي أَقْرَأَنِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**»(1).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»(2).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَضَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَقَالَ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: «**أَسْأَلُ اللهَّ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ**»، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقَالَ: «**أَسْأَلُ اللهَّ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تُطِيقُ ذَلِك**»، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلاَثَةِ أَحْرُفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللهَّ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ،

(1) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن: بَابُ: مَنْ لَمْ يَرَ بَأْسًا أَنْ يَقُولَ: سُورَةُ البَقَرَةِ، وَسُورَةُ كَذَا وَكَذَا (5041) عَنْ المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه به.

(2) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، بَابُ: ذِكْرِ المَلاَئِكَةِ (3219) ومسلم في كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب: بيان أن القرآن على سبعة أحرف (819) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَؤُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا(1).

و عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ خِلافَهَا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الكَرَاهِيَةَ، وَقَالَ: «**كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ، وَلاَ تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**»(2). وقد ورد في روايات أخرى قول النبي ﷺ «**هكذا أُنْزِلَتْ**» فأقر النبي ﷺ القراءتين وأخبر بأنها هكذا نزلت من عند الله تعالى.

وروي الترمذي في سننه عن أبي بن كعب، قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل، فقال: «**يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين: منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط**»، قال: يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»(3).

وقد حمل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه المعانى للأمة وأخبر به فقال: «لَا تَخْتَلِفُوا فِي الْقُرْآنِ وَلَا تَنَازَعُوا فِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ وَلَا يَتَسَاقَطُ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ فِيهِ وَاحِدَةٌ، حُدُودُهَا وَقِرَاءَتُهَا وَأَمْرُ الله فِيهَا وَاحِدٌ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْحَرْفَيْنِ حَرْفٌ يَأْمُرُ بِشَيْءٍ يَنْهَى عَنْهُ الْآخَرُ كَانَ ذَلِكَ الِاخْتِلَافَ، وَلَكِنَّهُ جَامِعٌ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَمَنْ قَرَأَ عَلَى قِرَاءَةٍ فَلَا يَدَعْهَا رَغْبَةً عَنْهَا، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنْهُ كَفَرَ بِهِ كُلِّهُ»(4).

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (1858) من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (3289) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(3) أخرجه الترمذي في كتاباب ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف (2944) من طريق أحمد بن منيع، قال: حدثنا الحسن بن موسى، قال: حدثنا شيبان، عن عاصم، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به مرفوعًا. وقال عنه الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(4) انظر: محاسن التأويل (1/ 194) المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي =

أثر القراءات في التفسير وإدراك المعاني:

بعد أن ثبت لدينا أمر القراءات القرآنية من حيث الوجود وصحة النسبة إلى رسول الله ﷺ ننتقل إلى أثر تنوع واختلاف القراءات القرآنية في اتساع المعنى واختلاف الدلالات وفي استنباط الأحكام الشرعية بما يجعل من علم القراءات أحد الأدوات المهمة للقراءة الصحيحة لكتاب الله وأحد أركان قانون التفسير المتيقنة لأن تفسير القرآن من خلال القراءات هو من قبيل تفسير القرآن بالقرآن وهذا هو أبلغ درجات البيان للمعاني، فقد أثرت القراءات القرآنية في علم التفسير بحيث أصبحت من أهم مباحثه، ويجب أن يعلم أن اختلاف القراءات منه ما له أثر في اختلاف المعاني واتساع الدلالة التفسيرية، ومنه ما لا أثر له وذلك يوجد عندما تختلف الألفاظ والمعنى واحد، أو يكون الاختلاف في وجوه النطق بالحروف والحركات كمقدار المد والإمالة والتخفيف والتسهيل والتحقيق والجهر والهمس والغنة، فهذا لا أثر له في تغير المعنى إذ هذه الصفات المتنوعة في أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحدا.

أما ما له أثر في التفسير من كلمات متنوعة تختلف فيها الحروف والحركات فالاختلاف فيه بين القراءات ينتج منه أمور منها فيما يخص المعنى.

وقد تكلم أهل العلم عن قضية أثر القراءات في التفسير بحيث بينوا معالمها حتى لا يظن ظانّ أن تنوع القراءات يمكن أن يؤدي إلى تناقض أو تضاد بين المعاني القرآنية وكذلك تكلموا عن أثر القراءات القرآنية في توجيه واتساع المعنى.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

«ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض

=

(المتوفى: 1332هـ)- المحقق: محمد باسل عيون السود- الناشر: دار الكتب العلميه - بيروت-الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

المعنى وتضاده؛ بل قد يكون معناها متفقا أو متقاربا، كما قال عبد الله بن مسعود: «إنما هو كقول أحدكم أقبل وهلم وتعال». وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر؛ لكن كلا المعنيين حق وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض...

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقا من وجه متباينا من وجه كقوله: (يَخْدَعُون ويُخَادِعون)، و(يَكْذِبون ويُكَذِّبون)، و(لَمَسْتُم ولامَسْتُم)، و(حتى يَطْهُرْن ويَطَّهَرْن). ونحو ذلك فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظنا أن ذلك تعارض بل كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من كفر بحرف منه فقد كفر به كله»(1).

يقول الإمام ابن الجزري رحمه الله: «وأما حقيقةُ اختلاف هذه السبعة الأحرف المنصوص عليها من النبي ﷺ وفائدته: فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض، فإن هذا محال أن يكون في كلام الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. وَقَدْ تَدَبَّرْنَا اخْتِلَافَ الْقِرَاءَاتِ كُلِّهَا فَوَجَدْنَاهَا لَا تَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ:

(أَحَدُهَا) اخْتِلَافُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

(الثَّانِي) اخْتِلَافُهُمَا جَمِيعًا(2) مَعَ جَوَازِ اجْتِمَاعِهِمَا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ.

(الثَّالِثُ) اخْتِلَافُهُمَا جَمِيعًا مَعَ امْتِنَاعِ جَوَازِ اجْتِمَاعِهِمَا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، بَلْ يَتَّفِقَانِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ لَا يَقْتَضِي التَّضَادَّ.

(1) انظر: مجموع الفتاوى(13/ 392-391).

(2) أي اللفظ والمعنى.

فَأَمَّا الْأَوَّلُ(1): فَكَالِاخْتِلَافِ فِي (الصِّرَاطَ(2)، وَعَلَيْهِمْ(3)، وَيُؤَدِّهِ(4)، وَالْقُدُسِ(5)، وَيَحْسَبُ(6)) وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لُغَاتٌ فَقَطْ.

وَأَمَّا الثَّانِي(7): فَنَحْوُ (مَالِكِ، وَمَلِكِ) فِي الْفَاتِحَةِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ فِي الْقِرَاءَتَيْنِ هُوَ اللهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ وَمَلِكُهُ وَكَذَا (يُكَذِّبُونَ، وَيَكْذِبُونَ)؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا هُمُ الْمُنَافِقُونَ لِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَيَكْذِبُونَ فِي أَخْبَارِهِمْ وَكَذَا (كَيْفَ نُنْشِرُهَا) بِالرَّاءِ وَالزَّايِ(8)؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا هِيَ الْعِظَامُ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَنْشَرَهَا أَيْ: أَحْيَاهَا، وَأَنْشَزَهَا أَيْ: رَفَعَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ حَتَّى الْتَأَمَتْ فَضَمِنَ اللهُ تَعَالَى الْمَعْنَيَيْنِ فِي الْقِرَاءَتَيْنِ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ(9): فَنَحْوَ (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا) بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، وَكَذَا (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) بِفَتْحِ اللَّامِ وَرَفْعِ الْأُخْرَى وَبِكَسْرِ الْأُولَى وَفَتْحِ الثَّانِيَةِ، وَكَذَا (لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا، وَفَتَنُوا) بِالتَّسْمِيَةِ وَالتَّجْهِيلِ، وَكَذَا قَالَ: (لَقَدْ عَلِمْتَ) بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِهَا، وَكَذَلِكَ مَا قُرِئَ شَاذًّا (وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعِمُ) عَكْسَ الْقِرَاءَةِ الْمَشْهُورَةِ، وَكَذَلِكَ (يُطْعِمُ وَلَا يُطْعِمُ) عَلَى التَّسْمِيَةِ فِيهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَإِنِ اخْتَلَفَ لَفْظًا وَمَعْنَى وَامْتَنَعَ اجْتِمَاعُهُ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّهُ يَجْتَمِعُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ يَمْتَنِعُ فِيهِ التَّضَادُّ وَالتَّنَاقُضُ. فَأَمَّا وَجْهُ تَشْدِيدِ

(1) أي اختلاف اللفظ والمعنى واحد.

(2) الصراط بالصاد على قراءة، وبالسين على قراءة أخرى والمعنى واحد.

(3) عليهم بكسر الهاء في قراءة وبضمها في قراءة أخرى وهما لغتان صحيحتان.

(4) يؤده: بتسكين الهاء على قراءة، واختلاس الكسر أو إشباع الكسرة على أخرى.

(5) القدس بإسكان الدال على قراءة، وبضمها على قراءة أخرى.

(6) يحسب بكسر السين على قراءة، وبفتحها على قراءة أخرى.

(7) اختلاف اللفظ والمعنى مع إمكان الجمع بين المعنيين.

(8) ننشزها.

(9) اختلاف اللفظ والمعنى مع عدم إمكان الجمع.

(كُذِّبُوا) فَالْمَعْنَى وَتَيَقَّنَ الرُّسُلُ أَنَّ قَوْمَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، وَوَجْهُ التَّخْفِيفِ: وَتَوَهَّمَ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كَذَبُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، فَالظَّنُّ فِي الْأُولَى يَقِينٌ، وَالضَّمَائِرُ الثَّلَاثَةُ لِلرُّسُلِ، وَالظَّنُّ فِي الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ شَكٌّ، وَالضَّمَائِرُ الثَّلَاثَةُ لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ. وَأَمَّا وَجْهُ فَتْحِ اللَّامِ الْأُولَى وَرَفْعِ الثَّانِيَةِ مِنْ (لَتَزُولُ) فَهُوَ أَنْ يَكُونَ (إِنْ) مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيْ: وَإِنَّ مَكْرَهُمْ كَانَ مِنَ الشِّدَّةِ بِحَيْثُ تَقْتَلِعُ مِنْهُ الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ مِنْ مَوَاضِعِهَا، وَفِي الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ (إِنْ) نَافِيَةٌ، أَيْ: مَا كَانَ مَكْرُهُمْ وَإِنْ تَعَاظَمَ وَتَفَاقَمَ لِيَزُولَ مِنْهُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدِينُ الْإِسْلَامِ، فَفِي الْأُولَى تَكُونُ الْجِبَالُ حَقِيقَةً وَفِي الثَّانِيَةِ مَجَازًا.

وَأَمَّا وَجْهُ (مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا) عَلَى التَّجْهِيلِ فَهُوَ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا، وَفِي التَّسْمِيَةِ يَعُودُ إِلَى الْخَاسِرُونَ. وَأَمَّا وَجْهُ ضَمِّ تَاءِ (عَلِمْتُ)، فَإِنَّهُ أَسْنَدَ الْعِلْمَ إِلَى مُوسَى حَدِيثًا مِنْهُ لِفِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ، فَقَالَ مُوسَى عَلَى نَفْسِهِ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾، فَأَخْبَرَ مُوسَى- عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَنْ نَفْسِهِ بِالْعِلْمِ بِذَلِكَ، أَيْ أَنَّ الْعَالِمَ ذَلِكَ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ، وَقِرَاءَةُ فَتْحِ التَّاءِ أَنَّهُ أَسْنَدَ هَذَا الْعِلْمَ لِفِرْعَوْنَ مُخَاطَبَةً مِنْ مُوسَى لَهُ بِذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ لِشِدَّةِ مُعَانَدَتِهِ لِلْحَقِّ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَكَذَلِكَ وَجْهُ قِرَاءَةِ الْجَمَاعَةِ يُطْعِمُ بِالتَّسْمِيَةِ، وَلَا يُطْعَمُ عَلَى التَّجْهِيلِ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي (وَهُوَ) يَعُودُ إِلَى اللهَّ تَعَالَى، أَيْ: وَاللهُ تَعَالَى يَرْزُقُ الْخَلْقَ وَلَا يَرْزُقُهُ أَحَدٌ، وَالضَّمِيرُ فِي عَكْسِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ يَعُودُ إِلَى الْوَلِيِّ، أَيْ: وَالْوَلِيُّ الْمُتَّخَذُ يُرْزَقُ وَلَا يَرْزُقُ أَحَدًا، وَالضَّمِيرُ فِي الْقِرَاءَةِ الثَّالِثَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، أَيْ: وَاللهُ يُطْعِمُ مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُطْعِمُ مَنْ يَشَاءُ. فَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقِرَاءَاتِ تَنَافٍ وَلَا تَضَادٌّ وَلَا تَنَاقُضٌ»(1).

من فوائد تعدد القراءات في الآية الواحدة:

وقد ذكر الإمام ابن الجزري رحمه الله عدة وجوه تظهر الأثر الذي يصنعه تعدد القراءات

(1) انظر: النشر في القراءات العشر (1/ 51).

فمن ذلك:

– مَا يَكُونُ مُرَجِّحًا لِحُكْمٍ اخْتُلِفَ فِيهِ، كَقِرَاءَةِ (أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ فِيهَا تَرْجِيحٌ لِاشْتِرَاطِ الْإِيمَانِ فِيهَا كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ وَلَمْ يَشْتَرِطْهُ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ الله–.

– مَا يَكُونُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ حُكْمَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ (يَطْهُرْنَ) و(يَطَّهَّرْنَ) بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ يَنْبَغِي الْجَمْعُ، وَهُوَ أَنَّ الْحَائِضَ لَا يَقْرَبُهَا زَوْجُهَا حَتَّى تَطْهُرَ بِانْقِطَاعِ حَيْضِهَا وَتَطْهُرَ بِالِاغْتِسَالِ(1).

– مَا يَكُونُ لِأَجْلِ اخْتِلَافِ حُكْمَيْنِ شَرْعِيَّيْنِ كَقِرَاءَةِ وَأَرْجُلَكُمْ بِالْخَفْضِ وَالنَّصْبِ، فَإِنَّ الْخَفْضَ يَقْتَضِي فَرْضَ الْمَسْحِ وَالنَّصْبَ يَقْتَضِي فَرْضَ الْغَسْلِ فَبَيَّنَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فَجَعَلَ الْمَسْحَ لِلَابِسِ الْخُفِّ وَالْغَسْلَ لِغَيْرِهِ.

– مَا يَكُونُ لِإِيضَاحِ حُكْمٍ يَقْتَضِي الظَّاهِرُ خِلَافَهُ كَقِرَاءَةِ (فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِالله(2))؛ فَإِنَّ قِرَاءَةَ فَاسْعَوْا يَقْتَضِي ظَاهِرُهَا الْمَشْيَ السَّرِيعَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَكَانَتِ الْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى مُوَضِّحَةً لِذَلِكَ وَرَافِعَةً لِمَا يُتَوَهَّمُ مِنْهُ.

– مَا يَكُونُ مُفَسِّرًا لِمَا لَعَلَّهُ لَا يُعْرَفُ مِثْلَ قِرَاءَةِ (كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ(3)).

– مَا يَكُونُ حُجَّةً لِأَهْلِ الْحَقِّ وَدَفْعًا لِأَهْلِ الزَّيْغِ كَقِرَاءَةِ (وَمِلْكًا كَبِيرًا) بِكَسْرِ اللَّامِ وَرَدَتْ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ وَغَيْرِهِ وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ دَلِيلٍ عَلَى رُؤْيَةِ الله تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

– مَا يَكُونُ حُجَّةً بِتَرْجِيحِ لِقَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ كَقِرَاءَةِ (أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ(4)) إِذِ اللَّمْسُ يُطْلَقُ عَلَى الْجَسِّ وَالْمَسِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ أَيْ: مَسُّوهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ

(1) وهو مذهب الإمام الشافعي

(2) هي وردت عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وليست من القراءات المتواترة

(3) قراءة غير متواترة ووردت عن عبد الله مسعود؛ فهي بمنزلة التفسير

(4) القراءة الأخرى ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: 6].

لَمَسْتَ. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: وَأَلْمَسْتُ كَفِّي كَفَّهُ طَلَبَ الْغِنَا

– مَا يَكُونُ حُجَّةً لِقَوْلِ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ كَقِرَاءَةِ (وَالْأَرْحَامِ)(1) بِالْخَفْضِ، و(لِيُجْزَى قَوْمًا) عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ مَعَ النَّصْبِ(2).

لأجل ذلك كله من فوائد لعلم القراءات اهتم أهل التفسير بدراسة القراءات القرآنية وعدوها من العلوم التي ينبغي للمفسر أن يلم بها حيث أنها أداة مهمة من أدوات الكشف عن المعاني، فقد ذكره أبو حيان رحمه الله في مقدمة تفسيره عند حديثه عن العلوم التي يجب توافرها للمفسر فقال: «اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص، أو تغيير حركة، أو إتيان بلفظ بدل لفظ، وذلك بتواتر وآحاد: ويؤخذ هذا الوجه من علم القراءات»(3).

أمثلة أخرى على أثر القراءات في تعدد المعاني وبيان الدلالة:

ولزيادة الأمر إيضاحا نورد بعض الأمثلة الأخرى على تعدد المعاني:

1 – فمن ذلك ما أورد الإمام أبو بكر بن العربي في تفسيره عند بيان معاني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]. فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ:

وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿أَمَرْنَا﴾: فِيهَا مِنَ الْقِرَاءَاتِ ثَلَاثُ قِرَاءَاتٍ:

الْقِرَاءَةُ الْأُولَى: ﴿أَمَرْنَا﴾ بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ. الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ: بِتَشْدِيدِهَا. الْقِرَاءَةُ الثَّالِثَةُ: ﴿آمَرْنَا﴾ بِمَدٍّ بَعْدَ الْهَمْزَةِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ.

---

(1) قراءة حمزة: وهي حجة لمن قال يجوز الخفض عطفا على الضمير في قول الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء: 1] أي تسالون به وبالإرحام

(2) انظر: النشر في القراءات العشر (1/ 29).

(3) انظر: البحر المحيط في التفسير (1/ 16) المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ) –المحقق: صدقي محمد جميل – الناشر: دار الفكر – بيروت.

فَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْأُولَى: فَهِيَ الْمَشْهُورَةُ، وَمَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالْعَدْلِ، فَخَالَفُوا، فَفَسَقُوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَهَلَكُوا بِالْكَلِمَةِ السَّابِقَةِ الْحَاقَّةِ عَلَيْهِمْ.

وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ: بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ: فَهِيَ قِرَاءَةُ عَلِيٍّ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَأَبِي عَمْرٍو، وَأَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، وَمَعْنَاهُ كَثَّرْنَاهُمْ، وَالْكَثْرَةُ إلَى التَّخْلِيطِ أَقْرَبُ عَادَةً.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْمَدِّ فِي الْهَمْزَةِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ فَهِيَ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ، وَالْأَعْرَجِ، وَخَارِجَةَ عَنْ نَافِعٍ. وَيَكُونُ مَعْنَاهُ الْكَثْرَةُ؛ فَإِنَّ أَفْعَلَ وَفَعَّلَ يُنْظَرَانِ فِي التَّصْرِيفِ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الإِمَارَةِ، أَيْ جَعَلْنَاهُمْ أُمَرَاءَ، فَإِمَّا أَنْ يُرِيدَ مِنْ جَعْلِهِمْ وُلَاةً فَيَلْزَمُهُمْ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، فَيُقَصِّرُونَ فِيهِ فَيَهْلِكُونَ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَنَّ كُلَّ مَنْ مَلَكَ دَارًا وَعِيَالًا وَخَادِمًا فَهُوَ مَلِكٌ وَأَمِيرٌ، فَإِذَا صَلُحَتْ أَحْوَالُهُمْ أَقْبَلُوا عَلَى الدُّنْيَا وَآثَرُوهَا عَلَى الْآخِرَةِ فَهَلَكُوا»(1).

فظهر هنا من خلال تعدد القراءات تعدد المعاني التي يسعها النص القرآني.

2- ويبين ابن عطية رحمه الله في تفسيره تعدد المعاني بناءً على تعدد القراءات عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165].

فقال: «قرأ نافع وابن عامر «ترى» بالتاء من فوق، و«أن» بفتح الألف، و«أن» الأخرى كذلك عطف على الأولى، وتقدير ذلك: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب وفزعهم منه واستعظامهم له لأقروا أن القوة لله، فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى، وهو العامل في «أن».

وتقدير آخر: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعا، وقد كان النبي ﷺ علم ذلك، ولكن خوطب والمراد أمته، فإن فيهم من

(1) أحكام القرآن (3/ 153-152) المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ) - المحقق: علي محمد البجاوي- الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى.

يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا.

وتقدير ثالث: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب؛ لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حل بهم، فاللام مضمرة قبل «أن»، فهي مفعول من أجله، والجواب محذوف مقدر بعد ذلك، وقد حذف جواب لَوْ مبالغة؛ لأنك تدع السامع يسمو به تخيله، ولو شرحت له لوطنت نفسه إلى ما شرحت.

وقرأ الحسن وقتادة وشيبة وأبو جعفر ترى بالتاء من فوق وكسر الهمزة من «إن»، وتأويل ذلك: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب لاستعظمت ما حل بهم، ثم ابتدأ الخبر بقوله «إن القوة لله»، وتأويل آخر: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوة لله جميعا لاستعظمت حالهم.

وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم وابن كثير «يرى» بالياء من أسفل، وفتح الألف من «أن»، تأويله: ولو يرى في الدنيا الذين ظلموا حالهم في الآخرة إذ يرون العذاب لعلموا أن القوة لله جميعا. وتأويل آخر روي عن المبرد والأخفش: ولو يرى بمعنى يعلم الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا لاستعظموا ما حل بهم، ف «يرى» عامل في «أن» وسدت مسد المفعولين.

وقال أبو علي: «الرؤية في هذه الآية رؤية البصر»، والتقدير في قراءة الياء: ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله جميعا، وحذف جواب لَوْ للمبالغة، ويعمل في «أن» الفعل الظاهر وهو أرجح من أن يكون العامل فيها مقدرا، ودخلت إِذْ وهي لما مضى في أثناء هذه المستقبلات تقريبا للأمر وتصحيحا لوقوعه، كما يقع الماضي موقع المستقبل في قوله تعالى: ﴿وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 50]، و﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ [النحل: 1]، ومنه قول الأشتر النخعي:

بقَّيتُ وَفرِي وانحرفت عن العُلا ... ولقيتُ أضيافي بوجه عَبُوسِ

وقرأت طائفة «يرى» بالياء من أسفل وكسر الألف من «إن»، وذلك إما على حذف الجواب وابتداء الخبر، وإما على تقدير لقالوا إن القوة لله جميعا، وقرأ ابن عامر وحده «يرون» بضم الياء والباقون بفتحها.

وثبتت بنص هذه الآية القوة لله بخلاف قول المعتزلة في نفيهم معاني الصفات القديمة»(1).

3 – وعن معاني قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148]. يقول ابن حيان رحمه الله: «وقرأ الجمهور: «ولكُلٍّ»: منونًا، «وجهة»: مرفوعًا، «هو مُوَلِّيهَا»: بكسر اللام اسم فاعل.وقرأ ابن عامر «هو مُوَلَّاهَا»، بفتح اللام اسم مفعول، وهي قراءة ابن عباس. وقرأ قوم شاذًا: «ولكلِّ وِجْهَةٍ»، بخفض اللام من «كل» من غير تنوين«وجهة» بالخفض منونًا على الإضافة، والتنوين في «كل» تنوين عوض من الإضافة، وذلك المضاف إليه «كل» المحذوف اختلف في تقديره. فقيل: المعنى: ولكل طائفة من أهل الأديان.

وقيل المعنى: ولكل أهل صُقْعٍ من المسلمين وجهة من أهل سائر الآفاق إلى جهة الكعبة، وراءها وقدّامها ويمينها وشمالها، ليست جهة من جهاتها بأولى أن تكون قبلة من غيرها.

وقيل المعنى: ولكل نبي قبلة، قاله ابن عباس. وقيل المعنى: ولكل ملك ورسول صاحب شريعة جهة قبلة، فقبلة المقربين العرش، وقبلة الروحانيين الكرسي، وقبلة الكروبيين(2) البيت المعمور، وقبلة الأنبياء قبلك بيت المقدس، وقبلتك الكعبة، وقد اندرج في هذا الذي

(1) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 235) المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ) -المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد - الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى – 1422 هـ.

(2) المقربون صنف من الملائكة، الروحانيون هم ملائكة الرحمة، والكروبيون هم ملائكة العذاب، وقيل إنهم سادة الملائكة ومنهم جبيريل عليه السلام، انظر الحبائك في أخبار الملائك للإمام السيوطي صـ 251 ط.دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1985 م.

ذكرناه أن المراد بوجهة: قبلة، وهو قول ابن عباس، وهي قراءة أبيّ، قرأ: «ولكل قبلة». وقرأ عبد الله: «ولكُلٍّ جعلنا قبلة». وقال الحسن: وجهة طريقة كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، أي: لكل نبي طريقة.

وقال قتادة: وجهة: أي صلاة يصلونها، وهو من قوله: ﴿هو موليها﴾ عائد على كل على لفظه لا على معناه، أي: هو مستقبلها وموجه إليها صلاته التي يتقرب بها، والمفعول الثاني لموليها محذوف لفهم المعنى، أي: هو موليها وجهه أو نفسه، قاله «ابن عباس» و«عطاء» و«الربيع»، ويؤيد أن «هو» عائد على كل قراءة من قرأ: «هو مولاها».

وقيل: «هو» عائد على الله تعالى، قاله الأخفش والزجاج، أي: الله موليها إياه، اتبعها من اتبعها وتركها من تركها. فمعنى «هو موليها» على هذا التقدير: شارعها ومكلفهم بها. والجملة من الابتداء والخبر في موضع الصفة لوجهة»[1].

فهذه أمثلة للأثر الذي أحدثه تنوع القراءات القرآنية في المعاني تثبت أهمية العلم بها كمدخل من مداخل التفسير وإدراك معاني كتاب الله عز وجل على نحو يثري ويعظم الاستفادة من هداية القرآن العظيم.

أثر القراءات القرآنية في استنباط الأحكام الفقهية:

وكما ظهر أثر تنوع القراءات القرآنية المتواترة في تنوع المعاني ودلالاتها ظهر كذلك أثرها في الأحكام الفقهية الفرعية ومن الأمثلة على ذلك:

الأحكام الفقهية المستنبطة من الآية الكريمة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

فقد قرأ الجمهور ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بإسكان الطاء وضم الهاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف

(1) انظر: تفسير البحر المحيط: (1/ 611).

بتشديد الطاء والهاء ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾[1].

وقد ذكر الإمام الرازي رحمه الله وجوهًا من الاختلاف الفقهي الناتج عن تنوع القراءات في هذه الآية فقال رحمه الله:

«وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب الحضرمي، وأبو بكر عن عاصم (حتى يطهرن) خفيفة من الطهارة، وقرأ حمزة والكسائي يطهرن بالتشديد، وكذلك حفص عن عاصم[2]، فمن خفف فهو زوال الدم لأن يطهرن من طهرت امرأة من حيضها، وذلك إذا انقطع الحيض، فالمعنى: لا تقربون حتى يزول عنهن الدم، ومن قرأ: يَطَّهَّرْنَ بالتشديد فهو على معنى يتطهرن فأدغم كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1]. أي المتزمل، والمتدثر.

المسألة الثانية: أكثر فقهاء الأمصار على أن المرأة إذا انقطع حيضها، لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد أن تغتسل من الحيض، وهذا قول مالك والأوزاعي والشافعي والثوري، والمشهور عن أبي حنيفة أنها إن رأت الطهر دون عشرة أيام لم يقربها زوجها، وإن رأته لعشرة أيام جاز أن يقربها قبل الاغتسال.

حجة الشافعي من وجهين:

الحجة الأولى: أن القراءة المتواترة، حجةٌ بالإجماع، فإذا حصلت قراءتان متواترتان وأمكن الجمع بينهما، وجب الجمع بينهما.

إذا ثبت هذا فنقول: قرئ ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف وبالتثقيل، ويطهرن بالتخفيف عبارة

(1) انظر: النشر في القراءات العشر (2/ 227).

(2) المحفوظ أن حفص عن عاصم بالتخفيف ولكن عاصم في غير حفص هو بالتشديد فلعله وهم، انظر تفسير ابن عطية (1/ 298).

عن انقطاع الدم، وبالتثقيل عبارة عن التطهر بالماء، والجمع بين الأمرين ممكن، وجب دلالة هذه الآية على وجوب الأمرين، وإذا كان وجب أن لا تنتهي هذه الحرمة إلا عند حصول الأمرين.

الحجة الثانية: أن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ علق الإتيان على التطهر بكلمة إذا، وكلمة إذا للشرط في اللغة، والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط، فوجب أن لا يجوز الإتيان عند عدم التطهر.

حجة أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ نهى عن قربانهن وجعل غاية ذلك النهي أن يطهرن بمعنى ينقطع حيضهن، وإذا كان انقطاع الحيض غاية لهذا النهي وجب أن لا يبقى هذا النهي عند انقطاع الحيض، أجاب القاضي عنه بأنه لو اقتصر على قوله: حتى يطهرن لكان ما ذكرتم لازما، أما لما ضم إليه قوله: (فإذا تطهرن) صار المجموع هو الغاية وذلك بمنزلة أن يقول الرجل: لا تكلم فلانا حتى يدخل الدار فإذا طابت نفسه بعد الدخول فكلمه، فإنه يجب أن يتعلق إباحة كلامه بالأمرين جميعا، وإذا ثبت أنه لا بد بعد انقطاع الحيض من التطهر فقد اختلفوا في ذلك التطهر فقال الشافعي وأكثر الفقهاء: هو الاغتسال. وقال بعضهم: هو غسل الموضع، وقال عطاء وطاوس: هو أن تغسل الموضع وتتوضأ، والصحيح هو الأول لوجهين، الأول: أن ظاهر قوله: (فإذا تطهرن) حكم عائد إلى ذات المرأة، فوجب أن يحصل هذا التطهر في كل بدنها لا في بعض من أبعاض بدنها. والثاني: أن حمله على التطهر الذي يختص الحيض بوجوبه أولى من التطهر الذي يثبت في الاستحاضة كثبوته في الحيض، فهذا يوجب أن المراد به الاغتسال وإذا أمكن بوجود وإن تعذر ذلك فقد أجمع القائلون بوجوب الاغتسال على أن التيمم يقوم مقامه وإنما أثبتنا التيمم مقام الاغتسال

بدلالة الإجماع وإلا فالظاهر يقتضي أن لا يجوز قربانها إلا عند الاغتسال بالماء»(1). ففي هذا المثال يتضح لنا ما ترتب على القراءتين من آثار فقهية، حيث تعددت الآراء الفقهية بناء على اختلافهم في فهم وتوجيه هذه القراءات.

(1) انظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (6/ 59) المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) - الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1421 هـ.

المبحث الثامن
المبادئ القرآنية العامة وفهم كتاب الله

من المداخل المهمة للتعامل والتفاعل مع كتاب الله الكريم، واستخراج معانيه وفهم دلالاته، والوصول إلى الوجوه المقبولة من التفسير لآياته الكريمة ما ظهر عن طريق الاستقراء لكتاب الله تعالى؛ مما يمكن أن نسميه ظاهرة «المبادئ القرآنية العامة» في كتاب الله، وهي مجموعة من الجمل القرآنية الجامعة للكثير من المعاني والمقاصد التي تمثل محاور القرآن الكريم وأهدافه ومقاصده، والتي تعد من أهم الأبواب للقراءة الكلية لكتاب الله الكريم؛ بما يمكن وصفُها بأنها مثل المواد المكونة للدستور العام، أو القانون من حيث اشتمالُها على الكثير من صور التطبيق والاستعمال.

فقد أنزل الله سبحانه القرآن كتاب هداية للعالمين، وهو يعد الكلمة الأخيرة للبشرية من الله، حيث ختم الله الرسالة بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وانقطع وحي السماء ووصفه بأنه: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40][1].

والقرآن يشتمل على 114 سورة تبدأ بالفاتحة وتنتهي بسورة الناس، أقصر سورة فيه مكونة من 3 آيات، وأكبرها من 286 آية وهى سورة البقرة، ويشتمل على 6236 آية طبقا لرواية حفص عن عاصم.

ما تشتمل عليه آيات القرآن الكريم من أسس إجمالا:

اشتملت آياتُ القرآن بالأساس على:

1 - مسائل العقيدة من توحيد ونبوات وأخبار اليوم الآخر يوم الحساب.

(1) قال الله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: 40].

2 – مسائل التشريع التي فيها الحلال والحرام وأحكام التصرفات والمعاملات.

3– مسائل القيم والأخلاق التي تمثل عمود الدين، وذروة سنامه، كما صيغت هذه المحاور الثلاثة في صورة قصص الأنبياء وضرب الأمثال ووصف الإنسان والأكوان والأمر والنهي وغير ذلك.

– إلا أن المتدبر في القرآن يجد طائفةً غير قليلة من الآيات القرآنية أو بعض آية يمكن أن تعد مبدأ عامًّا يمثل مكونًا أساسيًا من عقلية المسلم، وهذه المبادئ العامة إذا جمعت في نسق واحد ودرس ما بينها من علاقات بينية؛ لمثّل ذلك منهجًا واضحًا وأساسًا متكاملًا لتفكير المسلم سواء في الجانب الفقهي والتشريع القانوني، أو كان في مجال الفكر والنظرة الكلية للإنسان والكون والحياة، أو كان في مجال القيم والأخلاق على كافة المستويات، وتتبّع هذه المبادئ يساعد أيضًا على بناء النموذج المعرفي الإسلامي بصورة لافتة للنظر(1).

وهذه المبادئ هي منهج متكامل لحضارة المجتمعات، وتشكل نظامًا بديعًا للحياة الفردية، وتتفرع منها عناصر كثيرة تضبط أنماطَ الحياة، وتحقِّق الحياة الفاضلة عند تطبيق هذه المبادئ في جميع المجالات.

والتعرض لدراسة هذه المبادئ القرآنية محاولة لتأصيل مدخل جديدًا للدراسات القرآنية يخرج لنا ما نحتاجه في حياتنا الفكرية والعملية.

فعندما يتعرض المسلم لجملة من الجمل القرآنية التي تمثل مبدأ عامًا فهنا تنبيه قرآني للمسلم بأن يتخذ من ذلك المبدأ أسلوبًا للحياة، فالنهضة الفردية والجماعية للمسلمين تنطلق من القرآن الكريم وتدور في فلكه، وكما أشرنا في مباحث سابقة إلى إطلاقية القرآن الكريم وسيأتي الكلام عن الوَحدة البنائية الكلية للقرآن الكريم، فهذا كله يثمر لنا أننا نتعامل مع

(1) انظر: الموسوعة القرآنية المتخصصة (1/ 82) (مبحث المبادئ العامة والقيم في القرآن الكريم لفضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد) الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر– عام النشر: 1423 هـ– 2002 م.

جمل القرآن ونصوصه على أنها غير مقيدة بالزمان والمكان، وعلى ذلك فهي تحوي من المعاني والمقاصد والأهداف ما يرتفع عن محدودية أسباب النزول أو سياق الآية الواردة فيه فقط فالمبدأ القرآني هو مبدأ إطلاقي متجدد يسعى نحو تقرير أمر إلهي متجدد غير محدود، وسوف تتضح معاني ذلك من خلال إيرادنا لبعض المبادئ العامة في كتاب الله.

المبدأ العام والنموذج المعرفي للأمة الإسلامية:

عندما نبحث في كتاب الله عز وجل عن المبادئ العامة فهي أحد الخطوات نحو اكتشاف وتكوين النموذج المعرفي للأمة الإسلامية والذي انطلق من القرآن الكريم منذ أن أنزل الله سبحانه وتعالى أول آياته: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1] فهي تمثل أحد أجزاء حقيقة الحياة والمخلوقات ومآل ذلك كله وذلك لأن مصدرها هو الوحي الإلهي المعصوم.

تعريف المبدأ العام:

كلمة مبدأ في العربية مصدر ميمي(1)، والمصدر الميمي يصلح للدلالة على الزمان أو المكان أو الحدث، وهذا يعنى أن كلمة (مبدأ) لغة تعنى زمان البدء أو مكانه أو نفس البدء(2)، وكلمة (عام) تعنى الشمول لجزئيات تندرج تحتها(3).

إذًا فهذا المصدر (مبدأ) يصلح للدلالة على نفس البدء على الحدث، ويصلح للدلالة على زمان البدء بل ويصلح للدلالة على مكان البدء، بل ويصلح للدلالة عليهما جميعا، فكلمة مبدأ

---

(1) المصدر الميمي هو اسم جامد مشتق من لفظ الفعل يدل على حدث غير مقترن بزمن مبدوء بميم زائدة تميزه عن المصدر العادي ولا يختلفان في المعنى ولكن المصدر الميمي أقوى دلالة على الحدث من المصدر الأصلي.

(2) مبادئ: جمع مبدأ (اسم) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (1/ 168) د.أحمد مختار عبد الحميد عمر- عالم الكتب – الطبعة الأولى 2008م.

(3) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (2/ 1234 ط.مكتبة لبنان بيروت الطبعة الأولى 1996)

يعني بداية الأمر، سواء في نفسه، أو في مكانه، أو في زمانه، فهذا معنى المبدأ ولذلك نحن هنا نطلق المبدأ على هذه الجملة القرآنية المفيدة التي لا نريد بها تقرير حقيقة ولا شرح حقيقة، سواء عقائدية أو كونية، ولا نريد بها حكمًا ولا تشرح حكمًا، ولا تأمر به سواء كان شرعيًا أو غير ذلك ولكنها تعطي لنا مبدأ نسير عليه، تعطي لنا طرف الخيط من أوله، فإذا سرنا في ذلك الطريق مع هذا المبدأ؛ فإننا نكون قد وصلنا إلى التفكير السليم فهي تمهيد للحقائق أو للأحكام(1).

الفرق بين المبدأ والحقيقة والحكم:

المقصود بالمبدأ العام: (حقيقة تهيئ الإنسان للتكليف) فالمبدأ يختلف عن مطلق الحقيقة التي كثيرًا ما ينبه عنها القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَكانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: من الآية 96]أو﴿خَلَقَ الله السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [العنكبوت: 44] أو: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5].أو غيرها من الحقائق الإيمانية أو الكونية حيث لا تشتمل على تكليف ولا تهيئ الإنسان لذلك التكليف مباشرة كما سنرى فى ضرب أمثلة المبادئ.

والقرآن الكريم يتكلم بكلامٍ وبجُمَلٍ مفيدة، هذه الجمل المفيدة قد تكون متعلقة بالعقيدة، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: من الآية 96]، فهذه جملة مفيدة تصف الرَّبَّ سبحانه وتعالى بأنَّه غفور يُكَرِّر الغفران ويسامح، وبأنَّه رحيم يُكَرِّر الرحمة، فالمغفرة والرحمة من صفات الله سبحانه وتعالى فهذه حقيقة، لكنَّ مَرَدَّها إلى صفات الله تعالى وإلى العقيدة، كذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38] فهذه حقيقة أيضًا، ولكن في مجال العلوم الكونية، وهناك حقائق فقهية تُبيِّن الأحكام، كقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ

(1) انظر: النبراس في تفسير القرآن الكريم: (ص140) فضيلة الشيخ الإمام العلامة علي جمعة محمد – دار الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر – الطبعة الأولى – 2009م.

كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78] فهذا الكلام الجليل نأخذ منه أحكام مواقيت الصلاة، ونأخذُ منه وجوب الصلاة على المؤمن، ويعلمنا فضل قراءة القرآن بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]

فكل هذه حقائق وأحكام، لكن فكرة «المبادئ القرآنية» لها منطلق آخر؛ إذ إنَّ هناك أشياء في القرآن الكريم تُعَدُّ مُلهمةً للفكر البشري، وتعد جزءًا من النموذج المعرفي الذي هو في حقيقته الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعد ذلك، وتعدُّ قسمًا من موقف الإنسان من العالم، وهذه هي التي نُطْلِقُ عليها «الـْمَبَادِئ الْقُرْآنِيَّة». والمبدأ يختلف أيضا عن الحكم الشرعي.(1)

الذي يشتمل مباشرة على التكليف مثل قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78] فأقم الصلاة تكليف، وجملة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُودًا﴾حقيقة إيمانية؛ إذ هي تصف صلاة الفجر أنها مشهودة من ملائكة النهار وهو أمر غيبي إيماني، والمبدأ يختلف أيضا عن القاعدة الفقهية(2) أو الأصولية(3) من حيث المنشأ.

---

(1) الحكم الشرعي في اصطلاح الأصوليين: هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين، طلبًا أو تخييرًا، أو وضعًا

انظر: علم أصول الفقه (1/ 100)- الشيخ عبد الوهاب خلاف- مكتبة الدعوة الإسلامية – الطبعة الثامنة.

(2) القاعدة الفقهية هي: حكم كلي ينطبق على جميع جزئياته غالبًا لتعرف أحكامها منه إما على سبيل القطع أو على سبيل الظن. انظر: غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر (1/ 51) للحموي- دار الكتب العلمية – بيروت.

(3) القاعدة الأصولية هي: قضية كلية يتوصل بها الفقيه إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية. ومن القواعد الأصولية قولهم «الأمر للوجوب والفور». و«دليل الخطاب حجةٌ»، «وقياس الشبه دليلٌ صحيحٌ». «والحديث الـمرسل يحتج به» ونحو ذلك. انظر: شرح الكوكب المنير (1/ 30).

=

فالقاعدة الفقهية نشأت بعد تفريع الفروع[1] فى الفقه الإسلامي وكأنها قد جردت فروعًا كثيرة وأخذت المشترك بينها وصاغته في صورة قاعدة مثل «لا ضرر ولا ضرار»، «الأمور بمقاصدها»، «الشك لا يرفع اليقين»، «العادة محكمة»... إلى آخر ما اهتمت به كتب القواعد الفقهية والأشباه والنظائر[2]. وكذلك القواعد الأصولية التي نشأت من تتبع اللغة العربية أو المصادر الشرعية مثل (الاستثناء معيار العموم) أو (الأمر للوجوب ما لم تصرفه قرينة تدل على غير ذلك) أو (النهى يقتضي الفساد) أو (المشترك لا يعم)......إلخ مما نراه يرد في علم أصول الفقه.

فبذلك كله يتضح أن المبادئ القرآنية تتميز عن غيرها كالقواعد والأحكام،وأنها تمثل إطارا عاما ملهما للفكر البشري ولبناء الحضارة، ومعيارا من معايير الرؤية الإسلامية التي يطلق عليها النموذج المعرفي الإسلامي.

كيف يكون المبدأ العام مدخلًا لقراءة القرآن الكريم:

فكرة التعرف على المبادئ القرآنية واستخراجها من كتاب الله تعتمد على النظرة للوحدة

=

لمعرفة الفرق بين القاعدة الفقهية والأصولية انظر: المدخل لدراسة المذاهب الفقهية. للإمام العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد (ص332).

(1) تعددت التعريفات الاصطلاحية للفروع ونختار منها ما يلي:

- الفروع هي: القضايا التي لا يتعلق بالخطأ في اعتقاده مقتضاها ولا العمل به قدحٌ في الدين، ولا العدالة في الدنيا، ولا وعيدٌ في الآخرة. اختاره الطوفي (شرح مختصر الروضة 1/ 121).

- الفروع: هي أحكام الشريعة المفصلة، قال التفتازاني: «وفروع الشريعة أحكامها الـمفصلة الـمبينة في علم الفقه ومعانيها العلل الجزئية التفصيلية على كل مسألةٍ ودقتها كونها غامضةً لطيفةً لا يصل إليها كل أحدٍ بسهولةٍ» (شرح التلويح على التوضيح 1/ 8).

(2) انظر في نشأة القواعد الفقهية:الأشباه والنظائر(1/ 8-7) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي -الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1990م.

الكلية البنائية للقرآن الكريم، وأنه كالجملة الواحدة، والنظر إلى كونه هو الكلام الإلهي المطلق الغير مقيد بحدود زمان أو مكان أو وقائع، وذلك أحد حقائق ومعاني قوله تعالى:﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:38]، فالجمل القرآنية التي تمثل المبادئ القرآنية هي أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم؛ من حيث جمعُها للكثير من المقاصد والمعاني والدلالات بأكثر مما تحتملها ألفاظها. وعلى ذلك فجمل القرآن الكريم ونصوصه التي تحتوي على إرشادات ربانية ليست متعلقة بالسياق تعلقًا يفقدها المعنى والدلالة إذا انفصلت عنه فهي لا تخالف السياق أو تتناقض معه لو تم فصلها، بل هي تنطلق منه فتحمل إلينا معنى كلي متجدد لا ينحصر، فإطلاقية القرآن الكريم تجعل فهم الجمل القرآنية متعدد المستويات كثير الدلالات، فنحن نفهم الجملة القرآنية من خلال السياق الذي وردت فيه فنصل إلى المعنى ونعرف ما تدل عليه ونستطيع كذلك في ضوء إطلاقية القرآن الكريم أن نفهم بعض الجمل القرآنية الدالة على معاني كلية دون النظر إلى السياق ونستنبط من هذه الجمل القرآنية معاني وإرشادات تحتملها ألفاظ هذه الجمل ولا تتناقض مع السياق.

فهذه المبادئ القرآنية الجامعة تحتوي على دلالات أعم من السياق الواردة فيه والسباق واللحاق، فلها معانيها الخاصة المفهومة المستقلة بدون النظر إلى سياق الآيات أو موضوعها المحدد، وهو ما يطلق عليه الدلالة المستقلة للآيات القرآنية، وهذا يأخذنا لأمر فهم الجملة القرآنية بوصفها وحي إلهي كلي تدل كل كلمة فيه، وكل جملة على معانٍ صحيحةٍ، تتفق وتنسجم مع المعاني الكلية للآيات ولا تتناقض معها، فالمعاني التي تحتملها الكلمات القرآنية هي من مرادات النص وليست بخارجة عنه، وليس هذا الأمر بأمر مبتدع، وإنما له شواهده وأدلته من عمل رسولنا الكريم ﷺ والصحابة الكرام وسلفنا الصالح وعلماء الأمة في القديم والحديث.

بعض الأمثلة لبيان كيفية التوصل للمبدأ القرآني:

أولا من السنة النبوية:

نضرب أمثلة لتقريب ذلك من السنة النبوية الشريفة:

1 - روى البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَمَرَّ بِي رَسُولُ الله ﷺ فَدَعَانِي، فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ؟ أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال:24]؟(1). ففي هذا الحديث الشريف لو نظرنا إلى استدلال النبي ﷺ نجد أنه ﷺ استدل بآية معنى الاستجابة فيها هو الامتثال لما فيه الإصلاح والخير وحياة القلب بالإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهَّ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:24]. ولكن لما كان لفظ الاستجابة يصلح للحمل على معناه الحقيقي فقد استدل به النبي ﷺ على مراده الذي هو إجابة النداء.

2 - ومما يؤيد ذلك أيضا من سنته صلى الله عليه وآله وسلم ما رواه البخاري عن عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخْبَرَهُ ؛ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لَيْلَةً، فَقَالَ: أَلاَ تُصَلِّيَانِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:54](2). فقد استدل

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال:24] من حديث أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب: تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب وطرق النبي ﷺ فاطمة وعليا عليهما السلام ليلة للصلاة (1127) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ماروي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح (775) عن علي بن الحسين عن علي =

النبي ﷺ بتقرير حقيقة أن الإنسان كثير الجدل من خلال الآية الكريمة ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:54].

مع أن سياقها في ذم الذين جادلوا في القرآن الكريم من الكفار: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:54]، كما ذكر ذلك الإمام القرطبي عند تفسيره لها فقال:«أي جدالا ومجادلة والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن وقيل: الآية في أبي بن خلف. وقال الزجاج: أي الكافر أكثر شي جدلا، والدليل على أنه أراد الكافر قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [الكهف: 56]»(1).

ثانيا: من عمل أهل العلم:

كذلك استدل أهل العلم على مسائل وقضايا أصولية من خلال جمل قرآنية دون التقيد بالسياق التي وردت فيه؛ فعلى سبيل المثال قد استدلوا على القياس وصحته بقوله تعالى ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: من الآية 2]. مع أن الآية الكريمة التي وردت فيها هذه الجملة القرآنية تتحدث عن أمر آخر وهو إجلاء اليهود من بني النضير عن أرضهم ونصر الرسول ﷺ عليهم ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:2]. فالخطاب القرآني هنا في قوله تعالى: ﴿يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ليس متوجهًا إلى أحد معين، وإنما هو عام مطلق، وهو أمر شامل لجميع أنواع الاعتبار ومن جملة أفراده القياس.

=

بن أبي طالب رضي الله عنهم.

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (11/ 5) المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي- تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة – الطبعة: الثانية، 1384هـ – 1964 م.

فمعاني الجمل القرآنية الدالة على مبادئ عامة غير متقيدة بالسياق الذي وردت فيه، حيث إنها تامة المعنى، وتتسم بالوضوح وعدم الخفاء، وفوق ذلك هي غير متناقضة أو متعارضة مع معاني السياق الذي وردت فيه، غير أنها يقع تحتها الكثير من صور التطبيق المادي والمعنوي.

من خصائص المبادئ القرآنية:

1 – اشتمالها على الحقائق والتكاليف المباشرة:

لو نظرنا إلى ما يميز المبادئ القرآنية العامة لوجدنا المبدأ يشتمل على حقيقة، وعلى تكليف مباشر، ولا معنى لوجوده من غير وجود الإنسان، فالإنسان هو موضوعه، وهي كذلك متوافقة مع صفة الإطلاقية لمعاني كلام الله جل وعلا من تميزه بالقطعية، والعموم والشمول، والاطراد الذي لا يتخلف، الديمومة والاستقرار، والتجرد عن محددات الزمان والمكان.

2 – اشتمالها على مقاصد القرآن وأهدافه العامة:

والناظر في المبادئ القرآنية العامة يجد أنها مدخل مهم لفهم القرآن الكريم حيث إنها تحتوي على مقاصد القرآن الكريم وأهدافه العامة، وهي عنوان ومظهر من مظاهر محاوره العامة؛ وذلك لكونها كليات تنظم دوائر العقيدة والتصور للوجود والحياة والمآل في الآخرة.

3 – تمثل إطارا عاما لفهم وتطبيق الدين:

وهي كذلك تمثل بمفهومها الشامل الخط المستقيم والفهم النظري والتطبيق العملي لدين الإسلامي، وهي قالب للأصول العامة للشريعة وهي طريق ومنهج لتشكيل العقلية المسلمة المدركة للمراد الإلهي منها، بحيث تصبح هذه المبادئ العامة منهج حياة للشخصية المسلمة بحيث يتحقق من خلالها معرفة الله وعبادته وتزكية النفس وعمران الأرض وإدراك المآل في الآخرة ومن خلال ثنايا الحديث عنها يتضح الكثير من معانيها وتطبيقاتها.

أهمية دراسة المبادئ القرآنية في الحفاظ على الهُوية:

المبادئ القرآنية الجامعة تمثل أحد الطرق نحو استرجاع الهُوية العلمية للأمة المسلمة؛ وذلك عن طريق العودة إلى كتاب الله عز وجل واستنباط الرؤية الكلية للكون والحياة منه،

والاستغناء عن النظريات المادية الإلحادية التي قامت عليها بعض العلوم، والتي يتم فيها إغفال الوجود الإلهي ومراد الله من الخلق، والتي تُقدَّم إلينا كمسلمين كمظهر من مظاهر الحضارة، وتطبق في مجتمعاتنا المسلمة مما ينتج عنه خلل كبير نظرًا لاختلاف المرجعيات، فكثير من مجالات التطبيق العلمي لعلوم النفس والتربية والسياسية والاقتصاد والاجتماع يتم الاعتماد فيه على النظريات التي تختلف مع هويتنا مما ينتج عنه خلل كبير عند تطبيقها وتفعيلها في مجتمعاتنا فهي تتصادم في الكثير من مبادئها مع هوية الشخصية المسلمة، في حين أن كتاب ربنا يحتوي من الأصول التي تمكننا من الانطلاق وصنع النموذج الحضاري الخاص بنا.

وليس في كلامنا هذا دعوة لمقاطعة ما عند الغير من العلوم والمعارف فذلك غير مراد لا بالشرع ولا بالواقع، وإنما المحذور هو محاولة تفعيل علوم ومعارف تتناقض مع هويتنا المسلمة على كافة المستويات مما سوف ينتج ولا بد فشل كبير عند التطبيق العملي، فالعمل على العودة إلى مرجعية كتاب الله في تكوين الرؤية الكلية والنموذج المعرفي للمسلمين من خلال تلك المبادئ القرآنية الناتجة عن الاتصال بالوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيحصن ذلك المسلم عندما يبدأ في الاستفادة من العلوم والمعارف المختلفة، فلا يتأثر بالمناهج المخالفة، ويمكنه أن يستفيد من إسهامات الآخرين، وأن يضيف هو الآخر للحضارة الإنسانية.

ثم إن تناول هذه المبادئ القرآنية يعد نوعًا من الدراسات التي تجمع بين القرآن الكريم والعلوم الشرعية من جهة، وبين العلوم الحديثة المتنوعة من جهة أخرى، مما يفتح الباب أمام صياغة العلوم الإسلامية بصور تلائم العصر الحديث وتقديمها للأمة الإسلامية والأمم الغير مسلمة وذلك للإفادة من هذا التراث العلمي الكبير المستمد من الوحي الإلهي بشقيه الكتاب والسنة ووصل واقعنا بتراثنا العلمي.

ومن جهة المبادئ القرآنية تعد نوعًا من أنواع الانطلاق الفكري والحضاري بحيث يتبين

لنا من خلالها معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:9]. وهي نتاج للجمع بين قراءة الكتاب المسطور «القرآن الكريم» وقراءة الكتاب المنظور وهو «الوجود من حولنا» بحيث يظهر من خلالها الهيمنة القرآنية التامة وقدرتها على قيادة البشرية لخيري الدنيا والآخرة.

ومن جهة أخرى هي وجه من وجوه الإعجاز القرآني الذي يؤكد استمرارية وقدرة كتاب الله على العطاء المتجدد.

نماذج من المبادئ القرآنية العامة:

نعرض فيما يلي لنموذج من المبادئ القرآنية الجامعة لمقاصد القرآن الكريم ثم نقوم بعد ذلك بالتعرض لبعضها بالبيان المجمل.

والمبادئ التي نوردها إنما هي على سبيل المثال تنبيهًا لهذا الجانب العظيم من القرآن الكريم، وهى تحتاج إلى تتبع واستقصاء مستقل، وبحث خاص، يقوم على استقرائها، والنظر في كلام أهل التفسير عنها، ثم يبين عناصر كل مبدأ وما يلزمه من مقدمات وما يترتب عليه من نتائج ثم يقوم ببيان العلاقة البينية بين كل هذه المبادئ لبناء النموذج المعرفي ثم بيان كيفية تشغيلها فى المجالات المختلفة: السياسة، والقانون، والاجتماع البشرى، والتربية، والفكر، والعبادة، والعقيدة، والدعوة.. إلخ.

فمن أمثلة المبادئ القرآنية العامة في كتاب الله:

1 - ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

2 - ﴿كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70].

3 - ﴿أَلا لله الدِّينُ الْخالِصُ﴾ [الزمر: 3].

4 - ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ [النجم: 39].

5 - ﴿عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95].

6 - ﴿ما يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: 6].

7 – ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 191].

8 – ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216].

9– ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ [النساء: 34].

10 – ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123].

11 – ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128].

12 – ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها﴾ [البقرة: 286].

13 – ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل 126].

14 – ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا﴾ [الإسراء: 34].

15 – ﴿وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى﴾ [طه: 47].

16 – ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ﴾ [الأعراف: 157].

17– ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ﴾ [الأعراف: 157]

18–﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:من الآية 164]

19– ﴿الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: من الآية 179].

20– ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185].

21– ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

22– ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8].

23– ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: 36].

24– ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92].

25–﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]

26–﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

27–﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]

28- ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]

29- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت 34].

30-﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21].

31-﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:173].

32- ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة:189].

33- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:164].

34- ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

35- ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة:100]

37- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:9].

فهذه نماذج لبعض المبادئ القرآنية التي هي حقائق تهيئ الإنسان للتكليفات الشرعية وتُكَوِّن لديه النموذج المعرفي الإسلامي الذي يقدم إجاباتٍ على الأسئلة الوجودية الكبرى التي شغلت الإنسان، وتعمل على تكوين قواعدَ كلية ينطلق من خلالها الإنسانُ للعيش والتعامل مع الوجود من حولها وفيما يلي توضيح وبيان لبعضها.

1- ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]:

هذه الآية الكريمة ترسي مبدأ من أهم مبادئ الإسلام وهو حرية الاعتقاد واختيار الدين،فهي عبارة تبيّن حقيقة، لكنها حقيقة تهيئ الإنسان للتكليف، فتمنعه من فرض العقائد بالقوة، وترشد إلى الدعوة والحوار والتعددية الدينية، وأن الإسلام لا يريد منافقين يؤمنون بألسنتهم وتأبى قلوبهم الإيمان بل ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].و﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْـمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، و﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6]. و﴿إِنَّ الْـمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145]. وروى ابن حبان في صحيحه بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]. قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يَكَادُ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ

فَتَحْلِفُ لَئِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ لَتُهَوِّدَنَّهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا فِيهِمْ نَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ الله أَبْنَاؤُنَا؟!! فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الْآيَةَ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَمَنْ شَاءَ لَحِقَ بهم ومن شاء دخل في الإسلام(1).

وقد كان مسلك رسول اللهﷺ ترك الحرية في العقيدة لمن لا يريد أن يدخل الإسلام بعد عرضه عليه فقد جاء في في كتاب الخراج لأبي يوسف القاضي إن رسول الله ﷺ كتب كتابا لنصارى نجران جاء فيه:«ولنجران وحاشيتها جِوَارُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ وَكُلِّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، لَا يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ من أسقفيته وَلا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ وَلا كَاهِن من كهنته وَلَيْسَ عَلَيْهِ ذَنبه. وَلا دَمَ جَاهِلِيَّةٍ وَلا يُحْشَرُونَ وَلا يُعْشَرُونَ وَلا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ»(2).

وهذا المبدأ يقرر حقيقة يترتب على تنفيذها عدةُ تكاليف وإجراءات وفى نفس الوقت يُعد شعارا للإسلام وأساسًا يمثل النموذجَ المعرفي الإسلامي الذي يعتبر معيارًا لقبول ورفض الأفكار والآراء في الإسلام.

قال الفخرُ الرازي رحمه الله:«في قوله تعالى: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ فِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى:اللَّامُ فِي الدِّينِ فِيهِ قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ لَامُ الْعَهْدِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ بَدَلٌ مِنَ الْإِضَافَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ [النَّازِعَاتِ: 41] أَيْ مَأْوَاهُ، وَالْمُرَادُ فِي دِينِ الله.

---

(1) أخرجه ابن حبان في صحيحه (1/ 352) من طريق إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بِبُسْتَ قَالَ حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُلْوَانِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَ به.

(2) الخراج (1/ 72) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري- دار المعرفة – بيروت – لبنان- 1979م.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: وَهُوَ قَوْلُ أَبِي مُسْلِمٍ وَالْقَفَّالِ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى مَا بَنَى أَمْرَ الْإِيمَانِ عَلَى الْإِجْبَارِ وَالْقَسْرِ، وَإِنَّمَا بَنَاهُ عَلَى التَّمَكُّنِ وَالِاخْتِيَارِ، ثُمَّ احْتَجَّ الْقَفَّالُ عَلَى أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ بَيَانًا شَافِيًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَعْدَ إِيضَاحِ هَذِهِ الدَّلَائِلِ لِلْكَافِرِ عُذْرٌ فِي الْإِقَامَةِ عَلَى الْكُفْرِ إِلَّا أَنْ يَقْسِرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَيُجْبَرَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي دَارِ الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ الِابْتِلَاءِ، إِذْ فِي الْقَهْرِ وَالْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ بُطْلَانُ مَعْنَى الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الْكَهْفِ: 29].

وَقَالَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَالَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ﴿لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ﴾وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا الْقَوْلَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ يَعْنِي ظَهَرَتِ الدَّلَائِلُ، وَوَضَحَتِ الْبَيِّنَاتُ، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهَا إِلَّا طَرِيقُ الْقَسْرِ وَالْإِلْجَاءِ وَالْإِكْرَاهِ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّهُ يُنَافِي التَّكْلِيفَ فَهَذَا تَقْرِيرُ هَذَا التَّأْوِيلِ.

الْقَوْلُ الثَّانِي: فِي التَّأْوِيلِ هُوَ أَنَّ الْإِكْرَاهَ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ لِلْكَافِرِ: إِنْ آمَنْتَ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(1).

إذن تقرر الآية الكريمة مبدأ مهما على أساسه يصح التكليف هو إتاحة الفرصة للاختيار،ويترتب على تقرير هذا المبدأ حرمة الإكراه للدخول في الدين.

2 - ﴿كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]:

من المبادئ القرآنية العامة إقرار التكريم الإلهي للجنس البشري كمخلوق من أرقى

---

(1) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (7/ 14) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري –الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى سنـ1421ـةهـ.

مخلوقات الله عز وجل.

ورد فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

والحمل فى البر والبحر، ورزق الله للناس من الطيبات حقائق مشاهدة، ولكن التكريم حقيقة تهيئ الإنسان لتكليف وتلزمه بإجراءات ومن هنا حق لها أن توصف بالمبدأ، ومن عناصر هذا المبدأ:

1 - أن الله فضل بني آدم على كثير ممن خلق، وأكد ذلك باستعمال المفعول المطلق الذي يعد استعماله هنا تأكيدا للتفضيل، وبيانًا أنه تفضيل حقيقي لا يدخله المجاز(1)، كما تقرر في علوم العربية من أن استعمال المصدر كمفعول مطلق يدل على الحقيقة، وينبه لها، ويمنع دعوى المجاز(2).

2 - تكريم بني آدم يلزم منه أنه سيد في هذا الكون، حتى وإن لم يكن سيدًا له، فسيد الكون وخالقه هو الله، أما الإنسان فهو المخلوق المكلف الذي أسجد الله له الملائكة؛ تكريمًا له، وإعلانًا لهذا التكريم بين الخلائق، وجعل الامتناع عن السجود إليه علامة بدء الشر وخراب الدنيا، وعدّها معصية إبليسية، طرد إبليس من أجلها، وجعله رجيمًا.

3 - تكريم بنى آدم يمكن أن يكون أساسًا لاعتباره حامل الأمانة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ

(1) تقدم الكلام في مبحث اللغة العربية وفهم النص عن تعريف المجاز.

(2) ذكر ذلك المفسرون في تفسير قول الله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] يقول الشيخ أبو السعود:"{تَكْلِيماً} مصدرٌ مؤكدٌ رافعٌ لاحتمال المجازِ قال الفراء العربُ تسمِّي ما وصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصَل مالم يؤكَّدْ بالمصدر فإذا أُكّد به لم يكنْ إلا حقيقةُ" (تفسير أبو السعود 2/ 156 ط.دار إحياء التراث العربي).

ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]. وهو أساس تكليفه بالعمارة ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ [هود: 61]. وأساس للخلافة ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. ويمكن اعتباره أساسًا لحقوق الإنسان، التي هي جزء من حقوق الأكوان عند المسلمين، حيث يرون للجماد والنبات والحيوان حقوقًا متسقة مع حقوق الإنسان في منظومة كلية هي حقوق الأكوان.

فقد نظرت الشريعة الإسلامية نظرة احترام واهتمام إلى الجنس البشري معتبرة إياه من أرقى مخلوقات الله عز وجل؛ فقد حمل أمانة العقل والتكليف، وبناء على هذه النظرة جاء الخطاب القرآني العام لبني آدم بوصفه الرسالة الأخيرة من الله إلى أهل الأرض، مرشدا لهم مبينا لهم طريق الهداية والخير محذرا إياهم مما يوردهم موارد المشقة والهلاك وذلك في الدنيا والآخرة. يظهر ذلك من كثير من نصوص القرآن والسنة وكلام أهل العلم، وعندما نتكلم عن تكريم الله لبني آدم والذي تم الإعلان عنه في كتاب الله كمبدأ قرآني نجد أن ذلك قد ظهر في عدة صور أعلنت في كتاب الله عز وجل لا يختص به جنس دون جنس ولا ملة دون الأخرى بل يشترك فيها المؤمنون وغيرهم وأبرز هذه الصور:

1- مخاطبة القرآن للجنس البشري كله في آيات كثيرة.

2- إعلان المساواة بين الناس في أصل الخلق.

3- بيان تسخير الكون لبني آدم.

4- توضيح قضية الاستخلاف في الأرض.

5- إرساء حقوق الإنسان التي تحفظ كرامته.

ويقع تحت كل صورة من صور التكريم هذه الكثير من المحاور والقواعد والموضوعات تصب كلها في العمل على تحقيق التكريم الإلهي للجنس البشري،وقد جاء في السنة النبوية المطهرة ما يؤكد هذا المبدأ القرآني في نصوص كثيرة فقد استثمر النبي ﷺ المواقف التربوية العديدة في تعليم أصحابه احترام الإنسان وتقدير كرامته دون التفات إلى جنسه أو لونه. فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ:«**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله قَدْ**

أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلاَنِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى الله، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى الله، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ الله آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»(1). وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ الله ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ؟**»، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ الله، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**» قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**» قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «**فَإِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**»، قَالَ: وَلاَ أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ، أَمْ لاَ، «**كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَبَلَّغْتُ؟**»، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ الله، قَالَ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»(2)، فهذا إعلان عام من رسول الله ﷺ بحقوق الإنسان وكرامته أعلنه يوم الحجِّ الأكبر وأمر بإبلاغه للعالمين بين فيه ﷺ القواعد العامة للتعامل بين البشر.

3 - ﴿أَلا لله الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]:

وهو مبدأ قررته السنةُ فى الحديث الذي افتتح البخاري به صحيحه عن عمر بن الخطاب

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الحجرات (3270) من طريق علي بن حجر، قال: أخبرنا عبد الله بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما به مرفوعًا. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه.وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين وغيره، وهو: والد علي بن المديني.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (5/ 411) حدثنا إسماعيل، حدثنا سعيد الجريري، عن أبي نضرة به مرفوعًا. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (3/ 266) رجاله رجال الصحيح.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...»** الحديث[1].

وهو الذي صاغه الفقهاء بعد تتبع الفروع الفقهية وتجريد المشترك بينها فى صورة قاعدة **(الأمور بمقاصدها)**، وهى قاعدة واسعة، مما يبين شدة اتصال الفقه الإسلامي بمصادره، ونتبين من هذه القاعدة الفرق بين المبدأ والقاعدة، فالمبدأ منصوص عليه فى النص المقدس القرآن الكريم فهو أصل هذه القضية، أما القاعدة فهي من تتبع الفروع وتجريدها للبحث عن المشترك الساري فيها، وهذا المبدأ يلزم منه تكاليف وإجراءات مبثوثة فى أكثر من سبعين بابًا من أبواب الفقه الإسلامي، ومحور هذا المبدأ وما يستنبط منه من القواعد والفروع هو الإخلاص وتفعيله في جميع الأمور الدينية والدنيوية وتحرير المقصد من القول والفعل والحال بحيث يصل المسلم إلى حقائق قوله تعالى:﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم:42].

قال الإمام السيوطي رحمه الله: «فيما يرجع إلى هذه القاعدة من أبواب الفقه]:

اعلم أنه قد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر حديث النية.

قال أبو عبيدة: ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدة منه، واتفق الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وابن مهدي، وابن المديني، وأبو داود، والدارقطني وغيرهم على أنه ثلث العلم، ومنهم من قال: ربعه، ووجه البيهقي كونه ثلث العلم: بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها ; لأنها قد تكون عبادة مستقلة، وغيرها يحتاج إليها ومن ثم ورد «نية المؤمن خير من عمله».

وكلام الإمام أحمد يدل على أنه أراد بكونه ثلث العلم، أنه أحد القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام عنده فإنه قال: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث «الأعمال بالنية».

وحديث «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (1)

وحديث «الحلال بين والحرام بين».

وقال أبو داود: مدار السنة على أربعة أحاديث: حديث «الأعمال بالنيات»، وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وحديث " «الحلال بين والحرام بين»، وحديث «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا»، وفي لفظ عنه: يكفي الإنسان لدينه أربعة أحاديث، فذكرها، وذكر بدل الأخير: حديث «لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه».

وعنه أيضا: الفقه يدور على خمسة أحاديث: «الأعمال بالنيات»، «والحلال بين»، «ولا ضرر ولا ضرار»، «وما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

وقال الدارقطني: أصول الأحاديث أربعة «الأعمال بالنيات»، «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، «والحلال بين»، «وازهد في الدنيا يحبك الله».

وحكى الخفاف من أصحابنا في كتاب الخصال عن ابن مهدي وابن المديني: أن مدار الأحاديث على أربعة: «الأعمال بالنيات»، و«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث»، و«بني الإسلام على خمس»، و«البينة على المدعي واليمين على من أنكر»، وقال ابن مهدي أيضا: حديث النية يدخل في ثلاثين بابا من العلم،وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابا[1]

إذن أكد العلماء على عظم قدر النية والإخلاص فيها مما جاءت الآية الكريمة مبدأ عاما يستفيد منه المسلم في دينه ودنياه وآخرته.

4- ﴿الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: من الآية 179]:

هذا المبدأ القرآني منطلق لتحقيق العدالة والأمن، وقد اعترض أحدهم مرة على قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فقال: هذه كلماتٌ أربع، فأين هذا الإيجاز والإعجاز الذي تتكلمون عنه في القرآن؟ إنَّه من الأَوْلَى أن نقول: «القتل أنفى للقتل» كما

(1) انظر: الأشباه والنظائر (1/ 9) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي - الناشر: دار الكتب العلمية - الطبعة: الأولى، 1411هـ - 1990م.

كانت تقول العرب؛ فردَّ على هذا مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِي[1] رحمه الله تعالى كما هو منشور في تجميع مقالاته التي سُمِّيت بـ «وَحْي الْقَلَم»، وفي هذه المقالات يَرُدُّ على ذلك الزاعم الذي يزعم أنَّ هناك ما هو أبلغُ من القرآن، في عبارة: «القتل أنفى للقتل» وأنَّها أَوْلَى من قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وهي ليست أبلغ فحسب بل وأصغر، «فالقتل أنفى للقتل» كلماتٌ ثلاث، لكن قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كلماتٌ أربع. يَرُدُّ مُصْطَفَى الرَّافِعِي – وقد ردَّ غيره على هذا أيضًا[2] – قائلًا:

أولًا: إنَّ هذه الكلمة إذا ما أردنا أن نقارنها، فعلينا أن نقارنها بما يقابلها لا بما يزيد عليها في المعنى من القرآن الكريم، والذي يقابلها من القرآن الكريم: «الْقِصَاص حَيَاةٌ».

ثانيًا: التَّكْرَار في المثل العربي «القتل أنفى للقتل»، فقد تكَرَّر لفظ «القتل» مرتين، ولم يتبين من الـمَثَلِ كُنه القتلِ الأولِ أو الثاني. أما كلمة «القِصَاصْ» فقد تبين منها أنَّ القتل الأول وقع ظُلْمًا وتعديًا من القاتل على القتيل، وأنَّ القتل الثاني جاء عُقُوبَةً، وهناك فارقٌ بين الظُّلْم والعقوبة.

ثالثًا: «القتل أنفى للقتل» في مُقَابلَةِ «الْقِصَاص حَيَاة» إذا عَدَدتها أنها كلمات ثلاث، «القتل أنفى للقتل» باعتبار اتصال اللام الأخيرة بالقتل، فإنَّنا نكون أمام كلمتين بإزاء ثلاث، ولكن الحقيقة أنَّ «القتل أنفى للقتل» أربع كلمات وليست ثلاثًا؛ لأنَّ «القتل» واحدة، «أنفى» ثانية،

---

(1) العلامة اللغوي الكبير مصطفى صادق الرافعي (1880م: 1937م) من ذرية سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من أعيان العصر في معرفة أسرار اللسان العربي، وله في النقد الأدبي مكانة كبيرة تذكر بأئمة هذا الشأن من الأقدمين، ومن تلامذته العلامة المحقق اللغوي محمود محمد شاكر، رحم الله الجميع، ومن مؤلفات الرافعي «تاريخ آداب العرب»، و«حديث القمر»، و«وحي القلم»، و«على السفود»، و«تحت راية القرآن»، وقد ترجم له الدكتور محمد سعيد العريان ترجمة واسعة في مجلد، عنوانه: «حياة الرافعي».

(2) للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى مبحث طويل في كتاب «الإتقان» (2/ 149) ساق فيه عشرين وجهًا في تفضيل الآية الكريمة على العبارة المذكورة، وللسيد محمد رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق»: (3/ 782) كلام مفيد ساق فيه ستة أوجه في تفضيل الجملة القرآنية أيضًا.

و«ل» حرف جر، وحروف الجر من الكلمات؛ إذن فهي كلمة ثالثة، و«القتل» كلمة رابعة. فليست الكلماتُ ثلاثًا.

رابعًا: «القتل أنفى للقتل»، هذا التعبير خطأ في المعنى؛ لأنَّ القتل لا يمنع القتل، بل يبعث على القتل. أما القِصَاصُ فإنَّه فِعْلًا يوقف ثوران الفتن التي يحاول فيها المظلوم أن يأخذ بثأره من الظالم، والقِصَاص يكون أمام القضاء، ويكون بعد الإثبات، وكذلك بعد إعطاء الإنسان حقوقه في نفي التهمة عن نفسه، ويكون ذلك بالبينات والأيمان وبالأدلة والقرائن، وبغير ذلك مما هو ثابت في المرافعات أمام القاضي الذي يُثْبِتُ أو لا يُثْبِتُ الجريمة التي تستحق القِصَاص. فالقتل ليس أنفى للقتل؛ بل القتل أَشد إثارة للقتل، بينما القِصَاص شريعةٌ من عند الله؛ ولذلك فيها العفو في مقابل الدِّية، وفيها العفو مجانًا، فكم من قتيل يتمنى أهله أن يموت، وكم من قاتلٍ يكون قد قَتَل بدافعٍ ما: إما بدافع الدفاع عن النفس، أو عن العِرْض، أو عن المال، وقد يكون المقتول في بعض الأحيان هو الظالم، والقاتل هو المظلوم؛ ولذلك فإنَّ العفو مجانًا، أو العفو عن طريق دفع الدِّية، أو عدم العفو بالمَرَّة والقِصَاص - كلُّ ذلك مُرَكَّبٌ في هذا الكلام الموجز البليغ.

خامسًا: «القتل أنفى للقتل» كلماتٌ فيها عَوَار من ناحية النُّطق، ليس في التَّكْرَار فقط، بل في استعمال القاف- وهي من حروف الجَهْرِ- من غير أن نستعمل معها شيئًا يخففها، بل إنَّنا كررناها. أما «القِصَاص» فإنَّنا وجدنا في المقابل لها كلمة «حياة»، وكلمة حياة مكونة من الحاء - والحاء مهموسة، وهي أيضًا مُرَقَّقَة-، والياء كذلك، والألف لينة، والهاء تخرج من الفم بطريقة تُخَفِّفُ وقع كلمة القِصَاص التي فيها غِلْظَة وقوة وشدة وحزم، فتخففها كلمة «حياة». ويأخذ الرجل في بيان هذا المبدأ القرآني: «الْقِصَاصُ حَيَاةٌ».

فهذا المبدأ القرآني يضاف إلى المبدأ الأول، وهناك أكثر من ثلاثين مبدءًا في القرآن على هذا النحو، منها: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: من الآية 40]، وهذا مبدأٌ قرآنيٌّ، وكلمة

(مِثْلُهَا) تعبر عن المساواة، لكن في بعض الأحيان تتعذر المساواة في العقوبة ولذلك فإنَّ الله سبحانه وتعالى يرشدنا حينئذٍ إلى العفو، فإذا أردنا أن نأخذ حقَّنَا فلا نستطيع أن نأخذه بمثل ما قد أوذينا به؛ فعلينا إذن أن نعفوَ وهذا المعنى تراه في بعض التفاسير، كتفسير القرطبي عند قوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: من الآية 45].

فهناك لفظ «الجَرْح» [بفتح الجيم] وهو مصدر، ولفظ «الجُرْح» [بضم الجيم] وهو اسم المصدر الناتج عنه؛ لأنَّ العَلاقة بين المصدر واسم المصدر: أن اسم المصدر هو أثر المصدر؛ فلذلك «العطاء» هو المصدر، و«العطية» التي أعطيت في هذا العطاء هي اسم المصدر، و«الجَرْح» هو المصدر، و«الجُرْح» هو أثر هذه العملية وهي الجَرْح. فمبدأ «الجُرُوح قِصَاص» قد يَسُدُّ القِصَاص نفسه؛ لأنَّ الجرح له طول وعرض وعمق، فهل من الممكن أن نضرب المعتدي بحيث نُحْدِث فيه نفس الجرح؟ نعم يمكن ذلك نظريًّا؛ فهل يمكن عمليًّا؟ إنَّه أمر في غاية الصعوبة؛ وكأنَّ ربَّنا سبحانه وتعالى أراد منا العفو ما دمنا لا نستطيع المماثلة، فالنهاية تؤدي إلى إيقاف هذا الانتقام، والتحوُّل إلى الصبر، والتحوُّل إلى العفو، والتحوُّل إلى قَبُول الدِّيَات؛ وهكذا يأمرنا من طرفٍ خفيٍّ بالعفو، بعد أن يُهَدِّئ بَالَنَا، وأنَّ الجروح فيها الْقِصَاص ولكن افعلها بالمماثلة، فإن قلت: لا أستطيع يا رب أن أفعلها بالمماثلة؛ إذن فعليك بالعفو(1).

إذن قرر القرآن مبدأ عاما، تؤدي مراعاته إلى تحقيق العدالة بين الناس وتجنبهم النزاع المفضي إلى ضياع الحق والفوضى.

5 - ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ [النجم: 39]:

مبدأ يمكن أن تقوم عليه قوانين العمل، وهو فى نفس الوقت شعار ديني واجتماعي وسياسي، وهو مبدأ يقرر لتحمل المسؤولية عن جميع نتائج الأفعال، وهذه الآية عامة تبين

(1) والعفو عن القصاص لا ينفي المطالبة بالدية أو بالقيمة المقدرة أو المقومة للاعتداء على ما دون النفس، غير أن الشريعة الإسلامية جعلت ذلك حقا للمجني عليه، أو لأولياء المقتول وهم من لهم الحق في العفو أو قبول الدية أو القصاص.

عدم مؤاخذة أحد بعمل غيره، وكذلك عدم حصوله إلا على أجر سعيه وجزاء عمله، وهي منسجمة مع قوانين الوجود والحياة؛ فالآية تقرر فردية المسؤولية والتبعة وتؤكد على قابلية الإنسان للكسب والاختيار والسعي ومسؤوليته عن كسبه واختياره وأفعاله وأقواله، وفيها حث على صلاح العمل الديني والدنيوي، وتقوية هذا الوازع في النفس عن طريق حصرها لطريق الفلاح في سعي الإنسان لنفسه.

وهذا المبدأ كذلك يعد من وجهة أخرى منطلق لصلاح الفرد والمجتمع والأمة فهو يرسم طريق الفلاح فمن أراد من البشر فردًا كان أو جماعة أن يحصل الفلاح والنجاح فعليه بالسعي.

6- ﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95]:

وهو مبدأ يؤكد فورية القوانين، وأنها لا تكون بأثر رجعي، بمعنى أنها لا تطبق على الفعل الذي وقع قبل تشريعها، مع وجوب البدء فى تنفيذها فورًا حتى مع عدم المؤاخذة على ما وقع فى الزمن الماضي، وهوكذلك من المبادئ العامة المنظمة للجريمة والعقاب وله في المجال القانوني والتنظيمي أثر كبير، وهو كذلك دعوة للتسامح فيما بين الناس بأن يتخلقوا بالعفو ونسيان الأمور المسيئة فيما بينهم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «﴿فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾. أَيْ مَنْ بَلَغَهُ نَهْيُ الله عَنِ الرِّبَا فَانْتَهَى حَالَ وُصُولِ الشَّرْعِ إِلَيْهِ، فَلَهُ مَا سَلَفَ مِنَ الْمُعَامَلَةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [الْمَائِدَةِ: 95]. وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**وَكُلُّ رِبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا الْعَبَّاسِ**» وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِرَدِّ الزِّيَادَاتِ الْمَأْخُوذَةِ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ بَلْ عَفَا عَمَّا سَلَفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ قَالَ سَعِيدُ بن جبير والسدي: فله ما سلف مَا كَانَ أَكَلَ مِنَ الرِّبَا قَبْلَ التَّحْرِيمِ»(1).

(1) تفسير القرآن العظيم (1/ 547) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي - =

وقد كان في سيرة رسول الله ﷺ المطهرة ما يؤكد تفعيل هذا المبدأ خاصة فيما يتعلق بالحض على الرحمة والتسامح في الحقوق بين العباد بعضهم البعض. قال الإمام الطبري:«حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: ثني أَبِي، قَالَ: ثني عَمِّي، قَالَ: ثني أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَتْ مِحْنَةُ النِّسَاءِ[1] أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ أَمَرَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: قُلْ لَهُنَّ: إِنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يُبَايِعُكُنَّ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكْنَ بِاللهَّ شَيْئًا، وَكَانَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ الَّتِي شَقَّتْ بَطْنَ حَمْزَةَ رَحْمَةُ اللهَّ عَلَيْهِ مُتَنَكِّرَةً فِي النِّسَاءِ، فَقَالَتْ: إِنِّي إِنْ أَتَكَلَّمْ يَعْرِفْنِي، وَإِنْ عَرَفَنِي قَتَلَنِي، وَإِنَّمَا تَنَكَّرْتُ فَرَقًا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ فَسَكَتَ النِّسْوَةُ اللَّاتِي مَعَ هِنْدٍ، وَأَبَيْنَ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ؛ قَالَتْ هِنْدٌ وَهِيَ مُتَنَكِّرَةٌ: كَيْفَ يَقْبَلُ مِنَ النِّسَاءِ شَيْئًا لَمْ يَقْبَلْهُ مِنَ الرِّجَالِ؟!! فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَقَالَ لِعُمَرَ: «**قُلْ لَهُنَّ وَلَا يَسْرِقْنَ**». قَالَتْ هِنْدٌ: وَاللهَّ إِنِّي لَأُصِيبُ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ الْهِنَاتِ وَمَا أَدْرِي أَيُحِلُّهُنَّ لِي أَمْ لَا. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا أَصَبْتِ مِنْ شَيْءٍ مَضَى، أَوْ قَدْ بَقِيَ، فَهُوَ لَكِ حَلَالٌ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ وَعَرَفَهَا، فَدَعَاهَا فَأَتَتْهُ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ، فَعَاذَتْ بِهِ، فَقَالَ: «**أَنْتِ هِنْدٌ**». فَقَالَتْ: عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ. فَصَرَفَ عَنْهَا رَسُولُ الله ﷺ»[2].

فالعفو خلق من أخلاق الإسلام وهو في نفس الوقت مبدأ ينبني عليه نظام العقوبات في الإسلام في جزء كبير منها، وهو كذلك مبدأ من أهم مبادئ التربية الإسلامية الذي تنشأ عليه الأجيال المسلمة.

=

المحقق: محمد حسين شمس الدين – الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت – الطبعة: الأولى – 1419 هـ.

(1) أي امتحان إيمانهن وذلك بموجب الآية الكريمة:﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِالله شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة:12].

(2) تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن(22/ 596) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري – تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي –الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – الطبعة: الأولى، 1422 هـ – 2001 م.

7 - ﴿ما يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: 6]:

وهو مبدأ رفع الحرج ويؤكده: ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. ويرتبط مع مبادئ أخرى فى الأخذ بالعرف، والمشقة تجلب التيسير وذلك فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]. وفى قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرا﴾ [الشّرح: 6].

وفى البحث عن المبادئ العامة ينبغي البحث عن العلاقات البينية بين تلك المبادئ، للوصول إلى منظومة يمكن أن تمثل أساس النموذج المعرفي الإسلامي الذي به التقويم.

وهذا المبدأ يلفت النظر إلى أن التكليفات الشرعية لا يراد منها إيقاع الحرج على المسلمين أفرادًا أو جماعات، بل العكس هو الصحيح يقول الزركشي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: 185] وقوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم﴾ [المائدة: 6] فقد أشار سبحانه وتعالى إلى رفع العسر، وإزالة الحرج عن الناس فيما ألزمهم به من أحكام، ومقتضى هذا أن تكون تلك الأحكام دائرة مع مصالحهم، ومتطلبات سعادتهم في الدنيا والآخرة بتيسير العبادة لهم، وتطهيرهم من رجز الدنيا والآخرة، وما ذلك إلا للسعادة في الآخرة، ولو أن الأحكام لم يراع فيها المصالح، لكان فيها عسر وحرج، لكن العسر والحرج في الأحكام مرفوع، فارتفع كون الأحكام لم تراع فيها المصالح التي تعود على المكلفين»[1].

قال الشاطبي رحمه الله: «فإن الشارع لم يقصد إلى التكاليف بالمشاق الإعنات فيه، والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النصوص الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي

---

(1) تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي (3/ 33) المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي- دراسة وتحقيق: د سيد عبد العزيز- د عبد الله ربيع، الناشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث - الطبعة: الأولى، 1418 هـ- 1998 م.

كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الْأَعْرَافِ: 157].وَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا.... الآية﴾ [البقرة: 286].وَفِي الْحَدِيثِ: «قَالَ الله تَعَالَى: قَدْ فَعَلْتُ».وَجَاءَ:﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الْبَقَرَةِ: 286].﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الْحَجِّ: 78]. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاءِ: 28].﴿مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾... الآية [المائدة: 6].

وَفِي الْحَدِيثِ: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**».«**وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يكن إثما**».وإنما قال: "ما لم يكن إثما"؛ لأن ترك الإثم لا مشقة فيه، من حيث كان مجرد ترك، إلى أشباه ذلك مما في هذا المعنى، ولو كان قاصدا للمشقة لما كان مريدا لليسر ولا للتخفيف، ولكان مريدا للحرج والعسر، وذلك باطل.

والثاني: ما ثبت أيضا من مشروعية الرخص، وهو أمر مقطوع به، ومما علم من دين الأمة ضرورة، كرخص القصر، والفطر، والجمع، وتناول المحرمات في الاضطرار، فإن هذا نمط يدل قطعا على مطلق رفع الحرج والمشقة، وكذلك ما جاء من النهي عن التعمق والتكلف والتسبب في الانقطاع عن دوام الأعمال، ولو كان الشارع قاصدا للمشقة في التكليف، لما كان ثم ترخيص2 ولا تخفيف.

والثالث:الإجماع على عدم وقوعه وجودا في التكليف، وهو يدل على عدم قصد الشارع إليه، و3 لو كان واقعا لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وذلك منفي عنها؛ فإنه إذا كان وضع الشريعة على قصد الإعنات والمشقة -وقد ثبت أنها موضوعة على قصد الرفق والتيسير- كان الجمع بينهما تناقضا واختلافا، وهي منزهة على ذلك»(1).

(1) الموافقات (2/ 213-210) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي-المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان- الناشر: دار ابن عفان- الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

إذن مبدأ رفع الحرج الذي نص عليه القرآن هو من المبادئ الكبرى التي تتسم بها الشريعة الإسلامية، ويمثل أيضا منهجا للعبادة والتقرب إلى الله

من مجالات تفعيل المبادئ القرآنية:

فهذه صورة مبسطة للمبادئ القرآنية العامة ترشدنا إلى ضرورة الاهتمام بها واستخراجها من القرآن الكريم، مع مراعاة الضوابط في ذلك ثم العمل على تفعيلها فهي تضبط حياة الفرد والمجتمع، وتنظِّمها وتمدُّها بأسباب السعادة والرَّاحةِ عند إحسان تطبيقها.

وذلك أنَّ كلَّ مبدأ مِن هذه المبادئ تتفرَّع منه الكثير والكثير من الطرُق والأساليب المنظِّمة للحياة، والتي تتوافق مع كلِّ زمانٍ ومكانٍ في مختلف مجالات حياة الإنسان على الأرض، ممَّا يجعل من هذه المبادئ القرآنيَّة منهجًا متكاملًا متطوِّرًا غير جامدٍ، يشمل الأسس الضابطة للحياة البشرية.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول: أن هذا المنهج يمكن أن نستنبط منه الطرق التي يتحقق بها النموذج الأكمل لحياة الفرد والجماعة، بمعنى أننا لو قمنا بتطبيق هذه المبادئ في المجالات المختلفة للحياة لأصبح لدينا النموذج المثالي لحياة البشر.

ومن هذه المجالات:

1 - المجال الاقتصادي:

يمكن أن نطبق المبادئ القرآنية التي تتضمَّن الاعتدال والتوسُّط في الإنفاق، فتطبيق مبدأ الاعتدال في مجال الاقتصاد يشمل جميع جوانب الحياة، سواءٌ في المأكل أو المشرب أو الملبس أو المسكن، فلا نصبح مجرَّد مجتمعات استهلاكيَّةٍ وفي نفس الوقت لا نحرم أنفسنا من النَّعم التي أكرمنا الله بها تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. وفي مجال التوسط في الإنفاق وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

2 – المجال السياسي:

نطبق مبادئ الشورى والعدل حيث شرع الإسلام الشورى وأقرها كمبدأ عام، وأراد بذلك ضبطَ قضيَّة المُلك والحكم بحيث لا يوجد مجالٌ للاستبداد واحتكارِ الإدارة، وذلك على مستوى الدولة والمؤسسة والجماعة والأسرة قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

وإنَّ من مجالات الشورى الرقابة على الحاكم، والنصح له، ووضع سياسةٍ للأمَّة في السِّلم والحرب، وتوجيه نظام الأمَّة المالي، وبحث المستجدَّات من المعاملات والقضايا، وكذلك تطبيق مبدأ العدل الذي يحقِّق انضباطَ الحياة في المجتمع قال سبحانه: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:8] وكذلك كفالةُ حرية الاعتقاد بتطبيق مبدأ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].

3 – المجال القانوني والتشريعي:

نطبق مبدأ القصاص وهو الذي أخبرنا عنه الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179] وتطبيق مبدأ عفا الله عما سلف، وهو مبدأ يوضِّح عدم رجعيِّة القوانين وتطبيقها بأثرٍ رجعيٍّ على النَّاس ﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة:95].

4 – المجال التربوي:

نطبِّق مبدأ القدوة الحسنةِ لما للقدوة من مجالٍ مهمٍّ في التربية والتنشِئةِ في جميع المراحل العمريَّة عامَّةً وفي الطفولةِ خاصَّةً فكان المبدأ القرآنيَّ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21] هو خير مصدرٍ يرشدنا إلى كيفيَّة تطبيقِ هذه القدوة في مجال التربية واستنباط النموذج المثالي من خلال شخص رسول الله ﷺ وأخلاقه وآدابه وتعاملاته، وكذلك تطبيق مبدأ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123] ومبدأ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60].

فما المبادئ العامة في القرآن الكريم إلا منهجٌ متكاملٌ جامعٌ لكليات الحياة ومفرداتها، فهي

الدستور الجامع المكون لهوية الأمة وهي رؤية قرآنية متجددة تلبي مطالب الحياة الشخصية والعامة وهي وجه كامل الوضوح من وجوه المفاهيم القرآنية اللامحدودة بالزمان أو المكان وهي المكون لمنظومة المقاصد الشرعية فما من مبدأ نضعه تحت النظر والاختبار إلا ونجده متناسبًا مع الإنسان داخليًا وخارجيًا، ومع الوجود المحيط ولذلك كله فهذه المبادئ تتطلب جهودًا كبيرة من المتخصصين في العلوم الشرعية والعلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لإخراج العلوم والمعارف منها، والعمل على تفعيلها في أرض الواقع.

***

المبحث التاسع
الوحدة البلاغية والبنائية
للقرآن الكريم وأثرهما في فهم القرآن الكريم

تمهيد:

من أهم الأركان والأصول التي يجب أن ندركها ونفهمها ونستصحبها ونراعيها عند قراءة القرآن الكريم، ومحاولة إدراك معانيه، ومعرفة مقاصده، واستخلاص أهدافه وأوامره هي أننا نتعامل مع كتاب إلهي يتميز بوحدة بنائية كلية تجعله كالجملة الواحدة، هذه الجملة الواحدة تتكون من السور والآيات والكلمات التي يجمعها نظام واحد يصل فيما بينها ونسق واحد تنتظم من خلاله من أول القرآن الكريم إلى آخره، وهي كذلك-أي هذه الجملة الواحدة- في أعلى درجات البلاغة، ودقة النظم وجمال البيان، التي لا تتخلف عن حرف في هذه الجملة.

فبعد أن ثبت لدينا بالأدلة العقلية المتنوعة التي ليس لها معارض صحة نسبة هذا الكتاب الكريم إلى الله سبحانه وتعالى؛ فلن نتعامل معه كما نتعامل مع أي نص آخر فهو خطاب إلهي موجه إلينا برسالة هداية عامة، يحتاج منا إلى قراءة خاصة لكي ندرك معانيه، هذه القراءة تنطلق من أننا نقرأ كلام الله رب العالمين خالق السموات والأرض ومدبر جميع أمرها، وعلى هذا فقد أودع سبحانه في كتابه من الأسرار والمعارف ما يحتاج إليه الجنس البشري في دينه ودنياه ومعاده، والقراءة الخاصة لإدراك هذه الأسرار والمعارف تتطلب منَّا أن ننتبه لخصائص هذا الكتاب الكريم.

بعض خصائص الخطاب الإلهي:

مما يتميز هذا الخطابُ الإلهي بأنه ذو وحدة بلاغية كلية، من حيث دقة النظم وجماله وعظمة البيان، وكذلك هو ذو وحدة بنائية في المعاني والأهداف والمقاصد، هذه الوَحدة الكلية الجامعة بين دقة المباني ووحدة المعاني من أهم خصائص هذا الكتاب ودلائل إعجازه،

ودليل على أنه كلام الله. فالقرآن الكريم الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1]، فهذا الإحكام في الآيات والتفصيل يظهر في انتظام حروفه وكلماته وآياته وسوره في نظام بلاغي واحد مؤتلف غير مختلف، ذو وحدة كلية بلغ الغاية في قوة البيان وجماله وتفوق على كل ما أخرجه لسان العرب من الكلام، ثم يظهر هذا الإحكام كذلك في تميزه بوحدة بنائية كلية في المعاني والأهداف والمقاصد فيصبح كالجملة الواحدة التي تعالج وتناقش موضوعًا واحدًا.

فقد يظن الإنسان لأول وهلة من خلال نظرة سطحية أن القرآن الكريم كتاب يتكون من مجموعة من السور والآيات المنفصلة، والتي نزلت في أوقات مختلفة تعالج موضوعات متعددة وفقًا لمناسبة النزول، ولا يوجد رابط بينها سوى أنها مجموعة في كتاب واحد. ولكن عند التعمق في النظر والقراءة والإحاطة بالنظم والمعنى يلحظ المرءُ أن هناك رابطًا كليًا يربط ويجمع بين كلمات هذا الكتاب وآياته وسوره وما يحتويه من موضوعات، فيجعله كالجملة الواحدة، هذا الرابط يظهر من خلال أمرين:

الأمر الأول وحدة النسق في كمال البلاغة:

فهو كالجملة الواحدة من حيث: بلوغه الغاية في الإعجاز اللغوي فتظهر البلاغة وروعة البيان ودقة النظم في جميع حروفه وكلماته، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس وجريانه على نسق بديع فاق جميع صور البلاغة العربية من شعر ونثر وغير ذلك.

الأمر الثاني وحدة المقصد والهداف العليا:

هو كالجملة الواحدة من حيث: مقاصده الكلية وأهدافه العليا ومعانيه الجامعة، والتي تظهر في جميع كلماته وآياته ولا يخرج عنها شي مما في هذا الوجود ويمكن أن نلخصها في معرفة الله وتوحيده وعبادته، وتزكية النفس، وعمارة الأرض، وبيان المآل في الآخرة. وما يندرج تحت كل هدف من هذه الأهداف من فروع معرفية متعددة وتطبيقات عملية مختلفة.

فكتاب الله عز وجل كالجملة الواحدة في وحدة المعاني وفي نظم ودقة وجمال المباني، ذو نسق واحد يجمع بين الأمرين يسري في القرآن الكريم من أوله إلى آخره.

ونحن هنا في هذا المبحث سوف نركز على بيان حقيقة وملامح ومظاهر أن القرآن الكريم كالجملة الواحدة من خلال هذين الأمرين.

- **كونه كالجملة الواحدة من حيث الإعجاز البلاغي.**
- **كونه كالجملة الواحدة من حيث الأهداف والمقاصد والموضوع والمعاني.**

***

المطلب الأول
القرآن الكريم كالجملة
الواحدة من حيث الإعجاز البلاغي

قد تكلم كثير من أهل العلم والبلاغة عن مظاهر الإعجاز البلاغي، ولكننا هنا نركز على ملاحظة الوحدة البلاغية البنائية لكتاب الله عز وجل، والأدلة على كون القرآن الكريم بحروفه وكلماته وآياته وسوره كالجملة الوحدة في الفصاحة والبيان ودقة النظم.

فقد نزل القرآن الكريم منجمًا، فهو لم ينزل جملة واحدة على رسول ﷺ كما حدث مع الكتب السابقة؛ وإنما كان نزوله متدرجًا على مدى ثلاثة وعشرون عامًا هي مدة الدعوة النبوية. يقول الله عز وجل: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء:106]. ويقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:32].

فمنذ أن نزل جبريل عليه السلام بأول الآيات من كتاب الله على رسول الله ﷺ في غار حراء تتابع الوحي الإلهي بالقرآن الكريم، فتارة تنزل على النبي ﷺ الآية أو الآيتين أو الثلاث آيات، وتارة تنزل عليه سورة كاملة حتى اكتمل نزول الكتاب الكريم كله.

والشاهد هنا في ظهور الوَحدة البلاغية للقرآن الكريم، وكونه كالجملة الواحدة من الناحية البلاغية الجمالية، فبالرغم من نزول الكتاب الكريم طوال هذه المدة الطويلة بدون نظام محدد لنزول السور؛ إذ ليس ضروريا أن تختم سورة فينتقل الوحي إلى ما بعدها، هذا لم يحدث؛ وإنما نزلت آيات متفرقات وضعت بالتوقيف النبوي تنفيذًا للأمر الإلهي في مكانها من السور. فنحن نجد أن السورة الواحدة من آياتها ما هو مكي ومنها ما هو مدني، فقد كانت تنزل الآية أو الآيات ويأمر النبي ﷺ أن توضع في سورة معينة قد نزلت فيما سبق، وبمعنى آخر أننا قد نجد السورة الواحدة قد تأخذ وقتًا طويلا حتى يكتمل نزولها وقد

جاءت أحاديث نبوية توضح صورة هذا الأمر:

فعن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبيّ – ﷺ – مما يُنزَلُ عليه الآياتُ، فيدعو بعضَ مَن كان يكتبُ له ويقول: له «**ضَعْ هذه الآيةَ في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا**»، وتنزلُ عليه الآيةُ والآيتان فيقولُ مِثلَ ذلك»(1).

وروى الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة:281]. قال: هذه آخرُ آيةٍ نزلت على رسولِ الله– ﷺ– وإنّ جبريلَ نزل عليه فقال: «**ضعها على رأسِ ثمانينَ ومئتين من البقرة**».

وروى الزُهري عن عُبيَد الله بن عبد الله بن عُتْبة عن ابن عباس قال:حدَّثني أُبيُّ بن كعب قال: ربّما نزلَ على رسول – ﷺ – الصدرُ من السور فأكتبُها، ثم ينزل عليه فيقول: «**يا أُبيُّ اكتب هذه في السورة التي يُذكرَ فيها كذا وكذا**»، وربّما نزل عليه فأقفُ حتى أنظرَ ما يقولُ حتى يحدِّثَ إليّ فيقول: «**تلك الآياتُ ضعها في سورةِ كذا وكذا**»(2).

ومع كل هذا الوقت وامتداد الفترة والتغير في الزمان والمكان والأحوال، إلا أننا نجد أن السورة الواحدة تظهر فيها وحدة بنائية بلاغية، لا تتخلف من أول آية في السورة إلى آخر آية، وهذا أمر في غاية الإعجاز، ودليل من دلائل نسبة هذا الكتاب إلى الله سبحانه وتعالى؛ حيث إن البيان البشري يتنوع في القوة والضعف وفقًا لتغير الظروف وطول الفترة وتراكم الخبرة العلمية، واتساع المدارك اللغوية، بل والحالة المزاجية أيضًا فهو متغير غير ثابت، فعلى سبيل المثال لو بحثنا في دواوين شعر الفطاحل من الشعراء، وكتابات أهل الأدب والبيان على

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب تفريع استفتاح الصلاة، باب الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم(786) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(2) انظر: الانتصار للقرآن (1/ 291) المؤلف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي – تحقيق: د. محمد عصام القضاة – الناشر: دار الفتح – عَمّان، دار ابن حزم – بيروت –الطبعة: الأولى 1422 هـ – 2001 م.

تنوعها، فلا ريب أننا سوف نجد قوة في مكان وتوسط في مكان وضعف في مكان آخر، من حيث البلاغة وجودة البيان وجمال العبارة، أما القرآن الكريم فقوته البلاغية وعظمته البيانية تمتد من أوله إلى آخره غير منفكة عنه، تظهر بقوة في كل حروفه وكلماته وآياته بل وفوق ذلك نجد في كل سورة روحًا بلاغية واحدة تهيمن عليها، ثم تنتقل البلاغة بصورة أخرى إلى السورة التي تليها، وهكذا من أول القرآن إلى آخره وصدق رب العالمين:﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82].

وقد شهد له أعدائه من أهل الكفر بالإعجاز والبلاغة:

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: يَا عَمِّ، إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا. قَالَ: لِمَ؟. قَالَ: لِيُعْطُوكَهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِبَلَهُ قَالَ: قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا. قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ أَوْ أَنَّكَ كَارِهٌ لَهُ قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟. فَوَالله مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَزِهِ وَلَا بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ. وَالله مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَوَالله، إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَا، وَأَنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ. قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: 11].

وجاء في رواية أخرى عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: جَاءَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ: أَعِدْ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: وَالله، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ،

وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ[1].

وقبل ذلك كله وصفه سيد الكائنات ﷺ بأنه: «**كتابُ الله، فيه نَبأُ ما قبلَكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكم ما بينكم، هو الفَصْل ليس بالهزل، مَن تركه من جبَّار قَصَمه الله، ومَن ابْتَغى الهُدَى في غيره أضلّه الله، وهو حَبْلُ الله المتين، وهو الذِّكْرُ الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تَزِيغُ به الأهواء، ولا تَلْتَبِسُ به الألْسِنَةُ، ولا يَشْبَعُ منه العلماءُ، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرَّدّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تَنْتَهِ الجنُّ إذْ سمعتْه حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾** [الجن: 1 - 2]. **مَن قال به صَدَقَ، ومَن عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمن حكم به عَدَل، ومَن دَعَا إِليه هُدِيَ إِلى صراط مستقيم**»[2].

---

(1) انظر: دلائل النبوة (2/ 198) المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني، أبو بكر البيهقي – المحقق: د. عبد المعطي قلعجي – الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث – الطبعة: الأولى – 1408 هـ – 1988 م.

(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (2906) من طريق عبد بن حميد، قال: حدثنا حسين بن علي الجعفي، قال: سمعت حمزة الزيات، عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال عنه الترمذي هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. وقال عنه الحافظ ابن كثير في تفسيره:«قلت: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث إلا أنه إمام في القراءة والحديث، مشهور من رواية الحارث الأعور وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ.

قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه فضائل القرآن: حدثنا أبو اليقظان، حدثنا عمار بن محمد الثوري أو غيره عن أبي إسحاق الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: =

وقد تحدى رب العزة المكذبين بهذا القرآن أن يأتوا بمثله أو بعضه أو قريبًا منه، وهم أهل البلاغة وفصحاء العرب وفطاحل الشعراء، مع أن ألفاظ القرآن ومفرداته وألفاظه معروفة لديهم وموجودة في كلامهم. فأعجزهم سبحانه إلى يوم القيامة. يقول الله عز وجل:

- ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:88].

-﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود:13].

- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:23-24].

-﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:38].

=

«إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله عز وجل، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يعوج فيقوم، لا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم الم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر». وهذا غريب من هذا الوجه، وقد رواه محمد بن فضيل عن أبي إسحاق الهجري، واسمه إبراهيم بن مسلم، وهو أحد التابعين، ولكن تكلموا فيه كثيرا. وقال أبو حاتم الرازي: لين ليس بالقوي. وقال أبو الفتح الأزدي: رفاع كثير الوهم. قلت: فيحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم.(تفسير القرآن العظيم (1/ 21/ 22) المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي- المحقق: سامي بن محمد سلامة - الناشر: دار طيبة - الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م).

-﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:33-34].

مظاهر الوَحدة البلاغية للقرآن الكريم في التراث الإسلامي:

والمقصود بالوحدة البلاغية في كتاب الله: سريان الروح البلاغية في أعلى درجاتها، وأقوى صورها وأعذب روافدها في القرآن الكريم، من أوله إلى آخره، لا تتخلف في موطن من المواطن، وكذلك ظهور عجيب النظم والترتيب في كلماته وآياته والذي هو أحد أهم وجه إعجازه، وسر من أسرار تفرده وإعجازه للخلق أن يأتوا بمثله، وحسن اختيار الكلمة في موقعها، وما وقع فيه من تنوع أساليب البيان وجمال التصوير، وحسن التشبيه والكنايات والاستعارات وثراء الألفاظ والإيجاز والإطناب.

هذه الوحدة البلاغية مصدرها أنه كلام الله المنظوم على هذا الوجه المتفرد، الذي لا يشاركه فيه أيُّ كلام آخر، وقد تكلم أهل العلم عن مظاهر الوحدة البلاغية في كتاب الله وذكروا مظاهرها وملامحها. وما كانت جهودهم إلا محاولة لإدراك بعض عظمة هذا النص الإلهي الذي قال الله سبحانه فيه:﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:41-42].

ويعد أهم عناصر هذه البلاغة النظم القرآني الفريد، ولذا سنفرده بالدراسة والبحث فيما يلي:

النظم لغة:

نظم: النظم: التأليف، نظمه ينظمه نظما ونظاما ونظمه فانتظم وتنظم. ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل. وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمته. والنظم: المنظوم، وصف بالمصدر. والنظم: ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما.

والجمع أنظمة وأناظيم ونظم. النظم: نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد،

كذلك هو في كل شيء حتى يقال: ليس لأمره نِظَامْ أي لا تستقيم طريقته. والنِظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام، وجمعه نُظُم(1).

ويقول الزمخشري في «أساس البلاغة»: «نظمتُ الدر ونظّمته، ودر منظوم ومنظّم، وقد انتظم وتنظّم وتناظم، وله نظم منه ونظام ونظمٌ.

ومن المجاز: نظم الكلام. وهذا نظم حسن، وانتظم كلامه وأمره. وليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقته»(2).

النظم اصطلاحًا:

من هذه المعاني اللغوية جاءت فكرة النظم ومعناه في المصطلح، وفيما يتعلق بموضوع بيان نظم القرآن الكريم وأوجه عظمته. فقد تنوع تعريف النظم والتعبير عنه بحسب طريقة التناول ومعالجته عند من تكلم فيه من العلماء وأهل البلاغة، وعلى الجملة يمكن أن يقال أنه هو:

«كمالُ ترتيب الكلام والألفاظ وفق نسق مخصوص، به تنضبط دلالتها وتتضح معانيها وتتلاقي في تآلف يقبله العقلُ ويلامس القلبَ، يكون المقال فيها على قدر المقام، يضاف إلى ذلك عذوبة تغلف جميع العبارة من أولها إلى آخرها، فيحسن وقعها في السمع، وتخف على اللسان وتتقبلها النفس».

---

(1) انظر: لسان العرب (12/ 578) المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى– الناشر: دار صادر – بيروت – الطبعة: الثالثة – 1414 هـ.

(2) انظر: أساس البلاغة (2/ 284) المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله– تحقيق: محمد باسل عيون السود – الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، 1419 هـ – 1998 م.

ظهور أثر النظم في حروف القرآن وكلماته وآياته وسوره:

أسرار وعجائب النظم في القرآن الكريم تبدأ من الحرف؛ ففي كل حرف من القرآن تظهر أسرار النظم في مكانه في الكلمة الواحدة وأثره فيها، ثم تظهر قوة النظم وعجائبه في الجملة الواحدة، ثم تظهر في الآية وموقع الكلمة منها، ثم تظهر في السورة الواحدة مُكونة نظامًا فريدًا لنظم هذا الكتاب، حتى صارت قوة نظمه وجماله فوق اللغة يسبقها ولا تستطيع أن تساويه أو تقاربه.

فالُمشاهَد في أن كثيرا من أهل اللغة والبلاغة والأدب، قد امتلك ناصية الفصاحة والبيان، وعلم من ألفاظ اللغة ومفرداتها ما لا يحصى، ولكنه مع كل ذلك لا يستطيع أن يخرج كلامًا يشبه من قريب أو بعيد القرآن الكريم في نظمه فكيف ذلك؟!! والحروف هي الحروف المستخدمة عند العرب، والكلمات هي نفس الكلمات، والمفردات هي نفس المفردات، فيقف العقل عاجزًا، فلا يجد سببًا إلا أن هذا الكلام هو كلام الله الذي لا يشبهه كلام، مما جعل للنظم القرآني خواص ارتفع بها عن كل نظم آخر في اللغة العربية، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:88].

نماذج من بحوث العلماء وجوه إعجاز نظم القرآن:

اهتم علماء اللغة والبيان وغيرهم من أهل العلم بالبحث عن أسرار هذه الوحدة البلاغية الكلية لكتاب الله، ففتح الله على كل واحد منهم بمعنى، وعلى ذلك رأينا من تمام الفائدة عرض نماذج من محاولات علماء الأمة في الكشف عن سر البلاغة القرآنية، وسوف نلحظ تدرجهم في ذلك عبر العقود والقرون حتى ظهرت في كتابتهم ما يمكن أن يعبر عنه بنظرية النظم القرآني، ومن هؤلاء العلماء:

1 - عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ رحمه الله (ت:255هـ):

اهتم الجاحظ ببيان عظمة النظم القرآني اهتمامًا كبيرًا، وعمل على تجلية مظاهرها وجعل

منها دليلًا على إعجاز القرآن الكريم، وحجة ودليل على نبوة نبينا ﷺ. بل قد أفرد فيها بالتأليف حيث أخرج كتاب «نظم القرآن». وهو كتاب مفقود ولكن جاء ذكره في مؤلفاته ومؤلفات غيره. يقول الباقلاني رحمه الله: «وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابًا، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله»(1).

– يقول الجاحظ رحمه الله: «وفي كتابِنا المنزّل الذي يدلُّنا على أنّه صِدْقٌ؛ نَظْمُه البدِيع الذي لا يقدِر على مثله العباد، مَعَ ما سِوَى ذلك من الدّلائِلِ التي جَاء بها مَنْ جَاء به»(2).

– ويقول رحمه الله: «قد جعل الله قوم كل نبي هم المُبَلِغِينَ والحجة، ألا ترى أنَّا نزعم أن عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم، من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجزة»(3).

– ويقول رحمه الله: «لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغَ العرب لظهر عجزه عنها، وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين! ألا ترى أن الناس قد كان يتهيأ في طبائعهم ويجري على ألسنتهم أن يقول رجل منهم: الحمد لله وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وهذا كله في

(1) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (ص 6) المؤلف: أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب– المحقق: السيد أحمد صقر – الناشر: دار المعارف – مصر– الطبعة: الخامسة، 1997م.

(2) انظر: الحيوان (4/ 90) المؤلف: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ– تحقيق:عبد السلام محمد هارون – الناشر: دار الجيل – سنة النشر: 1416هـ – 1996م – لبنان– بيروت.

(3) انظر: البيان والتبيين (3/ 295) المؤلف: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – تحقيق وشرح: عبد السلام هارون– دار النشر: مكتبة الخانجي – البلد: القاهرة –الطبعة: السابعة – سنة الطبع: 1418هـ، 1988م.

القرآن غير أنه متفرق غير مجتمع، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان»(1).

ويقول رحمه الله: «إن محمدا ﷺ مخصوص بعلامة لها في العقل موقع كموقع فلق البحر من العين، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة مع ما فيها من الشعراء والخطباء والبلغاء والدعاة والحلماء وأصحاب الرأي والمكيدة والتجارب والنظر في العاقبة: «إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي وصدقتم في تكذيبي»(2).

ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم واختلاف عللهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم، قد فاض بيانهم وجاشت به صدورهم وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والخنافس والجعلان والحمير والحمام، وكل ما دب ودرج ولاح لعين وخطر على قلب، ولهم بعد أصناف النَظم، وضروب التأليف كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور، وبعد فقد هجوه(3) من كل جانب، وهاجى أصحابه شعراءهم، ونازعوا خطباءهم، وحاجوه في المواقف، وخاصموه في المواسم، وبادروه العداوة، وناصبوه الحرب، فقتل منهم وقتلوا منه وهم أثبت الناس حقدا وأبعدهم مطلبا، وأذكرهم لخير أو لشر وأنفاهم له وأهجاهم بالعجز وأمدحهم بالقوة، ثم لا يعارضه معارض ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر!!!.

---

(1) انظر: رسائل الجاحظ (الكلامية) (1/ 131) – المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ – تقديم وشرح: د. علي بو ملحم – دار ومكتبة الهلال – بيروت – تاريخ الطبع: 2002م.

(2) ليس هنا حديث بهذا النص، وإنما مقصد الجاحظ أن يحاكي ما ذكره القرآن عن تحدي العرب أن يأتوا بمثله نحو قول الله تعالى: {إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: 23]

(3) أي: هجو النبي ﷺ.

ومحال في التعارف منكر في التصادق أن يكون الكلام أخصر عندهم وأيسر مئونة عليهم، وهو أبلغ في تكذيبهم وأنقض لقوله وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه. فيجتمعوا على ترك استعماله والاستغناء به وهم يبذلون مهجهم وأموالهم ويخرجون من ديارهم، في إطفاء أمره وفي توهين ما جاء به، ولا يقولون بل لا يقول واحد من جماعتهم: لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم وتخرجون من دياركم، والحيلة في أمره يسيرة والمأخذ في أمره قريب؟!!!. ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلامًا في نظم كلامه كأقصر سورة يخذلكم بها وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها»(1).

وقد أتى الجاحظ بأمثلة يبين فيه بلاغة النظم القرآني، ويوضح فيه خصائص الأسلوب القرآني التعبيرية، ويكشف عن دقائق وخبايا أسرار القرآن البيانية، التي هي مظهر من مظاهر بلاغته المطلقة فعن ذلك يقول:

- «(من إيجاز القرآن). ولي كتابٌ جَمَعْتُ فيه آيًا من القرآن؛ لتَعرِفَ بها فصل ما بينَ الإيجاز والحَذْف، وبين الزّوائد والفُضول والاستعارات. فإذا قرأْتها رأيت فضلها في الإيجاز والجَمْعِ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظ القليلة على الَّذي كتبتُهُ لك في بابِ الإيجازِ وترك الفضول، فمنها قوله حينَ وصفَ خمرَ أهلِ الجنّة: ﴿لاَ يُصَدَّعُون عَنْها وَلاَ يُنْزِفون﴾ [الواقعة:19]. وهاتان الكلمتان قد جَمَعتا جميعَ عُيوبِ خمرِ أهلِ الدُّنيا.

وقولُه عزّ وجل حينَ ذكر فاكهة أَهلِ الجنّة فقال: ﴿لاَ مَقْطُوعةٍ وَلاَ مَمْنُوعةٍ﴾ [الواقعة:33]. جمع بهاتين الكلمتين جميعَ تلك المعاني»(2).

2 - الإمام الطبري رحمه الله (ت310هـ):

يحدثنا الإمام الطبري عن نظم القرآن الكريم ونسقه الذي هو أحد وجوه بلاغته وإعجازه

---

(1) المصدر السابق (1/ 154).

(2) انظر: الحيوان (3/ 86).

فيقول:

«إنّ الله تعالى ذكرُه جَمع لنبينا محمد ﷺ ولأمته - بما أنزل إليه من كتابه- معانيَ لم يجمعْهُنّ بكتاب أنزله إلى نبيّ قبله، ولا لأمَّة من الأمم قبلهم، وذلك أنّ كُلّ كتاب أنزله جلّ ذكرُه على نبيّ من أنبيائه قبله، فإنما أنزل ببعض المعاني التي يحوي جميعَها كتابُه الذي أنزله إلى نبينا محمد ﷺ، كالتَّوراة التي هي مواعظ وتفصيل، والزَّبُور الذي هو تحميد وتمجيد، والإنجيل الذي هو مواعظ وتذكير-لا مُعجزةَ في واحد منها تشهد لمن أنزل إليه بالتصديق. والكتابُ الذي أنزل على نبيِّنا محمد ﷺ، يحوي معاني ذلك كله، ويزيد عليه كثيرًا من المعاني التي سائرُ الكتب غيرِه منها خالٍ.

ومن أشرفِ تلك المعاني التي فَضَل بها كتابُنا سائرَ الكتب قبله، نظْمُه العجيبُ ورصْفُه الغريب وتأليفُه البديع؛ الذي عجزتْ عن نظم مثْلِ أصغرِ سورة منه الخطباء، وكلَّت عن وَصْف شكل بعضه البلغاء، وتحيَّرت في تأليفه الشُّعراءُ، وتبلَّدت -قصورًا عن أن تأتيَ بمثله- لديه أفهامُ الفُهماء، فلم يجدوا له إلا التسليمَ والإقرار بأنه من عند الواحد القهار، مع ما يحوي، مَع ذلك، من المعاني التي هي ترغيب وترهيب، وأمرٌ وزجرٌ، وقَصَص وجَدَل ومَثَل، وما أشبهَ ذلك من المعاني التي لم تجتمع في كتاب أنزل إلى الأرض من السماء، فمهما يكن فيه من إطالة، على نحو مَا في أمِّ القرآن، فلِما وصفتُ قبلُ من أن الله جل ذكره أرادَ أن يجمعَ - برَصْفه العجيب ونظْمِه الغريب، المنعدِلِ عن أوزان الأشعار، وسجْع الكُهَّان وخطب الخطباء ورَسائل البلغاء، العاجز عن رَصْف مثله جميع الأنام، وعن نظم نظيره كل العباد - الدلالةَ على نبوة نبينا محمد ﷺ»(1).

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (1/ 198-197) المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري- المحقق: أحمد محمد شاكر- الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى، 1420 هـ- 2000م.

3 – **أبو الحسن علي بن عيسى الرمَّاني المعتزلي**(1) (ت:386هـ):

له رسالة اسمها «النكت في إعجاز القرآن» يتحدث فيها عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، ويتكلم عن جانبه البلاغي المعجز، ويجعل المدخل لذلك هو حديثه عن البلاغة عامة فيقول: «فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة.

فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون تلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس.

وليست البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلّمان أحدهما بليغ والآخر عييّ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غثٌّ مستكره ونافر متكلّف؛ وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ... فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم، فهذا معجز للمفحَم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة»(2).

ثم ينتقل إلى ذكر أقسام البلاغة مثل: «الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتضمين، والمبالغة، والبيان». ويتكلم على كل جزء منها ويشرحه

(1) يشترك المعتزلة مع أهل السنة في كثير من الأصول والتي منها إثبات إعجاز القرآن وحجيته؛ فلذلك نقل عنهم علماء أهل السنة كلامهم في ذلك الباب،وهو ملمح دقيق يبرز إنصاف أهل السنة والجماعة مع الفرق المخالفة،حيث يقبلون منهم ما وافق الحق من غير تعصب.

(2) انظر: النكت في إعجاز القرآن (ص75–76) (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) (ص26–28)– للرُّومَّاني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني– في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي– تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام– دار المعارف – مصر – الطبعة الثالثة.

ويبين ظهوره في القرآن الكريم في أعلى صورة ويستشهد على ذلك بشواهد من كتاب الله.

فيقول عن الإيجاز كوجه من وجوه البلاغة التي تظهر في القرآن الكريم: «وإذا عرفت الإيجاز ومراتبه، وتأمّلت ما جاء في القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام، وهو علوه على غيره من سائر الكلام، وعلوّه على غيره من أنواع البيان، والإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان، والإيجاز تصفية الألفاظ من الكدر، وتخليصها من الدرن، والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير»(1).

4 – الإمام حمد بن إبراهيم الخطابي البستي رحمه الله (ت: 388هـ):

يقرر الخطابي رحمه الله أن بلاغة القرآن الكريم قد أخذت من كل أنواع البلاغة أعظم نصيب، فيقول عن نظم القرآن ووجوه إعجازه في كتابه «بيان إعجاز القرآن»:

«إن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية: فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطَّلْقُ الرَّسْلُ(2)، وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة:

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في

(1) انظر: المصدر السابق (ص80).

(2) الرسل: المسترسل.

نظمه مع نبوٍّ[1] كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.

وإنما تعذر على البشر الإتيانُ بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية بألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها، وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلؤمًا وتشاكلًا من نظمه.

وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها، وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددا.

فتَفَهَّم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادات من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعًا كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعًا

(1) أي: ارتفاع.

أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات[1] الله بمن عصى وعاند منهم، منبئًا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم مما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه. ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله»[2].

5 - القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني رحمه الله (ت:403هـ):

وقد تكلم الإمام الباقلاني رحمه الله عن نظم القرآن وبلاغته، وبيان أن بلاغة القرآن الكريم هي معجزةٌ وتحدٍ وبرهانُ صدق للنبوة، ويبين أن بديع النظم القرآني ووجوه إعجازه ترجع إلى مخالفته لما عهدته العرب من أساليب السجع والشعر وسائر أنواع الكلام العربي، وكون بلاغته غير متفاوتة بل هي ثابتة مستمرة في جميع الآيات والسور.

فيقول رحمه الله عن القرآن الكريم: «أنه بديعُ النظم، عجيبُ التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه....فالذي يشتمل عليه بديع نظمه، المتضمن للإعجاز وجوه:

منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه - خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر، على

(1) أي: العقوبات.

(2) انظر: بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) (ص26-28)- للرُّومَّاني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني- في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي- تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام- دار المعارف - مصر- الطبعة الثالثة.

اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالًا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، ترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلًا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل فيه، ولا يتصنع له. وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق.

ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعى فيه شعرا كثيرا.والكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع.

فهذا إذا تأمله المتأمل تبين - بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم - أنه خارج عن العادة، وأنه معجز.وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه»(1).

ويقول رحمه الله عن مظاهر الوحدة البلاغية في كتاب الله واستمرارها مع كثرة الموضوعات التي يعالجها وتنوع الوجوه فيه:

«وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبًا في الفصاحة، على ما وصفه الله تعالى به، فقال عز من قائل: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:23]. وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82].فأخبر سبحانه أن كلام الآدمي إن امتد وقع فيه التفاوت، وبان عليه الاختلال....

وفي ذلك معنى ثالث: وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما

(1) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (ص35) المؤلف: أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب المحقق: السيد أحمد صقر– الناشر: دار المعارف – مصر – الطبعة: الخامسة، 1997م.

يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها: من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة.وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع - يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور.فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو.ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح.

ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل، أو سير الليل، أو وصف الحرب، أو وصف الروض، أو وصف الخمر، أو الغزل، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شعره، ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعة الشعر، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم.

فإذا كان الاختلال يتأتى في شعرهم، لاختلاف ما يتصرفون فيه، ستغنينا عن ذكر من هو دونهم.وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها. ثم نجد من الشعراء من يجود في الرجز، ولا يمكنه نظم القصيد أصلًا.ومنهم من ينظم القصيد، ولكن يقصر تقصيرا عجيبا، ويقع ذلك من رجزه موقعا بعيدا. ومنهم من يبلغ في القصيدة الرتبة العالية، ولا ينظم الرجز، أو يقصر فيه مهما تكلفه أو تعمله. ومن الناس من يجود في الكلام المرسل، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانا بينا. ومنهم من يوجد بضد ذلك.

وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها، على حد واحد، في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه، ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا. وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب، من

الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف. وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتا بينا، ويختلف اختلافا كبيرا.

ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة، فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب»(1).

6 - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني رحمه الله (ت:471):

تحدث الجرجاني رحمه الله عن بلاغة القرآن الكريم في كتابه دلائل الإعجاز، من خلال تعرضه لنظم القرآن الكريم والكشف عن وجوه الإحكام والإعجاز في ذلك، ببيان العلاقة بين النظم وعلم النحو وأهميته في صياغة النص ونظمه، وأثر ذلك في المعاني، وتطبيق ذلك على النص القرآني عن طريق إيضاح أهمية اختيار اللفظ المناسب للمعنى المراد، ومكانه في الجملة الواحدة، فَبَيَّنَ رحمه الله تحقق ذلك في أعلى صوره في النص القرآني، حيث أعجز أفصح الناس عن معارضته بوجه من الوجوه. فيتحدث الجرجاني عن سر ذلك ومظاهر القوة البلاغية لهذا النص الإلهي فيقول:

«فقيلَ لنا: قد سَمِعْنا ما قلْتُم، فخَبِّرونا عنهم، عما ذا عجزوا؟ أعن معان من دِقَّةِ مَعانيه وحُسْنِها وصِحَّتها في العقول؟ أمْ عن ألفاظٍ مِثْلِ ألفاظه؟ فإنْ قلْتُم: عنِ الألفاظ، فماذا أَعْجَزَهم منَ اللفظ، أمْ ما بهرهم منه؟

فقلنا: أعجزتهم مزايا ظهرتْ لهم في نظمِهِ، وخصائصُ صادفوها في سِياق لفظه، وبدائعُ راعَتْهم من مبادئ آيِهِ ومقاطِعها، ومجاري ألفاظِها ومواقعها، وفي مضربِ كلِّ مثلٍ، ومساقِ كلِّ خبرٍ، وصورةِ كلِّ عِظَةٍ وتنبيهٍ، وإعلامٍ وتَذكيرٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ، ومع كلِّ حُجةٍ وبُرهانٍ، وصفةٍ وتبيان وبَهرهُم أنَّهم تأمَّلوه سُورةً سورةً، وعَشْرًا عَشْرًا، وآية آية، فلم يجدوا

(1) المصدر السابق: (ص37-38).

في الجميع كلمة يَنْبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكرُ شأنُها، أو يُرى أنَّ غيرَها أصلحُ هناك أو أشْبَه، أو أحرى وأخْلَق، بل وجدُوا اتِّساقاً بَهرَ العُقولَ، وأعجزَ الجمهورَ، ونظامًا والتئامًا، وإتقانًا وإحكامًا، لم يَدعْ في نفسِ بليغٍ منهم، ولو حكَّ بيافوخِه[1] السَّماء، موضعَ طمعٍ، حتى خرسَتِ الألسنُ عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم[2] فلم تملك أن تصول»[3].

ويقول رحمه الله عن نظم القرآن الكريم وصياغة آياته:

«ولم أزلْ منذُ خدمتُ العِلْمَ أنظرُ فيما قاله العلماءُ في معنى الفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ والبَراعةِ، وفي بيانِ المَغْزى من هذه العباراتِ وتفسيرِ المُرادِ بها، فأجدُ بعضَ ذلك كالرَّمز والإيماء والإشارةِ في خَفَاء. وبعضَه كالتنَّبيه على مكانِ الخبيء ليُطلبَ، ومَوضعِ الدَّفينِ لُيبحثَ عنه فُيخرجُ. وكما يُفتحُ لكَ الطَّريقُ إلى المطلوبِ لتسلكَه وتوضَعُ لك القاعدةُ لتبنيَ عليها. وجدتَ المُعَوَّلَ على أنَّ ها هنا نَظمًا وترتيبًا، وتأليفًا وتركيبًا، وصياغةً وتصويرًا، ونَسْجًا وتحبيرًا. وأنَّ سبيلَ هذه المعاني في الكلام الذي هيَ مجازٌ فيه سبيلُها في الأَشياءِ التي هي حقيقةٌ فيها. وأنه كما يفضلُ هناك النظمُ النظْمَ، والتأليفُ التأليفَ، والنَّسخُ النسجَ، والصيّاغةُ الصيّاغةَ. ثم يعظُمُ الفضْلُ وتكثُر المزيَّةُ حتى يفوقَ الشّيءُ نظيرَه والمُجانسُ له درجاتٍ كثيرة. وحتى تتفاوتَ القِيَمُ التّفاوتَ الشّديدَ. كذلك يفضلُ بعضُ الكلام بعضًا، ويتقدَّم منه الشيءُ الشيءَ، ثم يزدادُ فضلُه ذلك ويترقّى منزلةً فوقَ منزلةٍ، ويعلو مَرْقبًا بعدَ مَرقبٍ. وتُسْتَأنفُ له غايَةٌ بعدَ غايةٍ، حتى ينتهيَ إلى حيثُ تنقطعُ الأَطماعُ وتُحْسَرُ الظنونُ وتَسقطُ القُوى وتَستوي

(1) أي: رأسه

(2) فحول الإبل، جمع قرم.

(3) دلائل الإعجاز في علم المعاني (1/ 39) – المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني – المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر – الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة – الطبعة: الثالثة 1413هـ – 1992م.

الأقدامُ في العَجز»[1].

ويقول رحمه الله: «وهل تشكُّ إذا فكَّرْت في قولهِ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]، فتَجلَّى لك منها الإعجازُ، وبَهَركَ الذي تَرى وتَسْمَعُ أَنك[2]لم تجد ما وَجَدْتَ منَ المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يَرجعُ إلى ارتباطِ هذه الكَلِم بعضِها ببعضٍ، وأن لم يَعرِضْ لها الحُسْنُ والشرفُ إلاَّ مِنْ حيثُ لاقَتْ الأُولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقرِيَها إلى آخِرها وأنَّ الفضلَ تَناتَجَ ما بينها، وحصَل من مجموعها؟

- إن شككْتَ، فتأملْ: هل ترى لفظة منها بحيثُ لو أُخِذَتْ من بين أَخواتها وأُفردتْ، لأَدَّت منَ الفصاحة ما تُؤدِّيه وهي في مكانها منَ الآية؟ قُل: «ابلَعي»، واعتبرْها وحْدَها من غيرِ أن تَنْظُرَ إلى ما قَبْلَها وما بعدَها، وكذلك فاعتبرْ سائرَ ما يليها.

وكيفَ بالشكِّ في ذلك، ومعلومٌ أنَّ مبْدَأَ العظمةِ في أن نُوديت الأرضُ، ثم أُمِرَتْ، ثم في أن كان النداء «بيا» دُوْنَ «أيّ»، نحوُ «يا أيتها الأرضُ»، ثم إضافةِ «الماءِ» إلى «الكافِ»، دونَ أن يقالَ: ﴿ابلعي ماءك﴾، ثم أنْ أُتبعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمرَها كذلك، بما يَخصُّها، ثم أنْ قيل: و﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾، فجاء الفعلُ على صيغة «فُعِل» الدالَّةِ على أنَّه لم يَغِضْ إلاَّ بأَمر آمرٍ وقُدرةِ قادرٍ، ثم تأكيدُ ذلك وتقريرُه بقولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، ثم ذكرُ ما هو فائدةُ هذه الأمور، وهو: ﴿اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، ثم إضمارُ «السفينةِ» قَبْل الذكْر، كما هو شرطُ الفخامةِ والدلالةِ على عِظَم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة «بقيل» في الفاتحة؟

أَفَتَرى لِشيءٍ من هذه الخصائصِ التي تملؤك بالإعجازِ روعةً، وتحضُرُكَ عندَ تصورِها هيبةٌ

(1) انظر المصدر السابق(1/ 47-46).

(2) أنك: مفعول «تشك» الواردة في أول العبارة.

تُحيطُ بالنفس من أقطارِها تعلُّقاً باللفظ من حيثُ هو صوتٌ مسموعٌ وحروفٌ تَتوالى في النُّطق؟ أم كلُّ ذلك لما بينَ معاني الألفاظِ مِنَ الاتِّساقِ العجيب؟ فقد اتَّضحَ إذن اتِّضاحًا لا يَدَعُ لِلشكِ مجالًا، أنَّ الألفاظَ لا تتفاضَلُ من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدة، ولا من حيثُ هي كلمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبهَ ذلك، مما لا تَعلُّقَ له بصريحِ اللفظ، وممَّا يشهدُ لذلك أنك تَرى الكلمةَ تروقُك وتُؤنسك في موضعٍ ثم تَراها بعينِها تثقلُ عليكَ وتُوحشكَ في موضعٍ آخرَ»[1].

ويشير إلى دور علم النحو في بيان إعجاز النظم القرآني: «فإذا ثبتَ الآن أنْ لا شَكَّ ولا مِرْيَةَ في أنْ ليس «النظمُ» شيئًا غيرَ توخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبتَ من ذلك أنَّ طالبَ دليلِ الإعجازِ مِنْ نَظْمِ القرآنِ إذا هو لم يطلبه في معاني النحوِ وأحكامِه ووجوهِه وفروقِه، ولم يَعْلَمْ أنها معدِنُه ومَعَانُه[2] وموضعه ومكانُه، وأنه لا مُستنبَط له سِواها وأنْ لا وجهَ لطلبهِ فيما عداها، غارٌّ نفسَه بالكاذب من الطَمَع، ومُسْلمٌ لها إلى الخُدَع، وأنهُ إنْ أبى أن يكونَ فيها، كان قد أبى أنْ يكون القرآنُ معجزاً بنظمه، ولَزِمَه أن يُثبتَ شيئاً آخرَ يكونُ مُعجزاً به، وأنْ يلحقَ بأصحابِ «الصَّرفة[3]» فيدفعَ الإعجازَ من أصلِه»[4].

7 - أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري رحمه الله (ت:538هـ):

تكلم الزمخشري رحمه الله في تفسيره المعروف بـ«الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

---

(1) انظر: المصدر السابق(1/ 54-53).

(2) المباءة والمنزل، ويعد بعضهم ميمه أصلية، وبعضهم أنه على وزن «مَفْعَل».

(3) المراد بالصرفة: القول بأن القرآن كان في قدرة العرب الفصحاء الإتيان بمثله غير أن قدرة الله منعتهم من ذلك، فالإعجاز ليس ذاتيا ولكنه من قدرة القدير ؛ وهذا الرأي خلاف المعتمد عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم القائلين بأن القرآن معجز في نفسه لأنه كلام الله المعجز في ذاته: تفسير الرازي (21 / 406)

(4) انظر: المصدر السابق: (1/ 283-282).

وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» عن عظمة النظم القرآني وبيان وجوه الإعجاز في ذلك، وفصل في ذلك تفصيلًا بحيث تكلم عن: وجوه التقديم والتأخير والفصل والوصل والحذف والذكر والقصر، وتكلم عن وجوه البلاغة في ختم الآيات، وذلك فيما يتعلق بالجملة القرآنية، وأورد دلالة استعمال الماضي بدل المضارع، واستعمال اسم الفاعل بدلا من فعله، والإفراد بدل التثنية، والمثنى بدل المفرد، واستعمال حرف بدلًا من حرف، وأداة بدلًا من أداة فيما يتعلق بالمفردات. وبيان وجوه البلاغة في ذلك، وتميز القرآن الكريم في ذلك عن كل كلام.فهو يطبق نظرية النظم على آيات القرآن الكريم من أوله إلى آخره، موضحًا أسرار هذا النظم ومدى بلاغته.

فعن معاني صدر سورة البقرة ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:1-2]. ودقة النظم القرآني ومدى بلاغته يقول رحمه الله: «(الم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها.و(ذلك الكتاب) جملة ثانية. و(لا ريب فيه) ثالثة. و(هدى للمتقين) رابعة.

وقد أُصيب بترتيبها مفصلُ البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حروف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذًا بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة.

بيان ذلك: أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال.فكان تقريرًا لجهة التحدي وشدًا من أعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادةً وتسجيلا بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة...

ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب

الأنيق، ونظمت هذا النظم السَّرِيّ[1] من نكتة ذات جزالة.

ففي الأولى: الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفي الثانية: ما في التعريف من الفخامة.وفي الثالثة: ما في تقديم الريب على الظرف. وفي الرابعة: الحذف. ووضع المصدر الذي هو (هُدًى) موضع الوصف الذي هو (هاد) وإيراده مُنكرًا. والإيجاز في ذكر (المتقين).زادنا الله إطلاعا على أسرار كلامه، وتبيينا لنكت تنزيله وتوفيقا للعمل بما فيه»[2].

وقال رحمه الله عند تفسير صدر سورة هود: «﴿الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1]. أُحْكِمَتْ آياتُهُ نظمت نظما رصينا محكما لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف»[3].

8 – القاضي عياض بن موسى اليحصبي رحمه الله (ت:544هـ):

قال رحمه الله عن بلاغة آيات القرآن الكريم: «إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة،وفصولا جمة، وعلوما زواخر. ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.. ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده، وتناصف وجوهه؛ كقصة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها.. حتى تكاد كل واحدة تنسي في البيان صاحبتها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها.. ولا نفور للنفوس من ترديدها ولا معاداة لمعادها.

---

(1) أي: العذب السهل

(2) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (1/ 78) المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ) – تحقيق: عبد الرزاق المهدي – دار النشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(3) انظر: المصدر السابق(2/ 358).

الوجه الثاني من إعجازه.. صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه.. ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له.. ولا استطاع أحد مماثلة شيء فيه منه بل حارت فيه عقولهم.. وتدلهت[1] دونه أحلامهم..

ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم.. من نثر، أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعر."[2].

9 – **أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي رحمه الله (ت:794):**

قال رحمه الله عن صور ومظاهر الإعجاز البلاغي المتنوع في كتاب الله:

«السادس: وصححه ابن عطية، وقال: إنه الذي عليه الجمهور والحُذاق، وهو الصحيح في نفسه وأن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله أحاط بكل شيء علما وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك، وبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النطق يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله، فلما جاءهم النبي ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه[3].

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين؛ ولهذا ترى البليغ

(1) تدلهت: اندهشت بفتح الدال المهملة واللام المشددة أي اندهشت

(2) انظر:الشفا بتعريف حقوق المصطفى (1/ 264) – مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء –المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي – الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى (المتوفى: 873هـ) –الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع – عام النشر: 1409 هـ – 1988 م.

(3) يريدون القائلين بالصرفة، كما تقدمت الإشارة لهذا القول الباطل قريبا.

ينقح الخطبة أو القصيدة حولًا، ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا، وكتاب الله سبحانه لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد، ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفي وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام، وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي موسى بالسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما تكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره؛ فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذا الطب في زمان عيسى والفصاحة في مدة محمد ﷺ.

السابع: أن وجه الإعجاز الفصاحة، وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب، وغير ذلك مقترنا بالتحدي، واختاره الإمام فخر الدين؛ وهو قريب مما سبق، وقد قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء:88] والمراد: بمثل نظمه؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقول من قال: إن الضمير في ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ عائد على الله ضعيف، بقوله: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ والسياق واحد.

الثامن: ما فيه من النظم والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومباين لأساليب خطاباتهم، واختاره القاضي أبو بكر. قال: ولهذا لم يمكنهم معارضته. قال: ولا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التي ادعوها في الشعر؛ لأنه ليس مما يخرق العادة، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدريب والتصنع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق يسلك... فأما شأوُ نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا...

قال: ونحن نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعض أدق وأغمض. ثم قال القاضي: فإن قيل ما الذي وقع التحدي به؟ أهو الحروف المنظومة؟ أو الكلام القائم بالذات؟ أو غيره؟ قلنا: الذي تحداهم به أن يأتوا على الحروف التي هي نظم القرآن منظومة

حِكَمها، متتابعها كتتابعها، مطردة كاطرادها، ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بالكلام القديم الذي لا مثل له.

وقال بعض الأئمة: ليس الإعجاز المتحدى به إلا في النظم، لا في المفهوم؛ لأن المفهوم لم يمكن الإحاطة به، ولا الوقوف على حقيقة المراد منه، فكيف يتصور أن يتحدى بما لا يمكن الوقوف عليه، إذ هو يسع كل شيء فأي شيء قوبل به ادعى أنه غير المراد»[1].

نماذج من الصور البلاغية في القرآن الكريم:

الحديث عن وجوه البلاغة والجمال في كتاب الله عز وجل لا يحيط به إنسان؛ وإنما ما يذكر من ذلك هو مجرد رشفة من بحر البلاغة القرآنية، نتذوق بها جمال الكلام الإلهي، ونتعرف على دقة التعبير، وبلاغة التركيب، وبراعة النظم، وعظمة اختيار الألفاظ والمفردات. وقديمًا قالت العرب لكل مقام مقال، والقرآن أعلى درجات اللسان العربي بلاغة، فهو يراعي المقام فيأتي له بأبلغ مقال، فمقام التنكير له مقال يغاير مقال مقام التعريف، ومقال مقام التقديم يباين مقال مقام التأخير، واختيار الكلمات ذاتها له مقامات وأحوال وقد راعى القرآن الكريم ذلك كله، فأعجزت العالمين بلاغتُه، وقد ذكر أهل العلم وجوهًا وصورًا من جمال القرآن وبلاغة آياته فمن ذلك:

1- تعدد وجوه البلاغة في الآية الواحدة:

فعلى سبيل المثال هذه الآية الكريمة﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:44] والتي تلخص أمر الطوفان؛ يقول ابن أبي الأصبع (ت:654هـ): «وما في مجموع الآية من الإبداع، وهو

(1) البرهان في علوم القرآن (2/ 99-97) المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم -الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م - الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

الذي سمى به هذا الباب من أن كل لفظة لا تخلو عن أن يستخرج منها ضرب أو ضربان من البديع، فهذه آية عدة ألفاظها سبع عشرة لفظة، تتضمن إحدى وعشرين ضربًا من البديع غير ما يتعدد من ضروبها، فإن الاستعارة وقعت منها في موضعين: وهما استعارة الابتلاع للأرض، والإقلاع للسماء. والمجاز في مكانين، في قوله سبحانه ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾. وفي الإشارة والتمثيل والإرداف لأن المجاز مجازان: مجاز بالحذف، ومجاز بالتغيير، وقد وقعا معًا. فانظر رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام، لتعلم ما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه»(1).

- وقد أشبع كذلك العلامة السكاكي الكلام عن هذه الآية الكريمة في كتابه «مفتاح العلوم» من أربع جهات: من جهة علم البيان، وجهة علم المعاني، وجهة الفصاحة المعنوية، وجهة الفصاحة اللفظية(2).فقد وقع في هذه الآية الكريمة من صور البديع فمن ذلك: «المناسبة التامة، والمطابقة اللفظية، والاستعارة، والمجاز، والإرداف، والتعليل، وصحة التقسيم، والاحتراس، وحسن النسق....» فلو تصور أبلغ البلغاء كيف يقص الأمر بكامله غير منقوص مستوعبًا لجميع أحداثه بأوجز العبارات وأوضح الكلمات لا يستطيع أن يتوهم بلاغة فوق البيان القرآني.

2- مناسبة المقال للمقام:

مناسبة المقال للمقام من أعلى درجات البلاغة، فلو نظرنا في الآية الكريمة ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ

(1) انظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن (1/ 614) -المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري -تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف - الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

(2) انظر: مفتاح العلوم (420-417) المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ) - ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987 م.

إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه:60]. وهي مقام خوف واضطراب حصل لموسى عليه السلام، فيأتي التأكيد الإلهي له بالغلبة عن طريق تأكيد الكلام «بإن» والضمير «أنت»، تأكيدًا يبعث الثقة بالمعية الإلهية وتحقيق النصر له. ولو تصورنا في غير القرآن خلو الجملة من إن أو الضمير لذهبت بلاغتها؛ فلو قلنا (إنك الأعلى) أو (أنت الأعلى) لوجدنا التأكيد قد نزلت درجته نزولًا كبيرًا، فهنا كلمات لها مكان مخصوص في العبارة هي سر البلاغة والجمال تناسب المقال.

وفي سورة «يس» في قصة أصحاب القرية لما قال الكافرون: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:15]. وكذبوا المرسلين، كان خطاب المرسلين لهم وردهم عليهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس:16]. فكان فيه التأكيد بإن واللام وإسمية الجملة، فكثرت التأكيدات في مواجهة المبالغة في الإنكار من الكافرين. ويقول ابن جني: كل حرف زيد في كلام العرب فهو قائم مقام إعادة الجملة مرة أخرى(1)، فهذه المؤكدات يتطلبها المقام ويتسع بها المعنى ويترابط الكلام ولو أسقط أحدها لحدث خلل في المعنى.

ولو نظرنا إلى أسلوب التقديم والتأخير في كتاب الله عز وجل، لوجدنا وجوهًا كثيرة من وجوه الإعجاز البلاغي، وعن ذلك يقول الجرجاني رحمه الله: «هو بابٌ كثيرُ الفوائد جَمُّ المحاسن واسعُ التصرُّف بعيدُ الغاية، لا يزالُ يفتَرّ(2) لك عن بديعةٍ ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ. ولاتزالُ ترى شِعرًا يروقُك مسمَعُه ويَلْطُف لديك موقعُه، ثم تنظرُ فتجدُ سببَ أنْ راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحُوِّل اللفظُ عن مكانٍ إلى مكان»(3).

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن (3/ 220) المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة: 1394هـ/ 1974 م.

(2) المراد: يكشف

(3) انظر: دلائل الإعجاز (1/ 106).

ومن أمثلة ذلك أن الناظر في معظم آيات القرآن الكريم الوارد فيها اسمه تعالى «العزيز». يجد أنه متقدم على باقي الأسماء والصفات، لما يحتويه سياق هذه الآيات من الحديث عن قدرة الله سبحانه، ووحدانيته وتفرده بالأمر وهيمنته على مقاليد السموات والأرض.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6]. وقوله تعالى﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18]. وقوله تعالى:﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: 37].

وفي الآية الكريمة:﴿سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر:1]. ففي هذه الآية الكريمة قدم سبحانه ذكر العزيز على الحكيم لبيان عزة الله واستغنائه بذاته سبحانه، وعدم حاجته إلى من يسبحه أو ينزهه جل شأنه.

ولم يتخلف هذا النظام إلا في ثلاثة مواطن فقط في القرآن الكريم، تقدمت عليه أسماء أخرى لطبيعة المعنى الخاص بهذه الآيات:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود:66].
- ﴿الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى:19].
- ﴿يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة:1].

3 – دقة دلالة الألفاظ على المعاني واتساقها:

ومن وجوه الإعجاز البلاغي كذلك أننا عند التمعن في القرآن الكريم، نجد نظامًا عجيبًا في استخدام المفردات، وتحديدًا دقيقا لمكانها وموضعها من الآية؛ فالكلمة هي مدار المعنى وقالبه، وحسن اختيارها أولًا، ثم اختيار موضعها بعد ذلك من الجملة، هو السبيل لإصابة المعنى. والقارئ لكلام الله يشعر أن كل كلمة فيه بها روح وحياة، ومهما أجال النظر وأعمل الفكر في أن يستبدل كلمة بأخرى، فلن يجد أبلغ من الكلمة التي استعملها القرآن تعبر عن

المعنى ومتعلقاته.

فالقرآن الكريم سخرت له الألفاظ تسخيرًا فهو يختار من الكلمات أنسبها وأفضلها للمقام، والعالم باللغة يعرف أن هناك تفاوتًا في معاني المفرادت التي يظن أنها مترادفة وأنها بمعنى واحد. فبعضها يقصر عن بعض في أداء المعاني حق الأداء، ومن ذلك:

1 - المطر والغيث في القرآن الكريم:

لو نظرنا إلى حديث القرآن الكريم عن المطر والغيث، لوجدنا استعمالًا عجيبا فالقرآن الكريم يفرق بين لفظ «الغيث» ولفظ «المطر»؛ فتذكر لفظة الغيث في القرآن الكريم في مواطن الرحمة، ويأتي مصحوبًا بالخير والرزق. يقول الله عز وجل:﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى:28]. ويقول سبحانه:﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:49].

وأما لفظ «المطر» ومشتقاته في كتاب الله يأتي في سياق ذكر العقاب والعذاب؛ يقول الله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الأعراف:84].

ويقول سبحانه:﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء:173].

ويقول جل ثناؤه:﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود:82].

2- الخوف والخشية في القرآن الكريم:

ولو نظرنا إلى مفردات مثل الخوف والخشية واستخدامهما في كتاب الله، ومواطن ورودهما في الآيات، فلن يستقيم في الفهم أن تستبدل واحدة منهما بالأخرى:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:21]. فلو تصورنا-في غير القرآن- كلمة خوف مكان كلمة خشية فلن تظهر بلاغة التعبير؛ وذلك لما بينهما من فروق دقيقة في الدلالة، فالخشية أعلى مرتبة من الخوف، ويصحبها التعظيم، ولذلك

فاقترانها مع الجبل يوصل معنى بليغًا جدًا عن عظمة شأن هذا القرآن، حيث إن الجبل وهو مضرب الأمثال في الشدة والصلابة، أصابته الهيبة وخضع لكلام الله عز وجل وتصدع من خشية الله تعالى.

وعلى الإجمال فبلاغة القرآن الكريم يتسابق فيها اللفظ والمعنى، فلا يعرف المرء أيهما أسبق إلى قلبه وأيهما أشد تأثيرًا من الآخر، وهذا لا يكون في كلام إلا كلام الله سبحانه جل شأنه.

أثر البلاغة القرآنية فيما يتعلق بفهم النص وتفسيره:

ما تكلمنا عنه في الصفحات السابقة كان مظهرًا من مظاهر الحديث عن بلاغة النص القرآني، واستمرار هذه الوحدة البلاغية في القرآن الكريم من أوله إلى أخره. وهذا الحديث يقودنا إلى محاولة فهم وإدراك الأثر التفسيري للبلاغة القرآنية، ووجوب الإحاطة بعلوم البلاغة، كأداة من أدوات الفهم وإدراك المعنى القرآني.

فعلوم البلاغة وما يتفرع عنها لابد منها للمفسر، فالبلاغة قاعدة التفسير والإعجاز، ولذلك نلحظ أن جمهور البلاغيين هم من يتعاطون علم التفسير، فتاريخ البلاغة وتاريخ التفسير يرتبطان أشد الارتباط،ولما كان القرآن الكريم قد أنزله الله سبحانه وتعالى بلسان عربي مبين، وكانت اللغة العربية من أكثر لغات الأرض احتواء على الصور البلاغية المختلفة، فقد ظهر أهمية هذه البلاغة وصورها في فهم النص القرآني، فكانت مدخلًا من مداخل إدراك معاني القرآن الكريم، وإدراك الدلالة القرآنية، ومع التسليم بكون النص القرآني في أعلى درجات بلاغة اللسان العربي، فإن ذلك يفتح الأبواب بلا شك لاتساع المعاني وعدم انحصارها، وذلك تبعًا لكثرة الصور البلاغية في النص القرآني، وإنزال هذه المعاني على أرض الواقع وتكوينها للعقل المسلم، وأثرها في استنباط العقائد والأحكام، فمعرفة أسرار أساليب التعبير القرآني من الحذف والذكر، والإيجاز والإطناب، وجمال التصوير، وحسن التشبيه، وأنواع الكنايات والاستعارات تفتح الأبواب أمام إثراء المعاني، بل ويضفي على الكلمات روحًا حية، تجعل النص القرآني في حالة مستمرة من التفاعل مع العقول والقلوب والمعارف.

فصور البلاغة ومعرفتها هي أحد المداخل المهمة لإدراك المعاني، وهي أحد الأدوات الحاكمة لعلاقة العقل البشري بكتاب الله؛ فمن خلال الإحاطة ببلاغة العرب يعرف ما هو المقبول من المعاني وما هو مستبعد منها فيما يخص النص القرآني، فيغلق الباب أمام أي فكر منحرف يريد إلصاق معاني باطلة بكتاب الله.

ومن أمثلة دور الصور البلاغية وأثرها في إدراك المعنى، ما أورده ياقوت الحموي رحمه الله (ت:626 هـ) في كتابه معجم الأدباء حيث قال:

«قال أبو عبيدة: أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسي، وهو جالس عليها، فسلمت عليه بالوزارة فردّ وضحك إليّ، واستدناني حتى جلست إليه على فرشه، ثم سألني وألطفني وباسطني وقال: أنشدني فأنشدته، فطرب وضحك وزاد نشاطه، ثم دخل رجل في زي الكتّاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا، قال: هذا أبو عبيدة علّامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا. وقال لي: إني كنت إليه مشتاقا، وقد سُألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرّفك إياها؟ فقلت: هات، قال قال الله عز وجل: ﴿طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ﴾ [الصافات:65]. وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقلت: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس:

أَيَقْتُلَنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيابِ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته

«المجاز»(1).

فأبو عبيدة استفاد من استقراء صنيع العرب في وجوه البلاغة ودفع الشبهة الواردةعلى الآية الكريمة؛ من استشكال التشبيه بما لا يعرف؛ فلاشك إذن من أهمية استقراء كلام العرب ووجوه ابلاغة لديهم لفهم دلالات الآيات وفهم وجه إعجازها.

فالمقياس البلاغي وصوره أحد الطرق للإحاطة بالمعنى القرآني، وطريق لذوق جمالياته، وعدم الانحراف إلى معاني باطلة غير مرادة، ولا يتم هذا إلا من خلال الإحاطة بأساليبه، فمهما بلغ العالم من التبحر في العلوم وهو فقير في جانب البلاغة، فلا ينبغي له أبدًا أن يُقدم على تفسير كلام الله، بل إنه لن يستطيع أن يحيط نوع إحاطة بمعاني القرآن الكريم، وكيف يمكنه ذلك وقد جهل أهم أوجه الإعجاز القرآني.

البلاغة القرآنية وأثرها في استنباط الأحكام الفقهية:

ومن أهم المظاهر التي توضح ما لبلاغة القرآن الكريم وصورها من أثر في إدراك المعاني القرآنية، ما نلحظه من عملها فيما يتعلق بالأحكام الفقهية ومجال الاجتهاد واستنباط الأحكام وإدراك المعاني وتنوعها، ومدي القبول الشرعي والعقلي لذلك وخلو ذلك كله من المعارضات.

فدلالات البلاغة القرآنية على تنوع علومها ومظاهر وجودها في كتاب الله الكريم، يظهر أثرها في الحكم الفقهي المستنبط وهيئته، وذلك بقدر اتساع مجال الاجتهاد الذي تسمح به ظنية الدليل، والصورة البلاغية التي ورد فيها واتساع اللغة لها، ورؤية الفقيه وحسه اللغوي.

فعندما يقرأ العالم المجتهد كتاب الله، ويتعرض لآيات الأحكام بغرض استنباط الحكم الشرعي منها، فإن إدراك الوجه البلاغي في هذه الآيات والإحاطة به يجب أن يكون ضمن

(1) انظر: معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (6/ 2706) المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي -المحقق: إحسان عباس- الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت - الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1993 م.

منهج وطريقة قراءة القرآن الكريم؛ فهذا النص الإلهي نزل بلسان عربي تظهر فيه البلاغة العربية في كل حرف فيه، فإذا تعامل العالم المجتهد مع الآية القرآنية ومفرداتها بالضوابط البلاغية ومراعاة مواطن ظهورها في الآية الكريمة، فلا شك أن ذلك له أكبر الأثر فيما يتوصل إليه من الحكم التشريعي خاصة فيما يتعلق بتنوع هيئته وصورته.

فبلاغة القرآن الكريم واتساع صورها توسع كذلك دلالات المعاني فيما يتعلق بصور الحكم الفقهي المستنبط وصور تنفيذه.

فمن ذلك: التفرقة بين الحقيقة والمجاز عند النظر لمفردات القرآن الكريم هل هي من باب الحقيقة أم من باب المجاز.

- ومثاله ما استنبطه أهل العلم والفقه من قوله تعالى: ﴿لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [المائدة:6].

فمن أهل العلم من نظر لمعنى الملامسة هنا في الآية الكريمة على أنه المعنى الحقيقي للملامسة وهو مس البشرة للبشرة. فقالوا: إن من نواقض الوضوء مس المرأة على تفصيل عند من فرق بالمس المصحوب بالشهوة أو غير المصحوب[1].

ومنهم من نظر إلى أن الملامسة هنا هي مجاز يراد بها الجماع وليس مجرد مس البشرة فقط وعليه فقد استنبطوا من هذه الرؤية أن المس ليس من نواقض الوضوء[2].

***

(1) وهو مذهب السادة المالكية انظر التاج والإكليل شرح مختصر خليل 1/ 434

(2) وهو مذهب السادة الأحناف انظر:بدائع الصنائع 1/ 45

المطلب الثاني
القرآن الكريم كالجملة الواحدة
من حيث الأهداف والمقاصد والموضوع والمعاني

تمهيد:

من وجوه إعجاز القرآن الكريم وحدته البنائية الكلية، بمعنى أنه كالجملة الواحدة المتحدة ذات الموضوع الواحد المتكامل، فهذا الكتاب الإلهي يكمل بعضه بعضًا ويفسر بعضه بعضًا، ويحمل بعضه على بعض، وترسم سوره وآياته وكلماته وحروفه رؤية كلية جامعة، متصلة غير منفصلة، متآلفة غير متنافرة عن قضايا الألوهية والوجود والحياة وأمر المعَادِ.

وملاحظة هذه الوحدة البنائية المتصلة المتشابكة المكونة للجملة الواحدة، هي أحد المداخل المهمة لقراءة كتاب الله عز وجل، والخروج بصورة صحيحة عن المراد الإلهي من الخلق الذي يحمله لنا هذا الكتاب بين سوره وآياته وكلماته، والإحاطة بأركان هذه الوحدة هي أحد أدوات الفهم الهامة جدًا للقرآن الكريم، فهي مبحث مهم من مباحث الدراسات القرآنية المعاصرة، وهي طريق لقراءة كلية جامعة لكتاب الله الكريم، فمعرفتها والعلم بها خطوة من خطوات إعادة صياغة العلاقة بين المسلم وبين كتاب الله عز وجل، ومنهج للقراءة الصحيحة، ووسيلة لصحة النتائج المستخلصة من كتاب الله.

فكما أشرنا سابقًا أن القرآن الكريم يتطلب منا عند التفتيش عن أسراره وأحكامه وأوامره وأنوار هدايته نوعًا مخصوصًا من القراءة، هذه القراءة هي: أن نقرأ القرآن الكريم قراءتنا للجملة الواحدة، وقد ورد في كتاب الله الإشارة إلى هذه القراءة، فقال عز وجل:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:121]. وقال سبحانه:﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:4].

فتلاوة القرآن الكريم حق التلاوة، وترتيله أجود الترتيل، وقراءته تمام القراءة، هي أمر إلهي يعصم الأمة المسلمة من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من تحريف الكتب وتبديل

الشريعة، ويؤدي بنا إلى استقامة الفهم وصحة النتائج، فنصل إلى فهم دلالة ومعاني قوله تعالى:﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1].فعندما نقرأ القرآن الكريم قراءة الجملة الواحدة ينتج لنا من ذلك أمرين:

الأمر الأول: اكتشاف وجود أهداف عليا ومقاصد كلية جامعة تظهر في هذا الكتاب الكريم.

الأمر الثاني: ظهور التكامل والتوافق وعدم التعارض بين معاني الآيات التي تعالج موضوع واحد.

أولًا: اكتشاف وجود أهداف عليا ومقاصد كلية جامعة تظهر في هذا الكتاب الكريم:

ما نتناوله في السطور القادمة هو محاولة بيان كيف أن القرآن الكريم كالجملة الواحدة مع كثرة كلماته وآياته وسوره، فهو «رسالة إلهية موجهة إلى العالمين». تحتوى هذه الرسالة على مقاصد كلية جامعة يتفرع عنها الكثير من العلوم والمعلومات والأوامر والإرشادات، لا يخرج عنها أي مقصد فرعي لهذه الرسالة، وهذا قمة الإعجاز أن تحتوي رسالة واحدة على كل المعاني المهيمنة على كل العوالم المادية والمعنوية السابقة والحالية واللاحقة، ثم يزداد الإعجاز في أن ييسر الله هذا الخطاب القرآني الإلهي المعجز للبشر من حيث التعامل معه، فلو لم ييسره الله للذكر لما استطعنا أن نتعامل معه، وإلا كيف يتعامل الإنسان بنسبيته المطلقة ومحدوديته مع كلام الله عز وجل بإطلاقيته اللامتناهية؟!! فكان من معجزات هذا الكتاب الكريم جمعه بين الإعجاز ويسر التعاطي معه قراءة وفهمًا وتطبيقًا[1].

(1) يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله مبينا مدى عظمة القرآن في جمعه بين الإعجاز من جهة وسهولة الفهم: «فهم عظمة الكلام وعلوّه وفضل الله- سبحانه وتعالى- ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه، فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه؟!! وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز
=

ونستطيع أن نجمل هذه المقاصد القرآنية التي احتوت عليها الرسالة الإلهية للعالمين في أربعة مقاصد:

المقصد الأول: معرفة الله عز وجل، وتحقيق توحيده وعبادته، وجميع ما يتعلق بالوجود الإلهي.

المقصد الثاني: تحقيق التكريم الإلهي لبنى آدم؛ عن طريق تزكية النفس، وتأصيل الجانب القيمي والخلقي.

المقصد الثالث: تحقيق عمارة الأرض والوجود من حولنا، والعمل على الإصلاح وتجنب الإفساد.

المقصد الرابع: بيان مآل الإنسان ومصير الخلق؛ بالاهتمام بتأكيد اليوم الآخر، والجزاءات العادلة.

فهذه المقاصد الأربع ظهرت لنا من القراءة الكلية لكتاب الله عز وجل وملاحظة أنه جملة واحدة متكاملة، فلو تفكر الإنسان في أي معنى فرعي علمي أو عملي حسي أو مادي خاص أو عام كلي أو جزئي، فلن يجد أنه يخرج عن هذه المقاصد، وسوف يجده مندرجًا تحت مقصد منها بصورة أو بأخرى يرتبط به ويدور في فلكه. والقراءة الكلية لكتاب الله ينتج عنها رؤية كلية شاملة معصومة للوجود والإنسان والحياة، بعكس القراءات المجتزئة لكتاب الله والتي تؤدي إلى الخطأ في الفهم والتطبيق في العاجل أو الآجل.

=

البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله- عز وجل- إلا بوسيلة صفات نفسه.ولولا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى، ولتلاشي ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره. ولولا تثبيت الله- عز وجل لموسى- عليه السلام لما أطاق سماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار دكا. ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق. «إحياء علوم الدين(1/ 280) - المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ) - الناشر: دار المعرفة - بيروت- لبنان- 1982م».

فعلى سبيل المثال: لو نظرنا إلى الآيات الكونية في السموات والأرض وعجائب المخلوقات والإشارات إليها في القرآن الكريم، لوجدنا أنها تندرج تحت المقصد الأول من معرفة الله وتوحيده وعبادته؛ من حيث إنها تلفت النظر وتنبه العقل إلى التساؤل عن مصدرها من أين وإلى أين وما الهدف منها؟! فالخلق وإبداعه يقودنا إلى الخالق سبحانه وعظمته، وكذلك الأسئلة الوجودية الكبرى عن الخلق وبدايته ومآلاته وكثير من صور الفكر الفلسفي ومباحثه تندرج تحت هذا المقصد، من التعرف على الوجود الإلهي وما يتفرع عنه من البحث في حكمة الخلق وعظمة المخلوقات ودلالة ذلك على الله عز وجل.

وكذلك النبوة والرسالات وجميع متعلقاتها تنتمي إلى هذا المقصد الأول، لأن الأنبياء ما جاءوا إلا لتحقيق معرفة الله وتوحيده وعبادته، فجميع ما يتعلق بالنبوة وإرسال الرسل من حيث الإمكان والمنهج والخصائص يرجع إلى الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته ومشيئته النافذة.

وكذلك جميع الأوامر الإلهية والأحكام والتشريعات والقوانين الفقهية والأخلاقية وتزكية النفوس وإصلاحها وتهذيب الأخلاق، يمكن أن تنتظم في المقصد الأول أو الثاني أو الثالث. ويمكن أن تقع تحت جميع المقاصد معا.

فوجود الخالق يتضمن البحث عن معرفته وتوحيده وعبادته، وكذلك يتضمن رعايته سبحانه لخلقه بالتشريع والإرشادات.وتزكية النفوس، وعمارة الأرض تتطلب قانونًا فقهيًا وقانونًا أخلاقيًا يأتي من عنده سبحانه.

ويأتي الحديث عن مصير الإنسان بعد موته وانتهاء حياته ومآل هذا الخلق كله، تحت المقصد الرابع من مقاصد القرآن الكريم، وهو التأكيد على اليوم الآخر وتقرير مبدأ الجزاءات. فسبحان من هذا كلامه وجل شأن رب العالمين حيث قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [**الأنعام**:38].

ثانيًا: ظهور التكامل والتوافق وعدم التعارض بين معاني الآيات التي تعالج موضوع واحد:

فكتاب الله سبحانه وتعالى يحتوي على الحقيقة المطلقة، التي لا معارض لها في القديم ولا في الحاضر ولا في المستقبل، ولكي نستطيع الوصول إلى هذه الحقيقة المطلقة ومتعلقاتها بكل موضوع ومحور من محاور القرآن الكريم، يجب علينا انتهاج منهج القراءة الكلية لكتاب الله عز وجل، والتعامل معه كالجملة الواحدة.

ومن الأمور التي سوف تثمرها قراءة القرآن الكريم كالجملة الواحدة، تحصيل الفهم الكلي المتكامل للموضوع المذكور في القرآن الكريم في مواطن متفرقة، فإن هذا يضمن لنا فهمًا كليًا متكاملًا للآيات والموضوعات. فعلى سبيل المثال عندما نتعرض لموضوع الجهاد في القرآن الكريم، فلو اكتفينا بالقراءة المجتزئة لبعض الآيات التي وردت فيه فسوف يخرج البعض بمفاهيم مغلوطة عن هذه الفريضة السامية، والتي تحمل بين طياتها الرحمة للعالمين وسوف يحولها إلى قتل وسفك دماء، وهذا ما وقع فيه كثير من التيارات الضالة التي تزعم أنها تجاهد في سبيل الله.

فالتكامل الذي نجده بين الآيات المتفرقة والتي تعالج موضوعًا واحدًا تكون لنا صورة معرفية كلية عن الأحكام الخاصة بهذا الموضوع، وتكون تصور صحيح عن المراد الإلهي الخاص به. فلو طبقنا هذا على جميع محاور القرآن الكريم وموضوعاته لحدثت لنا العصمة الفكرية والعملية التي تمنع من الوقوع في الفهم الخاطئ أو التطبيق المغلوط.

فآيات القرآن الكريم وما تحتويه من الأوامر والأدلة والإرشادات، متضافرة ومتعاضدة ومنظومة كحبات العقد، فمن مجموعها تتكون صورة العقد ويكتمل الموضوع لا بانفرادها.

فالقراءة المجتزأة لكتاب الله وإعمال الأدلة منفردة غير مجتمعة، وعدم النظر للسابق واللاحق والسياق الذي هو التتابع هي سبيل الضلال والانحراف عن المقاصد الصحيحة لكتاب الله، وهي المؤدية للوقوع في استنباط أحكام باطلة وإلصاقها بالشريعة والزعم أنها

حكم الله تعالى. وهذا هو المسلك الذي أدى بكثير من الفرق والطوائف إلى الوقوع في الفتنة والضلال؛ حيث أصلوا لأنفسهم أصلًا باطلًا، ووضعوا لأنفسهم منهجًا غير مستقيم، فوقعوا في الخلل العلمي والعملي، عن طريق تبنيهم للقراءة المجتزئة، وعدم النظر لآيات الكتاب الكريم كوحدة كلية، فلا ينظرون في المطلق مع مقيده، ولا في العموم مع مخصصه، بما يؤدي في نهاية الأمر إلى صورة من صور تحريف الشريعة، ومخالفة مقاصدها، لعدم إعمال النظر الكلي المكتمل وعدم وضع الدليل في موضعه.

وقد حذر النبي ﷺ من هذا المسلك شفقة على أمته من أن تقع في هذا الضلال، وغضب أشد الغضب عندما وجد ملمحًا من هذا المسلك قد وقع من بعض الصحابة عند مناقشتهم لبعض الأمور، فقد روى ابن ماجه في سننه عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله – ﷺ – عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنْ الْغَضَبِ، فَقَالَ: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ**». قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ عَمْرٍو: مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ تَخَلَّفْتُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ الله – ﷺ – مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَتَخَلُّفِي عَنْهُ»(1).

والشاهد من هذا الحديث هو إنكار النبي ﷺ عليهم اقتصارهم على بعض الأدلة من كتاب الله في الموضوع الواحد، دون الإحاطة بمجموعها والنظر فيها نظرة كلية عند تناولهم لموضوع «الْقَدَرِ». فلم ينكر عليهم النبي ﷺ المناقشة والتحدث في العلم؛ وإنما أنكر عليهم الاقتصار على النظرة الجزئية، التي يظهر فيها ضرب أدلة القرآن الكريم بعضه ببعض، عن طريق استدلال كل فريق بما يراه مناسبًا من الآيات لرأيه.

والذي يسلك هذا المسلك يُخشى عليه أن يكون ممن قال الله سبحانه فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب السنة، باب في القدر(1/ 63) حديث رقم 85،وابن ماجه صاحب السنن يكتب بالهاء كما نص عليه المرتضى الزبيدي في شرح القاموس 6/ 221

بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:85].

فكتاب الله كالجملة الواحدة لا تتناقض معانيه، ولا تختلف مقاصده، وقد أدرك أهل العلم من قديم أهمية هذا المسلك في التعامل مع كتاب الله، وفقًا لرؤية كاملة وقراءة شاملة فكشفوا لنا عن الوجه الكلي الصحيح للشريعة.

والتوصل إلى الدلالة الصحيحة للنص طريقه المنهج السياقي، الذي يجعل للسياق الكلي للنص كله الدور الأكبر في فهم معاني الألفاظ ودلالتها، عن طريق الكشف عن علاقة الكلمات والجمل بعضها ببعض، ولذلك تكلم أهل العلم عن أهمية تفسير القرآن بالقرآن، فسياق الآيات وجمعها والنظر إليه ككل هو الطريق لمعرفة الدلالة، وإدراك المراد والقطع بما هو غير مراد أو باطل من المعاني، ومعرفة ما هو خاص وما هو عام، وما هو ظني وما هو قطعي. وهذا كله هو الطريق لمعرفة مراد المتكلم ومنع تسلل الظنون والاحتمالات الباطلة في معاني النص. فالنص القرآني له كيان كلي شامل فما أُجمل في موضع فقد فصل في آخر، وهذه هي النظرة للسياق الأكبر أو العام للنص القرآني وملاحظة ترابطه.

وهذه النظرة تأخذنا إلى ملاحظة أن المعنى والدلالة والمقصد تنبعث من داخل النص الإلهي، ولا تفرض عليه من الخارج بالأهواء أو الأغراض. وهذا كله من تمام التلاوة لكتاب الله ومحاولة الوصول إلى تطبيق الأمر الإلهي: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

فانطلاقة التفسير وبيان المعاني تتركز في القرآن نفسه، برد متشابهه إلى محكمه، وحمل مجمله على مبينه، وعامِّه على خاصِّه، ومطلقه على مقيده، وجميع ما يأتي بعد ذلك من أدوات التفسير والفهم هو تبع للقرآن.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِر من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإن أعياك

ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64]»(1).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير»(2).

وكذلك يقول السيوطي رحمه الله: «قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز، طلبه أولا من القرآن فما أجمل منه في مكان فقد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه، وقد ألف ابن الجوزي كتابا فيما أجمل في القرآن في موضع وفسر في موضع آخر منه»(3).

وخير دليل على تأكيد ذلك ما جاء في السنة المطهرة؛ فقد كان الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسألون عما لم يفهموا معناه وأشكل عليهم ظاهرُ عبارته. روى البخاري رحمه الله عَنْ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]. شَقَّ

---

(1) انظر: مقدمة في أصول التفسير ص (ص 40،39) المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ)- الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان – الطبعة: 1490هـ/ 1980م.

(2) أنظر: التبيان في أقسام القرآن (1/ 178) المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) المحقق: محمد حامد الفقي – الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(3) انظر: الإتقان في علوم القرآن (4/ 200) المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب- الطبعة: 1394هـ/ 974 م.

ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ:** ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]»(1).

وقد سلك أهل العلم هذا الطريق في جميع العلوم والمسائل، وهو النظر في جميع الأدلة والجمع بينها للوصول إلى التصور الصحيح عنها، ومعرفة أبعادها ومن ثمة يصلون إلى: الحكم الشرعي الصحيح، أو يستنبطون معنى صحيح يسعه النص.

من أقوال أهل العلم المعبرة عن كون القرآن الكريم كالجملة الواحدة:

وقد تكلم أهل العلم عن مظاهر كون القرآن الكريم كالجملة الواحدة المتحدة المباني والمعاني المترابطة الأركان، فمنهم من تكلم بنظرة جزئية عن ترابط الآيات ووحدة السورة، ومنهم من اتسعت نظرته فتكلم عن مظهر الوحدة في الكتاب كله، وبعضهم أطلق على الوحدة الكلية لكتاب الله «المناسبة»(2).

---

(1) أخرجه البخاري في كِتَابُ اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُتَأَوِّلِينَ (6937) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) يقول الإمام السيوطي عن هذا العلم: «المناسبة في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين ونحوه.وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء. فنقول: ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح. وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل وهذا القسم لا كلام فيه.

وإما ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به.فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أو لا، فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه. كقوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ
=

وعلى الجملة كان هدفهم هو بيان النظام الجامع للقرآن الكريم من أوله إلى آخره، والذي جعله كالبنيان المرصوص المتصل غير المنفصل، فهو وحدة كلية واحدة لكل حرف فيه مكانه الحسي والمعنوي المكون لهذه الوحدة نصًا ومعنى.

1 – الإمام الرازي:

يقول الإمام الرازي رحمه الله (ت:606هـ): «القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضا ويبين بعضها معنى بعض»(1).

ويقول رحمه الله عن خصائص سورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور»(2).

2 – الإمام الشاطبي:

=

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. للتضاد بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض، ومما الكلام فيه التضاد ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة، وقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي، وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة تجده كذلك. وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط». انظر: الإتقان في علوم القرآن (1/ 372-371).

(1) انظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (32/ 295) المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري- الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة: الثالثة – 1420 هـ.

(2) انظر المصدر السابق (7/ 106).

ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله (ت:790هـ): «فاعتبار جهة النظم مثلا في السورة لا تتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها.

فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك»(1)

3 – **الإمام الزركشي**:

وجاء في البرهان للإمام الزركشي: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جمّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له.

قلت: وهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي وهذا الراجح كما سيأتي، وإذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء.

وكافتتاح سورة فاطر بـ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ أيضا فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [سبأ:54]. وكما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به، وكافتتاح

(1) انظر: الموافقات (4/ 268) المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي – المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان –الناشر: دار ابن عفان – الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

البقرة بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]. كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم، قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة»(1).

وقد نقل الزركشي رحمه الله في البرهان عن الإمام كمال الدين الزملكاني أنه تكلم في دروسه عن مناسبة افتتاح السور فقال: «أما الكهف فإنه لما احتبس الوحي وأرجف(2) الكفار بسبب ذلك أنزلها الله ردا عليهم، وأنه لم يقطع نعمه عن نبيه ﷺ، بل أتم عليه بإنزال الكتاب فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة، وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها ببعض؟! بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة»(3).

4 – **الإمام السيوطي:**

ويقول الإمام السيوطي عن معاني الوحدة البنائية للقرآن الكريم والتفات أهل العلم إلى مظاهر ذلك في كتاب الله:

«في مناسبة الآيات والسور: أفرده بالتأليف العلامة أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان في كتاب سماه «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن» ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البقاعي في كتاب سماه «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»،وكتابي الذي صنعته في أسرار التنزيل كافل بذلك جامع لمناسبات السور والآيات، مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة في جزء لطيف سميته «تناسق الدرر في تناسب السور». وعلم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر

---

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن(1/ 38-37).

(2) المراد بأرجفوا: أي صنعوا ما يترتب عليه الاضطراب من الأخبار الكاذبة

(3) انظر: البرهان في علوم القرآن (1/ 39).

فيه الإمام فخر الدين وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

وقال ابن العربي في «سراج المريدين»: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه».وقال غيره: أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة...

وقال الشيخ ولي الدين الملوي: قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا؛ فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة. ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له. انتهى[1].

5 – الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري:

وقد أشار الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري رحمه الله (ت:1413) في كتابه «جواهر البيان في تناسب سور القرآن» إلى مظاهر وحدة القرآن الكريم البنائية عن طريق إيضاح ارتباط سور القرآن الكريم بعضها ببعض حسب ترتيبها في المصحف الشريف مكونة وحدة

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن (3/ 371–370) المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي– المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب– الطبعة: 1394هـ/ 1974 م.

كلية في المعاني والأهداف[1].

والذي نخرج به من هذه الإشارات: أن كتاب الله عز وجل وحدة كلية جامعة، تشتمل على روح تسري في جميع سوره وآياته وكلماته وحروفه، هذه الروح هي سر من أسرار كتاب الله وهي المكونة لجوهر القرآن ومظاهر إعجازه، من حيث المعنى ومن حيث البلاغة.

من آثار النظرة الكلية في كتاب الله:

وقد أفادت النظرة الكلية الجامعة إلى كتاب الله عن انكشاف الهيمنة القرآنية، وكونه مصدرًا وأصلًا للعلوم الشرعية، ويفتح الأبواب كذلك أمام أنواع أخرى من العلوم عن طريق الإشارة إلي متعلقاتها، هذا النظرة الكلية التي تمتع بها أهل العلم هي سر هذا الانكشاف لأسرار القرآن الكريم، وهي الطريق الممهد لتوليد العلوم والمعارف منه.

وعن مظاهر ذلك يقول: الإمام الغزالي رحمه الله: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عَزَّ وجَلَّ وصفاته، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها... ثم يقول: بل كل ما أشكل فهمه على النُظَّار، واختلف فيه الخلائق فى النظريات، والمعقولات، فى القرآن إليه رمز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»[2].

الإمام الرازي رحمه الله يقول: «القرآن أصل العلوم كلها فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن، وكذا علم أصول الفقه. وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق»[3].

ويقول في موضع آخر:

---

(1) انظر: كتاب جواهر البيان في تناسب سور القرآن للسيد عبد الله بن الصديق الغماري ط.مكتبة القاهرة

(2) انظر: إحياء علوم الدين(1/ 289).

(3) انظر: مفاتيح الغيب (2/ 348).

«العلوم إما نظرية، وإما عملية أما العلوم النظرية، فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب وأما العلوم العملية، فالمطلوب، إما أعمال الجوارح وإما أعمال القلوب، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة»(1).

ويقول الإمام الرازي أيضا:

«واعلم أن كثيرا من الفقهاء يقولون إنه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه، وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة وكل ذلك من علوم الأصوليين، ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال»(2).

فظهر من ذلك كله كيف أن القرآن الذي هو كلام الله مفتاح جميع العلوم والمعارف؛ وذلك باعتبار أصول ومبادئ هذه العلوم، فهو قد حوى أصول الاعتقادات والأحكام الشرعية وكذلك حوى أصول المعارف الكونية؛إذ قد حثنا على التدبر في المخلوقات والتعرف على بديع صنع الله فيها.

اتحاد البنية القرآنية وكون القرآن كالجملة الواحدة يرفع القول بنسخ التلاوة:

قد أفردنا موضوع النسخ في القرآن الكريم بمبحث مستقل، وبينَّا فيه ما ترجح لدينا من أمر النسخ في كافة صوره التي تكلم فيها، ولكننا هنا في هذه الجزئية نشير إلى أمر مهم وهو: بعد ثبوت كون القرآن كالجملة الواحدة ووجود وحدة بنائية جامعة له، تمثل رابط مشترك يسري من أوله إلى آخره، وكونه في نظمه كالبنيان المرصوص، وكونه هو كلام الله، كل هذا

---

(1) المصدر السابق: (13/ 64).

(2) المصدر السابق: (27/ 671).

العوامل المكونة لوحدة القرآن الكلية تجعل القول بنسخ التلاوة ورفع آيات من هذا الكتاب الكريم لا يستقيم، ولا يثبت أمام وحدته البنائية وترابط السياق من أوله إلى آخره والذي يجعل آيات القرآن الكريم كلها كأنها آية واحدة، لا يستطيع المرء أن ينتزع منها كلمة واحدة.

المبحثُ العاشر
السقف المعرفي وعلاقته بتفسير القرآنِ الكريم

مِن المداخل الأساسيَّة لتعامُلنا معَ النَّص القرآنيِّ وتحصيل القراءةِ المنضبطةِ لكتابِ الله وصحَّةِ المعاني المستنبطةِ منه: طبيعةُ السَّقف المعرفي لدينا، والذي نتعاملُ مِن خلاله مع هذا النَّص الإلهي، باعتبارِه أداةً من أدواتِ الفهم وإدراكِ المعاني واستنباطِها ونسبتِها لكتاب الله.

فإذا تمَّ إحسانُ التصوُّر والإدراكِ لهذه الأداة، ثم تمَّ ضبطُ استخدامها، كانت النتائجُ والمعاني المستنبطةُ صحيحةً يقينيَّةً، وفي حالِ لم يكن هناك تصورٌ صحيحٌ للسَّقف المعرفي، أو لم يتمَّ إحسانُ استخدام متعلَّقاته في التعامل مع النَّص القرآنيِّ، فسيؤدي ذلك إلى بطلانِ النتائج المستنبطةِ، أو ابتعادِها عن مرادِ القرآن الكريم ومعانِيه وضياعِ المعاني الصحيحةِ، ممَّا ينتجُ عنه معلوماتٌ ومناهجُ وتصوراتٌ غيرُ صحيحة تُنسب لكتاب الله عزَّ وجلَّ. وذلك على مستوَى جميع محاورِ القرآن الكريم العقَديَّةِ والتشريعيةِ والأخلاقيةِ...إلخ محاورِ القرآنِ الكريم الكليَّة.

- تمهيدٌ للإحاطةِ بالسَّقف المعرفيِّ:

- ما هوَ السقف المعرفي؟

هو كَمُّ المعارفِ والعلومِ والمعلوماتِ والحقائقِ اليقينيَّة المتعدِّدة، والمتحَصِّلةِ عن طريق العقلِ والحواسِّ البشرية، والتي تتفرَّع إلى عددٍ من معلوماتٍ لا تقعُ تحت الحصرِ.

وهذا السقف المعرفي لا ثباتَ له؛ وإنما هو في ارتفاعٍ دائمٍ؛ وذلك للزيادةِ التي يُحقِّقها الإنسانُ في المعارف والعلومِ، وذلك في غالبِ الأحوال، وإلَّا فقد تأتي فتراتٌ على الجنسِ البشري، يُصاب فيها السَّقفُ المعرفي لديهِ بالجمودِ والتوقُّف بل قد يُصاب بالتراجعِ.

والطريقُ الذي يتحوَّل به هذا السقفُ المعرفي إلى أداةٍ من أدواتِ التفكير هو تحوُّل معارفه اليقينيَّة ومعلوماتِه إلى منهج تفكيرٍ وبحثٍ منظَّم منضبطٍ، يُسهم في عمليَّة التحليلِ والاستنباطِ لتحصيل المعلوماتِ وذلك على كافَّة مستوياتِ العلومِ.

وفيما يتعلَّق بكتابِ الله عزَّ وجلَّ، لا يستطيعُ المفسِّر أن ينفصِل عن السَّقف المعرفيِّ للعلومِ

البشريَّة المتحصَّلة في عصرِه على كافَّة المستوياتِ وهو يَتعامل مع الآيات القرآنية، خاصَّةً الآياتِ التي تُعالج موضوعًا واحدًا، فالمفسِّر يجعل قراءةَ الكون المنظُور[1] وما يَحويه من معلوماتٍ يقينيَّةٍ في مرجعيَّتِه الفكريَّة، ويحوِّلها إلى أداةٍ من أدواتِ الفهم واستنباطِ المعاني من القرآنِ الكريم، إلى جانب الأدوات الأخرى اللَّازمةِ لتعاملِه مع النَّصِّ القرآني.

فما حصَّلَته البشريَّةُ من علومٍ ثابتةٍ مستقرَّةٍ يقينيَّةٍ كالعلوم الطبيعيَّة من الفيزياءِ والكيمياءِ وعلوم الأحياءِ والجَغرافيا...إلخ، أو في مجالِ العلوم الإنسانيَّة كعلم الاجتماعِ والعلوم السياسيَّة وعلمِ الاقتصاد...إلخ.

وما تقومُ به هذه العلومُ من تفسيرٍ لظواهر الوجودِ هو وجهٌ من وجوهِ الحقيقةِ الكونيَّة الصادرةِ عن الإلهِ الحقِّ. وما احتوَاه النصُّ القرآنيُّ الإلهيُّ يقدِّم لنا ويقصُّ علينا الأصولَ الكليَّةَ لحقيقةِ الكونِ والوجودِ والغيبيَّات بصورةٍ أخرى.

وإدراكُ المفسِّرِ لملامحِ العلومِ الأساسيَّةِ في عَصرِه التي تتعلَّق تعلُّقًا واضحًا بتفاعُلاتِ الحياةِ وأشكالِها المتنوِّعةِ، وإحاطتُه بمبادِئها الأساسيَّة، وقدرتُه على استِحضارِها عند تعامُله مع النَّصِّ القرآني، مع التِزامِه بالقواعدِ العَقليَّة وترتيبِ التَّفكيرِ عندَ هذا التعاملِ، يَفتحُ أمامَه آفاقًا جديدةً من تفسيرِ القرآن الكريم وتوليدِ المعاني مِنه.

وبِمعنى آخرَ معرفةُ العالِمِ والمفَسِّرِ بالسَّقف المعرفيِّ في عصرِه يُحدِث فارقًا كبيرًا في كمٍّ وكيفِ المعاني المتولِّدةِ من النَّص القرآني من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى يفتَح الآفاقَ أمامَ استِكشاف توافُق النَّصِّ القرآنيِّ مع كلِّ سقفٍ معرفيٍّ في كلِّ عصرٍ بل وسبقِه له، وعدمِ وجودِ أيِّ تناقضٍ أو

(1) سوف نتكلم في مبحث خاص عن الجمع بين قراءة الكتاب المسطور(الكون وما فيه) وقراءة الكتاب المسطور (القرآن الكريم) نبين فيه وحدة مصدر صدورهما. وما يمثل الجمع بين القراءتين من أهمية عند التعامل مع النص القرآني.

تعارضٍ بين حقيقةٍ قرآنيةٍ يقينيةٍ بمختلف هيئاتِها وبين أيِّ سقفٍ معرفيٍّ ومعلوماتِه اليقينيَّة[1].

فالكونُ والوجود خلقُ الله، والقرآنُ كلامُ الله ورسالتُه إلى خلقِه، وخلقُ الله وكونُه يَقصُّ علينا عظمةَ الخالقِ جلَّ في عُلاه، ويبيِّنون لنا مظاهرَ أسمائِه وصفاتِه، ويَشهدون بوحدانيَّته بصورةٍ معيَّنةٍ، والقرآن الكريم يقصُّ علينا عظمةَ الخالق ووحدانيتَه بصورةٍ أخرَى.

والبراعةُ والتميُّز التي تظهرُ من المفسِّر هي القدرةُ على الرَّبط بين الأمرَين: الحقيقةِ الكونيَّة والحقيقةِ القُرآنيَّة، وتوليدُ مَعانٍ تجمَعُ بين حقائقِ القرآنِ الكريم ومَعانيه وبينَ حقائقِ الوجودِ وصورِه، فتظهرُ لنا مسألةُ توافقِ السَّقف المعرفيِّ مع كتاب الله، وتَتضِحُ قضيَّةُ الإيمانِ بشكلٍ أعمقَ، فهذا كونُ الله وخلقُه وهذه رسالةُ الله ووحيُه يكوِّنان معًا حقيقةً يقينيةً تشهد بالوحدانيَّة لربِّ العالمين.

ومسألةُ السقف المعرفيِّ وتعلُّقها بالتفسير تشمَل أمرين:

الأمرُ الأوَّل: بيانُ توافق السقفِ المعرفي اليقينيِّ مع النَّص القرآنيِّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وعدمِ وجودِ تعارضٍ بأيِّ صورةٍ من الصُّورِ.

الأمر الثاني: كيفيَّة استخدامِ هذا السَّقف المعرفي بمَجالاتِه المختلِفة وتحويلِه لمنهجٍ للتعامُلِ مع القرآنِ الكريم كأداةٍ من أدواتِ فَهم النَّصِّ وتفسيرِه.

- منطلقُنا لاستخدام السَّقف المعرفيِّ في التَّعامل مع النصِّ القرآنيِّ:

إنَّنا نتعاملُ مع القرآنِ الكريم باعتِباره كتابًا مُعجزًا لا تنتهي عجائبُه، ولا يَخْلُق من كثرةِ الرَّدِّ؛ كما وصفَه النبي ﷺ، وهو باقٍ بوصفِه معجزةً لرسالة النبيِّ ﷺ إلى يوم الدِّين؛ لأنَّه محفوظٌ بحفظ الله سبحانه وتعالى لَه، وفي إعجازه وعدمِ انقضاءِ عجائبه يظهرُ منه في كلِّ عصرٍ

(1) وعندما نقول حقيقية يقينية قرآنية لمنع أي توهم للأشياء والمعلومات الغير مؤكده وننسبها لكتاب الله بما لا يحتمله النص العربي وكذلك الحال عندما نتكلم عن السقف المعرفي فإننا نقصد معلوماته ومعارفه اليقينية فالعملية الفكرية هنا تدور بين حقائق قرآنية يقينية وحقائق معرفية يقينية وبذلك نغلق الباب أمام شبهة حدوث أي تعارض بين الاثنين.

ما به تقومُ الحُجَّة.

ومن أوجهِ إعجاز كتابِ الله سبحانه وتعالى توافقُ القرآنِ الكريم معَ الحقائقِ العلميَّة والواقع الحِسيِّ المشاهَد في كلِّ عصرٍ؛ بحيث لا يصطدِم النَّص القرآنيُّ أبدًا مع أيِّ واقع مشاهَدٍ أو حقيقةٍ علمية في أيِّ عصر أو زمانٍ، بل إنَّ كلماتِ القرآن ومعانيها تحتَوي ذلك كلَّه وتَسمحُ به وتتوافقُ معه، ممَّا يُعطي لنا الفكرةَ عن مبدأ إطلاقيَّة القرآنِ الكريم، والتي يجِب استحضارُها وعدمُ إهمالِ رؤيةِ التِصاقها التَّامِّ بالنَّص القرآني.

و«الإطلاقيَّة» كما أشرنا من قبلُ إلى معناها: تحرُّرٌ من «الزمانِ» و«المكانِ» و«الأشخاصِ» و«الأحوالِ»، فكأنَّ القرآن قد نزَل الآن. في عطاءٍ متجدِّدٍ لا يتَوقَّف كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ﴾ [فصلت: 53].

فنحن نرَى أنَّ كتاب الله مُعجزٌ مع كلِّ سقفٍ معرفيٍّ، فعندَما كان البدويُّ في الصحراء يرى الشَّمس تُشرِق من المشرق، وتتحرَّك في حركةٍ ظاهريَّةٍ في السماءِ، ثمَّ تَغرُب بعد ذلك في جهة المغربِ كان يَفهم من قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38] أنَّ الشمس تتحرَّك؛ فهو ليس من أصحاب علوم الفَلَك، وإنَّما هو يتحدَّث من خلالِ الظاهر أمامَه.

والقرآن- وهو يتحدَّث عن تلكَ الظاهرةِ التي يَحْملُها البدويُّ على ظاهرِ الحركة الشمسيَّة- لا يُخرجُه من ثقافتِه هذه، ثم تتقدَّم العلوم ويُثبت علماءُ الفلك وعلماءُ الرياضياتِ حجمَ الشَّمس الكبيرِ، ممَّا لا يُمكِن معه أن تكونَ الأرض هي التي تُحرِّكُها، بل العكسُ هو الصَّحيح؛ فإنَّ الشمسَ هي التي تُحرِّك الأرضَ، ويكتشفون ذلك شيئًا فشيئًا، أولًا من الناحية الرياضيةِ، ثم بعد ذلك من الناحيَّة الحسِّيَّة، وكذلك عندما انفصَلوا عن الأرض ورأَوها بأعيُنهم، فرأَوا أنَّ الأرضَ هي التي تدُور، وأنَّها تدور دوراتٍ مختلفةٍ؛ مرةً حول نفسِها فتسبِّب اللَّيل والنَّهارَ، ومرةً حولَ الشَّمس فتُسبِّب الفصولَ الأربعةَ، ثمَّ رأوا أنَّ القمر هو

الذي يدورُ في فلكِها، فهو الذي يتحرَّك حركةً حقيقيةً توافِق ما نراهُ بأعيُننا، وإن كانت الشمسُ والقمر يتحرَّكان نفس الحركة أمام الرَّاصد حركتَهما من على الأرض، ولكنَّ حركةَ القمر حقيقيَّةٌ فهو يتحرَّك فعلًا، وقد اكتَشَف العلماءُ حركاتٍ للشمس نَفْسِهَا، فالشمسُ تجري حولَ نفسِها وتدورُ، والشمس أيضًا تجري في الفضاءِ، تجري في المَجَرَّة نحو نجمٍ يُسمَّى بنجم «**Vega**»، ونجم «**Vega**» هذا الذي تتوجَّه إليه الشمسُ تُسْرِع في اتجاهه بمقدار «12 كيلو مترًا في الثانية الواحدة»، فهذه سرعةٌ رهيبة تجري بها الشمسُ، وتَجُرُّ وراءها المجموعةَ الشمسيةَ كلَّها بكلِّ ما فيها من كواكبَ ومنها الأرضُ، كما أنَّها تسبِّح في الفضاءِ العظيم، ويُصبح جريان الشَّمس له معنًى آخرَ، بسقفٍ معرفيٍّ آخرَ مختلفٍ عن ذلك السَّقف الذي كان عند الأوائلِ، ويَبقى النَّصُّ القرآنيُّ صادِقًا لا يختلِف ولا يتخلَّف عن أيِّ حقيقةٍ كانت. كلُّ ذلك يقودُنا إلى حقيقةٍ يقينيَّة غيرِ قابلةٍ للنَّقض أو للنقدِ، وهي أنَّ هذا النصَّ القرآنيَّ مُتوافقٌ مع السقفِ المعرفيِّ اليقينيِّ للحضارةِ البشريَّة في جميعِ مراحلِها وشتَّى صورِها.

فمنهجُنا في استخدام السَّقف المعرفي كأداةٍ من أدواتِ التَّعامل معَ النَّصِّ القرآني يهدفُ إلى جعلهِ منهجًا يقوم على الإيمانِ والتوحيد يعملُ على ربط حقائقِ القرآن وحقائقِ الوجودِ والإفادةِ من المعارف والعلومِ في إيضاحِ العلاقةِ بينَ الخالقِ ومخلوقاتِه وبَيان الغايةِ التي خُلِقَ كلُّ هذا من أجلِه.

- تراثُنا الإسلاميُّ والسَّقف المعرفيُّ:

لا يوجد تعارضٌ بين التراث الإسلامي بجميعِ فروعِه وصورِه ومعلوماته وبينَ مسألة السَّقف المعرفي، حيث إن هذا التُّراث هو جزء من السقفِ المعرفي في مرحلةٍ زمنيَّةٍ، فما أصَّلَه سلفُنا الصَّالح واستنبطُوه من العلومِ والمعارفِ منه ما هو قطعيٌّ بحكم العقلِ والشَّرع ومنه ما هو ظنيٌّ بحكم العقلِ والشَّرع، فما هو قطعيٌّ نتعاملُ معه مِن هذا المنطلَق كما تعامَلَ سلفُنا الصَّالح، وما كانَ من العلوم والمعارفِ ظنيٌّ نتعامل معه مِن هذا المنطلقِ فيُصبح الأمرُ فيه محتمَلًا؛ كما كانَ لدى سلفِنا الصَّالح كذلكَ.

فنحنُ نعتزُّ ونقدِّر ونلتزِم بما أصَّلَه السَّلفُ الصَّالح مِن قواعدَ للتعاملِ مع النَّصِّ القرآني؛ وذلكَ لأنَّها عقليَّةٌ يقينيَّةٌ وشرعيَّةٌ يقينيَّةٌ في نفس الوقتِ، وعلى ذلكَ نقول إنَّ هذه القواعدَ تَتَماشَى مع السقفِ المعرفيِّ في كلِّ زمانٍ ولا تتعارضُ معه، فما هو يقينيٌّ عقلًا وشَرعًا لا يُتصوَّر أبدًا مخالفتُه للواقعِ.

وعلى ذلك نقولُ إنَّه لم يكن هناك تعارضٌ البتَّة بين ما كانَ عند سلفِنا الصَّالح مِن سَقفٍ معرفيٍّ شرعيٍّ أو عقليٍّ وبين ما تكشَّف لنا من معارفَ حديثةٍ ولكن ما حدَث هو تجدُّد السقفُ المعرفي لدينا بصورةٍ أكبرَ عمَّا كان لديهم فمَا كشَفه سلفُنا الصَّالح مِن قطعيَّاتٍ يقينيَّة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل فنحنُ ننطلِق من خلالها ونَبني علَيها، وما كانَ في مجالِ الظَّنيَّاتِ نتَعاملُ معه بحسَب الحالِ ووِفقًا للقواعدِ الشَّرعيَّة الكليَّة.

فنحن لا ندعو إلى تبديدِ القواعدِ المؤصَّلَة في التعاملِ مع النَّصِّ القرآنيِّ كما تُحاول بعضُ الفئاتِ المنحرفةِ أن تفعلَه بدعوى زيادةِ المعارف الحديثةِ وإنَّما ندعو إلى استخدامِ الزِّيادة الحادثةِ في سقفِنا المعرفيِّ على مُستوى جميعِ المعارفِ الإنسانيَّة ووصلِها بالنَّصِّ القرآنيِّ وإحداثِ التفاعل مَعه، وبهذا سنخرجُ بلا شكٍّ بمعارفَ وعلومٍ جديدةٍ تؤكِّد قدرةَ النصِّ القرآنيِّ المستمرَّةَ على توليدِ العلومِ والمعارفِ. وهذا المنطلقُ يأتي كَما قلنا مِن أنَّه كلمةُ الله سبحانه، فهو محيطٌ بأدواتٍ معه يسبِقها ولا تلحقُه ويحيطُ بها ولا يمكِن لها أن تحيطَ ببعضه.

ومِن أدلَّة ذلك عندما تمَّ استقراءُ آياتِ القرآنِ الكريم واستخدامُ علم الأخلاقِ ومنهجِه وأدواتِه المستَحدَثة في هذا العَصرِ، وهذا لونٌ من ألوانِ السَّقف المعرفيِّ المعاصرِ تكشَّف لدينا ما في القرآنِ الكريم من نظريَّةٍ أخلاقيَّةٍ مُتكاملةٍ، واكتَشفنا احتِواءَ النَّصِّ القرآنيِّ على ما يُمكن أن نُطلق عليهِ «القانُون الأخلاقِي».

وكذلك تكشَّف لدينا كيفَ احتوَى القرآنُ الكريم على منظومَةٍ قيميَّةٍ تَشمل القِيمَ الفرديَّة، والقِيم الأسريَّة، والقِيم الاجتماعيَّة، وقِيم النِّظام العامِّ والدولةِ. وكذلك ظهَر لنا من

خلالِ سقفِنا المعرفيِّ المعاصرِ بمناهجِه وأدواتِه احتواءُ النَّصِّ القرآني على المبادئ الكليَّة العامَّةِ، الضابطةِ للحياةِ البشريَّة ليس على مستوَى الأمَّة الإسلاميَّة فقط ولكن على مستوَى الجنسِ البشريِّ كلِّه. ومن خلال السقف المعرفيِّ المعاصر تكشَّف لنا ما في القرآن الكريم من قانونِ السُّننِ الإلهيَّة الحاكمةِ للحياة الفرديَّة والجماعيَّة على الأرضِ.

ولو نظرنا إلى الحقائقِ العلميَّة اليقينيَّة في العصر الحديثِ لوجدنا أنَّه قد تمَّت الإشارةُ إلى الكثيرِ منها في بعض آياتِ القرآن الكريم، ليس على وجهِ التفصيلِ وإنَّما في إشارةٍ إلى الكليَّات التي تفتح آفاقَ العلوم وتشهد للقرآن الكريم بأنَّه كلمةُ الله الخالق.

الدعوةُ الإسلاميَّة والسقف المعرفي:

من الأمور المتعلِّقةِ بالسقفِ المعرفي وعلاقته بالقرآن الكريم أنَّه يُعدُّ من أبواب الدَّعوة إلى الإسلامِ في العصر الحديثِ، حيث إنَّه يُظهر بوضوحٍ صحَّة نسبةِ القرآن الكريم إلى الله عزَّ وجلَّ خالقِ الأكوان، خاصَّةً إذا ما أحسَن المسلمون عرضَ الحقائقِ الكونيَّة الموجودةِ في هذا الكتابِ عرضًا حَسنًا، وتمَّ بيانُ توافقِ معانيها مع المعارفِ الكونيَّة اليقينيَّةِ الحديثة وإظهارِ عدم وجودِ أيِّ نوعٍ من التعارض بين النصِّ القرآني والكونِ المنظور.

وكذلك العمل على الإشارةِ إلى احتواءِ القرآن الكريم على كليَّاتٍ ومبادئَ تصلحُ منطلقًا للعلوم الإنسانيَّة.

إنَّ بيانَ هذه الحقائقِ لغير المسلمين يُعدُّ من أهم أبواب الدعوة في عالمنا المعاصرِ اليوم، حيث إنَّ منطلقها قائمٌ على العقلِ الذي يحتكِم إلى المعرفةِ والمعلوماتِ اليقينيَّة المتوفِّرةِ لديه مِن خلال السقفِ المعرفيِّ، ومهمَّتنا كمسلمين في هذا الوقت هو وضعُ حقائقِ القرآن المعرفيَّة أمام عقولِ غير المسلمين، وبيانُ أنَّها متوافقةٌ تمامًا مع سقفِ البشرية المعرفيِّ في عالمِ اليومِ وما يلزَم عن ذلك من إثباتِ قضيَّة الألوهيَّة والنبوَّة والرِّسالة، ويَشهد لدينِ الإسلام بأنَّه الرسالة الأخيرةُ من الله. ويشهدُ للقرآن الكريم بأنَّه كتاب الله المسطورُ المفسِّر والمبيِّن للكتاب المنظور «الكون». وبيانُ أنَّه هو المؤهَّل لقيادةِ البشرية وتحقيقِ الرؤية الصحيحةِ الكليَّة والجُزئيَّة

للحياة، وبيانُ منهجِه وسننِه وأساليبِه وطرقِه وخصائصِهِ المُهيمنةِ على عناصِر الزَّمان والمكَان التي تُمكِّنه من استيعابِ جميع الخَلقِ على اختِلاف أجناسِهم ومِلَلِهم بما يَعني أنَّه ليس هناكَ تصوُّرٌ للصَّلاح الماديِّ والمعنويِّ يُمكن أن يَنتُج عن أيِّ منهجٍ مثلما ينتجُ عن المنهجِ القُرآني.

السَّقف المعرفي والفكر المُنحرف:

ونحن نتعامل مع النصِّ القرآني يجب علينا الحذرُ من الخروج عن أركانِ القانون الضابطِ لذلك تحت دعوَى زيادةِ السَّقف المعرفي في عصرنا الحالي؛ كما يفعلُ بعض مدَّعي الفكر والدَّعوة للتنويرِ من طوائف تُطلِق على أنفسِها ألقابَ المفكِّرين أو المجدِّدين، وهم أبعدُ ما يكونُون عن مناهجِ البحث القائمِ على مناهج العقلِ والشريعةِ والمعرفةِ، حيث إنَّهم يدَّعون عدمَ الحاجةِ إلى أدواتِ التعاملِ مع النَّصِّ القرآني والتي تمثِّل قانونَ التفسير والمعرفةِ، بل يزعمُون أنَّهم يمكِنهم الاجتهادُ واستنباطُ المعاني والأحكامِ بمجرَّد نظرِهم في الآياتِ.

فهذه الطوائفُ المنحرفةُ تدَّعي نسبةَ معانٍ وأحكامٍ باطلةٍ إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ على مستوى العقيدةِ والتشريع والأخلاقِ، ويَدْعون إلى تغييرِ ما هو ثابتٌ ومُستقرٌّ ومجمَعٌ عليه من الأمَّة المسلمةِ منذ عهدِ النَّبي ﷺ فيُحاولون هدمَ الثَّوابت تحتَ دعوى باطلةٍ تقولُ إنَّ ما ظهرَ من المعارفِ الحديثة يُغيِّر المعاني القطعيَّةَ المستقِرَّةَ، أو تحتَ دعوى ارتباطِ المعاني القرآنيَّة القطعيَّة بنطاقٍ زمنيٍّ محدَّد. فنجِد أحدَهم يزعمُ أنه يستغني عن القانونِ الضَّابط للتَّفسير تحتَ دعوى ارتفاعِ السَّقف المعرفي لدَيه وتوافرِ العقل فيدعو إلى نَبذِ التُّراث وهَجر ما أنتجَتْه العقليَّة الأصوليَّة الفقهيَّة المُسلمةُ من قواعدِ التعامل مع النَّصِّ، ونحن نرى أنَّ سلفَنا الصالح كانَ لهم مِن العقُولِ الذَّكيَّة الزَّاكيةِ والأذهانِ المتَّقدةِ ما مكَّنَهم مِن وضعِ خريطةٍ معرفيَّةٍ ذاتِ معالمِ ثابتةٍ لا يمكن الاستغناءُ عن جزءٍ منها في تعامُلنا مع النصِّ القرآنيِّ.

تشتملُ هذه الخريطةُ على أركانٍ منها السقفُ المعرفي، فلا يُمكن أن يدَّعي أحدُ الأصاغر في العصر الحالي إلى هَجرِ باقي معالمِ الخريطةِ المعرفيَّة عند الأمَّة الإسلاميَّة تحت دَعوى أنَّه

يُمكن لهم أن يتعامَلوا مع النَّصِّ القرآنيِّ بدونِها.

وما وقَع فيهِ مَن يُسمُّون أنفسَهم بالمفكِّرين وأهلِ الحداثة من محاولاتِ استغلالِ السَّقف المعرفي وقَع في مثلِه طوائفُ تَنسِب نفسَها للسَّلف الصَّالح ولكن بصورةٍ أخرى حيثُ أنكرُوا الحقائقَ الكونيَّة المكتشفةَ ومظاهرَ السَّقف المعرفيِّ اليقينيَّةَ مع أنَّها تمثِّل الوجهَ الآخر للحقائقِ الإلهيَّة بجانب كتابِ الله فقامُوا بتَجاهلِ العلومِ العقليَّة ودورِها في فهمِ النُّصوص وزَعموا أنَّها تُصادم معاني النَّصِّ القرآني فوقَعوا في مخالفةِ الحِسِّ في أمرٍ هو أقربُ للجنونِ(1) وما ذاكَ إلا لقصورِ أدواتِهم العلميَّة وضعفِ الملكَة الإدراكيَّة التي تستطيعُ إدراكَ التوافقِ بين معاني السَّقف المعرفي الإنسانيِّ اليقينيِّ وبينَ معاني النَّصِّ القرآنيِّ فعجزُوا عن إيجادِ الوصلةِ بين النَّصِّ القرآنيِّ وبينَ يقينيَّات المعرفة فقامُوا بنسبةِ معانٍ لكتابِ الله بالسَّقفِ المعرفيِّ؛ وذلك نتيجةً لجَهلِهم وعدمِ قدرتِهم على استيعابِ السَّقفِ المعرفيِّ، وتوهمِهم أنَّه مخالفٌ لكتاب الله.

فالنِّظام المعرفيُّ الإسلاميُّ يقومُ على المراعاةِ والملاحظةِ والاستِمدادِ من الوَحي ومنَ الوجودِ ومهِمَّة أهلِ العلم هيَ الوصلُ بينَهم وإحداثُ التَّفاعل عن طريقِ منهجٍ مُتكاملٍ منضَبطٍ في عمليَّةٍ تصوُّريَّة إدراكيَّةٍ متكاملةٍ لم تتوَافر إلَّا لأهل العِلم وليس للأَدعياءِ الذين اختَصروا النِّظامَ المعرفيَّ بما تتوهمُه عقولُهم من الدِّلالاتِ التي يَنسبُونها زورًا للشَّريعةِ، فأنكروا المحسُوساتِ والتَّجريبيَّات اليقينيَّة تحت دَعوى أنَّها تتصادمُ مع النصِّ القرآني، وليس ذلك بصَحيحٍ فهي قد تتصادَم مع فكرِهم المعوَجِّ؛ لأنَّ العلم اليقينيَّ هو حقيقةٌ إلهيَّة من مظاهر أسماءِ الله وصفاتِه كما أنَّ القرآن هو كلامُ الله وصفتُه سبحانه وتعالى.

وقد أدركَ أهلُ العلم في الأمة المسلمة من السَّلف والخلفِ أهميَّة مظاهرِ السقف المعرفي وظواهرِه في تكوين المعرفةِ فقالوا إنَّ المعرفة تنتُج من الحواسِّ السليمة، والعقلِ(2)، والخبرِ

(1) ومن ذلك ما ألفه بعضهم من إنكار دوران الأرض حول الشمس ! انظر على سبيل المثال كتاب: الصواعق الشديدة على أهل الهيئة الجديدة للشيخ حمود بن عبد الله التويجري

(2) انظر العقائد النسفية للإمام نجم الدين النسفي

الصَّادق، ولا يوجَد ما هو أصدَقُ من كلامِ الله ولا يوجدُ أفضل في خلق الله من الحواسِّ القادرةِ على رصْدِ الحقائق ولا يوجد أكمَل من العقل الذي هو هِبةٌ من الله قدرةً على النظرِ وتصورِ وتكوينِ واكتشافِ الصِّلة بين النصِّ القرآني ومشاهداتِ الحواس وإعمالِ النَّظر الذي يُنتِج العلمَ اليقينيَّ ويكشِف المعانيَ من كتاب الله.

***

المبحث الحادي عشر
حول قضية النسخ في القرآن الكريم

نتناول في هذا المبحث قضيَّة النسخ في القرآن الكريم فنعرض لهذه المسألة الدقيقة من جوانب عدة، نتحدث فيها عن القواعدِ الأصوليَّة التي يمكنُ من خلالها الفهمُ الصَّحيحُ والتصور المنضبطُ لقضيَّةِ النسخ في القرآن الكريم، والذي يتَّفقُ مع ما وردَ من النصوص التي تتحدَّثُ عن النسخ في كتاب الله محاولين بيان معناها، ويضع النصوص الأخرى التي جاءت في غير القرآن الكريم والتي تحدثت عن النسخ في التصور الصحيح لها من حيث الثبوت والصحة أولًا ومن حيث المعنى والدلالة بعد ذلك، ومحاولة النظر إلى قضية النسخ في القرآن الكريم من خلال نافذة جديدة وقاعدة عامة وهي إطلاقية القرآن الكريم وكونه كلام الله الذي لا يتبدل ولا يتغير وأثر ذلك في هذه القضية، ذاكرين في أثناء حديثنا مواقف وكلام أهل العلم من هذه القضية من القدماء والمحدثين، ثم نستخلص رأينا وما وصل إليه اجتهادنا وتصورنا لهذه المسألة فتكمل هذه المسألة أحد أركان قانون التفسير وفهم كتاب الله من حيث النظر إلى نتائج القول بالنسخ أو عدم القول به.

مقدِّمة لفهم قضيَّة النسخ:

من مبادئنا: أنَّ القرآن الكريم كتاب رب العالمين إلى كل العالمين إلى يوم الدين فهو كتاب هداية، ويدعو إلى نسقٍ مفتوح، وأنه محفوظ بحفظ الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأن الإسلام دين عالمي يدعو الناس أجمعين إلى كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ [آل عمران: 64]. فهو معجزة الرسالة المحمدية الخاتمة، التي خاطبَ الله به الناس جميعًا في كل زمان ومكان، وفي جميع الأحوال، وهُو حبل الله المتين الذي لا تنتهي عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد وسيظلُّ غضًّا طريا إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها.

هذه مبادؤنا وعقائدُنا، ويلزمُ من ذلك أن نذهب إلى الكتاب وأن نأخذ منه الهداية، ونعلمَ

أنَّه ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]. فالله- سبحانه وتعالى- جعل هذا الكتاب خاتم الكتب، فإذا كان هناك عهدٌ قديم وعهدٌ جديد فإنَّ هناك عهدًا أخيرًا هو الكلمةُ الأخيرةُ من الله سبحانه وتعالى للنَّاسِ.

هذه الصفات- صفات الْعَالَمِيَّة، وصفات الْحِفْظ... إلى آخر ما هنالك- جعلت القرآنَ الكريم معجزةَ رسالةٍ؛ وكل نبيٍّ بُعث إلى قومِه كانت تجري على يده معجزاتٌ، هذه المعجزاتُ تسمَّى بمعجزة رسول، وهي التي على مثلها آمن البشرُ، وهكذا كان يقولُ سيدنا رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَرْسَلَ اللهُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَجَاءَ مَعَهُ مَا عَلَى مِثْلِهِ آمَنَ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ هُوَ كِتَابُ اللهِ»[1]. فالنبيُّ ﷺ وهو يقول هذا لا ينفي عن نفسه المعجزة؛ فقد جرتْ على يديه معجزات عَدَّ العلماءُ منها أكثرَ من ألف معجزة[2].

بل إنَّهم قالُوا: «كل معجزةٍ لنَبِيٍّ سابق على النَّبِيِّ المصطفى قد جرتْ على يديه عليه الصلاة والسلام»[3]، وكل هذه المعجزات كانت لقومه؛ ولذلك قال لهم: «كيفَ تكفرونَ وأنا فِيكُمْ؟»[4]. فإنَّهم يَرَوْنَ المعجزات من مثل: تكثير الطعام، وتسبيح الحصى، وحنين

---

(1) متفق عليه بنحوه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (4981)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملَّته (152) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) ذكر ذلك الإمام النووي في «شرح مسلم» (1/ 2)، وقال شيخ الإسلام ابن حجر في فتح الباري (6/ 583) «وقال البيهقي في المدخل: بلغت – أي معجزاته ﷺ- ألفًا، وقال الزاهدي من الحنفية: ظهر على يديه ألف معجزة، وقيل: ثلاثة آلاف، وقد اعتنى بها جماعة من الأئمة، كأبي نُعيم والبيهقي وغيرهما.

(3) انظر: «الشفا» للقاضي عياض: (1/ 369).

(4) أخرج البزار في مسنده (7294) من طريق الفضل بن يعقوب الرخامي حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الدمشقي حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «أي الخلق أعجب إيمانا؟» قالوا: الملائكة، قال: «الملائكة كيف لا يؤمنون؟!» قال: النبيون، قال: «النبيون يوحى إليهم فكيف لا
=

الجِذْع، وشكوى الحيوانات، وسير النباتات إليه، وإنبائه بالغَيْبِ، والإسراء والمعراج، ورَدِّ عين قَتَادَةَ، وشفاء المرضى، وإحياء الموتى... لكن- على كل حال- كانت تلك المعجزات أمام قومه، وبنى ﷺ على ذلك هذا البِناء الضخم في صحابته، وأخرجهم من الظلمات إلى النُّور، ومن عصر الجاهليَّة إلى عصر الإسلام؛ فخرجوا من أجل أن ينشروا النُّورَ في العالم كله إلى يوم الدِّين، وما زلنا نتكلَّم عن أصحاب رسولِ الله ﷺ، ونستنبطُ من حياتهم كثيرًا من العِبَرِ والدروس.

إذن، فمُعْجِزَةُ الرَّسُولِ هي التي يراها قومه في حياته كسائر المعجزات التي تقدَّمت، وأما معجزَةُ الرِّسالةِ فهي التي تبقى بعد وفاة الرسولِ، وذلك مثل «القرآن الكريم» وهذا الدِّين قد لفت النظر إلى الوَحْدَة؛ فمظاهره وشعائره تدعو إليها، والوَحْدَة - بمفهومها العميق- ليست فقط في توحيد الإله؛ بل هي أعم من ذلك، فعندنا إلهٌ واحدٌ نعبده، ونبيٌّ واحد، وكتابٌ واحد هو القرآن، وشهرٌ واحدٌ للصيام، وقِبْلَةٌ واحدةٌ نتوجَّه إليها، وموسمٌ واحدٌ للحج؛ والحج «عرفة»، وهو أيضًا يومٌ واحدٌ نَقفُ فيه لرب العالمين، نذكره وندعُوه سبحانه وتعالَى.

ولأجل أنَّ نبينا واحد، وهو خاتم النبيين والمرسلين؛ كان لابد أن يبلغ عنه ويقوم مقامَه أُناسٌ يبلغون عنه ولو آية، كما قال ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»(1). وكذلك كان لابد من أن يُحْفَظَ الكتاب؛ لأنَّه لو حُرِّفَ فمن ذا الذي يأتي من بعده ﷺ؟!

ولو أنَّنا فرضنا أنَّ الأنبياء تأتي بعد النَّبِيِّ الخاتم ﷺ لتَشَتَّت الأمَّة؛ فمع كل نبي كان

=

يؤمنون؟!» قالوا: الصحابة، قال: «الصحابة يكونون مع الأنبياء فكيف لا يؤمنون؟! ولكن أعجب الناس إيمانًا قومٌ يجيئون من بعدكم فيجدون كتابًا من الوحي فيؤمنون به ويتبعونه، فهم أعجب الناس- أو الخَلق- إيمانًا».

(1) سبق تخريجه.

سيأتي، كانت ستؤمن به طائفة وتكفر به طائفة، على ما جرت عليه عادةُ البشر وسُنَّةُ الله- سبحانه وتعالى في التاريخ، ولكن رَسول الله ﷺ لما كان واحدًا كانت الأمة واحدةً؛ ولذلك لا شرذمة ولا تَفَرُّق ولا تكفير لأهل القِبْلَة؛ وذلك بسبب ختمية الرسالة والنبوة، فالنَّبِيُّ ختم الرسالة، وبذلك أصبح القرآن الكريم هو الموردَ الوحيدَ للهداية إلى يوم الدين.

ومبحث النسخ عند الأصوليين يعدُّ من أخطر وأدق المباحث التي تحتاج إلى وقفة علمية متأنية، حيث عالجوا في جانب من جوانب ذلك المبحث أمرًا خطيرًا يتعلَّق بنسخ التلاوة، ونسخ الحكم في القرآن، وافترق الأقدمون حول هذه المسألة واشتدَّ النزاع بين المحدَثينَ حتى أنكر بعضهم النسخَ جملةً وتفصيلًا، وتمسَّكَ آخرون بالقولِ بما ورد عَنِ الأقدمينَ، وادَّعَوا الإجماع فيما لا يثبت الإجماعُ في مثله؛ من أجل ذلك كان هذا البحث الذي بين أيدينا الذي يعرضُ لأقوال الأصوليين، ويفترض رأيًا جديدًا تجاه النسخ في القرآن، وهو يقرُّ النسخَ في السنَّةِ المشرفة، ويُبقِي على ما ذهب إليه الأصوليونَ من آراء ومباحثَ في مجال السنة فقط، مع القول بعدم وجود النسخ في القرآنِ(1)، وإن أقرَّ بوجود تغيُّرِ الأحكام فيه لتغير الأحوالِ؛ بحيث يمكن أن يُستفادَ ممَّا وردَ في الكتاب الكريمِ كلَّما رجع الحالُ إلى ما كان عليه الأمر الأوَّل، منزِّهًا القرآن الكريم عن مجرد شبهة التحريف، ومنزلًا إياه على ما يليق به، من خطاب العالمين إلى يوم الدين(2).

ولما كان معنى النسخ يحتاج إلى بيان فسوف نتناول فيما يلي معناه في اللغة ثم في اصطلاح الأصوليين:

---

(1) المقصود بالنسخ المنفي وجوده في القرآن الكريم هو الإزالة سواء برفع الآية نفسها أو برفع الحكم كله.

(2) النسخ عند الأصوليين (ص 3) لفضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور.علي جمعة محمد- نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الطبعة الأولى - 2005م.

أولا: معنى النسخ عند اللغويين:

يُطلق النسخ في اللغة على معان:

منها إزالة الشيء وإعدامه، من غير حلول آخر محله، نحو قولهم: «نسخت الرياح آثار القوم». أي: أتت عليها وأزالتها، (ونسخت الريح آثار الديار) غيرتها[1]، ومنها قوله تعالى ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ [الحج: 52] أي: يُزيلُه فلا يبقى له أثرًا.

ومنها: إزالة الشيء وإبداله بآخر، يقال نسخه كمنعه، أزاله وغيَّرَه وأبطله، وأقام شيئًا مقامَه[2]، ومنها قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106] ومنه قولهم: نسخت الشمس الظل، ونسخ الشَّيبُ الشبابَ[3].

ومن معاني النسخ: نقل الشيء من مكان إلى مكان، مع بقائه في نفسه.

قال السجستاني- وهو من أهل اللغة: والنسخ أن تحول ما في الخلية من النحل أو العسل إلى خلية أخرى، ومنه تناسخ الأرواح بانتقالها من بدنٍ إلى بدن عند القائلينَ بذلكَ[4].

ومنه تسمية النحويين (كان وأخواتها) و(إن وأخواتها) بالنواسخ لإزالتِها إعرابَ الجملة وإبداله بآخر؛ نحو قولهم: المجتهدُ ناجحٌ. فيصبح الخبر منصوبًا بدل الرفع في: كان المجتهدُ ناجحًا. أو المبتدأ منصوبًا في: إن المجتهدَ ناجحٌ.

(1) انظر: لسان العرب (4/ 28).

(2) القاموس المحيط (1/ 271).

(3) الإحكام للآمدي (3/ 146).

(4) الإحكام للآمدي (3/ 147).

- النسخ حقيقة في أي المعاني؟

اختلف الأصوليون في كون اللفظ حقيقةً في الإزالة، أو حقيقة في النقل، أو مشتركًا بين الإزالة والنَّقل على أقوال:

القول الأول: وعليه أكثر الأصوليين، ومنهم الإمام الرَّازي وأبو الحسين البصري: أن النسخ حقيقة في الإزالة، مجاز في النقل.

القول الثَّاني: وهو لجماعة، منهم القفال الشاشي: أنه حقيقة في النقل، مجاز في الإزالة.

القول الثالث: وهو لجماعة منهم القاضي أبو بكر الباقلاني والغزالي والآمديُّ: أنَّه مشترك لفظيٌّ بين الإزالة والنقل لاستعمالِه فيهما[1].

وعلى كلٍّ فالخلافُ لفظيٌّ لا معنوي؛ حيث لا يترتب عليه أثرٌ، وليس له ثمرةٌ تتعلق بمبحث النسخ في القرآن الكريم.

- ثانيا النَّسخ في اصطلاح الأصوليين:

اختلفَ الأصوليونَ في التعريف نظرًا لاختلافهم في كَون النسخ رفعًا للحكم أو بيانًا لانتهاء أمَدهِ[2].

وما يهمنا عند دراسة مسألة النسخ في القرآن الكريم أن نعرف ما يمكننا من تحديد

---

(1) لمعرفة تفاصيل وأدلة كل فريق انظر: المحصول للإمام الرازي (277-3)، المستصفى (1/ 107)، المعتمد (1/ 463)، الإحكام للآمدي (3/ 147)، البحر المحيط (4/ 63)، شرح الكوكب المنير (3/ 525).

(2) اختلف الأصوليون في كون النسخ رفعًا للحكم أو بيانًا لانتهاء أمده، فإلى الأول ذهب الباقلاني والصيرفي والغزالي فعرفوه بأنه: «رفع الحكم الشرعي بطريقٍ شرعي متراخٍ عنه». وقد وجه إلى هذا التعريف عدة انتقادات، وإلى الثاني ذهب الإسفراييني والرازي والبيضاوي وغيرهم.

انظر: المستصفى (1/ 107)، وشرح جمع الجوامع لابن السبكي (2/ 74، 75)، وشرح مختصر المنتهى للعضد (2/ 185)، مناهج العقول (2/ 198)، إرشاد الفحول (ص 184).

مفهومه، دون الخوض في الاختلافات التي قد تعيق تصور حقيقة النسخ ومن ثم تطبيقه على آيات القرآن الكريم من عدمه.

وبناء على ذلك فمن التعريفات التي ذكرها العلماء ما اختاره الشيخ تاج الدين السبكي في جمع الجوامع -وهو كافٍ في تصور معنى النسخ - فيقول التاج السبكي: "والمختار أنه رفع الحكم الشرعي بخطاب"(1)، وهو مارجحه أيضا الشيخ زكريا الأنصاري في غاية الوصول(2).

وعليه فالنسخ يتحقق وفق هذا التعريف برفع حكم شرعي بعد ثبوته بخطاب آخر متأخر عنه؛ ومن الأمثلة التي توضح حصول النسخ قول الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144] إذ قد نسخت ما كان قبل نزول الآية من الأمر بالتوجه لبيت المقدس وهو القبلة الأولى، غير أن ذلك مثال على نسخ الكتاب للسنة حيث قد ثبتت القبلة أولا بالسنة ثم جاء الكتاب رافعا للعمل بهذا الحكم بتقرير وجوب التوجه للكعبة(3)، فالخطاب التالي نسخ الأول أي رفعه؛ فلم يجز العمل به.

فرق ما بين النسخ والتخصيص:

والنسخ بهذا المعنى يفارق التخصيص الذي يفترق عن النسخ بفروق من جملتها أن التخصيص لا يلغي العمل بالعام إذ يظل معمولا به في أفراده سوى ما ورد عليه التخصيص، وكذلك فإن التخصيص ربما ثبت بقياس بخلاف النسخ، والتخصيص لا يدخل إلا العام بخلاف النسخ الذي يدخل العام والخاص، وقد توسع الزركشي من ذكر هذه الفروق حتى

---

(1) انظر: جمع الجوامع للتاج السبكي صـ57 ط.دار الكتب العلمية بتحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم

(2) قال في غاية الوصول صـ 91 في تعريف النسخ أنه: " (رفع) تعلق (حكم شرعي) بفعل (بدليل شرعي) " ثم قال بعدها:" والقول بأنه بيان لانتهاء أمد حكم شرعي يرجع إلى ذلك فلا خلاف في المعنى "

(3) انظر شرح الورقات للشيخ المحلي المطبوع على هامش حاشية الدمياطي على الشرح المذكور صـ 16 ط.المنيرية

أوصلها لثمانية عشر فرقا[1]

وبعد أن تكلمنا عن معنى النسخ اللغوي والاصطلاحي ومثلنا له ثم فرقنا بينه وبين التخصيص، نتوجه إلى لُب القضية، وأساس المسألة وهي النسخ في القرآن الكريم؛ ما هو وما حقيقته؟ ونعرض أقوال أهل العلم فيه ثمَّ نوضح ما اخترناه في هذه المسألة موضحين أسباب هذا الاختيار وأدلته.

أنواع النسخ في القرآن الكريم:

ذهب كثير من الأصوليين إلى أن النسخ حاصل في القرآن على ثلاثة أنواع وهي:

الأول: نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

الثاني: نسخ الحكم مع بقاء التلاوة.

الثالث: نسخ الحكم والتلاوة معا.

وقد ذهب جمهور الأصوليين إلى وقوع النسخ بأنواعه الثلاثة في القرآن الكريم؛ ولا يُسلم الاتفاق على وقوع بعض النسخ كنسخ التلاوة؛ وإن أشار بعض الأصوليين له كالآمدي رحمه الله قال الآمديُّ: "اتفق العلماءُ على جواز نسخ التلاوةِ دون الحكم وبالعكس، ونسخهما معًا، خلافا لطائفة شاذة من المعتزلةِ"[2]؛ فهناك من أشار كذلك لوقوع الخلاف فيه قبله كالإمام الجصاص[3] حيث قال: " اختلف الناس في نسخ (رسم) القرآن وتلاوته مع بقاء حكمه،

(1) انظر البحر المحيط للزركشي 4/ 327

(2) انظر: الإحكام للآمدي (3/ 201).

(3) أحمد بن علي أبو بكر الرازي الإمام الكبير الشان المعروف بالجصاص كان إمام أصحاب أبي حنيفة فى وقته درس علي الكرخي، تفقه عليه أبو عبد الله محمد بن يحيى بن مهدي الفقيه الجرجاني شيخ القدوري،وله من المصنفات أحكام القرآن وشرح مختصر شيخه أبى الحسن الكرخي وشرح مختصر الطحاوي وشرح الجامع لمحمد بن الحسن وشرح الأسماء الحسنى وله كتاب مفيد فى أصول الفقه وله =

فقال قوم: لا يكون رفع حكمه إلا برفع رسمه وتلاوته فيرتفع الحكم بارتفاعها، وقال آخرون: يجوز رفع أحدهما مع بقاء الآخر أيهما كان من تلاوة أو حكم، وقال طائفة: لا يجوز نسخ القرآن وتلاوته ولكن يجوز نسخ الحكم مع بقاء التلاوة "[1]

وذكر كذلك بعضهم النص على أن الجمهور على جواز نسخ التلاوة كما في شرح العضد على ابن الحاجب قال: "مسألةٌ: الجمهورُ على جواز نَسخِ التلاوة دون الحكم، وبالعكس، ونسخهما معًا، وخالف بعض المعتزلة[2].

وجاء في تيسير التحرير:" نسخ جميع القرآن غير جائز بالإجماع، قاله الإمام الرازي وغيره؛ لأنه معجزة مستمرَّة على التأبيد، ونسخ بعضه جائز، وتفصيله ما أشار إليه بقوله: ينسخ القرآن تلاوةً وحكمًا، أو أحدهما، أي: تلاوة لا حكمًا، أو عكسه،ومنع بعض المعتزلة غير الأول، أي: تلاوة وحكمًا"[3].

فيؤخَذُ من نصوص العلماء السابقة: أنَّ نسخ القرآن جميعه لا يجوز، وأن جمهور الأصوليين يقولون بجواز نسخ التلاوة فقط أو الحكم والتلاوة أو الحكم فقط.

كما أن إطلاقَ لفظ المخالفة على بعضِ المعتزلة في بعض النسخ ليس بدقيق، إذ الحقُّ أنَّ نسخ الحكم والتلاوة فيه الخلافُ أيضا عند القائل بالنَّسخِ[4]

وعلى هذا: فنَسخُ الحكم والتِّلاوة لا خلاف بين العلماء فيه عند الذين أثبتوا النسخَ،

=

جوابات عن مسائل وردت عليه قال ابن النجار توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة سبعين وثلاث مائة عن خمس وستين سنة رحمه الله تعالى [انظر: الجواهر المضية في طبقات الحنفية عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي 1/ 85 ط.مير محمد خانه كراتشي]

(1) انظر: الفصول في الأصول لأبي بكر الرازي الشهير بالجصاص 2/ 263 ط.وزارة الأوقاف الكويتية

(2) انظر: شرح العضد على ابن الحاجب (2/ 194).

(3) انظر: تيسير التحرير (2/ 204).

(4) النسخ بين النفي والإثبات د.محمد محمود فرغلي صـ35 ط.دار الكتاب الجامعي 1976 م

فيكون المرادُ بالاتِّفاقِ قول الجمهور؛ إذ النقل عن شرح العضد وغيره يثبت أن الخلافَ فيه أيضا، ومنع ذلك أيضا أبو مسلم الأصفهانيُّ، وبعض المتأخرة المحدَثين على النحو الآتي تفصيله.

وفيما يلي نفصل في كل نوع منها بذكر أقوال العلماء فيه، ثم نورد القول المختار في كل هذه الأنواع:

1- نسخ التلاوة دون الحكم:

ومعنى نسخ التلاوة عند القائلين به: صرف القلوب عن حفظ ذلك القدر المنسوخ الدالِّ على كلام الله تعالى مع بقاءِ العمل بالحكم.

وقد ذهب الجمهور إلى جواز نسخ التلاوة دون الحكم، ومنعه بعضُ المعتزلة(1).

الأدلة:

استدلَّ الجمهورُ على جواز نسخِ التِّلاوة دون الحكم بالعقل والنقل:

- **الدليل العقلي:**

أمَّا العقلُ فقد قالوا: إنَّ نسخ التِّلاوة دون الحكم لا يترتبُ على فرض وقوعه محالٌ، وكل ما كان كذلك كان جائزًا، فهذا النوع جائز عقلًا.

وقد اعترضَ المانعونَ لنسخ التلاوة على هذا بوجهيْنِ:

أولهما: أنَّ لفظَ الآية ذريعة إلى معرفة الحكم، فإذا نسخت الآية دون الحكم، أشعر ذلك بارتفاع الحكم، وفي هذا تعريض للمكلف لاعتقاد الجهل، وهو قبيحٌ من الشارع.

وأجيب عنه: بأن الشارع إذا نسخ التلاوة، فإنه يقيم دليلًا على ذلك، وعليه فلا يكونُ فيه تعريضٌ للملكف لاعتقاد الجهل كما زعم.

---

(1) انظر: المعتمد للبصري (1/ 386)، الإحكام لابن حزم (4/ 61، 62)، الإحكام للآمدي (3/ 201)، المحصول للإمام الرازي (3/ 482)، كشف الأسرار على أصول البزودي (3/ 908).

ثانيهما: أن نسخ التِّلاوة مع بقاء الحكم خال عن الفائدة، وما كان كذلك كان عبثًا يستحيل على الله تعالى، فيكون نسخ التلاوة دون الحكم باطلًا.

وأجيب عنه: بأن ذلك مبنيٌّ على وجوب رعاية المصالح في التَّشريع، وهو باطلٌ.

على أننا لو سلمنا جدلًا أنه لابدَّ من مراعاة المصالح في أفعال الله تعالى فلا نسلم أنه خالٍ عن الفائدة، لأن فيه رفعَ الأحكام المتعلقة بالتِّلاوة من حرمة مسها للمُحدِث، وجواز قراءتها في الصَّلاة، والتعبد بتلاوتِها، وغير ذلك، فضلًا عن ذلك فإن فيه اختبارًا وابتلاءً من الله لعباده؛ ليثبت الَّذين آمنوا ويضل الكافرين[1].

- **الدَّليل النقليُّ:**

استدل الجمهور بالنقل بعدد من الروايات التي قد يُفهم منها وقوع نسخ التلاوة، ومن ذلك:

1 - ما رُويَ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: لولا أن يقولَ الناس: زاد عمر في القرآن لكتبتُ آية الرجم بيدي «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم» فإنا قد قرأناها[2]. ووجوب الرجم على المحصن والمحصنة باقٍ مع نسخ التلاوة، لرجم رسول الله ﷺ ماعزًا والغامدية[3].

---

(1) انظر: الإحكام لآمدي (3/ 202)، فواتح الرحموت (2/ 73)، المستصفى (1/ 123)، الإبهاج لابن السبكي (2/ 264)، نهاية السول (2/ 178)، معراج المنهاج (1/ 437).

(2) أخرجه البخاري في الحدود، باب ما رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (6830)، ومسلم في كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا (1691) من حديث ابن عباس مطولًا.

(3) أما حديث رجم ماعز فهو متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب هل يقول الإمام المقر هل أحصنتَ؟ (6825)، ومسلم في كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (1691) من حديث أبي هريرة وأما حديث الغامدية وذُكر فيه ماعز أيضًا؛ فأخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (1695).

2 - واستدلوا أيضا بقراءة ابن مسعود (ثلاثة أيام متتابعة) فنَسخ متتابعات مع بقاء حكمِه.

كما استدلوا بأدلة أخرى جاءت بها روايات في كتب السنة(1).

أدلة المانعين:

استدلَّ بعضُ المعتزلةِ على المنع، فقالوا بعدم الجواز، محتجِّينَ بأن اللفظ إنما أنزلَ ليُتلَى ويُعمل بما فيه من أحكامٍ، ويُثاب عليه، فكيف تُرفع تلاوتُه، ويبقى حكمُه؟! فنسخ التلاوة سبب في ذهاب الحكم، فإنها طريقُ العلم به.

ورُدَّ هذا: بأنَّه لا يمنع أن يكون المقصود الحكمَ، فإن الدليل الدال على رفع التلاوة مختص بها، لكن أنزل بلفظ معين، والعلماء محيطون بمدلولِ هذا.

فلابد بعد نسخ التلاوة من أمر يدل على بقاء الحكم لنأمن عليه من الذهاب، وهذا المنسوخ ثابت؛ لأن المراد بالشيخ والشيخة: المحصن والمحصنة، وهما إذا زنيا رُجِما إجماعًا(2).

- وبقي ما استند له المانعون بإبطال استدلال المثبتين لنسخ التلاوة ببعض الروايات من السنة النبوية، وهو ما سنفصل فيه الكلام لأهميته؛ إذ غاية ما يؤدي له الاستدلال العقلي عند المثبتين لنسخ التلاوة هو الجواز وإمكان الوقوع، لكن الوقوع شرعا يحتاج لدليل ينتهض سندا ومتنا ؛لإثبات الوقوع، فالمثبتون للنسخ يحتجون بروايات في السنة على وقوع نسخ التلاوة مما يحتاج إلى جواب وهو التالي:

- كلام الشيخ الغماري في القول بنسخ التلاوة:

وسبب اختيارنا كلام الشيخ المحدث السيد عبد الله بن الصديق الغماري أنه قد جمع

---

(1) سنقوم ببسط الكلام عن النصوص الواردة مما احتج به المثبتون لنسخ التلاوة والرد عليها بعد الانتهاء من سرد أدلة المانعين.

(2) انظر التقرير والتحبير (3/ 66)

الروايات التي يستند لها المثبتون لنسخ التلاوة ويحتجون بمثلها،وفندها من الناحية الحديثية والأصولية ؛ وقد عقد الشيخ الغماري: فصلا في رسالته المسماة " ذوق الحلاوة بامتناع نسخ التلاوة" لبيانِ (أمثلة لما قيل بنسخ تلاوته) نذكر خلاصته، مع زيادة إيضاح وتحقيق.

قال الشيخ الغماري عن تلك الروايات:" وَهي دليل النقل الذي استدل به مجيزو نسخ التلاوة بنوعيْه، وقد نقل الحافظ السيوطي منها جملة وافرة في كتاب الإتقان، وأنا أذكرها محذوفة الأسانيد، لأنها على فرضِ صحتها لا تقوم بها حجةٌ في هذا الموضوع الخطير.

1- ففي صحيح مسلم (ح 1452) عن عائشة قالت: كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، فنسخن بخمس معلومات، فتوفِّي رسول الله ﷺ وهنَّ مما يقرأ من القرآن[1].

2- وفي البخاري (ح 3064)[2] عن أنسٍ رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا: وقنت رسول الله ﷺ يدعو على قاتليهم، قال أنس: "ونزل فيهم قرآنا قرأناه حتى رفع: أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا، فرضي عنا، وأرضانا"[3].

---

(1) هذا الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه لا يُثبت النسخ لأمرين؛ الأول أنه آحاد كما سيأتي تفصيله في مستند نسخ التلاوة إجمالا، ثانيا: أن لفظ السيدة عائشة هنا فيه إشكال كبير، على من يستدلون بهذا على نسخ التلاوة ؛ إذ النسخ لا يكون اتفاقا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن هنا فدعوى السيدة عائشة رضي الله عنها هي كما يقال: مبلغ علمها رضي الله عنها ، والقرآن لا يثبت بخبر الواحد.

(2) عزاه الشيخ الغماري رحمه الله في ذوق الحلاوة (ص10) إلى الصحيحين، متابعًا في ذلك الإمام السيوطي رحمه الله في (الإتقان (2/ 33) وقد سبقهم في هذا الوهم الحافظ المزي رحمه الله في تحفة الأشراف، حيث ضم حديث بئر معونة إلى حديث العرنيين (تحفة 1176) والصواب أنهما حديثان منفصلان، أما حديث العرنيين فهو الذي من المتفق عليه، وأما حديث بئر معونة فهو من أفراد البخاري، وقد نبه على ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله في النكت الظراف على الأطراف (التحفة الموضع السابق)، (وأيضا النكت الظراف1203 أ)، وهو كما قال الحافظُ رحمه الله.

(3) هذا الحديث أيضا لايثبت به النسخ؛ لأن ما صدر عن سيدنا أنس لا يعدو أن يكون رواية آحاد، فما ظنه سيدنا أنس قرآنا لا يثبت له القرآنية بمجرد قوله، وهو يشابه في ذلك القراءةَ الشاذة؛ من جهة أن كلا =

3- ورَوى عبد الله بن أحمد[1] عن أبي بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليكَ القرآنَ». قال: فقرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: فقرأ

=

منهما لم يُتفق على ثبوته قرآنا بطريق التواتر، وحكم القراءة الشاذة عند العلماء عدم جواز القراءة ولا الصلاة بها وإن صح إسناد بعضها (انظرغاية الوصول شرح لب الأصول صـ222 ط.دار الضياء) هذا بالإضافة إلى أن دعوى النسخ هي الأخرى ثبتت بطريق الآحاد، فيكون في منسوخ التلاوة دعويان ؛دعوى ثبوت نزوله قرآنا، ثم دعوى نسخه بعد ثبوته وكلاهما ليس فيهما طريق متواتر.

(1) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (5/ 132) وفي إسناده عاصم بن بهدلة، قال الحافظ في التقريب (1/ 384) صدوقٌ له أوهام. وقد رُويَ من طرق عن أبي بغير هذا السِّياق، فجعل قصة عرض القرآن لوحدِها، ونسب قوله (لو كان لابن آدم...) إلى النبي ﷺ.

فأخرج الطبراني في الكبير (539) قال: حدثنا أحمد بن خليدٍ الحلبي، حدثنا محمد بن عيسى الطباع، ثنا معاذ بن محمد بن أبي بن كعبٍ، عن أبيه، عن جده، عن أبي بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المنذر إني أمرت أن أعرض عليك القرآن» فقال: بالله آمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلمت قال: فرد النبي ﷺ القول: يا رسول الله، وذكرت هناك؟ قال: «نعم باسمك ونسبك في الملأ الأعلى» قال: فاقرأ إذًا يا رسول الله».

قال في المجمع (2/ 305): محمد بن أبي بن كعب عن أبيه مجهولان، كما قال ابن معين، وذكرهما ابن حبان في الثقات.

وقد ترجم الحافظ لمحمد بن معاذ في التقريب تمييزًا (2/ 28)، وقال: مجهول. أما ابنه معاذ فقال فيه الحافظ: مقبول.

ثم قال الطبراني (542) حدثنا محمد بن علي المروزي، ثنا حسين بن سعد بن علي بن الحسين بن واقدٍ، حدثني أبي، عن جدي، عن الحسين بن واقدٍ، عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن عباسٍ عن أبي بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان للإنسان واديان من المال لالتمس الثالثَ، ولا يملأُ بطن الإنسان إلا الترابُ، ثم يتوب الله عز وجل على مَن تاب».

والحسين بن واقد ثقةٌ له أوهام، وعطاء بن السائب صدوق اختلط، قاله الحافظ في التقريب (1/ 180، 2/ 22).

فيها: ولو أن لابن آدم واديًا من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثانيًا، لابتغى إليه ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة، ولا اليهودية، ولا النصرانية، ومن يفعل خيرًا فلن يكفره.

قال الشيخ الغماري: وهو في الصحيحين عن أنس، ليست فيه هذه الزيادة(1).

4- وروى الطبراني في الأوسط (4634) حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد قال: نا أبي قال: نا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: قرأ رجلان من الأنصار سورة، أقرأهما رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان بها، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ، فذكرا له، فقال رسول الله ﷺ: «إنها مما نسخ وأنسي، فالهوا عنها».

قال الشيخ الغماري: فيه راوٍ متروك(2).

5- ورُوي عن ذر قال: قال لي أبي بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ أو كأين تعدها؟ قال: قلت: ثلاثًا وسبعين آية، فقال: أقط؟ لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} (4961)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه (799)، وروایاتهما- كما قال الشيخ الغماري رحمه الله- ليس فيها قوله: «فقرأ فيها: ولو أن ابن آدم سأل واديًا...» إلخ.، ويقال في هذا الحديث أيضا ما قد مر من التفريق بين صحة إسناده، وقبول دعوى القرآنية والنسخ فيه، فضلا عن أسلوبه المغاير لأسلوب القرآن -كما لا يخفى -فهو أشبه بالحديث الشريف لا بنظم القرآن.

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (12/ 288) من طريق عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد ثنا أبي ثنا العباس بن الفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه به.

والعباس بن الفضل بن عمرو بن عبيد بن حنظلة الواقفي. قال الحافظ في التقريب (1/ 398): متروك، واتهمه أبو زرعة.

فيها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم»(1).

قال ابنُ كثيرٍ: وهذا إسناد حسن، وهو يقتضِي أنه قد كان فيها قرآن، ثم نسخ لفظه وحكمُه أيضًا(2).

6- وروى أبو عبيد في فضائل القرآن (ح700) حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي ﷺ مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلا ما هو الآن(3).

قال الشيخ الغماري: عنعنه ابن لهيعة وهو مدلس.

7- وروى الحاكم من حديث حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «ما تقرءون ربعها، يعني براءة، وإنكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب» قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي(4).

---

(1) أخرجه عبد الله بن أحمد في الزوائد (5/132)، والنسائي في الكبرى (7150)، وابن حبان (4428) والحاكم (415/2).

(2) تفسير ابن كثير (1/ 462) طبعة الحلبي، وقد ضعف العلامة الطاهر بن عاشور هذه الرواية ثم قال: " فخبر أبي بن كعب خبر غريب لم يؤثر عن أحد من أصحاب رسول الله فنوقن بأنه دخله وهم من بعض رواته. وهو أيضا خبر آحاد لا ينتقض به إجماع الأمة على المقدار الموجود من هذه السورة متواترا".أ هـ ؛ انظر التحرير والتنوير (21 / 247) وسياتي جواب الشيخ الغماري على دعوى نسخ {والشيخ والشيخ فارجمهوهما البتة....}

(3) قال الشيخ الطاهر بن عاشور: " وأما الخبر عن عائشة فهو أضعف سندا وأقرب تأويلا فإن صح عنها – ولا إخاله– فقد تحدثت عن شيء نسخ من القرآن كان في سورة الأحزاب. وليس بعد إجماع أصحاب رسول الله ﷺ على مصحف عثمان مطلب لطالب، ولم يكن تعويلهم في مقدار القرآن وسوره إلا على حفظ الحفاظ" انظر: التحرير والتنوير (2 / 246)

(4) أخرجه الحاكم في مستدركه (2/ 330- 331) من طريق علي بن حمشاذ العدل ثنا محمد بن المغيرة =

8- وقال أبو عُبيد في فضائل القرآن (ح706): عن أبي واقد الليثي، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحي إليه أتيناه، فعلمنا مما أوحي إليه، قال: فجئته ذات يوم، فقال: " إن الله يقول: (إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون له الثاني، ولو كان له الثاني لأحب أن يكون له الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» قال الشيخ الغماري: في سنده راوٍ مختلف فيه(1).

=

اليشكري ثنا القاسم بن الحكم العرني ثنا سفيان بن سعيدٍ عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به، وكذا قالَا- الحاكم والذهبي رحمهما الله- لكن فيه عبد الله بن سلمة، وهو المراديُّ الكوفي، من الطَّبَقةِ الأولى من فقهاء الكوفةِ بعد الصَّحابة، لكن لا يحتمل تفردُه في الحديث؛ فقد قال تلميذه عمرو بن مرة: كان عبد الله بن سلمة يحدثنا فنعرف وننكر، كان قد كبر.

وقال البخاري: لا يتابع في حديثه. انظر ترجمته في تهذيب الكمال (2/ 690).

وقال الحافظ في التقريب (1/ 420): «صدوقٌ تغير حفظُه».

فحديث عبد الله بن سلمة لا يقبل إلا إذا توبع، ولا يحتمل تفرده بالحديث، فإذا توبع قبل، وعد في الثقات، وعلى هذا يحمل كلام من قوى أمره، كالعجلي، ويعقوب شيبة، وابن عدي.

وعلى هذا فلا يرقم على هذا الإسناد بالصِّحَّةِ إلا إذا تُوبعَ عليه، هذا بفرض سلامة بقية رجاله، وليس كذلك: فالقاسم بن الحكم العرني: قال الذهبي في الميزان (3/ 370): وثَّقه غير واحد، وقال أبو زرعة: صدوق. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال الحافظ في التقريب (2/ 116): صدوق فيه لين.

والرَّاوي عنه محمد بن المغيرة السكري: قال الذهبي (4/ 46): «عن الحكم بن القاسم، وعبيد الله بن موسى والطَّبقة، والطبقة، قال السُّليماني: فيه نظر».

فالحكمُ عليه بالصحة منتفٍ، معدودٌ في أوهام الحاكم والذهبي رحمهما الله تعالى، والله أعلمُ.

(1) فيه عبد الله بن صالح: قال الحافظُ في التقريبِ (1/ 423): صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه، وكان فيه غفلة، وفيه أيضًا: هشام بن سعد، وهو أبو عباد المدني، يتيم زيد بن أسلم. قال الحافظ في التقريب (2/ 31/): صدوقٌ له أوهام.

- وليس في هذا الحديث أيضا ما يدل على ثبوت القرآنية؛ لأن الحديث القدسي ينسب إلى الله بهذه الصورة ؛ فيقال في أوله:" قال الله تعالى" فغاية ما يثبته هذا الحديث –على فرض صحته- كونه حديثا قدسيا.

9- وقال أبو عبيد في فضائل القرآن (ح707): عن أبي موسى الأشعري، قال: " نزلت سورةٌ نحو براءة، ثم رفعت، وحفظ منها (إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)(1).

10- وروى ابنُ أبي حاتم عن أبي موسى أيضًا قال: كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةً شبهها بِإِحْدَى المَسَبِّحَاتِ، نسيناها، غير أني حَفِظْتُ مِنْهَا: (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة)(2).

11- وقال أبو عبيد في فضائل القرآن (ح712): حدَّثنا حجاج عن شعبة عن الحكم بن عتيبة عن عدي بن عدي قال: قال عمر: كنا نقرأ: (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم) ثم قال لزيد بن ثابت: أكذلك؟ قال: نعم.

قال الشيخ الغماري: فيه انقطاع(3).

12- وقال أبو عُبيد في فضائل القرآن (ح713): حدثنا ابن أبي مريم عن نافع بن عمر الجمحي حدَّثني ابن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أنزل علينا (أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة)، فإنا لا نجدها؟ قال أسقطت فيما أسقط من

---

(1) ورواه ابن الجوزي في نواسخ القرآن (ص112) من طريق أبي بكر بن أبي داود عن محمد بن عبد الملك الدقيقي عن عوان بن حماد به.

وعلي بن زيد بن جدعان، قال فيه الحافظ في التقريب (2/ 37): ضعيف، وبقية رجاله ثقات.

(2) ورواه ابن الجوزي في نواسخ القرآن (ص112) من طريق أبي بكر بن أبي داود عن محمد بن عبد الملك الدقيقي عن عوان بن حماد به.

وعلي بن زيد بن جدعان، قال فيه الحافظ في التقريب (2/ 37): ضعيف، وبقية رجاله ثقات.

(3) عدي بن عدي لم يلق عمر ولا زيدًا رضي الله عنهما، راجع ترجمته في تهذيب الكمال (2/ 924- ط دار المأمون) والراوي عن عدي – وهو الحكم بن عتيبة – قال الحافظ في التقريب (1/ 192): ثقة وربما دلس.

القرآن[1].

13- وقال أبو عبيد في فضائل القرآن (ح617): حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعةَ عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي سفيان الكُلاعي أن مسلمة بن مخلد الأنصاري قال لهم ذات يوم: أخبروني بآيتين من القرآن لم تُكتبا في المصحف، فلم يخبروه، وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك، فقال مسلمة: «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون، والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك ما تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون»[2].

14- وقال أبو عبيدة في فضائل القرآن (ح699): حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال: «لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله وما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل: قد أخذت منه ما ظهر»[3].

---

(1) رجالُه رجال الصحيح، ابن أبي مريم: هو سعيد بن الحكم بن أبي مريم، ثقة ثبت فقيه، من شُيوخ البخاريِّ، ونافع بن بن عمر الجُمحيُّ، أخرج له الجماعة، قال الحافظ في التقريب (2/ 296): ثقة ثبت، من كبار السَّابعة، وابن أبي مليكة: عبد الله بن بن عبيد الله ابن أبي مليكة قال الحافظُ في التقريب (1/ 431): ثقة فَقيه.

-وليست صحة الإسناد هنا في مثل هذا الحديث أو غيره -مما أتى قبله أو بعده - كافيةً للحكم على الحديث بالصحة كما هو مقرر في علوم الحديث قال الحافظ السخاوي في شرحه على ألفية العراقي: " لا تلازم بين الإسناد والمتن؛ إذ قد يصح السند أو يحسن، لاستجماع شروطه من الاتصال، والعدالة، والضبط دون المتن ; لشذوذ أو علة" انظر فتح المغيث في شرح ألفية الحديث للحافظ السخاوي (1 / 119ط.مكتبة السنة) وهو ما يستوجب من العالم النحرير مراجعة الحديث على وفق قواعد الشرع وقبول الحديث قبل اعتماده للاعتقاد أو العمل.

(2) فيه ابن لهيعة، وقد عنعنه، وشيخُه يزيد بن عمرو المعافري، قال أبو حاتم فيه: لا بأسَ.

(3) إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورجاله من مشاهير الرُّواة،:و إسماعيل بن إبراهيم هو ابن علية، وأيوب هو بن أبي تميمة السختيانيُّ، ونعيد هنا ما قلناه في التعليق على الحديث رقم (12) من أنه ليست =

15- وروى أبو عبيدة في فضائل القرآن (ح711) حدَّثنا حجاج، عن ابن جريج قال: أخبرني ابن أبي حميد عن حميدة بنت أبي يونس قالت: قرأَ عليَّ أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة: «إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا وعلى الذين يصلون الصفوف الأولى» قالت: قبل أن يغيِّرَ عثمان المصاحف. قال: قال ابن جريج: وأخبرني ابن أبي حميد، عن عبد الرحمن بن هرمز وغيره مثل ذلك في مصحف عائشة رضي الله عنها (1).

قال الشيخ الغماري رحمه الله تعالى: وحميدة وأبوها مجهولان(2).

=

صحة الإسناد هنا في مثل هذا الحديث أو غيره كافيةً للحكم على الحديث بالصحة؛ كما هو مقرر في علوم الحديث؛ فلفظ الحديث الذي ظاهره ذهابُ شيء من القرآن لا يمكن أن يقبل على ظاهره ؛ إذ الصحابة متفقون على عدم ضياع شيء من القرآن فهو محفوظ بحفظ الله له، وهو إجمال في موضع يحتاج إلى تفصيل وبيان، ومثل ذلك لا يمكن قبوله من رواية الآحاد ؛لتعارضه مع إجماع المسلمين بحفظ كتاب الله، وأما حمله على منسوخ التلاوة ؛فقد قررنا من قبل عدم كفاية مثل هذه الأسانيد فيه فلا نعيده.

(1) وأخرجه ابن الجوزي في نواسخه (ص117) من طريق ابن أبي داود قال: حدَّثنا محمد بن معمر حدثنا أبو عاصم عن ابن أبي جريج حدثني ابن أبي حميد قال: أخبرتني حميدة قالتْ: أوصت لنا عائشة رضي الله عنها بمتاعِها فكان في مصحفها (إنَّ الله وملائكته يصلون على النبي والذين يصلونَ الصفوف الأولى).

(2) ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص14).

كذا قال رحمه الله، وأبو يونس ليس بالمجهول، بل هو أبو يونس مولى عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أخرج له البخاري في الأدب، ومسلم، وأصحاب السنن عدا ابن ماجه، قال الحافظ في التقريب: ثقة من الثالثة، وهو الذي كتب المصحف لعائشة، فأخرج مسلم وأصحاب السنن عدا ابن ماجه عن مالك عن زيد بن أسلم عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة رضي الله عنها قال: «أمرتني عائشة رضي الله عنها أن أكتب لها مصحفًا، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ قال: فلما بلغت آذنتها، فأملت علي: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر وقوموا لله قانتين، قالت عائشة

=

– ثم بدأ الشيخ الغماري رحمه الله تعالى بعد ذكر هذه الروايات المارة في التفصيل في أحد أشهر الروايات التي يستند لها القائلون بنسخ التلاوة وهي جملة (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فقال بعد ذلك[1]: ورد في سبب نسخ هذه الجملة من القرآن (يعني الشيخ والشيخة إذا زنيا...) أخبارٌ منكرةٌ:

16– ففي صحيح البخاري في كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، وذكر عن ابن عباس قال: قال عمر: لقد خشيتُ أن يطول بالنَّاس زمان حتى يقولَ قائل: لا نجد الرَّجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله، ألا وإنَّ الرجم حقٌّ على مَنْ زنى وقد أحصن[2].

قال الشيخ الغماري رحمه الله تعالى: ولم يروِ البخاري قول عمر: وقد قرأناها (الشيخ والشيخة إذا زَنَيَا...) قال الحافظ: ولعل البخاريَّ تركَها عمدًا،قال الشيخ الغماري رحمه الله

=

رضي الله عنها: سمعتُها من رسول الله ﷺ».

أما حميدة فنستصحب فيها ما قالَه الذَّهبيُّ في أول أسماء النساء من الميزان: ولا أعلم من اتهمت بكذبٍ، ولا من تركوها. وجعلها محقق نواسخ القرآن لابن الجوزيِّ من رواة التقريب، فقال (ص117، هامش4): قال الحافظ عنها إنَّها مقبولة من الخامسة. اهـ والتي من الخامسة في التقريب هي: حميدة بنت عبيدة بن رفاعة الأنصارية المدنية، وجعلها المرادة هنا وهْمٌ قطعًا، دفعه إليه طبقتها، واشتراكها مع ابن أبي حميد في كونها أنصارية مدنية، وساعده عدم وقوفه على طريق أبي عبيد، وقد نسبت فيه صراحة.

أما ابن حميد المذكور فيحتمل أن يكون هو: محمد بن أبي حميد الأنصاري الزرقي أبا إبراهيم المدني، الملقب بحماد، فإنه لا يبعد من حيث الطبقة، وهو من رجال الترمذي وابن ماجه، وقد ضعَّف حديثه الحفاظ، انظر ترجمته في التقريب (2/ 156).

ويحتمل أيضًا– كما أشار محقق فضائل القرآن لأبي عبيد– أن يكون: عبيد الله بن أبي حميد الهذليُّ، وهو من طبقة محمد بن حميد، وعبيد الله هذا متروك الحديث، روى له ابن ماجه (انظر ترجمته في التقريب1/ 532) والله أعلم.

(1) ذوق الحلاوة (ص 16).

(2) البخاري (6829).

تعالى: وقد أصاب.

17- قال: ومن الرِّوايات المنكرة ما رواه النسائيُّ: أن مَرْوان بن الحكم قال لزيد بن ثابتٍ: ألا تكتبها في المصحف؟قال: لا، ألا ترى الشابين الثيبين يُرجمان؟[1].

قال الشيخ الغماري رحمه الله تعالى: وهذه نكارة واضحة، كيف يترك زيدٌ آيةَ الرجم لأنها تخالف حكم الشَّابين المحصنين.

18- قال: رواية أخرى منكرة، روى الحاكم في المستدرك (4/ 360) عن محمد بن صالح بن هانئ، ثنا الحسين بن محمد بن زياد، ثنا محمد بن المثنى، ومحمد بن بشار، قالا: ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن قتادة، عن يونس بن جبير، عن كثير بن الصلت، قال: كان ابن العاص، وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف فمرا على هذه الآية، فقال زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فقال عمرو: " لما نزلت أتيت النبي ﷺ فقلت: أكتبها؟ فكأنه كره ذلك " فقال له عمرو: «ألا ترى أن الشيخ إذا زنى وقد أحصن جلد ورجم، وإذا لم يحصن جلد، وأن الثيب إذا زنى وقد أحصن رجم»[2].

(1) الحديث أخرجه النسائيُّ في الكبرى (7148).

(2) هكذا ذكرَه السيوطيُّ في الإتقان (2/ 34) ونقل عنه الشيخ الغماري في ذوق الحلاوة (ص17) والذي في المستدرك (4/ 360): «كان زيد بن ثابت وابن العاص يكتبان المصحف فمرَّا على هذه الآية، فقال زيد: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زَنيا فارجموهما البتةَ» فقال عمرو: «لما نزلت أتيت النبي ﷺ فقلت: أكتبها؟ فكأنه كره ذلك» فقال له عمرو: «ألا ترى أن الشيخ إذا زنى وقد أحصن جُلد ورجم، وإذا لم يحصن جُلد، وأن الثيِّب إذا زنى وقد أحصن رجم» فجعل القصة بين زيد بن ثابت وعمرو بن العاص.

والحديثُ أخرجَه أيضًا أحمدُ (5/ 183) ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبةُ عن قتادةَ عن يونس بن جبير عن كثير بن الصَّلت قال: كان ابنُ العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحفَ فمرَّا على هذه الآية، فقال زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشَّيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فقال عمر: «لما نزلت أتيت النبي =

=
ﷺ فقلت: أكتبها؟ فكأنه كره ذلك» فقال له عمر: «ألا ترى أن الشيخ إذا زنى وقد أحصن جُلد ورُجم، وإذا لم يحصن جلد، وأن الثيب إذا زنى وقد أحصن رجم». وأخرجه البيهقي من طريق (8/ 211).

وأخرجه النسائي في الكبرَى (7145) أخبرنا محمد بن المثنى قال: ثنا محمد (هو ابن جعفر غندر) قال: ثنا شعبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن كثير بن الصلت قال: قال زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» قال عمر: لما أنزلت أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أكتبنيها قال شعبة كأنه كره ذلك فقال عمرُ: ألا ترى أن الشَّيخَ إذا لم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم».

والطُّرق السابقة من حيث السند صحيحة: كثير بن الصلت، ويونس بن جبير ثقتان «راجع التقريب 2/ 132، 384) ومن دونهما لا يحتاجونَ لشهرتهم للكشف عنهم.

والذي وقع في المطبوعِ من المستدرك تصحيف من الناسخ أو المصحح، ساعده عليه أنَّه قال: ابن العاص، فأوهم أنَّ المراد به عمرًا، والصواب «عمر» كما في الإتقان وغيره من مصادر الحديث السابقة؛ وذلك لأمور:

أولها: أن كثير بن الصلت معروف بالرِّواية عن زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وهو من كبار التابعين ولد في عهد النبي ﷺ.

وروى أيضًا عن أبي بكر وعمر وعثمان، انظر ترجمته، في تهذيب الكمال (3/ 1143).

ثانيها: أن المزي في تهذيب الكمال «في الموضع السابق» ساق الحديث بإسناده من طريق القطيعي راوي المسند عن عبد الله بن أحمد عن الإمام أحمد فذكر الحديث بإسناده، باللفظ الذي ذكره السيوطي في الإتقان، وفيه كما علمت تسمية سعيد بن العاص باسمه صريحًا، وليس نسبته لأبيه كما في المطبوع من المسندِ.

ثالثها: أنَّ الذي كان يكتب مع زيد المصحف- كما في صحيح البخاري (كتاب65 فضائل القرآن، باب 3 جمع القرآن) هو سعيد بن العاص، وثالثهما عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ورابعهم هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهو من كبار ثقات التابعينَ، وله رؤية كما في التقريب (1/ 476) فهذا يؤيد ما في الإتقانِ.

رابعها: أن زيدَ بن ثابت، وعمر بن الخطاب وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص معدودونَ جميعًا من كتبةِ الوحي، ولهذا فجائزٌ أن يكون الذي سأل النبي ﷺ عمرَ أو عمرًا، إلا أن الجراءة على السؤال أقرب لعمر منها لعمرو رضي الله عن الجميعِ. كما أن عمرو بن العاص- وإن كان معدودًا من كُتاب النبي ﷺ- إلا
=

قال ابن حجر في شرح المنهاج(1): فيستفاد من هذا الحديث السبب في نسخ تلاوتها؛ لكون العمل على غير الظاهر من عمومها.

وتعقبه الشيخ الغماري فقال: فيه نكارتان:

إحداهما: كراهة النبي ﷺ لكتابة آية الرجم وكيف يكره كتابة آية أنزلتْ عليه.

والأخرى قول عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جُلد...إلخ، كيف يعترض عمر على آية يعتقد أنها أنزلت من عند الله؟!

قال الشيخ الغماري: وقوله «فيستفاد من هذا الحديث السبب في نسخ تلاوتها؛ لكون العمل على غير الظاهر من عمومها» سهو منه، ففي القرآن عمومات كثيرة لم يُنسخ لفظها مع أن عمومها غير مراد، ولكن بُيِّن المراد منها بمخصصات في القرآن أو في الحديث.

قال الشيخ الغماريُّ: ولم يكن الله ليحذف آيةً من القرآن بسبب اعتراضِ بعض المكلَّفينَ

=

أنه بعد وفاته ﷺ كان من قادة الفتوحِ وأمراء الأقاليم، وخاصة في عهد عثمان الذي كتبت بأمره المصاحف، والذي يبدو من ظاهر الحديث أنَّ الواقعة كانت في عهده، وذلك لقول الراوي: «يكتبان المصحف».

وفي الرِّواية الأخرى: «يكتبان المصاحف». وإنَّما كان ذلك في عهد عثمان كما هو مشهور، ولهذا فمع اشتغال عمرو بن العاص بالجهاد والإمارة يبعد اشتراكه في كتابة المصاحف، والذي لا شك استغرق مدة طويلة يبعد أن تتاح لعمرو في مثل ظروفه (يراجع عن كُتاب النبي ﷺ: جوامع السيرة النبوية لابن حزم (ص22)، والمختصر الندي في سيرة النبي ﷺ لابن جماعة (ص57)، والأنوار المحمدية من المواهب اللدنية للنبهاني (ص165).

(1) وقع في كلام الشيخ الغماريِّ رحمه الله في ذوق الحلاوة: قال الحافظ ابن حجر: لكن الذي في الإتقان (2/ 34) وعنه ينقل الشيخ الغماري كما أخبر بنفسه: «قال ابن حجر في شرح المنهاج»، وشارح المنهاج: هو ابن حجر الهيثمي، وسمى شرحه: تحفة المحتاج، وهو من مشهورات كتب المذهب عامة، وشروح المنهاج خاصة.

عليها.

قال فهذه النَّكارات تؤيد أن آية الرجم لم تكن من القرآن قط، وسمَّيناها آية تجوُّزًا، وإلا فهي حديث على أكثر تقديرٍ(1).

19- وقال الشيخ الغماري: روى عبد الرزاق في المصنف قول عمر في آية الرجم كما رواه غيره وزاد عقبه: وقال الثوري: بلغنا أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقرءون القرآن أصيبوا يوم مسيلمة، فذهبت حروف من القرآن.

قال الشيخ الغماري: وهذا منكر جدًّا، ولابد أن الذي بلَّغه لسفيان الثوري شيطان تمثَّل في صورة إنسان، أو يهودي ادَّعى الإسلام، وإني لأعجب من سفيان الثوري: كيف راج عليه هذا الكذب المفضوح، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9](2) والله أعلم؟!

فبان من ذلك أن ما استند له المثبتون لنسخ التلاوة لا يسلم إما من ناحية الرواية والسند، أو من ناحية الدراية والمتن؛ إذ في بعض هذه الروايات -التي ربما صح بعضها إسنادا- ما يطعن في صحته من جهة نكارته وإشكاله.

2- نسخ الحُكم دون التلاوة:

للعلماء في نسخ الحُكم دون التلاوة مذهبان:

المذهب الأول جمهور الأصوليين: ذهبوا إلى جواز نسخ الحُكم دون التِّلاوة.

المذهب الثاني ماعدا الجمهور: يرون أنه لا يجوز عقلًا، وبالتالي لم يقع.

الأدلة:

استدل الجمهور على جواز نسخ الحُكم دون التلاوة بالعقل والنقل:

---

(1) ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص17- 18).

(2) ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص19).

أولًا: الدليل العقلي:

أن نسخ الحُكم دون التلاوة لا يترتب على فرض وقوعه محالٌ عقلًا، وكل ما كان كذلك كان جائزًا، فنسخ الحُكم دون التلاوة جائز.

واعترض الخصم على هذا فقالوا: إن ما ذكروه مُعَارض، فإن نسخ الحكم دون التلاوة يترتب على فرض جوازه محال، وما كان كذلك لا يجوز عقلًا، وبيان ذلك أن يقال: إن بقاءَ التلاوة يوهم بقاء الحكمِ، ونسخ الحكم يوقع المكلف في الجهل، وهو قبيح، فلا يجوز على الله تعالى، فنسخ الحكم دون التِّلاوة يترتب عليه محال، وهو وقوع المكلف في الجهل، وكل ما يوقع المكلف في الجهل محال على الله فعله، فنسخ الحكم دون نسخ التلاوة محال عقلًا.

ويُرَدُّ هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن ما ذكرتموه مبني على فاسد، وهو التَّحسين والتقبيح العقليين، وقد أثبتَ الجمهور بطلان ذلك.

الوجه الثاني: سلَّمنا لكم أن مبنى الأحكام التَّحسين والتقبيح العقليين، ولكن نقول لكم: لا يلزم من نسخ الحكم دون التلاوة وقوع المكلف في الجهل؛ لأنَّه إنما يكون ذلك إذا لم ينصب الشارع دليلًا على أن الحكم منسوخٌ، أما وقد نصب الشارع دليلًا على نسخ الحكم دون التِّلاوةِ، وهو الناسخ، وهذا الدليلُ الناسخ يعرفه المجتهدُ بنظره في نصوص الشريعة، ويعرفه المقلدُ بالرُّجوعِ إلى المجتهد(1).

ثانيا الدليل النقلي:

استدل الجمهور بأدلة نقليةٍ تُثبت وقوع النسخ للحكم دون التِّلاوة:

1- نسخ حكم آية الاعتداد بالحول الثابت في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: 240]. بأنَّه مثبت في

---

(1) انظر: مختصر ابن الحاجب مع شرح العضد (2/ 194)، والإحكام للآمدي (3/ 203، 204)

المصحف، متلو في الصلاة وقد نسخ حكمه بأربعة أشهر وعشرًا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234].

2- وكذلك نسخ حكم الوصية للوالدين الثابت في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]. ثم نسخ هذا، الحكم فقيل ناسخه: آية المواريث، والحديث القائل: «إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه فلا وصيَّةَ لوارِثٍ»[1]، وبقيت التلاوة للآيةِ.

3- وكذلك نسخ وجوب تقديم الصَّدقة بين يدي مناجاة النبي ﷺ، الثابت في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: 12]. فنسخ الحكم وبقيتِ التلاوةُ[2].

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث (2870)، والترمذي في كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث (2120)، وابن ماجه في كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث (2713)، والطيالسي في مسنده (1223)، وأحمد في مسنده (5/ 267) من طريق إسماعيل بن عيَّاش قال: حدثنا شُرَحْبيل بن مسلم الخَوْلاني، عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به مرفوعًا.

وقال الترمذي: «حديث حسن». وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (2/ 142): «قال الترمذي: حسن. قلت: فيه إسماعيل بن عياش وهو مختلف في الاحتجاج به، وقال أحمد والبخاري وغيرُهما: ما رواه عن أهل الشام صحيح. قلت: وهو قد رواه عن شُرَحْبيل بن مسلم وهو حِمصي من أهل الشام ثقة».

(2) أخرج الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المجادلة (3300)، وابن أبي شيبة في مصنفه (32789)، وابن حبان في صحيحه من طريق يحيى بن آدم قال: حدثنا عبيد الله الأشجعي عن سفيان الثوري عن عثمان بن المغيرة الثقفي عن سالم بن أبي الجعد عن علي بن علقمة الأنماري عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما نزلت قال النبي ﷺ لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما ترى دينار؟» قلتُ: لا يطيقونه، قال: «فنصفُ دينارٍ؟»، قلتُ: لا يطيقونه. قال: «فكم؟» قلتُ: شعيرة. قال النبي ﷺ: «إنكَ لزهيدٌ» قال عليٌّ: حتى خفف الله تعالى عن تلك الأمة بترك الصدقة. وقال الترمذي: «حسن غريب». وانظر: تحفة الأحوذي (12/ 186).

والفائدة في بقاء التلاوة دون الحكم: ما يحصُلُ من العلم بأنَّ الله تعالى أنزل مثل هذا الحكم، ثم نسخَه رحمةً منه بعباده، وبقيت التلاوة للتعبد بها، وللنظر لما فيها من إعجاز. ومنسوخ الحكم هذا قرآن لا يجوز للمحدث مسه باتفاق(1)

أدلة المانعين:

استدلَّ المانعون من المعتزلة على نسخ الحكم دون التلاوة:

بأن التلاوة دليل على الحكم، فكيف يرفع المدلول مع بقاء الدليل؛ إذ الفائدة بيان الأحكام التي دلت عليها الألفاظ، فإن انتفت تلك الفائدةُ زالت فائدة اللفظ.

واستدلوا أيضًا: بأن الحكم إذا نُسخ وبقيت التلاوة، كانت موهمة ببقاء الحكم، وذلك مما يعرض المكلف إلى اعتقاد الجهل، والحكيم يقبح منه ذلك.

وأيضًا إن بقيت التلاوة دون الحكم تبقى بعيدة عن الفائدة، ويمتنع خلو القرآن عن الفائدة.

وقد رُدَّ هذا بأن نصب الدليل من الله تعالى يكفي في الحكم المنسوخ عند المجتهد، أما المقلِّد ففرضه تقليد المجتهد العارف بدليل النسخ.

أما كون بقاء التلاوة عاريًا عن الفائدة، فهذا مبنيٌّ على رعاية المصلحة، ولا مانع أن يكونَ الله تعالى قد علم في ذلك مصلحة استأثر بها، ونحن لا نشعر بذلكَ(2).

(1) وسيأتي الجواب عن دعوى نسخ هذه الآيات وغيرها بعد الانتهاء من أقسام النسخ في القرآن الكريم

(2) انظر: الإحكام للآمدي (3/ 203)، شرح العضد على ابن الحاجب (2/ 194)، لكن يمكن أن يقال في الجواب إن ذلك كله في الجواز العقلي لا يثبت حصول نسخ الحكم دون التلاوة وإن سوغه عقلا؛ خاصة وأن دعوى نسخ الحكم مع بقاء التلاوة فيما يخص آية معينة يفترض أنها صارت لا يعمل بها وهي دعوى خطيرة في كتاب الشأن فيه أنه نزل من أجل الهداية لا من أجل مجرد القراءة، وهناك أجوبة أخرى تأتي بعد ذلك.

3- نسخ الحكم والتِّلاوة:

ونسخ الحكم والتلاوة إنَّما يكون بأن ينسيهم الله إياه، ويرفعه من أذهانهم، ويأمرهم بالإعراض عن تلاوتِه، وكَتْبه في المصحف، فيندرس كسائر كتب الله القديمة، ويقع هذا في زمن النبي ﷺ، وغير جائز نسخ شيء من القرآن أو السُّنة بعد وفاتِه ﷺ.

وقد نقل بعضهم الاتفاق على جواز نسخ الحكم والتِّلاوة معًا[1]، ودليلُ ذلك ما رَوَى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان فيما أَنزلَ الله تعالى عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، فنسخ بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يقرأ في القرآن»[2].

فحكمُ هذا الحديث وتلاوتُه منسوخان عند الجمهور، فلم يَبق لهذا اللفظ حكم، لا في الاستدلال، ولا في غيره.

وقد تكلَّموا في قولِ عائشة رضي الله عنها: «وهنَّ فيما يقرأ في القرآن». فإن ظاهره بقاء التِّلاوة بعد وفاة الرسول ﷺ، وليسَ كذلك.

والجواب: بأنَّ المراد قارب الوفاة، أو أن التلاوة نُسخت أيضًا، ولم يبلغ ذلك كلَّ الناس إلا بعد وفاة الرسول ﷺ.

وكل ذلك ما زال عليه إشكالات، ذكرنا بعضها من قبل وهو ما نفصله مع بيان رؤيتنا في مسألة النسخ في القرآن الكريم.

***

(1) انظر: المستصفى (1/ 123)، المحصول للرازي (1/ 3/ 482)، شرح العضد على ابن الحاجب (2/ 194)، أصول السرخسي (2/ 78)، كشف الأسرار (3/ 188)، فواتح الرحموت (2/ 73)، إرشاد الفحول (ص189)، شرح تنقيح الفصول (ص 309).وقد مر أن دعوى الاتفاق هنا غير مسلمة ؛ إلا أن يقال أنه مذهب الجمهور، ومر أيضا الكلام عن حديث السيدة عائشة في الرضاع في قسم نسخ التلاوة الحديث الأول فراجعه.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات (1452).

مطلب
رؤيتنا في قضية النسخ
في القرآن الكريم وحيثيات هذه الرؤية

عرضنا فيما سبق لكلام الأصوليين من كتبهم، ونرى أنَّ الذي دفع الجمهور إلى القول بنسخ التلاوة، أو نسخ الحكم في القرآن إنما هي الأخبار الواردة في هذا المعنى، وبعضها بأسانيدَ صحيحة، ورَدَّ بعضُ المعتزلة هذا الأمر عقلًا، حيث رأوا فيه بابًا خطيرًا للقول بتحريف الكتاب، وهو ما تدَّعِيه الشيعة، حيث يُقرُّ كثير منهم بأن الكتاب قد حُرِّفَ.

فألف الطبرسي كتابَه: فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، ولما اعترض عليه حتى من قِبَل بعض الشيعة، أجاب عنه شرف الدين العاملي في كتابه: «أجوبة مسائل جار الله»: بأن ذلك من قبيل النسخ الذي يقول به الجمهور[1].

والقول بنسخ التلاوة، بل والحكم في القرآن يفتح باب شرٍّ كبير من جهتين:

الأولى: القول بتحريف القرآن فيصبح ذلك حجة بيد المبشِّرين للقول بتساوي القرآن مع المحرَّف من التوراة والإنجيل، وهو مدخل تبشيري قديم أشار إليه ابنُ حزم في كتابه الفصل أثناء مجادلته للنَّصارى، حيث ادعوا أن القرآن محرف آيضًا بناء على كلام الشيعة من المسلمين

(1) ذكر بعض علماء الشيعة رجوع الطبرسي وندمه على هذا الكتاب وادعائه أنه ما قصد من هذا العنوان القبيح التغيير والتبديل، بل أراد الإسقاط والإنقاص من الوحي! انظر الذريعة إلى تصانيف الشيعة [16 / 231 - 232 ط.دار الأضواء بيروت] لآغا بزرك الطهراني - وهو تلميذ النوري - ؛ وهو كلام مردود ابتداء وانتهاء، فالله تكفل بحفظ الكتاب،ولا يصح بعد ذلك تغيير ولا تبديل ولا إنقاص ولا كتمان ؛ لأن ذلك على خلاف مقصد رب العالمين من ظهور الدين وكمال الدين وإقامة البرهان على صدق النبوة، ولا تحقق الحجة على العالمين إلا بذلك،ولذلك فكثير من علماء الشيعة رفضوا هذا الكتاب.

فرد عليهم بقوله: «ومَنْ قال لكم إن الشيعة مسلمونَ»(1).

الثانية: القدح في إطلاقية القرآن، وأعني بها أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، ويخاطب جميع البشر في كل الأحوال إلى يوم القيامة، وهو معجزة الرسالة الخاتمة(2)، وعليه فلابد أن تدل آياته كلها على أحكام شرعية، تتناسب مع الأحوال المختلفة، حتى يحقق الشمول والمرونة التي تستلزمها خاتميَّة الرسالة المحمديَّة، كما سنوضحه بعد قليل.

فأرى أوَّلًا: امتناع نسخ التلاوة كما ذهب إليه العلامة الغماري في كتابه: «ذوق الحلاوة في امتناع نسخ التلاوة». ونقل عن القاضي الباقلَّاني أن بعضهم قد منعَه، ولم يحدد لنا هذا البعض، وملخص ما ذهبَ إليه:

1- أن نسخ التِّلاوة يستلزم البداء، وهو ظهور المصلحة في حذف الآية بعد خفائها، وهو في حق الله محال باتفاق، وأما ما أبداه الأصوليون من حكمة في جوازه بنسخ حرمة مسه، ونحو ذلك فتمحل وتكلف، لا يتناسب مع دفع المحال.

2- أن تغيير اللفظ بغيره، أو حذفه بجملته إنما يناسب البشر، لنقصان علمهم وعدم إحاطتهم، ولا يليق بالله الذي يعلم السر وأخفى.

3- أن ما ادعِيَ أنه كان قرآنًا ونسخ لفظه لا نجدُ فيه أسلوب القرآن ولا طلاوته، ولا جرس لفظه، ويضرب مثلًا لذلك فيما وَرَدَ يخالف أسلوبَ القرآن، فقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ

(1) انظر الفصل في الملل والنحل (2/ 65 ط.الخانجي) وعبارة ابن حزم هذه لا تقبل على ظاهرها فإن أهل السنة والجماعة لا يكفرون الشيعة إلا إذ صدر عنهم وثبت إنكارهم لمعلوم من الدين بالضرورة، وهو كلام مقول حال المناظرة وليس تقريرا لمعتقد؛ فلا يقبل على كل حال

(2) ويدخل في هذا أيضا من ينتسبون لمذاهب ما بعد الحداثة الذي يقولون بتاريخية النص واقتصاره على زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو كلام باطل مخالف لإجماع المسلمين، وكثير منهم يحاول الاحتجاج بروايات النسخ هذه على ما يريده من الباطل انظر كتاب النسخ في الوحي (محاولة فهم): سيد القمني

وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [سورة النور: 2]، قال العلماء: قُدِّمت الزانية في الذكر للإشارة إلى أن الزِّنا منها أشد قبحًا، ولأنَّ الزنا في النساء كان فاشيًا عند العرب، لكن إذا قرأت: «الشَّيخ والشيخة». وجدت الزَّاني كان مقدمًا في الذكر على خلافِ الآية، وهذا يقتضي أن تقديمَ أحدِهما كان مصادفةً لا لحكمة، وهذا لا يجوزُ؛ لأن من المعلوم أن ألفاظَ القرآن موضوعةٌ وضعا حكيمًا، بحيث لو قدِّم لفظ عن موضعه، أو أُخِّر اختل نظام الآية، فهذه أخبار منكرة تُرد من جهة الدراية ابتداء، ومن جهة الرِّواية أيضًا؛ كما سيأتي.

4- أنَّ تلك الجمل التي كانتْ من القرآن فيما قيل جاءتْ متقطعة، لا رابطَ يربطها بآيات القرآن الكريمُ، ولم يقولوا لنا: أين كان موضعها في المصحفِ الشريفِ.

5- إذا قرأتَ خواتيم سورة البقرة، وخواتيم سورة آل عمران، وما فيها من دعاء وتوجه إلى الله بأسلوب في نهاية البلاغة، ووازنته بما قيل: إنها سورة الحفد، وجدت الفرق بينهما بعيدًا جدًّا، هو الفرق بين كلام الله، وكلام البشر؛ لأن قنوت الحفد من إنشاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

6- تقرر في علم الأصول أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وما لم يتواتر لا يكون قرآنا، والكلمات التي قيل بقرآنيتها ليست بمتواترة، فهي شاذة، والشاذُّ ليس بقرآن، ولا تجوز تلاوتُه،وكل ما ورد عن الصحابة منسوبا للقرآن سواء قالوا ببقائه أو نسخه فهو آحاد أوشاذ؛ إذ اتفاق الصحابةعلى أن ما بين دفتي المصحف كلام الله هو الباقي إلى يوم الدين يدفع ادعاء وجود آيات غيره.

7- أن السنة النبوية وقع فيها نسخ المعنى- أي الحُكم- ولم يثبت عن النبيِّ ﷺ أنه رجعَ عن لفظٍ من ألفاظ حديثه، أو بَدَّله بغيره، أو قال للصَّحابة عن حديث: لا تحفظوه فقد نسخت لفظه، أو رجعت عنه فلا تبلغوه عني، لم يثبت هذا عنه أصلًا، بل صح من طرق بلغت عنه حد الاستفاضة والشهرة أنه قال: «نَضَّرَ الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، فأدَّاها كما

سَمِعَها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غير فقيه، ورُبَّ حامل فقهٍ إلى مَن هو أفقه منه»[1]. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يجوز أن ينسب إلى الله تعالى رجوعه عن لفظ آية أو نسخ تلاوة[2].

8- أنَّ ألفاظَ القرآن وآياته بالنسبة للمكلفين سواء، تلاوة حرف منها بعشر حسناتٍ كما في الحديث، ولكن الأحكام تتفاوت فالحكم السهل خير للمكلف من الحكم الصعب، والحكم الكثير الثواب خير للمكلف من الحكم القليل الثواب.

9- أنه يلزمُ القائلينَ بنسخِ التلاوة إشكال خطيرٌ، وبيانه: أن الحكم الشرعي خطاب الله المتعلق بفعل المكلف، وخطاب الله كلامه، وهو قديم، وإنَّما توجه إلى المكلفين بعد وجودهم، ومعنى نسخه: أنَّ الله أسقط عنهم العمل به، مع أنَّه لا يزال كلام الله، ومعنى نسخ التِّلاوة عند القائلين به: أن الله أسقط الآية المنسوخة من القرآن، وهذا كلام خطيرٌ جدًّا؛ لأن كلام الله قديم، وكيف يعقل أن يغير الله كلامه القديم بحذف آيات منه، وما القول في هذه الآيات المنسوخة: هل يقال: كانت من كلام الله، والآن ليست منه؟! وكيف يجوز هذا والله تعالى يقول ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ [يونس:64].

قال رحمه الله تعالى: إشكال لا سبيل إلى حله، قال لو فطنوا إليه لعدلوا عن قوله[3].

10- وبناء على ما تقدم يرى الإمام الغماري استحالة نسخ التلاوة عقلًا، ووجوب تأويل قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَالله أَعْلَمُ بِمَا

(1) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في مقدمة سننه، باب من بلغ علما (236)، وأحمد في مسنده (3/ 225) من طريق معان بن رفاعة قال: حدثني عبد الوهاب بن بخت المكي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به مرفوعًا.
وله شاهد من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب (2657)، وابن ماجه في الكتاب والباب السابقين (232)، والحميدي في مسنده (88) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، يحدث عن أبيه بنحوه مرفوعًا. وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(2) ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص 19- 20).

(3) ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص20- 21).

﴿يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: 101].

11- بناءً على ما قرَّره الشيخ الغماري من استحالة نسخ التلاوة، وبناء على ما تقرر في علم الأصول من أن ظواهرَ النصوص تؤولُ لتوافق الدليل العقلي؛ لأن الظواهر تقبل التأويل، وتأويلها لا يلزمُ عنه خلل في مدلولها، إذا كان جاريًا على نهج اللغة وقواعدِها، بخلاف ما دل عليه العقل، واقتضاه ضرورة أو نظرًا، فإنه لا يدخله احتمال؛ ولذلك لا يقبل تأويلًا، ولا تخصيصًا[1].

12- وفي ضوء ما سبق قرر: أن معنى آية سورة البقرة ﴿مَا نَنْسَخْ مِن آيَةٍ﴾ فنبدله بغيره ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أو نتركها فلا نغير حكمها، وكذلك قراءة ﴿ننسأها﴾ معناها: نؤخرها فلا نغير حكمها، والمؤخر متروك ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ للمكلف إن كان خفيفا فخيريته بسهولته، وإن كان شديدًا فخيريته بكثرة ثوابه، فالنسخ والترك لحكم الآية[2]، وأُسْند في الظاهر إلى الآية، لأنها أصله وهو مدلولها، وهذا نوع من الإيجاز المعروف في القرآن ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: أهلها. قال: وهذا الذي قررناه هو المتعين لا يجوز غيره[3].

13- ثم ذكر بعض الآثار عن ابن عباس ومجاهد وأصحاب ابن مسعود والسدي تؤيد هذا المعنى.

فروى أبو داود في الناسخ وابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما عن مجاهد عن أصحاب ابن مسعود في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ نثبت خطها، ونبدل حكمها ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ أو نتركها لا نبدلها[4].

14- ثم ذكر أن ما رُويَ عن بعض الصحابة والتابعين من حمل النسخ في الآية على نسخ

(1) ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص23).

(2) هذا نص كلام الشيخ الغماري ؛ وسيأتي أن اختيارنا عدم وقوع نسخ الكم في القرآن أيضا

(3) ذوق الحلاوة ببيان امتناع نسخ التلاوة (ص23).

(4) أخرجه مجاهد في تفسيره (ص211)، والطبري في تفسيره (2/ 390)، وابن أبي حاتم في تفسيره (1/ 199).

اللفظ والتلاوة مردود من وجوه:

أحدها: استحالة ذلك كما تقدم.

الثاني: يرده بقية الآية، فإن قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يعين إرادة الحكم؛ لأن ألفاظ القرآن وآياته بالنسبة للمكلفين سواء، تلاوة حرف منها بعشر حسنات كما في الحديث، ولكن الأحكام تتفاوت، فالحكم السهل خير للمكلف من الحكم الصعب، والحكم الكثير الثواب خير من الحكم القليل الثواب.

والوجه الثالث: مما يساعد على هذا التفسير معرفة سبب نزولها، وذلك أن اليهود سخروا من المسلمين حين حولهم الله من بيت المقدس إلى الكعبة، فقالوا: إن محمدًا يأمر أصحابه بشيء، ثم يناهم عنه فنزلت الآية ردًّا عليهم، فكان اعتراضهم على تبديل حكم بحكم(1)، ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، ويرجح أحد محتملاتها على غيره.

15- وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101]. هذه الآية مكية نزلت للرد على المشركين.

قال البغوي في تفسيره: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ يعني: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكما لآخر ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أعلم بما هو أصلح لخلْقِه فيما يبدل ويغير من أحكامه ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ مختلق، وذلك أن المشركين قالوا: إن محمدًا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غدًا، ما هو إلا مفتر، يتقوله من تلقاء نفسه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن، وبيان الناسخ والمنسوخ(2).

فالآية نزلت مع سابقتِها في الرد على من أنكر نسخ الأحكام، فعقب هذه الآية بجملة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأن المنكرون أميون، ولم يعقب آية البقرة بمثلها؛ لأن المنكرين

(1) فليس في تشريع القبلة الأولى قرآنا يتلى

(2) انظر تفسير البغوي (3/ 96) وهناك من ذهب لتفسير التبديل هنا أنه من باب النسخ بين الشرائع كما سيأتي عن الشيخ جمال الدين القاسمي.

هناك أهل كتاب، وهم أهل علم.

وأرى ثانيًا: أن أتجه إلى تعميم إشارة أوردها الزركشي في البرهان، وتابعه عليها السيوطي في الإتقان على جميع ما ادعى نسخ حكمه في القرآن، وهي: «قسم بعضهم النسخ من وجه آخر إلى ثلاثة أضرب؛ وذكروا من ذلك:

" ما أمر به لسببٍ، ثمَّ يزول السَّبب كالأمر حين الضَّعف والقلَّة بالصَّبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله، ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب ذلك.

وهذا ليس بنسخٍ في الحقيقة، وإنَّما هو نسيء كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِئهَا﴾ فالمُنْسَأ: هو الأمر بالقِتال إلى أن يَقْوى المسلمون، وفي حال الضَّعف يكون الحكم وجوب الصَّبر على الأذى.

وبهذا التَّحقيق تبيَّن ضعفُ ما لَهَج به كثيرٌ من المفسِّرين في الآيات الآمِرَة بالتَّخفيف أنَّها منسوخةٌ بآية السَّيف، وليستْ كذلك بل هي من المُنسَأ، بمعنى: أنَّ كلَّ أمرٍ ورد يجبُ امتثاله في وقتٍ مَا لعلَّة توجب ذلك الحكم، ثمَّ ينتقلُ بانتقال تلك العلَّة إلى حكمٍ آخر، وليس بنسخ، إنَّما النَّسخ الإزالة حتَّى لا يجوز امتثاله أبدًا.

1 - وإلى هذا أشار الشَّافعي في «الرِّسالة» إلى النَّهي عن ادِّخار لحوم الأضاحي من أجل الدَّافة، ثمَّ ورد الإذن فيه فلم يجعله منسوخًا، بل من باب زوال الحكم لزوال علَّته، حتى لو فجأ أهل ناحيةٍ جماعة مضرورون تعلَّق بأهلها النَّهي.

2 - ومن هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية، كان ذلك في ابتداءِ الأمر، فلمَّا قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والمقاتلة عليه، ثمَّ لو فرض وقوع الضَّعف كما أخبر النَّبي ﷺ في قوله: «بَدَأَ الإسلامُ غريبًا وسيعود غريبًا»[1]، عاد

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وإنه يأرز بين المسجدين (145) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الحكم، وقال ﷺ: «فإذا رأيتَ هوىً متَّبعًا، وشحًّا مطاعًا، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخاصَّة نفسكَ»[1].

وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيِّه ﷺ حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفةً بمن تبعَه ورحمة؛ إذ لو وجب لأورث حرجًا ومشقَّةً، فلمَّا أعزَّ الله الإسلام، وأظهره، ونصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئُ تلك الحالة من مطالبة الكفَّار بالإسلام، أو بأداءِ الجزية – إن كانوا أهلَ كتاب– أو الإسلام أو القتل إن لم يكونوا أهلَ كتاب.

ويعود هذان الحكمان– أعني المسالَمة عند الضَّعف، والمسايفة[2] عند القوة– يعود سببُهما، وليس حكم المسايفة ناسخًا لحكم المسالَمة، بل كلٌّ منهما يجب امتثالُه في وقته. اهـ[3]

وما أشار إليه الزَّركشيُّ عن الشَّافعيِّ في تفسيره لحديث الأضاحي هو أحدُ أقوال له، ذكرها في الرسالة، وفي كتابه اختلاف الحديث، فقال في الرسالة: «فإذا دَفَّت الدَّافَّةُ ثَبَتَ النَّهيُ عَن إمْساك لحوم الضَّحايا بعد ثلاثٍ، وإذا لم تَدِفَّ دافَّة فالرخصةُ ثابِتة بالأكْل والتَّزَوُّدِ والادِّخارِ والصَّدَقَةِ، ويُحتمل أنْ يكونَ النَّهي عَن إمْساك لحوم الضَّحايا بَعْد ثلاث منسوخًا في كلِّ حال، فيُمْسك الإنسان مِن ضحيَّتِه ما شاء، ويتَصَدَّق بها شَاء»[4].

وعلق العلَّامة أحمد شاكر على ذلك بأنَّ نقل مقالة الشَّافعي في كتاب اختلاف الحديث[5]

---

(1) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (1/ 68) من طريق أيوب بن سويد الرملي قال: حدثنا هبة بن حكيم قال: حدثني عمرو اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ فقال لي: لقد سألتَ عنها خبيرًا سألتُ عنها رسولَ الله ﷺ فقال: «يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، وإذا رأيت دُنيا مؤثرة وشحًّا مطاعًا...».

(2) المسايفة: من السيف أي القتال.

(3) انظر البرهان في علوم القرآن (2/ 42– 43)، الإتقان للسيوطي (2/ 21).

(4) انظر الرسالة للشافعي (ص 239، 240) تحقيق أحمد شاكر.

(5) انظر اختلاف الحديث للشافعي (ص 247، 248) من هامش الجزء السابع من الأم.

بعد أن ذكر حديثَ عائشة، قال: «فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا نَهَى رَسُولُ الله عَنْ إِمْسَاكِ لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثَةٍ إِذْ كَانَتِ الدَّافَّةُ عَلَى مَعْنَى الِاخْتِيَارِ لَا عَلَى مَعْنَى الْفَرْضِ».

وفي موضع آخر قال الشَّافعي في اختلاف الحديث أيضًا(1): «وفي مِثْل هذا المعنى أنَّ عليَّ بن أبي طالب خطب النَّاس، وعثمان بن عفَّان محصور، فأخبرهم أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن إمساك لحوم الضَّحايا بعد ثلاث، وكان يقول به؛ لأنه سمعه من النَّبي، وعبد الله بن واقد قد رواه عن النَّبي، وغيرهما، فلمَّا روت عائشةُ أنَّ النَّبي نهى عنه عند الدَّافَّة ثمَّ قال: «كُلُوا، وتزوَّدوا وادَّخروا وتصدَّقوا»(2).

وروى جابر بن عبد الله عن النَّبي أنَّه نهى عن لحوم الضَّحايا بعد ثلاث، ثمَّ قال: «كلوا وتزوَّدوا وتصدَّقوا»(3)، كان يجب على كلِّ من علم الأمرين معًا أن يقول نهى النَّبي عنه لمعنى، فإذا كان مثله فهو منهيٌّ عنه، وإذا لم يكن مثله لم يكن منهيًا عنه، أو يقول: نهى النَّبي عنه في وقت، ثمَّ أرخص فيه بعده، والآخر من أمره ناسخٌ للأوَّل. قال الشَّافعي: وكلٌّ قال بما سمعه من رسول الله، وكان من رسول الله ما يدلُّ على أنَّه قاله على معنى دون معنى، أو نسخه، فعلم الأوَّل ولم يعلم غيرُه، فلو علم أمرَ رسول الله فيه صار إليه إن شاء الله».

وهكذا قامت عند الشَّافعي احتمالات في فهم الحديث كما ترى، فرأى أنَّه قد يحتمل النَّسخ، ويحتمل أن يكون النَّهي على وجه الاختيار لا الفرض، ويحتمل أن يكون النَّهي لمعنى فإذا وجد ثبت النَّهي.

---

(1) انظر اختلاف الحديث (ص 136، 137).

(2) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء (1971).

(3) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب ما يأكل من البُدن وما يتصدق به (1719)، ومسلم في الكتاب والباب السابقين (1972).

والذي أراه راجحًا عندي أنَّ النَّهي عن الادِّخار بعد ثلاث إنَّما كان من النَّبي ﷺ لمعنى دفِّ الدَّافَّة، وأنَّه تصرُّف منه ﷺ على سبيل تصرُّف الإمام والحاكم فيما ينظر فيه لمصلحة النَّاس، وليس على سبيل التَّشريع في الأمر العام، بل يؤخذ منه أنَّ للحاكم أن يأمر وينهى في مثل هذا، ويكون أمره واجب الطَّاعة، لا يسعُ أحدٌ مخالفته، آية ذلك أنَّ النَّبي ﷺ حين أخبروه عما نابهم من المشقَّة في هذا سألهم «وما ذلك؟» فلما أخبروه عن نهيه أَبَانَ لهم عن علَّته وسببه، فلو كان هذا النَّهي تشريعًا عامًّا، لذكر لهم أنَّه كان ثُم نُسخ، أما وقد أَبَانَ لهم عن العلَّة في النَّهي، فإنَّه قصد إلى تعليمهم أنَّ مثل هذا يدور مع المصلحة التي يراها الإمام، وأنَّ طاعته فيه واجبة.

ومن هذا نعلم أنَّ الأمر فيه على الفَرْض لا على الاختيار، وإنما هو فرضٌ محدَّدٌ بوقت، أو بمعنى خاصٍّ لا يتجاوز به ما يراه الإمامُ من المصلحة.

وهذا معنى دقيق بديع، يحتاج إلى تأمُّل، وبُعْد نظر، وسَعة اطِّلاع على الكتاب والسنَّة ومعانيهما، وتطبيقُه في كثير من المسائل عسير إلَّا على من هدى الله(1).

وبناء على ذلك فيمكن توجيه كثير من الأحكام والأوامر التي ظاهرها التعارض؛ وذلك بناء على قاعدة الأصوليين في النسخ،قال الإمام الزركشي في البحر المحيط: " لا يتحقق النسخ إلا مع التعارض، فأما مع إمكان الجمع فلا"(2).

وهذا المعنى ما أطلقت عليه (نظرية النساء) وهي فكرة تطرح كبديل لمفهوم النسخ ونظريته، وأصلها مستنبط من نفس الآية الكريمة التي ذكر فيها النسخ . قال تعالى : (أو ننسأها) وخلاصتها أن النسخ يكون بين الشرائع المختلفة، وأما النساء وهو التأخير والتقديم بين

(1) انظر الرسالة للشافعي (ص 241، 242).

(2) البحر المحيط (5/ 210)

الأحكام والذي يكون لعلة، فهو حادث في الشريعة الواحدة. ويمكن صياغة ذلك بقولنا: "الأحكام المتعارضة تُنَزَّل على أحوال مختلفة" .

وأشار إليه حديثا الشيخ محمد الشربيني قال: ويجوز أن يكون المراد: ما ننسخ أو نُنْسِئ من الأحكام فلتغاير الأزمنة، فالأحكام كلها ملزمة، ولكن التطبيق يتأثر بالبيئة والظروف المحيطة بالفرد أو المجتمع، بحيث يناسب الحكم وقتا دون وقت، والمنسوخ أخو الناسخ في وجوب العمل به، وقول القرآن (نأت بخير منها أو مثلها) يحتم العمل بالناسخ والمنسوخ معا؛ لأنهما متساويان في الخيرية أو أحدهما خير والثاني أكثر خيرية منهن، وكلاهما ترك العمل به ضرب من السفاهة والعبث.

***

مطلبٌ
في دفع إشكال ما ادعي نسخه بناء على الرأي المختار

ممَّا سبق من كلام الزَّركشي يمكن أن نحمل آية ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ على نسخ الشَّرائع، فنسخ الإسلام ما قبله من الكتب المنزلة، وأزال أحكامها وبيَّن انتهاء العمل بها، وقوله تعالى ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ على قراءة ﴿أَوْ نُنْسئهَا﴾، ويصبح إطلاق اسم النَّسخ على ترك الحكم لانعدام علَّته تجوُّزًا لا يمنع العودة إلى الحكم الأول عند رجوع حالته وظرفه، أو علَّته.

ويمكن ذلك بأن نجعل كلَّ الآيات التي ذكر فيها أنَّها منسوخة إنَّما تُثْبِت حكمًا شرعيًّا على المكلَّفين في حالةٍ معيَّنة، وأنَّ الآيات التي قيل فيها إنَّها ناسخة، تُثْبِت حكمًا شرعيًّا آخر، عند تغيير الحالة الأولى إلى حالة أخرى؛ يعني إذا رجعت الحالةُ الأولى، رجع معها الحكم المنزَل بإزائها، وهو أولى من القول بإهمال حكم الآية أو تركه لحكم آية أخرى.

ويمكن صياغة ذلك بقولنا: «الأحكامُ المتعارضة تُنَزَّل على أحوال مختلفة».

فهل يمكن حمل كلام الأصوليِّين على هذا الرأي؟

أرى: أنَّه من التكلُّف غير المقبول أن نفعل ذلك.

حيث إنَّ النَّسخ كما رأينا في تعريفه يغاير ما نقوله سواء من عرفه بالرَّفع، أو البيان، أو الإزالة.

إلَّا أنَّه يمكن أنَّ نطبِّق ما نقوله في كلِّ ما ادُّعي نسخ حكمِه من كتاب الله، ولنضرب في هذا الشَّأن أمثلةً كي يتَّضح مرادُنا:

1 - آية الوصيَّة للوالدين، وهي قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180].

دعوى النَّسخ: اختلف في ناسخها، فقيل النَّاسخ هو الإجماع، وقيل: حديث «لا وصيَّة لوارث»[1]، وقيل النَّاسخ: آية المواريث.

---

(1) تقدم تخريجه.

وبناءً على القاعدة المعروفة عن الإجماع، وهي أنَّه لا يصحُّ أن يكون على غير أساس من القرآن والسنَّة، فإنَّه لا يكون لا محلَّ له في الحقيقة مع وجود السنَّة، والسنَّة هنا هي حديث: «لا وصيَّة لوارث».

وهذا الحديث ليس على إطلاقه حتَّى ينسخ الآية؛ لأنَّ من الفقهاء من أجاز الوصيَّة في حدود الثُّلث مطلقًا، وفي أكثرَ من الثُّلث إذا رضي الوارثون، بناءً على الحديث الذي يقيِّد هذا الإطلاق: «الثُّلث والثُّلث كثير»(1).

وقد يجوز حملُ الآية على أنَّ المراد بالأقارب غيرُ الوارثين.

ويجوز أن يكون المراد بالوالدين والأقربين في الآية غيرُ الوارثين بسببٍ من الأسباب، كاختلاف الدِّين، أو القتل للمورِّث مثلًا.

ويمكن القول بأنَّ آية المواريث لا تناقض حكمَ آيةِ الوصيَّة؛ لأنَّها لم تتعرَّض لإبطال الوصيَّة مطلقًا؛ إذن فليس النسخ هنا متعين لتمام التعارض بينهما؛ بل يمكن الجمع بينهما والعمل بالآيتين معا على النحو المشار له.

2- القِتال في الحرم، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: من الآية 191].

دعوى النَّسخ: قيل: نسخَها قولُه تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله﴾ [البقرة: من الآية 193].

والقول بالنَّسخ مردود؛ لأنَّه لا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم، وهذا الحكم باقٍ لم يُنسخ، وقد تمسَّك الحنفيَّة بهذه الآية في عدم جواز قتل الكافر اللَّاجئ للحرم ما دام لم يقاتِل فيه،

(1) جزء من حديث متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث (2744)، ومسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث (1628) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذا من احتمَى به بعد أن قتل قتيلًا في غير الحرم(1).

وأيضًا فإنَّ آية: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: من الآية 190]، لتبيُّن الغاية من القتال ونهايته، والعلَّة فيه، وهي إزالة الفِتنة، والردُّ على العدوان، فلا عدوان إلَّا على الظَّالمين.

3- إِنفاق فضول الأموال في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: من الآية 219].

دعوى النَّسخ: زعم بعض المفسرين أنَّ هذه الآية نسختها آية الزَّكاة(2).

وهذا الزَّعم بعيد عن الحقيقة، فالآية محكمة، وهي دليل على أنَّ ما زاد على حاجات الإنسان لا بدَّ من إنفاقه لذي الحاجة إليه، وقد شرح النَّبي ﷺ هذه الحقيقة حينما قال: «مَن كان عنده فضلُ ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زَاد فليعد به على من لا زاد له...»(3) إلخ الحديث.

وآية الزَّكاة في بيان مصارف الزَّكاة وفرضيتها، والزَّكاة في أنصبة معلومةٍ، وفضول الأموال لا نصابَ لها مضبوط.

4- نكاح المشركات والكتابيَّات، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ

---

(1) انظر بدائع الصنائع (7/ 114)

(2) انظر تفسير الإمام الطبري (4/ 344)

(3) أخرجه مسلم في كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال (1728) من حديث أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في سفرٍ مع النبي ﷺ إذ جاء رجلٌ على راحلةٍ له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهرٍ، فليعد به على مَن لا ظهر له، ومَن كان له فضل من زادٍ، فليعد به على مَن لا زاد له» قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحدٍ منا في فضلٍ.

خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

دعوى النَّسخ: زعم بعضهم أنَّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: من الآية 5].

وهو يريد بزعمه هذا أنَّ يبيح لنا حلَّ تزوُّج الكتابيِّ أو المشرك للمسلمة، وتزوُّج المسلمِ للكتابيَّة، أو المشركة، هادمًا ما أجمع عليه الأئمَّة.

والحقيقة أنَّه لا نسخَ، فآية تحريم نكاح المشركات محكمةٌ، وآيةُ نكاحِ الكتابيَّات لا علاقةَ لها ولا تأثير، في حِلِّ نكاح المشركات فهي محكمة أيضًا، وكِلَا الحكمين مستقلٌّ منفصلٌ عن الآخر، والفرق بين المشركة- وثنيَّة ومجوسيَّة- وبين الكتابيَّة، وهي اليهوديَّة والنَّصرانيَّة واضح عرفًا.

على أنَّ من العلماء من يقول: إنَّ حلَّ المحصنات الكتابيَّات في سورة المائدة مقيَّدٌ بقيد الإيمان.

والذي نفهمه من آية الممتحنة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، وآية المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ﴾ أنَّ موادَّة الكافرين مهما كانت صلتنا بهم ليست من صفات المؤمنين، وليس بعد المصاهرة مودَّة.

والكتابيَّة حين تكون من قوم يحاربون الإسلام والمسلمين لا يجوز حينئذٍ زواجُها؛ لأنَّها والحال كذلك محاربةٌ -كقومها- لجماعة المسلمين.

5- الوصية للمتوفَّى عنها زوجها، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: من الآية 240].

دعوى النَّسخ: زعموا أنَّ هذه الآية نُسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ

أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: من الآية 234].

والحقيقة أنَّه لا تعارضَ بين الآيتين حتَّى يتناسخا، بل إنَّ الآيتين محكمتان؛ لأنَّ آيةَ الحول في بيان الوصيَّة التي أوصى الله بها للمتوفَّى عنها زوجها في المتعة، أمَّا الآيةُ الثَّانية فهي لبيان عدَّة المتوفى عنها زوجها، ولا شكَّ أنَّ موضوع المتعة مغاير لموضوع العِدَّة، ككلِّ حكم نزلت به آية محكمة دون أن يتعارضا(1).

6- حبس الزَّانيات، في قوله تعالى: ﴿واللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلًا (15) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ الله كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 15، 16].

دعوى النَّسخ: قيل نسخت السُّنَّة الآيتين في حديث: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ»(2).

وقيل نَسَخ الآيتين آيةُ النُّور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: من الآية 2].

والحقيقة أنَّ القول بأنَّ الآيتين نسخهما الحديثُ قولٌ مردود؛ لأنَّ كلمة السَّبيل في الآية مجملة، فلمَّا قال رسول الله ﷺ: «خُذوا عنِّي قد جعل الله لهنَّ...» الحديث، صار بيانًا لتلك الآية المجملة، لا ناسخًا لها؛ وذلك لأنَّ الحديث يتكلَّم عن اللَّائي يأتين الفاحشة، والفاحشة هنا تشمل السحاق والزِّنا، فخصَّ حكم الزِّنا بالكلام، وبقي حكم السحاق على عموم الآية، وهذا من قبيل بيان المجمل، وليس من قبيل النَّسخ.

(1) وكذلك لا تعارض إذا جعلنا العدة في الآية الأولى هي بيان منتهى ما يمكن أن تعتد به المتوفى عنها زوجها،فيجوز أن تعتد على زوجها إلى سنة، والآية الثانية هي مبينة لجواز أن تعتد أربعة أشهر وعشرا إذا احتاجت للزواج بعد زوجها ولا يجوز أقل منه.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب حد الزنا (1690) من حديث عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والقول بنسخ آية النُّور لهما قولٌ مردود؛ إذ الآيتان في النِّساء لا تعارضهما آية النُّور، وقد أمكن تفسير آيتي النِّساء بما لا يتعارض مع آية النُّور، فقد قيل إنَّ آية: ﴿واللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ نزلت في الساحقات، وأن آية: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾ نزلت في اللَّواطِين، وحدُّهما: الإيذاء بالقَول والفَعل، أمَّا آية النور فنزلت في الزُّناة والزَّواني، وقد يؤيِّد هذا التَّفسير أنَّ المذكور في الآية الأولى صيغة الإناث، وفي الآية الثَّانية صيغة الذُّكور، ولا ضرورةَ إلى القول بالتَّغليب الذي يزعمه القائلون بالنَّسخ، ولا يكون في آيتي النَّساء تكرار؛ لأن الآية الأولى في السحاق، والثَّانية في اللِّواط.

وهذا التَّفسير يبيِّن أن لكلِّ آية حكمها، وموضوعها الخاص ممَّا لايؤدِّي إلى التَّعارض الذي من أجله قال بعض العلماء بالنَّسخ.

7- الفصل في قضايا الكتابيين بمحاكمنا: وهو على التَّخيير الوارد في قوله تعالى في اليهود: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ [المائدة: من الآية 42].

دعوى النَّسخ: قيل: إنَّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ الله إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 49].

والحقيقةُ أنَّ هذا ليس بشيء؛ لأن حكم التَّخيير الذي تدلُّ عليه الآية ثابت أمَّا قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ فلبيان المواد التي يحكم بها القاضي إن اختار الحكم، ولم يرفض القضيَّة التي عرضت عليه للفصل فيها.

وقد قيل: إنَّ التَّخيير ورد في أهل العهد الذين ليسوا من أهل الذمَّة، كبني قُرَيظَة وبني النَّضير.

وأمَّا أهلُ الذِّمَّة فيجب الحكم في قضاياهم؛ لأنَّهم بعهد الذمَّة أصبح لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ففيهم نزلت: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله﴾.

وعلى هذا فلا نسخَ.

8- ذبائح الكتابيِّين والميْتة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121].

دعوى النَّسخ: قيل إنَّ الآية نسخت بآية المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: من الآية 5].

والحقيقة أنَّ آية الأنعام آية محكمة؛ لأنَّها نزلت لتبيِّن حكمَ ما لم يذكر اسم الله عليه؛ وإنَّما ذُبح وذُكر عليه اسم غير الله من الأوثان.

فالآية قيد لعموم آية المائدة، وكأنَّ معنى آية المائدة: وطعام الَّذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم مالم يذكر عند ذبحه اسمُ غير اسم الله عليه، وعليه فلا ناسخ ولا منسوخَ، وإنَّما عموم آية المائدة قيَّدته آيةُ الأنعام.

وقيل: إنَّ آية الأنعام نزلت في تحريم الذَّبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام، فهي لا تُعارِضُ حلَّ طعام الكتابيِّين، فلا نسخ فيها.

9- متعة المطلَّقة، في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: 49].

دعوى النَّسخ: قال بعض المفسِّرين: إنَّ عموم آية الأحزاب هذه نَسخَه قولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 237].

والحقيقة أنَّ هذا ليس من باب النَّسخ، وإنَّما هو من باب تخصيصِ العام، ويكون حينئذٍ: وإن طلَّقتموهن من قبل أن تمسُّوهن فما لكم عليهنَّ من عدَّة، ولكن متِّعوهن إن لم يكن مفروضًا لهنَّ مهرًا، وإلَّا أعطين نصفَ المهر، ولا متعةَ.

ومن العلماء من حمَلَ الأمرَ في قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ على الإذنِ الشَّامل للوجوب والنَّدب مع بقاء المتعةِ على معناها المعروف، فالمتعة فرضٌ إذا لم يكن المهر معلومًا، وهي مستحبَّة إذا كان لها مهر معلوم ستأخذ نصفَه، أو ستسقط من النِّصف المقرَّر لها جزءًا يسيرًا أو كثيرًا، وعلى هذا تكون الآية محكمة.

10- العفو عن الظَّالم والقصاص، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: 39- 42].

دعوى النَّسخ: قيل إنَّ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الآيتان، نُسِخَتا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: 43]، وهذا القول ظاهر البطلان؛ لأنَّ ما زعمه منسوخًا إنما يبيِّن حكمَ الدِّفاع عن النَّفس، وأنَّه لا يكون إلَّا بالمثل وأنَّ العفو أجره على الله العظيم، وهذا الحكم قائمٌ شرعًا وقانونًا وعُرفًا.

وأمَّا الآية التي زعم أنَّها ناسخة فإنَّما جاءت لتبيِّن أيَّ الأمرين الجائزين أفضل العفو أم المقاطعة؟ وقرَّرت أنَّ العفو ابتغاء وجه الله من الأمور الفاضلة التي يحبُّها الله، ويجزل الثَّواب عليها، فلا تعارضَ ولا نَسخَ.

11- تحريم الخَمر: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43] قيل: إنَّ مفهومَ هذه الآية الذي يدل على أنَّ شربَ الخمرِ ليس حرامًا في غير أوقات الصَّلاة نُسِخ بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90].

فأمرهم باجتناب الخمر، كما أمرهم باجتناب الميسر والأنصاب والأَزْلام، فأصبح الشَّراب

حرامًا في كلِّ وقت، من ليلٍ أو نهار، فكان هذا ناسخًا للمفهوم من تخصيص وقتِ الصَّلاة بالنَّهي عن الشُّرب فيه.

ونحن نرى أنَّ ما بين هاتين الآيتين من باب التَّدرُّج في التَّشريع، وهنا قد تدرَّج الشَّرع في تحريم الخمر؛ لأنَّها كانت عادةً مستأصلةً في نفوسهم، والتدرُّج في التَّشريع منهج من مناهج القرآن الكريم في الأحكام.

قال القرافيُّ: «والذي يظهر لي أنَّ الخمر لم تكن مباحةً، بل مسكوتٌ عن تحريمها ثمَّ حرِّمت، ورفْعُ المسكوت عنه ليس نسخًا، ويدلُّ على ذلك ما حكاه الغزاليُّ وغيرُه من العلماء أنَّ القدر المسكر لم يبحْهُ الله تعالى في ملَّة من الملل، بل أجمعت الشَّرائع على تحريمه، إنَّما الخلاف في القدر الذي لا يُسْكر، فعندنا حرام، وفي شريعة التَّوراة مباح على ما يقال، وما حرَّمه الله تعالى في جميع الملل لا يليق بهذه الشَّريعة التي هي أتمُّ الشَّرائع في استيفاء المصالح ودرء المفاسد إباحتُه فيها، بل إذا لم تتمكَّن الكلمة سكت عنه، كما سكت عن الدِّماء والأموال وغيرها في ابتداء الإسلام، ولم يقل أحد: أنَّها كانت مباحةً في أوَّل الإسلام، بل كانت الشَّرائع تتجدَّد أوَّلًا فأوَّل، ولم يتقدَّم إباحتُها بتجدُّد، فكذلك هاهنا، هذا هو مقتضى القواعد والمناسبة»(1).

12- أحكام القتال، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65].

قيل أنها نُسِخت بقوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(1) نفائس الأصول في شرح المحصول (6/ 2461) شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي – تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض – مكتبة نزار مصطفى الباز – الطبعة: الأولى، 1416هـ – 1995م.

[الأنفال: 66].

ونحن نرى أنَّ الآية الأولى تدلُّ على أنَّ المسلمين في حال القوة يجب عليهم الثَّبات لعشرة أمثالهم من الكفَّار.

والآيةُ الثانية تدلُّ على أنَّ المسلمين في حال الضَّعف يجب عليهم الثَّبات لمثليهم فقط من الكفَّار، فليس بينهما نسخ، فالآية الأولى في حالة القوَّة، والآية الثَّانية في حالةِ الضَّعف.

13- آيةُ الصَّدقة بين يدي نجوى الرسول ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المجادلة: 12].

قيل: أنها نسخت بقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأنفال: 13].

ونحن نرى أنَّ الأمر في الآية الأولى للنَّدب لا للوجوب بقرينة قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وفي الآية الثانية تخيير بين التَّصدق وعدم التَّصدق؛ فالآية الثانية لم تمنع المسلمين من التصدق عند إرادة المناجاة حتى يقال إنها نسخت الآية الأولى.

14- آية المزمَّل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: 1- 3].

قيل: إنَّها منسوخة بآخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَالله يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل:20].

ونحن نرى أنَّ فرضَ قيام اللَّيل كان في حقِّ الرَّسول ﷺ، وفي حقِّ أمَّته فضيلة، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾، فقد روي عن ابن عبَّاس بأن قولَه تعالى:

﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ يعني خاصَّةً للنَّبي ﷺ، أُمِرَ بقيام الليل، وكُتِبَ عليه(1).

فقيامُ اللَّيل ما زال فريضةً على رسول الله ﷺ خاصَّةً.

ونرى ممَّا سبق أنَّ الوارد في القرآن لا ينسخ بعضه بعضًا، ولكن قد ينسخ ما يثبت في السنَّة باعتباره تدريجًا للتَّشريع، كما أن السنَّة تنسخ السنَّة.

القول بعدم النسخ وأثره في البيان القرآني وإدراك المعاني:

قد أشرنا في مبحث سابق إلى إطلاقية القرآن ومعانيها وخصائص القرآن الكريم من حيث أنه محرر من «الزمان» و«المكان» و«الأشخاص» و«الأحوال» فهو كلام الله المتعالي عن مقاييس النصوص البشرية مهما بلغت بلاغتها وشموليتها وذلك يلزم عنه أن التعامل مع هذا الكتاب الكريم يتم على مستوى الحرف؛ فطبقًا للرأي المختار عندنا في مسألة النسخ سواء نسخ التلاوة أو من حيث أننا نرى أن الآيات التي قيل أنها نسخت أنها تثبت حكمًا شرعيًّا على المكلَّفين في حالةٍ معيَّنة، وأنَّ الآيات التي قيل فيها إنَّها ناسخة، تُثْبِت حكمًا شرعيًّا آخر، عند تغيير الحالة الأولى إلى حالة أخرى؛ يعني إذا رجعت الحالةُ الأولى، رجع معها الحكم المنزَل بإزائها؛ فإننا نتعامل مع كل كلمة وحرف في كتاب الله من منطلق الإطلاقية واللامحدودية التي ينتج عنها أن هذا الكتاب الكريم كتاب ذو طبيعة إلهية يستوعب حركةَ الكون والحياة والكائنات في الماضي والحاضر والمستقبل وأن كل آية فيه وكل كلمة وكل حرف مرتب من قبل الله سبحانه وتعالى في وحدة بنائية تجعل القرآن الكريم كالجملة الواحدة المتكاملة لا يوجد به أي تعارض أو تناقض أو اختلاف بين آياته الكريمة بل كل آية لها معنى خاص غير منسوخ ولها حال يسقط عليه هذا المعنى كما أشرنا لمعاني الآيات المتوهم وقوع النسخ فيه.

وعلى ذلك فإن المفسر وهو ينظر في آيات القرآن الكريم يجب أن يستصحب معه أنه لا

(1) أخرجه الطبري في تفسيره (15/ 40) من طريق محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: الدر المنثور (4/ 196).

يوجد معنى متروك في كتاب الله لآية أو كلمة تحت دعوى النسخ وعليه أن يدرك أنه يتعامل مع نص إلهي ذو طبيعة خاصة، له من الخصائص ووجوه التحدي والشمولية والعالمية ما يجعل كل كلمة فيه بل كل حرف له معنى مستمر غير مهجور، فكل آية تخبرني بمعنى جديد ليس في الأخرى وتفتح من أبواب الهداية والفهم والتطبيق ما يضاف للآية الأخرى، في بناء مستمر على طول الزمان، يمتد مع أنوار القرآن الكريم.

والقول بعدم وجود النسخ في كتاب الله والذي هو الإزالة سواء برفع الآية نفسها أو برفع الحكم كله بصورة كلية هو المتوافق مع طبيعة الخطاب القرآني وجوهره فهو ليس مثل باقي الكلام فكلماته وحروفه وآياته قد نظمت فيه ورتبت باختيار إلهي مقصود لا دخل فيه لبشر هذا الترتيب مرتبط ببعضه أشد الارتباط مثل مواقع النجوم في السماء التي تكون العمارة الكونية فلا يمكن أن ينتزع نجمًا من مكانه أو يتغير مكانه دون حدوث خلل للنظام كله.

وعندما تكلمنا عن الوحدة البنائية للقرآن الكريم وبينًّا أنه كالجملة الواحدة فهذا يمنع من قبول فكرة إزالة آية ورفعها من هذه الجملة فهذه الجملة الواحدة متجاوزة لمقاييس الزمان والمكان والأحوال التي يمكن أن تكون سببًا من أسباب الإزالة فالقرآن حاكم وليس محكومًا، وهو محيط بحركة الزمان يحتويها ولا تحتويه فهو كتاب الله وكلامه، وكذلك يحتوي القرآن حركة الفعل الإنساني في الحاضر والماضي والمستقبل، فهو يؤثر ولا يتأثر وذلك سر من أسرار عظمته ووجه من وجوه إعجازه أنه لا تتحكم فيه تحولات الزمان والمكان والأحوال، فلا يوجد ما يدعو للقول بإزالة آيات منه ورفعها تحت دعوى النسخ.

إن استبعاد النسخ بحسب الرأي المختار لدينا هو من تمام العمل بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:121]. فهو يفتح الأبواب أمام استنباط المفاهيم من كتاب الله متجاوزين بذلك حدود الزمان والمكان والأحوال والبيئات ويتضح لنا من خلال ذلك بعضًا من معاني قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ

شَيْءٍ﴾ [النحل:89] فتظهر لنا معارف جديدة مثل القيم القرآنية الكلية والمبادئ العامة الحاكمة وتتضح لنا وجوه السنن الإلهية في الكون والحياة فنصل إلى أنوار قوله تعالى:﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:111].

- من القائلين بعدم وقوع نسخ التلاوة من القدماء والمعاصرين:

وقد قال جماعة من أهل العلم بمثل ما قلنا في عدم وقوع نسخ التلاوة في القرآن الكريم. وورد هذا في مصنفاتهم أو فيما نقل عنهم في التفاسير المشهورة فمن هؤلاء:

1 - أبو مسلم الأصفهاني(1):

وقد ورد كلامه عن مسألة النسخ في المصنفات الحديثة التي قامت بجمع ما ورد من تفسيره أو فيما نقل عنه. فيقول عن معنى النسخ في قوله تعالى:﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106].:«الأول: أن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه الله تعالى عنا وتعبدنا بغيره، فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم، فأبطل الله عليهم ذلك بهذه الآية.

الوجه الثاني: المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب وهو كما يقال: نسخت الكتاب.

(1) محمد بن بحر الأصفهاني، أبو مسلم (254 - 322 هـ = 868 - 934 م): وال، من أهل أصفهان. معتزلي. من كبار الكتاب. كان عالما بالتفسير وبغيره من صنوف العلم، وله شعر. ولي أصفهان وبلاد فارس، للمقتدر العباسي، واستمر إلى أن دخل ابن بويه أصفهان سنة 321 هـ فعزل. من كتبه (جامع التأويل) في التفسير، أربعة عشر مجلدا، جمع سعيد الأنصاري الهندي نصوصا منه وردت في (مفاتيح الغيب) المعروف بتفسير الفخر الرازيّ. انظر الأعلام (6/ 50) تأليف: خير الدين بن محمود الزركلي- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الخامسة عشر- 2002 م.

الوجه الثالث: أنا بينا أن هذه الآية لا تدل على وقوع النسخ بل على أنه لو وقع النسخ لوقع إلى خير منه»(1). وقد نقل الفخر الرازي عنه هذه الأقوال عند تفسيره لهذه الآية(2).

2 – الشيخ محمد أبو زهرة:

ومن المعاصرين الشيخ محمد أبو زهرة حيث يقول في تفسيره:

«لابد قبل أن نبدي رأينا في النسخ في القرآن الكريم أن نقرر حقائق ثلاثا لابد من بيانها أو الإشارة إليها، نكتفي هنا بالإشارة إليها:

الحقيقة الأولى: أن القرآن الكريم نسخ من الشرائع السابقة التي أتى بها الوحي وهي الشرائع السماوية، فما بقي منها أبقاه القرآن الكريم، ونص على بقائها كبعض أحكام القصاص، وكتحريم الربا، وكتحريم المحرمات وغير ذلك، وكان النص عليه في القرآن الكريم دليلًا على بقائه من غير نسخ.

الحقيقة الثانية أن النسخ جرى في السنة، ذلك أن السنة كما تتولى بيان الأحكام تتولى علاج المسائل الوقتية، ويختلف الحكم الوقتي في بعض الأوقات عنه في بعضها؛ ولذا جرى النسخ في السنة.

الحقيقة الثالثة: أن القرآن الكريم سجل هذه الشريعة الخالدة، بل سجل الشرائع السماوية، ومعجزات النبيين جميعا، وما نسخ منها أشار إلى نسخه، وما بقي منها صرح ببقائه، كالقصاص، وخصوصا في الأطراف، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:45].

ولذا نحن نرى ما رآه من قبل أبو مسلم الأصفهاني، وهو أنه لَا نسخ في القرآن قط؛ لأنه شريعة الله تعالى الباقية إلى يوم القيامة، ولأن النسخ لم يثبت بنص عن النبيﷺ، وأنه لم يصرح

(1) انظر: تفسير أبي مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (ص45) جمع وإعداد وتحقيق:د. خضر محمد بنها.

(2) انظر: مفاتيح الغيب (3/ 639).

النبي ﷺ بنسخ آية من القرآن، وما جاء من عبارات النسخ في القرآن إنما في نسخ المعجزات الحسية بالقرآن الكريم، وقد بينا ذلك في موضعه من معاني الذكر الحكيم. ولأن النسخ يقتضي أن تكون آيتان في القرآن موضعها واحد، وإحداهما مُثْبِتَة والأخرى نافية، ولا يمكن الجمع بين النفي والإثبات، وما ادُّعِيَ النسخ فيه التوفيق بينهما سهل ممكن، وما أمكن التوفيق فلا نسخ، وقد اشتركنا في كتابة التفسير مع بعض العلماء ولم نجد آيتين متعارضتين لم يمكن التوفيق بينهما، وقد طبع ذلك التفسير وسمي بـ «المنتخب» طبعته إحدى الجامعات الإسلامية، والله الهادي إلى سواء السبيل»(1).

ومن وجوه الرد على القائلين بالنسخ يقول الإمام جمال الدين القاسمي عند تعرضه لتفسير الآية الكريمة: ﴿وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَالله أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:101].

«التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، فتبديل الآية رفعها بآية أخرى. والأكثرون على أن المعنى نسخ آية من القرآن لفظا أو حكما بآية أخرى غيرها، لحكمة باهرة أشير إليها بقوله: ﴿وَالله أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ﴾ من ناسخ قضت الحكمة أن يتبدل المنسوخ الأول به. وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء لمتقدمين. كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات الكونية الآفاقية، بآية أخرى نفسية علمية، وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل إذا تنبه لها وجرى على نظامه الفطري. وذلك لاستعداد الإنسان وقتئذ، لأن يخاطب عقله ويستصرخ فمه ولبه. فلم يؤت من قبل الخوارق الكونية ويدهش بها كما كان لمن سلف. فبدلت تلك بآية هو كتاب العلم والهدى من نبيّ أمّيّ لم يقرأ ولم يكتب. وكون الكتاب بيّن الصدق قاطع البرهان ناصع البيان بالنسبة لمن أوتي ورزق الفهم. وهذا التأويل الثاني يرجحه

(1) زهرة التفاسير (1/ 41-40) – المؤلف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة – دار النشر: دار الفكر العربي.

على الأول، أن السورة مكية. وليس في المكي منسوخ بالمعنى الذي يريدونه»(1).

ويقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «فالنسخ هنا ليس تبديلًا جزئيًّا في أحكام شريعة واحدة، بل هو تغيير الدلائل التي تحتف بدين ما كي تركزه في النفوس. وقد بدأ الكلام بأن أهل الكتاب لا يودون للإسلام خيرًا، ولا لأهله فضلاً. ثم أعقبه تساؤل له مغزاه يخاطب اليهود. ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة:108].

والشرح المقبول للآية ننقله عن الإمام الجليل الشيخ محمد عبده، فقد قال: «والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق إلى آخره: أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أي﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾نقيمها دليلًا على نبوة نبي من الأنبياء، أي نزيلها، ونترك تأييد نبي آخر بها، أو ننسها الناس، لطول العهد بما جاء بها، فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك، نأتي بخير منها من قوة الإقناع، وإثبات النبوة، أو مثلها في ذلك من كان هذا شأنه في قدرته، وسعة ملكه، فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه، والآية في أصل اللغة هي: الدليل، والحجة، والعلامة على صحة الشيء، وسميت جمل القرآن آيات، لأنها بإعجازها حجج على صدق النبي، ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحي من الله عز وجل، من قبيل تسمية الخاص باسم العام.

ولقد كان من اليهود من يشك في رسالته عليه السلام بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل! ولقد تقدمت الآيات في تفنيد زعمهم هذا عندما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص:48]. أي من الآيات، فرد الله تعالى عليهم في مواضع: منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:48].

---

(1) انظر: محاسن التأويل (6/ 409-408) محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي - المحقق: محمد باسل عيون السود - الناشر: دار الكتب العلميه - بيروت - الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

ومنها هذه الآيات، والخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم، كأنه يقول: إن قدرة الله تعالى ليست محدودة، ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات. أو بآحاد منها لا تتناول غيرها، وليست الحجة محصورة في المعجزة السابقة لا تتعداها، بل الله قادر على أن يأتي بخير من الآيات التي أعطاها موسى وبمثلها، فإنه لا يعجز قدرته شيء، ولا يخرج عن ملكه شيء، كما أن رحمته ليست محصورة في شعب واحد، فيخصه بالنبوة، ويحصر فيه الرسالة... كلا...! إن رحمته وسعت كل شيء، كما أن قدرته تتصرف بكل شيء من ملك السموات والأرض الذي لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه فيه منازع، فيكون وليًّا ونصيرًا لمن آمن به، لا لمن كفر بنعمه وانحرف عن سننه.. انظر كيف أسفرت البلاغةُ عن وجهها في هذا المقام، فظهر أن ذكر القدرة، وسعة الملك، إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل، دون معنى الأحكام الشرعية، والأقوال الدالة عليها من حيث هي دالة عليها، لا من حيث هي دالة على النبوة...! ويزيد هذا المعنى سفورًا ووضوحًا قوله عقبه: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة: 108]. فإن بني إسرائيل لم يكتفوا بما أعطي موسى من الآيات، وتجرءوا على طلب غيرها، قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها، حتى رأوا تسع آيات بينات، ولم يؤمنوا. وقوله تعالى: ﴿ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ ﴾ يشمل كل ذلك. وقد أرشدنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن في طلب الآيات، وعدم الإذعان لما يجيء النبي بها، والاكتفاء به- بعد العجز عن معارضته- هو دأب المطبوعين على الكفر. المجبولين على المعاندة والمجاحدة، فإنه قال بعد إنكار هذا الطلب: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

ويوضح هذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾. والمراد: الآيات المقترحة بدليل السياق، وهو اتفاق بين المفسرين ولو كان

الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام بأحكام تنسخها، لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه.

وقوله تعالى ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ معناه: أنه أخطأ وسط الجادة، ومال إلى أحد الجانبين. ومتى انحرف السائر في سيره عن الوسط يخرج عن المنهج ويبعد عنه كلما أوغل في السير، فيهلك دون الوصول إلى المقصد. والمراد بسواء السبيل: الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقهما، ومن مال عن الحق وقع في الباطل لا محالة:﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

هذا هو التفسير الذي تتصل به الآيات، ويلتئم بعضها على بعض، على وجه يتدفق بالبلاغة، وهو الذي يتقبله العقل، ويستحليه الذوق. اهـ. ونقول: إن أمر القرآن أجل وأعز من أن تقبل فيه أخبار تزعم أن هناك آيات نزلت ثم محيت من الأذهان محوًا، أي نسخت ألفاظها ومعانيها... فروايات الآحاد- لو صحت في هذا المجال- ما أثبتت قرآنًا، فكيف إذا كانت ضعيفة؟! يرفضها النقدة، ويقبضون أيديهم عنها؟؟ وأمر القرآن كذلك أعز وأجل من أن تقبل فيه أفهام سطحية ترسل الحكم إرسالًا بأن هذه الآية بطل حكمها. أو هذا النص انتهى أمده!! إن القرآن الكريم هو الدعامة الأولى للإسلام. وآياته هي الحجج الأولى في تلك الشريعة الخالدة.

يقول الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضري: هنا مسألة يجب التنبيه لها، وإرخاء العنان للقلم حتى يبلغ الغاية من بيانها. وهي هل من آيات القرآن ما بطل التكليف به لحلول تكليف آخر محله؟! أو بعبارة أخرى هل من آيات القرآن ما هو منسوخ فلا يجب العمل به؟! إن هذه مسألة خطيرة، وعلى المتكلم فيها أن يقدم الحجة القاطعة أمام ما يريد أن يقوله، بعد أن ثبت أن القرآن حجة قاطعة يجب الاستمساك بنصوصه كلها والعمل بها.

قال: «.. وإني أزيد المسألة إيضاحًا ولعلي أنال من الله توفيقًا. ثم شرع الأستاذ بطريق الإحصاء الواقعي. لا بطريق الجدل النظري يثبت أن آيات القرآن جميعًا محكمة. وأنه ما من

آية قيل بنسخها إلا كان القول بإعمالها أبين في العين وأرجح لدى الموازنة.

والاستقراء دليل لا يتحمل لجاجة، فليجتهد من يشاء إثبات إمكان النسخ: فالإمكان شيء ووقوعه في الكتاب العزيز شيء آخر لم يحدث؛ لأن كل آية ظن نسخها يستبين لدى التأمل أنها نافذة الحكم... وصدق الله العظيم. ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(1).

فبان من ذلك الكلام المتقدم عن هؤلاء العلماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كيف أن جلال القرآن وعظمته يوجب علينا أن نتوقف كثيرا قبل أن نقدم على القول بنسخ آية منه أو حكم جاء فيه، وأن إعمال قواعد الجمع والتوفيق بين النصوص المحكمة أولى من ترك بعضها أو إهماله.

وبهذا نستطيع أن نحقق إطلاقية القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان، وأن نواجه واقعنا، وأن نلفت أنظار العالمين إلى ما كتابنا من خير ونور؛ مصداقا لقوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:27].

***

(1) انظر: نظرات في القرآن الكريم (207-204) المؤلف: محمد الغزالي - الناشر: دار نهضة مصر -الطبعة: السادسة 2006م.، وأما كلام الشيخ محمد الخضري رحمه الله عن النسخ فقد ذكر وبين أن تلك الآيات المدعى نسخها هي محكمة، انظر كتابه أصول الفقه صـ251 وما بعدها ط.المكتبة التجارية الكبرى – الطبعة السادسة

المبحث الثاني عشر
القرآن الكريم كتابُ هداية

يقول اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]. في كلماتٍ ربانيةٍ يقرر القرآن الكريم حقيقةً مطلقةً وصفةً لازمةً للنَّصِّ القرآنيِّ، تعبِّر عن حقيقتِه وجوهره وهي أنَّ هذا الكتاب الإلهيَّ والكلام الربانيَّ هو «كتاب هدايةٍ».

فمِن خلال تقريرِ هذه الحقيقة وحدوثِ اليقين بها ننطلِق في قراءَتنا لكتاب الله وتفسيرِ آياته، واستنباطِ المنهجِ القرآني من خلال هذِه الحقيقةِ. وعلى ذلك فمِن أركان مَنهج التَّعاملِ مع كتاب الله عزَّ وجلَّ التي يجِب استِحضارُها وعدمُ مفارقتِها للذهن، للعالِم المتخصص ولغير المتخصص، للصَّغير والكبيرِ، والقارئ والسَّامع، والرَّجل والمرأةِ، أننا نتعامل مع كتاب هداية ربانية، يحتوى بين آياتِه وكلماتِه وحروفِه على النُّورِ المبين الذي يُحقِّق السعادةَ للمخلوقاتِ من خلال منهجٍ ربانيٍّ صدَر عن خالقِ المخلوقات سبحانه.

وبدايةُ ظهور هذه الهدايةِ عندما يقرأُ المسلم القرآنَ الكريم فيَنتبه من خلالِ آياتِه أنَّ الله سبحانه يكلِّمه ويوجِّهُه، ويأمرُه ويَنهاه، ويعِده وينصحُه، ويدُلُّه على الخيرِ وما فيه سعادتُه، ويحذِّره ممَّا فيه شقاؤه، ويُخبره عن ذاتِه العليَّا وأسمائه وصفاتِه وألوهيَّتِه وربوبيَّتِه للعالمين، وبأنَّه سبحانه هو الملِك الحقُّ الذي خلَقَ كلَّ هذا الوجودَ علويِّه وسُفلِيِّه سماواتِه وأرضِه، وبأنَّه هو الذي أخرجَ الإنسان من العدمِ إلى الوجودِ في أحسن تقويمٍ، وكرَّمه وسخَّر له ما في السمواتِ والأرض كرامةً له.

ويتودَّد سبحانه إلى عبدِه بذكر النِّعم والأفضالِ الإلهيَّة على الخلق، ويُشهدهم منَّته وكرمَه وتوددَه إلى عباده، ويذكِّره بأنَّه في معيته فلا يخَف ولا يخشى من شيءٍ فهو الحيُّ الذي لا يموتُ، العزيزُ الغالبُ على أمرِه سبحانَه. ويذكِّره بالرُّسل والأنبياءِ عليهم السَّلام ودعوتهم وجهادِهم منذ وجودِ الإنسان على الأرضِ، وأنَّ طريقَهم هو الصِّراط المُستقيم والسبيلُ

القويم. ويدعوه إلى الجنَّة ونعيمها الأبديِّ وما أعدَّ فيها من الفضلِ والرِّضا. ويحذره من النَّار وعذابها، ويذكِّره بمكارمِ الأخلاق، ويَدعُوه إليها ويُحذِّره من سيِّئها. ويضع التَّشريع والأحكام التي تحقِّق له السَّعادة في الدنيا والنَّجاة في الآخرةِ. ويحذِّره من الشَّيطان وعدواتِه، ويدعوه إلى عِمارة الأرض وعدم الإفسادِ فيها، ويأمره بتحقيقِ مرادِ الله عزَّ وجلَّ في الحياةِ بحيث تَنفتِح القلوبُ والبصائرُ والعقولُ لتلقِّي أنوارِ الهدايةِ وإمدادَاتها، فلا يمرُّ القارئ على آيةٍ إلَّا ويخرُج منها بهدايةٍ تتلُوها هدايةٌ وبنورٍ فوقه نورٌ وبعده نورٌ، فما دام يقرأُ كلامَ الله فهو في الهداية المُطلقةِ التي لا تَغيب طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ من ذلك، فهو نورُ الرُّوح ونور العَقل ونور الجَسد ونور النَّفس ونورُ القلب، فهو كما وصفَه الله سبحانه ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:105].

- **اشتمالُ القرآنِ على الهدايةِ هي أَعلى درجاتِ إعجازِه:**

واحتواءُ القرآنِ الكريم على الهدايةِ هي أحدُ أوجهِ الإعجازِ القرآنيِّ الكُبرى، فالنَّصُّ القرآني ومتعلَّقاتُه هو المركزُ الذي تدورُ حوله المعارِفُ والعلومُ والحياةُ الفكريَّة والعقليَّة والعمليَّة للجنسِ البشري، ولم يكن مجرَّد نصٍّ يحتوي على أحكامِ الحلال والحرام وما يجِب وما لا يجب، وإنَّما كان بوصلةً هاديةً للجنس البشري كلِّه. فلا يَتصوَّر العقل البشري كتابًا بشريًا يحتوي على الحقيقةِ المطلقة والهداية التامَّة؛ ولذلك فإنَّنا نجد أنَّه ما مِن كتابٍ من نِتاج الفكر البشري إلَّا وتمَّ تقييمُه ونقدُه وبيانُ وجوهِ القصور فيه، فلا حقيقةَ مطلقة ولا هدايةَ تامَّة إلا في الكلامِ الإلهي.

في حين أننا نجدُ القرآن الكريم في معالجتِه للقضايا والمسائل قد يَجمع جميع مستلْزَمات الحياةِ البشريَّة، ويصوغُها في آيةٍ واحدةٍ، تمثِّل قانونًا جامعًا يمكن أن يتفرَّع عنه عددٌ لا نِهائيٌّ من قِيم الحياة، وأسلوب العيش، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90]. فهذه صورةٌ من صورِ التَّحدي للعقلِ البشري، أن يأتي بتصوُّرٍ أفضلَ من التصوُّرِ القرآني فيما

يعالجُه من المحورِ.

فهداية القرآنِ الكريم العلميَّة والعمليَّة وحصولُها من خلال كلماتِه وآياته هي لونٌ من ألوان الإعجازِ، الذي يستغرقُ الزَّمانَ والمكانَ والأجيالَ والأفكارَ والحضاراتِ، ولنَنظُر ماذا فعَل النَّص القرآني في أمَّة العربِ التي كانَت في حالةٍ من التأخرِ والبدواة، وكيف أحدثَ فيهم هذه النُقلةَ النَّوعيةَ في الإنسانِ والمجتمعِ، فلم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى امتلكوا ناصيةَ الحضارة وتفوَّقوا على جميع الأممِ، في السِّياسة والعلومِ والصِّناعةِ وجميعِ مظاهرِ الحضارةِ، وهذه الخاصيَّة- القيادةُ نحو الأفضل على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ- من جوهرِ النصِّ القرآني وطبيعتِه اللازمة.

وكذلك وجودُ النَّموذجِ المعرفي القرآني هو أحدُ درجاتِ ظهورِ هدايتِه؛ فقدرةُ القرآن الكريم على إنشاءِ نموذجٍ معرفيٍّ متكاملٍ ومنضبطٍ من خلالِ نقطةِ انطلاقٍ تتمثَّل في إجابتِه على الأسئلة «الكليَّة الأوَّليَّة» التي تنطلِق منها المعرفةُ الإنسانية بعد ذلك وهي الأسئلة الثلاثة: مِن أينَ نحن؟ وماذا نفعلُ هنا؟ وماذا سيكونُ بعدَ الموت؟ فهي أسئلةٌ عن الماضي والحاضرِ والمستقبَل.

والقرآنُ الكريم جعلَ تكوينَ العقيدةِ والتَّشريع والأخلاقِ من خلالِ الانطِلاق عن إجابةِ هذه الأسئلةِ الثَّلاث فتحدَّث عن الألوهيَّة ومتعلَّقاتها من النبوَّة واليوم الآخرِ، وتحدَّث عن التشريع والتكليفِ ومناهجِ الحياة والعيشِ، وتحدَّث عن الأخلاقِ والقِيم. فالبَشريَّة قد تخبَّطت كثيرًا في رحلةِ البحث عن الحقيقةِ وتصوُّرِ نظام حياةٍ يكفلُ للبشرِ السعادةَ، وقد حدث ذلك نتيجةَ مخالفة المنهج الإلهيِّ الذي يحتوِي على الهدايةِ، وذلك على مرِّ العصورِ وتنوُّع الشرائعِ الإلهيَّة، والنَّموذج المعرفيُّ القرآني هو منهجٌ معجِزٌ متفوِّق يوفِّر الهداية للبشرية سواءٌ من كان مسلمًا أو لم يكن وذلك عن جمعِه للقواعد الأساسيَّة التي يقومُ عليها هذا الوجود، وهي على سبيل الإجمال:

1- الألوهيَّة ووجود الخالق جلَّ وعلا (الغيب).

2- الكونُ والوجود بما فيه.

2- الإنسان وموقعُه من المخلوقات ودوره في هذا الوجود.

- ما هي القواعدُ والأصول التي تجعلُنا نقرِّر حقيقة أن القرآن كتاب هداية للعالمين؟

الأصلُ العظيم الذي يقرِّر حقيقة أنَّ القرآن الكريم هو كتابٌ يحتوي على الهداية المطلقةِ من أوَّل حرفٍ فيه إلى آخر حرفٍ هو أنَّه كلامُ الله الإلَه الحقُّ الذي ليس كمثلِه شيءٌ فلا حدَّ لكماله سبحانه، فليس كوجودِه وجودٌ، وليس كصفاته صفاتٌ، وليس كأفعالِه أفعالٌ، ولا يشبه كلامُه كلامًا فعظمةُ الكلامِ بقدْرِ عظمةِ وصفات وعلم قائلِه ولا حدَّ ولا وصفَ لعظمة ربِّ العالمين وعلى ذلك فلا حدَّ ولا وصف لعظمة كلامِه.

فعندما يَسأل المسلم نفسَه أو يسألُه غيرُه لماذا هذا الكتابُ يحتوي على الهدايةِ؟! يكون الجواب الجامع «**لأنَّه كلامُ الله**».

ومن خلال هذه الحقيقةِ المطلقةِ تتفرَّع جميعُ التَّفسيرات التي تشرحُ وتوضِّح صدقَ وعظمةَ وحكم ما احتواهُ القرآن الكريم من المعارفِ والعلومِ والأوامرِ والأخبارِ والتشريعاتِ في كلِّ كلمةٍ من كلماته، وفي كل آيةٍ من آياتِه، والتراثُ الإسلامي كلُّه هو صدًى لهذه الحقيقة المطلقةِ «أنَّه كلام الله» ومحاولةٌ لبيان مظاهرِها على كافَّة المستوياتِ الفكريَّة والمعرفيَّة والعمليَّة، وقد قرَّب لنا رسولُ الله ﷺ هذه الحقيقةَ من أفهامِنا فقال عن القرآن الكريم: «**كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وهُوَ الْفَصْلُ ولَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، ومَنِ ابْتَغَى الْهُدَى** - أَوْ قَالَ: **الْعِلْمَ - مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، هُوَ حَبْلُ الله الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لم تَنته الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ - حَتَّى قَالُوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، **مَنْ قَالَ**

بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

- كيفَ نجعلُ من هذه الحقيقة منهجًا للتَّعامل مع كتابِ الله:

بعد حصولِ اليقين العقليِّ والقلبيِّ والروحيِّ من نسبةِ هذا النَّص القرآني إلى ربِّ العالمين، وما تقرِّره الآياتُ المحكمةُ من احتوائه على الهدايةِ المطلقة، يجبُ على قارئ القرآن ومفسِّره أن يدخلَ رِحابَ النَّصِّ طالبًا الهداية كأحدِ أركانِ قانونِ التعاملِ والتَّفسير لكتابِ الله، بل هذا الطلبُ هو حقيقةُ قانونِ التفسيرِ وجوهَرِه؛ فنحن لا نقرأُ القرآنَ الكريم لمجرَّد حصولِ البركةِ من جريان كلام الله على ألسنتِنا، وإنَّما قبل ذلك نُريد معرفةَ ماذا تحمِله لنا هذه الرسالةُ الإلهيَّة؟ وماذا يقولُ الله لنا في القضيَّة أو المسألة الفلانيَّة؟ وبمَ يأمرُ سبحانه وعن ماذا يَنهى؟

وكيف يعالِج القرآن رحلةَ الجنس البشريِّ في حياتِه على هذه الأرضِ؟ وكيف يضبطُ علاقتَه مع الوجودِ؟ وهذا أوَّل طريق الهدايةِ أن يستقرَّ المرادُ الإلهي من هذا النصِّ المقدَّس بكليَّاته وجزئيَّاته في العقولِ والقلوبِ، وما يُصاحب ذلك من البركاتِ الروحيَّة والبناءِ العقلي، ثم نعملُ وِفقًا لهذه المعرفةِ المستقرَّة بعد ذلكَ في حياتِنا الدنيا، وهذه هي الهدايةُ وهذه هي حقيقةُ الدين.

أن نصطَبِغ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:161-163].

فتُصبحُ معَاني هدايةِ القرآنِ الكريم منهجَ حياةٍ يتمُّ من خلالِه إعادةُ فاعليَّة القرآنِ الكريم في الحياةِ العقليَّة والفكريَّة والعمليَّة للأمَّة المسلمةِ، وربطُ هويَّة الفردِ المسلمِ بالنَّموذج القرآنيِّ، بحيث نُحاول تحقيقَ النموذجِ الحضاري الإسلامي من خلالِ مفاهيم القرآنِ الكليَّة

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن (2906)، والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل من قرأ القرآن (3331) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والجزئيَّة المؤهلةِ لذلك.

- الضوابطُ التي يجب مُراعاتها عند طلبِ الهدايةِ في كتابِ الله واستِكشَاف مَظاهرِها:

هناك ضوابطُ يجِب مراعاتُها عندَ التعرُّض للقرآنِ الكريم وطلبِ وجوه الهدايةِ منه في محاورِه الكليَّة والجزئيَّةِ، وهناك أدواتٌ لا بدَّ منها لإدراكِ معاني الكتابِ الكريم؛ وذلكَ على مُستوى القارئِ ومستوى المفسِّر حتَّى لا نَخرج عن النِّطاقِ الصَّحيح في استِنباطِ معانٍ لا تَدخلُ في إطارِ هذه الهدايةِ فنُطلق على ما ليسَ بهدايةٍ أنَّه هدايةٌ، وحتَّى لا نضيِّع وجهًا من وجوه هدايةِ النَّصِّ الإلهيِّ فلا يتمُّ الاستفادةُ منها.

وهذه الضوابطُ لا سبيلَ لإهمالها فهيَ التي تُحقِّق الرؤية المعرفيَّة المُستنبطةَ من النصِّ الإلهيِّ وتحقِّق يقينيَّة هذه المعرفةِ وثباتَها فمِن ذلك:

1- النَّظر للقرآنِ الكريم على أنَّ معانيه هي الفيصلُ في التنازُع العقليِّ والفكريِّ والعمليِّ وما تختلِف فيه الآراءُ فهو نصٌّ إلهيٌّ: ﴿يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16] ومِن ثَمَّ يَمنح عقلَه للقرآنِ؛ كي يتكوَّن هذا العقلُ وفقَ منظومةِ القرآنِ وصراطِه، فينتجُ عن ذلك تكوينُ منظومةٍ شاملةٍ من عناصرِ التَّفكيرِ المنهجيِّ التي تَجعله قادرًا على تفسيرِ وتقويمِ كلِّ ما يصِل إليه مِن معرفتِه الكونيَّة أو الوجوديَّة.

وهذا «التقويمُ» بمعنى: إشباعُ المسائل بأمورٍ قيمةٍ، بجَعل المسائلِ مقبولةً أو غير مقبولةٍ، واجبةَ الإتيانِ أو واجبةَ التَّرك، هو الذي يتميَّز به الباحثُ المسلم المرتبطُ بالقرآن عمَّن سِواه. فنتعاملُ مع القرآنِ باعتبارِه «المرجعيَّة العُليا» التي يطمئِنُّ القلبُ والعقلُ إليها، ونَتعاملُ مع القرآنِ على أنَّه المشتملُ على الحقيقةِ المُطلقةِ، يتعاملُ الباحث الاجتماعيُّ المسلم - على تنوُّع أغراضِه- مع القرآنِ لكي يأخذَ عنه ويستنبِطَ منه عناصرَ تحرُّكه الذهني والنَّفسي والسلوكي.

2- يجبُ الوضعُ في الاعتبار أنَّ القرآنَ الكريم ليسَ كتاب معلوماتٍ، وإن وردَت فيه معلوماتٌ كثيرة أو قليلة، فهو ليس بالأساسِ كتابًا لعلوم الكيمياءِ والفيزياءِ وما شابه، ولا

جاءَ مخصَّصًا لعلوم السِّياسة والاجتماع والاقتصادِ وما شابَه، وإن كانَ فيه نِبراسُ هذه العلوم في قواعِدِه المُحكمةِ وآياتِه الجامعة التي- وإن اختُصِرَت لفظًا- نجدُها فيَّاضةَ المعاني.

إنَّ القرآن ليس كتابَ إدراكٍ للواقع، أو معرفةٍ تفصيليَّةٍ جزئيَّةٍ للوجودِ، إنَّما هو وحيٌ يَضبط هذا الإدراكَ ويضبطُ هذه المعرفةَ ويوجِّههما إلى عناصرَ معيَّنةٍ، بالإضافة إلى أنه يقوِّم هذا الواقعَ، ويحدِّد التوجُّه الأقومَ نحو هذا الواقعِ وينظِّمه ويصلحُه.

فنحن نعلَم أنَّ النصَّ القرآنيَّ في أعلى درجاتِ البلاغةِ العربيَّة التي حيَّرت فصحاءَ العربِ، وهو وجهٌ من وجوهِ إعجازِ هذا النَّصِّ ولكنَّ إظهارَ هذا الوجهِ مِن الإعجازِ ليس هو المرادُ الأكبر للقرآنِ الكريم.

وإنَّما أكبرُ وجوهِ الإعجازِ القرآني فيما يتعلَّق بالعلومِ والمعارفِ الكونيَّة أنَّه أدخل الإنسانَ في المحيطِ العلميِّ للكونِ وفتَح أمامَه أبوابَ التفكُّر والنَّظر، وربطَ بين هذا التَّفكُّر والوصولِ إلى عقيدةٍ ومنهجٍ يحكمُ العلومَ ويوجِّه المعارفَ التوجُّه السليمَ ويضبطُ الأداءَ الإنسانيَّ المبنيَّ على هذِه المعارفِ ويقرِن بينها وبينَ مجموعةٍ قيمةٍ لا تتخلَّف عنهَا.

3- الانطلاقُ من أنَّ هذا الكتابَ حُجةٌ في نفسِه على نفسِه. بمعنى أنَّه لابدَّ من «الجمعِ بين أدلَّةِ ونصوص (آيات) كلِّ مسألةٍ[1]؛ حتَّى لا نقَع فيما نهَى اللهُ سبحانه وتعالى عنه بشدَّة بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85]

والجمعُ بين الآياتِ يُجلي الفهمَ، لاسيَّما إذا تمَّ حسمُ مسائلِ المُحكم والمتشابِه، والعامِّ

(1) قال الإمام الزركشي: أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، قِيلَ: أَحْسَنُ طَرِيقِ التَّفْسِيرِ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ فَمَا أُجْمِلَ فِي مَكَانٍ فَقَدْ فُصِّلَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا اخْتُصِرَ فِي مَكَانٍ فَإِنَّهُ قَدْ بُسِطَ فِي آخَرَ، فَإِنْ أَعْيَاكَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهَا شَارِحَةٌ لِلْقُرْآنِ وَمُوَضِّحَةٌ له قال تعالى: ﴿وما نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ البرهان في علوم القرآن (2/ 175).

والخاصّ والمُطلَق والمقيَّد، فلا بدَّ مِن الوعي بذلكَ حتَّى لا يقع الباحثُ المسلمُ في خطأ الفَهم والاستِدلال.

4- السُّنة النبويَّة المطهرةُ من أهمِّ أدواتِ فهم هذا النَّصِّ الإلهي الكريمِ. وهي ضابطٌ آخرُ لفهمِ القرآن والاستنباطِ منه لدى الباحثِ، فهي شارحةٌ مبيِّنةٌ له؛ ذلك لقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون﴾ [النحل: 64]. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾ [النحل: 44]. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105](1).

فكل هذه الآيات توضح مهمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم،وأنها هي بيان وتطبيق الكتاب المحكم للناس؛ لذا فبيانه وتطبيقه معصومان بعصمته صلى الله عليه وآله وسلم.

5- أهميَّة اللغةِ العربية ودورِها في فهمِ هذا الكتاب واستنباطِ مفاهيمِه ومعانيهِ. فالقرآنُ

(1) قال الإمام الزركشي: إِنَّ الْقُرْآنَ إِنَّمَا أُنْزِلَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ فِي زَمَنِ أَفْصَحِ الْعَرَبِ، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ ظَوَاهِرَهُ وَأَحْكَامَهُ، أَمَّا دَقَائِقُ بَاطِنِهِ فَإِنَّمَا كَانَ يَظْهَرُ لَهُمْ بَعْدَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ مِنْ سُؤَالِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْأَكْثَرِ كَسُؤَالِهِمْ لما نزل: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ فَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فَفَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالشِّرْكِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وَكَسُؤَالِ عَائِشَةَ ﵂ عَنِ الْحِسَابِ الْيَسِيرِ فَقَالَ: «**ذَلِكَ الْعَرْضُ وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**» وكقصة عدي ابن حَاتِمٍ فِي الْخَيْطِ الَّذِي وَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، وغير ذلك مما سألوا عن آحاد مِنْهُ. (البرهان في علوم القرآن (1/ 14- 15). فالله سبحانه قد أوكل إلى الرسول ﷺ مهمة البيان فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44] ولذا كان الرجوع إلى بيان الرسول ﷺ مهمًّا في فهم القرآن وتفسيره، ولما كان الأمر كذلك، فإنه لا أحد أعلم بمراد الله منه ﷺ ثم إن ما يرد عنه من تفسير فإنه وحي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4] وهذا يدل على عظيم منزلة تفسيره ﷺ.

والسُّنة تشمل كل قول أو فعل أو تقرير للرسول ﷺ، فيمكن القول بأن كل إفادة يستفيدها المفسِّر من السُّنة في بيان القرآن وتفسيره فإنها من التفسير بالسنة.

كتابٌ عربيٌّ مبينٌ، يُعقَل بالعربيَّة، لقوله سبحانِه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فُصِّلَت: 3] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 195] وهذا البيانُ والتبيينُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4]

فالعربية شرط ومفتاح فهم الكتاب لا يمكن استفادة الأحكام من القرآن من غيرها.

6- مراعَاة ما أجمَعَت عليه الأمَّةُ مِن فهمِها لهذا الكتابِ، فلا نَستنبطُ منه معنًى يقدَح في إجماعِ الأمَّة وما استقَرَّت عليهِ، فالإجماع أحد الأدلة المتفق عليها؛ التي لا يمكن تجاوزها، تحت أي دعوى تسعى لهدم الدين.

7- مراعاة المقاصدِ الشرعيَّة والأهدافِ العُليا للقرآن الكريم لكي يستقيمَ فهمُنا لكتابِ الله، فيُساعد ذلك على الالتزامِ بالمنهَجِ الكُلي الذي يحقِّق الهدايةَ فنحن لا نَستطيعُ أن نَستنبِطَ منه معنًى يكرُّ على مقاصدِ الشريعةِ بالبُطلان.

8- معرفةُ ما يُحيط بالنَّصِّ حينَ نزولِه؛ فمعرفة أسباب النزول تعين على فهم المقصد من الآية؛ ومن ثم يمكن استنباط الحكم الشرعي الصحيح.

9- مراعاة إطلاقيَّة القرآنِ الكريم وعدمِ تقيُّده بالزَّمان والمكانِ والأشخاصِ والأحوالِ، فهوَ حاكمٌ عليها وليسَت هي حاكمةٌ عليه، فهو الكلِمة الإلهيَّة الربانيَّة التي تَسَع كلَّ زمانٍ ومكانٍ وحالٍ وأشخاصٍ ومجتمعاتٍ.

10- التصوُّر الخلَّاق، تداعِي الأفكَار، الأسئلةُ الممتدَّة. كلُّ ذلك من ضوابطَ تحصيلِ الهدايةِ أثناءَ تفسيرِ القرآنِ الكريم؛ فعندَما أنظرُ في آيةٍ من الآيات فإنَّني أسألُ نفسي: كيف أُطبِّقُها؟ فتُقابلُني مشكلاتٌ، فأنظر في كيفيَّة حلِّ هذه المشكلاتِ؛ بحيث أتمكَّن من ذلكَ وأنا في معية القرآنِ، وتحتَ سقفِ الشَّريعة، وبينما أنا أقومُ بحلِّ تلك المُشكلاتِ، فإنَّه تطرأُ أسئِلة وتبرزُ إجراءاتٌ؛ فأجيب عَنها في صورةٍ متتاليةٍ ممتدَّةٍ فيها تداعٍ للأفكارِ، والغرضُ من كلِّ

ذلك هو خدمةُ النصِّ بكيفيَّة تطبيقه على الواقعِ وإنزالِ معاني الهدايةِ عليهِ،وكل ذلك ينتج عن المعايشة والمدارسة،وهما مفتاح الهداية القرآنية.

11- عند محاولةِ الوصولِ للهداية في القُرآن الكريم لا بدَّ لنا ونحنُ نتعاملُ مع النَّصِّ القرآني أن نستحضِر وسائلَ القرآنِ الكريم في التأثيرِ في القلوبِ والعقولِ، والتي تَظهر في النَّص القرآني وتعمَل على تحريكِ الإنسان نحوَ مسلكٍ فكريٍّ واعتقاديٍّ وعمليٍّ؛ وذلكَ من خلالِ ملاحظةِ أساليبِ القُرآن الكريم اللُّغويَّة وتفرُّدها وتكاملِها وخصائصِها وأثرِها، وذلك يحدُث من خلالِ تمكُّن المفسِّر من الدرايةِ بعلومِ البلاغةِ والإحاطةِ بأسرارِ التراكيبِ اللُّغويَّة وما تَحويهِ من المعَاني، وتُمكِّنه كذلِك من معرفةِ مظاهرِ استجابةِ النَّفس البشريَّة لأساليبِ الخطابِ القرآني وتفاعُله معها، والأثر الذي تُحدِثُه في النَّفسِ من تقريرِ المعاني ولَفتِ الانتباهِ إليها، وذلكَ على مُستوى العقيدةِ والتَّشريعِ والأخلاقِ. وهذا ما يُمكن أن نُطلِق عليه الإعجازَ التأثيريَّ للقرآن الكريمِ.

فالقرآنُ الكريم يستثيرُ العواطفَ الإنسانيَّةَ المختلفةَ والوجدانَ ويحرِّك المشاعرَ بجمالِ الأسلوبِ وعذوبةِ اللَّفظِ ورَوعةِ البيانِ، وهذا الأمرُ مُشاهدٌ محَسوسٌ في كلامِ البُلغاءِ والشُّعراءِ من البَشر فكيفَ بكلامِ الله عزَّ وجلَّ؟! فبِكلماتِ القرآن تَستبشِر النُّفوس وتَنشرحُ الصُّدورُ وترِقُّ القلوبُ وتتَسلَّل حلاوتُها إلى الأرواحِ فتتمكَّن فيكونُ الحالُ كما أخبَر ربُّنا جلَّ وعلا: ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِالله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله مَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:23].

وهذا سرٌّ من أسرارِ القرآنِ الذَّاتيَّةِ، فحلاوةُ كلامِ الله تأخذُ بمَجامعِ القلوبِ وتَستولي على النُّفوس، فتولِّد طاقاتٍ روحانيَّة مثل البَرق ولكنَّه برقُ الرحماتِ الذي يمسُّ القلوب فيَمحو الباطلَ منها.

ولهذا لَو رجعنا إلى السِّيرة النبوية لوجدنا أنَّ مِن أكثر الأمورِ التي حرَص عليها المشركون

هي انصرافُهم عن سَماعِ آياتِ الله، فقَد كانوا يَعرفونَ ما له مِن سلطانٍ قاهرٍ للنُّفوسِ والقلوبِ يجعلُها تستَسلِم له وتَنقادُ إليه، وهُم لا يُريدون الإيمانَ استِكبارًا وتجبُّرًا، وقد أخبر اللهُ عن حالهم حيثُ قال جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:26].

ولم يَعرفِ التاريخُ كلامًا أحدثَ من التأثيرِ النَّفسيِّ والقلبيِّ في أمَّةٍ من الأممِ مثلَ ما أحدثَه القرآنُ الكريم في أمَّة العربِ التي صبغَتهم طبيعةُ الصحراءِ والبداوةِ بالغِلظة، فحوَّلَهم القرآنُ الكريم إلى أرقِّ النَّاس قلوبًا وألْيَنِهم جانبًا ومحبَّةً للخلقِ، وحمَلَ مشاعلَ الهدايةِ لهم، بلِ امتدَّ تأثيرُه اللَّانهائي إلى العوالمِ الأخرى مِن مخلوقاتِ الله عزَّ وجلَّ، فهذِه الجنُّ خضعَت لسُلطانِ التأثيرِ القرآنيِّ كما أخبرَنا ربُّنا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:1-2].

فإنَّ إدراكَ وجوهِ هذا الإعجازِ هو بابٌ من أبوابِ القراءةِ الصَّحيحةِ لهذا النَّصِّ الإلهيِّ الكريم، فكيف تُحيي الكلماتُ القلوبَ وكيف تقودُ الأممَ وكيف تُنتِج الحضارةَ بكلِّ صورِها من خلالِ كتابٍ واحدٍ؟! فلا يَجِد العقلُ جوابًا إلَّا لأنَّه كلامُ الله القديرِ.

وقد تكلَّم الكثيرُ من أهل العِلم عن الأثرِ الذي تُحدثُه أساليبُ القرآن الكريم في النَّفس البشريَّة يقولُ الإمام أبو سليمان الخطَّابي رحمه الله: (توفي:388هـ): «وفي إعجازِ القرآن وجهٌ آخرُ، ذهبَ عنه النَّاسُ، فلا يكادُ يعرفُه إلا الشَّاذُّ من آحادِهم.

وذلكَ صنيعُه بالقلوبِ وتأثيرُه في النُّفوس، فإنَّك لا تَسمع كلامًا غيرَ القرآنِ منظومًا ولا منثورًا، إذا قرَع السَّمعَ خلَص له إلى القلبِ من اللَّذة والحلاوةِ في حالٍ، ومِن الرَّوعة والمهابةِ في أخرى- ما يخلُص منه إليهِ.

تستبشِر به النفوسُ، وتنشرِح له الصُّدورُ، حتى إذا أخذَت حظَّها منه عادَت مرتاعةً قد عَرَاها من الوجيبِ والقلق، وتغشَّاها من الخوفِ والفَرق ما تقشعِرُّ منه الجلودُ، وتنزعجُ له

القلوبُ. يحولُ بين النَّفسِ وبين مُضمراتِها وعقائدِها الراسخةِ فيها، فكَم من عدوٍّ للرَّسول ﷺ من رجالِ العرَب وفتَّاكِها أقبلُوا يريدونَ اغتيالَه وقتلَه، فسمِعوا آياتٍ من القرآنِ، فلم يلبَثوا حينَ وقعَت في مسامِعهم أن يتحوَّلوا عن رَأيهم الأوَّل، وأن يركَنوا إلى مُسالمتِه ويَدخلوا في دينِه، وصارَت عداوتُهم موالاةً وكفرُهم إيمانًا»[1].

وبمِثل هذا المعنى يقولُ الزركشي رحمه الله: «قلت: ولهذا أسلَمَ جُبيرُ بنُ مُطعم لما سمعَ قراءةَ النبيِّ ﷺ للطُّور حتى انتَهى إلى قوله: ﴿إنَّ عذَابَ ربِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ قال: خَشِيت أن يُدركَني العذابُ، وفي لفظٍ: كادَ قلبي يطيرُ، فأسلَمَ. وفي أثرٍ آخرَ أنَّ عمر لَمَّا سمِعَ سورةَ طه أسلمَ، وغيرَ ذلك. وقد صنَّف بعضُهم كتابًا فيمَن ماتَ بسَماعِ آيةٍ من القرآنِ»[2].

12- المنهجُ الاستِقرائيُّ والرؤيةُ الشُّموليَّة ودورُهما في ظهورِ أوجهِ هدايةِ القرآنِ الكريم:

مِن وسائل الوصولِ لبيانِ صورِ احتواءِ النَّصِّ القُرآنيِّ على الهدايةِ العامَّةِ والخاصَّةِ تبنِّي المنهجِ الاستقرائيِّ في الوصولِ للمعاني الكليَّة للمحاورِ التي عالجَها القرآنُ الكريم، عن طريقِ جمعِ الآياتِ التي تتحدَّث عن موضوعٍ واحدٍ، واستنباطِ المعاني منها، وتكوينِ المفهومِ الشَّامل الكلِّي عن هذا المِحور.

فمِن أهمِّ العوائقِ التي تمنَع إدراكَ أوجهِ الهدايةِ القُرآنيَّة العجزُ عن الرُّؤيةِ الشُّموليَّة للنَّصِّ القرآني، والذي يُوفِّره المَنهجُ الاستِقرائيُّ، والذي هوَ أحدُ أوجهِ تدبُّر القرآنِ الكريمِ، فالنَّظرةُ الجُزئيَّة تؤدِّي إلى غِيابِ بعض المعاني وعدمِ اكتمالِ الصُّورة الإدراكيَّة للمِحور المرادِ دراستُه، فيحدثُ نوعًا مِن غيابِ المعنَى الجامعِ لمحاوِر القرآنِ الكريم، سواءٌ كانَ هذا المِحور في العقيدةِ أو التَّشريعِ أو الأخلاقِ.

(1) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (1/ 17) المؤلف: أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب- المحقق: السيد أحمد صقر- الناشر: دار المعارف - مصر - الطبعة: الخامسة، 1997م.

(2) انظر: البرهان في علوم القرآن (2/ 106).

فعلَى سبيلِ المثال: لو نظَرنا لِمحور الأخلَاقِ والقِيَم في كتابِ الله مِن خلالِ استِقراءِ الآيات التي تناوَلَت هذا المِحور، لتولَّدَ لدينا من ذلكَ نظريَّةً أخلاقيَّةً قرآنيَّةً مُتكاملةً تغطِّي جميع وجوهِ الحياةِ الماديَّة والروحيَّة، ولَظَهرت ملامحُ القانونِ الأخلاقيِّ في القرآن الكريمِ والطَّريقُ لذلك هو المنهجُ الاستقرائيُّ.

13- من الخطواتِ المهمة عند التَّعرُّض لتفسيرِ النَّصِّ القُرآني وبيانِ أوجهِ الهداية مِنه الجمعُ بين المناهجِ التراثيَّة المتعدِّدةِ ونحن نتعاملُ مع الآياتِ الكريمةِ، وذلك يمكِّننا من إدراكِ أبعادِ الخطابِ القرآني والإحاطةِ بها، وهذِه هي أعلى درَجاتِ الهِداية.

فلَا يتمُّ حصرُ التَّفسير في بُعدٍ واحدٍ، ولا نَقتصِر على مَنهجٍ واحدٍ في التَّعاملِ مع الآياتِ؛ لأنَّ ذلك يَجعل شكلَ الهدايةِ القرآنيَّة منحَصِرًا في هِيئةٍ واحدةٍ، بل يجِب استخدامُ أدواتِ جميع المناهجِ التي توافرَت عند السَّلف والخلَف، وتكوينُ منظومةٍ مُتكاملةٍ منها في التَّعامل مع النَّص القُرآني، سواءٌ كانت مناهجَ بلاغيةً لغويَّةً أو فقهيَّةً أو أصوليَّةً أو صوفيَّةً أو كلاميَّةً أو تربويَّةً إلى آخر المناهجِ المستخدمةِ في التَّعاملِ مع النصِّ القرآني.

ولا شكَّ أنَّ هذا يتطَلَّب عقليَّة علميَّةً موسوعيَّةً متمكِّنةً، تتعاملُ مع النَّص القرآني بكلماتِه وآياتِه من زوايا متعدِّدة ومِن خلالِ رُؤى مختلفةٍ، ولكنَّها متكاملةٌ غيرُ متعارِضةٍ يتمُّ التَّوصُّلُ مِن خلالهَا إلى صُورةِ الهدايةِ المتكاملةِ التي تغطِّي أبعادَ الخطابِ القُرآنيِّ كلِّه، منَ التَّشريع، والعَقيدةِ، والأخلاقِ، والقِيمِ، وكرامةِ الإنسانِ، والحضارَة البشريَّة، والسياسةِ، والاقتصادِ، والعلاقاتِ الدَّوليَّة، والعلاقاتِ الاجتماعيَّة، والنَّفس البَشريَّة وأسرارِها، والتصوُّف ومحاورِه، والرُّؤية الكونيَّة، ودراسة الوجُود والخَلق، واليوم الآخِر، إلى آخر أبعادِ الخطابِ القُرآني.

المبحث الثالث عشر
حول معاني المحكم والمتشابه
وأثرهما في فهم القرآن الكريم

من الأمور المهمَّة التي تعد من مداخل فهم كتاب الله عز وجل وإدراك معانيه وتعتبر من أركان القراءة الصحيحة للقرآن الكريم: الإحاطة بمعنى «**المحكم والمتشابه**» في كتاب الله وأثَّر ذلك المعنى في استخلاص محاور القرآن الكريم وبيان وجوه إعجازه وإدراك معاني الآيات وإظهار حقيقة عدم وجود غموض أو خفاء في كتاب الله.

ونحن في هذا المبحث [1] نتحدَّثُ عن بعض وجوه معاني المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وعن آثار هذه المعاني فيما يتعلَّقُ بصفات هذا النص الإلهي المقدس، وذلك في مواجهة فكرة تقسيم النص القرآني إلى صنف محكم واضح المعنى معلوم، وصنف متشابه مبهم غير واضح ولا سبيل للوصول إلى معناه، وما ترتَّبَ على هذا التصوُّرِ من اتجاهاتٍ تفسيريَّةٍ صنعت إشكاليات كثيرةً، ونحاول في الصفحات القادمة وضعَ التصور الصحيح لمسألة المحكم والمتشابه، وذلك عن طريق الاحتكام إلى نصوص القرآن ذاته واستخلاص الإجابة منه، موضحين من خلال نتائج هذا التصور أن فرضيَّة وجود المتشابه في كتاب الله بمعنى خروجه عن المحكم أو بمعنى وجود آيات مبهمة لا تُدركُ معانيها هي فرضية غير صحيحة وفقًا لمنطوق القرآن الكريم ذاته.

- **المحكم في اللغة:**

المحكم في لغة العرب هو من الفعل (حكم) و(أحكم). قال ابن منظور رحمه الله: «العرب تقول: حَكَمْتُ وأَحْكَمْتُ وحَكَّمْتُ بمعنى مَنَعْتُ وَرَدَدْتُ، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس

(1) يراجع : حلقة من برنامج والله أعلم لفضيلة الإمام علي جمعة يوضح فيها معنى المحكم والمتشابه في القرآن الكريم. بتاريخ 15/ 7 / 2018، وحلقة من برنامج هذا ديننا رقم(١٥) تحت عنوان المحكم والمتشابه. بتاريخ 30 / 10 / 2015.

حاكم، لأنه يمنع الظالم من الظلم»(1).

قال ابن فارس رحمه الله: «الحاء والكاف والميم أصلٌ واحد، وهو المنْع. وأوَّل ذلك الحُكْم، وهو المَنْع من الظُّلْم، وسمِّيَتْ حَكَمة الدابة لأنها تمنعُها. يقال حَكَمْت الدابةَ وأحْكَمتها. ويقال: حكَمت السَّفيهَ وأحكمتُه، إذا أخذتَ على يديه. قال جرير:

أَبَنِـــي حَنيفَـــة أَحْكِمُـــوا سُـــفهاءَكم إنِّي أخـــاف علـــيكم أن أغْضَـــبَا

والحِكمة هذا قياسُها؛ لأنها تمنع من الجهل. وتقول: حكَّمت فلانًا تحكيمًا منعتُه عمَّا يريد. وحُكِّم فلانٌ في كذا، إذا جُعل أمرُه إليه. والمحكَّم: المجرِّب المنسوب إلى الحكمة»(2).

- المتشابه لغة:

(ش ب هـ): الشِّبْهُ والشَّبَه والشَّبِيه: المثل، والجمع أشْباهٌ. وأشبه الشَّيْء الشَّيْء: ماثله، وَفِي المثل: من أشبه أَبَاهُ فَمَا ظلم، وتشابه الشيئان، واشتبها: أشبه كل وَاحِد مِنْهُمَا صَاحبه، وفي التَّنْزِيل: ﴿مُشْتَبِها وغَيرَ مُتَشابِهٍ﴾ [الأنعام:99]. وأمور مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبِّهةٌ: مشكلة يشبه بَعْضهَا بَعْضًا. وشَبَّه عَلَيْهِ: خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره. والشَّبْهُ: النُّحاس يصنع فيصفر؛ سمي بذلك لأَنَّهُ إذا فعل به ذلِك أشبَهَ الذَّهَب»(3).

ومنطلقُ الدُّخول لهذا المبحث هو استقراءُ الآيات الكريمةِ التي تُعدُّ العمدة في الكلام عن المحكم والمُتشابه، والتفكر في معانيها، وتكوين مفهوم صحيح عن الإحكام والتَّشابه في كتاب الله.

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1].

---

(1) انظر: لسان العرب (12/ 141) محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي الناشر: دار صادر - بيروت - الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.

(2)معجم مقاييس اللغة (2/ 91) لابن فارس - المحقق: عبد السلام هارون- دار الفكر 1979م.

(3) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (4/ 193) المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي- المحقق: عبد الحميد هنداوي - الناشر: دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى- 1421 هـ، 2000 م.

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

- وقال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر:23].

- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:17].

وسوف نتعرض لبيان معاني كل آية ودلالتها على معنى المحكم والمتشابه؛ مما يتعلق بهذا المبحث:

- **الآية الأولى:** ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:1].

هذه الآيةُ الكريمةُ هي القاعدةُ والأصلُ الذي ننطلقُ منه لفَهمِ معاني المُحكم والمتشابه، ففي هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وهو يصف هذا الكتاب الكريم: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ وهذه الآية الكريمةُ مطلقةٌ عامَّة تشمل كل حرفٍ وكلَّ كلمة وكل آية من آياتِ الكتاب الكريم من أوَّله إلى آخرِه. فصفةُ الإحكام صفةٌ لازمةٌ للنصِّ القرآنيِّ لا تنفكُّ عنه ولا عن معانِيهِ المستنبطةِ بمنهجٍ منضبطٍ.

وإحكامُ القرآن الكريم مصدرُه: أنَّه كلام الله سبحانه الذي لا يُشبهُ أي كلام فهو غايةٌ في النَّظمِ والنِّظام، وفي الصِّدقِ والتَّناسقِ، وفصاحةِ الألفاظِ وصحَّةِ المعاني وقوتِها، فمهما تُصوِّر من بلاغةِ كلام البشرِ فالقرآنُ يَسبقُه ويعلُو عليه، فلا يلحقُه كلامٌ ولا يُدانِيهِ. فهناك فارقٌ بينه وبينَ أصنافِ كلام البشرِ كما الفرقُ بين الخالق سبحانَه وبين خلقِه فكما أنَّه سبحانَه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، فليس ككلامِه كلامٌ فانقطعَ الرَّجاءُ من أن يعارضَ أو يُماثَلَ ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

وعلى ذلكَ فالمحكمُ من الكلام على الحقيقةِ والكمالِ هو القرآنُ الكريمُ، والعربُ تقول في البناء الوَثيقِ والعقد الوثيقِ الذي لا يُمكنُ حله محكم فهذا معنى وصف جميعه بأنه مُحكمٌ.

وجوه الإحكام في كتاب الله:

عندما ننظر ونتفكَّر نجد أنَّ وجوه وصور وهيئات ظهور هذا الإحكام القرآني غير محصورة؛ فهو محكمٌ في تكوينِ العقيدةِ الصَّحيحةِ تجاه الإله سبحانَه والغيب بأنواعِه والوجود من حولنا، مُحكمٌ في بيان ماهيَّةِ الإنسان وحقيقتِه ووظيفتِه ومكانتِه في هذا الوجود، مُحكمٌ في بيان ما أحلَّه الله سبحانه وما حرَّمه، محكم في تشريعِه وأحكامه وقانونِه الضَّابط للحياةِ الفرديَّة والجماعيَّة، مُحكم في بلاغتِه وقوة نظمه وجمال ألفاظِه وعذوبتها، محكمٌ في قانونِه الأخلاقيِّ والقيميِّ ومجالات تزكية النفس وإظهار الجانب الرُّوحيِّ في الحياة، محكم في تصوُّره الكليِّ والجزئي لمنهج حياة الإنسان والمخلوقات على الأرضِ، محكم في بيان خاتمة الحياة ووُجودِ اليوم الآخر، محكمٌ في قَصصِه وأمثاله، محكم في أهدافِه ومقاصِدِه، محكم في تكوين العقلِ الإنساني وبناء النموذج المعرفيِّ، محكم في قطعيَّته وظهور حكمتِه، محكمٌ في حفظِه من التَّبديلِ والتَّحريف والتَّغيير، محكمٌ لا اختلافَ فيه ولا اضطراب يُصدِّقُ بعضُه بعضًا يَهدِي إلى الطَّريقِ المستقيمِ، محكمٌ في كل علمٍ يتولَّدُ منه ويُنسبُ إليه، محكمٌ في أثره القلبيِّ والنفسيِّ الذي يُشبه نبضاتٍ متنوعةً من الرَّحمة والجلالِ والبهاءِ والكمال والحبِّ تضربُ القلوبَ والأرواح فتنجذبُ إلى هذا النصِّ انجذابًا لا تعرف النفس له مصدرًا... إلى آخر ما يشتملُ عليه القرآن الكريم من محاورَ كليَّةٍ أو جزئيَّةٍ وما تفرَّع عنها؛ فقد أُحكمَ هذا الكتاب الكريمُ ومع هذا الإحكام فُصِّلَ بعد ذلك ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ومعنى فصلت فسرت وبين الحلال والحرام، تيسيرًا على العبادِ وبيانًا لما يَصلُحُ حياتهم العامَّة والخاصَّة، وهذا وجهٌ من وجوه الإعجاز؛ اجتماع الإحكامِ والتفصيل في نصٍّ واحدٍ، بحيث تخرجُ منه المعاني محكمَة ومفصَّلة في وقتٍ واحدٍ.

وعلى ضوء ما تقدَّمَ فالنصُّ القرآنيُّ كل آياته مُحكماتٌ، وفي ضوء تلك الحقيقة الثَّابتةُ نستطيع أن نفهم معاني الآية الكريمة في صدر سورة آل عمران وندرك ما المقصود بالمتشابه في

هذه الآية في ضوء حقيقة الإحكام اللازمة للنص القرآني.

- **الآية الثانية:** ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7].

وهذه هي الآية التي تُفصِّلُ معاني المُحكمِ والمتشابِه، وهي لم تَلْقَ من بعضِ أهل التَّفسيرِ النظرَ الصَّحيح في وَجهها ومعانِيها؛ حيث ذهبوا من خلالِ ما فهمُوه منها إلى تقسيم آيات الكتاب الكريمِ إلى: آياتٍ محكمةٍ، وآياتٍ متشابهاتٍ غير محكمةٍ. وبمعنى آخرَ: إنَّ آياتِ الكتاب بعضُها مُحكمٌ، وبعضُها غير محكمٍ، وهذا يخالفُ نصَّ القرآن الكريم، بل ويُخالفُ إجماعَهم على أن كل آيات الكتاب مُحكمة.

فنحن نجدُ أنَّ في الكتب السَّابقةِ حديثًا عن الله وربوبيته للعالمين، وحديثًا عن الرُّسُلِ وعن قصص الأنبياءِ، وعن الجنَّةِ والنارِ، وعن الغيبياتِ وعوالم الجنِّ والملائكة مثلما وَرَدَ في القرآن الكريم، فالمتشابه هنا هو ما وَرَدَ في القرآن الكريم من آيات تُشبهُ الآيات التي وَرَدَتْ في الكتب السَّابقة، وليس المرادُ بكلمةِ المتشابه التي وصفتْ بها بعض الآيات كما جاءَ في الآية الكريمة.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ خروجَها عن معنى الإحكام، فقد ظنُّوا أن وصف بعض الآيات بالمتشابهات ينفي عنها أنها مُحكمةٌ! وليس ذلك بصحيحٍ؛ لِـمَا تقرَّرَ من تصريحِ القرآن نفسه بأنَّ آياته محكمةٌ، ولما استقرَّ من أن صفة الإحكامِ من جوهر القرآنِ؛ لأنَّه كلام الله فكيف تنتفي صفةُ الإحكام عن بعض آياته، بل كيف تَنتفِي صفةُ الإحكام عن حرفٍ من حروفِه؟!

فالقرآنُ كلُّه محكمٌ، وهذا المحكم على صنفيْنِ:

1- محكم هو أم الكتاب:

2- محكم متشابه مع الكتب السَّابقة.

- ما المقصودُ بأمِّ الكتابِ؟

أُمُّ الْكِتَابِ أي مقصود الكتاب. فأمُّ ترشدُ إلى الشَّيءِ الذي قصدته.

- قال قَتادة أُمُّ الكتاب أَصْلُ الكِتاب(1).

- أُمُّ الشيء: أصلُهُ. ومَكَّة: أُمُّ القُرى. والأُمُّ: الوالدةُ، والجمع أُمَّاتٌ(2). وأمُّ الشَّيء: أصلُ وجودِه وأساسُ إصلاحه وتربيتِه، فهذا الجزءُ من المُحكمِ تفرَّدَ به القرآنُ عن الكتبِ السَّابقةِ ولم يأتِ مثلُها فيه.

فالمُحكمُ الذي هو أم الكتاب ظهرَ في مجيءِ الآياتِ بشريعةٍ جديدةٍ خالدةٍ شاملةٍ إلى العالمين مُستمِرَّة إلى يوم القيامة، وهي تحقُّقُ قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:48]. وتحقق معاني قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:106].

وقد جاء في السُّنَّةِ النبويَّة ما يؤيدُ ذلك؛ فقد روى مسلمٌ في صحيحه عن ابن عباسٍ، قال: «بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ ﷺ، سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السماء فُتِحَ اليوم لم يُفتح قطُّ إلا اليوم، فنزل منهُ ملكٌ، فقال: هذا ملكٌ نزل إلى الأرض لم ينزلْ قطُّ إلا اليوم، فسلَّم وقال: أبشر بنُورين أُوتيتهُما لم يُؤتهُما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتاب،

---

(1) انظر: لسان العرب (1/ 137).

(2) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (5/ 1863) المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري- تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الرابعة- 1407 هـ - 1987م.

وخواتيمُ سُورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهُما إلا أُعطيته»(1).

وكذلك قد أخرج الحاكمُ في مستدركه عن أبي هريرةَ، عن أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قالَ رسول الله ﷺ: «**أَلا أعلمُك سورةً ما أُنزلتْ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزَّبورِ ولا في القرآنِ مثلها؟**».

قلت: بلى. قال: «**إنِّي لأرجُو أنْ لا تَخرجَ من ذلك البابِ حتَّى تعلمها**». فقام رسولُ الله ﷺ، وقمت معه، فجعل يحدِّثُني ويدي في يدِه فجعلت أتباطأ كراهيةَ أن يخرجَ قبل أن يخبرَني بها، فلما دنوتُ من البابِ قلتُ: يا رسولَ الله السُّورة التي وعدتني، فقال: «**كيف تقرأُ إذا قمت إلى الصَّلاة؟**». فقرأت فاتحة الكتاب، فقال: «**هي هي، وهي السَّبع المثاني التي قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]. الذي أُعطيت**»(2).

فعلى ذلك أم الكتاب مما تفرَّد به القرآنُ عن الكتب السابقة وتميَّزَ به وجاء فيه من آياتٍ كريمة تعالج جميع المحاور العقدية والتَّشريعية والأخلاقيَّة.

- ما المقصود بالمتشابهات؟

المُتشابهاتُ هي آيات محكماتٌ من القرآنِ الكريمِ جاء مثلُ معناها، أو مثل ما تعالجُه من الموضوعات في الكتبِ السَّابقة، فمن هذا الوجه هذه الآياتُ القرآنيَّةُ المتشابهات مع ما سبقها من كتب الوحي الإلهي، ومن أمثلة ذلك قصصُ الأنبياءِ، وقصة بداية الخلق التي وردتْ في القرآن الكريم ووردتْ في الكُتُبِ السابقة؛ فقد وُجِدَتْ معانيها في القرآنِ، وكبعض

(1) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (806) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 744) من طريق أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا الحسن بن علي بن عفان العامري، ثنا أبو أسامة، حدثني عبد الحميد بن جعفرٍ، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا به مرفوعًا وقال عنه الحاكم: هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلمٍ، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

التَّشريعاتِ والأحكام التي وَرَدَتْ في القرآن الكريم ووردتْ في الكتب السابقة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90]. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: 111]. وهذا القسم يُمثِّل جزءًا من المُتشابه وهو المشار إليه في سورة آل عمران ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى:14-19]. فهذه المعاني الكريمة المذكورة في النصِّ القرآنيِّ من التزكية وذكر الله والتذكير بفضل الآخرة على الحياة الدنيا يخبرُنا الله عزَّ وجلَّ أنَّها ذكرتْ في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ومن هذا الوجه هذه الآيات من المُتشابهاتِ.

- قد ذكر الله سبحانَه الصِّيامَ في القرآن الكريم ولكنَّه جعل له هيئةً تشريعيَّةً خاصَّةً بأمة الإسلام على غير الهيئةِ التي كانت في الأمم السابقة يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]. وقد وُجدَتْ نصوصٌ في الكتب السابقة تتحدَّثُ عن الصِّيام كشريعة نوردها لتقريب الفكرة لا لتأصيلها فأصلُها موجود في القرآن الكريم:

- سِفر صموائيل: قدِّسُوا صومًا، نادوا باعتكافٍ، اجمعُوا الشُّيوخ جميع سكان الأرض إلى بيت الرب إلهكم واصرخُوا إلى الرَّبِّ. 1/ 14.

- سِفر زكريا: هكذا قال ربُّ الجنودِ أنَّ صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبيت يهوذا ابتهاجًا وفرحًا وأعيادًا طيبةً فأحبُّوا الحق والسَّلامَ. 8/ 19.

- وقد أخبرَ الله سبحانَه في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]. وقد وُجدت نصوصٌ تتحدث عن معنى وراثة المؤمنين للأرضِ كما ذكر القرآن الكريمُ في سفر المزامير؛ حيث وردتْ عدةُ مراتٍ في

المزمور السابع والثلاثين:

-لأنَّ عاملِي الشر يقطعونَ والذين ينتظرون الرَّبَّ هم يرثونَ الأرضَ. 37/ 9.

- أمَّا الوُدعاءُ فيرثون الأرضَ ويتلذذون في كثرة السلامةِ. 37/ 11.

- الربُّ عارف أيَّام الكَمَلَةِ وميراثُهم إلى الأبد يكون. 37/ 18.

-لأنَّ المباركينَ منه يرثون الأرضَ. 37/ 22.

- الصِّديقون يرثونَ الأرضَ ويسكنونها إلى الأبدِ. 37/ 29.

-انتظر الرب واحفظ طريقَه فيرفعك لترثَ الأرضَ.37/ 34.

فالمحورُ الذي تدور حولَه هذه الفقراتُ هو أن العبادَ الصَّالحينَ هم مَنْ سيرثون الأرضَ، وهي نفس المعنى الذي تقرِّره الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105]. فمن هذا الباب تُعدُّ هذه الآية من المحكم المتشابه الذي ورد مثلُه في الكتب السابقةِ، وليس معنى أن الآية من المتشابه أنها خلتِ عن الإحكامِ.

وفيما يختصُّ بقصص الأنبياء نجدُ أنَّه قد وَرَدَتْ في القرآن الكريم أخبارُهم كما وردتْ في الكتب السابقة، وإن كان ما في القرآن الكريم أكثرَ بيانًا وإيضاحًا وابتعادًا عما وقع من التَّبديل والتَّغيير في تلك النصوص(1).

فعلى سبيل المثال: نجد قصَّةَ أيوب عليه السلام في القرآن الكريمِ وذِكرَ رحمة الله به. يقول الله عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83-84].

---

(1) وكما أشرنا سابقًا أننا نسوق هذه النصوص تقريبًا وإيضاحًا للمسألة وليس تأصيلًا لها؛ فذلك مذكور في القرآن الكريم وكفى بذلك، ويجب أن نضعَ في الاعتبار ما ذكره القرآنُ الكريمُ من تعرُّض الكتب السابقة للتَّبديل والتَّغيير، وكذلك نضعُ في الاعتبار اختلاف اللغة الموجود بها هذه النصوص الآن عن اللُّغات التي نزلت بها وقتئذٍ.

وقد جاء في سفر أيوب: وعندما صلَّى أيوب من أجل أصدقائه رَدَّه الرب من عزلةِ منفاه. وضاعف كلَّ ما كان له من قبلُ. وأقبل عليه إخوته وأخواتُه وكل معارفه السابقينَ، وتناولوا معه طعامًا في بيته، وأبدَوْا له كل رِفقٍ، وعزُّوه عن كل ما أنزلَه به الرَّبُّ من بلوى، وقدم له كل واحد منهم بعض المالِ وخاتمًا من ذهب، وبارك الربُّ آخرةَ أيوب أكثرَ من أُولَاه، فأصبح له أربعةَ عشرَ ألفًا من الغنم وستَّةَ آلاف من الإبل وألفَ فدان من البقر وألفَ أَتانٍ. (سفر أيوب:42/ 10-12).

وخلاصةُ الأمرِ في هذه المسألةِ أنَّ صفةَ الإحكامِ هي صفةٌ لازمة لكل آياتِ الكتابِ، ومن هذه الآياتِ المحكماتِ آياتٌ هي «**أم الكتاب**»، ومن هذه الآيات المحكمات «**متشابهات**». وليس الحال كما ظنَّ البعضُ أنَّ القرآنَ الكريمَ تَنقسِمُ آياتُه إلى محكمٍ معلوم المعاني ومُتشابهٍ خرج عن الإحكامِ غيرِ معلومِ المعنى، فالقرآنُ كلُّه محكمٌ بنصِّ الكتاب نفسِه؛ أم الكتاب مُحكمٌ، والمتشابهاتُ مُحكمةٌ أيضًا.

وصفةُ الإحكامِ المُطلقِ في القرآن الكريم هي ما أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن مظاهرِها فقال: «**إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ**» قَالَ: قُلْتُ: فَمَا المَخْرَجُ؟ قَالَ: «**كِتَابُ الله فِيهِ نَبأُ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وهُوَ الْفَصْلُ ولَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، ومَنِ ابْتَغَى الهُدَى - أَوْ قَالَ الْعِلْمَ - مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، هُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لم تَنته الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ - حَتَّى قَالُوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ **مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(1) فهذه كلُّها صفاتُ النَّصِّ المُحكمِ

---

(1) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (2906) والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (3331) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المتين من أوَّله إلى آخرِه.

وعندما ننظرُ في الآية الكريمةِ من سورة آل عمرانَ، نجدُ أنَّ الله سبحانه وتعالى يُخبرُنا عن مَسلكِ مَنْ في قلوبهم زَيغٌ من أهل الكتاب والمُشركينَ مع المتشابِه القرآنيِّ مع الكتبِ السابقة فأخبرنا سبحانه أنَّهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ فيتركونَ جميعَ ما في الكتابِ من الإحكامِ الكليِّ والجزئيِّ، وما حمله من الهدايةِ وتصحيحِ العقيدةِ ورحمة التَّشريعِ والقيم الأخلاقيَّة، وغير ذلك من وجوه الهداية ويمسكون في ما تَشابَه من معاني آياتِه مع الكُتبِ السابقةِ، ولماذا يفعلون ذلك؟!

يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنَّهم يفعلون ذلك ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾. فيعلنونَ للناسِ كذبًا وزُورًا أنَّه لا حاجة لهم بهذا القرآنِ؛ لأنَّ الكتب السابقة تكفي؛ لأنَّه يوجد فيها ما يوجد في القرآن الكريم فيفتنون الخلق بمحاولة صرفهم عن الهدايةِ الرَّبانيَّة، وادعائهم أنَّه لا فائدةَ من رسالة النبي ﷺ ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ بمحاولة ادعاء أنَّ هذا المتشابه هو في الكتب السابقة أكثر بيانًا وإيضاحًا وتفصيلًا من القرآنِ الكريم، وذلك لمجرد أنه قد ذُكِرَ فيها بعض التفاصيل التي أهملَ القرآنُ الكريمُ ذِكرَها ولا فائدة فيها في مجال العقيدةِ أو التَّشريعِ أو الأخلاق، مثل تفاصيل خلق آدم عليه السَّلام وحجمِه وكم من السنوات قد عاشَ، وعن عصا موسى عليه السلام من أيِّ أنواع الشجر كانت.... إلخ التفاصيل التي لا تُحدثُ جديدَ فائدة ولا يترتب على الجهلِ بها نقص في دين أو عقلٍ.

وقد قطع الله سبحانَه وتعالى هذا القولَ وهذا الظَّنَّ بإعلانِه في آخر رسالتِه لأهلِ الأرضِ أنَّ هذا القرآن هو المُهيمنُ على جميع الكتبِ السَّابقةِ والحاكم عليها: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

فالتَّشابه والتَّصديق لما في الكتب السَّابقة معجزةٌ في نفسِه، والاختلافُ عنها والهيمنةُ عليه بعدم الاضطراب والخلط الذي أصابَ كثيرًا منها وعدم التعرض لتفاصيلَ لا تُفيدُ في قضايا الإيمان أو العبرة أو التَّشريع الذي هو هدف الآيات والأخبار وجهٌ آخرُ من وجوه الإعجازِ

القرآنيِّ، وعلى ذلك فما نختاره ونقول به هو أنَّ القرآن الكريم كله محكم، وأن صفة الإحكام لا تنفك عن حرف من حروفِه أو كلمة من كلماتِه أو آية من آياته فهو «**نص محكم كله**» وهذا هو الذي صرح به القرآن نفسه ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ وسوف ننظر الأثر التفسيري الذي يحدثه هذا القول عند محاولة تفسير كلام الله عز وجل ومحاولة استنباط معانِيهِ.

- **الآية الثالثة:** ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر:23].

وحتَّى يكتملَ التَّصورُ لدينا لهذه المسألةِ ننظر في معنى المتشابه الوارد في الآية الكريمة؛ فالقرآنُ الكريمُ محكمٌ كلُّه كما تقرَّر سابقًا، على أنَّه في هذه الآية يقرِّرُ سبحانه وتعالى أنَّ الكتاب متشابه، وليس هناك تعارضٌ بين المعنييْنِ، حيث إن معنى تشابه الكتاب في هذه الآيةِ هو المماثلةُ والمقاربةُ من حيث خصائصُ الكتاب وكون جميع آياتِه وكلماته على درجةٍ واحدةٍ مِنِ احتوائها على الحقِّ المطلقِ؛ فالقرآنُ كله متشابه من جهة الإعجاز والبيان واتساق نظمه، وعدم التفاوت في بلاغتِه وفصاحتِه وحسن ألفاظه، فهو متقاربٌ متماثلٌ متشابهٌ في النَّسقِ والجزالةِ والفصاحةِ.

ومُتشابهٌ في كونه كلِّه كالجملةِ الواحدةِ من حيث النظمُ والبناءُ والأهدافُ والمقاصدُ. ومتشابهٌ في تصديق بعضِه بعضًا وعدم تعارض معانِيهِ، وسلامتُه من كل عيوبِ الخطابِ من التَّناقضِ أو الاختلافِ أو التفاوتِ، وسبحان مَنْ قال في وصف كتابه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. فالقرآنُ كلُّه محكمٌ باعتبارٍ وكله مُتشابِهٌ باعتبارٍ آخرَ.

فكله محكمٌ بمعنى أن كلَّه واضحٌ بَيِّنٌ، وكله متشابه بمعنى تصديقُ بعضه لبعض، وبعضُه متشابهٌ وبعضُه محكمٌ بمعنى متشابه، مع ما صَحَّ من الكتب القديمةِ ومهيمنًا عليها، ومحكم بمعنى أنَّه أم الكتاب الذي أَتَى بما لم تأتِ به الكتب السابقةِ، وليس معنى المتشابه أنَّه غير معلوم المعنى أو أنه ليس من المحكمِ.

- **الآية الرابعة:** ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:17].

لو تأمَّلنا في معاني هذه الآيةِ الكريمةِ وفيما تقرَّره من تيسير القرآن الكريم فسوف يُبطِلُ أيَّ تصورٍ عن وجودِ معانٍ مبهمَةٍ غير واضحةٍ في كتاب الله تحت مُسمَّى المتشابِه، والذِّكر هنا هو اسم يجمع كل معنى ومقصِد وهدف من أهدافِ النصِّ القرآنيِّ على مستوى العقيدة والتَّشريع والأخلاق، فقد يَسَّرَ الله سبحانه وتعالَى المعاني القرآنيَّةَ فليس فيها إبهامٌ أو غموضٌ، ومعنى الآية الكريمة أن الله جل وعلا قد يسر القرآن للادكار والاتعاظ، فهذا النصُّ الإلهيُّ الكريمُ ميسَّرٌ للبشر على مستوياتِ القراءة والفهم والنظر والتفاعل معه والاستنباط والتدبر والعمل به، وهذا المعنى منتشرٌ في القرآن الكريم متقرِّر في آيات كثيرة كحقيقةٍ يقينيَّةٍ وصفة جوهريَّة لهذا النص الإلهي بما يرشدُنا أنَّ المتشابه في القرآن الكريم هو أبعد ما يكونُ عن أن يكون معناه هو المخفيَّ الغامض غير الواضح.

- **الأثر التفسيريُّ لإحكام النص القرآني كله ووضوحِه:**

من أهداف هذه المباحثِ الَّتي بين أيدينا وضعُ وإيضاح وتنظيم الخريطة الذهنية المعرفيَّة التي تكشفُ عن قانون التَّفسير؛ عن طريق تقرير حقائق ومنطلقات شرعية وعقليَّة يقينية تؤدِّي بنا إلى القراءةِ الصحيحةِ للنص القرآني، والوصول إلى معاني كلية وجزئية مقبولة شرعًا وعقلًا، يأخُذُ منها القارئ والمفسر ما يحتاجه في تعامله مع القرآن الكريم.

وقد وجدنا أنَّ إثبات وبيانَ صفة الإحكام للنصِّ القرآنيِّ على مستوى جميع آياتِه وكلماته من أهمِّ معالم هذه الخريطةِ؛ فهي تؤدِّي لشكل أعمق في استخلاص المعاني من القرآن الكريم؛ فمن صور ذلك:

- النظر للقرآن الكريم على أنه كله محكمًا ينعكس على جميع آياتِه وكلماته وبيان صلاحيَّتها لكل زمانٍ ومكان، فالقرآنُ الكريم هو أصلُ الأصول للشريعةِ الإسلاميَّة، ومنه المنطلقُ لفَهمِ الدين، فليس في القرآنِ غموضٍ ولا خفاءٍ في المعاني والأهداف والمقاصدِ.

فهذا الكتاب هدى ونور من ربِّ العالمين لجميعِ عباده، وقد تقرَّرَ ذلك بنصِّ آيات القرآنِ

ولا يكونُ الهدى أو النُّور به أي نوع من الغُموضِ أو الالتباسِ.

– القولُ بإحكام النصِّ الإلهي كله وعدم وجود غامض مبهم فيه تحت مفهوم المتشابه يجعل تنفيذَ الأمر الإلهيِّ بتدبر القرآن الكريم ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أمرًا في متناول البشر، والقول بغير ذلك يجعل هناك عددًا من الآياتِ لا يستطيعُ المسلم التَّعامل معها ولا تدبرها ولا معرفة إلى ماذا تشير! وكتاب الله عزَّ وجلَّ أعظم من أن تكونَ هذه صفتُه فهو النور المطلق والهداية المتجدِّدة.

– القول بإحكام جميع آيات الكتاب الكريم يُظهِرُ الهيمنةَ القرآنيَّةَ على كافَّةِ النواحي المعرفيَّة والعمليَّة وأنَّه الفيصل الذي يحتكم الناسُ إليه. وكذلك إبراز صفة الهيمنةِ على الكتب السَّابقةِ.

– القولُ بأنَّ النَّصَّ كله محكم يُظهِرُ أنَّ صفة البيانِ صفة ذاتية في النص القرآني كما وصفَه الله عز وجل: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:138]. لا يَخرُجُ عن هذه الصفة آية أو كلمة.

في حين أنَّ القول بالمتشابه الملتبس يشتِّتُ النظر والذهن وتختفي معه صفة البيان والهداية. وليس في هذا القول نفيُ اختلاف أهل التفسير في معاني بعض الآيات أو فيما تدل عليه، فالقرآنُ حمَّال أوجه، وهذا وجه من وجوه إعجازه؛ وإنما المنفيُّ أن يزعم أحدٌ أنه توجد آيات غامضة المعنى مبهمة غير واضحة لا يستطيع البشرُ معرفةَ معنى لها يدخل دائرة القبولِ الشرعيِّ والعقليِّ.

– إبرازُ وضوح القرآنِ كلِّه وظهور معانيه وإمكانية إدراك هذا الوضوح ومعرفته، وإدراك وجوه إعجازِه المختلفة والمتنوِّعة وما نختارُه في هذه الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ

آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]. أنَّ قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ عطف، وليس استئنافًا.

- كوّن القرآن الكريم هو الرِّسالة الأخيرة من ربِّ العالمين لمخلوقاتِه هذه الرسالة هي الحاوية للشَّريعةِ الدائمة والمنهج الذي لا يتغيَّرُ يقتضي عدم وجود غوامض أو مبهمات في معانِيهِ كما تقتضي أن تكون جميعُ آياتِه وكلماته محكمات، ولا ينفي هذا وجود اتِّساع في دائرةِ المعاني القرآنيَّة لبعض الآيات فَهي في جميع الحالات تدورُ داخلَ دائرة الإحكام ولا تخرج عنها.

إنَّ هذا الرأي الَّذي نتجِّه إليه والذي يتلخص في: «أنَّ القرآن كلَّه محكمٌ بمعنى الوضوح والبيانِ، وكله متشابهٌ بمعنى تصديق بعضِه لبعضٍ، وبعضه متشابهٌ بمعنى متشابه مع ما صَحَّ من الكتب السابقة القديمة ومهيمنًا عليها، ومحكم بمعنى أنه أم الكتاب الذي أتى بها لم تأتِ به الكتب السَّابقة».

هذا الرأيُ يقدم أداةً تفسيريَّةً، ويفتح للمفسِّرِ آفاقًا جديدةً لتدبُّر القرآن الكريم باعتباره كتاب هداية لا لبسَ فيه، ولا إشكالَ في فهمِه؛ ولذلك فإنه يبحثُ في دلالة ألفاظه وفي البيئة المحيطة بتلك المعاني المأخوذة من الدلالاتِ، سواء أخذت من السياق أم من الدلالة المستقلَّة، بحيث يَنطلِقُ المفسِّرُ في فكره لتصور ما تستلزمُه هذه المعاني من نتائج، وما تحتاجُه لتحقيقها في الواقع من شروطٍ، وما قد ينشأ من علاقاتٍ بينية مع مجمل ما أمرت به الشريعة، وما هو حادث في الواقع.

في حين الآراء الأخرى قد تنشأ من الحجاب بين قارئ القرآن وبينه باحتمال دائم أنه سوف يحرم الفهم، أو لا يصل إلى مراد الله. ثم هذا الاتجاه الذي ينفي أن يكون المتشابِه بمعنى الغامض المبهم أكثر تعظيمًا لشأن القرآن الكريم؛ حيثُ يوضِّحُ أن كونه كله محكمًا، وكله هاديًا، وكله صالحًا لكل زمان ومكان.

ويَفتحُ هذا الرأي أمامَنا المجال لفهم المعنى الكليِّ للوحي الإلهيِّ منذ القديم؛ حيث تُظهرُ

لنا حقيقةَ أنَّ رسالات الله تعالى لخلقِه تخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ ذات مقاصدَ واحدة بل وتتشابه في كثيرٍ من التفاصيل، فرسالة القرآنِ الكريمِ وشريعة الإسلام هي العهدُ الأخيرُ من رب العالمين لمخلوقاته.

(التوراة) العهدُ القديم عن طريق موسى عليه السلام، و(الإنجيلُ) العهد الجديد عن طريق عيسى عليه السلام، والعهد الأخير (القرآن الكريم) عن طريق محمد ﷺ. وذلك مع مراعاة ما ذُكِرَ في القرآن الكريم عن تعرضِ بعض النصوصِ للتغييرِ والتبديل والتحريفِ. ولكننا نتكلم عن مبدأ الوحي الإلهي ذاتِه وكيف تشابهتْ رسالاتُ الله إلى الخلق.

وهذا الرأيُ ينفي أن يكون معنى المتشابه أنَّه غير محكم، أو أنَّه مبهم غامض ليس في الاستطاعة إدراك معانِيهِ. وهذا بدورِه يعني أنَّ القرآن كلَّه من أوَّله إلى آخره مفتوح للتدبر وإدراك المَعنى، وينفي عن النص القرآنيِّ أن يكون سببًا للخلاف الناتج عن غموض المعنى والتباسه، وإنما يمكن أن ينتج عنه اختلاف وتنوع في المعاني المقبولة عقلًا وشرعًا.

وهذه أحد أبرز وجوه كون القرآن مبينًا وكونه هدى ونورًا من أوَّله إلى آخره؛ فلا يتخلف هذا الهدى وهذا البيان عن كلمة أو حرف في هذا النص الإلهي تحت دعوى عدم الوضوح لأنه من المتشابه الذي لا يعلم معناه أو الذي يلتبس معناه علينا.

- **من أقوال أهل العلم والتفسير حول هذه القضية:**

- مما يؤكد ما اتجهنا إليه من عدم وجود مبهم غامض في القرآن الكريم لا يُمكِنُ إدراكُ معناه تحت مسمى المتشابه ما ورد عن صحابة رسول الله ﷺ من أنَّهم كانوا يتلقون القرآن من النبي ﷺ ويتعلمونَ ما فيه من المعاني ثم يعملون بها، وما أعلنه عبد الله ابن مسعود من علمه بكتاب الله الذي لا يدانيه فيه أحد، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «و **والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آي**ة من كتاب الله إلا

أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه»[1].

عن أبي عبد الرحمن قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ، أنهم كانوا " يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات "، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»[2].

ووجه الدِّلالة من هذا الأثر أن الصحابةَ الكرامَ رضوان الله عليهم كانوا يتلقَّونَ عن رسول الله ﷺ القرآنَ ومعه معاني الآيات وما تستلزمُه من العمل، ولم ينقُلْ عنهم أنهم توقفوا أمام آياتٍ وقالوا هذا من المتشابه الذي لا يُعرفُ معناه؛ بل المنقولُ عنهم هو تعلُّمُ آيات القرآن الكريم وإدراكُ المعاني والعمل بها ونقلها لمَنْ بعدهم من السلف الصالح خاصَّةً مَنِ اشتُهِرَ منهم في مجال التفسيرِ.

ولابن تيمية رحمه الله كلامٌ نذكره ثم نستنبطُ منه بعض المعاني: «يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بَيَّنَ لأصحابِه معاني القرآن كما بَيَّنَ لهم ألفاظَه فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يتناولُ هذا وهذا. وقد قال أبو عبد الرحمن السلميُّ: حدَّثنا الذينَ كانوا يقرئوننا القرآن؛ كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعودٍ، وغيرهما أنَّهم كانوا إذا تعلَّمُوا من النبي ﷺ عشر آياتٍ، لم يجاوزوها حتى يتعلمُوا ما فيها من العِلم والعمل قالوا: فتعلَّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا؛ ولهذا كانوا يبقون مدَّةَ في حفظ السورة وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَلَّ في أعيننا وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قيل: ثمان سنين ذكره مالك.

وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(1) متَّفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (5002)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (2463).

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده رقم: 32482.

ﱡﭐﭐٱلۡقُرۡءَانَﱠ وقال: ﱡﭐأَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَﱠ وتدبر الكلام بدون فَهمِ معانيه لا يمكن. وكذلك قال تعالى: ﱡﭐإِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَﱠ وعقل الكلام متضمِّنٌ لفهمه، ومن المعلوم أن كلَّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك، وأيضًا فالعادة تَمنعُ أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطِّبِّ والحساب ولا يستشرحوه(1)؛ فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتُهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟! ولهذا كان النِّزاعُ بين الصَّحابةِ في تفسير القرآنِ قليلا جدًّا، وهو وإن كان في التَّابعينَ أكثر منه في الصَّحابة فهو قليلٌ بالنسبة إلى مَنْ بعدهم وكلما كان العصر أشرفَ كان الاجتماعُ والائتلافُ والعلمُ والبيانُ فيه أكثرَ، ومن التابعين من تلقَّى جميع التفسير عن الصحابة؛ كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباسٍ أوقفَه عند كل آيةٍ منه وأسأله عنها؛ ولهذا قال الثوريُّ: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعيُّ والبخاريُّ وغيرُهما من أهل العلم وكذلك الإمام أحمد وغيره ممَّنْ صنَّفَ في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود أنَّ التابعين تلقَّوْا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباطِ والاستدلالِ كما يتكلمونَ في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال»(2).

فابن تيميَّة رحمه الله يقرِّر هنا عدة أمور عندما نتفكر فيها تتضح من خلالها أبعاد مسألة قضية المتشابه في القرآن الكريم وأنها أبعد ما تكون عن كون معنى المتشابه بمعنى الغامضِ أو غير المعلوم المعنى حيث إنه رحمه الله قد ذكر:

- بيان النبي ﷺ ألفاظ القرآن ومعانيه للصحابة الكرام وقد قال الله عز وجل: ﱡﭐوَمَا عَلَى

(1) أي يطلبوا شرحه.

(2) انظر: مجموع الفتاوى (13/ 333-332).

الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:54]. والبلاغ المبين هو التامُّ الكامل الذي لا مزيد بعده، فكيف يتفق هذا مع ادعاء وجود معان غامضةٍ مبهمة غير معلومة لكلمات أو آيات في كتاب الله تحت دعوى أن هذا من المتشابه؟!

- بيان أنَّ من التابعين من تلقَّى جميع التفسير عن الصَّحابةِ الكرام، ولم يشتهر عنهم رضوان الله عليهم- إن لم نقل إنه لم يَرِدْ من الأصل- أنهم قالوا عن آية من كتاب الله أنَّها من المتشابه الذي لا يدرك معناه.

ويقول رحمه الله كذلك: «ومما يحتجُّ به مَنْ قال الراسخون في العلم يعلمون التأويل: ما ثبتَ في صحيح البخاري وغيره- عن ابن عباس: أن النبي ﷺ دعا له وقال: «**اللَّهمَّ فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل**». فقد دعا له بعلم التأويل مطلقًا. وابن عباس فسَّرَ القرآنَ كله. قال مجاهد: عرضت المصحفَ على ابن عباس من أوَّلِه إلى آخره أقفه عند كل آية وأسألُه عنها، وكان يقول: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويلَه(1)، وأيضًا فالنقول متواترة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه تكلم في جميع معاني القرآنِ من الأمر والخبر؛ فله من الكلام في الأسماء والصفات، والوعد والوعيد، والقصصِ، ومن الكلام في الأمر والنهي والأحكام ما يبيِّنُ أنه كان يتكلَّمُ في جميع معاني القرآن. وأيضًا قد قال ابن مسعود: ما من آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم في ماذا أنزلت، وأيضا فإنهم متَّفقون على أن آيات الأحكام يعلمُ تأويلَها وهي نحو خمسمائة آية، وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته، أو عن اليوم الآخر والجنة والنار، أو عن القصص وعاقبة أهل الإيمان وعاقبة أهل الكفر. فإن كان هذا هو المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله فجمهور القرآن لا يَعرِفُ أحد معناه لا الرسول ولا أحد من الأمة ومعلوم أن هذا مكابرةٌ ظاهرةٌ»(2).

---

(1) اثر ابن عباس ذكره ابن كثير في تفسيره عن مجاهد ولفظه: "أنا من الراسخين الذي يعلمون تأويله" انظر تفسير ابن كثير (2/ 8).

(2) انظر: مجموع الفتاوى (17/ 403-402).

– يقول الفخرُ الرازيُّ رحمه الله في معنى المحكم والمتشابه في كتاب الله: «اعلم أنَّ كتاب الله تعالى دلَّ على أنه بكليَّته محكم، ودلَّ على أنه بكليَّته متشابه، ودلَّ على أن بعضَه محكمٌ وبعضه متشابه، أمَّا ما دلَّ على أنه بكليتِه محكم قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءايَاتُهُ﴾ [هود: 1]، ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ [يونس: 1]. قد ذكر في هاتيْنِ الآيتين أن جميعَه مُحكم، والمرادُ من المحكم بهذا المعنى كونه حقًّا في ألفاظِه، وكونه حقًّا في معانيه، وكلُّ كلام سوى القرآن فالقرآنُ أفضلُ منه في لفظه ومعناه. وأنَّ أحدًا من الخلقِ لا يقدرُ على الإتيانِ بكلام يُساوِي القرآنَ في لفظِه ومعناه. والعربُ تقول في البناء الوَثيقِ والعهد الوثيق الذي لا يمكن نقضُه أنَّه محكم فهذا معنى وصف كل القرآن أنه مُحكمٌ.

أمَّا الذي يدلُّ على أنه بكليَّتِه متشابه فهو قولُه تعالَى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر:23]. والمعنى أنَّه يُشبهُ بعضُه بعضًا في الحُسنِ والفصاحةِ، ويصدقُ بعضُه بعضًا وإليه الإشارةُ بقوله تعالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82] أي لكانَ بعضُه واردًا على نقيضِ الآخرِ ولتفاوت نسقِ الكلام في الجزالة والفصاحةِ»(1).

يقول الزَّركشيُّ رحمه الله عن الآية الكريمة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7]: «ومنهم مَنْ رجَّحَ أنَّها(2) للعطف؛ لأنَّ الله تعالى لم يكلِّفِ الخلق بما لا يعلمونَ، وضعف الأوَّلُ(3) لأنَّ الله لم يُنزِلْ شيئًا من القرآنِ إلا لينتفعَ به عبادُه ويدلُّ به على معنى أرادَه، فلو كان المتشابهُ لا يعلمُه غيرُ الله للزِمنَا، ولا يسوغُ

(1) انظر: أساس التقديس في علم الكلام (ص 125) تأليف: محمد بن عمر الرازي- مؤسسة الكتب الثَّقافية- بيروت – الطَّبعة الأولى – 1415هـ -1995م.

(2) يقصد الواو التي في قوله تعالى ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾.

(3) مراده بالأول: مذهب من يقول إن الواو هنا للاستئناف؛ فيكون علم التأويل مختصا بالله دون الراسخين الموصوفين بالإيمان.

لأحدٍ أن يقولَ إنَّ رسولَ الله ﷺ لم يعلم المُتشابه فإذا جازَ أن يعرفَه الرسولُ مع قولِه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جازَ أن يعرفَه الرَّبانيُّونَ من صحابتِه والمفسرون من أمتِه، ألا ترى أنَّ ابنَ عباسٍ كان يقول: أنا مِنَ الراسخينَ في العلم، ويقول عند قراءة قوله في أصحاب الكهف: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أنا من أولئك القليلِ، وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿وما يعلمُ تأويلَه إلا الله والراسخونَ في العلم﴾ يعلمونَه ويقولون آمنا به. ولو لم يكن للراسخينَ في العلم حظٌّ من المُتشابِه إلا أن يقولوا آمنَّا، لم يكن لهم فضل على الجاهِلِ؛ لأن الكل قائلونَ ذلك. ونحن لم نر المفسرينَ إلى هذه الغاية توقَّفُوا عن شيء من القرآن فقالوا: هو مُتشابه لا يعلمُه إلا الله بل أمروه على التَّفسيرِ حتى فسَّروا الحروفَ المقطَّعة.

فإن قِيلَ: كيف يجوزُ في اللغة أن يعلم الراسخونَ واللهُ يقول: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وإذا أشركهم في العلم انقطعوا عن قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ لأنَّه ليس هنا عطفٌ حتى يوجب للراسخين فعليْنِ! قلنا: إنَّ ﴿يَقُولُونَ﴾ هنا في معنى الحال كأنَّه قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ قائلينَ آمنا كما قال الشاعر:

الـــــريح تبكــــــي شــــــجوها والــــــبرق يلمــــــع في غمامِــــــه

أي لامعًا. وقيل المعنى: يعلمون ويقولون فحذف واو العطف كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:22] والمعنى يقولون: علمنا وآمنا لأنَّ الإيمانَ قبل العلم محال؛ إذ لا يُتصوَّرُ الإيمانُ مع الجهل، وأيضًا لو لم يعلموها لم يكونوا من الراسخينَ ولم يقع الفرقُ بينهم وبين الجُهَّالِ.

الثالثُ: ومن هذا الخلاف نشأَ الخلافُ في أنه هل في القرآن شيءٌ لا تعلم الأمةُ تأويلَه. قال الراغب في مقدمة تفسيره: وذهب عامَّةُ المتكلمينَ إلى أنَّ كلَّ القرآنِ يجبُ أن يكونَ معلومًا وإلا لأدَّى إلى إبطالِ فائدة الانتفاعِ به، وحملوا قولَه: ﴿والرَّاسخونَ﴾ بالعطفِ على قولِه:

﴿إِلَّا اللهُ﴾ وقولُه: ﴿يَقُولُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ»(1).

– يقولُ ابن تيميَّةَ رحمه الله: «قال الثوريُّ: إذا جاءك التفسيرُ عن مجاهد فحسبُكَ به. وأمَّا التَّأويلُ فشأنٌ آخرُ. ويبيِّنُ ذلك أن الصحابةَ والتَّابعينَ لم يمتنعْ أحدٌ منهم عن تفسير آيةٍ من كتاب الله ولا قال هذه من المُتشابِهِ الَّذي لا يعلمُ معناه، ولا قال قطُّ أحدٌ من سلف الأمَّة ولا من الأئمة المتبوعينَ: إنَّ في القرآنِ آياتٍ لا يعلمُ معناها ولا يفهمُها رسولُ الله ﷺ ولا أهلُ العلم والإيمانِ جميعُهم، وإنما قد ينفونَ علم بعض ذلك عن بعضِ الناسِ وهذا لا رَيْبَ فيه»(2).

وقد نقل الإمام الطَّبريُّ رحمه الله عن مجاهدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يؤكِّد عدمَ خفاءِ شيء من معاني آيات القرآن الكريم عن الصَّحابة الكرام حيث قال:

– حدثنا أبو كريبٍ قال: حدثنا طَلق بن غنام، عن عثمان المكيِّ، عن ابن أبي مُليكة قال: رأيت مجاهدًا يسأل ابن عباسٍ عن تفسير القرآن، ومعه ألواحُه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كلِّه.

– حدَّثنا أبو كريب، قال: حدثنا المحَاربي، ويونس بن بُكير قالَا: حدَّثنا محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاث عَرْضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقِفه عند كل آية منه وأسألُه عنها»(3).

– يقول الإمام القاسميُّ رحمه الله في تفسيره: «إنَّ الله إنما أنزلَ القرآنَ ليُعلمَ ويفهمَ ويُفقهَ ويتدبرَ ويتفكرَ به محكمُه ومُتشابهُه، وإن لم يعلم تأويلُه. ويُبيِّنُ ذلك أنَّ الله يقول عن الكفار:

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن (2/ 74-72).

(2) انظر: مجموع الفتاوى (13/ 285).

(3) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (1/ 90) المؤلف: محمد بن جرير الطبري – المحقق: أحمد محمد شاكر– مؤسسة الرسالة –الطبعة الأولى، 1420 هـ – 2000 م.

﴿وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُورًا وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْرًا، وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 45- 46] فقد أخبر، ذمًّا للمشركين، أنَّه إذا قُرِئَ عليهم القرآن حَجَبَ بين أبصارهم وبين الرسولِ بحجابٍ مستورٍ، وجعل على قلوبهم أكنَّة أنْ يفقهوه وفي آذانهم وَقْرًا. فلو كان أهلُ العلم والإيمانِ على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضَه لشاركوهم في ذلك. وقوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ يعودُ إلى القرآن كلِّه. فعُلِمَ أنَّ الله يحبُّ أن يفقه. ولهذا قال الحسنُ البصريُّ: ما أنزلَ اللهُ آيةً إلا وهو يحب أن يُعلمَ في ماذا أنزلتْ وماذا عُنِيَ بها.

وما استثنى من ذلك لا متشابهًا ولا غيرَه. وقال مجاهد: «عرضتُ المصحفَ على ابن عباسٍ من أوَّلِه إلى آخرِه مراتٍ أقفُه عند كل آية وأسألُه عنها. فهذا ابن عباس حبرُ الأمة، وهو أحد مَنْ كان يقول: وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله، يُجيبُ مجاهدًا عن كل آيةٍ في القرآن.

وهذا هو الذي جعَلَ مجاهدًا ومَنْ وافقه كابن قتيبةَ على أن جعلوا الوقف على قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فجعلوا الرَّاسخينَ يعلمون التأويلَ؛ لأنَّ مجاهدًا تعلَّم من ابن عباس تفسيرَ القرآن كله وبيان معانيه.

فظنَّ أن هذا هو التأويل المنفيُّ عن غير الله. وأصل ذلك أنَّ لفظ التأويل، وبه أُشيرَ إلى بين ما عناه الله في القرآنِ وبين ما كان يُطلقُه طوائفُ من السَّلفِ، وبين اصطلاحِ طوائفَ من المتأخِّرين، فبسبب الاشتراك في لفظ (التأويل) اعتقد كل من فَهِمَ منه معنى بلغتِه أنَّ ذلك هو المذكور في القرآنِ»[1].

– وهناك نقطةٌ يجبُ أن توضِعَ في الذِّهنِ ونحن نتكلَّمُ عن هذه المسألة: وهي أنَّ القولَ بعدم غُمُوضِ المعنى أو التباسِه في كتاب الله لا يَعني أنَّه لا يوجدُ من الناس مَنْ لا يُدركُه؛ وإنما المنفيُّ عن كتاب الله تعالَى هو تصور وجودِ لفظٍ فيه لا يُمكنُ إدراكُ معناه وبيانُه من

(1) انظر: محاسن التأويل (2/ 261/ 262) المؤلف: محمد جمال الدين القاسمي- المحقق: محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى – 1418 هـ.

خلال أهل العلمِ.

وعليه فما اخترناه هنا في مسألة المحكم ولامتشابه لا يخرج عن كلام المفسرين، ولا العلماء السابقين، الذين وضحوا أن القرآن نزل للتدبر والتفكر، من أجل الهدايةالموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة.

المبحثُ الرابع عشر
الجمعُ بين القِراءَتيْن؛ قراءةِ الأكوان وقراءةِ القُرآن

في مُحاولتنا للوصول لمنهجٍ مُتكاملٍ مُنضبط للتَّعامل مع القُرآن الكريم وتحصيلِ القراءة الصَّحيحة له تمكِّنُنا من الوصول إلى حقيقةِ تدبُّر كلامِ الله وإدراكِ معانيه؛ وذلك تنفيذًا للأمر الإلهيِّ ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29] يجبُ أن يكونَ من أركان هذا المنهج الجمعُ بين قراءةِ الكتاب المسطور «القُرآن الكَريم» وقراءةِ الكتاب المنظُورِ «الكونُ والوجودُ المحيطُ بكلِّ تفاصيله»، وإحداثُ عمليَّةٍ من التَّفاعُل والتَّلاحم العقليِّ الفكريِّ والنَّفسيِّ المُنظَّم المرتَّب، وعقدُ الصِّلة بين معاني القُرآن الكريم ومظاهرِ الوجُود من حولنا، ينتجُ عن هذه العمليَّة توليدُ المعارفِ والمعاني والتي تكوِّنُ لدينا نظريَّةً معرفيَّةً متكامِلَةً تشملُ العقيدة والتَّشريع والأخلاق، ينتج عنها مناهجُ تطبيقيَّةٌ عمليَّةٌ تجمع بين معاني الوَحْي الإلهيِّ اليقينيَّة المعصومة ومعاني ومفردات ومظاهر الوجُود والحياة، وقد مرَّ بِنَا نموذجٌ من هذا الأمر عندما استخرجنا من القُرآن الكريم مجموعةً من المبادئ القُرآنيَّة العامَّة، وسوف يأتي مبحثُ «السُّنن الإلهيَّة» والذي يعدُّ نموذجًا للجمع بين قراءةِ الكتاب المَسطُور وقراءةِ الكتاب المنظُور وعقد الصِّلة بينَهما.

منطلق الجمع بين القراءتين:

ومُنطَلَقُنا لركنِ الجمع بين قراءةِ الكتاب المسطُور وقراءةِ الكتاب المنظُور هو الأوامرُ الإلهيَّةُ الواردةُ في الآيات الكريمة؛ حيث أمرَ الله -سبحانه وتعالى- في أَوَّل آياتِ الوَحْي الإلهيِّ النَّازلة على نبيِّنا الكريم ﷺ حيث يقول عزَّ وجلَّ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:1-4]

فقد اشتملت هذه الآياتُ الكريمةُ على أمر الوَحْي وأمرِ الخلقِ، فَفِي هذا السِّياق القُرآنيِّ تظهرُ قضيَّةُ «القراءتين»، وهي أنَّ هناك قراءةً للقُرآن الكريم كنصٍّ إلهيٍّ له معانٍ، وقراءةً للأكوان كخَلْق إلهيٍّ تحتوي على معانٍ، وقد أشارَ لهذا صدرُ سورة العَلَق وهي أَوَّلُ ما نزل من

القُرآن الكريم؛ حيثُ كرَّر الله -سبحانه وتعالى- الأمرَ بالقراءة، وعلَّق القراءةَ الأولى على الخلق والثَّانيةَ على الوَحْي.

والقلمُ في هذه الآيات إشارةٌ إلى الوَحي، فنرى أنَّه سبحانه بدأ بالخلق وثَنَّى بالوَحْي، وكأنَّ الإنسان لا بدَّ عليه أن يُطَالع العَالَم وما حوله ليكون قادرًا على فَهْم الوَحْي، وكذلك لا بدَّ عليه من إدراك الوَحْي إدراكًا صحيحًا من أجل أن يغيِّر واقعَه التَّغيير الصَّحيح، ولذلك نرى أنَّ الخلْق والأمرَ يتكاملان في دائرةٍ واحدةٍ يصحُّ أنَّ نبدأ من أيِّ نقطةٍ منها فنصلَ إلى تمامها، وفي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن:1-3] إشارةٌ إلى تلك العلاقة الدَّائرية، والتي بها يسعى المجتهدُ إلى فهم مرادِ الله تعالى؛ فإذا أصابَ فلَه أجران وإذا أخطأَ فله أجر.

وعلى ذلك تكاملُ مصادرِ المعرفة عند المُسلم تأتي من قراءةِ الوَحْي وقراءةِ الوجود والواقعِ المعيش الذي حَوْله، فالوَحيُ والكونُ في عقيدة المسلم مَردُّهما إلى الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:54] فهو -سبحانه وتعالى- خالقُ الكون وما فيه ومنزِّل الكتاب وما يحتويه، فالكلُّ مِنْ عند الله، وعلى ذلك فهُنَاك علاقةٌ وَثِيقةٌ متَّحِدة لا يُتصوَّر انفصالُها بين آيات الكتاب ومعانيه ومتعلَّقاته وبين هذا الكون بكلِّ ما فيه من مَخْلُوقاتٍ وأحداثٍ في الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا يحتِّمُ على المُسلم وهو في طريقه لتحصيل الإيمان والمعرفة واليَقِين والحقيقة أن يجمعَ بين قراءةِ القُرآن الكريم وإدراكِ معانيه وبين النَّظر في الكون وما فيه؛ ويعملَ على الرَّبط بينهما، وهذه هي حقيقةُ دعوةِ القُرآن الكريم؛ أن يعرفَ الإنسانُ نفسَه ويعرفَ ما حَوْله من الخلق ويعرفَ ربَّه سبحانه، وهذه المعرفةُ درجاتٌ ومظاهرُ لا تُعدُّ ولا تُحصَى تظهر فيها وحدانيَّةُ الله ربِّ العالمين وعظيمُ شأنه سبحانه.

ويمكن أنَّ نُطْلِق على الإنسان الذي تَظْهر من خلال عقله معاني ومظاهر الرَّبط بين القِراءتين «الكتاب المقْدُور» فهذا المُثلَّث: الكتابُ المسطور، والكتابُ المنظُور، والكتابُ

المقدُور، تدورُ من خلاله عمليَّةُ المعرفةِ واليقين والحقيقة وظهور الإيمان، وينتجُ عن اندماجهم وتفاعلِهم تحقيقُ المرادِ الإلهيِّ من استخلاف الإنسان في الأَرْض وعمارَتِه.

كيف نطبِّق هذا الرُّكن من أركان التَّعامل مع كتاب الله؟

جاءَ الأمرُ بالنَّظر والتَّفكُّر والتَّدبُّر والتَّعقُّل في الكون والمخلُوقات والأحداث والوقائع في الكثيرِ مِنْ آيات القُرآن الكريم كما جاءَ الأمرُ بتدبُّر آياتِ القُرآن ومعانيه واستنباط اللَّازم من تدبُّر الكتابين المسطُور والمنظُور، وذلك عن طريق النَّفحة الإلهيِّة للإنسان والتي هي العقلُ؛ فنصلُ إلى حقيقة الآية الكريمة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلت:53].

وعندما نتكلَّم عن قانونٍ ضابطٍ لفهم معاني القرآن الكريم الفهمَ الصَّحيح يجبُ أن نجمعَ بين قراءَتِه وتدبُّر معانيه وبين النَّظر في الكون؛ لأنَّ هذه هي حقيقةُ القِراءة التي أمرنا الله بها، فتدبُّر القرآنِ فريضةٌ إلهيَّةٌ، وتدبُّر الكون ومعانيه فريضةٌ إلهيَّةٌ، والجمعُ بينهما واجبٌ، فمَنْ أهملَ في إحدى القِراءتين فقد أهمل في التَّكليف الإلهيِّ الذي جاء به القُرآنُ الكريمُ.

فمن اقتصَر على قراءةِ الكَوْن وحدَه فَقدَ حقيقةَ الإيمان واحتقَرَ العقلَ الذي ميَّزه الله به، ووَقَع فيما وقعت فيه الأممُ الجاحدةُ لربِّها في العصر الحديث وما قبلَهُ من العُصور عندما لم تَجمعْ في القراءة بين الوَحْي الإلهيِّ ورؤيةِ الأكوان استكبارًا في الأرضِ وغرورًا؛ فلم تصل إلى الحقيقةِ الُمرادة من الخلق، ففَقدتْ الصِّلة بخالقِها وبارئِها وتجاهلت الغيبَ، وظهرَ فيها الطُّغيانُ والأنانيَّةُ وانمحَتْ عنها صفةُ الإنسانيَّةِ ولم تر إلَّا الإنسانَ وقُوى الطَّبيعة، ففسَّرتْ كلَّ شيءٍ في ضوءِ هذه الرُّؤية القَاصِرة؛ بل جعلوا من الطَّبيعة ومظاهرَها هي الحاكمة؛ فلم يَروْهَا مخلوقًا مُسخَّرًا من الله تعالى لخلْقِه، وانعكس ذلك على تصوُّراتٍ باطلة من أنَّ الوجود ما هو إلَّا دائرةُ صِراعٍ بين قُواهُ المختلفة، بل وصلَ الإنسانُ أَنْ يعتقدَ في نفسه أنَّه السَّيدُ المسيطرُ في هذا الوجود؛ فطغى وتجبَّر وكان مصدرًا للفساد فكان كما وصفه الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6-7] فجَزَاه الله –سبحانه وتعالى– ﴿وَمَنْ

أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:124].

فمن اقْتَصر على رؤية الأكوان دون المُكوِّن سبحانه فقدَ الطَّريق الصَّحيح لتحقيق عِمارة الأرض، فلا عِمارَة أو صلاح في هذا الكون دون المرجعيَّة الإلهيَّةِ له، ومن اقْتَصر على قراءةِ الكتاب المسطور دُوْن الجمعِ بينه وبين قراءةِ الكتاب المنظُور، أو تَوهَّم أنَّه لا رابطَ بينهما، أو حاولَ الفصل بين معاني المَسطُور ومظاهرِ المنظُور فإنَّه بذلك يبتعدُ عن حقيقة الإيمان وجوهره.

لماذا نقول ذلك؟

لأنَّ عدم مراعاة ذلك المسلك يؤدي إلى فُقدان وجْهٍ من وجوه الحقيقة الإلهيَّة، فقد خَلَق الله الكونَ وما فيه، وجَعَل من غاياتِ الخلق عمارةَ الكون وتحقيقَ ملامح الاستخلاف فيه بكافَّة الصُّور الصَّالحة.

فصرْفُ النَّظر عن رؤية الخَلقِ ومظاهرِه هو تعطيلٌ لأمر الله تعالى وتعطيلٌ لحكمةِ الكتاب المسطور نفسه «القرآن الكريم» ومنافيةٌ لمنهجه الدَّاعي إلى التَّفكُّر وعمارةِ الأرض والأخذِ بالأسباب، فالله سبحانه قد امتنَّ على عباده في كثيرٍ من الآيات بأنَّه سخَّر لهم ما في السَّموات وما في الأرض منَّةً مِنهُ وفضلًا، فكيف يُعرِض الإنسانُ عن هذه المنَّة وهذا الفضل!

وقد بيَّن الله سبحانه في آياتٍ متعدِّدة أنَّ هذا القرآن هو طريقُ صلاح الإنسان في دنياه وآخرته، فكيف يكونُ طريق الصَّلاح بدون إعمالٍ لمعاني القُرآن في الحياة!

فقِراءَةُ الأكوان تشمَلُ تنفيذَ أمر الله بالإِصلاح وعمارَةِ الأرض وتنفيذَ المُرادِ الإلهيِّ وظهورَ التَّكريم الرَّبانيِّ لجنس بني آدم، وإهمالُها يلغي هذه المعاني ويُعطِّل طاقةَ الإنسان، وهذا عكسُ مراد القُرآن الكريم تمامًا الذي هو الجمع بين رُؤْية الخلْقِ والأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:54].

أهميَّة الجمع بين القراءتين في عالمنا المعاصر:

نحنُ نرى أنَّنا كأُمَّةٍ مُسلمةٍ نمتلك القدرةَ على الجمع بين القراءتين في كلِّ وقتٍ كما كنَّا من قبلُ، وذلك مِنْ أهمِّ عوامل نهضة الأُمَّة على المستوى الفَرديِّ والجماعيِّ، ففي أيدينا كتابُ الله ووحيُه يشهدُ له الواقعُ بقدرته على التَّفاعل مع الكون والحياة والوجود والإنسان فينتج لنا أفضلَ ألوانِ الحياة، فلم يحدُثْ لدينا -والحمد لله- كما حدثَ في أممٍ أُخْرى من صدامٍ بين حقائقِ الحياة وبين نصوصٍ نسبُوها إلى القَداسة وإلى الدِّين، فلمَّا وجدوا أنَّ معاني هذه النُّصوص تتعارضُ مع حقائق الكون وأنَّ ما فيها من معانٍ إنسانيَّةٍ واجتماعيَّةٍ لم تَعُدْ قادرةً على تلبيةِ متطلَّبات الحياة؛ هجروها بالكليَّة وحاولوا إنشاءَ مرجعيَّةٍ خاصَّةٍ بهم تبتعدُ عن كلِّ هذه المُشكلات.

أمَّا الأمَّةُ المسلمةُ بفضل الله لم تتعرَّض لما تعرَّضَتْ له أيُّ أمَّة أخرى؛ فكتابُ الله معانيه تتَّفق مع الكون والإنسان ومتعلَّقات حياتِه، بل إنَّنا نجد أنَّ المشكلات الفرديَّة أو الجماعيَّة تظهر عندما نترك المنهجَ القرآني، والأُمم الأخرى وجَدتْ المشكلاتِ عندما احتكَمتْ إلى معاني نصوص ظنُّوها مقدَّسةً، ومع التَّجربة وُجِد أنَّها غيرُ صالحةٍ لتكوين مجتمعاتٍ؛ فأصبحت لاهوتًا مهجورًا يُدنْدَنُ به في أماكن العبادة فقط، وحدث الخِصامُ والفَصْلُ بين الدِّين والحياة، أمَّا الأُمَّة الإسلامية فكتابها حيٌّ يرتبط بالحياة وتفصيلاتِها الكليَّة والجزئيَّة، الفرديَّة والجماعيَّة، الروحيَّة والماديَّة، يلتحمُ بها ويتفاعلُ معها؛ فينتجُ الهدايةُ المطلقة التي تُصلِحُ أمرَ الدِّين والدُّنيا.

ولذلك نحنُ ندعو إلى الجمع بين القراءتين، فإنَّ ذلك يفتحُ المجال لإعادةِ اكتشافِ هُويَّة الأُمَّة العلميَّة والثَّقافية وكشفِ الصِّلة بين حقائقِ الدِّين اليقينيَّة والعلوم الكونيَّة والإنسانيَّة.

فقد حدث نوعٌ من الفصل بين العلوم الكونيَّة والإنسانيَّة وبين المرجعيَّة القرآنيَّة، وذلك لأسباب كثيرة منها: أنَّنا قُمْنا باستيراد الكثير من المعارف والعُلوم من الغرب كما هي بدون أنَّ نفهمها من خلال نموذجنا المعرفي، الذي توجِّهُ مراعاته المعرفةَ الوجهةَ الصَّحيحة، فعندما ننظرُ

كمسلمين في المظاهر العلميَّة نرى قدرةَ الله الخالق وعجيبَ صُنْعِه، وعندما ننظرُ في المعارف والعلوم نعلمُ أنَّ مصدَرها هو الله، أمَّا غيرُ المسلم ففي الغالب الأعمِّ تغيبُ عنه هذه الحقيقة.

والجمعُ بين القِراءتين هو الطَّريق لتكوينِ الشَّخصيَّة المسلِمةِ المعاصرة الجامعة بين حقائقِ الوَحْي وحقائقِ الوُجود، هذه الشَّخصيَّة التي نَجَتْ وتخلَّصَتْ من إشكاليَّة تصادُمِ حقائق الدِّين والحياة كما حدث في الغرب، فجمعَتْ هذه الشَّخصيَّة بين رؤية الله الإله الحقِّ ووحيه وأمرِه ورؤيةِ مخلوقاتِه، وبين الرؤيتين تظهرُ قضيَّةُ التَّكليف والإيمان، ويظهرُ التَّكامل النَّفسيُّ والمعرفيُّ لدى الإنسان(1).

والاقتصارُ على قراءةٍ واحدةٍ يُحدِثُ نوعًا من الانفصال يخالف أهدافَ القُرآنِ الكريم ومقاصدَ الشَّريعة الإسلاميَّة بالكليَّة.

فالدَّعوة إلى الجمع بين القِراءَتيْنِ لإنتاج معرفةٍ إسلاميَّةٍ خالصةٍ لا تتعارض مع معطيات العلم أو حقائق الدين هو حقيقةُ معاني القرآن الكريم، وعندما نقولُ معرفةً إسلاميَّة نعني وضعَ الضَّوابط الشَّرعية لوجهة هذه العُلوم والمعارف؛ بحيث يصبحُ الدِّين والإيمان والأخلاق هو البُوصَلة الهادية لنا ونحن نستخدم المعارف والعُلوم، والجمع بين القراءتين هو حقيقة الإيمان.

وطريقُ الجمع بين القراءتين يختلفُ ويتنوَّع بين المستويات الفِكريَّة والعِلميَّة والثَّقافيَّة لدى أفراد الأمَّة المسلِمة، ولكنَّه مُمكِنٌ للجميع بحيث يستطيعُ عامَّةُ المسلمين الرَّبطَ بين معاني الآيات وبين مظاهر الوجُود وتفاعُلات الحياة بأنواعها فيخرجون من ذلك برُؤْية معرفيَّة تضبطُ الاتِّجاه الدِّينيَّ وتُصلِحُ حياتَهم الدُّنيا.

وعلى مُسْتَوى العُلماء والمفكِّرين يتمُّ تحقيقُ معاني القراءتين وذلك من خلال توافر حظٍّ من

(1) انظر: في درجات المعرفة ومستوياتها من تفكير سطحي ثم عميق ثم مستنير كتاب:مكونات العقل المسلم لفضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور علي جمعة علي جمعة صـ46 وما بعدها ط.الوابل الصيب.

العُلوم الشَّرعيَّة والمعارف الكُليَّة لدى طائفة من عُلماء المسلمين تمكِّنُهم من اكْتشاف وبيان العلاقة الوثيقة والتَّداخل التَّامِّ بين معاني القُرآن الكريم والوجود وحركة الإنسان والمخلوقات على الأرض، تُنتِجُ لنا رؤيةً إسلاميَّةً معرفيَّةً متكامِلَةً تعبِّر عن «النُّموذج المعرفيِّ الإسلاميِّ» الذي يَستَوْعبُ جميعَ أنشطة الحياة وصورِها بما يتفرَّع عنه من مناهج تصلُح للتَّطبيق العمليِّ تُحقِّق الحضارة والعمران والتَّقدُّم ويظهر من خلالها القانونُ القرآنيُّ التَّشريعيُّ والأخلاقيُّ وقدرتُه على استيعاب جميعِ أوجه النَّشاط البشريِّ للمسلمين ولغير المسلمين.

وعندما نُنَادي بالجمع بين القراءتين في تكوين الرُّؤية الإيمانيَّة والمعرفيَّة فإنَّنا كما ذكرنا من قبل نحقِّق جوهرَ دعوة القُرآن الكريم ومعاني الوحي، فهذا الكتاب الكريم هو رسالةُ الله الأخيرةُ لأهل الأرض؛ يحملُ رؤيةً كونيَّةً عالميَّةً لا تقتصر على مُفرداتٍ من المعلومات الشَّرعية والإيمانيَّة، وإنَّما قد صعد بنا القرآن الكريم إلى السَّماء، وغاصَ بنا في البحار، وطاف بنا على الجبال، وتكلَّم عن طبقات الأرض وأطرافِها، وتكلَّم عن العُمران الإنسانيِّ والقِيَم الأخلاقيَّة؛ ففتح لنا أبواب العلوم الكونيَّة والإنسانيَّة، فلا بدَّ من توافُر القراءتين عندما نريد أنَّ نعيدَ اكتشافَ أنفسنا كأمَّةٍ مُسلِمةٍ وننطلقَ من كبْوَتِنا، ولا بدَّ من توافُرها عندما نُخاطِب العالَمين بهذا الدِّين وهذه الشَّريعة، فمُهِمَّةُ القرآن عالميَّةٌ، ورؤية القُرآن تجمعُ بين الشَّريعة ورؤيةِ الأكوان مكوِّنةً النَّموذج المعرفيَّ الكُليَّ الجامعَ بين حقائق الوَحْي وحقائقِ الوجُود؛ فتوفِّر للإنسان رؤيةً حضاريَّةً متكامِلةً تَسَعُ المُسلمَ وغيرَ المُسلم.

ومن الأمور التي تُيسِّر علينا عمليَّة الجمع بين القراءتين:

أ - فيما يتعلَّق بقراءة القُرآن:

- الاهتمامُ بالآيات التي تتحدَّث عن الخلقِ والوُجود والمخلُوقات، والرَّبط بين معانيها والوُجود الخارجي.
- ملاحظةُ القَانون الفقهيِّ القرآنيِّ وتطبيقاتِه ومتعلَّقاته العمليِّة.
- ملاحظة القانون الأخلاقيِّ القرآنيِّ وما يفرضه من التزامات عمليِّة.

- الانتباهُ لمقاصد سُور القرآن الكريم واستخلاصُ الفوائد من كلِّ سُورة.
- ملاحظةُ محاور القرآن الأساسيَّة «التَّوحيد، والتَّزكية، وتحقيق العُمْران».
- استقراءُ الآيات التي تتناول موضوعًا واحدًا واستخلاص فوائدها.

ب - وفيما يتعلَّق بقراءةِ الكون:

- التَّفكُّر في مفردات الكون والخلْقِ والوجودِ وإخضاُع مظاهره للتَّفكير المنطقيِّ مع طرح الأسئلة: من أين؟ وكيف؟ ولما؟ وإلى أين؟ وما الغاية؟ ومن يعتني بذلك كلِّه ويدبِّر أمره؟ كلُّ هذا يأخذُنا إلى الخالق سبحانه، وبأنَّ هذا النِّظام والدِّقَّة والانضباط لم يوجد عبثًا أو صدفةً وأنَّه له غاية وهدف.

- وملاحظةُ ظواهر الكون والوجود والمخلوقات المتنوِّعة والأقدار والأحداث وعلاقة الإنسان بكلِّ ذلك؛ بالتفكر فيه يأخذنا إلى الإيمان، وهذا الجانبُ من جانبِ قراءة الكَوْنِ يتكامَلُ مع نظيره من قراءة القُرآن الكريم بحيثُ تَظْهرُ العِلاقة بين العِلْم والإيمان وتنكشف أطرافُها المتشابكة والمتَّحدة.

ومن الأمثلةِ القرآنيَّة الجامعةِ بين قراءة الوَحْي وقراءةِ الكون ما قصَّهُ القرآنُ الكريمُ علينا في شأن أبينا إبراهيم -عليه السَّلام- من جمع القراءة الكونية إلى جانب المعاني الإيمانية ونتائج ذلك، يقولُ الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:75-79] ففي هذه الآيات الكريمة تظهرُ لنا قراءةُ الكون وكيف تؤدِّي إلى حقيقة الإيمان والتَّوحيد، فهي توجيه لنا بالانطلاق من الكون وآياته إلى الحقائق الإيمانية الكبرى.

وخلاصةُ الأمر أنَّ الجمعَ بين قراءة الأكوان وقراءةِ القرآن والرَّبطَ العقليَّ بين معاني كلٍّ منهما هو الطَّريق لإعادة صياغة النَّموذج المعرفيِّ الإسلاميِّ والتدرُّج في طريق الحضارة المعاصرة عن طريق توليدِ العُلوم وإعادةِ صياغتِها، واكتشافِ الأبعاد الإيمانيَّة في العلوم، وإظهارِ المساحات المشترَكَة بين العلم والإيمان والعمل على نشر هذا الفكر بين الأُمَّة المسلِمة؛ بحيث تظهرُ شخصيَّة الأمَّة الإسلاميَّة المتفرِّدة بين الأُمَم الجامعة بين معاني الوَحْي وحقائقِ الوجُود.

- إدراك الواقع المحيط والوصل بينه وبين النص القرآني:

من المسائل المتعلِّقة بهذا المبحثِ أيضا مسألةُ إدراكِ الواقِعِ المحيطِ للأمة المسلمة على مستوى الفردِ والجماعةِ، والتي تُعَدُّ بلا شكٍّ من أهمِّ مداخلِ قراءة القرآنِ الكريمِ وإدراك معانِيه حيث إنَّ القرآنَ الكريمَ نزلَ لنعملَ به ونهتديَ بنورِه على مستوى العقيدة والتَّشريع والأخلاقِ، ولتحقيق هذه الهدايةِ بشكلٍ صحيحٍ يجب علينا إدراكُ الواقعِ المحيطِ بنا وكيفية عقد الصِّلةِ بينه وبين معاني القرآن الكريمِ، وهنا يجب أن نلفِتَ الانتباهَ إلى قضيَّة إطلاقيَّةِ القرآن الكريمِ والتي تحدَّثنا عنها في مبحثٍ سابقٍ والتي تعني لنا عُلوَّ معاني القرآنِ الكريمِ عن التقيُّدِ بالزَّمان والمكان والأحوال والأشخاص؛ فهي تستغرقُ الزَّمانَ والمكانَ، وعلى ذلك يُمكنُ لنا إسقاطُ معاني القرآن الكريمِ ومقاصِدِه الكليَّة وقواعده العامَّة على ما يستجدُّ من القضايا والمسائل بحيث تَظهرُ لنا قدرةُ هذا الكتاب الكريم على إحاطتِه بالسابق والحالي واللَّاحق من الكليَّات والجزئياتِ على المستوى الفردي والجماعي.

ولكننا هنا يجب أن نلتفت إلى ما يستجدُّ في كل عصرٍ من قضايا ومسائل تحتاجُ منا إلى وعيٍ كبيرٍ ونحنُ نتعاملُ معها بحيث نلحقها بأصولها في كتاب الله عزَّ وجل ونربطُ هذه القضايا والمسائل بكتاب الله مستخدمين الضَّوابط الشرعيَّة والعقليَّة بحيثُ لا نخالف القطعيَّ والُمجمعَ عليه، فممَّا لا شكَّ فيه أنَّ العالم اليوم غير الأمس، والعالم غدًا غير اليوم ويَلزمُ من ذلك تغيُّرُ المسائلِ من حيث الطبيعةُ والهيئةُ والمتعلقاتُ، فنحن نتعامَلُ مع واقع

غايةٌ في التَّركيبِ وغاية في التَّعقيدِ وغايةٌ في التدهورِ من ناحيةٍ، وغاية في التطورِ من ناحية أخرى، فكل ذلك يُمثِّلُ للعالم والمجتهد جدليَّة واقعية متداخلة العلاقاتِ فيما بينها.

والمدخلُ الصَّحيحُ التي يَستطيعُ من خلالها العالمُ المجتهدُ ربطَ المعاني القرآنيَّة بهذا الواقعِ هو تكوينُ خريطةٍ عقليَّةٍ منظمة يستطيعُ من خلالِها إحداثُ هذا الربط وترجمتْ معاني القرآنِ وأهدافُه إلى واقع معيش سهلِ التَّطبيق.

ومعالم هذه الخريطة هي:

- أولًا: إدراك الواقع:

فلا يُمكن أن يغيبَ العالمُ أو المجتهد أو المفتي عن عصره، فيتحتَّم عليه إدراك العوالم الأربعة التي تؤثر في تغير الأحكام وهي؛ عالم الأشياءِ، وعالم الأشخاصِ، وعالم الأحداثِ، وعالم الأفكار، وما يُحيطُ بها ويربطها وهو عالم النظم.

فإدراكُ هذه العوالم هو الجسرُ الَّذي يربط بين النَّصِّ وإنزاله على الواقِعِ، وهو الذي يظهرُ صالحيَّةُ النَّصِّ لكل زمانٍ ومكان متحقِّقًا بغاياتِه ومضمونِه وليس متمسكًا بظاهره وألفاظِه؛ ولذلك فلا يُمكنُ لكل شخصٍ عبورُ هذا الجسر مكتفيًا بإدراكه الشخصيِّ في إسقاط النصِّ على الواقعِ.

- ثانيًا: التَّسلحُ بالأسس اللَّازمةِ لإحداث عمليَّة الربط بين الواقِعِ بعوالمه المختلفة والنَّصِّ وما يشتملُ عليه من الأحكام والمعانِي وهذه الأسس هي:

1- اللُّغة العربية، التي هي وعاء المنطق العربي المتصل بالفطرة الإسلاميَّة.

2- الإجماع، والَّذي ينبغي على السَّاعي إلى الفهم ألا يخرقَه أو يتجاهلَه.

3- المقاصِدُ الكليَّة للشريعةِ، من حفظ الدين والنفس والعرضِ أو النَّسلِ والعقل والمالِ.

4- الإدراكُ والتَّمكنُ من الإحاطةِ بالنموذج المعرفيِّ، وهو ما نسمِّيه بالعقيدة أو الرُّؤية الكلية.

5- الإحاطةُ والفهمُ للقواعِدِ الفقهيَّة الكليَّة أو المبادئ العامة للشريعةِ، من قَبيلِ لا ضررَ ولا ضرار، لا تزرُ وازرة وزر أخرى... إلخ.

- **ثالثا: العقليَّةُ العلميَّةُ الفارقةُ:**

العقلية الفارقة: هي حالة منهجية تميز وتفرق بين الأمور المتشابهة،وتبحث في عمق الأشياء وليس ظاهرها،وهي على العكس تماما من العقلية الهشة.

فهي الَّتي تستطيعُ الرَّبطَ بين هذه المكوِّنات في عمليَّةٍ عقليَّةٍ شرعيَّةٍ مرتبة تخرجُ من خلالِها بحكمٍ شرعي صحيحٍ أو بمعنى شرعيٍّ صحيح متوافق مع الواقع ليس له معارِضٌ عقليٌّ أو شرعي أو من الواقِعِ المُحيطِ.

هذه العقليَّة التي تمتلكُ القدرةَ على التجريدِ، ومراعاةِ المصالحِ، واعتبارِ المآلاتِ، والنَّظرِ إلى الظاهر ونفس الأمرِ، والقدرةِ على التَّمييزِ بين الأمور المتشابهةِ وإدراك الكليِّ والجزئيِّ في عملية إبداعيَّة متكاملة تؤدِّي إلى نتائج صحيحةٍ.

فلو تمَّ مراعاةُ هذه الخريطة ومعالمها لتمَّ عقد الصلة بين معاني القرآن الكريم وأحكامِه في واقعنا المعاصر بطريقٍ صحيحٍ تظهر معه إطلاقيَّةُ القرآنِ الكريمِ وعدم محدوديَّة نورِه وهدايتِه.

ونزيد الأمر تفصيلًا فنقول: إنَّ إدراك الواقع من حيث تعلقُه بالزمان والمكانِ وما يصاحبُهما من أعرافٍ وعاداتٍ، يلزم عنه أحكامٌ تتناسبُ معه، قد تتغيَّرُ وتختلف من واقعٍ لآخرَ اختلفَ فيه الزَّمانُ والمكان، كما أنَّ إدراكَه من حيثُ حالُ المكلَّفِ من كونه في حالِ سَعَةٍ أو حال اضطرارٍ يلزمُ عنه تغييرُ الحكم بين الحالتيْنِ، وهذا ليس بمُستحدثٍ، بل هذا من الأصولِ الَّتي بُنِيَ عليها الفقهُ الإسلاميُّ مستنبطًا ذلك من الكتاب والسُّنَّة وحالِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ.

ونحن ندعُو كلَّ مسلمٍ إلى إعادة صياغةِ أو مراجعةِ علاقته بالقرآن الكريمِ وربطِه بواقعِه وحياته عن طريق اتِّباع المنهج العلميِّ الصَّحيح الذي يقوم ببيانه علماءُ الأمة الذين تكوَّنتْ عقليتُهم العلميَّةُ بطريقٍ صحيحٍ وليحذر من أدعياءِ العلمِ الذين أضلُّوا الناسَ ببهرجٍ من

القولِ وسرابٍ من التَّصوراتِ أدَّتْ إلى تبدُّلِ مفهوم الدين ووظيفتِه وهيئتِه وممارساتِه في نفوس كثيرٍ من المسلمينَ.

فعلى المستوى الشخصي يجعلُ الفردُ المسلمُ القرآنَ الكريمَ هاديًا له في العقيدةِ والتَّشريع والأخلاق؛ بحيث يصلُ المسلمُ إلى ربِّه وهو يسير وراءَ معاني القرآن الكريم بفَهْمِ العلماءِ وليس بفهم الضَّالين المضلينَ، والهدفُ من ذلكَ هو تحقيق التَّربية والتَّزكية فسوف يجدُ المسلم نفسه وقد تحقَّقتْ فيه معاني قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] فيسوقه ذلك إلى الصِّراطِ المستقيم فيحقِّقُ الفلاح في الدُّنيا والآخرةِ.

وعلى المستوى العام ومُستوى الأمَّة الإسلاميَّة؛ فإنَّ خلطَ المعاني القرآنيَّةِ بمسلكِ الأمة وأهدافها هو سبيلُ نهضتِها في عصرنا الحالي، وما مباحثُ هذا المصنَّفِ إلا محاولة لإعادةِ صياغة علاقتِنا بالقرآنِ الكريم وإدراك معانِيه وفق منهجٍ يجمع بين الانضباط الشرعيِّ والعقليِّ ومراعاة الواقع الذي نحياه في عملية نقصدُ منها إحياء الدراسات القرآنيَّة المتنوعة التي يظهرُ من خلالِها معاني الهداية والنُّور التي حملها إلينا الكتاب الكريم.

***

المبحث الخامس عشر
من نماذج توليد العلوم
من القرآن الكريم «السنن الإلهية»

تمهيد:

من أهم الأمور والمناهج التي تعين على فهم كتاب الله عز وجل واستخراج كنوزه وفوائده ومعارفه وعلومه وبركاته «القراءة الإستقرائية»(1) التي تكون لنا خريطة كلية مفصلة عن أهداف هذا الكتاب الإلهي ومقاصده، فينتج عن هذه القراءة فوائدُ كثيرة منها:

- أننا نستطيع من خلال تتبع الآيات الكريمة، وعن طريق جمع المشترك بينها من المعاني والدلالات،ثم ترتيبها؛ فيمكننا أن نصل إلى نوع من توليد مجموعة من العلوم القرآنية

---

(1) الاستقراء لغة التتبع، يقال: قرأ الأمر، وأقرأه: أي تتبعه، وَاسْتَقْرَأْتُ الْأَشْيَاءَ تَتَبَّعْتُ أَفْرَادَهَا لِمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهَا وَخَوَاصِّهَا. انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (ق.ر.ي) لأحمد بن محمد بن علي الفيومي- المكتبة العلمية- بيروت. وله في الاصطلاح تعريفات منها:

- الاستقراء: هو الحكم على كليٍّ بوجوده في أكثر جزئياته، وإنما قال: في أكثر جزئياته؛ لأن الحكم لو كان في جميع جزئياته لم يكن استقراءً، بل قياسًا مقسمًا، ويسمى هذا: استقراء؛ لأن مقدماته لا تحصل إلا بتتبع الجزئيات، كقولنا: كل حيوان يحرك فكه الأسفل عند المضغ؛ لأن الإنسان والبهائم والسباع كذلك، وهو استقراء ناقص لا يفيد اليقين لجواز وجود جزئي لم يستقرأ، ويكون حكمه مخالفًا لما استقرئ كالتمساح؛ فإنه يحرك فكه الأعلى عند المضغ. انظر: التعريفات (1/ 18) للعلامة الشريف الجرجاني- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- 1983م.

- قال الغزالي: أما الاستقراء: فهو عبارة عن تصفح أمور جزئية لنحكم بحكمها على أمر يشمل تلك الجزئيات. انظر: المستصفى في علم الأصول (1/ 103) للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي- تحقيق: محمد بن سليمان الأشقر- مؤسسة الرسالة- لبنان- الطبعة الأولى- 1997م.

قال الشاطبي هو: تصفُّح جُزْئِيَّاتِ ذَلِكَ الْمَعْنَى لِيَثْبُتَ مِنْ جِهَتِهَا حُكْمٌ عَامٌّ؛ إِمَّا قَطْعِيٌّ، وَإِمَّا ظَنِّيٌّ، وَهُوَ أَمْرٌ مُسَلَّمٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ؛ فَإِذَا تَمَّ الِاسْتِقْرَاءُ حُكِمَ بِهِ مُطْلَقًا فِي كُلِّ فَرْدٍ يُقَدَّرُ. انظر: الموافقات (4/ 57).

والمعارف الربانية.

وهذا المنهج الاستقرائي لكتاب الله عز وجل هو منهج قرآني في الأساس دعانا الله سبحانه إلى استخدامه في الكثير من الآيات؛ لاكتشاف ما يتسم به الكون والوجود والخلق من أدلة عظمة الخالق ووحدانيته وصفاته وأسمائه، والتعرف على حقائق الوجود، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:20]. وقال سبحانه:﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:101].

وعندما اتخذنا هذه القراءة منهجًا وطريقًا للتعرف على مقاصد القرآن الكريم وأهدافه وجدنا أنه اهتم في كثير من آياته الكريمة بما يسمى «بالسنن الإلهية».

السنن الإلهية لغة واصطلاحًا:

السنة في اللغة: تعني السيرة، حسنة كانت أو قبيحة[1]، وفي النهاية لابن الأثير: والأصل في هذا اللفظ -السنّة- الطريقة والسيرة. وفي حديث المجوس «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» أي خذوهم على طريقتهم وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم[2].

وقال الراغب الأصفهاني: (السنن جمع سُنّة،وسنة الوجه: طريقته، وسنة النبي طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته نحو: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23][3].

وقال الفيروز آبادي في معنى السنة: والأصل فيها الطريقة والسيرة ومنه قول النبي ﷺ:

(1) لسان العرب (17/ 89).

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر (2/ 409).

(3) مفردات غريب القرآ ن (ص245).

«من سنّ سنة حسنة»[1] أي طرق طريقة حسنة، وسنة النبي ﷺ طريقته التي كان يتحرّاها[2].

وقال الإمام الرازي في تفسيره: والسنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع[3].

وقال المرتضى الزبيدي: «والسُّنَّةُ مِن الله إذا أُطْلِقَت في الشَّرْع فإنّما يُرادُ بها حُكْمُهُ وأَمْرُهُ ونَهْيُهُ ممَّا أَمَرَ به النَّبيُّ ﷺ، ونَهَى عنه ونَدَبَ إليه قوْلًا وفِعلًا ممَّا لم يَنْطق به الكتابُ العَزيزُ، ولهذا يُقالُ في أَدِلَّة الشَّرْعِ: الكتابُ والسُّنَّةُ، أَي القُرآنُ والحدِيثُ. وقالَ الرَّاغبُ: سُنَّةُ النبيِّ: طَرِيقَتُه التي كانَ يَتحرَّاها، وسُنَّةُ الله عزَّ وجلَّ، قد تُقالُ لطَرِيقَةِ حكْمَتِه وطَرِيقَةِ طاعَتِه، نحْو قوْلِه تعالَى: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾، وقَوْله تعالَى: ﴿ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾[4].

والسنن الإلهية اصطلاحا:

تستخدم «السنن الإلهية» كاصطلاح للتعبير عن: القانون الإلهي العام الذي يظهر في كتاب الله من خلال الآيات القرآنية المتحدثة عن النظام العام الذي يحكم الكون والوجود والكيفية التي تخرج بها المقدرات إلى عالم الشهادة فهي القواعد الكلية الجامعة المانعة الحاكمة الضابطة لنظام الكون وحركة الحياة وهي كلمات الله التامات التي لا يجاوزها مخلوق من المخلوقات المتعلقة بمشيئته سبحانه وهي النظام الذي يربط الأسباب ومسبباتها والمقدمات ونتائجها.

ويستخدم هذا المصطلح كذلك للدلالة على الجزاءات الإلهية من الإحسان والمنة أو

(1) الحديث رواه مسلم وغيره بلفظ " من سن في الإسلام سنة حسنة "حديث رقم 1017.

(2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي (3/ 267، 268).

(3) مفاتيح الغيب (9/ 11).

(4) تاج العروس من جواهر القاموس (18/ 300) محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي- الناشر: دار الفكر - بيروت - الطبعة: الأولى / 1414 هـ.

العقوبات الربانية على أفعال العباد ومسالكهم وعن العادة المألوفة والمثال المتبع في معاملة الأفراد والجماعات والأمم حال المعاصي والبعد عن منهج الله وحال الطاعة والسير على المنهج الإلهي.

المحاور التي تدور حولها السنن الإلهية:

فمن مبادئنا: أنَّنا نؤمنُ بسننٍ إلهيَّةٍ خلقها الله سبحانه وتعالى يُسَيِّرُ عليها الكون، وجعلها حاكمة لهذا العالم، والعالم هو: ما سوى الله من مُلْكٍ أو مَلَكُوت، من غيبٍ أو شَهَادَة.وهذه السُّنَن الْإِلَهِيَّة ثابتةٌ لا تبدَّل ولا تتحوَّل، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

فالسنن الإلهية جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها الله تعالى في آيات هذا الكتاب المبين، وهي تصور فلسفة القرآن في فهم الحياة، كما تصور حكمته في نعوت الكمال لله تعالى خالق الحياة. وفلسفة القرآن تجعل من الكون كله حقيقة واحدة طوى فيها خالقها دلائل وجوده، وبراهين وحدانيته، وآيات قدرته وعلمه وحكمته، ووكل إلى العقل البشري -تكليفًا وتشريفًا- الكشف عن هذه الدلائل والبراهين، بما أودع فيه من قوة إدراكية دقيقة، وبما أمده من عون في تهدِّيه إليها، وهذا المعنى هو خلاصة وعد الله تعالى لهذا العقل بالكشف عن آيات الله في الكون، يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصِّلت: من الآية 53].

والسُّنَن الْإِلَهِيَّة قد تكونُ في التَّاريخ «فهناك سُنَنٌ تَارِيخِيَّة» وقد تكونُ في الأنفس «فهناك سُنَنٌ نَفْسِيَّة»؛ سواءٌ على مستوى الفرد، أو على مستوى الجماعة، أو على مستوى المجتمع، أو على مستوى الأُمَّة، أو على مستوى العالَم، «وهناك سُنَنٌ كَوْنِيَّةٌ فِي الْآفَاقِ»، وهذه السُّنَنُ قد تكون في الأرض، قد تكون في عالم الحيوان، قد تكون في عالم النَّبات، قد تكون في السَّماء، قد تكون في المُلْك الظاهر، وقد تكون في الملكوت الغائب؛ والله - سبحانه وتعالى- هو صاحبُ

هذا الغيب، بل يُطلِق عليه بعضُ العارفين: «غيبُ الغيبِ»؛ لأنَّه لا يطَّلع على كُنْهِهِ مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ.

تحدث القرآن عن سنن الله العامة في الكون على أنها دعامة النظام الكوني المتماسك بوشائج التوازن الإلهي الذي يحكم هذا النظام، فهذا الترابط المحكم بين عوالم الكائنات علويها وسفليها، وهذا التنسيق بين آحادها ومجموعاتها، وهذه الأوضاع المنسجمة التي تظهر في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني، وهذا الاتساق في تقدير صلة كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر- هو الإطار الذي تجمعت فيه كل الخطوط التي تصور سنن الله الكونية التي يتحقق بها التوازن بين جميع المخلوقات، وقد بينَّ القرآن ذلك في آيات عدة، فيقول تعالى:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:85]، ويقول تعالى:﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم:8].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:38-39]. إذنْ فخلق السماوات والأرض وما بينهم صدر منذ الأزل متلبسًا بالحق، والحق هو الوجود الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل.

والتوازن بين عناصر الكون ووشائجه هو سنة الله التي دبَّر بها الكون، وعليها أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهو الحق الذي خلقت به الحياة.

وبهذا يرسم القرآن العظيم صورة للنظام الكوني في نماذج من المخلوقات، يستبين منها أن الكون كله خاضع في نظام سيره وتركيب عناصره لسنن محكمة وحاكمة، مترابط بوشائجها في وحدة قائمة على اتساق في وضع وتركيب كل كائن بما يهيئ له القيام بأداء ما خُلق له من المنافع والمصالح، ما دام في موضعه من نظام الكون العام. وهذا التماسك والاتساق بين

ذرات الكون هو ما نعنيه بالتوازن المحكوم بسنن الله في هذا الكون العظيم(1).

السنن الإلهية «القانون الإلهي العام»:

وبالنظر إلى كتاب الله تعالى واستقراء آياته وكلماته يُكَوِّن المسلمُ مبادءه الكلية ويكتشف العلوم والمعارف التي يحويها هذا الكتاب الإلهي العظيم والتي منها «السنن الإلهية». فالحديث عن السنن الإلهية في القرآن الكريم يمكن أن نطلق عليه بالمفهوم العصري أنه حديث عن «القانون الإلهي العام» الضابط لحركة الكون والوجود من حولنا وما يجري فيهما من حوادث ومجريات وظواهر كونية وبيان أن ذلك كله لا يقع مصادفة أو بشكل عشوائي، وإنما يقع وفق قانون عام ونظام ثابت ودقيق، لا يخرج عن أحكامه حركةٌ من حركات هذا الوجود.

هذا القانون العام المعبر عن السنن الإلهية التي تظهر وتتجلى في جميع المظاهر الكونية من حولنا له وجهان:

1-الوجه الأول من وجوه هذا القانون (السنن الإلهية):

والذي لا يتنازع في وجوده العقلاء من حيث أنه يتجلى في جميع الحوادث المادية في هذا الكون، فتخضع له جميع الكائنات من ميلاد ونمو وحركة وتطور وموت، ويظهر كذلك هذا القانون في حركات الأفلاك وتعاقب الليل والنهار ونظام الأمطار وحركات الأنهار والبحار ونمو الإنسان وحالات صغره وكبره وموته وإنبات النبات ونمو المزروعات...إلخ

كل ذلك يحدث بنظام لا يختل وتدبير متقن وبديع صنع يحير العقل فكل ذلك يدل بدلالة قاطعة على وجود هذا القانون الضابط لكل هذه المخلوقات.

فعندما يتحدث القرآن الكريم عن هذا القانون الضابط لهذا الوجود ويعرض مظاهره فإنه يثبت أمورا كثيرة منها:

---

(1) انظر كتاب السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم –أصول وضوابط د.مجدي محمد عاشور صـ 7 وما بعدها ط.دار السلام الطبعة الثانية 2007 م.

1– قضية الألوهية بإثبات خالق لهذا الكون وذلك الوجود، هذا الخالق العظيم دبَّر أمره ووضع له نظامًا ثابتًا مستمرًا لا يتبدل ولا يتغير ولا يصيبه الخلل.

2– صحة نسبة هذا الكتاب الذي احتوى وبينَّ هذا القانون إلى خالق هذا الخلق سبحانه وتعالى.

3– لفت انتباه البشر إلى أهمية ودور هذه السنن الإلهية،وذلك القانون في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فقد أكثر القرآن الكريم من ذكر هذه السنن الإلهية القانون العام ومظاهره وتجلياته في خلق الأكوان والإنسان

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:163–164].

ويقول رب العالمين: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:33 –40].

وعن خلق الإنسان وخضوعه لهذا النظام يقول تعالى:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

(14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:12-15].

فمعاني هذه الآيات وحديثها عن مظاهر الحياة لا يتنازع العقلاء في وجودها ويسلمون تسليمًا تامًا بوجود هذا القانون الضابط المعبر عن السنن الإلهية بل لا يستطيعون أن يزعموا أنهم يمكنهم الخروج عن هذا القانون وذلك النظام وهذا القانون هو ما يعرضه القرآن الكريم في صورة: «السنن الإلهية في الخلق والتدبير».

والسبيل الذي يدرك به البشر هذا القانون والطريق إلى معرفته هو الحواس البشرية من السمع والبصر والأفئدة والعقول الحاكمة على ذلك كله التي تصل بالمشاهدة والنظر والتتبع إلى أن هناك قانونًا عامًا يحكم هذا الوجود فهذا أمر يشترك فيه المؤمن والكافر على حد سواء.

2- الوجوه الثاني من وجوه هذا القانون (السنن الإلهية):

هو ما يتعلق بأفعال الإنسان وسلوكه على هذه الأرض وما يقوم به من نشاطات متنوعة من الخير والشر وما يقابل ذلك من الأقدار الإلهية والجزاءات الربانية الجارية وخضوع الإنسان لذلك.

فكما أن للكون المادي قانونًا إلهيًا يحكمه ونظامًا يضبطه تحدث عنه القرآن الكريم وبينه من خلال الآيات الكريمة فكذلك لأفعال الإنسان ونشاطه على هذه الأرض قانونًا إلهيًا يعبر عنه في الكتاب والسنة «بالسنن» يضبط هذا النشاط ويقوم هذا السلوك.

والسبيل لإدراك هذه السنن الإلهية فيما يتعلق بهذا الوجه هو استقراء آيات الكتاب الكريم للإحاطة بالقانون الإلهي العام «السنن الإلهية» الحاكمة لجميع صور النشاط البشري كله من خير أو شر القليل والكثير الفردي أو الجماعي وما اشتملت عليه هذه السنن الإلهية من المعاني والجزاءات والنظر في ما حوله من أحداث وسوف يجد الإنسان تصديق هذه السنن الإلهية في حياته الفردية وحياة من حوله من البشر وحياة مجتمعه وحياة العالم كله على كافة المستويات والأنشطة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا﴾ [النساء:87].

نحو بلورة السنن الإلهية كعلم مستقل:

وقد أشار الشَّيخ رَشِيد رِضَا في مجلَّة «المنار» إلى هذه السُّنَنِ، ودعا إلى أن تُفْرَد بالدَّرس وبالتَّعليم. ونَعلَمُ أنَّ توليد العلوم كان من سمات الحضارة الإسلاميَّة، فمثلًا مادة «علوم القرآن» التي ألَّف فيها الزَّرْكَشِيُّ كتابَه الماتع «البرهان في علوم القرآن» هي مادَّة جديدة جمع فيها أشياء قد تكون مبعثرةً هنا وهناك في علم التَّفسير، وفي الحديث، وفي أصول الفقه، وفي اللُّغة؛ إلا أنَّه جَمَعَهَا كلَّها في مكانٍ واحد حيثما تعلَّقت بالقرآن وبدراسة القرآن، جمعها من القراءات، ومن رسمِ القرآن، ومن ضبط القرآن، وجمعها أيضًا من التَّاريخ... وألَّف كتابه «البرهان في علوم القرآن» إلا أنَّ هذا الكتاب لم يُعْرَف ولم ينتشر ولم يُدَرَّس، فجاء الإمام السُّيُوطِيُّ وخطرت له نفسُ الخاطرة ونفس الفكرة؛ فألَّف كتابَه «الإتقان» كما تكلَّم عن نفسه، وبعدما أَتَمَّهُ وقع له كتاب «البرهان» للإمام الزَّرْكَشِيِّ؛ فاستفاد منه وضمَّن كتابَه «الإتقان» كثيرًا ممَّا ورد في كتاب «البُرهان».علمٌ جديد، حتى إنَّه لم يستقرَّ في الأكاديميات إلَّا في القرن العشرين. أمَّا قبل ذلك فلم نسمع أنَّ أحدًا قد درَس أو دَرَّس «البرهان» أو «الإتقان»؛ بل كانت مراجع يُرجع إليها.

وهكذا الحال في قضيَّة «السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ»، نريد أن تكون عِلْمًا قَائِمًا بذاته، وقد دعا الشَّيخ رَشِيد رِضَا في مجلة «المنار» وفي تفسيره - كما أشرنا- إلى أن تصيرَ «السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ» عِلْمًا يدرَّس في مادَّةٍ مستقلَّة، ويلتزم الطَّلاب بها بوصفها علمًا جديدًا يفتح لهم الآفاقَ، وتقوم له علومٌ مساعدة تساعده على أن يسير في طريقه؛ ويكون هذا نوعًا من أنواع توليد العلوم الذي تَوَقَّفَ في القرن الرابع الهجري، ولم يخرج بعد ذلك إلا عِلْمَان، وهما: «الْوَضْع» على يد عَضُدِ الدِّينِ الْإِيجِيِّ(1)، و«علوم القرآن» على يد الإمام الزَّرْكَشِيِّ، ثم الإمام السُّيُوطِيِّ.وفي القرن العشرين

(1) عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار بن أحمد، عضد الدِّين الإيجي، الشيرازي الشَّافعي: يُنسب إلى بلدة «إِيج» ولد سنة «708هـ»، عالم بالأصولِ والمعاني والعربيَّة والفقه وعلمِ الكلام، قاضي قضاة المشرق، جَرَت له محنةٌ مع صاحب كرمان، فحبسه بالقلعة، فمات مسجونًا عام «756هـ». من تصانيفه: =

أصبح يُدَرَّس في الأكاديميات العلمية الشرعيَّة علمُ «الوَضْع»، ويدرَّس أيضًا «علوم القرآن».

فهل من الممكن أن يستجيب العلماء لدعوة الشيخ رَشِيد رِضَا التي أطلقها منذ أكثر من مائة سنة، مع العلم أنَّه لم يُؤلَّف في ذلك إلا مُؤَلَّفات قليلة لا تتعدى المؤلفات العشرة في هذا المجال؛ مما لم يُصَيِّرْهَ - السُّنَن الْإِلَهِيَّة- عِلْمًا حتى الآن، وقد كان الْمَرْجُوُّ والْمَقْصُودُ من كلام الشيخ رَشِيد رِضَا أن تتحوَّل هذه المعاني إلى علوم تُدَرَّس، وتكون متفرِّعة - مثلًا- من علم التَّفسير أو من علوم القرآن، ومعلوم أن تولُّدَ العلومِ وانفصالَها كان من سمات الحضارة الإسلاميَّة، فمثلًا: انفصل علم المواريث من الفقه وأصبح علمًا مستقلًّا بذاته، له المتخصِّصون فيه الذين قد لا يُتْقِنُون غيره، وكما اسْتَقَلَّ علمُ القراءات عن علوم القرآن في مجملها أو عن التَّفسير، فإنَّ عالِمَ القراءات لا يستغني أبدًا عن التَّفسير في توجيه قراءاتِه وفَهْمِها؛ إلَّا أنَّ علم القراءات قد استقلَّ بنفسه.وهكذا نرى أنَّ توليد العلوم واستقلالها من سمات الحضارة الإسلاميَّة(1).

أهمية دراسة السنن الإلهية:

إنَّ دراسة السُّنن الإلهيَّة بل واستقلالُ علمٍ بدراستها وبيانِ علاقتها مع المبادئ العامة القرآنيَّة التي تكوِّن أيضًا عقل المسلم من خلال قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164] وقوله سبحانه ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾

=

«المواقف» في علم الكلام، و«شرح مختصر ابن الحاجب» في أصول الفقه، و«الفوائد الغياثيَّة». له ترجمة في: «الدُّرر الكامنة» (2/ 323)، و«شذرات الذهب» (6/ 174)، و«البدرالطالع» (1/ 326)، و«الأعلام» للزِّركليِّ (4/ 66).

(1) انظر: تفسير المنار محمد رشيد رضا 4/ 114 ط. الهيئة العامة المصرية للكتاب.

[النجم: 39]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] إلى آخر ما هنالك من أسسٍ ومبادئ تبيِّن أنَّ الضَّرر يزال، واليقينَ لا يُرفع بالشَّك، والأمورَ بمقاصدها ونحو ذلك.

أقول إنَّ دارسة السُّنن الإلهيَّة أصبح واجبًا يمكن أن يُفيدَ الإنسان والإنسانيَّة بنظرةٍ جديدةٍ لمجموعة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة ويمكن بهذه النَّظرة أن تتهيَّأ لتجديدٍ علمي واعٍ للخطاب الدِّيني.

وبالتأمل والنظر نجد أن العلم بالسنن الإلهية وقواعدها الكلية الحاكمة في كتاب الله ودراستها يفتح أمامنا أبواب كثيرة من المعرفة والفهم فمن تلك الأبواب:

1- إدراك حقيقة مقاصد الشريعة الكلية في مجال العقائد والتشريع والأخلاق والقيم من حيث إن النظر في الكون وسننه وقوانينه يقود إلى معرفة الخالق سبحانه ويدل على عظمته جل جلاله ويقودنا إلى تحقيق التوحيد ومن حيث الالتزام بالتشريعات الإلهية والأوامر والنواهي التي حددت الجزاءات على الأعمال ونتائجها ومن حيث الحث على الالتزام بجانب القيم والأخلاق والنظر إلى مآلات ذلك كله في الدنيا والآخرة.فالسنن الإلهية في حقيقتها شبكة مترابطة تجمع المنهج الإلهي المتكامل في العقيدة والتشريع والأخلاق من حيث بيانها للحق المطلق في هذه الأمور.

2- ومن وجوه أهمية دراسة السنن الإلهية في كتاب الله ومحاولة صياغتها في صورة قواعد كلية مستمدة من الآيات الكريمة أنها تقدم للحضارة الإنسانية المعاصرة نموذجًا ربانيًا متكاملًا يحتوى على التربية والتقويم والإرشاد إلى طريق الصلاح وبه كذلك الطريق لمعالجة المشكلات الحياتية الفردية والجماعية عن طريق تجنب أسباب حدوثها أو دفعها بما يناسبها من السنن الإلهية الأخرى.

فقد أفرد القرآن الكريم جانبًا كبير منه للحديث عن سنة الله في خلقه من الأفراد والجماعات والأمم والحضارات وبيان الجزاءات والعقوبات والرحمة والعذاب والضلالة

والهدى وبين كذلك السنن التي تحكم نشأة المجتمعات والحضارات وانهيارها وبين المقدمات والأسباب وذكر النتائج فيما يشبه المثال المادي الملموس فقصص القرآن الكريم وسير الأنبياء والرسل قد احتوت على المثال الأكمل لتفاعل السنن الإلهية في هذه الدنيا واحتوت على فقهًا حضاريًا في العلوم الإنسانية واشتملت على القوانين الاجتماعية الكاملة والتي لا يقل شأنها عن القوانين الفقهية في الأهمية بل تزيد عليها.

فلا بد أن يلفت هذا الانتباه إلى أن دراسة هذه السنن الإلهية وما يترتب عليها هو طريق الهدى الفردي والجماعي.

3- ومن وجوه أهمية دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم وتفعيلها في حياة المسلمين أنها تعطي النموذج الصحيح لتفسير ظواهر الحضارة البشرية وأحداث التاريخ والمجتمعات وفهم الأسباب والنتائج التي تحكم حركة الوجود والحياة فتبتعد بالإنسان عن التفسيرات الخرافية أو المادية الإلحادية أو الأفكار المشوشة المتناقضة.فما من فعل لأفعال الإنسان أو الجماعات إلا وله مقدمات ونتائج والمسلمين وضع الله لهم في كتابه الكريم قانونًا كليًا من السنن الإلهية يوضح مقدمات السلوك ونتائجها في مجال الخير أو الشر فإدراك السنن الإلهية وفهمها هو في حقيقته فهم للمراد الإلهي من الخلق.

4- من ثمرات دراسة السنن الإلهية في القرآن الكريم أنها تعتبر من الأدلة العقلية على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ من حيث أنها تخبرنا عن جريان هذه السنن الإلهية في حياتنا ونرى نتائجها التي لا تتخلف على المستوى الفردي والجماعي فهي تشهد بصدق الرسالة لنبينا ﷺ فلم تتخلف نتيجة أو ثمرة حدثت في تاريخ الأمة المسلمة أفرادًا أو جماعات أو مجتمعات في أي مجال من مجالات الظواهر الاجتماعية أو التاريخية أو الاقتصادية أو السياسية التي أخبرنا القرآن عن مقدماتها سواء كان ذلك سلبًا أم إيجابًا.

فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر في كتابه عن منهج أكثر فيه من الصيغ الشرطية التي ترتب

النتائج على مقدمات وصدق النتائج وعدم تخلفها يشهد لنبينا ﷺ بأنه مرسل حقًا من عند الله وأن ما أتى به هو الوحي الإلهي الكامل، ومن أمثلة ذلك في كتاب الله:

فعلى المستوى الفردي:﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: من الآيات 2-3].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97].

وعلى المستوى الجماعي: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96].

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:137].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:36].

5- دراسة السنن الإلهية باب من أبواب زيادة القدرات العقلية وتفتح أبواب الحكمة وتزيد من خبرات الإنسان العلمية والعملية والقدرة على الحكم على الأمور ومعرفة عواقبها سلبًا أو إيجابًا.

مصادر السنن الإلهية:

والسُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ نراها في كتاب الله المسطور، وكتابُ الله المسطور هو القرآنُ الكريم، والقرآن كتابٌ فريدٌ لا مثيل له في قِصَرِه ووجازَتِه، فهو إيجازٌ في إعجاز، كتاب لا مثيلَ له في حفظه الذي تَكَفَّلَ الله به، فصَدَّق نبيَّه وأيَّده كتابٌ عجيبٌ في رسمه، عجيبٌ في نظمه، عجيبٌ في انتشاره؛ فهناك أكثر من أربعين مليون إنسان يحفظون الكتاب عن ظهر قلب، يتحدَّثون بلغاتٍ مختلفة، منهم: التُّرْكِي والمَلَايو، ومنهم: الْفَارِسِي والْعَرَبِي، وكلهم يحفظون كتاب الله كما أُنْزِل.كتاب الله هو الكتاب المسطور الذي سُطِرَ وحُفِظَ وكُتِب، لا بحولٍ منَّا ولا بقوة، وإنَّما بحول الله وقوَّته.

وتُؤْخَذُ السُّنَنُ الْإِلَهِيَّةُ أيضًا من كتاب الله المنظور، وكتابُ الله المنظور هو ذلك العالَمَ الذي نعيش فيه، نسير في الأرض وننظر ونعتبر ونتأمَّل، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 91]، فكما أُمرنا أن نتدبَّر الكتابَ المسطور، فقد أُمرنا أيضًا أن نتدبَّر الكتابَ المنظورَ.

وكذلك تُؤْخَذُ السُّنَنُ الْكَوْنِيَّةُ من كتابِ الله المقدور «الذي هو الإنسان» فيرى بعضُهُم أنَّ الإنسانَ هو كتاب الله أيضًا وفيه جُمِعَ العالم؛ فهو مقدورٌ لله سبحانه وتعالى، فسمَّوه: «كتاب الله المقدور».

إذن، فالكتب ثلاثة: «الوحي»، و«الوجود»، و«الإنسان الذي يصِل بينهما»، إنَّها دائرةٌ لا نعرف قَبِيلَها من دَبِيرِها، ولا بدايتها من نهايتها، يقولُ تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] فتكلَّم سبحانه عن الخلقِ أوَّلًا، ثمَّ بعد ذلك يُعيد طَلَبَ القراءة فيقول: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ يعني الوحي، فهو قد لَفَتَ نظرَ الإنسانِ إلى الخَلْق حتى يتوصل به إلى صحَّة الوحي؛ فكتابُ الله المنظورُ - وهو الكون- لا يُعارِض؛ بل يتَّفق اتفاقًا عجيبًا مع كتاب الله المسطور، الذي هو الوحي.

ومرةً أخرى نراه يبدأُ بالوحي، ثم يتكلَّم عن الوجود: ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن1: 4] فبدأ بتعليمِ القرآن، ثمَّ بتعليم الإنسان البيان بعدما خلقه في كونه الفسيح.

كتبٌ ثلاثة: «الوحي»، و«الوجود»، و«الإنسان الذي يصِل بينهما بالتَّدبر والتفكُّر، كما أمرنا ربُّنا سبحانه وتعالى». هذه هي مصادر السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ، سواءٌ أكانت في التَّاريخ، أم في النَّفس، أم في الآفاق، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصِّلت: من الآية 53].

فعندما نبحر في كتاب الله ومعانيه بحثًا عن السنن الإلهية فإننا نجد مظاهر هذه السنن تتضح لنا:

من خلال الأمثال القرآنية المتعلقة بالكيفية التي يعامل الله بها الخلق بناء على سلوكهم وقواعد الثواب والعقاب ومن خلال الآيات التي تلفت النظر إلى عظمة خلق السموات والأرض ومن خلال الآيات التي تتحدث عن ربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج فيما يخص نظام الكون الموضوع بقدرة الله وحكمته سبحانه، وكذلك من مظاهر السنن الإلهية نجد القصص القرآني وحديثه عن الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين وحال الأمم ومصائر الناس جماعات أو أفراد وإدراك أحداث التاريخ البشري وملاحظة المقدمات والنتائج فقد اعتنى القرآن الكريم ببيان قصص الأمم السابقة ومآلاتها من النجاة والسعادة أو الهلاك والبوار فكل ما ذم الله به الأمم السابقة فالمسلمون محذرون منه ومن عواقبه وكل ما مدح به الله جماعة أو أمة من الأمم فالمسلمون مرغبون فيه. وكذلك من مظاهر السنن الإلهية في القرآن الكريم الآيات التي تحث على السير في الأرض ومعرفة سنن الله في البشر والذي يمثل ما يعرف حاليًا بقواعد علم الاجتماع أحوال الأمم السابقة وعواقب الإصلاح والإفساد.

خصائص السنن الإلهية:

عندما تأملنا السنن الإلهية وتعريفها ومتعلقاتها وتفاعلها في الكون وحياة الإنسان الفردية والجماعية وجدنا أن لها من الخصائص ما يميزها عن أي فكرة بشرية أو نظرية وضعية تتحدث عن تفاعل الأحداث أو الجزاءات فمن هذه الخصائص:

1 – الأساس الرباني للسنن:

أول هذه الخصائص هي الربانية فهذا هو الأساس الذي ينبغي الانطلاق من خلاله للحديث عن السنن الإلهية فلا يمكن فهم هذه السنن بمعزل عن اليقين من نسبتها إلى الله رب العالمين سبحانه فاطر السموات والأرض وبارئ المخلوقات فينتفي عنها أي تصور للوقوع في الخطأ أو الظلم أو التناقض، وهذا الكلام يشهد العقل بصحته لما يرى حوله من تناغم السنن الإلهية في الكون والمجتمعات والتاريخ الإنساني والنفس البشرية.

فلن يستطيع الإنسان أن يفسر وجود هذا القانون الإلهي؛ بكل كلياته وجزئيته في الكون والحياة، وتكامله وانضباطه وطريقة عمله، إلا أن يرجعه ويرد عمله وتفاعله إلى خالق حكيم مدبر قهار مهيمن هو الذي أجراه بين الخلق.

وخصيصة الربانية في السنن الإلهية يميزها عن أي تصور فلسفي غامض؛ يفسر لنا هذا الوجود وما يجري فيه ويصف حياة الإنسان والمجتمعات بمعزل عن المرجعية الإلهية، فهذا التصور ما إن ينجح في جهة إلا ويفشل ويتناقض في جهة أخرى؛ لصدوره عن الحواس البشرية القاصرة عن الإلمام والإحاطة بكل هذا الخلق وتفسير كلياته وجزئيته وكذلك تبتعد بنا ربانية السنن عن أي تصورات باطلة أنتجتها لنا الاعتقادات الشركية الوثنية لتفسير حركة الوجود والحياة والتي تدخل الإنسان في عالم الخرافة والجهل.

حديث القرآن عن هذه الخصيصة:

ذكر القرآن الكريم آيات تتحدث عن عمل السنن الإلهية في الكون وعملها في حياة الإنسان الفردية والجماعية وترد ذلك كله إلى الله سبحانه:

فمن الآيات التي تتحدث عن تدبير الله لأمر الكون وما فيه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:3].

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1) الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:1-3].

﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ

مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة:4-6].

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى:11-12].

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:32-33].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:4-6].

فهذه الآيات الكريمة يظهر فيها عمل الله سبحانه وتعالى وتقديره وتدبيره لأمر الخلق في الكون وما فيه وتظهر أن مرجع أمور السموات والأرض هي إليه سبحانه.

ومن الآيات التي تتحدث عن عمل القانون الإلهي وسنن الجزاءات في حياة الإنسان والمجتمعات:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:15-19].

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف:152-153].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:13-14].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:26-27].

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:282].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:97].

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:79-82].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:110].

﴿يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَالله لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة:276].

﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق 2-3].

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [89-90].

وعند النظر إلى هذا القانون الساري في هذا الكون يكتشف الإنسان أن ورائه مدبر عظيم، وخالق يتصف بالقدرة والعلم، فيرجع إليه ويصدق برسالاته وكتبه، ويعمل على إطاعة أوامره، وتجنب نواهيه، ويسعي في التقرب إليه، ويتولد لديه الشعور بالأمن والاطمئنان لأن له ربًا قادرا؛ يتولى أموره ويدبر شأنه فيركن إليه ويتوكل عليه، ويتولد في قلبه محبته وخشيته جل وعلا وتنفتح بصيرته على حقائق الكون فيشهد بقلبه قبل عينه عظمة الله وإحاطته بالخلائق.

واتصاف السنن الإلهية بالربانية وكونها من وضع الله عز وجل يقودنا إلى رؤية وفهم باقي الخصائص التي تتميز بها.

2- ثبات السنن الإلهية:

من خصائص السنن الإلهية «الثبات» فما أجراه الله سبحانه وتعالى من السنن لا يتغير ولا يتبدل؛ لأنها من عند الله فهي مستقرة ثابتة سواء أكان ذلك في الكون وما يحتويه، من مخلوقات متنوعة، أو في سنن الأفراد والمجتمعات، وأحداث التاريخ.

- ففي الكون والوجود:

لا يتصور أن يختل نظام السموات والأرض وترتيب الخلق فيهما أو أن يتبدل الليل مكان النهار أو يطغى خلق على خلق فيدمره ويمحو وجوده أو تتصادم الكواكب ويختل نظامها أو أي مظهر من مظهر الخلل في بنيان السموات والأرض ونظام المخلوقات كل ذلك لا يحدث لأن واضع هذا القانون هو الله سبحانه. وعن مظهر هذه السنة الإلهية يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ

الله يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41]. ويقول سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 38-40].

ويقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ الله ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5]. ويقول عز من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق:6]. وصفة الثبات في السنن الإلهية فيما يتعلق بالكون أحد أسباب عمران الأرض وتحقيق معاني الاستخلاف فيه، فلو لم تكن ثابتة لتعارضت وتناقضت مع النشاط الإنساني في هذه الحياة وتناقضت فلم يتيسر للإنسان أن يحقق أي لون من ألوان الحضارة أو المدنية ولكننا نجد أن قوانين الطبيعة التي أوجدها الله سبحانه تتسم بصفة الثبات وعدم التغير أو التبدل بل وفوق ذلك تتناسق وتنشأ بينها وبين الإنسان علاقة بينية تنتج ألوانا وصورا من الحياة والنشاط الإنساني.

وصفة الثبات في السنن الإلهية فيما يتعلق بالكون ونظامه هي أحد أبواب الإيمان إذ بها يبطل القول بمبدأ الصدفة في الخلق أو العشوائية في النظام الكوني فيصل الإنسان بعقله إلى وجود خالق له صفات الكمال أخرج هذا الكون من العدم إلى الوجود وأحكم تدبير أمره إحكامًا لا مزيد عليه.

-وفي جانب الحياة البشرية والمجتمعات وأحداث التاريخ:

لا تتغير ولا تتبدل سنن الله في خلقه فلا تتخلف الجزاءات أو الأقدار الإلهية التي يجازي الله به عباده أو يضبط بها ناموس الحياة وتفاعلاتها وجماع ذلك كله هو أن الإيمان والخير والعمل الصالح يجلب معه الحياة الطيبة والبركة للفرد والمجتمع والكفر والشر والعمل

السيئ يجلب معه ضنك الحياة وضيقها وتظهر التعاسة بالإضافة إلى الجزاء في الآخرة. وظهرت صفة الثبات للسنن الإلهية وما يتفرع عنها في حديث القرآن عن الجزاءات الإلهية بأنواعها المختلفة من خلال قوله تعالى:﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:62]. ومن خلال قوله سبحانه ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:43]. وعما يستتبع هذه السنن من أنواع الجزاءات التي لا تتخلف يقول ربنا سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:60]. ويقول عز وجل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:123].

هذا الثبات في السنن الإلهية يفتح باب الاستقامة أمام الجنس البشري أفرادًا ومجتمعاتٍ في كافة المجالات الدينية والدنيوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية وذلك بمعرفتنا وتيقننا أن الله عز وجل لا تتخلف سننه ولا يتعطل قانونه عن الفرد أو عن الجماعة أو عن الأمة.

فلا يعاقب المحسن مثلًا أو يكافئ المسيء فذلك ضد القانون الإلهي ويجب أن نلفت النظر هنا أن أحداث التاريخ البشري أكدت لنا هذه المعاني، فلا يزعم زاعم أن المسيء متمتع في هذه الحياة الدنيا والمحسن مضيق عليه أو يرى تمكن الطغيان لمجرد أنه رأى بعض المظاهر الوقتية التي توقعه في هذا الظن. ذلك أنه أدرك شيئًا وغابت عنه أشياء أو أن موعد الجزاءات لم يأت بعد، وذلك على مستوى الأفراد والأمم والشعوب.

فما قضاه الله سبحانه وسنه لا يتبدل ولا يتغير ولكن لكل قضاء وقت ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر:21]. فهو سبحانه المُقيت الذي تظهر أقداره وفقًا لحكمة عليا قد ندركها وقد لا ندركها.

وصفة الثبات للسنن الإلهية تؤصل عند الإنسان الاطمئنان بأن الله لا يضيع أجر المحسن ولا عقوبة المسيء فيحصل عنده الاستقامة والاستقرار ويسير في طريقه وفقًا لما تقرره هذه السنة من حيث حدوث الرغبة والرهبة فيعرف الإنسان ماله وما عليه ويجد نفسه قد أصبح

واجبًا عليه أن يعمل وفقًا لهذه السنة وأن يتجاوب معها إذا أراد أن يصل لنتائج في الدنيا أو الآخرة.

3- الشمولية والعموم:

من خصائص السنن الإلهية السارية في الكون وفي حياة الأفراد والمجتمعات أنها عامة في حق جميع الخلق، والإنسان العاقل يلحظ ذلك بالنظر والتأمل:

ففي خلق السموات والأرض والوجود والكون بأجمعه وما فيه لا يخرج منه أيُّ جانب عن الإطار العام للسنن الإلهية فما من مخلوق عاقل أو غير عاقل في السموات والأرض إلا وهو داخل الإطار العام للسنن الإلهية لا مخرج له منها ولا يستطيع أن يتمرد عليها أو أن يوقف عملها عنه وينفرد بنفسه بنظام خاص به.

فلا تخرج البحارُ ولا الأنهار عن القانون الذي وضعه الله لها ونظم حركتها به منذ أن خلقت ولا خرجت الشمسُ عن نظامها فلم تخرج على الأرض في يوم من الأيام ولا اختل نظام الأيام والشهور والسنين ولا تبدلت معاييرُ الليل والنهار ومقاديرهما ولا اختل نظام المزروعات فلم تنبت النباتات ولم يختل عالم الحيوان وما فيه من مخلوقات متنوعة، فتخرج عن نمط حياتها وتُفسد في الأرض، وإنما كل مخلوق في السموات والأرض في نظامه الذي وضعه الله له لا يتخطاه ولا يخالفه يسير وفقًا للسنن الإلهية.﴿صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:88]. ﴿وَلله غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ﴾ [هود:123].

وفي جانب حياة الإنسان أفرادًا أو مجتمعات يسري حكم السنن الإلهية بأنواعها المختلفة على جميع أفراد الجنس البشري مؤمنهم وغير مؤمنهم بدون تحيز أو محاباة فيدخل فيها جميع الأفراد ويدخل تحت نظامها جميعُ المجتمعات في القديم والحديث ولا يستطيعون أن يخرجوا عنها.يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:22].

فالأمة العادلة المصلحة في الأرض يجازيها الله في هذه الدنيا بالثواب؛ وإن كانت غيرَ مؤمنة، والأمة الظالمة المفسدة في الأرض،يعاقبها الله في هذه الدنيا بالعقوبات المناسبة؛وإن كانت مؤمنة(1).

وهذه السنن لا تحابي أحدًا من الخلق فهي تسري على الجميع: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:123]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:277].

فالسنن الإلهية عامة حكمها يسري على الجميع ويجب هنا أن نتنبه إلى كون المرء مسلمًا لا يعفيه من الجزاءات أو يخرجه عن دائرة السنن بل هي في حقه آكد وأوجب فميزان الثواب والعقاب تخضع له جميع الأمم والشعوب والمجتمعات مؤمنها وغير مؤمنها ويقع تحت هذا القانون جميع الأفراد فهذا القانون لا يحابي أحدًا من الخلق.

يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:18].

4- الاطراد في السنن:

الاطراد من:«اطرد الْأَمر تبع بعضه بَعْضًا وَجرى. واطرد الْحَد: تَتَابَعَت أَفْرَاده وَجَرت مجْرى وَاحِدًا كجري الْأَنْهَار.والاطراد: هُوَ أَنه كلما وجد الْحَد وجد الْمَحْدُود»(2). والمقصود بالاطراد في السنن التتابع والاستمرارية وعدم التخلف فهذه السنن الإلهية تمثل القانون الإلهي الذي لا يخضع للصدفة أو العشوائية أو الانتقائية.

(1) كما جاء في الحديث:" يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»" [متفق عليه].

(2) انظر: الكليات (1/ 140) المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي - المحقق: عدنان درويش - محمد المصري - الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

ففي الكون وخلق السموات والأرض يسري عملُها وتظهر آثارُه في الكون والوجود بدون انقطاع وهذا أمر مشاهد محسوس يحكم العقل بصحته ويسلم له.

وفي حياة الإنسان والمجتمعات والأمم: تظهر آثارها من الثواب والعقاب والجزاءات الإلهية فلا يخلو وقت من الأوقات أو زمان من الأزمنة منها كلما توافرت شروطها.

يقول الله عز وجل:﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلًا (43) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:43-44].

ويقول سبحانه:﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران].

فقد قص علينا القرآنُ الكريمُ قصصَ الغابرين من الأمم السابقة والجماعات والأفراد وما حل بهم من الثواب كجزاء للإيمان، وما نزل بهم من العقوبات جزاء لهم على مخالفة الأوامر الإلهية تنبيها للبشرية ؛ حتى تأخذ العبرة والدروس فتسلك طريق الإيمان، وتبتعد عن طريق الكفر والمعصية.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته، التي قال فيها: ﴿سُنَّةَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً﴾، وقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلا﴾؛ وهي التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين»(1).

فسنن الله سبحانه وتعالى قانون مستمر دائم مصدرها الحق سبحانه وتعالى لا تتبدل ولا

(1) انظر: النبوات (2/ 867) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي – المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان –الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى، 1420هـ/ 2000م.

تتغير فهي من الأزل وتستمر إلى الأبد فلا يصيبها ما يصيب القوانين البشرية من الخمول أو التوقف أو الزوال.

اطراد السنن والمشيئة الإلهية:

وهنا يجب أن ننتبه إلى أن القول باطراد السنن الإلهية ودوامها لا يعني القول بالحتمية الذاتية لهذه السنن وذلك القانون وأن ذلك خصيصة ذاتية فيها. وإنما يجب أن نلتفت أن دوام هذه السنن واستمرارها ينبع في الأصل من تقدير الله عز وجل ومشيئته فهي أحد أوجه قيومية الله على الخلق هذه القيومية التي لا تنقطع عن السموات والأرض وما فيهن ومن فيهن طرفة عين ولا أقل من ذلك.

فالسنن الإلهية تعمل في الكون بإرادة الله وتقديره ومشيئته؛ فليست هذه السنن ملزمة للمشيئة الإلهية أو لأفعال الله سبحانه وتعالى أو محركة لها، وإنما هي من خلق الله بداية؛ يوقِف عملها في أي وقت يشاء، ويأذن لها بالعمل وقتما يشاء سبحانه، فهو سبحانه يفعل ما يشاء،كيفما يشاء، وقتما يشاء ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:22-23]. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: 68].

فاستمرارية السنن مستمدةٌ من الإرادة الإلهية ومتوقفًا عليها فليست بمنفصلة عن المشيئة والإرادة بذاتية عامل فيها وإنما عملها يتوقف على الإذن الإلهي بسريان آثارها لحظة بلحظة.

وحتى نفهم ارتباط السنن الإلهية وعملها بالمشيئة الإلهي،ة نحتاج إلى التأمل في مجالات عمل هذه السنن.

فهذا الكون وهذا الخلق العظيم للسموات والأرض ونظامها البديع وخضوعها للسنن الإلهية هو في ذاته مظهرًا من مظاهر الإرادة الإلهية،والمشيئة الربانية، ثم نجد في بعض الحالات يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى مصدر هذه السنن ؛ بأن يوقف بعض آثار هذا القانون؛ فقد نجد في بعض الأوقات والسنين تغيرات عجيبة في المناخ، في مناطق لم تعتد ذلك، فقد

يحدث البرد الشديد في المناطق الحارة أو العكس، وقد تحدث الأعاصير وما يصاحبها من طغيان بعض أجزاء من البحار على اليابسة، وقد تتوقف الأمطار ويحدث الجفاف في بعض السنين، مع وجود جميع العوامل المهيأة لحدوث الأمطار، وقد يحدث في بعض السنوات نقص في مقدار الثمار والمزروعات، وقد نجد زيادات في المزروعات والثمار في مظاهر خارقة للقانون والسنن ليلفت الله سبحانه وتعالى أنظارَ البشر إلى مصدر هذا القانون وهذه السنن، فمع الاعتياد قد يظن الناس الذاتية في الأشياء فينبهنا الله سبحانه أن كل ذلك وفقًا لإرادته ومشيئته، وقد جعل الله سبحانه هذه الخوارق للقانون استثناءً في بعض الحالات والأوقات، والأصل هو استمرار وتتابع السنن الإلهية في الكون والوجود من حولنا.

وفي مجال الإنسان والحياة والمجتمعات:

تسري السنن وتتابع وتحكم حياة البشر والمجتمع ولكن قد يحدث في بعض الأحوال أن يقابل الله سنة بأخرى كمظهر من مظاهر القهر الإلهي أو الرحمة والرأفة بالخلق ليلفتنا سبحانه إلى خالق الأسباب وواضع هذا القانون.

فعلى سبيل المثال قد يحرم الزوجان من إمكانية الإنجاب، مع توافر كل الأسباب التي تمكنهم من ذلك؛، من سلامة الجسد والأعضاء وعدم وجود الموانع، فهنا تلتفت النفوسُ والعقول والقلوب إلى الله مسبب الأسباب وواضع القانون، وفي بعض الأوقات قد نجد سعة في الرزق أو ضيق فيه بما لا يتناسب مع الأسباب الظاهرة لنا.

فهنا يرجع الإنسانُ السوي إلى ربه سبحانه وننسى الأسباب وعملها والقوانين وسريانها، ونتجه إلى من بيده الأمر كل الأمر، فالله هو وواضع القانون وهو مسبب الأسباب يوقفه متى يشاء ويأذن بسريانه متى يشاء، وفي كلا الحالتين لا خروج لذرة في هذا الكون عن قدره سبحانه ولا ذاتية لها في فعل أو قول أو حال.

5- الواقعية في السنن الإلهية:

عندما ننظر في آيات القرآن الكريم وما تم ذكره من خلاله من السنن الإلهية نجد أنها متوافقة مع الزمان والمكان والأحوال والأشخاص والوجود المحيط فلم تأخذنا السنن الإلهية إلى عالم خيالي وإنما تحدثت عن واقع ملموس سواء عن الكون والمخلوقات أو عن حياة الإنسان الجماعية أو الفردية.

فواقعية السنن في الكون يشهد لها العقل والحواس الإنسانية بما تدركه من نظام بديع وقانونٌ سارٍ لا تعارض فيه،وليس هناك خلل أو تناقض بين نظام كل نوع من المخلوقات مع الآخر.،على الرغم من كل هذا التداخل الكبير بين العوالم والمخلوقات الحية وغير الحية.

وواقعية السنن في حياتنا الفردية والجماعية يشهد له عدل هذه السنن وشموليتها وضبطها لكافة أمور الحياة البشرية وتفاعلها ونتائجها ولكن على المرء أن ينظر بصورة كلية شاملة حتى يستطيع إدراك ذلك فلا ينظر إلى جانب جزئي من جوانب الصورة الكلية للحياة.

فآثار هذه السنن الربانية تغطي جميع مجالات الحياة وعند التمعن في كل سنة من السنن في حياتنا نجد أنها تأمرنا بخير أو تنهانا عن شر فهي في حقيقتها تؤصل لمبادئ الخير والإيمان فعندما نقرأ على سبيل المثال قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:7]. فهذه الآية الكريمة وما أخبرتنا عنه من الجزاءات تدفعنا لسلوك طريق الشكر لله على نعمه ومعرفة آلائه وأفضاله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:96]. نرى ما فيها من الجزاءات الإلهية فترغبنا في الإيمان والذي ينتج عنه البركة والرزق، وترهبنا من التكذيب والكفر الذي ينتج عنها العذاب.

فمجال عمل السنن الإلهية يغطي كلَّ جوانب الحياة وفي جميع الأوقات ؛فلا تخلو لحظة من لحظات الوجود إلا وفيها سنن إلهية.

نماذج من السُّنن الإلهيَّة في القرآن الكريم

والسنن عندما نتتبعُهَا في القرآن الكريم نجد أنها أكثر من خمسين سُنَّة إلهية، منها ما هو في التاريخ؛ لأن التاريخ له نظام وله مسيرة، والمتأمل في هذه المسيرة يستنبط منها سُننًا إلهية لا تتخلف، منها هلاك الأمم، ومنها بقاء الأمم. ومنها سنن تتعلق بعمارة الأرض، ومنها سنن تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

فالسنن الإلهية إذًا لها مصادر، ولها حقائق، ولها مفاهيم، وهي أدوات يمكن بها التفسير، ويمكن إنشاء شبكة منها، لنتبين سنن الله- سبحانه وتعالى- في كونه؛ لأن السنن الإلهية، مع المقاصد الشرعية، مع منظومة القيم المأخوذة من أسماء الله الحسنى، مع قضية المبادئ القرآنية- تمثل وَحْدةً تكون مفهوم النموذج المعرفي.

إنَّ دراسة السُّنن الإلهيَّة بل واستقلالُ علمٍ بدراستها وبيانِ علاقتها مع المبادئ العامة القرآنيَّة التي تكوِّن أيضًا عقل المسلم من خلال قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164] وقوله سبحانه ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: 39]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] إلى آخر ما هنالك من أسسٍ ومبادئ تبيِّن أنَّ الضَّرر يزال، واليقينَ لا يُرفع بالشَّك، والأمورَ بمقاصدها ونحو ذلك.

أقول إنَّ دراسة السُّنن الإلهيَّة أصبح واجبًا يمكن أن يُفيدَ الإنسان والإنسانيَّة بنظرةٍ جديدةٍ لمجموعة العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة ويمكن بهذه النَّظرة أن تتهيَّأ لتجديدٍ علمي واعٍ للخطاب الدِّيني، ومجالاته ومنطلقاته وأفكاره ومداخله، مع الحفاظ على نصوصه، وأدواته، ومناهج فهمه.

من نماذج السنن الإلهية الموجودة في كتاب الله عز وجل:

أولا السُّنن الإلهيَّة في الآفاق:

كذلك السُّنن الإلهيَّة في الآفاق، فقد تطوَّرت كثيرًا من خلال العلوم التَّجريبيَّة التي منَّ الله على الإنسان بمعرفتِها في العصور المتأخرة، كثيرٌ من العلماء إذا ما قَرَؤوا كتب أولئك الذين يستنبطون «الإلحاد» ممَّا يرونه في الكون، فإنهم- العلماء- يستنبطون من ذات الرؤية الإيمانَ؛ ولذلك نراهم يؤلفون كتابًا يسمونه: «الله يتجلى في عصر العلم[1]» أو آخر يسمُّونه: «العلم يدعو للإيمان[2]» أو آخر يسمُّونه: «الإنسان ذلك المجهول[3]» في غير ذلك من الكتب الكثيرة التي ترى رؤيةً أخرى، تقرأ قراءةً أخرى لذات العلم، ومثل: «الطِّب محرابٌ الإيمان[4]»... إلى آخر هذه الكتب التي تقرأ نفس الحقائق ولكن بصورةٍ أخرى.

فدَارْوِين- مثلًا- عندما يتكلَّم عن التَّطور يُصدِّقه ذلك العالم، ويقول: سبحان الله! كلامُك صحيحٌ من ناحية الوصف، لكنَّه خطأ من ناحية التَّفسير[5].

---

(1) وهو من تأليف مجموعة من العلماء الأمريكيين وترجمه للعربية الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان.

(2) وهو من تأليف كريسي موريسون وترجمه للعربية: محمود صالح الفلكي – المرابط الشنقيطي.

(3) هو من تأليف ألكسيس كاريل ترجمه للعربية شفيق أسعد فريد.

(4) هو من تأليف الدكتور خالص جلبي.

(5) لم ينكر دارون وجود الخالق العظيم لكنه فسر التشابه الموجود بين المخلوقات برجوعها لأصل واحد، وقرر أن سبب حدوث التنوع الموجود في المخلوقات إما قانون الانتقاء الطبيعي والتطور، وإما الصراع من أجل البقاء، كما دون ذلك في كتابه الأشهر أصل الأنواع الذي نشره 1859 م، وقد قال في مقدمة كتابه هذا: " لا يمر بي خلجة من الشك في أن ما كنت أقطع به كما قطع الطبيعيون من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلا بذاته خطأ محض، وإني لعلى تمام الاعتقاد بان الأنواع دائمة التحول، وأن الأنواع التي تلحق بها نسميه الأجناس اصطلاحا هي أعقاب متسلسلة عن أنواع طواها الانقراض، وعلى نفس الطريقة التي تعتبر بها الضروب التابعة لأي نوع، أعقابا متسلسلة عن ذلك النوع ذاته وإني فوق ذلك لشديد الاقتناع بأن الانتخاب الطبيعي هو السبب الأكبر والمهيئ الأقوى لحدوث التحولات، =

نعم، فهناك تشابهٌ بين كلِّ هذه المخلوقات، وهذا دليلٌ على وحدانية ربِّ العالمين الذي خلق كلَّ ذلك، ولم يخرج عن خلقه شيء ﴿هَذَا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: من الآية11].

وقد جاء أَحَدُ الْمَلَاحِدَةِ وهو يقول: لا يمكن أن يكون لهذا الكون إله. قلنا له: لماذا؟ قال: لأنَّنا رصدنا في مستنقعات الأمازون هذه الكائنات، فهناك عشرةُ آلاف كائن حي تُؤخذ من المياه كلَّ يوم، نرصدها بواسطة المجهر «الميكروسكوب»، ونقومُ بتسجيل بياناتِها على الكمبيوتر، والغريب أنَّها تنتهي تمامًا ولا وجود أبدًا لها عند الغروب، وكأنَّها تحلُّ نفسَها ثم بعد ذلك تتكون عشرة آلاف أخرى، وفي اليوم الثَّالث عشرة آلاف أخرى. فإذا كان هذا الكون له خالق فهذا عبث! وعلى ذلك، فإذا كنتم تقولون بالخالق، فهذا الخالق ليس حكيم؛ لأنَّ تلك الكائنات تنشأُ وتفنى، فما الفائدةُ من ذلك؟!

هكذا تَسَاءَلَ الملحِدُ: كيف يخلق كلَّ هذه الأعداد كلَّ يوم؟ فهو يرى أنَّه ليس هناك إله، وأنَّ الطبيعة تُكوِّن هذا دونَ حكمة، ودون وَعي، ودون إدراك، وطبائعُ قوانين هذه الأشياء تجعلُها تنفكُّ في آخر النَّهار، وانتهى الأمر.

لكن عندما سمِع المؤمنُ منه ذلك، صرخ فقال: «لا إله إلا الله» سبحانه وتعالى ما زال خالقًا، وهذا إثبات لهذا، وكان ينبغي عليك أيُّها الملحدُ أن تَعِيَ هذا، لا أن تنفيَ الخالقيَّة التي هي من أوضحُ الواضحات:

وَلَــــيسَ يَصِـــــحُّ في الأَفهـــــامِ شَيءٌ　　　إِذا احتـــــاجَ النَّهـــــارُ إِلى دَليـــــلِ

=

ولو لم يكن السبب الأوحد الذي تفرد بإبرازها إلى عالم الوجود" انظر كتاب أصل الأنواع: تشارلز دارون ترجمة إسماعيل مظهر صـ 122 :الناشر مؤسسة هنداوي المملكة المتحدة 2017م،وهو نفي للخلق المستقل الذي ثبت على الأقل في خلق الإنسان كما أخبرنا القرآن الكريم.

وكما قال الآخرُ:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ   ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماء مِنْ سَقَم

فربُّنا سبحانه وتعالى لا يزال خالقًا، وتلا عليه قولَه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: من الآية29] فشأنُ ربِّنا الآن هو أنَّه يخلقُ هذا وهو ما زال خالقًا، فيحي ويميت وهو ما زال يحيي ويميت سبحانه وتعالى أبدًا، فإذا كنَّا لا نرى هذا في الكائنات الحيَّة الكبيرة بصورة لافتةٍ للنَّظر؛ فها قد رأيته في الكائنات الدُّنيا التي تسمِّيها بـ«الأميبا» وحيدة الخليَّة أو غيرها؛ فكان ينبغي عليك أن تقول: سبحان الله، لا قوَّة إلا بالله، هذا خالقٌ قويٌ قديرٌ حكيمٌ، لا نهايةَ لقوَّته ولا لحكمته، لا أن تقول: أن هذا يدل على عدم وجودِ الإله.

كذلك ألَّف بعضُهم في تأثُّر جماعات النَّمل وجماعات النَّحل بعضها ببعض مع تباعد المكان؛ فإذا تصرَّفَت مجموعةٌ من النَّمل في الهند- مثلًا- تصرفًا معيَّنًا من الهدوء أو من السَّكينة أو من الاضطراب أو من الهيجَان، فإنَّا نرى في أمريكا في ذاتِ الوقت يحدث لزملائها من جنسها ما حدثَ لها، فما الذي وصل هذا بذاك؟ إنَّه ينكر وجودَ الخالق الحكيم من أجل هذه الرُّؤية، والمؤمن يقرأ نفسَ الشَّيء فيقول سبحان الله.

أما عن سنن الله في الآفاق فمنها:

- (أ) سنة التَّكاملِ:

خلق الله سبحانه وتعالى الأكوانَ مختلفةً في ظاهرها، لكنَّها متَّحدة في الهدف والغاية، فهذا الخلاف والاختلاف إنَّما هو للتنوُّع وليس للتَّضاد، فاللَّيل والنَّهار يشكِّلان يومًا واحدًا، لكلٍّ منهما خصائص، والذَّكر والأنثى لكلٍّ منهما خصائص، ولكلٍّ منهما وظيفة، والحاكم والمحكوم لكلٍّ منهما وظيفة، والغنيُّ والفقير، وأغلب الثُّنائيات الخلقيَّة أو القدريَّة، الخلقية: كاللَّيل والنَّهار والذَّكر والأنثى، والقدريَّة: الحاكم والمحكوم والغنيُّ والفقير، سمَّيناها قدريةً لنفرِّقها عن الخلقية، وإن كان فيها سعيٌ للإنسان واختيارٌ وكسب، إلَّا أنَّها من فضل الله وقدره أيضًا.

إنَّ فهمَ سنَّة التكامل يجعل أصلَ الخلق عند المسلم هو التَّكامل وليس الصَّراع، ولذلك يَفهمُ العلاقةَ بين الذَّكر والأنثى على أنَّها خلقت للتكامل، بخلاف التوجُّه الذي يدعو إلى أنَّ الأصلَ هو الصِّراع، وأنَّه يجب على المرأة أن تصارع الرجل لتحصل على حقوقها، وأنَّ المحكوم يجب أن يصارع الحاكم للحصول على حقوقه، وأنَّ الإنسانَ يجب أن يصارع الكون حتى يحصِّلَ منه منفعتَه، على ما استقر في الفكر الإغريقيِّ من فكرة صراعِ الآلهة وانتصار الإنسان في النِّهاية عليها.

وفهمُ سنَّة التَّكامل لا ينفي حدوثَ الصِّراع أو إمكانيَّة حدوثِه ووقوعِه، ولكن هناك فرق بين أن نجعله أصلًا للخلقة لا يمكنُ الفرار منه، وبين أنَّ نجعله حالةً عارضةً يجب أنَّ نسعى لإنهائها حتى تستقرَّ الأمورُ على الوضع الأول الذي خلَقَه الله.

هذا التَّكامل هو الذي يفرِّق عند فهمه بين المعنى الروحيِّ للجهاد في سبيل الله، وبين الحرب التي تشنُّ هنا وهناك لأجلِ المصالحِ والهيمنة والاستعلاء في الأرض، ومعناه الفاسد فيها أيضًا.

فانظرْ إلى قوله تعالى في أوَّل سورة النِّساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم من نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: 1]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزُّخرف: 32].

فالجهادُ في سبيل الله منه أصغر وأكبر، والصِّغر والكِبر إنَّما يعودُ إلى الزَّمن الذي يستغرقُه كلُّ

واحدٍ منهما، قال رسولُ الله ﷺ: «رجعْنَا من الجهادِ الأصغر إلى الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النَّفس»[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: 78] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].فالجهاد بالقتال لا يستغرقُ إلَّا مدةَ المعركة وهي قليلة على كلِّ حال، أمَّا الذي يمتدُّ العمر كلَّه، ويعمُّ النَّاس كلَّهم والأرضَ كلها هو جهاد النَّفس.وجهادُ القتال يجودُ فيه الإنسان بنفسه من أجل سعادة غيرِه ففيه معنى الفِداء، فوصفه بالأصغر لا يقلِّل من علوِّ شأنه وأهميَّته، ولكنَّه يشيرُ إلى مدَّته، وأنَّه صراع عارض لأجل الرُّجوع إلى حالةِ الاستقرار والتَّوازن التي خلق الله النَّاس عليها أوَّل مرَّة.

من أجل ذلك رأينا أنَّ القاتلَ غيرُ المقاتِل، وأنَّ من قتل أوَّل مرة عليه وزرُ من اتخذ هذا سبيلًا له عبر التَّاريخ، ويقصُّ علينا ربُّنا قصَّةَ ابنَي آدمَ من أجل هذه العبرة في سورة المائدة من آية [27 إلى 35] ويتبيَّن منها أنَّ الجهاد في سبيله غايتُه الفلاح وإنهاء الفسادِ في الأرض، والخروجُ عن مفهوم القتل الذي جعله الله علامةً على خُذلَان ابن آدم وعقابِه إلى مفهوم القتال؛ لرفعِ العُدوان، ورفعِ الطُّغيان، وعدم السُّكوت على إنكار المنكَر، وعدم السُّكوت على الإفساد الخسيس للأرض.

(ب) سنَّة التَّدَافع:

وهي سنَّة مأخوذةٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251].وهذا التَّعبير القرآنيُّ يبيِّن حقيقةَ علوِّ القرآن على التَّفاسير التي خطَّها البشر، فهو لم يَحصر هذا في القِتال أو النِّزاع والخصام كما وردَ في بعض التَّفاسير؛ بل عبَّر بالتَّدافع ليشملَ كلَّ أنواع التَّعاون والاختلاف بل والصِّراعَ والصِّدامَ للوصول بكلِّ وسيلةٍ إلى الاستقرارِ وتحقيقِ مراد الله من خلقه: عبادةً، وعمارةً،

(1) روى البيهقي بسنده عن عن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة، فقال ﷺ «قدمتم خير مقدمٍ من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه». (البيهقي في الزهد الكبير برقم: 373).

وتزكيةً.

فالتَّدافع سنَّة إلهيَّة تبيِّن أنَّ الإنسان قد خَلَقه الله سبحانه وتعالى اجتماعيًّا يحتاج إلى الآخرين، وهم يحتاجون إليه، فلم يَخلقه منعزلًا قادرًا على البقاءِ وَحْدَه حتَّى يحقِّق مرادَ الله من خلقه، بل إنَّه لابدَّ أن يعمل في فريقٍ ليصلَ إلى هدفه، وعملُه في الفريق وحِراكُه الاجتماعيُّ ونشاطُه الذَّاتي يحتاج إلى إدراك سنَّة التَّدافع، وإدراكُ هذه السنَّة يتولَّد منها قوانين كثيرةٌ لضبطِ هذا النَّشاط والحِراك، وعليه فإن أي عمليةً فكريةً لابدَّ أن تسبقَ النَّشاط، وهو ما قد يكون الإنسان العصريُّ قد افتقده حيث سبقَ النَّشاطُ الفكرَ، وكان ينبغي أن يسبقَ الفكرُ النَّشاطَ ويسبق حديثُ القلب أيضا الفكرَ، ولهذا موضعٌ آخر يشرح الفرق بين الأمرين.

وهذا التدافع عندما نطالع معناه في بعض التفاسير تجدها تتحدث عن القتال، ولكن ربنا سبحانه ذكر القتال في القرآن نحو مائة مرة، فلِمَ قال هنا: التدافع؟! فالله - جل جلاله- ذكر أمور القتال والحرب بقوة في مواضع كثيرة من القرآن، فلماذا عدل هنا عن لفظ الحرب إلى التعبير بـ (التدافع)، أو (الدفع)؟ لأن التدافع قد يكون في الحرب وقد يكون في السلام، إذًا هؤلاء المفسرون لم يخطئوا أيضًا، لكن يقع الخطأ عندما يتوهم القارئ حصر الكلام في الحرب وحده، بينما السنة هي التدافع، بل إن السلام أولى، وهو قبل الحرب، وهو المقدم عليه فهذا يؤدي بنا إلى أمور: إلى إعادة النظر في القراءة، وإلى إمكانية توسيع المعاني، ما دام ذلك جاريًا في إطار اللغة العربية، والقواعد المرعية وبقية قواعد الشرع.

وسنة التدافع هذه يمكن أن تتولد منها مفاهيم الحراك الاجتماعي، والانتقال من طبقة إلى طبقة، أو من مستوى إلى مستوى، ويمكن أن يفهم منها قضايا التخصص وتقسيم العمل، ويمكن أن يفهم منها قضايا العلاقات البينية التي توجد في المجتمعات، وكيفية تنشيطها وأنها تحتاج إلى شيء من الدفع، وأنها قد لا تتحرك وحدها، ونسبح في الكلمة ونولد منها المعاني، ونختبر هذه المعاني، ونجرب هذه المعاني، ونبحث عن هذه المعاني، وننشط في فهم القرآن

واستخراج هدايته كما نشط آباؤنا وأجدادنا.

(ج) سنَّة التَّوازن:

وهي سنَّة قد أشار الله إليها كونيًّا، قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ موْزُونٍ﴾ [الحِجر: 19]، وقِيميًّا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾ [الرَّحمن: 9]، وقال سبحانه: ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ وَالمِيزَانَ﴾ [الشورى: 17]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

ونرى مرةً ثانيةً أنَّ الاستقرار هو الأساسُ الذي يجب أن ينتهيَ إليه النَّشاط الإنسانيُّ بعد التَّوتر الذي يبدأ به، وإذا تحدَّثنا عن مثل هذه السُّنَّة لرأينا أنها سنَّةٌ كونيَّة وسنَّةٌ قيميَّة، ونأخذ منها موقفنا من قضايا البيئةِ وموقفنا من قضايا الفِكر، وموقفنا من مفهومِ العدل خاصةً إذا رأيناها تمتدُّ إلى الآخرة والحِساب وتُمثِّل دالًّا على عدلِ الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، وقال سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ [الأعراف: 8]. وهو الذي لابدَّ للإنسان أن يتمثَّل به ثمَّ يأتي التَّكليف على وفق هذه السنَّة مشيرًا إلى أنَّ التَّكليف بالأحكام مرتبط ارتباطًا تامًّا بالسُّنن الإلهيَّة المحيطة بنا، وأنَّ تطبيق هذه الأحكام من خلال فَهْمنا للسُّنن وتفاعلنا معها هو الضَّامن لتحقيق هدفها والوصول إلى مقاصدِها يقولُ تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

ثانيا: سننٌ إلهيَّة في التَّاريخ:

هناك سننٌ إلهيَّة في التَّاريخ؛ لأنَّ التاريخ له نظام ومسيرة، والمتأمِّل في هذه المسيرة يخرج منها ويستنبط منها سُنَنًا إلهيَّةً لا تتخلَّف، منها: هلاكُ الأمم، ومنها بقاءُ الأمم، ومنها سنن تتعلَّق بعمارة الأرض، ومنها: سننٌ تتعلَّق بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والدَّعوة إلى الله تعالى.

فمن سنَّة الله أنَّه جعل لكلِّ نبيٍّ عدوًّا، فإذا ما خُتمَت النُّبوة بسيِّدنا محمَّد ﷺ، فإنَّ العلماءَ وهم ورثة الأنبياء، والدعاةَ إلى الله الذين امتثلوا لقوله ﷺ «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[1]. يقومون مقامَ النُّبوة، كما ورد في الحديث: «العلماء ورثة الأنبياء»[2]؛ أي في التَّبليغ عنه ﷺ، فإذْ بهؤلاء الدُّعاة إلى الله أيضًا يجعلُ الله سبحانه وتعالى لهم من المجرمين أعداءً، كما وصفهم الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطفِّفين: 29- 31]. وما أرسل الله سبحانه وتعالى من نبيٍّ إلا وجعل له أعداءً من المجرمين، فهذه سُنَّة الله سبحانه وتعالى.

وفي التَّاريخ سننٌ كثيرة، ألَّف فيها السيد بَاقِر الصَّدر «دروس في السُّنن التاريخيَّة» وألَّف فيها أيضا الشَّيخ محمَّد الصَّادق عرجُون «سننُ الله في المجتمع من خلال القرآن» وألَّف في السُّنن الإلهيَّة بجملتها الأستاذُ الدكتور عبد الكريم زيدان «السُّنن الإلهيَّة في الأمم والأفراد في الشَّريعة الإسلاميَّة» فهناك مجموعةٌ كبيرة من المؤلفات التي تتكلَّم عن السُّنن الإلهيَّة.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (3461) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) أخرجه أحمدُ وأصحاب السننِ وابن حبان في «صحيحه» عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، ولأبي نعيم عن ابن عباس رفعه: «أقرب النَّاس درجةً من درجة النبوة أهل العلم والجهاد» أخرجه في فضائل العالم العفيف، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما باسناد ضعيف. انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني (2/ 65).

ثالثا السُّنن الإلهيَّة في النَّفس:

هناك أيضًا السُّننُ الإلهيَّة المتعلِّقة بالنَّفس، والنَّفس كلمةٌ قد تشمل الفرد في ذاتِه، وقد تشمل الجماعةَ أو المجتمعَ، بل وقد تشملُ الأمَّة بأكملِها؛ فالأمَّة نفسٌ واحدة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: من الآية52].

إذن، فالنَّفس كلمة لها درجات: درجة في ذاتِ الإنسان، في الأسرة، في جماعة المسجد، في جماعة المدرسة، في جماعة العمل، في جماعة الجيران، ثمَّ هناك أيضًا بعد ذلك المجتمع الذي له مؤسَّساته، وله آلامُه، وله مشكلاتُه التي تتعلَّق بالأميَّة، وتتعلَّق بالبطالة، وتتعلَّق بالحالة الصحية، وتتعلَّق بمؤسَّسات الدَّولة، وتتعلَّق بمدى الحريَّات فيها...إلى أخرِ ما هنالك.

وهناك أيضًا النَّفس بمعنى تلك الأمَّة الواحدة التي نراها تجتمعُ اجتماعًا واحدًا في الحَجِّ إلى بيت الله الحرام من كافَّة أركان الأرض، ومن جميع الجنسيات، ومن كلِّ اللُّغات.

وهناك أيضا ما يتعلَّق بالعالم المحيط بنا، ونحن في عصرٍ قد رُفِعَت فيه الحدود، وسمَّوا ذلك بالعَوْلَمَة؛ فإنَّ الاتصالاتِ والمواصلاتِ والتقنيات الحديثة جعلتنا نعيش في جوار؛ فكلنا نتجاور، يُؤَثِّرُ بعضُنا في بعض، تنتقلُ الأفكار بسرعةٍ فائقةٍ بحيث أنَّها عندما تخرج من فم مُبدعها أو مبتدعها فإنَّها تُسمَع فورًا، في العالم كلِّه.

فرويد عندما تكلَّم عن النفس الإنسانيَّة فإنّنا لا ننكر شيئًا ممَّا قال ولكنَّنا نقول له: أنت تصفُ النَّفس الأمَّارة بالسُّوء فقط لا غير، ولكن هناك نفس لوَّامة، وهناك نفسٌ مُلْهَمَة، وهناك نفسٌ مطمئنةٌ، وهناك نفسٌ راضية، وهناك نفس مرضيَّة، وهناك نفسٌ كاملة. من قال لك إنَّ النَّفس نسلِّمها لَمَّا تقول؛ لإشباعها من سُعارها الجنسي؟! من قال هذا؟! لم يقل بهذا إلا أنت؛ في تفسيرك لا في وصفِك؛ وصفُك صادق دقيق، لكن لنا قراءة أخرى، هذه القراءة إنَّما تكون من خلال سنن الله سبحانه وتعالى الكونيَّة، والتي منها: السننُ المتعلِّقة بالنَّفس.

ومن هنا، ندرك أنَّ معرفة سنن الله جزءٌ من معرفة الدِّين، وهذه المعرفة ضروريةٌ، وتعدُّ من الواجبات الدينيَّة؛ لأنَّها تبصِّرنا بكيفيَّة السُّلوك الصَّحيح في الحياة.

حول توليد العلوم من القرآن الكريم وتكوين النموذج الإسلامي المعرفي:

إنَّ السننَ المتعلِّقة بالنَّفس لها قواعدها، ولها كيفيَّة دراستِها، وكيفيَّة الاستفادة منها بعد هذه الدِّراسة. وهي مثال واضح على وجه من وجوه قراءة القرآن الكريم وهو «توليد العلوم والمعارف» من هذا الكتاب الكريم.

إن توليد العلوم والذي توقف منذ مدة طويلة، وتوليد الحضارة منها على مقتضيات العصر الذي نعيشه، هو الأصل في تجديد الخطاب الديني، بعيدًا عن الجهالة، وعن الأماني، وعن الآمال التي قد تخطر ببالنا، مع كسل مريع في تحصيل العلم، فالقرآن ومنهج السلف الصالح يدعونا إلى أن يكون هذا الأمر نسقًا مفتوحًا، يزيد ولا ينقص، فنحن نطالب الأمة- لأن هذه قضية أمة وليست قضية فرد من الأفراد- أن تولد العلوم، وللعلوم طريقة في توليدها، موجودة عندنا في مكانها، ولها مبادئ عشرة، هي التي لخصها الناظم في هذه الأبيات الشعرية المهمة:

مَن رامَ فنًّا فلْيُقدّمَ أولا ... علماً بحده وموضوعٍ تلا

وواضعٍ ونِسْبة وما استمدّْ ... منه وفضلِه وحكمٍ يُعتمدْ

واسمٍ وما أفادَ والمسائل ... فتلك عشرٌ للمُنى وسائلْ

وبعضُهم منها على البعض اقتصرْ ... ومَن يكنِ يدري جميعَها انتصرْ

فهذه أصول ومناهج موجودة، وهناك عمل علمي عليها وحولها، ولكن الفكرة الأساسية التي نريدها - حتى لا تغيب عنها- هي استمرار توليد العلوم، بالرغم من أننا قد تغافلنا ونمنا عن توليد العلوم الخادمة زمنًا طويًلا، فلا بد علينا أن نستمر في خدمة القرآن، وفي توليد العلوم حوله.

إذًا نستطيع أن نقول: إنه كما كانت الدراسات الإسلامية حول القرآن عميقة، وكانت مستمرة، إلا أنها كانت في ازدياد مستمر، وللماضي فضل موجود، لكنها كانت عند الأقدمين

في ازدياد مستمر، يستوعب المستجدات، وهذا يعطينا اليوم مشروعية لأن نولد العلوم كما ولدت من قبل، خدمةً للقرآن الكريم، لا سيما وأن توليد العلوم بهذه الصفة يدل على حياة الأمة، وأن عدم توليد العلوم يدل على عكس ذلك، وعكس الحياة ومظاهرها إما النوم أو الموت.

وفي بداية الطريق يستحسن عدم وضع المعلومات في قولبة علمية قابلة للنقل، حتى ينطلق الفكر، ويفكر حرًّا طليقًا من قيود القولبة وضوابطها، ثم لما أن يستقر الفكر، وتتفق الجماعة العلمية على شي، فحينئذ نضعه في قالب قابل للنقل، وقد كانت هذه هي الوظيفة الأساسية للجامعات المختلفة في العالم، والتي تركت الفكر وتحولت إلى التلقين، والتي كان من المفترض فيها أنها تولد الفكر الذي يخدم العلم، حيث أنه رافد من روافد نهر العلم، وهذا في العالم كله وليس في بلد دون سواه.

وأؤكد هنا على هذا الضابط الذي أراه مهمًّا، في التفرقة بين العلم والفكر، فالعلم يبقى مضبوطًا، قابلًا للتكرار، ويمكن أن يدرس في الجامعات، ومجالس الدرس، أما الفكر فينبغي أن يكون حرًا طليقًا، من القواعد والاصطلاحات، ففي مرحلة الفكر ينبغي أن يفهم بعضنا بعضًا؛ لأنه لم تولد المصطلحات بعدُ، ولم توضع بإزائها معان محدد، بل تكون فكرةً يحاول المفكر أن يستولدها، وأن يستنبطها، ثم بعد ذلك تجلس الجماعة العلمية، وتحاول أن تجعل لها لفظًا، وأن تصنع لها مصطلحًا تسير عليه، فيتحول الفكر إلى علم، ومن ثم فلا بد لنا من أن نرجع بالفكر لكي يغذي العلم، ويطور طرق نقله ومضمونه، كما كان الأمر في القرون الأولى، وكما هو الحال في الأمم المتقدمة.

فالجامعات جمدت عما كانت عليه في أول الأمر، باعتبارها محضنًا للفكر، وهذا لما أن كان المسلمون عندهم فكر، وعندما يستوي هذا الفكر يخرج الإمام الشافعي مثلًا ليؤلف كتاب: «الرسالة»، فيضع بذلك علمًا جديدًا اسمه أصول الفقه، وإن كان الذي ذكره فيه موجودًا قبله في أذهان كبار العلماء، لكنه كان فكرة اختلفوا فيها، ثم جاء هو فقولبه ونمطه فصار علمًا، ثم

هذا العلم يأخذ في النمو إلى أن يصل إلى غاية، يعد البقاء معها جمودًا، فيأتي الفكر فيغذيه، فينمو مرة أخرى، وهكذا أبدًا، في حراك لا نهاية له، إلا بنهاية العالم، فالعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة.

وهذا الوجه من وجوه التعامل مع القرآن الكريم -أي القراءة الاستقرائية الكلية- تؤدي بنا إلى توليد العلوم والمعارف من القرآن الكريم مما ينتج عنه ظهور النموذج المعرفي الإسلامي الذي يستمد أصوله من الوحي الإلهي ومن الكون المحيط عن طريق الربط بينهم هذا النموذج المعرفي الذي يعد أهم مكونات هوية الأمة المسلمة والذي يجتمع فيه بين الوحي الإلهي المطلق المعصوم وما أنتجه واستنبطه العقل البشري المسلم في ضوء تعاليم وإرشادات هذا الوحي مما يؤهل النموذج المعرفي الإسلامي بعلومه ومعارفه وتطبيقاته من أن يسود العالم ثقافيًا فيفيد منه المسلم وغير المسلم.

وتوليد العلوم من القرآن الكريم هو أحد حوائط الصد أمام فكرة أن الثقافة والمعارف الغربية المتنوعة سواء في مجالات التربية أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسية أو الفلسفة أو الإدارة أو التاريخ أو الفنون أو الآداب أو غيرها من العلوم الإنسانية هي الثقافة العالمية التي يجب أن تسود وتشكل ثقافتنا وهويتنا وليس في هذا القول تقليلا مما عند الآخر من المعارف والعلوم،وإنما المقصد هو صنع نموذجنا المعرفي الخاص بنا كأمة مسلمة والذي من أركانه أيضا التبادل المعرفي مع الآخر، فنحن نحذر من أن نظن أن الثقافات وما تحتوي عليه من العلوم الأخرى هي الثقافة العالمية المهيمنة، وهي النموذج الذي يجب علينا أن نطبقه، فتوليد العلوم من كتاب الله هو مناعة فكرية للأمة وحفظ للشخصية المسلمة.

والطريق للتخلص من هذا المدار الخاطئ هو انطلاق الفكر المنضبط وعدم الاقتصار على المعارف المتوارثة وقد رأينا من خلال مباحث هذا الكتاب كيف ينجح المسلمون في توليد علوم ومعارف جديدة من خلال كتاب الله عز وجل كما ظهر من خلال السنن الربانية،

ومنظومة القيم والأخلاق، والمبادئ العامة القرآنية في جمع معجز بين الدين والدنيا أو بين العلم والإيمان والذي لا يستطيع نموذج معرفي أن يقدمه كما قدمه النموذج المعرفي الإسلامي.

فتوليد العلوم من كتاب الله هو خطوة نحو استعادة المجد العلمي للأمة وعدم الركون للتقليد والتلقي من الآخر وهو توافق مع الرسالة الحضارية العالمية للأمة المسلمة وهو توازن بين المادية والروحانية وهو بناء وتكوين للعقلية المسلمة الجامعة بين الإيمان بالله جل وعلا والوسائل المادية فقد استطاعت العقلية المسلمة من خلال معارف وعلوم القرآن الكريم العلمية والعملية من بناء الحضارة الكاملة في أقل وقت من الزمن والتي حملت بين جوانبها عوامل استقرارها واستمرارها.

فمن أشد المصائب التي يمكن أن تبتلى بها أمةٌ هي الاكتفاء بماضيها المادي والفكري وعدم تصور أن هذا الماضي هو أساس وانطلاقة للبناء وليس هو المنتهى ونحن كأمة مسلمة نملك خطابًا إلهيًا يتميز بالكلية والشمولية والإطلاقية خطاب بدأ بـ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق1-4]. يمهد لنا هذا الخطاب الطريق نحو استمرارية تولد العلوم والمعارف مع المحافظة على أصول الدين والاعتقاد وثوابت الشريعة.

ومن مزايا توليد العلوم والمعارف من القرآن الكريم أنه أحد أدوات صياغة الخطاب الديني الداخلي والخارجي بحيث يصبح في الداخل وسيلة لتوضيح الصورة الحقيقة لدين الإسلام وشريعته فيجلي صفات السماحة والرحمة واللين وقدرته على تنظيم الحياة ويوضح للخارج مرونة هذا الدين وأن أساس دعوته هو التعايش والمحبة بين الجنس البشري.

***

المبحث السادس عشر
أسماءُ اللّه تعالى في القُرآن الكريم
وأثرُها التَّفسيريُّ وعلاقتُها بمنظُومة القِيَم

من المداخل المهمَة لقراءة وفَهْم القرآن الكريم النَّظرُ في الآيات الكريمة التي وردَ فيها أسماءُ الله سبحانه وصفاتُه، والبحثُ عن الأَسْرار وراءَ معاني هذه الأسماءِ الإلهيَّة العظيمةِ وعلاقتها بالأوامر والنَّواهي والأخبارِ في القرآن الكريم، وإلى ماذا يرشدُنا وجودُ اسم من أسماءِ الله في أوَّلِ الآية أو وسَطِها أو خِتامهَا، فملاحظةُ هذا الأمر والانتباهُ إليه لا يستغنى عنه المسلمُ فضلًا عن أهل التَّفسير؛ وذلك أنَّ القرآن من أوَّله إلى آخره ما هو إلَّا حديثٌ عن الله- سبحانه وتعالى- ومعاني أسمائِه وصفاتِه ومظاهرِها وآثارِها في الوجود وما يتفرَّع عنها من العقيدة والتَّشريع والأخلاق، فالأسماءُ الإلهيَّة العظيمةُ الموجودةُ في القرآن الكريم هي أوَّلُ طريق المعرفة بالله بل هي المعرفة كلُّها.

فمعرفةُ أسماءِ الله تعالى وفهمُ معانيها ومعرفةُ دلالتها ومستلزماتِها هي مفتاحُ الإيمان وبابُ اليقين وطريقُ الفلاح ومحَلُّ اختبارِ العباد في هذه الحياة الدُّنيا ومنها يكون الجزاء في الآخِرة.

ووجودُ هذا العدد من أسماء الله في القُرآن الكريم وتكرارُها وتذييلُ الآيات بها هو دليلٌ قاطعٌ على أهميَّة التَّعرُّف عليها والوقوفِ على ما تتضمَّنُه وما يرشد إليه ذلك الأمر.

فتظهرُ دلالاتُ أسماءِ الله سبحانه وتعالى وآثارُها في حياتِنا كمسلمين من خلال ما توجِبُه من الآثارِ الإيمانيَّة والعقليَّة والوجدانيَّة والسُّلوكيَّة التي تُحدِثُها في شخصيَّة المسلم، ومن خلال صياغتِها لعلاقته بالله -جلَّ وعلَا- والكونِ والحياةِ والمخلوقاتِ فهي تكوِّنُ الشَّخصيَّة المسلِمةَ وتصقُلها.

فالعِلمُ بأسماء الله تعالى وصفاتِه أصلٌ للعِلم بكلِّ معلومٍ ومرجعيَّةٌ لكلِّ المعلوماتِ في

الكون والوجود، يدرِكُ ذلك من يدرِكُه ويجهلُه من يجهلُه، وإذا حمَلَ المسلمُ هذه الحقيقةَ معه وهو يقرأُ كتاب الله تعالى فسوف تنفتِحُ له آفاقٌ جديدةٌ من المعرِفَة والعُلومِ والمعارِف، فعلَى سبيل المثال: كما نستصحب علومَ اللُّغة العربيَّة كأداةٍ وطريقٍ لفهم النَّصِّ القُرآنيِّ والوصولِ للمساحة المقبولة من المعاني التي يحتويها كتابُ الله -عزَّ وجلَّ- فيجبُ علينا كذلك استصحابُ منهجٍ وطريقٍ للنَّظر في أسماء الله الواردة في القُرآن الكريم وأثرِها في المعاني القرآنيَّة؛ إذ لكلِّ اسمٍ من أسمائه تعالى آثارٌ في الخلق والأمرِ في السَّموات والأرضِ في دقيق الأمر وجليلِه، تجتمعُ هذه الآثارُ معًا فتُخرِج لنا الوجودَ والحياةَ بكلِّ ما فيهما من البساطة أو التَّعقيد، وإذا نظر الإنسان مستخدِمًا حواسَّه تحت قيادة عقله فسوف يجدُ آثار أسماء الله في حياتنا الخاصَّة والعامَّة في سرِّنا وعلنِنا وسائر أمورنا، ولذلك كان أهلُ المعرفة بالله يرون آثارَ الأسماء الإلهيَّة قبل الشَّيء ومع الشَّيء وبعد الشَّيء، فلا يخلو شيءٌ من مظاهر وآثار أسمائه وصفاتِه.

وعندما ينظر المسلمُ في كتاب الله عزَّ وجلَّ يجد لأسماء الله تعالى وصفاته نصيبًا كبيرًا من النَّص القرآنيِّ من حيث الورودُ والتَّكرار، بل إنَّ النَّص القرآنيَّ كلَّه بجميع آياته وتنوُّع محاوره وموضوعاتِه ومقاصده ما هو إلَّا إشارة إلى أسماء الله تعالى ومعانيها ودلالاتها، فلن نجد آيةً من الكتاب الكريم إلَّا وهي تشيرُ إلى معنى أو معاني من أسمائه تعالى وصفاته بطريقٍ مباشر أو غيرِ مباشر، فنجدُ في آيةٍ معاني اسمه تعالى «الملك» ونشهدُ مظاهرَ ذلك فيما ترشدُنا إليه الآياتُ، ونرى في آيةٍ أخرى معاني اسمه تعالى «العدل»، وفي آيةٍ أخرى نشهدُ معاني عدَّة أسماءٍ له -جلَّ وعلَا- وأثرَها في الأخبار والأوامر والنَّواهي وهكذا في جميع آيات القُرآن الكريم لن تخرجَ معاني آيةٍ منه عن أسماء الله وصفاتِه.

والعلمُ بأسماء الله ومعرفةُ معانيها وملاحظةُ ذلك عند النَّظر في كتاب الله تعالى يربِّي المسلمَ على الارتباطِ بالله تعالى ومشاهَدة العظمة الإلهيَّة في كلِّ وقتٍ، ويغرس في قلب الإنسان معرفةَ الله -عزَّ وجلَّ- ويربطُ مظاهر الخلق وأشكالها بالخالق العظيم؛ فيشهد الإنسان مظاهرَ

الألوهيَّة وآثارَها في كلِّ شيءٍ.

وكذلك النَّظر في دلالة أسماء الله تعالى عند التَّعرُّض لمعاني القرآن الكريم هو طريقٌ لتفسير الظَّواهر الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة والنَّفسيَّة والسَّياسيَّة والاقتصاديَّة تفسيرًا صحيحًا يستقيم مع قواعد العقل والعِلم والإيمان، ويبتعدُ بنا عن أيِّ تفسيرٍ خرافيٍّ أو مادِّيٍّ إلحاديٍّ منحرِف؛ وذلك لأنَّ معاني وآثارَ أسماءِ الله تعالى وصفاته تشملُ الخلق شمولًا كليًّا، فالخلقُ والوجودُ ونظامُه وأحداثُه والشَّرعُ والأمرُ من آثار ومظاهر أسمائِه وصفاته، وكلُّ ذلك صَدرَ من أسمائِه الحُسنى سُبحانه وتعالَى.

بعض نماذج الأسماء الحسنى الواردة في القرآن الكريم:

وإذا نظرنا في القرآن الكريم وجدنا أسماءَ لله تعالى تدلُّ على ذاته العُليا وما يجب لها، فتخبرنا عن وجوده سبحانه وأحديَّته، وتنزُّهُه -جلَّ شأنه- عن كلِّ نقصٍ فهو القدُّوس، وتخبرُنا بعضها عن أنَّه سبحانه الحيُّ الذي لا يموت، وتُثبِتُ علمَه وقدرتَه وعزَّته وإرادتَه وسمعَه وبصرَه وكلامَه، وتخبرنا أنَّه ليس كمثله شيء فهي تعبيرٌ عن الكمال المطلق.

-وكذلك نجد أسماءَ لله تعالى تدلُّ على الخلق والإيجاد والتَّكوين والرِّزق والقيام على أمر الخلق في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، فهي تشهدُ بقيوميَّة الله المطلقَة وإحاطتِه بأمر خلقه ورعايتِه لهم، وتشهدُ بأنَّه ربُّ العالمين الذي لا وجود لأيِّ حادث من المخلوقات إلَّا بإرادته ومشيئتِه وإمدادِه.

- ونجد أيضا أسماءَ لله تعالى تتعلَّق ببيان جانب اللُّطف والرَّحمة للخلق ورأفتِه -سبحانه وتعالى- بصنعته ومخلوقاتِه؛ فتُظهِر وتعبِّر عن جانب الجمال الإلهيِّ، وتشهد له سبحانه بالحمد وتخصُّه بالشُّكر.

-وهناك أسماء لله تعالى تدلُّ على الحقِّ والعدل والقهر والهيمنة التي لا يخرج عنها ذرَّةٌ فما دونها، وآثار هذه الأسماء في الدُّنيا والآخرة فهي تعبِّر عن الجلال الإلهيِّ.

وهذه المحاورُ التي تدور حولها أسماءُ الله تعالى ليست منفصلةً عن بعضها البعض، وإنَّما ذلك من باب البيان وتسهيل الأمر وإيضاحه، فكلُّها تتصلُ معانيها وتتداخل وتظهر آثارُها في الوجود مكتملةً وتمدُّ بعضها البعض، تشهدُ لله تعالى بأنَّه لا إله إلا هو العظيم المتَّصف بكلِّ صفات الكمال وكلِّ كمال الصِّفات.

ولو أردنا تتبُّع دلالات وآثار أسماءِ الله تعالى الواردة في القُرآن الكريم في جميع المجالات وعلى مختلف المحاور وأثرِها في توليد المعاني والمناهج؛ لفنِيَت الأعمارُ قبل أن نبلغ بعضَ ذلك؛ وذلك لأنَّنا نتعامل مع قمَّة النَّص الإلهيِّ المقدَّس المطلَق، والتي هي أسماءُ الله وصفاتُه المتعالية عن إحاطتنا البشريَّة ومداركنا وحواسِّنا، ولذلك سوف نركِّز على بعض المحاور التي توضِّح لنا آثار ودلالات أسماء الله تعالى.

- أسماءُ الله تعالى ومنظومةُ القِيَم.
- أسماءُ الله تعالى وتكوينُ العقل المُسلِم.
- أسماءُ الله تعالى وبناءُ النَّموذج المعرفيِّ الإسلاميِّ.

فمن خلال هذه المحاور ينكشفُ لنا بعضُ آثارِ أسماء الله تعالى في الحياة الخاصَّة والعامَّة وفي الوجود عُلويِّه وسفليِّه.

أولًا: أسماءُ الله تعالى ومنظومةُ القيم:

من الفقه في أسماء الله وصفاتِه ملاحظةُ العَلاقة بين منظومة القيم الأخلاقيَّة وأسماءِ الله تعالى، فنحنُ كأمَّة مسلِمة ننطلق من أنَّ مصدر القيم الكليَّة الجامعة لكلِّ معاني الخير هي أسماء الله تعالى وصفاته، ولو انتقلنا لتفصيلات ذلك وسَبَحنا في بحر أنوار أسماءِ الله تعالى فسنجد أنَّ هناك مائةً واثنين وخمسين اسمًا تقريبًا من أسماء الله تعالى موجودة في القرآن، وهناك مائة وأربعة وستين اسمًا موجودة في السُّنَّة، فهي مائتان وعشرون اسمًا تقريبًا عند حذفِ المكرَّر، فهذه الأسماء هي التي أرشدنا الله تعالى أنَّ ندعوه بها، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]، وقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ

أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110] وهذه الأسماء لها دورٌ مهمٌّ عظيم، ألا وهو أنَّنا نعرف بها مَن نعبد، فإنَّنا نعبد الحيَّ القيوم الموصوفَ بكلِّ هذه الأوصاف والمسمَّى بكلِّ هذه الأسماء، وهذه وحدها تكفي لإنشاءِ خطابٍ لبناء العقل المسلِم في كيفيَّة تحويله إلى عدم الاعتماد على الأسباب، وإلى معرفة مراد الله من خَلْقِه، وهذه الأسماء تمثُّل منظومةً عجيبة؛ فإنَّنا عندما نتأمَّلها نجد فيها صفاتِ الجمال مثل: الرَّحمن، الرَّحيم، الغفور، الودود، ونجدُ فيها صفات الجلال مثل: المنتقم، شديد المِحال، المتكبِّر، ونجد فيها صفات الكمال مثل: الله، الأوَّل الآخر، الظَّاهر الباطن، النَّافع الضَّار، وهي التي تُسمَّى صفات الكمال؛ لأنها تُذكر سويًّا فيتمُّ المقصود، فلا تقل: ربُّنا هو الضَّارُّ فقط، فهذا لا يصلح بل لا بدَّ من أن تقولَ: النَّافع الضَّارُّ، بمعنى أنَّ النَّفع والضُّرَّ بيده، ويسمُّونها الأسماءَ المزدوجة، وأهل الله من السادة الصوفية يقولون: لا تَذكر الله بواحدٍ منها فقط، بل هو سبحانه الظَّاهر الباطن معًا، فهو ليس غائبًا ولكنَّه ليس حالًّا في خَلْقه، فالربُّ ربٌّ والعبد عبدٌ، وهناك فارقٌ بين المخلوق والخالق، فالجمال والجلال والكمال كلها محاورُ تنشأ منها منظومة القِيم؛ حيث نتخلَّق بالجمال، ونتحقَّقُ بالكمال، ونتعلَّق بالجلال، فنتخلَّق بالجمال؛ حتى تمتلئَ قلوبُنا رفقًا وشفقةً ورحمةً وبرًّا ومعروفًا فيتمكَّن في قلوبنا معنى قوله ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(1)، وقوله ﷺ: «**إِنَّ الله نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ**»(2) بمعنى: كُنْ نظيفًا ظاهرًا وباطنًا؛ لأنَّ ربَّنا يحبُّ النَّظافةَ؛ ولأنَّ الملائكة الكِرامَ تكره الرائحةَ الكريهةَ، فاجعل بيتك دائمًا جميلًا ونظيفًا، ثمَّ إنَّه أمرنا بالطَّهارة للصَّلوات، وللخروج إلى الجُمع والجماعات، وكلُّ هذا يصبُّ في التخلُّق، وهذا يمكن أن تُصنَّف فيه مجلداتٌ.

(1) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق (2594) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) جزء من حديث؛ أخرجه الترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء في النظافة (2799) من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه به مرفوعًا.

ونتحقَّق بالكمال، ونتعلَّق بالجلال، فنحذر من التكبُّر، ومن التجبُّر، فالمنظومةُ القائمة على هذه الأسماء تمثِّلُ التَّجلِّي والتَّحلِّي والتَّخلِّي، وتمثِّل التخلُّق، والتعلُّق، والتحقُّق، فهي منظومة متكاملةٌ بعلاقتها البينيَّة، تمثِّلها أسماء الله الحسنى، ودراسة هذا المَنْحَى فيها لطائفُ وعجائبُ وغرائبُ، وإلى الآن لم يُدرَس مثلُ هذا التوجُّه، ولذلك نصحنا أحدُ أبنائِنا أن يأخذَ الدُّكتوراة في القِيم وعلاقتها بأسماء الله الحسنى، فيدرس أسماءَ الله الحسنى، وكيف تؤثِّر، وكيف تُستعمل في علم النَّفس، وفي التَّربية، وغيرها من المناحي المختلفة، وفي منظومة القِيم والعلاقات البينيَّة القائمة بينهما؟ فكيف نُفَعِّل ونُحَوِّل مثل هذه الأسماء إلى واقع معيشٍ وإلى أخلاق مُرضية، وإلى القضاء على الصِّفات الرَّدِيَّة؟ وكيف نحوِّل هذه القِيم إلى مناهجَ تربويَّة؟

وسوف تَبرُز ظواهر عجيبة، فقد توقَّفنا مثلًا عند اسمه تعالى «الجبَّار» هل هو من قبيل الجمال أو من قبيل الجلال؟ فهو جلال من وجه؛ لما فيه من معنى القَهر والانتقام والقيُّوميَّة، وهو جمالٌ من وجه؛ لأنَّه يجبر الخواطر، ويجبر كسر المساكين والمنكسرين، فيكون اسم (الجبَّار) هنا يعني أنَّه سبحانه جبَّار للكَسْرِ، فهو من قبيل الجمال، فتَخْرُج أنتَ منه بأنَّه عليك أن لا تكسر خواطرَ النَّاس، وخصوصًا المساكين، وسوف تستخرجُ من ذلك أشياءَ كثيرةً، وعلومًا تتولَّد، فالفكرة هي استمرار ذلك التولُّد.

فمن نظر في أسمائه تعالى خرج من كلِّ اسمٍ بقيمةٍ جامعة تمثِّل منهج حياة وطرقًا لا متناهية لتزكية النَّفس ومعالم تربويَّة متكاملة، وتكوِّن لديه منظومةً من القيم المتكاملة التي تشمل حُسنَ التَّعامل مع مقام الألوهيَّة، وحُسنَ التَّعامل مع النَّفس، وحُسنَ التَّعامل مع الكون والأشياء المحيطة بنا فلا تختلط الصُّور ولا تتناقض المعاني لدى الإنسان ولا تَنحرِف الموازينُ؛ وذلك لأنَّ مصدر القيم لدينا ينبع من الحقيقة المطلقة التي هي أسماءُ الله تعالى.

خصائص القيم في الرؤية الإسلامية:

وهنا يجب أنَّ نلتفتَ إلى الخصائص التي تترتَّب على كون المصدر الأساسيِّ للقيم الكليَّة هو أسماء الله تعالى ودلالاتها ومعانيها، فمِنْ هذه الخصائص:

- إطلاقيَّة هذه القِيم وعدم نسبيَّتها وثباتها؛ لأنَّ مصدرها مطلقٌ هي معاني أسماء الله تعالى المتعالِية عن الأبعاد الزَّمانية والمكانيَّة، فعلى سبيل المثال في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النُّور:22] فمن تأمَّل في هذه الآية الكريمة وجدها تأمر بقيم الإنفاق والعفو والرَّحمة، ورَبطَتْ ذلك بأسماء الله -عزَّ وجلَّ- فكما أنَّ الأسماء الإلهيَّة مطلقة فكذلك ما يقابلها من القيم، وتفعيلها في حياتنا مطلق غير محدود بزمان أو مكان أو حال أو أشخاص، فالمسلم مأمور بالإنفاق والعفو والصَّفح في كلِّ وقت، فيجعل هذه القيم مصاحبةً لسلوكه وأفعاله في كلِّ وقت؛ وذلك لأنَّه ينظر إلى معاني أسماء الله تعالى وإطلاقيَّتها.

وعندما ننظرُ إلى قيم الأمانة والعدلِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النِّساء:58] نجد أنَّ الله -سبحانه وتعالى- قد ختم الأمر بها باسمين من أسمائه تعالى «السَّميع» «البصير»، ولو تفكَّرنا في العلاقة بين كون هذه القيم مطلقةً وبين معاني أسماء الله فإنَّنا نجد أنفسنا أمام أمرٍ رابطٍ وَثيقٍ، فأسماءُ الله مطلقة، فمن أيقن وآمن بأنَّ الله هو السَّميع البصير دفعه ذلك إلى تنفيذ أوامر الله على الدَّوام وعدمِ التفلُّت منها وتحقيقِ هذه القيم؛ لعلمه بعدم خروج أفعاله وسلوكه عن سمع الله تعالى وبصره، ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:8] فمعرفة الإنسان بأنَّ الله سبحانه هو الخبير الذي لا يغيب عنه شيءٌ يدفعه

إلى التزام أمر الله له بسلوك العدل في جميع أوقاته.

- إنسانيَّة هذه القيم وعالميَّتها وصلاحيَّتها؛ وذلك لأنَّ مرجعيَّتها أتت من خالق الأكوان سبحانه ومن معاني أسمائِه وصفاتِه.

فمن عرف أنَّ الله سبحانه هو الرَّحمن الرَّحيم تجمَّلَ بآثار هذه الأسماء وسَلَك سلوكَ الرَّحمة مع الخلق، ومن أيقن أنَّ الله هو الرَّؤوف كان صاحبَ شفقةٍ على الخلق، ومن آمن بأنَّ الله سبحانه هو الحليمُ فعليه أن يتَّصف بآثار هذه الصِّفة فيقبل عذرَ المعتذرين ويتجاوز عن المسيئين، ومن نظر إلى اسمه تعالى الهادي تحلَّى بقيم الدَّعوة إلى الله ومحبَّة الهداية للخلق، ومن أيقن أنَّ الله تعالى هو الوَدود تخلَّق بخلُق الوُدِّ والتقرُّب للخلق، وهكذا كلُّ اسم من أسماء الله تعالى يمثِّل للمسلم منهجَ حياة وأسلوبَ عيشٍ.

وقد جاءت السُّنَّة النبويَّة بإشاراتٍ جامعةٍ توضح أهميَّة معاني أسماء الله ودلالتها على تزكية النَّفس وتهذيب أخلاقها، فقد قِيلَ للنَّبيِّ -ﷺ: مَا تَزكيةُ المرءِ نفسَهُ؟ قَالَ: «**أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الله مَعَهُ حَيْثُ كَانَ**»(1)، فمن عَلم أنَّ المعيَّة الإلهيَّة لا تفارقه استقام أمره وزَكَتْ نفسُه.

يقول الإمام الغزاليُّ -رحمه الله- وهو يتكلَّم عن درجات حظوظ العباد من أسماء الله تعالى ومعانيها: «فِي بَيَان أَنَّ كمال العَبد وسعادتَه في التَّخلُّق بأخلاق الله تعالَى والتحلِّي بمعاني صِفَاته وأسمائه بِقدر مَا يُتصَوَّر في حَقِّه...

الحظُّ الثَّالِث: السَّعْي فِي اكْتِسَاب المُمكن من تِلْكَ الصِّفَات والتخلُّق بهَا والتَّحلِّي بمحاسنها وبِه يصير العَبْد ربانيًّا؛ أَي قَرِيبًا من الرَّب تعالَى وبِه يصير رَفِيقًا للملأ الأعلى من

---

(1) أخرجه الطبراني في الصغير (1/ 334) من طريق علي بن الحسن بن معروف الحمصي، حدثنا أبو تقي عبد الحميد بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن سالم بن محمد بن الوليد الزبيدي، حدثنا يحيى بن جابر الطائي، أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، حدثه أن أباه حدثه أن عبد الله بن معاوية الغاضري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به مرفوعًا. قال الطبراني: لا يروى هذا الحديث عن ابن معاوية إلا بهذا الإسناد؛ تفرد به الزبيدي، ولا نعرف لعبد الله بن معاوية الغاضري حديثا مسندا غير هذا.

الملائِكة فإنَّهم على بِسَاط القرب؛ فَمن ضرب إلى شبهٍ من صفاتهم نَالَ شَيئا من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقرِّبة لهم إلى الحقِّ تعالى»[1].

وعن أثر أسماءِ الله الحسنى يقول ابنُ القيِّم -رحمه الله: «وهو سبحانه وتعالى رحيم يحبُّ الرَّحماء، وإنَّما يرحم من عباده الرُّحماء، وهو ستِّير يحبُّ من يستر على عباده، وعفوٌ يحبُّ من يعفو عنهم، وغفورٌ يحبُّ من يغفر لهم، ولطيفٌ يحبُّ اللَّطيف من عباده، ويبغض الفظَّ الغليظ القاسي الجعظريَّ الجوَّاظ، ورفيقٌ يحبُّ الرِّفق، وحليمٌ يحبُّ الحِلم، وبرٌّ يحبُّ البِرَّ وأهله، وعدلٌ يحبُّ العدل، وقابلٌ المعاذيرَ يحبُّ من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصِّفات فيه وجودًا وعدمًا، فمن عفا عفا عنه ومن غفر غفر له ومن سامح سامحه ومن حاقَقَ حاققَه، ومن رفق بعباده رفقَ به، ومن رحِم خلقه رحِمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جَادَ عليهم جَادَ عليه، ومن نفعهم نفعَه، ومن سَتَرهم ستره، ومن صَفَح عنهم صَفحَ عنه، ومن تتبَّع عورتَهم تتبَّع عورتَه، ومن هتكَهُم هتكه وفَضَحهُ، ومن منعهم خيرَه منعه خيره، ومن شاقَّ شاقَّ الله تعالى به، ومن مَكرَ مَكرَ به، ومن خادَع خادَعه، ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله تعالى بتلك الصِّفة بعينها في الدُّنيا والآخرة.

فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه، ولهذا جاء في الحديث «**من سَتَر مُسلمًا ستره الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، ومَنْ نفَّس عن مؤمنٍ كُربَةً من كُرَب الدُّنيا نفَّس الله تعالى عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعْسِرٍ يسَّر الله تعالى حسابه، ومن أقال نادماً أقال الله تعالى عثرتَه، ومن أنظر مُعسِراً أو وَضَع عنه أظلَّه الله تعالى في ظلِّ عرشِه**»[2].

(1) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى (1/ 46-45) المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي- المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي - الناشر: الجفان والجابي- قبرص- الطبعة: الأولى، 1407 - 1987.

(2) انظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص35-36) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين =

ثانيًا: أسماءُ الله تعالى وتكوينُ العقل المسلِم:

وكما ظهرتْ آثارُ أسماء الله في تكوين منظومة القيم الأخلاقيَّة والسلوكيَّة من خلال خِتام الآيات المحتوية عليها بأسماء الله تعالى، كذلك تظهرُ آثارُها في تكوين العقل المُسلمِ عند الفَرْد وعند المجموع، ويتَّضح ذلك الأمرُ بجلاء من خلال المقارنة بين عقليَّة المسلم وعقليَّة غير المسلم وموقفِ كلٍّ منهما من قضايا الوجود ومجالات الحياة المختلفة وما فيها من أحداثٍ ومظاهرَ وعلاقاتٍ.

فقضيَّة الوجود الإلهيِّ والصِّفات الواجبة له تعالى وأسمائه الحسنى وخلقِ السَّموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما بينهما من علاقاتٍ بينيَّة لا تتَّصف في عقليَّة وفكرِ غير المسلم بالوضوح التَّام والتَّكامل مثلما هي في فكر المسلم، حتَّى وإن كان على شريعة تُنسب للأنبياء السَّابقين فقد حدث فيها الكثير من التَّغيير والتَّبديل والاختلاف، خاصَّة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته والتَّصور الكليِّ عن الله سبحانه وتعالى.

وانعكس ذلك على التَّكوين العقليِّ وترتيب خطوات التَّفكير؛ فتغيب عن هذه العقليَّة آثارُ الوجود الإلهيِّ في الكون، في حين أنَّ العقلية المسلمة تنطلق في عمليَّة التَّفكير من أنَّ الحقيقة المطلقة في هذا الوجود «الله» سُبحانه وتعالى، فعلى سبيل المثال عندما يُعلِّقُ المسلم الأمورَ وحدوثَها بالمشيئة الإلهيَّة فيقول: «إنْ شاءَ الله» فهو يرُدُّ الأمر في أوَّله وآخره لصاحب الأمر، ويستحضر في عقله أنَّ هناك إرادةً عليا حاكمةً فوق كلِّ إرادةٍ تحكم الأسباب، وليس في هذا الكلام تغييبًا لدور العقل أو إلغاءً للتَّفكير، بل هو قمَّة الانضباط العقليِّ حيث أنَّنا نرى آثار القهر الإلهيِّ ونفاذ المشيئة الإلهيَّة في كلِّ مظاهر حياتنا العامَّة والخاصَّة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التَّكوير:29] فإذا أنكرنا مظاهر ذلك فإنَّنا بذلك نحتقرُ حواسَّنا وعقولنا.

=

ابن قيم الجوزية –تحقيق: سيد إبراهيم –الناشر: دار الحديث – القاهرة – رقم الطبعة: الثالثة، 1999 م.

وقد جاء القرآن الكريم لينبِّه العقلَ البشريَّ ويحثَّه على التدبُّر والنَّظر والتَّفكير المرتَّب ويربطَ ذلك بمعاني أسماء الله تعالى، فأوضح ربُّ العالمين سبحانه للإنسان المنهجَ والطَّريق في أول كلمات رسالتِه الأخيرة لأهل الأرض وربط ذلك بأسمائه تعالى فقال -عزَّ وجل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العَلَق:1 -5] فهذا أوَّل بيانٍ إلهيٍّ وكلام ربانيٍّ نزل في الرِّسالة الأخيرة لأهل الأرض، ولو تدبَّرنا هذه الآيات الكريمة لوجدناها احتوت على أمر عامٍّ كلِّي بالقراءة؛ قراءةِ الكتاب المسطور «القرآن الكريم» وقراءةِ الكتاب المنظور «الكون والوجود» والجمعِ بين القراءتين في عمليَّة عقليَّة أركانها معاني أسماء الله.

اقرَأ أيُّها الإنسانُ مفتتحًا باسم ربِّك الذي له وحده القدرة على الخلق، فهُنا قراءةٌ فيها نظر لهذا الخلق من أين أتى؟ مِنَ الرَّبِّ الخالقِ، وأعظمُ الأدلَّة على ذلك هو وجودك أيُّها الإنسانُ؛ فقد خُلقْتَ من قطعةٍ مثلَ الدَّم، ثمَّ علَّمك ربُّك ما لم تكن تملك بذاتيَّتك أن تدركه، ففي هذه الآيات الكريمة التي اشتملت مع إيجازها على منهجٍ عقليٍّ محَاوِرُه النَّظرُ في معاني أسماء الله تعالى ودلالتها.

فعقلُ المسلم وترتيبُ تفكيره في مواجهة الأمور صغيرِها وكبيرِها تظهر فيه آثارُ الإيمان بأسماء الله وصفاته بشكلٍ واضحٍ، فعندما يتعامل مع قضايا الوجود والحياة من حوله؛ وعندما يتعامل مع شأنه الشَّخصيِّ؛ وعندما يتعامل مع الشَّأن العامِّ؛ فالعمليَّة العقليَّة التي تنظِّم هذا التَّعامل تخضع في جانب كبير منها لدلالات أسماء الله تعالى ومعانيها.

فالمسلم ينظرُ للكون وما فيه من بديعِ الخلق وعظيم التَّرتيب والتَّكامل، فيرتبط ذلك في ذهنه بأسماء الله وصفاتِه، فعندما يفكِّر في خلق السَّموات والأرض ويشهد تكاملَ منظُومةِ الخلق وتناغمَها وانسجامَها، ويستقبلُ عقله ما تدركه حواسُّه من مظاهر الخلق والوجود وتعقيداته وترابطه العجيب وبساطته في نفسِ الوقت ويتفكَّر في ذلك، ففي كلِّ خطوة من

خطوات التَّفكير العقليِّ يَجِدُ عقلَه يجذبه إلى معاني أسماء الله تعالى ودلالتها والتي تظهر جليَّة واضحة تشهد بالوحدانيَّة والقدرة المطلقة؛ فيرى آثارَ القهر الإلهيِّ في مكان، ويرى آثار الرَّحمة في مكان، ويرى آثار العدل في مكان، ويشهد اللُّطف في مظاهر، ويشهد العظمة في مظاهر، وهكذا في عمليَّة لا تتوقَّف أبدًا.

والمسلم يعالج الأسبابَ ويستخدمُها ولا يستغني عنها، ولكنَّه يعلمُ أنَّ وراء هذه الأسباب ربَّ العالمين -سبحانه وتعالى- فالمسلمُ يتزوَّج وينتظرُ الولد ويقول: الله جلَّ شأنه هو الخالق الرَّازق المقيت الذي يقدِّر كلَّ أمرٍ ويخلقُه وفقًا لمشيئته سبحانه وليس لمجرَّد توافر السَّبب، والمسلم يبذل جهدَه في سائر العمل وينتظر من الله أن يقدِّر له النَّجاح ويفتحَ له أبواب الفلاح ويعلمَ أنَّ ما وصل إليه من رزق هو بتقدير الله.

وهكذا في كلِّ الأمور لا يغيب الوجودُ الإلهيُّ ودلالات أسماء الله تعالى عن ذهن المسلم وترتيب تفكيره أبدًا، وهذا قمَّة كمال العمليَّة العقليَّة، وفارقٌ جوهريٌّ بين تفكير المؤمن وتفكير غيرِ المؤمن الذي تَغيبُ عن خُطواتِه وأدواتِه معاني وآثار أسماء الله تعالى.

ومن هذا كلِّه يتولَّد العقلُ المؤمن الذي لا يهملُ التَّفكير المنطقيَّ ولكنَّه لا يقف مع الظَّواهر فقط بل ينظرُ فيما ورائها، وهذه هي أعلى درجات استخدام العقل واحترامه؛ أن تكون معاني الأسماء الإلهيَّة هي المرشدة له في الطَّريق فلا يضلُّ ولا ينحرفُ فيكوِّن الرُّؤية الصَّحيحةَ للتَّصور الكلِّي والجزئي عن الكون والوجود.

فلو نظرنا إلى طريقة استخدام عقلِ المؤمن وعقلِ غير المؤمن في التَّعامل مع مظاهر الكون والطَّبيعة فسوف نجد فارقًا كبيرًا، فالمؤمن يشهد آثارَ أسماءِ الإله العظيم وغيرُ المؤمن لا يرى ذلك، فغير المؤمن الذي ينكر وجود الله لا يرى في الكون إلا ظاهره؛ ومن ثم لا يهتدي إلى الرسائل الربانية التي ترشد إلى أن الله سبحانه وتعالى رحيم وعليم، وحكيم وقدير ؛ لكنه محجوب بإنكاره عن رؤية النعم والمنن من الله؛ ولذا لا تزيده النعم إلا تكبرا واستغناء، ولا تزيده الآيات إلا إنكارا واستكبارا.

إذن فارقٌ كبير بين العقليَّة المؤمنة والعقليَّة الملحدة؛ العقليَّة المؤمنة شهدت آثار أسماءِ الله وصفاتِه وكانت هذه الآثار موجودةً في منهج التَّفكير العقليِّ عنده، والعقليَّة الملحدة لم تُرِدْ أن تنقاد لذلك؛ فتعمل على التفلُّت من أيِّ إلزام يجعلُها تتقيَّد بمنهجٍ ونظامٍ في الحياة.

ولو نَظَرْنا إلى بعض الأمثلة من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- التي توضِّح لنا كيف تصنع معاني أسماءِ الله وصفاتِه ودلالتُها العقليَّةَ المسلمةَ المستقيمةَ، وكيف تُدخِل في العمليَّة العقليَّة للمسلم نظرًا وإدراكًا وفهمًا وتكوينَ عقيدةٍ ومرجعيَّةٍ لوجدنا على سبيل المثال:

- دعوةً للتفكُّر العلميِّ المنطقيِّ واستخدامِ العقل من خلال قوله تعالى: ﴿أَفِي الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:10] فمعاني هذه الآية الكريمة تدفع للنَّظر العقليِّ الذي يستخدم الحواسَّ؛ فينظر في ملكوت السَّموات والأرض فيجد أنَّها وُجِدت بعد أن لم تكن، فالله سبحانه هو الذي أخرجها من الوجود إلى العدم.

- دعوةً للعقل للتَّفكُّر في القدرة الإلهيَّة وتمامِ الهيمنة الرَّبانية على الكون وإدراكِ الضَّعف البشريِّ ومحدوديَّة القدرة الإنسانيَّة من خلال ختمِ الآيات المتعلِّقة بخلق السَّموات والأرض، فلا يجد العقلُ البشريُّ بُدًّا من التَّسليم بأنَّ الله سبحانه هو «المَلِك» من خلال قوله سبحانَه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:107] ومن خلال قوله تعالى: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:189].

- اسمَه تعالى العليم والذي يدلُّ على تدبير أمر السَّموات والأرض من خلال إحاطةِ العلم الإلهيِّ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشُّورى:12].

ثالثًا: أسماءُ الله تعالى وبناءُ النَّموذج المعرفيِّ الإسلاميِّ:

النَّموذج المعرفيُّ لكلِّ أمَّة ولكلِّ طائفة ولكلِّ جماعة من الجنس البشريِّ هو الإطارُ الجامع الذي تنتظم من خلاله المبادئ والأفكار والمعلومات المتكوِّنة، والتي ينطلق من خلالها الإنسانُ في تعامله مع الكون والحياة بكلِّ ما فيهما من صور ماديَّة أو معنويَّة، فهو الطَّريق الذي يجمع بين الإدراك والإرشاد والتَّحرُّك، ويمكن أن يختلف التَّعبير عن ذلك فيُطلَق عليه أحيانًا المذهب أو التَّصور، وعلى الجملة فالنَّموذج المعرفيُّ هو محاولةٌ للوصول للرُّؤية المختصَّة بالغيب والوجود الإلهيِّ والطَّبيعة وما تحتويه والإنسانِ ومركزه ودوره في هذا الوجود.

وبالنِّسبة لما يتعلَّق بأمَّة الإسلام فالنَّموذج المعرفيُّ عندها هو ما يُعبَّر عنه بالعقيدة والمرجعيَّة، وهو يشتمل على الإجابات عمَّا نعرِّفه بـ (الأسئلة الكبرى) أو (الأسئلة الكليَّة) حول الإله وحول الوجود والإنسان والكون والحياة: من أين أنا؟ ماذا أفعل الآن؟ ماذا سيكونُ غدًا؟ وما هي طبيعة العلاقة بيني وبين هذا الوجود؟ فهو رؤية معرفيَّة كليَّة يقدِّمها الإسلام للألوهيَّة والطَّبيعة والكون والوجود الإنسانيِّ.

فالنَّموذج المعرفيُّ الذي يُكوِّن عقلَ المسلم بناءً على عقيدته ورؤيته الكليَّة للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعده؛ ذلك النَّموذج يمثِّل الإطار المرجعيَّ والمعيارَ المعتَمَد في عقل المسلم ونفسيَّته، وهو المكوِّن الأساسيُّ لشخصيَّة المسلم والضَّابط لفكره، هذا النَّموذج المعرفيُّ هو الذي أنتج الحضارة الإسلاميَّة وكوَّن هويَّة هذه الأمة وحدَّد خصائصَها وحفظَها من الذَّوبان في الهويَّات الأخرى وصنع الشَّخصية المسلمة التي تولَّت قيادة العالم لعدَّة قرون في ظل مرجعيَّة هذا النَّموذج المعرفيُّ الإسلاميُّ المحتوى على معرفة الإله وتوحيده بالإضافة إلى الرُّؤية الكليَّة والجزئيَّة للكون والوجود.

ولتبسيط الأمر نقول إنَّ هذا النَّموذج المعرفيَّ محاوره هي:

1- **قضيَّة الألوهيَّة والغيبيَّات:** وقد تكوَّنت لدى المسلم عقيدةٌ بأدلَّة عقليَّة وقلبيَّة وروحيَّة على إثبات الإله وقيامِه بالخلق والتَّدبير والإيمان بالغيب الغيرِ مشاهدٍ في الزَّمان أو المكان، فهذا ركنُ الإيمان في هذا النَّموذج المعرفيِّ.

2- **قضيَّة الكون والوجود:** وما يحتويه من مخلوقات، ما الغاية منه؟ وما الحكمة فيه؟ وما طبيعة العلاقات بين المخلوقات المختلفة؟ وهنا ركن العِلم والمعلومات في هذا النَّموذج المعرفيِّ.

3- **قضيَّة وجود الإنسان:** ومركزُه في هذا الوجود وعلاقته به، وهنا ركن النِّظام والتَّشريع والقانون في هذا النَّموذج المعرفيِّ الإسلاميِّ.

وعلى ذلك فالنَّموذج المعرفيُّ الإسلاميُّ: عقيدةٌ متكاملةٌ تُنتجُ معارفَ ومعلوماتٍ ينبثق عنها نظامُ حياةٍ جماعيٍّ وفرديٍّ منسجمٌ مع هذه العقيدة غيرُ متناقِضٍ معها، يشكِّل هذا النِّظام أسلوبَ حياةٍ تختصُّ به الأمَّة الإسلاميَّة، فالنَّموذج المعرفيُّ الإسلاميُّ هو المكوِّن الأساسيُّ لهويَّة الأمَّة عن طريق صناعته لنظامِ حياتِنا الفرديَّة والجماعيَّة، وبحسب تمسكنا بهذا النَّموذج الإسلاميِّ في حياتنا الفرديَّة والجماعيَّة تتحقَّق فينا هويَّتُنا الإسلاميَّة.

- دورُ أسماءِ الله تعالى في تكوين النَّموذج المعرفيِّ:

والنَّموذج المعرفيُّ الإسلاميُّ يتكوَّن من ثلاثة عناصر أساسيَّة: «الوحي الإلهيُّ» و«الكون والوجود» و«العقل المفكر»، فالعقلُ هو الصِّلة التي تربط الوحي الإلهيَّ بمظاهر الوجود والحياة بحيث تتكوَّن المنظومة المعرفيَّة الإسلاميَّة الكاملة، ومن أهمِّ العواملِ التي تؤثِّر في هذه المنظومة عند الفرد المسلم ما يحتويه الوحي الإلهيُّ من معاني أسماء الله وصفاته وآثارِها في المحاور الثَّلاثة التي يعالجها هذا النَّموذج المعرفيُّ (الإله- الوجود - الإنسان) وذلك مع اختلاف درجات الثَّقافات وتنوُّعِها واختلافِ القدرات العقليَّة عند الأفراد، فكما ظهرت

آثارُ أسماء الله تعالى في القيم والأخلاق عند الأمَّة المسلمة وظهرت في تكوين العقليَّة المسلمة وترتيب خطوات التَّفكير ظهرت آثارُها كذلك في النَّموذج المعرفيِّ عند الفرد المسلم.

1 – ففي مجال الغيب والإلهيَّات:

يؤمن المسلمُ بوجود الإله القدير العظيم وهو الله ربُّ العالمين الذي خلق ودبَّر وقام على أمر خَلْقِه، ونتج هذا الإيمان من أدلَّة عقليَّةٍ وقلبيَّةٍ وروحيَّةٍ جاء بها الوحيُ الإلهيُّ المتمثِّل في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ الثَّابتة الصَّحيحَة، ففهِم المسلمُ دلالةَ كلِّ اسم من أسماء الله، وكيف أنَّها تُرشد بمظاهرها وآثارِها ودلالتِها على وجود إلهٍ عظيمٍ، فاكتمل لدى المسلمِ هذا الجانبُ من النَّموذج المعرفيِّ، والذي نشهد فيه القُصور بل والبُطلان في نماذجَ معرفيَّة كثيرة عند حضاراتٍ مختلفةٍ سابقة ومعاصرة لم يكتمل هذا الجزء المهم من النَّموذج المعرفيِّ، بل قد يكون وجودُه معدومًا أو هامشيًّا في هذه النَّماذج.

ومن الآيات الكريمة التي تُظهِر لنا بيانَ وكيفيَّة بناءِ هذا الجانب من النَّموذج المعرفيِّ الإسلاميِّ المتعلِّق بالألوهيَّة عند الفرد المُسلم، والتي تعرض قضيَّة الإيمانِ والتَّوحيد عن طريق إظهارها لآثار أسماءِ الله تعالى وصفاتِه في الكون قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آلله خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ الله قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا الله وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:59-64].

ففي هذه الآياتُ الكريمةُ التي تمثِّلُ الوحيَ الإلهيَّ وصفٌ للوجود والكون والحياة وما فيها من مظاهر أسماء الله تعالى وصفاته، فهي تَصفُ مُشاهَدًا محسوسًا لا مجال لإنكاره، وعند ذلك لا يستطيع العقلُ البشريُّ إلَّا أن يسلِّم بأنَّ الله هو الإله الحقُّ الذي خلق هذا كلَّه وأبدَعَه.

وعن الإله الحقِّ المتَّصف بكلِّ كمالٍ المنزَّه عن كلِّ نقصٍ يخبرُنا القرآنُ: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:255] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى:11] وأنَّه سبحانه مخالفٌ لشأن المخلوقات: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (1) اللهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

- ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (5) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد:1-6].

فأسماءُ الله -سبحانه وتعالى- ومعانيها ودلالتُها ومظاهرُها تحسِم قضيَّة الأُلوهيَّة وعلاقةَ الإنسان بها، والتي هي أهمُّ محاورِ النَّموذج المعرفيِّ الإنسانيِّ على مرِّ العصور، فتكون أسماءُ الله تعالى وصفاتُه الواردة في كتاب الله هذا الجزءَ من النَّموذج المعرفي الإسلامي الذي يتميَّز عن جميع النَّماذج الأخرى التي لم تستطع أن تكوِّن مفهومًا صحيحًا في هذا الأمر يوفِّر الهداية للجِنْس البشريِّ فيما يتعلَّق بالوُجود الإلهيِّ.

2 – وفي مجال الكون والوجود وتفسير ظواهره وعلاقاته البينيَّة:

كوَّنت أسماءُ الله تعالى مرجعيَّة تفسِّر كلَّ ظواهر الوجود من حولنا؛ حيث نردُّ كلَّ ظاهرةٍ ماديَّة أو روحيَّةٍ تقع في هذا الوجود إلى معنى من معاني ومظهرٍ من مظاهرِ أسماء الله تعالى، وليس هذا الردُّ بمعزلٍ عن العقل أو متناقض معه؛ بل هو متوافقٌ معه ولا يوجد له معارِضٌ، فيتكوَّن جانبُ المعرفة بالكون والوجودِ، فمن الأمثلة التي تكوِّن الجزءَ الخاصَّ بالكون والوجود من النِّظام المعرفيِّ الإسلاميِّ قوله تعالى:

– ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:54].

– ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:95-96].

– ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة:5-7].

– ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:12-13].

– ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج:65].

– ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ

رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:5-8].

-﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:17-18].

- ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشّورى:28].

فكل هذه الآيات اشتملت على رؤية للكون،وما فيه، واعتباره أثرا من آثار رحمة الله وقدرته وعلمه.

وعند التَّحقيق نجد أنَّ كلَّ مظهر من مظاهر هذا الكون هو تجلِّي لأسماء ربِّنا -سبحانه وتعالى- فلا ذاتيَّة لمخلوق، والمخلوقات كلُّها مفتقرةٌ للمدد الإلهيِّ الذي لو انقطع ثانيةً واحدةً أو أقلَّ من ذلك لفنيت المخلوقات وتلَاشَت مظاهرُ الوجود وصارت إلى العدم، فكلُّ مظهرٍ من مظاهر الوجود مظهرٌ لأسمائه تعالى.

3 - **وفي مجال الوجود الإنسانيِّ**:

والذي هو المحور الثَّالث من محاور النَّموذج المعرفيِّ الإسلاميِّ تُساهم معاني أسماءِ الله الحُسنى في بناء هذا الجزء من النَّموذج المعرفيِّ الذي يعالج حياةَ الإنسان وعلاقتَه بهذا الوجود، أو ما يمكن أن نجدَه في مصطلحٍ جامعٍ هو «التَّشريع الإلهيُّ» الذي يُعتبَر بمثابة البوصلَة الهادية للإنسان على هذه الأرض.

فعندما نستعرِضُ الآيات المحتوية على أسماء الله تعالى وصفاته -جلَّ وعلَا- والتي تتحدَّث عن خلق الإنسان ونشاطه في هذه الأرض وعلاقاته المتشعِّبة، سواءٌ بينه وبين بني جنسه أو بين الوجود من حوله؛ نجدُ علاقةً وثيقةً بين معاني أسماء الله ودلالتها وبين طبيعةِ الوجود الإنسانيِّ على هذه الأرض والهدف منه، حيث نلحظُ البُعدَ المعرفيَّ الذي يراد من

الإنسان إدراكه والعمل على تحقيقه وتطبيقه، فيحيط ذهنُه بالصِّيغة الكليَّة المراد منه العمل وفقًا لها في هذه الحياة.

فعلى سبيل المِثال: عندما يأمر الله -سبحانه وتعالى- بالعَفْو والمحبَّة بين النَّاس والإنفاق في سبيله يختم الآية الكريمة بأسماءٍ عظيمةٍ من أسمائه تعالى تُناسب الحالَ والمقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النُّور:22].

- أمثلةٌ لوجودِ الأسماء الحُسنى في خَتْم الآيات وأثرُ ذلك في فهم معاني القُرآن:

إذا نظرنا إلى تَذييل بعضِ آياتِ القُرآن الكريم بأسماءِ الله الحُسنى؛ فإننا نجد ذلك يلفِتُ النَّظر إلى تعلُّق المعاني الموجودة في الآية على تنوُّعها بهذا الاسم أو هذه الأسماء، فنحنُ نجد أنَّ الآياتِ التي تحتوى على معاني الرَّحمة تُختَم بصفاتِ الرَّحمة واللُّطف، وآياتِ العقوبات والعذابِ وإهلاكِ الظَّالمين تُختَم بأسماء العزَّة والقُدرة والجلال والقهر.

وأسُوقُ إليكم أمثلةً توضِّح قضيَّة أسماء الله وأثرَها في فَهْم القُرآن واستخراجِ مقاصده، فإنَّ هناك سبعَ آياتٍ متتاليات خُتِمتْ كلُّ آيةٍ منها باسمين كريمَيْن من أسماء الله تعالى، وهي قولُه تعالى في سورة الحجِّ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (60) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (61) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجُّ: 59- 65] حتَّى جعلها الإمامُ ابن الجوزيِّ -رحمه الله تعالى- في كتاب «فُنون الأفنانِ في عجائبِ القُرآن» من الألْغازِ القرآنيَّة التي يختبرون بها دقَّة حفظ أهل القُرآن، فيقال: أخبرني عن سبعِ آياتٍ

متتالياتٍ، كلُّ آية منها خُتمت باسمين من أسماء الله تعالى؟ ولكن نحنُ لنا فيها نظرٌ آخرُ، فنرى هنا ظاهرةً قرآنيَّةً في غاية العَجب؛ ألا وهي: أنَّ الله تعالى اختار في خِتام كلِّ آية اسمين كريمين فيهما مَغزًى معيَّن يُعِين على تحقيق مقصودِ الآية، ويوقِعُ في النَّفس المرادَ القرآنيَّ من الآية ملخَّصًا محدَّدًا مُحكمًا واضحًا لا لبسَ فيه، فخُتِمت الآية الأولى بـ ﴿وَإِنَّ الله لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ لتوكيد أنَّ المدخل الذي اختاره الله لهم نابعٌ من عِلمه المحيط الذي لا تخفى عليه خافية، وأنَّ مرادَ الله تعالى بهم في هذا المدخل هو غاية الحِلم والرَّأْفة، ممَّا يرسِّخ في النُّفوس الرِّضا باختيار الله لهم، وختم الآية الثَّانية بـ ﴿إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ليلْفِت النَّظر بلُطفٍ إلى أنَّه سبحانه يُحبُّ من عباده اختيارَ العفو، بعد أن أكَّد سبحانه لهم أنَّه سينصرهم إن انتصروا لأنفسهم من بَغْيٍ وقع عليهم، ثمَّ ختم الآيةَ الثَّالثة بـ ﴿وَأَنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ليلفت النَّظر إلى أنَّ إيلاجَ اللَّيل في النَّهار وإيلاجَ النَّهار في اللَّيل وتقليبَ العباد بين هذه الأحوال من ورائه سمعُ الله وبصرُه بهم، فلا ينشغل العباد بشئون تقلُّب اللَّيل والنَّهار ويغيبون عن معيَّة الله لهم على وجه العِلم بهم والمحاسبة لهم، ثُمَّ لك أن تتأمَّل بقيَّة الآيات على هذا النَّحو، فكانت أسماءُ الله في خواتِم الآيات هي معيارٌ لفهم مراد الله تعالى من كلِّ آية، لا سيَّما وأنَّه سبحانه يختمُ كلَّ آيةٍ منها باسمٍ من أسمائه العظيمة، لا يصلُح في مكانه أيُّ اسم آخر من أسمائه تعالى.

وهذا المعنى شبيه بقصَّةٍ مشهورةٍ وقعتْ للأصمعيِّ قال: قرأتُ هذه الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ الله وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38] وإلى جَنْبِي أعرابيٌّ، فقلتُ (والله غفورٌ رحيمٌ) سهوًا؛ فقال الأعرابي: كلام مَن هذا؟ قلتُ: كلام الله! قال: أَعِدْ، فأعدتُ (والله غفورٌ رَحيمٌ) فقال: ليس هذا كلامُ الله! فتنبَّهت، فقلت: ﴿وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: أصبتَ! هذا كلامُ الله، فقلت له: أَتقرأُ القُرآن؟ قال: لا، قلتُ: فمن أين علمتَ أنِّي أخطأتُ؟ فقال: يا هذا! عزَّ فحكمَ فقطع، ولو غفَر ورَحِم لَمَا قطع.

فخَتْمُ الآية باسم معين يدلُّ على تعلُّق الحكم أو الأمر أو الإخبار أو النَّهي المذكور في الآية

بهذا الاسم.

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29] فهذه الآيةُ الكريمةُ خُتِمتْ باسمه تعالى عليم؛ والذي تُناسب معانيه ودلالتُه ما ذُكر فيها من خلق السَّموات والأرض الذي يتطلَّب العِلْم والإحاطةَ التامَّة المطلقة.

- ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37] فلمَّا كان المقام مقامَ حديثٍ عن المغفرة والتَّوبة والرَّحمة التي حدثَتْ لأبينا آدم -عليه السَّلام- كان ختم الآية الكريمة باسمه «التَّواب» واسمه «الرَّحيم» فهو الذي فتح باب التَّوبة لآدمَ وألهمهُ الدُّعاء بكلماتٍ فقبلها منه سبحانَهُ ورَحِمَه ولم يغلق بابه عنه.

- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:34] لَمَّا ذكر الله -سبحانه وتعالى- جزاءَ الَّذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا وذكر الَّذين تابوا قبل القُدرة عليهم؛ ذكر سُبحانه أنَّه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ولم يقل -جلَّ شأنُه- سامحوهم أو اعفوا عنهم أو دعوهم وشأنهم بعدما تابوا؛ وإنَّما نبَّه سبحانه أنَّه غفورٌ رحيمٌ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أن يكون المسلك مع التَّائبين هو الرَّحمة والعفو.

- قد نجدُ بعضَ الآيات الكريمة خُتِمتْ بأسماء الله تعالى تعليلًا وبيانًا للأمر الواردِ فيها، ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:90] فختَم سبحانه الآيةَ بما يُناسِبُ الأمرَ الوَارِدَ فيها بالاستغفار والتَّوبة، فاستغفر ربَّك أيُّها العبدُ فهو رحيم بعباده ودودٌ سبحانه لخَلقِه.

- قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:127-

129] ففي كلِّ آيةٍ نجدُ ما يُناسِب ما فيها من معنى، ففي الآية الأُولى دعاءٌ ورجاءٌ من الله بالاستجابة والقبول فنجد «السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» سبحانه وتعالى، والآية الثَّانية مقامُ طلب التَّوبة والهداية فنجد «التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» عزَّ وجلَّ، والآية الثَّالثة مقامُ طلب إرسال رسولٍ يزكِّي النَّاس ويعلِّمُهم فنجد «الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» سبحانه؛ العزيزُ الذي لا مانع لما يريد، فهو القادر على إرسال الرُّسل وقْتَما يشاءُ سبحانه؛ الحكيمُ الذي يرسل الرُّسل بمناهجِ الحكمة والتَّزكية والهداية.

– وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8] طلبُ الهداية والرَّحمة في هذه الآية فختم الله سبحانه الآية باسمه تعالى «الْوَهَّابُ» الذي يشملُ العبادَ ببرِّه وهِبَاتِه وكرمه وإحسانِه.

– ولو نظرنا في سورة الشُّعراء وما قصَّ سبحانه فيها من آياتِ عظمتِه وجلالِه وقُدرَتِه على إخضاع الكافرين؛ نجدُ أنَّ الله تبارك اسمُه بعد أن يذكر قصَّة نبيٍّ مع قومه وإهلاكه –سبحانه وتعالى– للمكذِّبين ونجاة الأنبياء والمؤمنين نجدُ في ختام الآياتِ الكريمة التي تقصُّ علينا ذلك قولَه تعالى:﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. فهو سُبحانه العزيزُ الغالب على جميع أمرِه الذي تظهرُ آثارُ عزَّته في إهلاك الكافرين، وتظهر آثارُ رحمتِه في نجاة المؤمنين، ولو نظرنا إلى ذكر الرَّحمة مع العُقوبة الحاصلة لدلَّ ذلك على عِظَم جُرْمِ الكافرين، وكيف أنَّ الله سبحانه قد فتح لهم أبوابَ الرَّحمة بإرسال الرُّسل ولكنَّهم أغلقوها بتكذيبهم وعنادهم.

– ومِنْ ألطفِ المعاني في الكتاب الكريم أنَّ الله –عزَّ وجلَّ– يذكر الرَّحمة والعفوَ والعقوبةَ في آيةٍ ويختمُها بما يدلُّ على الرَّحمة والمغفرة في تأكيدٍ من ربنا الجليل أنَّ رحمتَه سبحانه تسبق غضبَه وأنَّ عفوَه –عزَّ وجلَّ– مقدَّم على عقوبَتِه، مع أنَّه –سبحانه وتعالى– هو المَلِك الذي يملك السَّموات والأرض، وهذا شأنُ الكريم الحليم سبحانه أنَّه تفضَّل على خَلْقه ومنَّ عليهم بالرَّحمة، وفي ذلك إشارةٌ خفيَّة للعبد بأن يُقْدِم على مولاه فسوف يجدُ البابَ مفتوحًا

والرَّحمة مبذولةً.

ومثالُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 129] وقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ الله عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:73].

***

المبحث السابع عشر
حفريات القرآن الكريم

من المباحث المهمة التي يجب الالتفات إليها والاهتمام بها حفرياتُ القرآن الكريم، أو ما يُمكنُ أن نُطلِقَ عليه الخريطة المكانيَّةَ التي اشتمَلَ عليها القرآنُ الكريمُ عن طريق استقراءِ آياتِه وتتبع أسماء الأماكن المختلفة الواردة في كتاب الله وما يتعلَّقُ بها من موضوعاتٍ ومسائل.

فمما قصَّر فيه المسلمون قضيَّة حفريَّات القرآن، والمراد بها بعثات وبحوث وفرق عمل، تخرج للتَّنقيب في الأماكنِ والإحداثيَّات التي تكلَّمَ عنها القرآن الكريم، لاسيَّما وأنَّ القرآنَ يشير إشارات لطيفةً جدًّا إلى أنَّ الله تعالى ترك لنا بقايا من أحداثِ الأمم الخالية وآثارهم لنتفكر فيها، وننشئ حولها البحوث، فيقول سبحانه عن سفينة نوح ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 15]. ويقول سبحانه عن قُرى قوم لوط: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات 136: 138]، فهو سبحانه يعلِّمُنا بأنَّه ترك سفينة نوح آية، ويأمرنا بالتَّدبر في بقايا قرى قوم لوط، والتي هي شاهد صدق على عاقبة الانحراف والسُّوء، ولا شكَّ في أنَّ الخطاب القرآني بذلك غير موقوف على زمن معيَّن، كما اتضح ذلك من خلال كلامنا السابق عن إطلاقية القرآن.

ويتَّضح لك ذلك إذا قرنت قولَه سبحانه في قرى قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات 138: 137]. بقوله- جلَّ شأنه- عن تلك القرى نفسها، في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات 31: 37]. فأعلمنا

سبحانه وتعالى بأنَّه ترك فيها آيةً، فلابدَّ من التَّفتيش عن تلك الآية والبحث حولهالتتحقق العظة والعبرة ويحصل المقصد من تدبرها.

وحفريَّات القرآن لها شبيه في علاقة الآثار بالبحث والتَّنقيب في الكتاب المقدس؛ فقد صنعوا قاموس الكتاب المُقدَّس، وأنشأوا أبحاثًا عن كلِّ كلمة، وقاموا بتمويل بعثات لاستكشاف المناطق الأثرية التي وَرَدَ لها ذِكْر في الكتاب المقدَّس، ولم يقتصر البحثُ عن الرِّوايات التَّاريخية التي تتناول هذه الأماكن، وبحثوا طويلًا: أين سدوم؟ وأين عمورية؟ إلى آخره، وتوصَّلوا إلى أبحاث، وزُوِّرَتْ أبحاث أخرى، نعم زوِّرَت تزويرًا؛ لأنَّ السَّاحة خالية من المقابِل والدَّارس، وليس من المعيب أنَّ نهتمَّ بمثل هذه العلوم بحثًا عن الكهف، أو عن مكان سفينة نوح، أو عن سدِّ ذي القرنين، أو عن إرم ذات العماد، أو عن سد مأرب، أو عن موضع انشقاق البحر لموسى، لكن لَّما نجد النَّاس تحرَّكوا للسَّعي في الأرض، ففي سنة ألف وثمانمائة وتسعين ابتدأت الرحلات الاستكشافيَّة الغربيَّة لجبال أرارات بتركيا، بحثًا عن موطن سفينة نوح، وواحد منهم يكتب كتابًا، ويقول إنَّها على قمَّة جبل صغير يُسمِّيه أهلُه الجودي، والباحث المذكور غيرُ مسلم، ولا يعرف عن الإسلام شيئًا! وهي في الكتاب المقدَّس أرارات، فيكون الاثنان صادقين؛ لأنَّها سلسلة جبال الأرارات، على قمَّة الجودِيِّ، ولكنَّ الجوديَّ غير معروف، وهنا تأتي أبحاث ومعانٍ كثيرة تحرِّك الدُّنيا؛ لأنَّ المقصود أن يتحرك النَّاس، وأن يسعوا؛ فإنَّ البعثات التي ذهبتْ- وعددها نحو أربعة أو خمسة إلى الآن، آخرها بعد سنة ألف وتسعمائة وثمانين- حركت مصانع وفعَّلت أدوات، وحرَّكت وسائل بحث ومناهج، ولذلك فإنَّ القضيَّة ليست قضية معلومات بقدر ما هي قضيَّة حياة وتمكُّنٍ في هذه الحياة، وما الذي يوصل إلى هذه الحياة.

ومن المعاصرين الذين اهتمُّوا بهذه القضيَّة، وبذل لها تمويلًا ضخمًا، وقام ببحوث، ورحلات استكشاف، ودراسات موسَّعة حول شيء من حفريات القرآن: العلَّامة أبو الكلام آزاد وزير المعارف الهندي الأسبق، فقد قضى وقتًا طويلًا وهو يتتبَّع مسألةَ سد ذي القرنين،

وقام بدراسة واسعة حولَ الرِّوايات والآثار التي تتحدَّث عن السدِّ، وتصف موقعه، ثمَّ انتقل إلى محاولة تحديد تلك الإحداثيات المكانيَّة على الخريطة، ثمَّ ذهب بالطَّائرة إلى المواقع التي اجتهد في تحديدها، وصوَّر السد(1)، وقد كتب الشيخ عبد المنعم النِّمر كتابًا ضخما عن أبي الكلام آزاد، ووصف فيه تلك البحوث بالتَّفصيل(2).

وليس المقصود هنا هو البحث في هذه المسائل عن طريق حشد الروايات التَّاريخيَّة، والاشتغال بالنظر فيها أو التَّوفيق بينها؛ فإنَّ هذا موجود عندنا، بل لا توجد أمَّة على ظهر الأرض تملك من أدوات توثيق النُّصوص مثل الذي تملكه هذه الأمَّة، وإنَّما المقصود أن تقوم فرق علميَّة متخصِّصة في الجغرافيا والتَّاريخ والجيولوجيا، بالإضافة إلى خبراء التَّاريخ وخبراء الآثار، وتحديد إحداثيات الأماكن التي وقعت فيها أحداث ورد ذكرها في القرآن الكريم، وتجتهد في تمحيص التَّاريخ لتحديد منطلقٍ علميٍّ واضح، ثمَّ تتحرك فرق البحث والتَّنقيب لدراسة ميدانية لتلك الأماكن، وتنشر تلك البحوث على نطاق واسع، نظير ما فعل العلَّامة أبو الكلام آزاد.

ومن فوائد إحياء هذا الجانب من المعارف القرآنية أنه وجه من وجوه إثبات صحة الكتاب لغير المسلمين ونسبته إلى رب العالمين سبحانه وعصمته الكلية وإثبات نبوة نبينا ﷺ عن طريق إظهار ما فيه من معلومات يثبتها العلم الحديث فهو وجه من وجوه الإعجاز يثبت تجدد العطاء المعرفي للقرآن الكريم في كل زمانٍ وعلى كافة المجالات فيكون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:49]. وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ

(1) انظر كتاب " ويسئلونك عن ذي القرنين" لمولانا أبو الكلام آزاد،بتقديم الشيخ أحمد حسن الباقوري.

(2) وهو بعنوان: أبوالكلام آزاد.

مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود:100]. ويفتح الباب أمام نشأة جانب معرفي لكتاب الله يمكن أن نطلق عليه: «البعد الأثري والتاريخي في القرآن الكريم» كما أنَّه يمثل جانبا من جوانب التفسير للقرآن الكريم من حيث إنه يكمل بعض الجوانب للصورة الكلية عن طريق زيادة المعاني خاصة عندما يتعلَّقُ الأمر بحوادث مهمة أو بقصص الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم. وفوق ذلك يُمثِّلُ بابًا من أبواب الدعوة إلى الإسلام خاصَّة عند الغرب عندما تعرض أمامهم الحقائق التاريخية التي احتوى عليها القرآن الكريم والتي أثبتها العلمُ الحديث.

كما أنَّ نتائجَ هذا العلم لا شكَّ أنَّها مثمرة بناء على عصمة نصوصِ القرآنِ الكريمِ من التَّحريف أو التَّبديل فكل ما وَرَدَ فيه من أماكن له وجود حقيقيٌّ فإذا ما تمَّ مراعاةُ قواعد التَّفكير والتَّرتيب الصحيح للمقدِّمات مع الاستفادةِ ممَّا ورد في التراثِ من معلوماتٍ وروايات فلا شكَّ أن النَّتائج سوف تكون مذهلة، والحديث عن حفريَّات القرآن الكريم يشتمل على: أماكن وأحداث وأشخاص تكون فيما بينها جانبًا من التَّاريخ الإنساني الذي يتَّضحُ لنا من خلال معاني القرآنِ الكريمِ.

وسوف نحاولُ فيما يلي عرضَ بعض النماذج التي ورد ذكرُها في كتاب الله وما يرتبطُ بها من الأنبياءِ وما قيل في أماكنهم في التراث من قبل علمائنا لتكون مدخلًا لإحياءِ هذا الجانب من علوم القرآن ومعارفه، مع الاستعانة بمعطيات المعارف الحديثة.

الأَحْقَافُ: وهي المنطقة التي ظهر بها نبيُّ الله هود عليه السلام، فهي مكان إقامة قوم عاد، ومنطقة مدينة «إِرم ذات العماد» التي سلَّطَ الله عليها العذاب والريح العاتية. وتقع في القسم الجنوبيِّ من شبه الجزيرة العربية إلى الشمال من منطقة حضر موت اليمنيَّة فهي منحصرة بين صحراء الربع الخالي وسلطنة عمان والجمهورية اليمنيَّة. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:50].وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:21]. والأحقاف: والأحقاف جَمْعُ حِقْفٍ وَهِيَ الْمُسْتَطِيلُ الْمُعْوَجُّ مِنَ الرِّمَالِ. جاء في معجم البلدان: «جمع حقف من الرمل. والعرب تسمِّي

الرمل المعوج حقافًا وأحقافًا، واحقوقف الهلال والرمل إذا اعوجَّ، فهذا هو الظاهر في لغتِهم، وقد تعسّف غيره. والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز: واد بين عمان وأرض مهرة، عن ابن عباسٍ، قال ابن إسحاق: الأحقاف رمل فيما بين عمان إلى حضرموت، وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن، وهذه ثلاثة أقوال غير مختلفة في المَعنى»(1).

- الحِجرِ: هي مكان مدينة ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: 9]. قال الحافظُ ابن حجر رحمه الله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾. وقوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ هو صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانت منازلهم بالحجر، وهو بين تبوك والحجاز»(2). جاء في معجم البلدان: «والحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، قال الإصطخريُّ: الحجر قرية صغيرة قليلة السكان، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال، وبها كانت منازل ثمود، قال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ من الْجِبالِ بُيُوتًا فارِهِينَ﴾ قال: ورأيتها بيوتًا مثل بيوتنا في أضعاف جبال، وتسمى تلك الجبال الأثالث، وهي جبال إذا رآها الرائي من بعد ظنها متَّصلة فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها، يطوف بكل قطعة منها الطائف وحواليها الرمل لا تكاد ترتقى، كل قطعة منها قائمة بنفسها، لا يصعدها أحد إلا بمشقة شديدة، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾»(3).

- الأَيْكَـةِ: وهي بلاد مدين قوم سيدنا شعيب عليه السلام يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ

(1) انظر: معجم البلدان (1/ 115) تأليف: ياقوت الحموي- دار صادر- بيروت- الطبعة الثانية- 1995م.

(2) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (6/ 379).

(3) انظر: معجم البلدان (2/ 221).

كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [الحجر:78]. ويقولُ تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: 176-187]. وروى الطبراني بسنده عن ابن جريج، قوله ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ قال: قوم شعيب، قال ابن عباس: الأيكة ذات آجام وشجر كانوا فيها(1). جاء في معجم البلدان: «مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى، عليه السلام، لسائمة شعيب، قال: ورأيت هذه البئر مغطاة قد بني عليها بيت وماء أهلها من عين تجري، ومدين اسم القبيلة، وهي في الإقليم الثالث، طولها إحدى وستون درجة وثلث، وعرضها تسع وعشرون درجة، وهي مدينة قوم شعيب سُمِّيتْ بمدين بن إبراهيم عليه السلام»(2).

- الرَّسِّ: جاء ذكر أصحاب الرَّسِّ مرتين في القرآن الكريم يقول الله عز وجل: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 38]. ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [ق:12]. والرَّسُّ في اللغة البئر المطوية. جاء في معجم البلدان: «فتح أوَّله، والتشديد: البئر، والرَّس: المعدن، والرس: إصلاح ما بين القوم، قال أبو منصور: قال أبو إسحاق الرس في القرآن بئر يروى أنَّهم قوم كذبوا نبيهم ورسّوه في بئر أي دسُّوه فيها، قال: ويروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج، ورُوِيَ أن الرس ديار لطائفة من ثمود، وكلُّ بئر رسٌّ»(3). وجاء في تفسير الطبري عن ما هو الرس ومكانه: «قال قتادة: الرس: قرية من اليمامة يقال لها الفلج. أصحاب الرس بفلج هم أصحاب يس. وقال آخرون: هم قوم رسوا نبيهم في بئر. عن ابن عباس (وَأَصْحَابَ الرَّسِّ) قال: هي بئر كانت

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (17/ 124) تأليف: ابن جرير الطبري- المحقق: أحمد محمد شاكر- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- 2000 م.

(2) انظر: معجم البلدان (5/ 77).

(3) انظر: معجم البلدان (3/ 43).

تسمى الرَّسِّ. وعن مجاهد في قوله: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قال: الرَّسُّ بئر كان عليها قوم. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرَّسَّ في كلام العرب: كلُّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك»[1].

- الْكَهْف والرَّقِيم: يقول الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9]. قال ابن كثير في تفسيره: «وأما الكهفُ فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورونَ، وأمَّا الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو وادٍ قريب من أيلة، وكذا قال عطية العوفي وقتادةُ. وقال الضَّحاكُ: أما الكهف فهو غارٌ في الوادي، والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد: الرَّقيم كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادِي الذي فيه كهفهم. وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري عن سماك عن عكرمة عن ابن عبَّاس في قوله الرقيم: كان يزعم كعب أنها القرية، وقال ابن جريج عن ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف، وقال ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ عن ابن عباسٍ قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس، وقال ابن جريج: أخبرني وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي أنَّ اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم»[2]. وقال ابن جرير الطبريُّ في تفسيره: «أمَّا الكهف، فإنَّه كهف الجبل الذي أَوَى إليه القوم الذين قصَّ الله شأنهم في هذه السورة. وأمَّا الرقيم فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في المعنيِّ به، فقال بعضهم: هو اسم قرية أو وادٍ على اختلاف بينهم في ذلك»[3].

وجاء في معجم البلدان عن موقع الكهف والرقيم: «وبقرب البلقاءِ من أطراف الشَّامِ

(1) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (19/ 270-269).

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم (5/ 125) تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير- المحقق: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية- بيروت -الطبعة الأولى - 1419 هـ.

(3) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن (17/ 602).

موضع يقالُ له الرَّقيم، يزعم بعضهم أنَّ به أهلَ الكهف، والصَّحيح أنَّهم ببلاد الروم كما نذكره»(1). وقيل في مواقعهم: «قال غيرهم: إنَّ بالبلقاء بأرض العرب من نواحِي دمشق موضعًا يزعمونَ أنَّه الكهف والرقيم قرب عمان، وذكروا أن عمان هي مدينة دقيانوس، وقيل: هي في أفسس من بلاد الروم قرب أبلستين»(2).

وقال ابن الأثير في تاريخه: «كان أصحابُ الكهفِ أيام ملك اسمه دقيوس، ويقال دقيانوس، وكانوا بمدينة للروم اسمها أفسوس، وملكهم يعبد الأصنام، وكانوا فتية آمنوا بربهم كما ذكر الله تعالى فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9]. والرقيم خبرهم كتب في لوح، وجعل على باب الكهف الذي أووا إليه، وقيل: كتبه بعض أهل زمانهم وجعلَه في البناء وفيه أسماؤهم وفي أيَّام من كانوا وسبب وصولهم إلى الكهف»(3).

وقال ابن حجر العسقلاني: «واختلفَ في مكان الكهف؛ فالذي تضافرتْ به الأخبارُ أنَّه في بلاد الروم، وروى الطَّبريُّ بإسناد ضعيف عن ابن عباس أنه بالقرب من أيلة، وقيل: بالقرب من طرسوس، وقيل: بين أيلة وفلسطين، وقيل: بقرب زيزاء»(4).

- مجمع البحرين: جاء في كتاب الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف:60-61].

روى البخاريُّ بسندِه عن أبي بن كعب عن النبيِّ ﷺ: قامَ موسى النبيُّ خطيبًا في بني

(1) انظر: معجم البلدان (3/ 60).

(2) انظر: معجم البلدان (3/ 61).

(3) انظر: الكامل في التاريخ (1/ 325) تأليف: عز الدين ابن الأثير- تحقيق: عمر عبد السلام تدمري- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولى-1997م.

(4) انظر: فتح الباري (6/ 503).

إسرائيلَ، فسُئِلَ أي الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا أعلمُ، فعَتَبَ الله عليه، إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأوحى الله إليه؛ أن عبدًا منْ عبادِي بمَجْمَعِ البحرينِ، هو أعلمُ منكَ»[1]. قال القرطبي: ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي ملتقاهما. قال قتادة: وهو بحر فارس والروم، وقالَه مجاهد. قال ابن عطيَّة: وهو ذراع يخرُجُ من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالرُّكنُ الذي لاجتماعِ البحرين مما يلي بر الشَّامِ هو مجمع البحريْنِ على هذا القول. وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم[2]، وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، قاله محمد بن كعب. ورُوِيَ عن أُبي بن كعب: أنه بأفريقية. وقال السدي: الكر والرس[3] بأرمينية. وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط، حكاه النقاش، وهذا مما يذكر كثيرًا»[4].

- رَبْوَة: جاء ذكر الربوة في القرآنِ الكريمِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنين:50]. جاء في معجم البلدان: «رُبْوَةُ:بضم أوّله وفتحه وكسره، والضَّمُّ أجود، وأصله ما ارتفع من الأرض، وجمعها ربى، قال المفسرون في قوله عزَّ وجل: ﴿وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ﴾ إنها دمشق، وذات قرار أي قرار من العيش، وبدمشق في لحف جبل على فرسخ منها موضع ليس في الدنيا أنزهُ منه لأنَّه في لحف جبل تحته سواء نهر بردى، وهو مبنيٌّ على نهر ثوري، وهو مسجد عال جدًّا وفي رأسه نهر يزيد

---

(1) متفق عليه؛ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله (122) ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (2380) من حديث أبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ به.

(2) بحر القلزم: البحر الأحمر

(3) أسماء أنهار.

(4) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (11/ 9) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي- تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية- القاهرة - الطبعة الثانية- 1964م.

يجري ويصبُّ منه ماء إلى سقايته وإلى بركة»[1].

ويذكر ابن بطوطة وهو يتكلم عن جبل قاسيون في دمشق: «وبآخر هذا الجبل المذكور، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلدِ، الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى، مأوى المسيح وأمه، صلوات الله عليهما، وهي من أبدع مناظر الدنيا حسنًا وجمالًا وإشراقًا وإتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع، هي كالقصر المشيد، ويصعدُ إليها على أدراج. والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطِها، وهي كالبيت الصغير. وبإزائها بيت يقال: إنه مصلى الخضر ﷺ، فيبادر الناس للصَّلاة بهذين الموضعين المباركين، ولاسيما المأوى المبارك. وله باب حديد صغير ينغلق دونه، والمسجد يُطيفُ بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم ير أحسن منها، قد سيق إليها الماء من علو، وماؤها ينصب على شاذروان في الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم يَرَ أحسن من منظرِه»[2].

ونتعرَّض فيما يلي لذكر بعضِ الأسماء التي وردتْ في كتاب الله عزَّ وجلَّ والتي لها ارتباط بقصص القرآنِ وأحداث التاريخ والتي يقودُ البحثُ إليها إلى زيادة المعرفة عن الجانب المعرفي التاريخي لكتاب الله عز وجل.

- الأخدود: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [البروج:4-5].

- أدنى الأرض: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 2-3].

- إرم ذات العماد: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر:7-8].

- الجودي: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:44].

(1) انظر: معجم البلدان (3/ 26).

(2) انظر: رحلة ابن بطوطة = تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (1/ 328) محمد بن عبد الله ابن بطوطة- أكاديمية المملكة المغربية- المغرب- 1417 هـ.

– بين السدين:﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:93-94].

– صياصي: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: 26].

– قرية شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: 88].

– القرية (حاضرة البحر): ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:163].

– قرية يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:98].

– المؤتفكة: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم:53-54].

وكل ذلك وغيره من أسماء البلاد والأماكن والمعالم التاريخية يستنهض المسلمين؛ لأجل القيام بخدمة كتابهم في هذا الشأن؛ كي تأتي الأجيال القدمة وقد ظهر لها المزيدُ من عطاء القرآن، وصدق أخباره، وإحاطة آياته بما خفي عن كثير من الناس، بما يؤكد أنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

***

فهرس المصادر والمراجع

1- سمات العصر... رؤية مهتم- لفضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور: علي جمعة محمد- دار الفاروق- الطبعة الأولى-2006 م.

2- الطريق إلى التراث الإسلامي «مقدمات معرفية ومداخل منهجية»- أ.د علي جمعة محمد - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الطبعة الأولى 2004م

3- المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية- د. على جمعة محمد عبد الوهاب- دار السلام - القاهرة الطبعة: الثانية - 1422 هـ - 2001 م.

4- النبراس في تفسير القرآن الكريم- فضيلة الشيخ الإمام علي جمعة محمد- دار الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر- الطبعة الأولى - 2009م.

5- النسخ عند الأصوليين- الإمام العلامة د.علي جمعة محمد- نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الطبعة الأولى - 2005م.

6- وقال الإمام المبادئ العظمى- الإمام العلامة علي جمعة عضو هيئة كبار العلماء- الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر- 2010م.

مقالات لفضيلة الإمام:

7- مقال تحت عنوان «النَّموذج المعرفي الإسلامي» (2) جريدة الأهرام بتاريخ 24 إبريل 2004م.

8- مقال تحت عنوان «اللغة المقدسة وقدسية اللغة» جريدة الأهرام القاهرية. بتاريخ 2004/9/11.

9- مقال لفضيلة الشيخ حول «إعجاز القرآن الكريم» جريدة الأهرام القاهرية. بتاريخ 25 ديسمبر 2004م.

10- مقال لفضيلة الإمام حول معاني «القرآن فوق الأكوان» جريدة الأهرام القاهرية. بتاريخ 2010/7/31.

برامج تلفزيونية:

11- حلقة تحت عنوان «ما هو التراث الإسلامي» من برنامج أفيقوا يرحمكم الله.

12- حلقة تحت عنوان «الرد على فتاوى تكفير أصحاب المهن» من برنامج «والله أعلم» بتاريخ الإثنين 2015/1/26.

13- حلقة تحت عنوان «أهمية اللغة العربية ولماذا كان الوحي بها على سيدنا محمدﷺ» من برنامج «والله أعلم» بتاريخ 2017/10/28.

مصادر أخرى لفضيلة الإمام العلامة:

14- الموسوعة القرآنية المتخصصة- (مبحث المبادئ العامة والقيم في القرآن الكريم. لفضيلة الإمام علي جمعة محمد) الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر- عام النشر: 1423 هـ - 2002 م.

15- مقدمة لفضيلة الإمام العلامة لكتاب المبادئ العامة في القرآن الكريم- لمصطفى عبد الكريم- دار المقطم للنشر والتوزيع.

16- مقدمة لفضيلة الشيخ الإمام لكتاب السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط- د. مجدي عاشور- دار السلام للنشر والتوزيع – الطبعة الثالثة2013 م.

ثانيا: كتب التفسير وعلوم القرآن.

1- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، المحقق أنس مهرة، دار الكتب العلمية- لبنان، الطبعة الثالثة، 2006م- 1427هـ.

2- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: مركز الدراسات القرآنية – الناشر: مجمع الملك فهد السعودية، الطبعة الأولى.

3- أسباب نزول القرآن، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، المحقق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ

4- إعجاز القرآن للباقلاني المؤلف: أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف، مصر، الطبعة: الخامسة، 1997م.

5- الإكسير في علم التفسير (1/42-39) سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين - المحقق: عبد القادر حسين - الناشر: مكتبة الآداب القاهرة- 1977م.

6- الانتصار للقرآن، المؤلف: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي، تحقيق: د. محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح، عَمَّان، دار ابن حزم، بيروت،الطبعة: الأولى 1422 هـ - 2001م.

7- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م.

8- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984 هـ.

9- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1995م.

10- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة النشر: 1990 م.

11- تفسير الطبري، تأليف: محمد بن جرير الطبري- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- 2000م.

12- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز- المملكة العربية السعودية الطبعة: الثالثة- 1419 هـ.

13- تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمَّد الخازن ، تصحيح: محمَّد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1995م.

14- تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ.

15- التبيان في أقسام القرآن، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

16- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة -الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964م.

17- جمال القراء وكمال الإقراء، علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، تحقيق د. مروان العطيَّة - د. محسن خرابة، دار المأمون للتراث- دمشق - بيروت، الطبعة الأولى 1418 هـ - 1997 م.

18- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، المحقق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1999م.

19- دلائل الإعجاز في علم المعاني، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م.

20- زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار النشر: دار الفكر العربي.

21- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1407 هـ.

22- لطائف الإشارات=تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، المحقق إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة الثالثة.

23- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي، 1957م .

24- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، الناشر: الكتب العلمية بيروت، ط1/1421هـ.

25- مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، الطبعة: 1490هـ- 1980م.

26- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1422 هـ.

27- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ ، 2000 م.

28- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، المحقق: فواز أحمد زمرلي، دار النشر: دار الكتاب العربي، البلد: بيروت، الطبعة: الأولى، سنة الطبع: 1415هـ، 1995م.

29- معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، 1417 هـ - 1997 م.

30- النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف - المحقق : علي محمد الضباع- الناشر : المطبعة التجارية الكبرى.

31- نواسخ القرآن = ناسخ القرآن ومنسوخه، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي المليباري، وأصله رسالة ماجستير - الجامعة الإسلامية - الدراسات العليا - التفسير - 1401هـ

32- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، للرُّومَّاني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة.

33- نهج البلاغة بشرح الإمام محمد عبده، دار البلاغة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1402هـ

ثالثا: كتب الحديث وعلومه

أ- متون الحديث

1- صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي- تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر- دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى- 1422هـ.

2- صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

3- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني- المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية- صيدا - بيروت.

4- سنن الترمذي تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975م.

5- سنن النسائي لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي- تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، الطبعة: الثانية، 1406هـ – 1986م.

6- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي.

7- موطأ الإمام مالك رواية سويد بن سعيد الحدثاني – تحقيق: عبد المجيد تركي – دار الغرب الإسلامي – الطبعة الأولى – 1994م.

8- مسند أحمد – تحقيق: شعيب الأرناءوط، عادل مرشد – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – 1421هـ - 2001م.

10- المُصَنَّف، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، دار القبلة، المحقق: محمد عوامة.

11- مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، صبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعةالأولى.

9- نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، الحكيم الترمذي، المحقق: توفيق محمد تكلة، دار النوادر، الطبعة الأولى 1431 هـ - 2010 م

10- سنن الدارقطني – تحقيق: شعيب الأرناءوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى – 1424هـ - 2004م.

10- السنن الكبرى للبيهقي – تحقيق: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – 1424هـ - 2004م.

11 - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - للخطيب البغدادي - تحقيق: د. محمود الطحان – مكتبة المعارف – الرياض.

ب- كتب الشروح:

1- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، عليه تعليقات عبد العزيز بن باز.

2- الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، النبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1/1997 م.

ج- كتب التخريج:

1- تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، المحقق: محمد عوامة، دار الرشيد – سوريا، الطبعة: الأولى، 1406 هـ – **1986م.**

2- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، مكتبة القدسي، لصاحبها حسام الدين القدسي – القاهرة، 1351 هـ.

رابعا: كتب الفقه والأصول

1- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1999م.

2- أنوار البروق في أنواء الفروق، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي- الناشر: عالم الكتب- بدون طبعة وبدون تاريخ.

3- اختلاف الحديث، محمد بن إدريس الشافعي، المحقق: رفعت فوزي عبد المطلب،دار الوفاء، البلد :المنصورة. مصر، الطبعة الأولى، سنة الطبع 1422 هـ، 2001م.

4- الإبهاج في شرح المنهاج، تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، دراسة وتحقيق: الدكتور أحمد جمال الزمزمي، والدكتور نور الدين عبد الجبار صغيرى، النَّاشر: دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، دبي، عام النشر: 1424هـ - 2004م.

5- البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، تحقيق: صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان.

6- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، دار الفكر- بيروت.

7- البحر المحيط في أصول الفقه، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، 1414هـ - 1994م.

8- تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي، دراسة وتحقيق: د سيد عبد العزيز، د عبد الله ربيع، الناشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1998 م.

9- التمهيد في تخريج الفروع على الأصول، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين، المحقق: د. محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1/، 1400هـ.

10- الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، ط3/1382 هـ

11- الرسالة للشافعي، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، المحقق: رفعت فوزي عبد المطلب، الناشر: دار الوفاء المنصورة، مصر، الطبعة: الأولى 1422هـ.

12- شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، المحقق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1416 هـ - 1996 م

13- شرح مختصر المنتهى، العضد الإيجي، تحقيق: محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، ط1/2004 م.

14- شَرْحُ الوَرقَات في أصول الفقه، للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي، قدم له وحققه وعلق عليه: الدكتور حسام الدين بن موسى عفانه، الطبعة الأولى1420 هـ - 1999 م علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف،مكتبة الدعوة.

15- الفصول في الأصول لأبي بكر الرازي الشهير بالجصاص، طبعة وزارة الأوقاف الكويتية.

16- قواطع الأدلة في الأصول- المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي - المحقق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - الطبعة: الأولى، 1418هـ/1999م.

17- المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي- تحقيق: طه جابر فياض العلواني، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، 1400هـ.

18- مجموع الفتاوى ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية - عام النشر: 1416هـ/1995م.

19- مسائل ابن رشد الجد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، الناشر: دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط2/1993م.

20- المستصفى في علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المحقق: محمد بن سليمان الأشقر، الناشر:مؤسسة الرسالة،بيروت،لبنان،الطبعة:الأولى، 1417هـ/1997م.

21- المعتمد في أصول الفقه، محمد بن علي الطيب أبو الحسين البَصْري، المحقق: خليل الميس، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ.

22- المنثور في القواعد الفقهية، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الثانية، 1405هـ - 1985م.

23- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

24- نفائس الأصول في شرح المحصول، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي - تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض - مكتبة نزار مصطفى الباز - الطبعة: الأولى 1995م.

25- نهاية السول شرح منهاج الأصول للشيخ عبد الرحيم الإسنوي- دار الكتب العلمية 1999م.

خامسا: كتب التصوف والتزكية

1- إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1982م.
2- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي، قبرص، ط1/1407 - 1987م.
3- الوابل الصيب من الكلم الطيب، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية-تحقيق: سيد إبراهيم -الناشر: دار الحديث-القاهرة- رقم الطبعة: الثالثة، 1999 م.

سادسا: كتب التاريخ والتراجم.

1- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، 2002م.
2- الخطط التوفيقية، علي باشا مبارك، المطبعة الأميرية، 1305 هـ.
3- تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1998م.
4- رحلة ابن بطوطة = تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، محمد بن عبد الله ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1417 هـ.
5- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعةالثالثة ، 1405 هـ / 1985 م.
6- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، حققه محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت.
7- الكامل في التاريخ – عز الدين ابن الأثير- تحقيق: عمر عبد السلام تدمري- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولى-1997م .
8- معجم البلدان – ياقوت الحموي- دار صادر- بيروت- الطبعة الثانية- 1995م.

9- مقدمة ابن خلدون، تحقيق: خليل شحاته، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ.

10- الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد-تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت. ط1/1990 م.

11- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، 1404 هـ، تحقيق بشار عواد معروف, شعيب الأرناؤوط, صالح مهدي عباس.

سابعا: كتب علم الكلام

1- أساس التقديس في علم الكلام، محمد بن عمر الرازي، مؤسسة الكتب الثَّقافية، بيروت، الطَّبعة الأولى- 1415هـ -1995م .

2- حاشية الشيخ حسن العطار على شرح المقولات لشيخه أحمد السجاعي، المطبعة العامرة، الشرقية، 1855م.

3- رسائل الجاحظ (الكلامية)، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، تقديم وشرح: د. علي بو ملحم، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، تاريخ الطبع: 2002 م.

4- متن الطحاوية، للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي المصري، مكتبة ابن حزم، الطبعة الأولى، 1995هـ

5- النبوات، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية – الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م .

ثامنا: كتب اللغة والمعاجم.

1- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله- تحقيق: محمد باسل عيون السود- الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – ط1/- 1998 م.

2- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى /1414 هـ.

3- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري- تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

4- التعريفات، الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1/1983م.

5- تهذيب اللغة، المؤلف: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، راجعه: محمد علي النجار، دار القومية العربية للطباعة، 1384هـ - 1964م.

6- حاشية الامير علي شرح الملوي علي السمرقندية، المطبعة العامرة الأ زهرية، 1308.

7- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ط4.

8- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة: ط1/1997م.

9- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1407 هـ - 1987م.

10- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426 هـ - 2005 م.

11- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم، تحقيق د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة الأولى - 1996م.

12- الكليات، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

13- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، الناشر: دار صادر، بيروت -الطبعة: الثالثة- 1414 هـ.

14- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، المحقق: محمد محي الدين عبد

الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، عام النشر:1420 هـ.

15- مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م

16- المزهر في علوم اللغة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.

17- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، المكتبة العلمية – بيروت.

18- اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، محمد علي السَّراج، دار الفكر، دمشق، الطبعة: الأولى، 1403 هـ - 1983 م.

19- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، 1407 هـ - 1987م.

20- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، ط1/1412هـ.

21- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر، الطبعة: 1399هـ - 1979م.

22- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي المحقق: فؤاد علي منصور - الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.

23- النهاية في غريب الحديث، مجد الدين بن الأثير- المكتبة العلمية- بيروت- 1979م.

تاسعا: كتب معاصرة.

1- البلاغة العربية: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني- ط.دار القلم الطبعة الأولى 1996م.

2- ذوق الحلاوة في بيان امتناع نسخ التلاوة، الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، 1981 م

3- الصواعق الشديدة على أهل الهيئة الجديدة للشيخ حمود بن عبد الله التويجري، ط1388 هـ.

4- مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثانية 1421هـ.

5- مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي،ط5/1993م.

6- المبادئ العامة في القرآن الكريم د.مصطفى عبد الكريم- ط.دار المقطم، الطبعة الأولى.

7- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، تأليف: محمد بن عبد الله دراز- اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية- قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني- دار القلم- 2005م.

8- النسخ بين النفي والإثبات، د.محمد محمود فرغلي ، ط.دار الكتاب الجامعي 1976 م.

9- نظرات في القرآن الكريم، المؤلف: محمد الغزالي، الناشر: دار نهضة مصر، ط6/2006م.

عاشرًا: أخرى

1- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الجيل ، سنة النشر: 1416هـ - 1996م، لبنان، بيروت.

2- الشفا بتعريف حقوق المصطفى مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء ، المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى،الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: 1409 هـ - 1988 م.

3- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، عبد الحي الكتاني، المحقق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة 2، 1982.

4- المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري276هـ، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1992 م.

المحتويات